مكتبة

أوريانا فالاتشي

حوارات مع التاريخ والسلطة

بحثاً عن الحقائق الضائعة في العالم

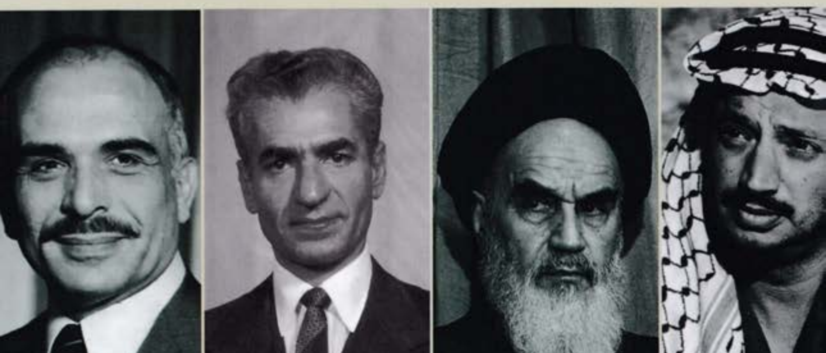

ترجمة وتقديم: علي عبد الأمير صالح

سطور للنشر والتوزيع

حوارات مع التأريخ والسُّلطة

بحثاً عن الحقائق الضائعة في العالم

أوريانا فالاتشي

ترجمة وتقديم: علي عبد الأمير صالح

حواراتٌ مع التأريخ والسُّلطة

بحثاً عن الحقائق الضائعة في العالم

أوريانا فالاتشي

ترجمة وتقديم: علي عبد الأمير صالح

Interviews with history and power

Oriana Fallaci :اسم المؤلفة

Rizzoli :دار النشر

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى- سنة 2021

ISBN: 978-9922-628-35-6

مكتبة

t.me/soramnqraa

سطور للنشر والتوزيع

دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد شارع المتنبي مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492567

Email: bal_alame@yahoo.com

SUMER

Printing, Publishing & Distribution

LUXEMBOURG 2-c Croulhomenhoos - L-3334 HELLANGE

+352 671531017

أوريانا فالاتشي

مكتبة ١٢١٠

telegram @soramnqraa

حواراتٌ مع التأريخِ والسُّلطة

بحثاً عن الحقائق الضائعة في العالم

ترجمة وتقديم:

علي عبد الأمير صالح

الإهداء

إلى أمي

توسكا فالاتشي

وإلى كلّ أولئك الذين لا يحبُّون السُّلطة.

المحتويات

مقدمة المترجم **9**
تقديم **23**
روبرت كيندي 35
ڤو نجوين جياب 55
هنري كيسنجر 69
غولدا مائير 97
ياسر عرفات 161
معمّر القذافي 181
محمد رضا پهلوي 283
آية الله خميني 325
أنديرا غاندي 477
أرييل شارون 521
دينغ شياوپنغ 563
الحسين بن طلال 617
ڤيلي برانت 639
الشخصيات التي حاورتها الكاتبة أوريانا فالاتشي 683
المترجم 689

مقدمة المترجم

مكتبة .. سر من قرأ

صادمةٌ، جريئةٌ، حادّةٌ، لاذعةٌ، ساخرةٌ، مُشاكسةٌ، مُستفِزَّةٌ، مُحرِّضةٌ، فظّةٌ، قاسيـةٌ، مُوجِعةٌ، خطيرةٌ، مُرعِبةٌ، بارعةٌ، ذكيـةٌ، كارثيّةٌ، فضوليّةٌ، مُتعِبـةٌ، نابعـةٌ عن فهـم عميق ودراية وتبـصر، غير حياديـة، بعيدةٌ عن المجاملة والانحياز والتزلّف: هكذا كانت الأسئلة التي وجهتها أوريانا فالاتشي، الكاتبة والصحافية والروائية الإيطالية، ذائعة الصيت، المُثيرة للجـدل، الحائزة على جوائز عـدّة في الصحافة وسواهـا، للشخصيات التي حاورتها في هذا الكتاب الذي ترجمناه بشغف وحميَّة. أسئلة مُربكة، مُحرِجة، لا تتم الإجابة عنها غالباً، أو يتم تحاشيها والتغاضي عنها، بحيث أنّ المحاوَر يطلب منها ألّا تناقش القضية المطروحة مُجدداً، والتوجُّه إلى أسئلـة أخـرى. هذه الإنسـانة الجريئة غطـت تقريباً كلّ الحـروب التي جرت في زمنها، وعلى مدى ثمانية أعوام، غطت حرب ڤيتنام، كما غطت الحرب الأهلية اللبنانية، وكتبت رواية عن هذه الحرب، وأخذت صوراً للأطفـال اللبنانين والفلسـطينيين الجرحى، الذين تقلّصوا إلى أشـلاء، جثـث ممزقة.بـترت القذائف أذرعَهم أو أقدامهـم أو أرجلهم. عايشت حصار بيروت العام 1982، هذا الحصار الذي لم يتحمله الشاعر خليل حاوي فأطلق النار على رأسه في منزله ببيروت. كان التعامل معها صعباً للغاية، وكان القادة والسـياسيون يهابونها، يحسبون حسابها، ويحاولون مراوغتهـا، وتفـادي الفخـاخ التـي تنصبها لهـم، وتحـاول إيقاعهم في شِباكها.. كانت تستجوبهم، تناقشهم، تناكفهم، تقسو عليهم، تُغيظهم،

تستفزُّهم، وغالباً ما تسخر منهم، وتدفعهم إلى شفير الهذيان، كما حصل عند لقائها بمُعمّر القذافي، حين قالت له: «هل تعتقد فعلاً أنّ كتابكَ الصغير سوف يغيّر العالم؟». أما هو فانفجر غاضباً، وراح يهذي قائلاً: «(الكتاب الأخضر) هو الإنجيل الجديد! إنجيل المستقبل، العصر الجديد! (الكتاب الأخضر) هو الكلمة! في البدء كانت هنالك الكلمة، هكذا تقول الأناجيل. (الكتاب الأخضر) هو الكلمة، كلمتي! كلمة من كتابي بوسعها أن تدمِّر العالم، بوسعها أن تجعل العالم ينفجر! كلمة من كتابي باستطاعتها أن تخلّص العالم وتبدِّل قيمة الأشياء. وزنها. حجمها. في كلّ مكان وعلى الدوام! لأنه أنا الإنجيل. أنا الإنجيل». وفي بعض الأحيان كانت تستدرجهم للإدلاء بآراء لم يكونوا ينوون الإدلاء بها؛ كما حصل في لقائها بهنري كيسنجر، إذ جعلته يقول إنه «راعي بقر»، أو حتى تدفعهم إلى إعطاء معلومات أو أرقام أو الإشارة إلى أحداث لم يكونوا يبتغون الكشف عنها. لم تكن تهاب هؤلاء الزعماء والشخصيات الذين تركوا بصماتهم في التاريخ المعاصر. كانت تجلس أمام كلّ واحد أو واحدة من هذه الشخصيات وتحاوره أو تحاورها، ناسية أنه ملك، أو رئيس وزراء، أو جنرال، إلخ.. كانت تتعامل معهم بوصفهم أفراداً عاديين، لا هُم أفضل منا ولا أسوأ. كانت تعرف أنها سوف تتلقى إجابات قاسية، أو مُراوِغة، أو فظة، من مثل أجابة أرييل شارون، حين قالت له إن الإسرائيليين لم يكونوا يحتاجون لاجتياح لبنان في 1982، بل كانوا لا يحتاجون إلا إلى انتخاب رئيس لبناني شاب ينتمي إلى (حزب الكتائب اللبنانية)، اسمه بشير الجميّل.

يرد عليها شارون: «أنتِ امرأة لطيفة جداً، وأُريد أن أكون مهذباً. لا أُريد أن أصيح، لا أُريد أن أصرخ، إلا من أجل حب الرب! لم يسبق لي أن سمعتُ افتراءً كهذا، شتائم كثيرة جداً! إنكِ تشوّهين سمعتي؛ إنكِ تكيلين لي الشتائم!». أو إجابة آية الله خميني، الذي كان يتهرّب من أسئلتها ويدّعي أنه مُرهَق. لكنها لا تتركه وشأنه، لأن أسئلتها لم تنتهِ بعد، وأنها يجب أن تستكمل الحوار في كلّ الأحوال، وبأيّ ثمن. رمت الحجاب أمامه، وتحدّت تقاليد (الجمهورية الإسلامية)، وطلبت البيرة في الفندق، ودافعت عن العاهرات الإيرانيات، والزناة، والكورد والشيوعيين الإيرانيين. لم تذهب لمقابلة أيّ واحد أو واحدة من هؤلاء من دون أن تتسلّح بمعلومات غزيرة، ووافية، عن تلك الشخصية، وعن البلد الذي تنتمي إليه، تحمل معها الصحف والوثائق كي تكون دليلاً على ما تطرحه من أسئلة شائكة ومُحرِجة؛ ولم تكن تتردد في طرح أيّ سؤال مهما كان، أيّ سؤال يخطر ببالها أو أعدّته مُسبقاً، مهما كلّف الثمن، ومهما كانت العواقب. تتابع كلّ شيء، وتستقصي كلّ شيء كي تدفعنا لأن نغيّر أفكارنا، وأن نفهم ماذا جرى في حقيقة الأمر. كانت الأسئلة تهجم عليها بعنف قبل أن تهجم بها على أولئك الذين حاورَتهم، كما تقول في تقديمها للكتاب. لم يكن يخطر ببالها أنها سوف تتعرض لعواقب وخيمة، من مثل الاحتجاز، أو التصفية الجسدية. وفي الحقيقة تنازلت فالاتشي كثيراً كي تُجري هذه المقابلات، تحمّلت الوعود الكاذبة، وانتظرت طويلاً، وغامرت حالها حال متسلّقي الجبال، لكنها في خاتمة المطاف زوّدتنا بمعلومات وبيانات مستفيضة، وآراء صريحة

وإجابات وافية من لدن الشخصيات التي وجهت إليها أسئلة جريئة وقاسية، بحيث أن بعضهم كان يتأفف من كثرة الأسئلة وعمقها ودقتها، وينزعج من طول اللقاء، ويتمنى أن ينتهي بأسرع وقت ممكن. لم تكن تطرح عليهم أسئلة باردة، تقليدية، مألوفة؛ بل كانت تحس أنّ القضية التي تناقشها هي قضيتها، وكان يتعين عليها أن تعبر عن رأيها، بحيث خرجت هذه الحوارات بوصفها وثائق معاصرة من تاريخنا المعاصر، كشفت فيها أفكار القادة السياسيين، ورجالات الدولة، والزعماء الدينيين والجنرالات؛ كشفت خلفياتهم الفكرية والسياسية، كشفت أحلامهم، ومبادراتهم، وأدوارهم التي غيّرت مجرى الأحداث في بلدانهم وفي العالم أيضاً. ظلّت تسافر من قارة إلى قارة، ركبت الطائرات، والسيارات، لا تحمل شيئاً باستثناء مُسجلتها وأداة التصوير العائدة لها. تحمّلت أعباءً كثيرة كي تحقق أهدافها: أن تساعدنا على تغيير إنطباعاتنا، وأفكارنا المُسبقة، أن تنوّرنا بعمق، أن تغيّر قناعاتنا التي تكلّست بفعل الكسل والتكرار والإعلام الفج، والخبيث، والتضليل، والتعمية، وكمّ الأفواه، ومصادرة الحريات، وحرمان المرء من حقوقه الإنسانية، ومنها الحق في الإطلاع والتزوّد بالمعلومات، والتعبير عن الرأي. فلطالما سمعنا بإغلاق الصحف، ومنع الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني ووضعها في القائمة السوداء، ومصادرة حق الشعوب في تقرير المصير، ومنها الحقوق القومية والدينية والإنسانية التي تنادي بها الأقليات العِرقية والدينية في هذا البلد أو ذلك..

وهؤلاء الأشخاص الذين حاورتهم فالاتشي كانوا يتوجَّسون خيفة

منها، بحيث إننا نشعر أنهم يحسبون حساب كلّ كلمة يقولونها، ويفكرون مليًّا في كلّ جواب يُدلون به. إنهم لا يثقون بالمراسلين الصحافيين، وغالباً يُخفون الحقائق، أو لعلهم يذكرون أنصاف الحقائق، ويخفقون دوماً في ذكر ما هو حقيقي، وما يجري فعلاً، أو التذرُّع بضيق الوقت، وكثرة الانشغالات، ويحاولون دوماً الدفاع عن أنفسهم ومشاريعهم ومنطلقاتهم الفكرية ومبادئهم السياسية، كما يسعون دوماً إلى عدم الاستفاضة في التفسير، لأن الصحفيين كما يقول هنري كيسنجر، يسألوننا هل إنّ المريض عليل. إنهم فضوليون، على الدوام، وينشدون دوماً استخلاص معلومة مثيرة، جديدة، كي يحققوا سَبقاً صحفيًّا، وكي يكتسب ذلك الصحفي أو تلك الصحفية شهرةً وانتشاراً، وكي تبيع الجريدة نسخاً أكثر من مطبوعها اليومي أو الأسبوعي. ولا غرابة أن يقول لها أرييل شارون: «لم يسبق لي أن سمعتُ افتراءً كهذا، شتائم كثيرة جداً. إنكِ تشوّهين سمعتي، إنكِ تكيلين لي الشتائم!». اعترف معمَّر القذافي وكذا آية الله خميني أنّ المواضيع التي تتناولها في أسئلتها مواضيع مُزعجة ومُتعبة، وكانوا يتمنون أن تسألهم عن مواضيع أخرى، وليست تلك التي تحرجهم فيها، وتستفزهم، بحيث أنهم غالباً ما يردُّون عليها بأجوبة قاسية، وهذا ما حصل حين ردّ عليها آية الله خميني لمّا سألته لماذا أجبر النساء على لبس العباءة والاختباء تحت ثوب غير مريح وسخيف بكل معنى الكلمة. قال لها: «هذا الأمر لا يعنيكِ. تقاليدنا لا صلة لها بكم أنتم (الغربيين)؟» وحينما تُكرِّر عليه السؤال، يُجيبها آية الله خميني: «قلتُ لكِ آنفاً إن هذا لا يعنيكِ. هذه هي عاداتنا،

قوانيننا، وهي عادات مُلزِمة، قوانين مُلزِمة». غير أنها كانت تستبقي هؤلاء الزعماء والقادة أطول مدة ممكنة، وغالباً تتوزَّع الحوارات على لقاءات عدّة، أو تبدأها من جديد، كما حصل في حوارها مع غولدا مائير.

زيادة على ذلك، لم تكن أوريانا فالاتشي تكتفي بتوجيه أسئلتها إلى أولئك الذين حاورتهم، بل كانت، أحياناً، تحلل شخصياتهم سايكولوجيًّا، تذكر شذرات من حياتهم اليومية، وغالباً تُعطي رأيها فيهم، لكنها تتساءل بتواضع: هل أنا مُخطئة؟ وفي مطلع حوارها مع غولدا مائير تكتب فالاتشي: «فكرتُ، إنه لمن المؤسف أن تكون غولدا في السلطة، إنه لمن المؤسف أن تكون إلى جانب أولئك الذين يحكمون. في امرأة كهذه، السلطة خطأٌ في الذوق».

والكاتبة، إضافة إلى ذلك، مع أن كتابها حمل عنوان «حوارات مع التاريخ والسلطة»، إلا إنها، في حقيقة الأمر، تسخر من السلطة، فهي بالنسبة لها مُضحكة، وتقول «قلةٌ قليلة هُم القادرون على أن يفهموا كم هي مُضحكة. حين يُمحِّصون الرعب الذي ترتكبه السلطة، المعاناة التي تفرضها، الدم الذي تتلوّث به، المؤرخون وعلماء السياسة ينسون دوماً أن يسلّطوا الضوء على الجوانب المضحكة للمِسخ الذي لا مَفرّ منه»، وتدعونا لأن نسخر من طغاة من مثل موسوليني، أو هتلر، أو القذافي أو سواهم، فهؤلاء، بصرف النظر عن كونهم أشراراً، وحتى لو كان أصحاب السلطة أشخاصاً مُبجَّلين، وهذا، على أية حال، شيءٌ نادر الحدوث، هُم أشخاص مُضحكون. وحتى غطرستهم فيما هم يسعون

إلى إقناعنا بأنهم أشـخاصٌ ممتازون ويستحقون أن يقودونا أو يُسيطروا علينا، هي غطرسة مُضحكة. إنها تسـخر من قَصّة شـعر هتلر المتكلّفة، ومـن شـاربه الشبيه بفرشـاة الأسنان الـذي بدا لها مثـل شريط جروح مُلصق تحت أنفه كي يُغطي خدشـاً ما. وتسـخر، أيضاً، من موسوليني الـذي يُبقي يديـه على وركيه مثـل غاسلة ملابس بالأجرة ذات جسـم مكتنـز، ويضع ريشـة في قبعته. تتسـاءل الكاتبة التي شـاهدت الزعيم الإيطالي إبّان طفولتها قائلة: «ما فائدة الريشة، هل لبسـها كي يتفحص الريح، أم بغرض مطاردة الذباب؟». إنها تسـخر من طريقة جلوسهم، وطريقة كلامهم؛ تسـخر من بذلاتهم النظاميـة المكوية وثيابهم الثمينة، حتى الأوسمة التي لا يسـتحقونها هي أوسمة مُضحكة، ومنها أوسمة الجنرالات السـوفييت. لا بل تسـخر حتى من التواضـع الزائف الذي يتبنّونه كي يُبرروا امتيازهم الموروث أو الذي حصلوا عليه بصعوبة هو تواضع مُضحك.

والحق يُقال، إن سخرية فالاتشي من الطغاة سخريةٌ لاذعةٌ، مريرةٌ، ولن ننسـى مـا قالته عنهـم، فـ«كم كـان موسوليني مُضحكـاً، بوجهه المتعجرف وصدره المنتفخ، وقدرته على قول أشـياء بلهاء»، و «كم كان هتلر مُضحكاً بعوائه الهسـتيري كلّما يستشيط غضباً أو يُخاطب الحشود في ساحـة ألكسـندربلاتز في برلـين». لا عجب، فـ«كلّـما يكون الرجل القوي شريراً أكثر، يُصبح مُضحكاً أكثر».

وهـي إلى ذلـك، تُدلي بآرائها في التاريخ، والثـورات التي تجري هنا وهنـاك، في الشرق والغرب. تكتب فالاتشي قائلةً: «وإذا لم نكن نعرف

أنّ المجانين والبهائم والأوغاد هم في الأعم الأغلب صنّاع مصيرنا، عندئذ ربما نُصاب بالصدمة إذا ما عرفنا أنّ هنالك كذبةً أخرى تختبئ في كلمة [ثورة]: الغالبية العظمى مما تُسمى «ثورات» هي «في الحقيقة لا شيءَ أكثر من انقلابات شديدة الغباء. لا شيءَ أكثر من عملية إمساك بالسلطة تقوم بها زمرةٌ صغيرةٌ من اللصوص ذوي البذلات النظامية يتحرّكون خلسة في الظلام مثل لصوص يسطون ليلاً».

ونحن متأكدون أنّ قراءنا الكرام لن يكونوا نفس القراء قبل قراءتهم هذا الكتاب العميق، لأن الكاتبة الإيطالية المُذهلة سوف تغيّر كثيراً من قناعاتنا ومُسلّماتنا، بعد أن تأخذنا في رحلة عميقة في دروب التاريخ المليء بالحوادث غير المتوَّقعة، ماضي العالم وحاضره ومستقبله القريب. في أغلب الحوارات الواردة في هذا الكتاب تناقش أوريانا فالاتشي قضايا (الثورة)، (الحرية)، (الديمقراطية)، (الاشتراكية)، (الدكتاتورية) (الفقر)، (الحجاب)، (الأميَّة)، (جنون العظمة)، (الحرب العالمية الثالثة)، (الدين)، (العمليات الفدائية)، التي تُنعَت، غالباً، بوصفها (عمليات إرهابية)، وسواها من الموضوعات التي يناقشها البشر في العالم أجمع؛ في (الشرق) و(الغرب) على السواء؛ في الدول الرأسمالية وغير الرأسمالية؛ في الدول ذات الغالبية المسيحية، والدول ذات الغالبية المسلمة؛ في الدول الغنية، والدول الفقيرة؛ في الدول ذات الأنظمة الديمقراطية، والدول ذات الأنظمة الاستبدادية.

على سبيل المثال، تقول فالاتشي: «إن إجلالنا لكلمة (الثورة) إجلالٌ كبيرٌ جدّاً، بحيث إننا لا نجرؤ على مناقشتها، دحضها، كشف

القناع عنها وبصقها من جديد في وجه الأشخاص المعتوهين والقساة الذين يستعملونها كي يُحسنوا مسيراتهم». وتضيف قائلة: «لا يهم ما إذا سفكت هذا الكلمة وتستمر في أن تسفك أنهاراً عقيمة من الدم في جميع أرجاء العالم؛ ذلك أنها دمرت وتستمر في أن تدمر الأشياء التي ينبغي أن تُحفَظ، انتصارات الحضارة؛ ذلك أنها أسست وتستمر في أن تؤسس أنظمة تعسفية هي عادةً أسوأ من تلك الأنظمة التي حلّت محلّها؛ ذلك أنها تُعتّم الوعي بالخوف وغسيل الدماغ. لا يهمّ. يبقى الهجوم العنيف على الباستيل حدثاً ينبغي تبجيله، يوماً ينبغي الاحتفاء به. كلمة (الثورة) كلمة مقدسة، إنّ مناقشتها هو محض تدنيس ليس إلا، إنها عقيدة أكثر حصانة من عُذرية السيدة مريم».

ولا تتردد فالاتشي أن تقول صراحة لهذه الشخصية أو تلك إنها شخصية مُستبدة، يخافها أبناء الشعب إلى درجة عدم التجرؤ بأن يُنطقوا باسمها، وإنهم يُحيطون أنفسهم بجيش من الرجال المسلّحين بغية توفير الحماية لهم. كما تصب جام غضبها على الأنظمة الاستبدادية، التي «لم تنتج شيئاً باستثناء الغباء والتحجر، إضعاف العقل، استئصال الأفكار، إزالة الأناقة والجمال، واستبدال الحضارة بالبربرية».

ومن الجدير بالقول إن أسئلة أوريانا فالاتشي، كانت تُربك المترجمين وتُغيظهم أيضاً، في كثير من الأحيان، حتى أن هؤلاء المترجمين كانوا يترددون مع كلّ عبارة، يستجمعون شجاعتهم قبل ترجمتها. كانوا يبذلون جهوداً بطولية كي يُترجموا كلماتها. وحين ينتهي الاستجواب، تلوح على وجه المترجم سيماء شخص أفلت توًّا من كارثة ما. حتى أن

أحدهـم كان لا يترجم بشكل دقيق كـي لا يُحرج الشخصية التي تنهال عليهـا الكاتبة بأسئلة متتالية، من دون انقطاع؛ أسئلة صعبة، مُسـتفزِّة، حادَّة كنصل السيف، مضّاءة كحَدِّ السكين؛ أو كي يُخفف وطأة الهجوم الضـاري عـلى سيّده.. في حوارهـا مع آية الله خميني، تكتب الصحافية الإيطالية الجريئة، أو لعلها أشـجع صحافية في العالم، قائلة: «كنتُ أريد ببسـاطة أن أُعطي الرجل المُسـنَّ حبلاً كي أدعه يشنق نفسـه به، وكنتُ أريد أن أفعل ذلك بلطف».

***

«نحن هنا كي نترك بصمات أصابعنا في الكون، وإلا ما هي فائدتنا»، هذا ما يقوله ستيـف جوبز، وهكذا كانت تفكر أوريانا فالاتشي، وهي تشـق رحلتها في عالم الصحافـة والكتابة. غير أنّ إرثها الذي نطَّلع عليه اليوم، ونغتني به، ونتمثَّله، كي نغيّر ما بدواخلنا، ونحافظ على ما تبقى مـن كرامتنا التي تحـاول أن تجرّدنا منها السـلطات السـياسية والدينية، وكـي لا نظـلّ مجرد قطيـع يتبع هذا الرئيـس أو ذاك الطاغيـة أو الفقيه، نعيـش كالحيوانات، لا نفكر إلا في إشـباع بطوننـا، والبحث عن مأوى ننام فيه، لا نكاد نرى شـيئاً، لا نكاد نسـمع شـيئاً، لا نكاد نفهم شـيئاً، وربـما لا نريـد أن نفهم، نقضي في هذا المـأوى البائس، أو الكوخ الحقير مـا تبقَّى مـن سنوات حياتنـا، نتوسَّد أحلامنـا المُجهَضـة، وآمالنا التي تهشمـت في الحروب، وأمانينا التي سحقتهـا أحذية الجنرالات الثقيلة، وشـوّهتها إملاءات السـلطة والقبيلـة والدين والعُـرف، وحرمتنا من المرح والموسيقى والجمال. نُريد أن نكون أحراراً، نمارس حياتنا الطبيعية

بعيداً عن ألاعيب السياسيين، ومكائد الجنرالات، وتعمية المُتاجرين بالعقيدة والفضيلة ووعود الذهاب إلى الجنة. هذا الإرث أثمر وحقق مُراده، وها نحن أولاء نطَّلع على أحد إنجازات الكاتبة الإيطالية منقطعة النظير، نقرأ كتابها بالعربية ونصفق لها استحساناً، ونخاطبها قائلين: طوبى لك، أوريانا فالاتشي.

وفي الختام، نقول: ما معنى الفن، ما معنى الأدب، ما معنى الكتابة، ما معنى الصحافة، إن لم تكن سلاحاً من أجل كشف الحقيقة، من أجل إماطة اللثام عن كلّ ما ظل مُخبَّئاً وراء الإعلام الفارغ، والدعاية المُغرِضة، والافتراءات الكاذبة، والأساطير المُضلِّلة، وروايات التاريخ الذي يكتبه، دوماً، المنتصرون؛ ما نفع الكتابة إن لم تجعلنا نسترجع أحلامنا المسروقة، وآمالنا المشروعة في تحوّلات التاريخ القاسي؛ ما معنى الكتابة إن لم تقرّبنا، ولو قليلاً، من مدننا الفاضلة؟ ما معنى الكتابة إن لم تبطِّئ الزمن الذي يُعجِّل بتدمير كلِّ شيء خلال مروره؛ ما معنى الكتابة إن لم تشق الأمواج العاتية للحياة، الحياة المعاصرة التي مزقتها، وتمزقها، وستظل تمزقها التناقضات الفكرية، والفلسفية، والروحية المعقدة؛ ما معنى الكتابة إن لم تجعلنا نميّز الحقيقي من الزائف، الأصيل من المُلفَّق، النبيل من الخسيس، البريء من الخبيث، بعد أن تحطمت سفنٌ ومراكب لا تُعَد ولا تُحصى خلال العواصف، وفقدنا معاً، الدفة والمجذاف، الشراع والبوصلة، ولم نعد نملك سوى العقل، الذي سيكون، حتماً، ربان سفينتنا؛ العقل هو الذي سيعيد، أخيراً، النشاط لمركبنا الفكري، والمعرفي، بعد كلّ هذه الأجواء القاسية،

والأعاصير، والسديم والدخان والسخام الذي بات يُغشي ويُعمي العقول قبل العيون، بعد أن سُرِقت الموارد والأحلام والأمنيات؛ بعد أن تلطَّخت ثوراتنا بالدماء، وسرق الجنرالات والطغاة أكاليل غار جنودنا المنتصرين؛ بعد أن تهشمت المزهريات وتناثر البلّور على فساتين خطيباتنا المُزهِرة، وسقط كلس السقوف في كؤوس أنخابنا؛ بعد أن شوّهوا أعيادنا، ومهرجاناتنا، وطقوسنا، وأعراسنا؛ بعد أن حوّلوا مباهجنا إلى مآسٍ؛ بعد أن جعلوا الجراد يغزو حقولنا؛ بعد أن بتنا نلتفت، نلتفت يمنة يسرة، خوفاً من أن تظهر لنا الثعابين، وفئران الحقول، والصقور التي ظلّت تنهش جثث جنودنا في الأرض الحرام، ها نحن نعلن، نعلن جهاراً، أنّ الموت لم يعد أقوى الأقوياء، وأنّ الحياة، حياتنا جميعاً، غير قابلة للموت. وأنّ النصر آتٍ، لا محالة، حتى لو جاء متأخراً، وأنّ أجمل أيام العمر سوف تشرق قريباً، إذا أجرينا تعديلاً طفيفاً على بيت شعر ناظم حكمت، وسوف يذهب أولادنا آمنين إلى مدارسهم بالحافلات الملوّنة، لا يهددهم إرهابي، ولا يعترض سبيلهم شرطي أو حاجز مروري، وسوف تُقرع أجراس الكنائس، ويعلو صوت المؤذن صادحاً على الرغم من كلّ شيء، وتغرّد الطيور، مجدداً، بعد زوال دخان الحروب. وسوف تشرق الشمس ثانيةً، وسوف نطلّ مرة ثانية من شبابيكنا، وشرفاتنا المفتوحة، على الحقول والمروج، التي عبرتها، في سالف الزمان، جيوش الغزاة والمحتلين؛ نقف مبتهجين في الشرفات المفتوحة، متشبثين بالأمل والجمال فيما نحن نتشبث بالدرابزين بقوة، متطلّعين إلى الأفق بعيونٍ مفتوحة على وسعها،

منتصرين على الكراهية والقتل والتعصب وضيق الأفق والتمييز العِرقي والديني والجندري، والنزاعات السياسية، منتزعين الحرية من بين مخالب المحتلين والقامعين بكلّ صنوفهم، نكسر أبواب المعتقلات الموصدة، ونحطم قيود السجانين، أفئدتنا طافحةٌ بالسعادة والصداقة والإخلاص وحب الآخرين. التجارب الصعبة كانت هي أمتيازنا على الدوام؛ سلسلة التجارب القاسية هي التي شكّلتنا، هي التي جعلتنا ما نحن عليه الآن. ستظل عقولنا وشبابيكنا مفتوحة دوماً، لأن العالم لا يني يتغير، من دون إنقطاع.

أصدقائي، أحبتي، قرائي الأعزاء: لِمَ لا نقول الحقيقة مرةً وإلى الأبد، من دون أن نبالي بردود أفعال الآخرين؟ وحتى إذا أثارت هذه الحقيقة جدالاً، فهذا أفضل، لأن حياتنا ستظل، من دون الجدال والنقاش والخصام، حياةً تافهةً ومملةً وسخيفةً.

تقديم

هذا الكتاب لا يدّعي بأن يكون أيّ شيء باستثناء ما هو عليه: أعني أن يكون شاهداً مباشراً على ثلاث عشرة شخصية سياسية من التاريخ المعاصر. هذا الكتاب لا يريد أن يَعِد بشيء أكثر مما يدّعيه، أعني أن يكون وثيقةً تتمدد من دون نظام بين الصحافة والتاريخ. مع ذلك لا يريد كتابنا هذا أن يُعَدَّ مجموعةً بسيطة من الحوارات لدارسي السلطة والسلطة المضادة. أنا نفسي لا أشعر أني هكذا، ولن أنجح أبداً في أن أشعر أني بهذا الشكل، مُسجِلة باردة لما أراه وأسمعه. في كلّ تجربة احترافية أتركُ آثاراً من فؤادي وروحي؛ وأشترك في ما أراه أو أسمعه كما لو أنّ القضية تُهمني شخصيًّا وهي القضية التي يتعين عليّ أن أعبّر فيها عن رأيي (في حقيقة الأمر أنا أعبّر عن رأيي على الدوام، استناداً إلى خيارٍ أخلاقيٍّ معيّنٍ). لذلك لم أذهب إلى هذه الشخصيات الثلاث عشرة بتجرّد عالِمِ تشريحٍ أو مراسلٍ صحافيٍّ رابطِ الجأش. مضيتُ بألف إحساس من الغضب الشديد، بألف سؤال، بحيث أنها (أي الأسئلة) قبل أن تهجم عليهم بعنف هجمت عليّ، وعلى أمل أن أفهم بأيّ طريقة، من خلال كونهم في السلطة أو كونهم مُعارضين لها [1]،

---

(1) استثنينا في هذا الكتاب حواراً مع ليخ فاونسا (بالبولندية Lech Wałęsa) رئيس نقابة (تضامن) البولندية (1980 – 1990)، كانت المؤلفة قد أجرته في دانزك، بولندا، العام 1981، في أوج نشاط نقابة (تضامن)؛ قبل تبوُّئه منصب رئيس الجمهورية (1990 – 1995). ساهم فاونسا في تحوّل بولندا إلى النظام الديمقراطي الرأسمالي، بعد انهيار الشيوعية. حاز فاونسا جائزة نوبل للسلام العام 1983 – م.

هؤلاء الأشـخاص يحددون مصيرنا. على سبيل المثـال: هل إنّ التاريخ يصنعـه الجميع أو لا يصنعه إلا أشـخاص قليلـون؟ هل يعتمد التاريخ على قوانين كونية أو على أفراد قليلين ولا شيءَ آخر؟

إنهـا مُعضلـةٌ قديمة، أعـرف، لم يتمكن أحد من حلّهـا ولن يحلّها أحـد مطلقاً. كما أنها كذلك فخٌ قديم من الخطير جداً أن يقع فيه المرء، بما أنّ أيّ جواب يحملُ في طيَّاته نقيضَه الخاص. وإنها ليسـت مصادفة أنّ كثيرين حاولوا أن يتوصّلوا إلى تسـوية ويؤكـدوا بإيراد الحجج أنّ التاريـخ يصنعه الجميع ويصنعه القلّة، ذلـك أنّ هؤلاء القلّة يظهرون كقادة، لأنهم وُلدوا في اللحظة المناسبة وهم قادرون على تفسـير تلك اللحظـة. أغلـب الظـن. إلا أنّ أولئك الذين لا يخدعون أنفسـهم فيما يتصـل بالمأسـاة العبثية للحيـاة يُرشَـدون بالأحرى لأن يحـذوا حذو بليـز پاسكال[1] حين يقول إنه لو كـان أنف كليوپاترا أقصر لتغيرّ وجه العالم بأسره؛ بل كانوا يُرشَـدون بالأحرى كي يخافوا مما كان يخاف منه برتراند رُسل لمّا كتب قائلاً، «سكان العالم سواء عاشوا أو ماتوا المسألة تعتمـد على قرارات خروشـوف، ماو تسي تونغ والسـيد جون فوستر دولس[2]، لا على بشر اعتياديين مثلنا. إذا قالوا [موتوا] يتعين علينا أن

(1) بليز پاسكال Blaise Pascal (1623 – 1662): فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي اشـتهر بتجاربه على السـوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات. وهو مَن اخترع الآلة الحاسبة. استطاع پاسكال أن يسهم في إيجاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته الرسائل الريفية – م.

(2) جـون فوسـتر دولـس John Foster Dulles (1888 – 1959): سيـاسي أمريكـي (جمهـوري)، كان وزيـر خارجية الولايات المتحدة الأمريكيـة في عهد الرئيس دوايت

نموت. وإذا قالوا [عيشوا]، ينبغي لنا أن نعيش».[1] لا يسعني القول إنه مخطئ. باختصار، لا يُمكنني أن أستثني الفكرة القائلة إنّ حياتنا يقررها نفرٌ قليل من البشر، تقررُها أحلامُهم ونزواتُهم، مبادرتُهم ومشيئتُهم. أولئك القلّة من خلال الأفكار، الاكتشافات، الثورات، الحروب، أو بواسطة إيماءة بسيطة بكلّ معنى الكلمة قتل طاغية ما يغيرون مجرى الأحداث ومصير الأغلبية.

يقيناً أن هذه فرضيةٌ بغيضة. كما أنها فكرة مزعجة، لأنه في هذه الحال ماذا نغدو؟ قطعاناً عاجزةً بأيدي راعٍ نبيل تارة، وطوراً سيِّئ السمعة؟ مجرد أهداف في متناول اليد، أوراق شجر تذروها الرياح؟ وكي تُنكر هذا، ربما تعتنق بعض الفرضيات الماركسية حيث بموجبها كلُّ شيء يُحل بواسطة الصراع الطبقي: التاريخ يصنعه الشعوب من خلال الصراع الطبقي. إلا أنك سرعان ما تُدرك أنّ الواقع اليومي يُكذّب أولئك الماركسيين، وفي الحال تعترض قائلاً إنه من دون ماركس الماركسية ما كانت لتُوجد (لا أحدَ يستطيع أن يبرهن على أنه لو لم يُولد ماركس أو لو لم يُكتب [رأس المال]، لكتبه جون ديوي[2] أو شخص

أيزنهاور من العام 1953 حتى 1959. كان دولس شخصية مهمة في أوائل الحرب الباردة، واتخذ موقفاً عدائيًّا ضد الشيوعية في جميع أنحاء العالم – م.

(1) برتراند رُسل، «بورتريهات من الذاكرة ومقالات أخرى» (لندن، جورج ألِن وآنوِن، 1956) – هامش الكاتبة.

(2) جون ديوي John Dewey (1859 - 1952): مربٍ وفيلسوف وعالم نفس أمريكي وزعيم من زعماء الفلسفة البراغماتية. ويعدُّ من أوائل المؤسسين لها. ويقال إنه هو من أطال عمر هذه الفلسفة واستطاع أن يستخدم بلياقة كلمتين قريبتين من

مجهـول لا يُمكـن الكشـف عن اسمه كـما في محضر الجلسـة القانونية). وبعـد أن تضعـف عزيمتـك، تسـتنتج أنّ أولئـك الأشـخاص الذيـن يقومـون بانعطافة ما دون سواها هم نفرٌ قليلون، وأولئك الأشـخاص الذيـن يجعلوننا نسـلك طريقاً ما دون سـواه هم نفرٌ قليلـون، وأولئك الذيـن يقدّمـون أفكاراً، اكتشافـاتٍ، ثوراتٍ، حروبـاً، ويقتلون الطغاة هـم قلّة. وفيـما تشعر أنك مُثبط الهمة أكثر، تسـأُل ما هو شـكل هؤلاء القلّة: هل هم أذكى منّا، هل هـم أقوى، متنوّرون أكثر، مغامرون أكثر؟ أو إنهـم أفرادٌ حالُهم حالنا، لا هُم أحسـن ولا أسوأ، هم كائنات بشرية اعتيادية لا يستحقون غضبنا، إعجابنا، أو حَسَدنا؟

السـؤال يمتـد إلى الماضي، وحتـى إلى ماضٍ بعيـد لا نعرف عنه إلا مـا وصفـوه كي نتعلّمـه بإذعان في المدرسـة. مَن ذا الـذي يقول إنهم لم يعلّمونا الأكاذيب في المدرسة؟ مَن باستطاعته أن يُعطينا دليلاً لا جدالَ فيه على الإخلاص الحقيقي لإحشورس العظيم [1]، يوليوس قيصر، أو

الشعـب الأمريكي همـا «العلم» و «الديمقراطيـة». يُعَدّ جون ديوي من أشـهر أعلام التربية الحديثة على المسـتوى العالمي. ارتبط اسمه بفلسفة التربية؛ لأنه خاض في تحديد الغـرض من التعليم وأفاض في الحديث عن ربـط النظريات بالواقع من غير الخضوع للنظـام السـائد والتقاليـد الموروثـة مهـما كانـت عريقة. وهـو الأب الروحـي للتربية التقديمية أو التدريجية – م.

(1) إحشـورس الأول أو العظيـم Xerxes (519 – 460) ق. م: ملـك بـلاد فـارس (485 – 465 ق. م)، وهـو ابـن داريـوس الأول. أحد أشـهر ملوك فـارس الاخمينية، ورث العرش عن والده داريوس الأول وكسب شهرته كحاكم بسبب اهتمامه الشديد بالهندسة المعمارية. تعد بعض المعالم الأثرية التي أسست في عهده أحد أهم المعالم شهرةً في بلاد فارس. في العام 480 ق. م خسر الحرب أمام اليونان مما أضرّ بسـمعته كحاكم

سـپارتكوس؟ إننا نعرف كلّ شيء عن معاركهم، إلا أننا لا نعرف شيئاً عن بُعدهم الإنسـاني، عـن ضعفهم وأكاذيبهم، عـن تذبذبهم الفكري والأخلاقـي. ليس لدينا دليل كي نكشـف أنّ ڤيرسينغيتريكس [1] هو وغـد. وإننا حتى لا نعرف ما إذا كان يسـوع المسيح طويـلاً أم قصيراً، فاتح أم داكن البشرة، رجلاً مُتعلّماً أم بسيطاً، ما إذا مضى إلى السرير مع مريم المجدلية أم لا، ما إذا قال فعلاً الأشـياء التي أكَّدها متي، مرقس، لوقا ويوحنا [2]. آ، يا ليت لو أنّ شخصاً واحداً حاوره بمسجلة شريطية كي يقبض على صوته، آرائه، كلماته! آ، يا ليت لو أنّ شـخصاً واحداً لا غير دوَّنَ باختزال ما صرّحت به جان دارك[3] في محاكمتها قبل أن تمضي

قـوي، عـلى الرغم من أنه استطـاع أن يقضي على ثورة كلّ من مـصر وبابل، فقد خسر الحرب أمام اليونان مع العلم أنه احتل شمالها مدة وجيزة، وذلك في معارك سيلاميس وبلاتيا - م.

(1) ڤيرسينغيترويكـس Vercingetroix: ملـك ورئيس قبيلة أڤيـرني وحّد الغاليين في تمرد فاشـل ضد القوات الرومانية خلال الطور الأخـير من الحروب الغالية ليوليوس قيصر. على الرغم من أنه استسلم طواعية لقيصر، أُعدم في روما – م.

(2) متـي، مرقـس، لوقـا، ويوحنـا Matthew , Mark , Luke. John: هم من تلامذة أو حوارِيِّـي يسـوع المسيح (الأربعة عـشر)، وكلّ واحـد منهم كتب إنجيـلاً باسمه، ولهـذا تُطلـق عليهم تسـمية: «الإنجيليون الأربعـة» (بوسع القارئ الكريـم أن يتزوّد بمعلومات وافية عن هؤلاء الحواريين وأناجيلهم على النت) – م.

(3) جـان دارك Joan of Arc (1412 – 1431): ولـدت بمدينـة «دومريمـي» شـمال شرق فرنسا، وتوفيت في التاسعة عشرة من عمرها بمدينة «روان» في إقليم نورماندي شـمال البلاد بعد أن أحرقت قوات الاحتلال جسـدها حية واتهموها بالإلحاد. ترجع شـهرة جـان دارك إلى نجاحها في رفع حصـار قوات الاحتـلال الإنجليزية عن مدينة «أورليانـز» الفرنسـية العـام 1429؛ حيث استطاعـت جان دارك لقـاء الملك الفرنسي

إلى الإعـدام حرقـاً وهي مشدودة إلى خازوق! آ، يا ليت لو أنّ شـخصاً واحـداً لا غير استجوب كرومويل [1] ونابليون أمام كاميرا سينمائية! أنا لا أثق بالأخبار التي نتلقاها من كلمة منبعثة من الفم، ولا أثق بالتقارير المرسومـة في وقت متأخر جـداً ولا يُمكن إثباتها. تاريـخُ الأمس روايةٌ مليئـة بالأحـداث التـي لا يُمكننـي أن أتفحصها، وبالأحكـام التي لا يسعني أن أفنّدها.

ليـس تاريـخ يومنا هذا. لأن تاريـخ اليوم يُكتـب في اللحظة التي يحدثُ فيها بالذات. من الممكن أن يُصوّر فوتوغرافيًّا، يُصوّر سينمائيًّا، يُسـجل على شريط صوتي في حوارات مع الأشـخاص القليلين الذين يسـيطرون على العالم أو يغيّرون مسـاره. بالإمكان نقله على الفور عبر الصحافة، الراديـو، التليفزيون. بالإمكان تفسـيره، مناقشته بحرارة. لهذا السبب أحب الصحافة. لهذا السبب أخاف الصحافة. ما هي المهنة

«شارل السابع» بمدينة «شينون» وأقنعته بالمهمة العسكرية التي نذرت نفسها لها وهي تخليـص أورليانز من براثـن الإنجليز. وتقدمت جان التي كانت تبلـغ حينها 13 عاماً عـلى رأس جيش صغير وتمكنت من الانتصار في معركـة بمدينة «باتاي» وطرد جيش الاحتلال مـن أورليانز. وعرفت جان دارك منذ ذلك الحين باسم «لاپوسل دورليانز» La Pucelle d'Orleans «أي «عذراء أورليانز»- م.

(1) أوليـڤر كرومويـل Oliver Cromwell (1599 - 1658): سيـاسي ورجـل دولـة إنكليزي، قاد قوات البرلمان المسـلحة إلى النصر في الحرب الأهلية في أربعينيات القرن السابع عشر، وحكم إنكلترا من سنة 1653-1658، وهو صاحب إرادة قوية وعبقرية عسكرية. قال عنه كارل ماركس «إن كرومويل مثّل في الثورة الإنكليزية دور روبسبير في الثورة الفرنسية، إضافة إلى دور نابليون أيضاً»- م.

الأخـرى التي تُتيح لك أن تكتـب التاريخ في اللحظة التي يحدث فيها بالذات وأن تكون أيضاً شـاهده المباشر؟ إنّ الصحافة امتياز استثنائي ورهيب. وإنه ليس بالمصادفة، إذا كنت واعياً بها، أن تسـتهلكك بمائة إحساس بالنقص. وإنه ليس بالمصادفة، حين أجدُ نفسي أجرّب واقعة مـا أو لقـاءً مهمًّا، أن تُسـيطر عليّ كالكرب، كالخوف مـن أني لا أملك عينـين كافيتين وأذنين كافيتين وقـدرات عقلية كافية كي أنظر وأسمع وأفهـم مثل حشرة مختبئـة في خشب التاريخ. أنـا لا أُبالغ، كما تعرف، إذا ما قلتُ إنه في كلّ تجربة مهنية أتركُ شيئاً من روحي. وإنه ليس من الهيّن بالنسـبة لي أن أخاطبكَ قائلةً، أوه، تعال الآن، ما من حاجة لأن تكون هـيرودوت؛ بنحو أفضل أو أسوأ سوف تسـاهم بحجر صغير كي تسـاعد في تشكيل الفسيفسـاء؛ سـوف تزوّد المعلومـات التي من شـأنها أن تسـاعد الناس كي تجعلهم يفكرون. وإذا ما ارتكبتَ خطأً، لا تبالِ.

إنّ الكتـاب الحـالي وُلد بهـذه الطريقة، على مدى الأعـوام الثمانية عشر التي أجريـتُ فيها الحوارات الثلاثة عشر لصالح جريدتي «L' Europeo». من أجل الأهداف التي أسطرها هنا، باختصار، دخلتُ بهذه الروح: في كلّ مرة أفتش، بالإضافة إلى المعلومات، عن جواب على السؤال المتعلّق بالكيفيـة التي يختلفون بها عنا. وكي أتمكن من اللقاء بهم كانت في كثير مـن الأحيان مهمةً شـاقةً. كان طلبي في تحديد موعد للقـاء يُقابَل دوماً تقريبـاً بالصمـت البارد أو بالرفض (الأشـخاص الثلاثـة عشر في هذا

الكتاب ليسوا الوحيدين الذين حاولتُ اللقاء بهم)، وإذا ما أجابوا فيما بعد بـ «نعم»، كان يتعين عليّ أن أنتظرهم شهوراً كي يمنحوني ساعة أو نصف ساعة.

حين أتمكن أخيراً من أن أكون في حضرتهم، يجب عليّ أن أجهد نفسي كي أستبقيهم مدةً أطول من ساعة أو من نصف ساعة. وما أن أكون هناك، على أية حال، حتى يُصبح اللقاء مباراة من أجل الوصول إلى الحقيقة واكتشاف أنه حتى المعيار الانتقائي لم يُبرر سلطتهم. إن أولئك الأشخاص الذين يحددون مصيرنا ليسوا في حقيقة الأمر أفضل منا؛ لا هم أذكى منا ولا أقوى ولا متنوّرون أكثر منا. هم، بالأحرى، مغامرون أكثر، طموحون أكثر. في حالات نادرة جداً كان لديّ اليقين في أن أجد نفسي وجهاً لوجه مع فرد وُلد كي يقودنا أو يجعلنا نسلك طريقاً ما دون سواه. غير أنّ هذه الحالات تضمنت أناساً لم يكونوا هم أنفسهم في السلطة؛ في الواقع كانوا يحاربونها، يحاربونها مع أنهم يعرفون أنّ ثمةَ خطراً يتهدد حياتهم [1]. أما أولئك الذين أحببتُهم أو أنهم سحروني بشكل من الأشكال، فقد أزفت اللحظة كي أعترف أنّ عقلي ظلّ متكتِّماً وقلبي ظلّ ساخطاً. في أعماقي كنتُ أحس بالأسف؛

(1) حين حاورت أوريانا فالاتشي في العام 1981 ليخ فاونسا، زعيم نقابة (تضامن) البولندية، الذي قاد التحرّكات العمالية وإضراب عمال حوض السفن في (جدانسك)، في ثمانينيات القرن العشرين، كان بريجنيف يستعد لافتتاح المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في (الإتحاد السوفييتي)، الذي أكد فيه أنّ أعداء الإشتراكية في بولندا يُريدون القيام بثورة مضادة، مهددين أعمدة الدولة. وتذكر فالاتشي في بداية الحوار أنه كانت هنالك هدنة بين نقابة (تضامن) والحكومة طوال الأشهر الثلاثة السابقة للحوار – م.

لأنهم كانوا يجلسون في قمة الهَرَم. بما أني عاجزة على تصديقهم كما كنتُ أحب. لا يسعني أن أحكم عليهم بكونهم أبرياء. ناهيكَ عن كونهم رفاق سفر.

أغلب الظن لأني لا أفهم السلطة، الآلية التي بواسطتها يحس الرجال والنساء بأنفسهم بأنهم مخوّلون أو يُصبحون مُخوّلين بالحق في حُكم الآخرين والسيطرة عليهم ومعاقبتهم إن لم يمتثلوا. سواء أكان هذا يأتي من ملك مُستبِد أو من رئيس مُنتَخب، من جنرال مجرم أو قائد محبوب، أرى السلطة باعتبارها ظاهرة غير إنسانية أو كريهة. قد أكون مُخطئة، إلا أنّ الجنة الأرضية لم تنتهِ في اليوم الذي أخبر فيه الله آدم وحواء أنهما من الآن فصاعداً سوف يعملان بعرق جبينهما وينجبان الأطفال في حزن. هذه الجنة انتهت في اليوم الذي عرفا فيه أنّ لديهما سيِّداً حاول أن يمنعهما من تناول تفاحة، و، مُساقين إلى مكان آخر على تفاحة، وضعا نفسيهما على رأس قبيلة حيث مُنع عليهم تناول حتى لحم الخنزير. بطبيعة الحال، أن تعيش في مجموعة يتطلّب الأمر سلطة حاكمة؛ وإلا تسود الفوضى. غير أنّ الجانب التراجيدي جداً من الحالة البشرية يبدو لي أنه على وجه الدقة هو ذلك الجانب الذي يحتاج إلى سلطة كي تحكم، إلى رئيس. لا يستطيع المرء أن يعرف أين تبدأ سلطة الرئيس وأين تنتهي؛ الشيء المؤكد الوحيد هو أنك لا تستطيع أن تسيطر عليه وأنه يقتل حريتك. والأسوأ من ذلك: إنه البرهان الأكثر مرارة بأنّ الحرية المطلقة لا وجودَ لها، ولم تكن موجودة في أيّ وقت مضى، ولا يُمكن أن توجد. حتى إذا كان من الضروري أن تتصرّف كما

لو أنها موجودة وأن تفتش عنها. مهما كلّف الثمن.

أشعر أنه ينبغي لي أن أحذّر القارئ إلى أيّ مدى أنا مقتنعة بهذا الأمر، وكذلك أنّ التفاحات وُلِدت كي تُلتقط، وأنّ اللحم يُمكن تناوله حتى في يوم الجمعة. والأكثر من ذلك يتعين عليّ أن أذكّر القارئ أو القارئة، أني بالدرجة ذاتها لا أفهم السلطة، لا أفهم أولئك الذين يعارضون السلطة، الذين ينتقدون السلطة، الذين يتنافسون من أجل السلطة، بخاصة أولئك الذين يتمردون ضد السلطة المفروضة بالوحشية. كنتُ على الدوام أنظر إلى عدم الامتثال للمُستبِدِّ بوصفه السبيل الوحيد لاستعمال أعجوبة أنك مولود. كنتُ أنظر دوماً إلى صمت أولئك الذين لا يتفاعلون أو الذين يصفقّون فعلاً للموت الحقيقي لامرأة أو رجل. وأسمع: بالنسبة لي أنّ التمثال الأجمل للكرامة البشرية لا يزال هو التمثال الذي شاهدتُه على هضبة في پيلوپونيسس[1]. لم يكن تمثالًا، لم يكن راية، بل ثلاثة أحرف باليونانية تُفيد oxi: كلا. البشر المُتعطشون للحرية كتبوها وسط الأشجار إبان الاحتلال النازي الفاشي، وطوال ثلاثين عاماً تلك الـ «كلا» ظلت هناك، من دون أن تمحى بفعل الشمس أو المطر. وبعدها الكولونيلات محوها بضربة طلاء من ماء الكلس. إنما في الحال، بنحو سحري تقريباً، الشمس والمطر أذابا الكلس. وهكذا يوماً بعد يوم، الأحرف الثلاثة

(1) پيلوپونيسس Peloponnesus: شبه جزيرة ومنطقة جغرافية في جنوب اليونان. ترتبط بالجزء الوسطي من البلاد بواسطة الجسر الأرضي «برزخ كورنيث» الذي يفصل خليج كورنيث عن «البحر الإيجي» – م.

عاودت الظهور على السطح، مستعصية، مستقتلة، مُتعذراً محوُها.

في حقيقـة الأمـر، إذاً، هـذا الكتـاب لا يزعـم أن يكـون أيّ شيء باستثنـاء مـا هو عليه. إنه لا يريـد أن يَعِد بأيّ شيء أكثـر مما يدّعيه، أي بمعنى، إنه شهادةٌ مباشرة على ثلاث عشرة شخصية سياسية من تاريخنا المعاصر، كلّ واحد منهم، ذكراً كان أو أنثى، بمعناه الرمزي واصطفافه في تسلسـل رمزي. (لهذا السـبب، لا أرغب بأن أحدّث أيّ حوار، ولا حتـى الحـوارات القديمة، ولا أن أوسِّعها مجدداً، وبذلك أُفسـد قيمتها بوصفهـا وثائق بلورت اللحظات التـي سُجلت فيها. أردتُ أن أتركها سليمـة في أصالتهـا، مـن دون أن أقلـق عـلى الحقيقـة التـي مفادها أنّ غولـدا مائير لم تعد رئيسـة وزراء، وفيـلي برانت لم يعد مسـتشاراً.) إنما في أثناء قراءة هذا الكتاب، ينبغي لك أن تضع في بالك أنّ «كلا» تعاود الظهـور، مسـتعصيةً، مسـتقتلةً، مُتعـذِّراً محوُهـا، وسط الأشـجار على هضبةٍ في پيلوپونيسس.

أوريانا فالاتشي

روبرت كيندي

نيويورك، كانون الأول/ ديسمبر 1964

كـان موعد الحـوار في (فندق كارلايل)، وهو المكـان الذي يُقيم فيه حين يكون في نيويورك (يقع منزله في لونغ آيلند، وليس مانهاتن). فتح حارساه الشخصيان الباب لي: رجلان مُسلّحان كانا يتبعانه أينما يذهب، أحدهما أمامه والثاني خلفه في الشارع، واحد في كلّ جانب منه لمّا يكون في داخـل المبنـى، أيّ مبنى. حتى إذا كنتَ مجرّد صحافي، يجلسـان هناك وينظران إليك، مُحدّقين بانشداه، مرتابين، يبدوان متأهبين لإطلاق النار عليـك عند أدنى استفـزاز. سكرتير بارد وعدائي بالقدر نفسـه أبلغني أن السـيناتور قد مـضى إلى مكتب الطبيب كي يعتنـي بإصابة في الرُكبة وسـوف يتأخر نصف ساعة، غير أنه من غـير المُرجَّح أن نكون قادرين على تعويض الزمن الضائع: إنه عيد ميلاد جون جون ابن شـقيقه، ابن جـاك وجاكلـين وإذا تأخر السـيناتور عـن الحفلة، جـون جون سوف يبكـي. وبناءً على ذلك انتظـرتُ، وأنا أحس باستيائهـما الذي لم يتمكنا من إخفائه، في غرفة فندق بدت أشـبه بكنيسـة، صورٌ عائلية تغطي كلّ منضدة من المناضد كما لو كانت شموعاً تعبّدية. صور فوتوغرافية له مع أولاده، صور فوتوغرافية له مع شـقيقه تيـد، له ولشقيقه المتوفى. صور فوتوغرافيـة لشقيقـه المتوفى. أكبر الصور، في إطـار فضي، كانت صورة شقيقه المتوفى، والسيناتور مسّها مسًّا خفيفاً فيما هو يدخل الغرفة.

بـدا أصغـر من سنواته التسـع والثلاثين، إلا أنه كبير السـن أصلاً، أصغر حجماً من الآخرين، أعزل، حزيناً. كان رأسه مسحوباً إلى داخل كتفيـه، عيناه مثبتتان على رابطـة عنقه، تقدّمَ على استحيـاء، متردِّداً. إن مواجهة الناس تكلّفه ثمناً غالياً، وهي تضحية كانت مقروءة بنحو جليّ بالطريقـة التي كان يرفع فيها يده الممـدودة: فتشت يدُه عن يدي كما لو أنها كانت تتمنى ألا تجدها. ولمّا وجدتها، كانت مَسْـكَتُه غيرَ متحمِّسـة. التقـت عينـاه بعينيّ بنظـرة محدّقة بـاردة، ومتجهِّمـة، وتخضّب بحمرة الخجل حتى جذور شـعره الأشـقر، الذي تجمع في جهة اليسـار في لَفّة مرفوعـة إلى الأعلى، لَفّة كينـدي تلك. وفيما كنتُ أنظـر إليه، كان يشق عـليّ أن أقنع نفـسي بأنه سيكون، في كلّ الاحتمالات، رئيسـاً مسـتقبليًّا للولايات المتحدة، فضلاً عن كونه الرجل المحبوب جداً والمكروه جداً في أمريكا، كما حكم عليه بعضهم بكونه «متبّلداً، قاسياً، مُعجباً بنفسه، متعجرفاً، متهوِّراً، عديم الضمير، غريب الأطوار، لا يقبل الخسـارة»، فيما حكم عليه آخرون بكونه «جسوراً، حاسماً، مليئاً بالحيوية، متسرّعاً، تنافسـيًّا، عدوانيًّـا، فائزاً بالـولادة». وقبل كلّ شيء، بقيـتُ غير مقتنعة بالأوصـاف المختلفـة التي رسمهـا الآخرون له؛ تلـك الأوصاف التي صادفتُها.

أبوه: «من بين كلّ أولادي، بوبي [1] هو أكثر ابن يشبهني: إنه يعرف كيـف يكره مثلما أكـره. كان جاك قد تعـوّد أن يُقنع النـاس بأن يقوموا بالأشـياء، بوبي يـود أن يأمر الناس بـأن يقوموا بالأشـياء». أُمه: «بوبي

(1) بوبي Bobby: هو لقب روبرت كينـدي – م.

هو السابع من بين الأولاد التسعة، أربعة صبيان وخمس بنات. نشأ في ظل جو أكبر أولادي، وفي ظل جاك. كان على الدوام صحبة شقيقاته وصحبة تيد أصغر أولادي. كان أقصرهم وأكثرهم هزالاً؛ كنا نخشى تقريباً أن يكبر ليصبح فتاة صغيرة مُدلَّلة. أدركنا بسرعة أنه لا حاجةَ لأن نقلق على هذا الأمر، على العكس، في الواقع». شقيقته جين: «بوبي ما هو إلا بركان، حتى جاك لم يكن بركانيًّا. إلا إنّ جاك كان يقضي وقتاً طويلاً في أرض الشك، وهي أرض لم يستكشفها بوبي فعلاً. كان شعار بوبي هو [التنافس والنصر]». زوجته، إيثيل: «عالمه مقسّم على فرسان بيض وفرسان سود. الفرسان البيض معنا، الفرسان السود ضدنا. بوبي لا يرى سوى الصالح والطالح، الأشياء الجيدة والأشياء الرديئة. الأشياء الجيدة بالنسبة له هي الرجولة، الشجاعة الحركة، الغضب. لم يكن لديه صبر مع الضعفاء والشكاكين». هو نفسه، مواجهاً قاطع طريق يُدعى جو غالو: «إنكَ تحسب أنك فتى قوي، لكنكَ لستَ فتىً قويًّا. أود أن أخطو خارجاً وأبرهن لك ذلك». هو نفسه في مواجهة مجموعة من نوّاب البرلمان: «إنكم حفنةٌ من البغايا».

نكده الصامت واحمراره المُحتشم جعل أوصافاً قليلة أخرى تبدو مُقنعة أكثر: كيندي باعتباره سافونارولا [1] بجوارب الركبة، رجل ناضج في بذلة كشاف»، رجل مُغرم بآيس كريم الشوكولا مع شراب الشوكولا، كانت لديه عادة أن يردَّ باستمرار كرة مطاطية صغيرة،

(1) جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola (1452 - 1498): راهب ومُصلح وشهيد إيطالي - م.

رجلٌ بكلّ أناقة غلام مذبح الكنيسة، مليونير، كان يحس بنحو مبهم أنه مذنب فيما يتصل بتلك النقود كلّها. رجل يشعر بحب قوي، مُتشدد تجاه أفراد أسرته، تجاه أولاده الثمانية (مع التاسع في الطريق)، وتجاه زوجته إيثيل. إيثيل، المرأة المبتهجة، غير المعقَّدة التي قالت مرةً: «فسّر كما تشاء: أنا مُغرمة بالأفلام السينمائية من مثل «جنوب المحيط الهادئ »[1]، بالمسرحيات من مثل «سيدتي الجميلة »[2]، بالكتب من مثل «الملك يجب أن يموت »[3]... لم يسبق لنا أن أحسسنا بالارتياح مع المثقفين والموسيقى غير المفهومة. «إيثيل، التي تعترف بحرية، «قابلتُ بوب وهو يتزلج. كنتُ واحدة من صديقات مدرسة جين. أنا وبوب تواعدنا على مدى أسابيع قلائل ومن ثم أحبّ شقيقتي، پات. بعد مضي عامين

---

(1) جنوب المحيط الهادئ South Pacific: فيلم رومانسي موسيقي، أُنتج العام 1958. أخرجه جوشوا لوغان، ومن نجومية روزانا برازي، ميتزي غاينور، جون كير وري والستون بأدوار رئيسة مع جوانيتا هال، التي أدت دور «بلودي ماري»، وهو الدور الذي أدته على خشبة المسرح. ترشح الفيلم لثلاث جوائز أوسكار، نال جائزة أفضل صوت – م.

(2) سيدتي الجميلة My fair lady: مسرحية موسيقية قُدّمت العام 1956، على مسارح برودوي ولندن، وحققت نجاحاً جماهيريًا ونقديًا كبيراً. وهي مقتبسة من مسرحية برناردشو المعنونة «بجماليون»، العام 1913. من بطولة ركس هاريسون وجولي أندروز. تدور القصة حول إليزا دوليتل، بائعة زهور بسيطة من كوكني التي تتلقّى دروساً في الخطابة على يد البروفيسور هنري هيگنز، وهو عالم صوتيات، كي تصبح سيدة من الطبقة الراقية – م.

(3) الملك يجب أن يموت The king must die: رواية تاريخية من تأليف ماري رينولت، صدرت العام 1958. تتعقب الرواية الحياة المبكرة لثيسيوس، وهو بطل في الميثولوجيا اليونانية – م.

تزوجت پات من معمار أيرلندي ورجع بوبي إليّ، حمداً لله».

عـداوة مُتـورِّدة خجـلاً: ألم يسـبق لي أن شـاهدتُه بهـذه الصـورة تحديـداً قبل شـهر من الآن، حين كنـتُ أُغطي انتخابـات نيويورك؟ ألم يظهـر صلداً، وقـوراً، ومهذباً، فيما هو يتحـدّث إلى الجماهير، كما لو أنه يكـرر شـيئاً كان حفظه سَلَفـاً عن ظهر قلب؟ كانت عينـاه خاليتين من التجاعيـد وكـان سرواله مكويًّـا بنحو مثالي، وكان يسـمح لنفسـه أن يبتسـم في حـالات نادرة جـداً بحيـث أنّ أدنى حركة من شـفتيه تطلقُ عاصفـة خاطفـة مـن أضـواء الكامـيرات. كان نـادراً ما يرفـع صوته، بحيـث أن الجمهـور كان يرتجّ لـدى أيّ تغيير في نـبرة الصوت. أتذكر أني فكرتُ أنه كان يشبه شـقيقه جسـديًّا، إنما جسديًّا فقط. ومن ثم رفع رأسه، جفنيه، وتلاشى احمرار وجهه: كان من الواضح أنه يشبه شقيقه في أكثـر من سبيل واحد. كان وجهـه المتجعد، الرجولي، يمتلك الطاقة عينها. كانت أسنانه البيض الأمامية العليا البارزة تمتلك الطبيعة المُعدية نفسـها. عيناه الزرقاوان، الحاقدتان تمتلكان القوة ذاتها: إنهما تنظران في عقلـك مباشرة، وبغتة تفهم لماذا أتـى الجميع إلى هنا، تجمهر هارلم هذا، وكان أحدهم يسحق الآخر كي يشاهدوه، كي يسمعوه؛ إنكَ تفهم لماذا كانت» وزارة العدل «تخشاه؛ تفهم لماذا ينجذب إليه الرجال، والنساء لا يسـتطعن مقاومته، حتى إذا كان يفتقر إلى الدفـء، القدرة على التصرف بشكل سليم، البلاغة.

هـذا لأنه مـن أسرة كينيدي، من شـعره الأشـقر الأجعد إلى أخمص قدميـه، وكـان هنالـك شيءٌ مـا في أولئـك الكينديـين اللذيـن تتجاوز

جاذبيتهما الجنسية، ثروتهما، اسمهما الساحر: القدرة على الفوز، دوماً، مهما كان الثمن. على الرغم من الكراهية، السلالة السيئة، اللعنة التي تلازمهم مثل نوع معين من التراجيديا اليونانية. على الرغم من الوفيات، حوادث القتل، المرض، حوادث تحطم الطائرات. لأنه ربما يكون الأكثر كينديي من بين سائر الكينديين. يقولون إنه لا يريد أن يحلّ في المرتبة الثانية، إنه لا يكف عن ترقية نفسه، وإنه يمقت الهزيمة بشدة، ويفعل كلّ شيء بشكل جيد، سواء أكان كرة السلّة أم التنس، أو الغولف؛ سواء أكان السياسة، تأليف الكتب، أم أن يُنجب أبناءً.

ثمة شيء واحد مؤكد: أنا لم أقابل شخصاً خجولاً قادراً على أن يُخوّف شخصاً واثقاً من نفسه مثلما يفعل روبرت كيندي. لستُ خجولة. وعلى الرغم من ذلك، هُزمتُ حالاً في وجه إستراتيجيته: أن يقول أكثر ما يُمكن من خلال قول أقل ما يُمكن، من دون أن يكشف نفسه، من دون أن يعترف بأيّ شيء، من دون أن يترجَّل من قاعدة احتشامه ووقاره. ولهذا السبب كان يقول على الدوام «الرئيس كيندي» ولا يقول «شقيقي «على الإطلاق. كانت صياغاته موجزة، جافة، غير شخصية: كلّ جملة تحتوي على نقطة، مُغلقاً الموضوع الذي قيد النقاش إلى الأبد، من دون إدعاء بالعودة إليه لاحقاً. قلّما أجريتُ حواراً مُرهِقاً، وصعباً كهذا الحوار. في الدقائق الخمس والثلاثين التي أمضيتُها معه، الشيء الوحيد الذي كنتُ أريده فعلاً هو أن يصرفني. لم يكن فظًّا على الإطلاق: على العكس. كان كيّساً، صبوراً، ولطيفاً. لم يظهر عليه أنه منزعج، لم يرفض قط الإجابة عن سؤال ما حتى إذا كانت الأسئلة

قاسية جداً، مؤذية، طائشة. لكن كلّما مرّ وقتٌ أطول، ينغلق أكثر على نفسه، متحوّلاً إلى حجر على القاعدة الكئيبة، القاعدة الباردة تلك، من دون أن يُحرّك عضلة: رِجلاه متقاطعتان، يداه مطويّتان، صوته لا يتغيّر؛ ذلك الصوت أشبه بصفارة إنذار رتيبة، متقطعة؛ ذلك الصوت الذي لم يسمح لنفسه بأن يغدو وديًّا، موثوقاً به.

«هل هو دوماً بهذه الصورة؟» سألتُ حارسه الشخصي لمّا نهض لحظةً كي يرد على اتصال هاتفي. «أوه، نعم. دوماً. ألا تعرفين؟ كي تجعليه يتكلّم كما لو أنكِ تقلعين أسنانه. يتعين عليكِ أن تنتزعي كلّ كلمة بكمّاشة». كان سؤالي الأخير هو أرق الأسئلة كلّها: سألته ما إذا ثمة أيّ حقيقة في الشائعات التي مفادها أنّ بوب كيندي يسعى إلى الرئاسة في العام 1972. أجابني بوفاء ساحر وبنوع من الوضوح لم أسمعه يستعمله من قبل. وبعد ذلك رفع عينيه الخجولتين، العنيدتين، احمرَّ مرة أخرى، وتمتم قائلاً «هل يُمكنني أن أذهب الآن؟»

لو أنه تعقبني من الغرفة وهو يصرخ، ما كنتُ لأتحرّك بسرعة أشد. شكرتُه بعجالة، ألقيتُ عليه تحية الوداع، وأسرعتُ إلى المصعد الكهربائي. بمصادفة غريبة، فُتح بابا المصعد عند الطابق الأرضي كي يكشفا لي أكثر وجه صريح وودي في أمريكا: وجه هوبرت همفري، نائب رئيس الجمهورية. «مرحباً، سيد همفري! كيف حالك؟ تهانينا!» هتفتُ. لم يسبق لي أن قابلتُ همفري، ومن الواضح أنه لم تكن لديه فكرة عمَن أكون. أجابني بصفعة على كتفي، سألني من أيّ بلد أنا، تحدّث معي بإيجاز عن حسناوات إيطاليا، وشكرني. هذا اللقاء الأخير

الـذي جـرى بالمصادفة، جنبـاً إلى جنب مـع الحوار الـذي يتبع، يرسم وصفاً آخر لروبرت كينيدي.

***

أوريانـا فالاتـشي: ثمة عبـارة، سيناتـور، نقشها شـقيقك على علبة سجائـر سلّمهـا إليك قبل سنـوات خلت، تقول: «إلى بـوب. لمّا أنتهي أنـا، كيف سيكون حالك؟» كنتُ أفكر في هذه العبارة فيما كنتَ تناضل من أجل مقعدك في (مجلس الشيوخ) في تشرين الثاني/ نوفمبر، أنا أفكر فيها الآن وقد فزتَ بهذا المقعد، وأعرف أني لســتُ وحدي. ثمة سؤال يتبـادر إلى الذهـن: هل فكـرتَ فعلاً، هل تفكر دومـاً، أنك سوف تحلّ محلّه في يوم ما؟ بأنك سوف تُنتخَب، بطريقة أو بأخرى، بدلاً منه؟

روبـرت كينـدي: لا. لا، لم أفكـر في ذلك. أو بالأحـرى، لم أفكر في ذلك كثيراً، حينئذ. يقيناً لم أفكر في ذلك في صِباي، لمّا كنتُ أصغر سنًّا. في صِبـاي فكـرتُ فقط بـأني أحب العمـل في الحكومة، وتاليـاً، لمّا كان الرئيـس كينيدي على قيـد الحياة، عملتُ كثيراً معه، مـن أجله باعتباري مُدّعياً عاماً بحيث أنني حتى لم أفكر في احتمال أن أُنتخَب. أو بالأحرى، لم أفكـر في ذلـك كثيراً. بدأتُ أفكـر في ذلك كثيراً، حتـى بإصرار، بعد وفاته: كسـبيل لمواصلة ما بدأه، أو بالأحرى مـا بدأناه أنا وهو معاً. كما تعرفـين، ليس الرئيس حســب، إنـما كلّنا كنا منخرطين في مسـؤوليات معينـة، أحلام معينة. وكان يرغب بأن يرى هذه قد تحققت، أن ينجزها هـو. ومـن ثم بغتةً، فارق الحيـاة. وفجأةً قررتُ، فهمـتُ أنه يتعيَّن عليّ أن أراها قد تحققت. أن أنجزها. ولهذا رشـحتُ نفسي لمقعد في (مجلس

الشيـوخ) عن نيويورك. على أية حال، تلك العبـارة لا تعني فعلاً «خُذ مكـاني». كان قد نقشهـا بعد الحملـة الانتخابية مباشرة وكـان يريد أن يقول، بالأحرى، ماذا ستفعل لمّا أكون قد انتهيت... أنتَ كإنسان...

أ. ف.: يعتقد كثيرون أنّ الحافز الأخير الذي أقنعك بالترشُّح هو رفض جونسـون، الصيف الفائـت، أن يعدّك كمرشـح مُحتمل لمنصب نائـب الرئيس. والجميع يعرفون أنـكَ لا ترغب بأن تخسر؛ أنكَ أحسستَ بالأذى جرّاء ذلك الرفض.

ر. ك.: نعم. حين حدث ذلك... كان يتعين عليّ أن أفكر طويلاً وبنحو واقعـي، كي أقرر مـاذا أفعل بحياتي. هل يتعـين عليّ أن أواصل العمل في «السلطة التنفيذية»، هل يتعين عليّ أن أبقى في السياسة أو لا؟ كنـتُ أرغب البقاء في ميدان السـياسة، لكنني إذا تمكنتُ مـن البقـاء، كنتُ أريـد أن أُنتخَـب؛ في الأقل هذه المـرة. لذلك قررتُ أني أرغب أنه يجب أن أُنتخَب.

أ. ف.: حتـى عنـد معرفـة أنكَ لم تكـن محبوباً جـداً من لـدن الناخبين الأمريكـين. هـل تعـرف، سيناتور كينـدي، إلى أيّ مـدى قليل كانوا يُحبونك؟ أجدُ أن العداء الذي يحسـه الشعب تجاهك شيءٌ مُدهش نوعاً ما.

ر. ك.: نعـم. أوه، نعـم! نعم، أعـرف. أعرف جيداً جداً كـم هي قليلةٌ محبـة الشعب لي بحيث أنني حتـى لم أعد أندهش من هذا الأمر، لم أعـد أنزعج مـن هذا الأمر؛ حتـى لم أعد أُبـالي. على العكس،

أفهمُ لماذا يحس الشعب بهذه الطريقة: انخرطتُ بنحو مباشر في معارك كثيرة جداً، في نضالات كثيرة جداً. إنما يوجد هنالك أيضاً أشخاصٌ كثيرون جداً يُحبونني فعلاً: على أية حال، لقد انتخبوني، أليس كذلك؟ أشخاص مساكين من مثلي. زنوج وأشخاص من پورتو ريكو، على سبيل المثال. المُهمشون. إنهم معي، أعرف أنهم كذلك. والناس الذين فهموا الرئيس كيندي هم معي، الناس الذين فهموا إدارتنا خلال هاتين السنتين ونصف السنة. دُهشتُ إزاء كم كان عددهم كبيراً. لم أكن أعتقد أنهم سيكونون الأغلبية. لذا أيّ شخص آخر يستطيع القول ماذا يُريدون. أوه، أعرف ماذا يقولون عني.

أ. ف.: إنهم يقولون إنك قاسٍ، متعجرفٌ، غير مرن، مندفع، خدّاع... عديم الضمير.

ر. ك.: أجل. هذا ما يقولونه: عديم الضمير. ماذا تُريدينني أن أقول؟ لستُ مُحايداً فيما يتعلّق بهذا الموضوع، إني منحاز. إني أحمل الانحياز إنه ليس شيئاً حقيقيًّا. اليقين. إلا أنني لن أحلل ذاتي نفسانيًّا. هنالك كثيرٌ من الناس الآخرين ممَن يودون أن يفعلوا ذلك، يبدو أنّ الجميع يرغبون أن يحلّلوني نفسانيًّا، يحللون الكنديين نفسانيًّا. هل هو ملاك أو شيطان؟ قديس أو نمر بنغالي؟ أولئك الأشخاص الذين صوّتوا لي من الجلي أنهم لا يعتقدون أني شيطان.

أ. ف.: ومن ثم إنهم يقولون إنك استفدتَ من اسم شقيقك، وإنكَ

أُنتخبتَ بسبب ذلك. ومن ثم يقولون إنه أحد الكنديّيْن في (مجلس الشيوخ) تيد لم يكن كافياً بالنسبة لك، وإن عضويْ (مجلس الشيوخ) كيندي هما كثيران جداً.

ر. ك.: إنَّ كون شقيقي تيدي في (مجلس الشيوخ) يملؤني بالغبطة: لمّا اكتشفتُ أنه فاز، سعدتُ تقريباً بفوزه بقدر ما سعدتُ بفوزي. إني أحب تيدي حبًّا جمًّا. لم يسبق لي أن عملتُ مع تيدي بالقدر نفسه أو بالطريقة نفسها التي عملتُ بها مع الرئيس كيندي؛ إلا أننا مع ذلك لا نزال قريبين جداً أحدنا من الآخر. الأشقاء كيندي كانوا على الدوام قريبين أحدهم من الآخر. أسرتنا مُتحدة جداً، إنها أسرة حافلة بالحب، وباستطاعتي القول إنّ هذه العاطفة وهذه الوحدة هما أساس قوّتنا، أو في الأقل إحدى نقاط قواتنا. إن فكرة كون شقيقين يخدمان في (مجلس الشيوخ) لا تضايقني على الإطلاق. إنها ليست حادثة يومية، رائع، إلا أنها ليست من دون سابقة. إنها ثاني مرة تحدث في التاريخ الأمريكي، أول مرة قبل مائة وخمسين عاماً. إن انتخابي بسبب الرئيس كيندي، بطبيعة الحال، كوني شقيقه ساعدني إلى حدٍّ كبير. لا شك في ذلك. إن اسم كيندي هو عائق، إلا أنه في كثير من الأحيان، فرصة. إلا أنني لم أستثمر اسمه... لقد تذكرته، دوماً، بشكل مستمر. أليس تذكّره هو جزءاً من القضية التي أناضل من أجلها؟ ألستُ أناضل من أجل مواصلة ما كنا نفعله معاً؟

أ. ف.: وفضلاً عن ذلك إنهم يقولون... حسناً، إنهم يقولون إنك ترغب أن تصنع من أسرة كينيدي سلالة. مَلَكية. وكي يسندوا ذلك ولا أعرف ما إذا هو شيء صحيح يستشهدون بحادثة بالأخص: صورة فوتوغرافية يُقال إنك تملكها. إنها صورة ابنك ديڤيد في (البيت الأبيض) وفي خلفها يُقال إن جون كينيدي كتب «الرئيس المستقبلي للولايات المتحدة يتفحص...

ر. ك.: يتفحص ملكيته المستقبلية»[1]. هذا صحيح. تلك الصورة الفوتوغرافية موجودة فعلاً. إنها على مكتبي الآن تحديداً، وتلك العبارة مكتوبة على ظهرها. لكنني أقول حيال ذلك، قلتُ ذلك، «ذلك الأمر يُبرهن على وجود سلالة؟» ذلك؟ أيّ برهان؟ إنه لا يبرهن إلا على أنّ أغلب الناس لا يمتلكون حس الفكاهة. لا أحدَ يمتلك النزر اليسير من حس الفكاهة يرى عبارة كهذه باعتبارها تهديداً، خطراً. كلّ شخص يستنبط الاستنتاجات التي يريد أن يستنبطها: آل كينيدي لديهم حس الفكاهة، بوفرة. كما أنّ لديهم تذوّقاً للسياسة. حين تسأليني ما إذا أحبُّ رؤية ابني، أبنائي، في حقل السياسة، الجواب نعم، أحبُ ذلك. لن أرغمهم أو أؤثر فيهم، إلا أنني أحب ذلك. السياسة من الجائز أن تكون ضارة جداً، غير أنه توجد طرائق شتى كثيرة من الجائز أن تؤذيها الحياة. وبناءً على ذلك لماذا لا نُصَب بالأذى هنا؟

أ. ف.: ومع ذلك، كان لديّ الانطباع بأنّ هذه المسيرة تُرهق كاهلك،

---

(1) هنا يستكمل إدوارد كينيدي كلام أوريانا فالاتشي – م.

سيناتـور. لقد تابعتُك على مدى أيـام قلائل خلال حملة (مجلس الشيـوخ) وبـدا لي أنّ إظهـار نفسـك للشعـب، التحـدّث مـع الشعب، هو تضحية كبرى...

ر. ك.: أوه، لا! أحببتُ ذلك حبًّا جمًّا. باستطاعتي القول إنني تسـلّيت. في بعض الأحيـان، بالطبع، تُصبح القضية مُرهقة بعض الشيء، إنـما في الأعـم الأغلب إنها سعـادة غامرة. ربما يبـدو أنني لم أكن أحبهـا؛ لأنني لم أتعـوّد على أن أكون فرداً يحتـاج إلى أن يُنتخَب. فيـما مضى، لمّا تولّيـت إدارة حملة الرئيس كينـدي، كنتُ دوماً في الظلال، أعمل من أجله، في حين هذه المرة أنا أعمل لنفسي. إنما بوسعـي أن أقول إنني متعتُ نفسي هذه المرة أكثر بكثير من المرة الفائتة. تسـليتُ أكثر، وأنا أعمل لنفسي. كنـتُ فرحاً أكثر، لأنّه كان أصعب، أكثر...

أ. ف.: ... أكثـر خطـورة. بطبيعـة الحـال. كـان الحشـد يضغطـون من حولك كالملزمـة[1]، وأنتَ في الوسط، أعزل. كان شـيئاً مروّعاً، كنـتُ أخـاف عليك. سيناتـور، لو سمحـتَ لي أن أطرح عليكَ سؤالاً فظًّا بعـض الشيء: ألم تخف من أنهم سوف يقتلونك أنت أيضاً؟

ر. ك.: لا. أبـداً. لم أخـف من ذلك. كانوا يضغطـون عليّ من الجوانب كلّها باعتبارهم أصدقائي وصديقاتي، إنهم أصدقائي وصديقاتي

(1) الملزمة vice: أداة يستعملها النجار لكبس قطع الخشب؛ تُسمى بالدارجة العراقية «الفخة»– م.

بالفعل. لستُ خائفاً من ذلك. لا أحدَ يرغب بقتلي.

أ. ف.: على الرغم من ذلك، يتعين عليك أن تمضي هنا وهناك مع حارسيك الشخصيين.

ر. ك.: ليس لديّ حارسان شخصيان.

أ. ف.: ذلك الرجل الجالس هناك تحديداً هو حارسك الشخصي.

ر. ك.: لا. إنه صديق.

أ. ف.: كما تشاء، سيناتور. فيما يتعلّق بهذه النقطة عليّ أن أسألك شيئاً سألته نفسي مراراً: ما إذا حصل أن أُغويتَ كي تتخلّى عن كلّ شيء. إنكَ واسع الثراء، سيناتور، وإنّ بوسعك أن تعيش في سلام مع ملايينك. لا بدَّ أنّ هنالك لحظات حين تفكر كم سيكون مريحاً أن تسترخي فقط وتستمتع بالشمس، أن تأخذ طائرة متجهة إلى، لا أعرف، أكاپولكو[1]. لماذا، بدلًا من ذلك... لماذا؟

ر. ك.: من الصعب أن أقول السبب. أخشى أن ألجأ إلى البلاغة. وأنا لا أود التحدّث عن نفسي. لم أتعوّد على ذلك، لا أحب، لا أرغب. كلّ هذه المقالات التي جلبتِها معكِ، على سبيل المثال: لم يسبق لي أن اشتركت فيها. حين أطرح الأسئلة على نفسي، لا

---

(1) أكاپولكو Acapulco: ميناء ومنتجع في جنوب غرب المكسيك، في ولاية غوريرو، تعداد سكانه نحو ثلاثة أرباع المليون بحسب تعداد 2005. اسمه الرسمي: أكاپولكو دي خواريز – م.

أعرف الأجوبة. على سبيل المثال، إنهم يقولون إنني أكثر الجميع شبهاً بأبي. لا أعرف. بطريقة ما، ربما. لم يكن أبي من صنف الرجال الذين يسترخون في أكاپولكو أيضاً. باستطاعتي فقط أن أقول إني أفضّل القيام بهذا على أن أسترخي في أكاپولكو، إنّ الانخراط في مشكلة ليس كما قلتِ تضحية بالنسبة لي. على العكس، إنه يجعلني سعيداً. هذه هي الحياة التي أبتغيها ولن أتخلّى عنها من دون سبب. ما أزال أجد الوقت للاسترخاء: هذه الليلة أنا ذاهب إلى المنزل وسأبقى مع زوجتي وأولادي طوال أربعة أيام. إني أكرّس وقتاً طويلاً لزوجتي وأطفالي، حتى حين كنتُ «مُدّعياً عاماً»، كنتُ أتناول الطعام مع أسرتي كلّ ليلة. وعادةً، حين أسافر، أصطحب زوجتي وأكبر أولادي معي. إنهما يمضيان معي إلى أوروبا، آسيا، ولمّا أمكث في پولندا، وبرلين تلك الرحلة المدهشة، حيث يصفق لكِ الناس استحساناً، طيب، يصفقون استحساناً بالطريقة التي لا تصفقين فيها للشيطان. يبدو أنهم لا يعتقدون أنني شيطان، رجلٌ قاسٍ، عديم الضمير. السنة القادمة، بعد ولادة زوجتي طفلنا التاسع، سآخذها إلى إيطاليا، كي نمكث في نابولي مدة قصيرة. لا، هذا ليس تضحية. في حقيقة الأمر، أقول إنه الأسلوب الممتع الوحيد في العيش، بالنسبة لي. تغيير مستمر. هذا هو ما أبتغي القيام به، ما كنتُ أريد على الدوام أن أفعله. إنه سبب وجودي.

أ. ف.: ماذا لو أنكَ خسرت؟ أعرف أنك لا تحب هذه الكلمة خسرت

وأنـك تقريباً لا تقـدر أن تتقبلها. إني أعرف أنكَ تحب الفائزين، دوماً، لا الخاسرين. لكن ماذا لو خسرتَ، سيناتور؟

ر. ك.: لقـد بـدأتُ التعليـم. قلتُ ذلـك من قبل. وهـو شيء صحيح. أحـب أن أكـون مع الشبيبة. أحس أني في بيئتـي الطبيعية معهم. إنهـا ليسـت مصادفة أنّ لـدي ثمانيـةَ أولاد، وأني في وقت قريب سيكـون لـدي تسـعة. إذاً، نعم، أعتقـد أني سأقـوم بالتعليم، في الأقـل عـلى مـدى ردح مـن الزمـن. لا للأبـد. لا، لا أعتقد أني سأمكـث بعيداً عن السـياسة إلى الأبد. و، كـي أكون صادقاً، في الحقيقـة، حقـاً لا أفكـر في احتمال الخسـارة، أو لا أفكـر في ماذا سأفعـل إذا ما خسرت. على غـرار الشبيبة، الأطفال لا أفكر، لا أفكر حقيقةً في المسـتقبل البعيـد، في الأعوام المقبلة، وبالتأكيد لا أفكر في الهزيمة. لديَّ أشـياء أخرى أفكر فيها، أشياء لا يُمكنني أن أهتـم بها إلا كفائز. مسـألة التعليم، على سبيل المثال، مسـألة الفقر التي تحيق بالشعب الأمريكي. الشعوب الأخرى لا تعرف نوع الفقر الذي نملكه في أمريكا، وأنا لستُ بالضرورة، لا أعني فقـط الفقر المـالي. فقرنا هو فقـر التعليم. لدينا أشـخاص تركوا مقاعد الدراسة، تخلّوا عن ثقافتهم كي يكون بوسعهم أن يبدؤوا بكسب رزقهم، أن يبدؤوا بجني المال. ومن ثم مسألة مسؤوليتنا تجاه بقية أنحاء العالم. الأمريكيون لا يُدركون الطريقة التي ينظر فيهـا الناس الآخـرون إلى أمريكا، سواء أكانت جيـدة أم سيئة، ويُقلّدونـا؛ مسـؤوليتنا كبـيرة. فكـرتُ أنـه يتعين علـيّ أن أفوز

لهـذه الأسباب، كي يكـون باستطاعي أن أصحح الأشـياء التي تسـير سـيراً خاطئاً، لأني أؤمـن في تقدّم الخير، كـما فعل الرئيس كينـدي على وجه الدقة. وفكـرتُ أنه يتعين عليّ أن أصبح عضو مجلـس الشيوخ لنيويورك، بدلاً من أن أصبح مُدرِّساً، كي يكون باستطاعتي أن أستأنف، بشكل من الأشكال، ما كان هو...

أ. ف.: ذكـراه تلازمـك، أليـس كذلـك، سيناتور؟ ذكرى شـقيقك لا تغادرك قـط، أليس كذلك، سيناتور؟ كلُّ صـوره الفوتوغرافية هذه، في كلِّ حدب وصوب. كلُّ هذه...

ر. ك.: لا. لا، هذا غير صحيح. إنه لا يُلازمني، الأمر ليس كما تقولين، لا على الإطلاق. إنه لا يستحوذ عليَّ، أنا لا أفكر فيه على الدوام، ولا حتى في كثير من الأحيان. توجد صوره الفوتوغرافية، نعم، هذا صحيـح، غير أنه توجد أيضاً صـور فوتوغرافية لبقية أفراد أسرتي: صـور تيـدي، أترين؟ وصـور أولادي، أترين؟ وأسرتي كلّهـا، أتريـن؟ وأنـا لا أود التحـدّث عن هذا الشـأن. لا أحب الخـوض في هذا الموضوع. أنا متأسف. في هذه اللحظة لا أدخل في هـذا الموضوع البتَّة. على مدى وقت معين بكلّ معنى الكلمة. وقـت معين بكلّ معنـى الكلمة. في الوقت الحـالي... أعرف أنه ينبغي لكِ أن تسـأليني هذا السـؤال، ذلـك أن الناس يودون أن يعرفـوا مـا إذا أفكر فيـه في كثير مـن الأحيان، مـا إذا... إنما من فضلكِ لا تسـأليني. دعينا ننسَ الموضوع. على أية حال، لا يهم. تابعي، استمري. لا بأس.

أ. ف.: طيـب، سيناتـور. إنما ينبغي لي القول إنّ مـا أهمّ أن أسألك إياه لا يقـل جدِّيَّة، حتى إذا كان أقل إيلاماً. إنـه يتعلّق باحتمال أنكَ سوف تسـتطيع أن تكمـل، في يوم ما، ما كان قد بدأه شـقيقك: كـما توحي العبـارة التي نقشها عـلى علبة سجائـرك. احتمال أنه ذات يـوم سـوف تتولى إدارة البلاد. احتـمال أنك سوف تصبح، أنـك تُريد أن تصبح رئيـس (الولايات المتحدة). هل بوسعنا أن تتحدّث عن هذا الموضوع؟

ر. ك.: أجل.

أ. ف.: جيد. حتى اليوم، لم ترغب قط بأن تتحدّث عنه.

ر. ك.: لا.

أ. ف.: كنتَ تتحاشـى دوماً السـؤال كما لو إنكَ مُحـرَج، أو خجول. ما السبب؟

ر. ك.: لأني كنـتُ أُريـد أن أصبـح عضـو (مجلـس الشيوخ): ليس رئيسـاً للجمهوريـة. لأني أردتُ أن أركـز عـلى مـا أثـار اهتمامـي في تلـك اللحظـة، أن أعمـل عـلى ما أثـار اهتمامي في تلـك اللحظة: (مجلس الشيـوخ). في تلـك اللحظـة لم أكـن أشـتغل عـلى مسـألة (رئاسـة الجمهوريـة). اليـوم، في هـذه اللحظـة بالـذات، مسـألة أن أصبح رئيساً للجمهورية لا تُهمّني. ذلك الموضوع، تلك المسألة، هي وراء نطاق خططي الفورية. أبعد بكثير، في المستقبل. الحاضر هو (مجلس الشيوخ). المستقبل... هو المستقبل. سيعتني المستقبل بنفسه.

أ. ف.: بالطبع. أنت يافع جداً، سيناتور.

ر. ك.: أجل.

أ. ف.: لديك وقت طويل أمامك.

ر. ك.: أجل.

أ. ف.: لديك كل الوقت الموجود في العالم كي تُصبح رئيساً للجمهورية.

ر. ك.: شكراً لكِ.

أ. ف.: ولمّا تنتهي مدتك في العام 1970، ماذا ستفعل عندئذ؟

ر. ك.: سوف أترشح مرةً أخرى لـ (مجلس الشيوخ). ليس ثمة شك في بالي.

أ. ف.: الانتخابات الرئاسية ستكون في العام 1972. السيناتور بوسعه أن يترشح، أليس هذا صحيحاً؟ كي يكون رئيساً للولايات المتحدة؟

ر. ك.: نعم. نعم بمستطاع السيناتور، أيّ سيناتور أن يترشح للرئاسة. بالطبع!

أ. ف.: بطبيعة الحال، شقيقك هو سيناتور. حسناً، سيناتور: هنالك أشخاص حتى في أوروبا يودون أن يعتقدوا أنكَ، في يوم من الأيام، ستكون رئيساً للولايات المتحدة.

ر. ك.: شكراً جزيلاً. نعم، شكراً جزيلاً.

ڤو نـجوين جياب

هانوي، شباط/ فبراير 1969

أوريانا فالاتشي: جنرال جياب، في كثير من كتاباتك تطرح السـؤال الآتي: مَن، على كلّ حال، سيكسـب الحـرب في ڤيتنام؟ لذا أنا أسألك: اليوم، هنا في الأشهر الأولى من العام 1969، أتعتقد أنك تستطيع القول إنّ الأمريكيين خسروا الحرب في ڤيتنام، إنهم هُزِموا عسكريًّا؟

ڤو نجوين جياب: اعترفوا بذلك هم أنفسـهم. لكنني الآن سأريك لـماذا هُـزِم الأمريكيـون أصلاً هُزِمـوا عسـكريًّا وسياسيًّا. وكـي أُريكِ هزيمتهـم العسـكرية، أعود إلى هزيمتهم السـياسية، وهـي أساس كلّ شيء. الأمريكيون ارتكبوا خطـأً قاتلاً في اختيارهم لـ (ڤيتنام الجنوبية) ميدانـاً للقتـال. الرجعيـون في سايغون ضعفـاء جداً وحتـى تايلور[1]، مكنمارا[2]، وويسـتموريلاند[3] كانـوا يعرفون هذا. ما لم يكونوا يعرفونه

(1) ماكسـويل تايلـور Maxwell Taylor (1901–1987) : ضابـط رفيع المسـتوى في جيـش (الولايات المتحـدة)، ودبلومـاسي في منتصف القـرن العشريـن. عمل سفيراً لبلاده في (ڤيتنام الجنوبية). خدم بشكل بارز في الحرب العالمية الثانية – م.

(2) روبـرت مكنـمارا Robert McNamra (1916 – 2009): ثامـن وزير دفاع في (الولايات المتحدة الأمريكية)، خدم للأعوام 1961 - 1968، في أثناء رئاسة جون كيندي وليندون جونسـون. لعب دوراً رئيسـاً في تزايد تورط الولايات المتحدة في ڤيتنام – م.

(3) وليـم ويسـتموريلاند William Westmoreland (1914 – 2005): جنـرال في جيـش

هو أنهم، كونهم ضعفاء، لم يكونوا يعرفون كيف يستفيدون من العون الأمريكي. لأنه ما هدف الاعتداء الأمريكي على ڤيتنام؟ من الواضح أنّ المستعمرة الجديدة استندت إلى حكومة صُوَرِيّة. إنما كي تصنعي مستعمرة جديدة تحتاجين إلى حكومة مستقرة، وحكومة سايغون هي حكومة غير مستقرة إلى حدٍّ أبعد. ليس لها تأثير على السكان، الشعب لا يؤمن بها. إذاً في أيّ مفارقة وجد الأمريكيون أنفسهم؟ مفارقة أنهم عاجزون على الانسحاب من (ڤيتنام الجنوبية) حتى إذا أرادوا ذلك، لأنهم كي ينسحبوا يتعين عليهم أن يُخلّفوا وضعاً سياسيًّا مستقرًّا. أي، خدم قلائل قادرون على أن يحلّوا محلّهم. خدم نعم، إنما خدمٌ أقوياء. خدم نعم، إنما خدم جادون. الحكومة الصُوَرِيّة في سايغون لا هي قوية ولا جادة؛ إنها لا تساوي شيئاً حتى بوصفها خادمة؛ ليس بوسعها أن تقف على قدميها حين تدعمها الدبابات. وبناءً على ذلك كيف يستطيع الأمريكيون أن يغادروا؟ ومع ذلك يجب عليهم أن يغادروا لا يُمكنهم أن يحتفظوا بستمائة ألف جنديٍّ في ڤيتنام طوال عشرة أعوام، خمسة عشر عاماً آخر! هذه إذاً هي هزيمتهم السياسية: إنهم لم يحققوا شيئاً من وجهة نظر سياسية على الرغم من الأجهزة والمعدات العسكرية الهائلة المتوفرة لديهم.

أ. ف.: جنرال، هذا لا يعني أنهم عسكريًّا خسروا الحرب.

الولايات المتحدة الأمريكية، لعب دوراً بارزاً بوصفه قائداً للقوات الأمريكية في (حرب ڤيتنام) من العام 1964 – 1968، خدم بوصفه رئيس أركان جيش (الولايات المتحدة) من العام 1968 – 1972 – م.

ف. ن. ج.: اصبري، لا تقاطعيني. بالطبع إنه يعني ذلك. إن لم يحسوا بأنفسهم مهزومين، ما كان (البيت الأبيض) ليتكلّم عن السلام بشرف. إنما دعينا نَعُد للوراء قليلاً، إلى أزمنة جنيف وإيزنهاور. كيف بدأ الأمريكيون في ڤيتنام؟ بجهودهم المألوفة، أي، العون العسكري والاقتصادي المقدّم للحكومات الصُوَرِيّة. جنباً إلى جنب مع الدولار. لأنهم يعتقدون على الدوام أن باستطاعتهم أن يحلّوا كلَّ شيء بالدولار. حتى الحكومة الحرّة والمستقلة، يعتقدون أن بوسعهم أن ينصبوها بالدولار؛ هذا بجيش من الدُّمى يشترونه بالدولار، بثلاثين ألف مستشار يدفعون لهم بالدولارات، باستحداث قرى إستراتيجية مُشيّدة على الدولارات. غير أنّ الشعب تدخَّل، والخطة الأمريكية مُنيت بالفشل. القرى الإستراتيجية أخفقت، المستشارون أخفقوا، جيش الدمى فشل. وألفى الأمريكيون أنفسهم مُجبرين على التدخُّل عسكريًّا، كما أوصى السفير تايلور أصلاً.

إذاً المرحلة الثانية من اعتدائهم بدأت: الحرب الخاصة. كانوا متيقنين من أنهم سيكونون قادرين على إنهاء الحرب بحلول العام 1965، وفي أقصى الأحوال بحلول العام 1966 بمائة وخمسين ألف جنديٍّ وثمانية عشر مليار دولار. لكن في العام 1966 لم تنتهِ الحرب بأيّ حال من الأحوال، وفي حقيقة الأمر زادوا عدد جنودهم ليبلغ مائتي ألف جنديٍّ، وكانوا يتكلّمون عن المرحلة الثالثة، أي «الحرب المحدودة». سياسة ويستموريلاند ذات

الفرعين الشهيرة: من جهة يستميل السكان ومن الجهة الثانية يقضي على (قوات التحرير). إلا أنّ الفرعين كليهما لم يسيطرا على الوضع وخسر ويستموريلاند الحرب. باعتباره جنرالاً خسرها في العام 1967، حين أراد أن تُرسَل قوات إضافية وقدّم ذلك التقرير المتفائل إلى واشنطن، مُعلناً أنّ العام 1968 سيكون عاماً جيداً للحرب في ڤيتنام، سوف تُتيح للرئيس جونسون أن يفوز بإعادة انتخابه. في واشنطن، ويستموريلاند استقبلوه كبطل، إلا أنه كان يعرف بالتأكيد أنّ هذه بداية سوف تكلّفه ثمناً باهظاً إلى حدٍّ ما. تايلور فهم ذلك منذ البداية. هيا الآن! كوريا كلّفت الأمريكيين عشرين مليار دولار، ڤيتنام كلّفتهم أصلاً أكثر من مائة مليار. كوريا كلّفتهم أكثر من أربعة وخمسين ألف قتيل، وفي ڤيتنام أصلاً فاق قتلاهم هذا العدد...

أ. ف.: يقول الأمريكيون إن عددهم أربعة وثلاثين ألفاً، جنرال.

ف. ن. ج.: هِم... أنا أقول ضعف هذا العدد في الأقل. الأمريكيون يعطون دوماً أرقاماً أقل من الحقيقة: حين يناسبهم ذلك، ثلاثة بدلاً من خمسة. لا يُمكن أن يكون عدد قتلاهم أربعة وثلاثين ألفاً فقط. وحين أسقطنا أكثر من ثلاثة آلاف ومائتين من طائراتهم. وحين يعترفون أنّ واحدة من كلّ خمسٍ من طائراتهم قد أُسقطت! أنظري: في غضون خمسة أعوام من الحرب فقدوا بنحوٍ مؤكدٍ ما لا يقل عن سبعين ألف جنديّ. وربما هذا العدد قليل جدًّا.

أ. ف.: جنرال، الأمريكيون يقولون أيضاً إنكم فقدتم نصف مليون إنسان.

ف. ن. ج.: العدد مضبوط.

أ. ف.: مضبوط؟

ف. ن. ج.: مضبوط. لكن إذا عُدنا إلى ما قلتُه، بحلول سنة 1968 وفي تلك السنة كان الأمريكيون متأكدين بالفعل من الفوز. وبعدها انظري فقط، على حين غرة كان هنالك هجوم (التيت) [1] و(جبهة التحرير) [2] تكشف أنه من الممكن أن تهجم عليهم متى تشاء، وحيثما تشاء. بما فيها المدن ذات

(1) هجوم التيت Tet offensive: الاسم الرسمي لهذا الهجوم هو الهجوم الشامل وانتفاضة تيت ماو ثان The General Offensive and Uprising of Tet Mau Than العام 1968، وهو تصعيد كبير وأحد الحملات العسكرية لـ (حرب ڤيتنام). شُنّ الهجوم يوم 30 كانون الثاني/ يناير 1968 من لدن قوات الـ (ڤيت كونغ) وجيش شعب ڤيتنام التابع لـ (ڤيتنام الشمالية) ضد قوات الجيش الـڤيتنامي الجنوبي التابع لجمهورية ڤيتنام والقوات المسلّحة الأمريكية وحلفائها. اسم الهجوم مُستمَد من عطلة التيت (السنة الـڤيتنامية الجديدة)، حين جرت أولى الهجمات الكبرى – م.

(2) الجبهة الوطنية لتحرير ڤيتنام الجنوبية The National Liberation Front of South Vietnam المعروفة بـ[فيت كونغ] Việt cộng: حركة مقاومة مسلحة ڤيتنامية نشطت بين عامي 1954 و 1976. بدأت قوات الـ (فيت كونغ) في الجنوب في التمرد على حكومة ديم. وفي عام 1959م أعلنت (ڤيتنام الشمالية (تأييدها لهذه الفئة وأمرتها بشن كفاح شامل ضد حكومتها. كانت أول مجموعة متمردة ناضلت ضد الإستعمار الفرنسي وضد جمهورية (ڤيتنام الجنوبية). هذه الجبهة كانت معارضة لجميع العناصر المكونة للحكومة بصرف النظر عما إذا كانوا شيوعيين أم لا – م.

الدفاعـات القوية جدًّا، بما فيها سايغـون. وفي النهاية يعترف الأمريكيـون أنّ هـذه الحـرب خطـأ استراتيجي. جونسـون يعـترف بذلـك، مكنـمارا يعـترف بذلـك. إنهم يقـرّون بأنهم اختـاروا الوقت الخاطـئ، المكان الخاطئ، وكـان مونتغمري مُحقًّا في قوله إن الجيش ينبغي أن يؤتى به إلى القارة الآسيوية. هجوم (التيت) الظافر...

أ. ف.: جنـرال، الجميـع يؤيـدون أنّ هجـوم (التيـت) كـان نـصراً سايكولوجيًّا كبيراً. إنما من وجهة النظر العسـكرية ألا تعتقد أنه كان فاشلاً؟

ف. ن. ج.: فاشلاً؟

أ. ف.: أقول هكذا، جنرال؟

ف. ن. ج.: قولي ذلك لـ، أو بالأحرى اسألي (جبهة التحرير)؟

أ. ف.: أولاً، أود أن أسألك أنتَ، جنرال؟

ف. ن. ج.: عليكِ أن تفهمي أنّ هذا سؤال حسـاس، وأنني لا أستطيع أن أطلق أحكاماً من هذا الطراز، وأنني لا أستطيع أن أتدخَّل في قضايا (الجبهة). إنه شيءٌ حسـاس... حسـاس جـدًّا... على كلّ حـال إنكِ تُدهشينني، بما أنّ العالم بـأسره قد اعترف، من وجهة النظر العسكرية والسياسية، أنّ هجوم (التيت)...

أ. ف.: جنـرال، حتـى من وجهة النظر السـياسية لم يكن نـصراً هائلاً. السـكان لم ينتفضـوا، وبعد مضي أسبوعين استعـاد الأمريكيون

السيطرة. في مدينة (هوْي) فقط رأينا فعلاً الملحمة البطولية التي استمرت على مدى شهر كامل. في (هوْي)، حيث كان هناك (الڤيتناميون الشماليون).

ف. ن. ج.: لا أعرف ما إذا تنبأت (الجبهة) أو رغبت بأن ينتفض السكان، مع أنني أعتقد أنه من دون مساعدة السكان، قوات (الجبهة) ما كان بوسعها أن تدخل المدينة. ولن أناقش هجوم (التيت)، الذي لم يعتمد عليّ، لم يعتمد علينا؛ كانت (الجبهة) هي التي تتولى قيادته. إلا أنه حقيقةً، بعد هجوم (التيت)، انتقل الأمريكيون من الهجوم إلى الدفاع. والدفاع يكون دوماً بداية الهزيمة. أقول «بداية الهزيمة «من دون أن أناقض نفسي. في الحقيقة نصرنا النهائي لم يكن قد حان بعدُ، ولا يستطيع المرء أن يتكلّم عن هزيمة مُؤكدة للأمريكيين. في الواقع الأمريكيون لا يزالون أقوياء، مَن يقدر أن ينكر ذلك؟ كان لا يزال الأمر يتطلب مجهوداً كبيراً من جانبنا كي ننتصر عليهم تماماً. المسألة العسكرية... أنا الآن أتحدّث بوصفي عسكريًّا... نعم، الأمريكيون أقوياء، أسلحتهم قوية. إلا أنها لم تنفعهم أبداً، لأن الحرب في ڤيتنام ليست حرباً عسكرية فقط، وبناءً على هذا فإن القوة العسكرية والإستراتيجية العسكرية لم يكونا كافيين كي يكسبوا هذه الحرب أو يفهموها.

أ. ف.: نعم، جنرال. لكن...

ف. ن. ج.: لا تقاطعيني. (الولايات المتحدة)، أقول، تشن الحرب

بواسطة إستراتيجية رياضية. إنهم يسألون أجهزة الكومبيوتر العائدة لهم، يجمعون وينقصون ويقسّمون، يستخلصون الجذور التربيعية، ووفقاً لذلك يعملون. غير أنّ الإستراتيجية الرياضية لا تنجح هنا وإذا كانت قد نجحت فعلاً، لأبادونا أصلاً. بطائراتهم، على سبيل المثال. إنها ليست مصادفة أنهم كانوا يحسبون أنّ باستطاعتهم أن يقهرونا في غضون أسابيع قليلة بأن يُفرغوا علينا [1] مليارات المتفجرات تلك كلّها. لأنه، كما أخبرتكِ آنفاً، إنهم يحسبون كلّ شيء بالمليارات، بالدولارات. وكانوا يقللون من شأن روح الشعب الذي يعرف كيف يقاتل من أجل قضية عادلة، أن ينقذ وطنه من الغازي. لا يمكن أن يخطر ببالهم أنّ الحرب في ڤيتنام ليست مسألة أعداد وعسكريين حسني التجهيز، هذه الأشياء كلّها لن تحلّ المشكلة. قالوا إنهم كي يكسبوا من الضروري أن تكون النسبةُ خمسة وعشرين إلى واحد. وبعدها أدركوا أن الرقم مستحيل وقلّصوه إلى ستة إلى واحد. ومن ثم قللوه إلى ثلاثة، مؤكدين بإيراد الحجج أنّ هذه نسبة خطيرة. لا، ثمة شيء آخر كان مطلوباً أكثر من معادلة الثلاثة إلى واحد، الستة إلى واحد، الخمسة والعشرين إلى واحد، وهذا الشيء هو أنّ الشعب بأكمله ضدهم. حين يثور شعبٌ بأكمله، لا يمكنكِ القيام بأيّ شيء. ولا توجد هنالك ثروة

---

(1) يُفرغوا علينا unloading on us: أي بمعنى أن ينزلوا أو يُفرغوا حمولة الطائرات من القذائف والصواريخ على الڤيتناميين – م.

في العـالم باستطاعتهـا أن تصفيه. هذا هو أسـاس إستراتيجيتنا، تكتيكاتنا، وهو الذي لا يستطيع الأمريكيون أن يفهموه.

أ. ف.: بـما أنـكَ متأكد جداً مـن أنهم في خاتمة المطـاف سوف يُهزمون، جنرال، متى تعتقد أنّ هذا سيحدث؟

ف. ن. ج.: أوه، هذه ليست حرباً تحسمينها في غضون سنوات قلائل. في الحـرب ضـد (الولايـات المتحـدة)، تحتاجـين إلى الوقـت، الوقـت... الأمريكيون سوف يُهزمـون في الوقت المناسب، بعد أن يتعبـوا. وكـي تُتعبيهم، علينـا أن نسـتمر، أن نواصل... على مـدى زمـن طويل. هـذا هو ما فعلنـاه دوماً. لأنه، كـما تعلمين، نحـن بلدٌ صغير. نحن بالكاد نبلـغ ثلاثين مليوناً، نصف سكان إيطاليـا، وكنَّـا بالكـاد مليونـًا في بدايـة العهد المسـيحي، لمّا جاء المغول. ونحن، بعد أن قهروا أوروبا وآسيا، جاء المغول إلى هنا. ونحـن، الذين قلّـما كان عددنا مليون نسـمة، هزمناهم. أتوا إلى هنا ثلاث مرات، المغول، وهزمناهم ثلاث مرات. لم نكن نملك وسائلهم، ومع ذلك تمكَّنَّا من مقاومتهم وتحمّلنا وكنا نكرر على أنفسنا: كلّ أبناء الشعب يجب أن يحاربوا. ما كان ساري المفعول في العام 1200 لا يزال ساري المفعول في القرن العشرين. المشكلة هي ذاتها. نحن عسكريون جيدون لأننا ڤيتناميون.

أ. ف.: جنـرال، الـڤيتناميون في الجنوب الذيـن يقاتلون جنباً إلى جنب مع الأمريكيين هم أيضاً ڤيتناميون. ما رأيك بهم كعسكريين؟

ڤ. ن. ج.: لا يُمكنهـم أن يكونـوا عسـكريين جيديـن. هـم ليسـوا عسـكريين جيديـن. لأنهـم لا يؤمنـون بـما يفعلونه، ولهـذا هم يفتقـرون إلى أيّ روح قتاليـة. الأمريكيـون يعرفون هـذا أيضاً، وهـم أفضـل منهـم بكثير. لـو لم يكـن الأمريكيـون يعرفون أن العسـكريين الدمى هم عسكريون سيئون، ما كانوا يحتاجون إلى جلب عدد كبير جداً من قواتهم إلى ڤيتنام.

أ. ف.: جنـرال، دعنا نتكلّم عن (مؤتمر باريس). هل تعتقد أنّ السـلام قـد يأتي من (مؤتمر باريـس) أو من النصر العسـكري مثل ذلك النصر الذي حققتموه في معركة دِيان بِيان فو [1]؟

ڤ. ن. ج.: ديـان بيـان فو... ديان بيان فـو... الحقيقة هي إن ذهابنا إلى باريـس يبرهـن على نوايـا الحسـنة. ولا يُمكن القـول إن (مؤتمر باريس) كان عديم الفائدة، بما إننا لسنا وحدنا إنما كذلك (جبهة التحريـر) حـضرت (مؤتمـر باريـس). في باريس كـان يلزمنا أن نترجم إلى مستوى سياسي ما جرى في ڤيتنام و... مدام! باريس،

(1) معركـة دِيان بِيان فو The Battle of Dien Bien Phu : معركة مصيرية بين قوات (اتحاد تحرير ڤيتنام) والجيش الفرنسي الذي كان مدعوماً من قوات حلف الناتو. جرت المعركـة بـين 10 آذار/ مارس و7 أيار/ مايـو 1954. وكان قائد الجيـش الڤيتنامي هو الجنـرال فون نجويـن جياب. في مقالة على موقع (الجزيـرة) الأخبارية، تقول الـكاتبة فيرونيـك لاروش سينيوريـل: «إن سقـوط المعسـكر الفرنسي على يد قـوات الجنرال الڤيتنامي جياب في 7 مايو/ أيار 1954، شكل نهاية أطول المعارك دموية في فترة ما بعد الحـرب العالمية الثانية، وآخر معركة كبيرة في حرب الهند الصينية (1946-1954)، كما أنّ هذه الهزيمة المُذلة التي تلقتها فرنسا هناك كانت نهاية الوجود الاستعماري الفرنسي في آسيا». تقع مدينة دِيان بِيان فو في شمال غربي ڤيتنام - م.

مدام، كما تعرفين [1]... هو شيء للدبلوماسيين.

أ. ف.: إذاً هل تقول، جنرال، إن الحرب لن تُحسَم في پاريس، وإنها لا يُمكن أن تُحسَم إلا عسكريًّا، وليس دبلوماسيًّا، وإن معركة دِيان بِيان فو الخاصة بالأمريكيين يجب أن تأتي مع ذلك وسوف تأتي؟

ف. ن. ج.: دِيان بِيان فو، مدام، دِيان بِيان فو... أنظري، ليس صحيحاً على الدوام أنّ التاريخ يُعيد نفسه. لكنه هذه المرة سوف يُعيد نفسه. ومثلما هزمنا الفرنسيين عسكريًّا، سوف نهزم الأمريكيين عسكريًّا. نعم، مدام، إنّ دِيان بِيان فو العائدة لهم سوف تأتي قريباً. وستأتي حتماً. الأمريكيون يقيناً سوف يخسرون الحرب في الحال حين تصل قوتهم العسكرية إلى ذروتها، والماكينة الكبيرة التي جمعوها لن تنجح في الحركة بعد الآن. سوف ننتصر عليهم، هو ذا، في اللحظة التي يكون لديهم فيها أكبر عدد من الجنود، أكبر عدد من الأسلحة والمعدات، أكبر أمل في الفوز. لأن كلّ تلك الثروة، تلك القوة، سوف تصبح عبئاً ثقيلاً حول رقابهم. هذا شيء لا مَناص منه.

أ. ف.: هل أنا مُخطئة، جنرال، أو إنكَ أصلاً تحاول شن معركة دِيان بِيان فو ثانية في خِي سان [2]؟

---

(1) كما تعرفين: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي vous savez – م.

(2) خِي سان Khe San: قرية في جنوب وسط ڤيتنام قرب الحدود مع لاوس. وقد جرت فيها معركة كبرى في أثناء «حرب ڤيتنام»، بين 21 كانون الثاني/ يناير و8 نيسان/ أبريل 1968 – م.

ف. ن. ج.: أوه، لا. قرية خِي سان لم تحاول أن تكون، ولا تستطيع أن تكون، مدينة دِيان بِيان فو. خِي سان لم تكن مهمة للغاية بالنسبة لنا. أو إنها كانت مهمة فقط إلى ذلك الحدّ في نظر الأمريكيين في الواقع: بقدر ما يمكثون في خِي سان كي يدافعوا عن هيبتهم، قالوا إن خِي سان مهمة. ولّما يهجرون خِي سان، سيقولون إنّ خِي سان لم تكن مهمة على الإطلاق. زيادة على ذلك، ألا تعتقدين أننا انتصرنا في خِي سان؟ أقولُ نعم و... لكن هل تعرفين أن الصحافيين فضوليُّون؟ فضوليون جداً. وبما إنني صحافي أيضاً، أود أن أعكس القواعد وأصوغ سؤالين لكِ. السؤال الأول. هل تؤيدين الحقيقة القائلة إن الأمريكيين قد خسروا الحرب في (الشمال)؟

أ. ف.: باستطاعتي أن أقول نعم. إذ كنتَ تقصد بالحرب في (الشمال) إلقاء القنابل، أعتقد أنّ الأمريكيين خسروا. بما أنهم لم يحققوا شيئاً جوهريًا وبعدها تعيّن عليهم أن يعلّقوا إلقاءها.

ف. ن. ج.: السؤال الثاني. هل تؤيدين الحقيقة القائلة إن الأمريكيين خسروا الحرب في (الجنوب)؟

أ. ف.: لا، جنرال. لم يخسروها. أو لم يخسروها حتى الآن. لم تطردوهم فعلاً حتى الآن. إنهم لا يزالون هناك. وهم باقون.

ف. ن. ج.: أنتِ مُخطئة. إنهم لا يزالون هناك، لكن في أيّ حالة؟ إنهم محصورون، مشلولون، متوقعون هزائم جديدة يحاولون تفاديها

مـن دون أن يعرفـوا كيـف. هزائـم ستكون لها عواقـب وخيمة عليهـم من وجهة النظـر الاقتصادية، السـياسية، التاريخية. إنهم يقفـون مكتوفي الأيدي، محصوريـن في قوتهم؛ لا يقدرون سوى أن يضعوا آمالهم في محادثات السـلام بـپاريس. لكن حتى هناك كانوا عنيدين جداً، إنهم لا يتخلّون عن مواقفهم.

أ. ف.: جنـرال، إنك تقول إن الأمريكيين كانوا عنيدين في پاريس. غير أنّ الأمريكيـين يقولـون الـشيء ذاته عنكم. إذاً مـا نفع محادثات السلام في پاريس هذه؟

ف. ن. ج.: مدام، كما تعرفين...

أ. ف.: جنرال، نحن هنا لا نفعل شـيئاً سوى التحدّث عن السلام، إلا أنه يبدو أنّ لا أحدَ يُريده فعلاً. إذاً إلى متى تدوم محادثات السلام في پاريس هذه؟

ف. ن. ج.: زمنـاً طويـلاً! بخاصـة أنّ (الولايـات المتحـدة) لا تتخـلّى عـن موقفها. زمنـاً طويلاً. وأكثر من ذلك بـما أننا لن نتخلّى عن موقفنـا، نحن لسـنا في عجلة مـن أمرنا، لدينا صـبر. لأنه بما أنّ الوفود تتناقش، نحن نسـتأنف الحرب. نحن نحب السـلام إنما ليس السـلام مهما كلّف الثمن، وليس السلام بواسطة التسوية. السـلام بالنسبة لنا لا يمكن أن يعني سوى النصر التام، الرحيل التـام للأمريكيين. إن أيّ تسـوية هـي تهديـد بالعبودية. ونحن نفضّل الموت على العبودية.

أ. ف.: إذاً، جنـرال، إلى متى تسـتمر الحرب؟ إلى متى سيُطلب من هذا الشعب المسكين أن يضحي بنفسه، أن يتعذب ويموت؟

ف. ن. ج.: بقـدر ما يكـون ذلك ضروريّاً: عشرة أعوام، خمسـة عشر، عشرون، خمسـون عامـاً. إلى أن نحقـق النصر الكامـل، كما قال رئيسـنا هو تـشي منه. أجل! حتـى عشرين، حتى خمسـين عاماً! نحن لسنا مستعجلين، لسنا خائفين.

مكتبة .. سر من قرأ

هنري كيسنجر

واشنطن، دي. سي. تشرين الثاني/ نوفمبر 1972

أوريانا فالاتشي: إني أتساءل ماذا تحس في هذه الأيام، دكتور كيسنجر. إني أتساءل ما إذا أنتَ أيضاً مُحبَط، مثلنا نحن، مثل معظم البشر في العالم. هل أنتَ مُحبَط، سيد كيسنجر؟

هنري كيسنجر: مُحبَط؟ لماذا؟ ماذا حدث في هذه الأيام حتى يتعين عليّ أن أكون مُحبَطاً بسببها؟

أ. ف.: شيء ليس سعيداً على وجه الدقة، دكتور كيسنجر. مع أنكَ قلتَ إن السلام «على وشك الحدوث»، ومع أنكَ أكَّدتَ أنّ اتفاقاً قد تم التوصُّل إليه مع «الڤيتناميين الشماليين»، السلام لم يأتِ. الحرب تستمر كسابق عهدها، وأسوأ مما كانت عليه من قبل.

هـ. ك.: «سيحلّ السلام. قررنا إحلال السلام وسوف نفعل. سيأتي في غضون أسابيع قليلة أو حتى أقل؛ أي، فورَ استئناف المفاوضات مع «الڤيتناميين الشماليين «من أجل الاتفاق النهائي. هذا ما قُلتُه قبل عشرة أيام وأكرره الآن. نعم، سوف سيكون لدينا سلام في غضون مدة زمنية قصيرة بنحو معقول إذا وافقت هانوي على عقد اجتماع آخر قبل التوقيع على الاتفاق، اجتماع

يحسم التفاصيل، وإذا ما قبلت هذا بالروح نفسها وبالموقف نفسه الذي اتخذته في تشرين الأول/ أكتوبر. هذان الـ «إذا» هما الالتباسان الوحيدان في هذه الأيام. إلا أنه التباس لا أريد حتى أن أفكر فيه. إنكِ تَدَعين نفسكِ تستسلمين للرعب، وفي هذه القضايا ليس ثمة حاجة للاستسلام للرعب. ولا حتى ثمة حاجة للاستسلام لنفاد الصبر. الحقيقة هي... حسناً، طوال أشهر كنا نُجري هذه المفاوضات وأنتم المندوبون الصحافيون لم تكونوا تصدّقوننا. ظللتم ترددون قائلين إنهم لن يتوصّلوا إلى شيء. وعقب ذلك، بغتةً، صرختم بشأن السلام قائلين إنه قد حلّ هنا، والآن ختاماً تقولين إن المفاوضات قد أخفقت. في قولكِ هذا، إنكِ تأخذين حرارتنا يوميًّا، أربع مرات في اليوم. إلا أنكِ تأخذينها من وجهة نظر هانوي. و... انتبهي، أنا أفهم وجه نظر هانوي. «الـڤيتناميون الشماليون «يُريدوننا أن نوقِّع الاتفاق في 31 تشرين الأول/ أكتوبر، وهو موعد معقول وغير معقول في الوقت نفسه و... لا، أنا لا أود أن أجادل بشأن هذا الموضوع.

أ. ف.: لكنكم أنفسكم تعهدتم بأن توقِّعوا في 31 تشرين الأول/ أكتوبر!

هـ. ك.: أقول وأكرر إنهم هم الذين يُصرُّون على هذا الموعد، وكي نتحاشى نقاشاً تجريديًّا فيما يتصل بالمواعيد في زمنٍ بدا نظرياً بكلِّ معنى الكلمة، قلنا إننا سنبذل قصارى جهدنا كي ننهي

المفاوضـات في 31 تشريـن الأول/ أكتوبـر. إلا أنه كان واضحاً على الدوام، في الأقل بالنسبة لنا، أننا لن نكون قادرين على توقيع اتفـاق تفاصيله لا تزال تحتـاج إلى إيضاح. لن نكون قادرين على الالتزام بموعد ببساطة لأنه، بأمانة، وعدنا بأن نبذل كلّ ما نقدر عليه كي نلتزم به. إذاً عند أيّ نقطة نحن الآن؟ في النقطة التي لا تـزال تفاصيلها بحاجة إلى إيضاح وحيث يكون عقد لقاء جديد شيءٌ لا غنـى عنـه. إنهـم يقولون إنـه يُمكن الاستغنـاء عنه، إنه ليـس ضروريًّا. أنا أقول إنه لا يُمكـن الاستغناء عنه وإنه سوف يحدث. إنه سوف يحدث مـا أن يدعوني «الـڤيتناميون الشماليون «إلى باريـس. إلا أنـه لن يكـون إلا في الرابع مـن تشرين الثاني/ نوفمـبر، اليوم هو الرابـع من تشرين الثـاني/ نوفمبر، وبوسعي أن أفهـم أنّ «الـڤيتناميـين الشماليـين «لا يريـدون أن يسـتأنفوا المفاوضـات بعد أيام قليلـة من الموعد الذي طلبـوا منا أن نوقِّع فيـه. بوسعـي أن أفهم تأجيلهم للأشـياء. لكننـي، في الأقل، لا أستطيـع أن أفهم رفضهم عقد اجتـماع آخر. الآن تحديداً بعد أن غطينا تسعين بالمائة من الأرض ونكاد نصل إلى هدفنا. لا، لستُ مُحبَطـاً. سأكون كذلك، يقينـاً، إذا ما خرقت هانوي الاتفاق، إذا مـا توجَّب على هانوي أن ترفض مناقشـة أيّ تغييرات. إلا أنني لا أستطيـع أن أصـدّق ذلك، لا، لا يُمكنني حتى أن أرتاب بأننا وصلنـا إلى هـذا الحـدّ لمجـرد أن نخفق في مسـألة الهيبة، مسـألة الطريقة، المواعيد، الاختلافات الدقيقة.

أ. ف.: ومع ذلك يبدو كأنهم باتوا صارمين فعلاً، دكتور كيسنجر. عادوا إلى التشدد، وجَّهوا اتهامات خطيرة، مُهينة تقريباً ضدك...

هـ. ك.: أوه، هذا لا يعني شيئاً. جرى هذا من قبل ولم نُعطِه أيَّ أهمية. باستطاعتي القول إن التشدد، الاتهامات الخطيرة، حتى الإهانات، هي جزء من الوضع الطبيعي. لم يتبدَّل شيء بنحو جوهري. منذ الثلاثاء، 31 تشرين الأول/ أكتوبر، أي بمعنى منذ أن هدأنا هنا، أنتم المراسلون الصحافيون لا تنفكون تسألوننا ما إذا المريض عليل. إلا أنني لا أرى أيّ مرض. وأنا أشدد على القول إن الأشياء سوف تتطور بنحو أكثر أو أقل كما قلت. السلام، أكرر، سوف يحلّ في غضون أسابيع قليلة بعد استئناف المفاوضات. ليس في غضون أشهر قليلة. في غضون أسابيع قليلة.

أ. ف.: لكن متى يتم استئناف المفاوضات؟ تلك هي المسألة.

هـ. ك.: حالما يرغب لِي دوك ثو [1] برؤيتي من جديد. أنا أنتظر هنا. إلا أنني لا أحس بالقلق، أؤكد لكِ. بالله عليكِ! من قبل، جرت العادة أن يمر أسبوعان أو ثلاثة أسابيع بين اجتماع وآخر! لا أفهم لماذا يتعين علينا أن ننزعج إذا ما انصرمت بضعة أيام. إن السبب الوحيد أنكم قاطبةً متوتِّرون للغاية هو إن الشعب يتساءل.

---

(1) لِي دوك ثو Le Duc Tho (1911 – 1990): ثوري، جنرال، دبلوماسي، وسياسي فيتنامي. وهو أول آسيوي ينال جائزة نوبل للسلام بالمناصفة مع هنري كيسنجر، وزير خارجية (الولايات المتحدة الأمريكية)، في العام 1973 – م.

«لكن هل سيستأنفون محادثاتهم؟ «حين تكونون كلّكم كلبيين ولا تصدّقون أيّ شيء يحدث، لا تدركون أنّ الزمن يمضي. كنتم متشائمين للغاية في البداية، وبعدها أصبحتم متفائلين للغاية بعد مؤتمري الصحفي، والآن ثانية أنتم متشائمون جداً. لا يمكن أن يخطر ببالكم أنّ كلّ شيء يتقدّم كما فكرتُ دوماً أنه سيحصل من اللحظة التي قلتُ فيها إن السلام على وشك الحدوث. يبدو لي أني حينئذ فكرتُ أنه سوف يتحقق في بحر أسبوعين. لكن حتى إذا كان يجب أن يستغرق زمناً أطول... هذا يكفي، لا أرغب بأن أتحدّث أكثر عن ڤيتنام. لا يسعني أن أسمح لنفسي لأن أفعل، في هذا الوقت. كلّ كلمة أقولها تصبح أنباءً. في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر ربما. اسمعي، لماذا لا نلتقي في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر؟

أ. ف.: لأنّ اللقاء ممتع أكثر الآن، دكتور كيسنجر. لأن ثياو [1] تحدّاكَ أن تتكلّم. انظر إلى هذه القصاصة من جريدة «نيويورك تايمز». إنها تقتبس من ثياو وهو يقول: «اسألي كيسنجر على أيّ نقاط انقسمنا، ما هي النقاط التي لا أوافق عليها».

هـ. ك.: دعيني أر القصاصة... آه! لا، لن أجيبه. لن أبالي بهذه الدعوة.

(1) نجوين ڤان ثياو Nguyễn Văn Thiệu (1923 – 2001): رئيس جمهورية (ڤيتنام الجنوبية) للمدة من1967 – 1975. كان جنرالاً في جيش (جمهورية ڤيتنام). فرض النظام في (ڤيتنام الجنوبية) إلى أن استقال وغادر البلاد قبل سقوط سايغون بأيام قلائل والنصر النهائي لـ (ڤيتنام الشمالية) – م.

أ. ف.: لقد أعطى جوابه أصلاً، دكتور كيسنجر. قال أصلاً إن الموضوع المؤلم هو الحقيقة التي مفادها، إنه وفقاً للشروط التي قبلتَها أنت، قوات «الـڤيتناميين الشماليين» سوف تبقى في «ڤيتنام الجنوبية». دكتور كيسنجر، هل تعتقد أنك لن تنجح قط في إقناع ثياو؟ هل تعتقد أنّ أمريكا يتعين عليها أن تتوصَّل إلى اتفاق منفصل مع هانوي؟

هـ. ك.: لا تسأليني ذلك. يلزمني أن أحافظ على ما قلتُه جهاراً قبل عشرة أيام مضت... لا أستطيع، لا يلزمني أن أفكر بفرضية لا أحسب أنها ستحدث. فرضية يجب ألا تحدث. بوسعي أن أخبركِ فقط أننا عقدنا العزم على تحقيق هذا السلام، وهذا ما سيحدث في كلّ حال من الأحوال، في أقرب وقت ممكن بعد لقائي التالي مع لِي دوك ثو. ثياو باستطاعته أن يقول ما يشاء. هذا العمل عائد له.

أ. ف.: دكتور كيسنجر، إذا حدث أن وضعتُ مسدساً على رأسك وأطلب منك أن تختار بين أن تتعشى مع ثياو أو أن تتعشى مع لِي دوك ثو... مَن الذي تختار؟

هـ. ك.: لا يُمكنني الإجابة عن هذا السؤال.

أ. ف.: وإذا تسنَّى لي أن أُجيب قائلة إني أود أن أعتقد أنك ترغب أكثر بتناول العشاء مع لِي دوك ثو؟

هـ. ك.: لا أستطيع، لا أستطيع... لا أرغب بالإجابة عن هذا السؤال.

أ. ف.: إذاً هل تستطيع الإجابة عن هذا السؤال: هل تحب لِي دوك ثو؟

هـ. ك.: نعم. وجدتُه رجلاً مخلصاً جداً لقضيته، غاية في الجدية، قويًّا جداً، وهو مهذب دوماً وذو كياسة. وأيضاً في بعض الأحيان صارم للغاية، قاسٍ في حقيقة الأمر، في التعامل معه، إلا أنّ هذا شيء احترمته دوماً فيه. نعم، إني أكنّ احتراماً كبيراً لِلي دوك ثو. بطبيعة الحال، صداقتنا كانت صداقة احترافية، إلا أنني أعتقد... أعتقد أني لاحظتُ لُطفاً معيناً يشع من خلاله. إنها حقيقة، على سبيل المثال، أننا غالباً كنا ننجح حتى في صنع النكات. قلنا إنني في يوم ما ربما أذهب لأعلّم العلاقات الدولية في جامعة هانوي وسيأتي هو إلى هارڤارد كي يعلّم الماركسية اللينينية. حسناً، باستطاعتي أن أسمّي علاقاتنا جيدة.

أ. ف.: هل ستقول الشيء نفسه لثياو؟

هـ. ك.: لديّ أيضاً علاقات قوية بثياو. في البداية...

أ. ف.: بالضبط، في البداية. الـڤيتناميون الجنوبيون قالوا إنكما لم يُسلّم أحدكما على الآخر مثل صديقين حميمين.

هـ. ك.: ماذا قالوا؟

أ. ف.: قالوا إنكما لم يسلِّم أحدكما على الآخر مثل صديقين حميمين، أكرر. هل تبالي بأن تذكر العكس، دكتور كيسنجر؟

هـ. ك.: حسناً... يقيناً كانت ولا تزال لدينا وجهات نظرنا الخاصة. وليس بالضرورة وجهات النظر نفسها. إذاً دعيني أقل إننا سلّم

أحدُنا على الآخر كحليفين، ثياو وأنا.

أ. ف.: دكتور كيسنجر، اتضح أنّ ثياو ثمرة جوز كسرُها أصعبُ مما ظنّ أيّ فرد. لذا فيما يتعلّق بثياو، هل تشعر أنك فعلتَ كلّ ما باستطاعتك أو أنكَ تأمل أن تكون قادراً على أن تفعل شيئاً أكثر؟ باختصار، هل تشعر أنك متفائل فيما يتصل بمشكلة ثياو؟

هـ. ك.: بالطبع أشعر أني متفائل! لا تزال لديّ أشياء أود القيام بها. أشياء كثيرة أود القيام بها! لم أفرغ منها بعد! لم ننتهِ منها بعد! وأنا لا أشعر أني عاجز. لا أشعر أني واهن العزيمة. لا، على الإطلاق. أشعر أني مستعد وواثق. متفائل! إذا لم يكن باستطاعتي أن أتكلّم عن ثياو، إذا لم يكن باستطاعتي أن أخبركِ ماذا كنا نفعل في هذه اللحظة من المفاوضات، هذا لا يعني أني أكاد أفقد الإيمان في أن أكون قادراً على ترتيب الأشياء خلال الزمن الذي ذكرتُه. لهذا السبب لا فائدة بالنسبة لثياو من أن يطلب منكم أنتم المراسلين الصحفيين أن تجعلوني أوضِّح النقاط التي لم نوافق عليها. إنه شيء عديم الفائدة إلى حدٍّ كبير بحيث أني لا أنزعج من طلب كهذا. والأكثر من ذلك، لستُ فرداً من النوع الذي تهزُّه العاطفة. العواطف لا تخدم غرضاً. العواطف لا تقدّم أيَّ خدمة في تحقيق السلام.

أ. ف.: لكن الأموات، أولئك الذين يُشارفون على الموت، على عجلة من أمرهم، دكتور كيسنجر. في الصحف هذا الصباح هنالك صورة مُروِّعة: شاب يافع من الـڤيتكونغ توفِّي بعد يومين من 31

تشرين الأول/ أكتوبر. وكانت هنالك قطعة أخبار مُروِّعة: اثنان وعشرون أمريكيًّا ماتوا في طائرة مروحية أسقطها مدفع هاون عائد للـڤيتكونغ، ثلاثة أيام بعد 31 تشرين الأول/ أكتوبر. وفيما أنت تنصح بعدم الاستعجال،» وزارة الدفاع الأمريكية «ترسل أسلحة وذخيرة حربية طازجة إلى ثياو. هانوي تفعل الشيء ذاته.

هـ. ك.: هذا شيء لا مَناص منه. إنه يحدث دوماً قبل وقف إطلاق النار. ألا تتذكرين المناورات التي حصلت في (الشرق الأوسط) في لحظة وقف إطلاق النار؟ استمروا نحو عامين في الأقل. إنك تعرفين، الحقيقة القائلة إننا نُرسل أسلحة أكثر إلى سايغون وترسل هانوي أسلحة أكثر إلى «الـڤيتناميين الشماليين «المتمركزين في «ڤيتنام الجنوبية «لا تعني شيئاً. لا شيء. لا شيء. ولا تجعليني أتكلّم عن ڤيتنام أكثر، من فضلك.

أ. ف.: ألا ترغب أن تتكلّم عن الحقيقة التي مفادها، وفقاً لكثيرين، أن الاتفاق الذي قبلتَه أنت ونيكسون هو عمليًّا خيانة لهانوي؟

هـ. ك.: هذا شيء مُضحِك! إنه شيء مُضحِك أن نقول إنّ الرئيس نيكسون، وهو رئيس جمهورية وقف بوجه «الاتحاد السوڤييتي» و«الصين الشيوعية»، وفي عشية الانتخابات في بلاده هو تكفّل بموقف مساعدة ودفاع لصالح «ڤيتنام الجنوبية «ضد ما عدّه غزواً «ڤيتناميًّا شماليًّا»... إنه شيءٌ مُضحِك أن نعتقد أنّ رئيساً كهذا يُمكنه أن يغدر بهانوي؟ ولماذا يتعين عليه أن يغدر الآن تحديداً؟ ما فعلناه لم يكن غَدراً. كان إعطاء فرصة لـ «ڤيتنام

الجنوبيـة «كـي تعيش في ظروف هـي، اليوم، سياسيـة أكثر منها عسـكرية. الآن الأمـر مـتروك لــ «الـڤيتناميـين الجنوبيين» كي يكسـبوا التنافس السـياسي الذي ينتظرهم. كما قلنا على الدوام. إذا مـا قارنـتِ الاتفـاق المقبول مـع مقترحاتنا في 8 أيـار/ مايو، سوف تدركين أنه تقريباً الشيء نفسه. لا توجد اختلافات كبيرة بين ما اقترحناه في 8 أيار/ مايو وما كانت تحتويه مُسَوَّدة الاتفاق المقبـول. لم نضـع أيّ فقرات جديـدة، لم نقدم تنـازلات أخرى. أنـا أرفـض قطعـاً وكليًّا مفهوم «الغـدر»، لكـن، في الحقيقة هذا كـلام كافٍ عن ڤيتنـام الآن. دعينا نتحدّث عـن ميكاڤيللي، عن شيشرون، عن كلّ شيء باستثناء ڤيتنام.

أ. ف.: دعنا نتحدّث عن الحرب، دكتور كيسنجر. لستَ سِلميًّا، أليس كذلك؟

هــ. ك.: لا، في الحقيقـة أنـا لا أعتقـد أني سِلمـي. مـع أننـي أحـترم السِلميين الأصيلين، لا أؤيد أيّ سِلميٍّ، وبخاصة مع السِلميين المتوسِّطـين: كما تعرفـين، إن أولئك الذين يكونـون سِلميِّين من جانـب ويكونـون أيَّ شيء إلا سِلميـين مـن جانـب آخـر. إن السِـلميين الوحيديـن الذيـن أؤيد التحـدّث معهم هـم أولئك الذيـن يتقبّلون نتائـج اللاعنف حتى النهايـة. لكن أرغب فقط بأن أتحدّث معهم كي أقول لهم إنّ إرادة الأقوى سوف تسحقهم وإنّ سِلميَّتهـم لا يمكن أن تـؤدي إلا إلى معاناة مروِّعة. الحرب ليست تجريداً، إنها شيء يعتمد على الظروف. الحرب ضد هتلر،

على سبيل المثال، ضرورية. لا أعني بهذا أنّ الحرب بحدِّ ذاتها ضرورية، وأنّ البلدان يتعين عليها أن تشنَّ الحرب كي تُحافظ على رجولتها. أعني أنه توجد مبادئ قائمة، لا بدَّ للبلدان أن تكون مستعدة للدفاع من أجلها.

أ. ف.: وماذا ينبغي لكَ أن تقول عن الحرب في ڤيتنام، دكتور كيسنجر؟ لم تكن أبداً ضد الحرب في ڤيتنام، يبدو لي.

هـ. ك.: كيف يُمكنني أن أكون ضد هذه الحرب؟ ولا حتى قبل أن أتبوأ المنصب الذي أشغله اليوم... لا، لم أكن قط ضد الحرب في ڤيتنام.

أ. ف.: لكن ألا تجد أنّ شليسنجر [1] على حق حين يقول إن الحرب في ڤيتنام نجحت فقط في البرهنة على أنّ نصف مليون أمريكيّ بتقنيتهم كلّها لم يكونوا قادرين على إلحاق الهزيمة برجال فقيري التسليح يلبسون البيجامات السود؟

هـ. ك.: هذا سؤال آخر. إنه سؤال ما إذا كانت الحربُ في ڤيتنام ضرورية، حرب عادلة، بغض النظر عن أن الأحكام من ذلك النوع تعتمد على المنصب الذي يتخذه المرء حين يكون البلد قد انخرط أصلاً في الحرب، والشيء الوحيد المتبقي هو أن تبتكري

---

(1) جيمس شليسنجر James Rodney Schlesinger (1929 – 2014): اقتصادي وموظف حكومي أمريكي، عُرِف بعمله كوزير للدفاع من العام 1973 إلى العام 1975 في إدارة الرئيسين ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد. أصبح أول وزير للطاقة في أمريكا في رئاسة جيمي كارتر – م.

سبيلاً للخروج منها. على أية حال، قاعدتي، قاعدتنا، كانت أن نقلّص أكثر فأكثر الدرجة التي انخرطت فيها أمريكا في الحرب، كي نتمكن بعدها من وضع نهاية للحرب. بالتحليل الأخير، التاريخ سوف يقول مَن الذي فعل أكثر: أولئك الذين اشتغلوا من خلال الانتقاد ولا شيءَ سواه، أم نحن الذين حاولنا أن نقلّص الحرب ومن ثم نُنهيها. نعم، الحُكم متروك للتاريخ. حين يكون البلد مُتورِّطاً في حربٍ ما، لا يكفي أن تقولي إنها يجب أن تُنهى. ينبغي أن تُنهى وفقاً لمبدأ معين. وهذا الشيء مختلف تماماً عن قولنا إنه كان شيئاً صحيحاً أن ندخل تلك الحرب.

أ. ف.: لكن ألا تجد، دكتور كيسنجر، أنها حربٌ عديمة الفائدة؟

هـ. ك.: في هذا الشأن يُمكنني أن أوافق. إنما لا تدعينا ننسى أنّ السبب الذي دفعنا للحرب هو أن نُحافظ على (الجنوب) من أن يلتهمه (الشمال)، أن نسمح لـ (الجنوب) أن يبقى (الجنوب). بطبيعة الحال، لا أعني بذلك أنّ هذه الحرب هي هدفنا الوحيد... كانت أيضاً شيئاً أكثر من ذلك... لكن اليوم لستُ في وضع كي أحكم ما إذا كانت الحرب في ڤيتنام عادلة أم لا. سواء أكان انخراطنا فيها نافعاً أم لا. إلا أننا لا نزال نتكلّم عن ڤيتنام؟

أ. ف.: نعم. و، فيما نحن لا نزال نتكلّم عن ڤيتنام، هل تعتقد أنّ بوسعكَ القول إن هذه المفاوضات كانت ولا تزال المشروع الأهم في مسيرتك وحتى في حياتك؟

هـ. ك.: إنها المشروع الأصعب. كما لو أنه الأكثر إيلاماً. لكن ربما هو شيء غير صحيح أن نسميها المشروع الأصعب. إنه شيء أدق أن نقول إنها المشروع الأكثر إيلاماً. لأنها ورطتني عاطفياً. كما تعرفين، أن تتمكني من الوصول إلى الصين ليست مهمة صعبة فكريًّا، إلا أنها ليست صعبة عاطفياً. السِلم في ڤيتنام بدلاً من ذلك كان مهمة صعبة عاطفيًّا. أما أن نسمّي هذه المفاوضات الشيء الأهم الذي قمتُ به... لا، ما أردتُ أن أنجزه لم يكن فقط إحلال السلام في ڤيتنام، بل أردتُ أن أنجز ثلاثة أشياء. هذا الاتفاق، «التقارب «مع الصين، وعلاقة جديدة مع (الاتحاد السوڤييتي). كنتُ أعلّق دوماً أهميةً كبرى على قضية إقامة علاقة جديدة مع (الاتحاد السوڤييتي). أقول ليس أقل من «التقارب «مع الصين وإنهاء الحرب في ڤيتنام.

أ. ف.: وقد فعلتَ ذلك. الخبطة مع الصين كانت ناجحة، الخبطة مع روسيا كانت ناجحة، وخبطة السلام في ڤيتنام كانت ناجحة تقريباً. إذاً عند هذه النقطة، أسألك، دكتور كيسنجر، الشيء نفسه الذي سألتُه روّاد الفضاء حينما ذهبوا إلى القمر: «ماذا بعد؟ ماذا ستفعلون بعد القمر؛ ماذا تستطيعون أن تفعلوا إضافة إلى مهنتكم بوصفكم رواد فضاء؟ «

هـ. ك.: آه! وماذا قال روّاد الفضاء باستثناء ذلك؟

أ. ف.: ارتبكوا وقالوا، «سوف نرى... لا نعرف».

هـ. ك.: ولا أنا أعرف. أنا فعلاً لا أعرف ماذا سأفعل بعد ذلك. لكن، على خلاف روّاد الفضاء، لستُ مرتبكاً من السؤال. وجدتُ أشياءَ كثيرةً جداً كي أقوم بها في حياتي، وأنا متأكد من أني لمّا أغادر هذا المنصب... بطبيعة الحال، سأحتاج إلى بعض الوقت كي أتعافى، حقبة زمنية من تخفيف الضغط. لا أحدَ في المنصب الذي أشغله حاليًّا يستطيع أن يغادره فحسب ويبدأ بشيء آخر مباشرة. لكن، حالما يخِفُّ عني الضغط، أنا متيقن من أنني سأجد شيئاً يستحق القيام به. لا أريد أن أفكر فيه راهناً، بوسعه أن يؤثر في... في عملي. نحن نمر في حقبة ثورية مميزة بحيث أنه كي يرسم المرء خطة حياته، اليوم، هو وضع تستحقُّه الطبقة الوسطى الدنيا في القرن التاسع عشر.

أ. ف.: هل ستعود إلى التعليم في هارڤارد؟

هـ. ك.: ربما أعود. إلا أنه شيء غير مُرجَّح، غير مُرجَّح إلى أبعد حدّ. توجد أشياء ممتعة أكثر، وإذا لم أجد، بكلّ التجربة التي أملكها، طريقة كي أستأنف حياة ممتعة... ستكون تلك غلطتي. والأكثر من ذلك، لم أقرر بأيّ حال من الأحوال أن أتخلى عن هذه الوظيفة. أنا أحب هذه الوظيفة حبًّا جمًّا، كما تعرفين.

أ. ف.: بالطبع. السلطة مُغرية على الدوام. دكتور كيسنجر، إلى أيّ درجة تسحرك السلطة؟ حاول أن تكون صريحاً.

هـ. ك.: سأحاول. حين تكون السلطة في يديكِ وتمسكين بها ردحاً

طويـلاً من الزمـن، ينتهي بكِ الحـال أن تفكري فيهـا باعتبارها شـيئاً من استحقاقـك. إني متأكد من أني لمّا أغـادر هذا المنصب، سأحـس بنقص السـلطة. مـع ذلك السـلطة باعتبارهـا أداة من حقهـا ألا تسـتنجد بي. أنا لا أستيقظ كلّ صبـاح، يا إلهي، أليس هو شـيئاً استثنائيًّا أن تكون لديّ طائرة تحت تصرّفي، وأن تكون هناك سيارة مع سائق شـخصي في انتظاري عند الباب؟ مَن قال إن هـذا شيء مُمكـن؟ لا، هـذه الأفكـار لا تُثير اهتمامـي. و، إذا مـا تعيّن علـيّ أن أمتلكها، فإنها يقيناً لا تُصبح عامـلاً مُهيمناً. ما يُثير اهتمامي هو ماذا باستطاعتكِ أن تفعلي بالسـلطة. صدّقيني، بوسعكِ أن تفعلي أشياءَ مُذهلة... على كلّ حال إنها ليست رغبةً بالسـلطة تلك التي دفعتني لأن أتبوأ هذه الوظيفة. إذا ما نظرتِ إلى ماضيِّ السـياسي سترين أنّ الرئيس نيكسـون لم يكن بوسعه أن يُدرك خططي. كنتُ ضده في ثلاث انتخابات بالكامل.

أ. ف.: أعـرف. ذات مـرة. حتـى أنك أفـدتَ قائلاً إن نيكسـون «غير مناسـب لأن يكـون رئيـس جمهورية». هـل جعلك هـذا الأمر تشعر بالحَرَج من نيكسون، دكتور كيسنجر.

هـ. ك.: لا أتذكر الكلمات المضبوطة التي قلتُها ضد ريتشارد نيكسون. إلا أنني أعتقد أنني حتماً قلتُ شيئاً أشبه بهذا تقريباً بما أنّ الناس ظلـوا يرددون هذه المقولـة في علامات اقتباس. عـلى كلّ حال، إذا كنـتُ قلتُهـا، فهـذا دليل على أنّ نيكسـون لم يكن موجوداً في خططـي من أجـل نيل منصـب حكومـي رفيع المستوى. وفيما

يتعلّـق بالشعور بالحَـرَج منه... لم أكن أعرفه في ذلك الحين. كان موقفـي تجاهه هـو الموقـف المعهـود للمثقفين؟ هـل تفهمين ما أعنـي؟ إلا أنني كنتُ مُخطئاً. الرئيس نيكسـون أظهر قوةً كبيرةً، قـدرةً كبـيرةً. حتى حين اتصـل بي هاتفيًّا. لم يسـبق لي أن دنوتُ منـه لمّا أعطاني هذه الوظيفة. دُهشـتُ بها. مهما يكن من أمر كان يعرف أني لم أُظهِر قدراً كبيراً من الصداقة أو العاطفة تجاهه. أوه، نعم، أظهر شجاعةً كبيرة في اتصاله الهاتفي بي.

أ. ف.: لم يخسر شـيئاً في ذلك، دكتور كيسـنجر. باستثنـاء الاتهام الذي يُوجه إليك اليوم، بأنكَ مُرضِعة نيكسون العقلية.

هـ. ك.: هـذا اتهام فارغ بكلّ معنى الكلمـة. لا تدعينا ننسَ أنّه قبل أن يعرفني، الرئيس نيكسـون كان فعَّالاً جداً في السياسة الخارجية. كانـت هذه دوماً اهتمامه الذي يسـتغرق طاقته ووقته. حتى قبل انتخابـه، كـان مـن الجـلي أنّ السـياسة الخارجية قضية شـديدة الأهمية بالنسـبة له. كانت لديه أفكار واضحة جداً في الموضوع. هـو رجل قـوي. والأكثـر من ذلـك، إنـكِ لا تُصبحين رئيسـة (الولايات المتحدة)، إنكِ لا تُرشـحين مرتين كمرشحة رئاسية، إنكِ لا تعيشين زمناً طويلاً في السياسة، إذا كنتِ إنسانة ضعيفة. باستطاعتـكِ أن تفكري ما تشائين بشأن الرئيس نيكسـون، غير أنّ شيئاً واحداً مؤكدًا: أنكِ لا تُصبحين رئيسة مرتين إذا ما كنتِ أداة شخص آخر. تفسيرات كهذه هي تفسيرات رومانسية وغير مُنصِفة.

أ. ف.: هل أنتَ مُولع جداً به، دكتور كيسنجر؟

هـ. ك.: أكنُّ له احتراماً بالغاً.

أ. ف.: دكتور كيسنجر، الناس يقولون إنكَ لا تُبالي بنيكسون. إنهم يقولون إن الشيء الذي تهتم به هو الوظيفة ولا شيءَ سواها. إنهم يقول إنكَ ستؤديها في ظل أيّ رئيس جمهورية.

هـ. ك.: بدلاً من ذلك، لستُ متيقناً على الإطلاق من أني سأكون قادراً على أن أؤدي مع رئيس آخر ما أديتُه معه. إن علاقةً خاصةً من هذا الطراز، أعني العلاقة القائمة بيني وبين الرئيس، تعتمد دوماً على أسلوب الرجلين. بكلمات أخرى، لا أعرف زعماءَ كثيرين، وقد قابلتُ عدداً من الزعماء، كانت لديهم الشجاعة كي يبعثوا معاونيهم إلى بكين من دون أن يقولوا شيئاً إلى أيّ أحد. لا أعرف زعماء كثيرين يتركون لمعاونيهم مهمة التفاوض مع «الڤيتناميين الشماليين»، في حين يُبلغون مجموعة صغيرة جداً من الأشخاص بخصوص ذلك. ثمة أشياء معينة تعتمد فعلاً على نوع الرئيس: ما فعلتُه كان مُمكناً، لأنّه جعله مُمكناً بالنسبة لي.

أ. ف.: وعلى الرغم من ذلك، كنتَ أيضاً مُستشاراً لرؤساء جمهورية آخرين. وحتى رؤساء جمهورية كانوا مناوئين لنيكسون. إني أتحدّث عن كيندي، جونسون...

هـ. ك.: موقفي تجاه سائر رؤساء الجمهورية كان على الدوام أن أترك إليهم مسألة أن يقرروا ما إذا يريدون أن يعرفوا رأيي أم لا. حينما

يطلبـون رأيي، أعطيهم إياه، مُخبراً إياهم، من دون تمييز، ما أفكر بـه. لم يكن يهمني أيّ حزب ينتسبون إليه. أجبت عن الأسئلة الموجَّهة من كيندي، جونسـون، ونيكسـون بالاستقـلال ذاته. أعطيتُهم المشورة ذاتها. إنـه شيء صحيح، كـان الأمر أصعب مع كينـدي. في الحقيقة الناس يفضلون أن يقولوا إني لم أنسجم معـه. طيـب... نعـم، في أغلب الأحيـان كان الخطـأ خطئي. في ذلك الوقت كنتُ أقل نضجاً بكثير مما أنا عليه الآن. وآنئذ كنتُ مُستشاراً أعمل على مدى ساعات مُحدّدة؛ لا يسـعكِ أن تؤثري عـلى سياسـة يوماً بيـوم لرئيسٍ ما إذا كنـتِ لا ترينه إلا مرتين في الأسبوع، في حين يراه الآخرون سبعة أيام في الأسبوع. أعني... مع كيندي وجونسـون لم أكن في منصـب مقارنة بالمنصب الذي أشغله الآن مع نيكسون.

أ. ف.: بلا ميكافيللية، دكتور كيسنجر؟

هـ. ك.: لا، بلا ميكافيللية على الإطلاق. لماذا تطرحين هذا السؤال؟

أ. ف.: لأنه في لحظات معينة، وأنا أستمع إليك، قد يتسـاءل المرء ليس إلى أيّ مدى كـان تأثيرك على رئيس (الولايات المتحدة)، بل إلى أيّ مدى كان تأثير ميكافيللي عليك.

هــ. ك.: ليس لـه تأثير عـلى الإطلاق. في حقيقـة الأمر قليـلٌ جداً من ميكافيللي يُمكن أن يكون مقبولاً أو مُستعمَلاً في العالم الحديث. إن الـشيء الوحيـد الذي أجده ممتعاً في ميكافيلـلي هو طريقته في

أن يأخذ بنظر الاعتبار إرادة الأمير. ممتعاً، إنما ليس إلى درجة أن يؤثر فيَّ. إن كنتِ تريدين أن تعرفي مَن الذي كان له تأثير بالغ عليَّ، سأجيبك باسمَيْ فيلَسُوفيْنِ: سپينوزا [1] وكانط [2]. إذاً هو شيء غريب أن تختاري بأن تربطيني ذهنيًّا مع ميكافيللي. الناس بالأحرى يربطونني ذهنيًّا مع مترنيخ [3]. وهو شيء سخيف في الواقع. عن مترنيخ ألّفتُ كتاباً واحداً لا غير، وكان

---

(1) باروخ سپينوزا Baruch Spinoza (1632 – 1677): فيلسوف هولندي، من أهم فلاسفة القرن السابع عشر. في مطلع شبابه كان متوافقاً مع فلسفة رينيه ديكارت عن ثنائية الجسد والعقل باعتبارهما شيئين منفصلين، ولكنه عاد وغيّر وجهة نظره في وقت لاحق وأكد أنهما غير منفصلين، لكونهما كياناً واحداً. امتاز سپينوزا باستقامة أخلاقه وخطّ لنفسه نهجاً فلسفيًّا يعتبر أنّ الخير الأسمى يكون في «فرح المعرفة» أي في «اتحاد الروح بالطبيعة الكاملة «– م.

(2) إيمانويل كانط Immanuel Kan (1724 – 1804): فيلسوف ألماني. عاش كلّ حياته في مدينة كونيغسبرغ في مملكة بروسيا. كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية. كان إيمانويل كانط آخر فلاسفة عصر التنوير الذي بدأ بالمفكرين البريطانيين جون لوك وجورج بيركلي وديفيد هيوم. طرح إيمانويل كانط منظورا جديدا في الفلسفة أثر ولا زال يؤثر في الفلسفة الأوروبية حتى الآن، أي أنّ تأثيره امتد منذ القرن الثامن عشر حتى القرن الحادي والعشرين. نشر أعمالاً مهمة وأساسية عن نظرية المعرفة وأعمالاً أخرى متعلقة بالدين وأخرى عن القانون والتاريخ – م.

(3) كليمنز مترنيخ Klemens Metternich (1773 – 1859): سياسي ورجل دولة نمساوي ومن أهم شخصيات القرن التاسع عشر. يُنسب إليه وضع قواعد العمل السياسي التي سارت عليها القوى الكبرى في أوروبا طوال الأربعين عاماً التي أعقبت هزيمة نابليون بونابرت. شكلت مبادئ مترنيخ، والتي تبلورت خلال مفاوضات مؤتمر ڤيينا، مجرى الأحداث السياسية الأوروبية الأساسية. يعدُّ بعضهم مترنيخ خيرَ من طبق مبادئ الميكافيللية السياسية بصورتها الكلاسيكية – م.

هذا بداية سلسلة طويلة من الكتب عن بناء النظام العالمي للقرن التاسع عشر وتفككه. إنها سلسلة كانت ستنتهي عند (الحرب العالمية الأولى). هذا هو كلّ شيء. لا يُمكن أن يكون هنالك قاسم مشترك بيني وبين مترنيخ. كان مستشاراً ووزير خارجية في حقبة زمنية حين كنتِ تحتاجين، من وسط أوروبا، إلى ثلاثة أسابيع كي تذهبي من قارة إلى قارة أخرى. كان مستشاراً ووزير خارجية في زمن كانت الحرب يُديرها عسكريون محترفون وكانت الدبلوماسية في أيدي الأرستقراطيين. كيف يُمكنكِ أن تقارني ذلك بعالَم اليوم، وهو عالَم لا توجد فيه مجموعة متجانسة من القادة، لا يوجد موقف داخلي مُتجانس، لا يوجد واقع ثقافي متجانس؟

أ. ف.: دكتور كيسنجر، كيف يُمكنكَ أن تفسر مكانة النجم السينمائي العصية على التصديق التي تتمتع بها، كيف تفسر الحقيقة القائلة إنكَ تقريباً مشهورٌ أكثر وشعبيٌّ أكثر من رئيس جمهورية؟ هل لديك نظرية في هذه المسألة؟

هـ. ك.: نعم. لكنني لن أخبركِ بها. لأنها لا تضاهي نظريات أغلب الناس. نظرية الذكاء، على سبيل المثال. وبعدئذٍ الذكاء ليس بتلك الأهمية في ممارسة السلطة، وعادةً في حقيقة الأمر لا يُساعد. بالطريقة نفسها كرئيس دولة، إن الشخص الذي يؤدي وظيفتي لا يحتاج إلى أن يكون لامع الذكاء. نظريتي نظرية مختلفة تماماً، لكن، أكرر، لن أخبركِ بها. لماذا ينبغي لي أن أفعل

ذلـك طالما أنـا لا أزال في منتصف عملي؟ بالأحـرى، أنتِ التي ينبغـي أن تخبرينـي بنظريتك. أنـا متأكد أنكِ أيضـاً لديكِ نظرية بشأن الأسباب الكامنة وراء شعبيتي.

أ. ف.: لسـتُ متأكدة، دكتور كيسـنجر. أنا أفتش عن نظرية من خلال هـذا الحـوار. ولا أجدهـا. أعتقـد أنـه في جذر كـلّ شيء يوجد نجاحك. أعني، مثل لاعب الشطرنج، قمتَ بحركتين أو ثلاث جيـدة. الصـين، في المقام الأول. الناس يُحبـون لاعب الشطرنج الذي يهزم الملك.

هـ. ك.: نعم، الصين كانت عنصراً مهمًّا جداً في آلية نجاحي. ومع ذلك ليسـت تلك هي النقطة الرئيسة. النقطة الرئيسة... حسناً، نعم، سأخـبركِ. مـا هو الشيء الذي أبالي به؟ النقطة الرئيسـة تنبع من الحقيقـة التـي مفادها أنني عملـتُ دوماً بمفـردي. الأمريكيون عـلى هـذه الشاكلة إلى حـدٍّ كبـير. الأمريكيون على غـرار راعي البقـر الذي يقـود قافلة العربات من خـلال الركوب وحده على حصانـه، راعي البقر الـذي يركب وحده تمامـاً ويدخل المدينة، القريـة، بحصانه ولا شيءَ سواه. وربما حتى من دون مسـدس، بما أنه لا يطلق الرصاص. إنه يقوم بمهمة ما، هذا هو كلّ شيء، بـأن يكون في المكان الصحيح وفي الزمـان الصحيح. باختصار، «غربي».

أ. ف.: فهمت. إنكَ ترى نفسك بوصفك نوعاً من هنري فوندا[1]، رجل غير مُسلّح مستعد لأن يقاتل بقبضتيه من أجل المُثُل الفاضلة. وحيداً، جسوراً...

هـ. ك.: ليس بالضرورة جَسوراً. في الحقيقة، راعي البقر هذا لا يتعين عليه أن يكون جَسوراً. كلُّ ما يحتاج إليه هو أن يكون بمفرده، كي يُظهِر للآخرين أنه يركب حصانه ويدخل المدينة ويقوم بكلّ شيء بمفرده. هذه الشخصية المُذهلة، الرومانسية، تناسبني على وجه الدقة لأنه كي أكون بمفردي هذه الصفة كانت على الدوام جزءاً من أسلوبي أو، إذا شئتِ، تكنيكي. إضافة إلى الاستقلال. أوه، هذا شيء مهم جداً فيَّ ومن أجلي. وختاماً، القناعة. كنتُ مقتنعاً دوماً أنه كان يتحتَّم عليّ أن أفعل ما فعلتُه. والناس يشعرون به، ويؤمنون به. وأنا أكترث بالحقيقة التي مفادها أنهم يؤمنون بي لّما تجعلين شخصاً يغيّر رأيه أو تُقنعيه، يلزمكِ ألا تُربكيه. ولا بوسعكِ ببساطة أن تُحصي. بعض الأشخاص يحسبون أني أخطط بعناية ماذا ستكون النتائج، بالنسبة لعامة الناس، فيما يتصل بأيّ واحدة من مبادراتي أو بأيّ جهد من جهودي. إنهم

(1) هنري فوندا Henry Fonda (1905 – 1982): ممثل أمريكي، حاصل على جائزة الأوسكار العام 1981 كأفضل ممثل عن دوره في فيلمه الأخير «البركة الذهبية»، كما حصل بنفس الدور على جائزة الغولدن غلوب العام 1982. عُرف بتقديم أدوار الرجل الأمريكي المستقيم ذي الأخلاق العالية، أشهرها كانت في فيلميْ «عناقيد الغضب» (1941) و«12 رجلاً غاضباً» (1957). ثم خرج عن هذه الأدوار حين قدم دور قاتل وسفاح في فيلم «ذات مرة في الغرب» (1968). وهو والد كلّ من الممثلة جين فوندا والممثل بيتر فوندا وجد الممثلة بريجيت فوندا – م.

يحسـبون أنّ هذا الاستغراق ماثـل في عقلي على الدوام. بدلاً من ذلـك نتائج أعمالي، أعني حُكم الجمهـور، لم يكن يُضايقني قطُّ. أنـا لا أطالب بالشعبية، أنا لا أفتش عـن الشعبية. على العكس، إذا كنتِ تريدين أن تعرفي فعلاً، أنا لا أكترث بالشعبية. لا أخاف على الإطلاق من فقدان جمهوري؛ يُمكنني أن أسمح لنفسي بأن أقـول مـا أفكر فيه. أنا أشـير إلى ما هو أصيل فيَّ. لو تسـنَّى لي أن أسمح لنفسي بأن أنزعج بردود أفعال الجمهور، لو تسـنَّى لي أن أتصرّف كليّاً على أساس تكنيك محسوب، لن أنجز شيئاً. أنظري إلى الممثلين. إنهم فعلاً أشـخاص جيدون، فهم لا يعتمدون على التكنيـك فقط. إنهم يُمثلون من خلال إتباع تكنيك معين واتباع قناعاتهـم في الوقت نفسـه. إنهـم مثلي، أصلاء. لا أقـول إن هذا ينبغي أن يسـتمر إلى الأبد. في الحقيقة، قد يتبخر بالسرعة نفسها التي جاء فيها. على الرغم من كلّ شيء إنه حاليًّا موجودٌ هناك.

أ. ف.: هـل تسـعى لأن تقـول لي إنك رجل عفوي، دكتور كيسـنجر؟ يـا إلهي، إذا ما تركت ميكافيللي، أول شـخصية يبدو لي أنه شيء طبيعـي أن تكون مرتبطة بك ذهنيًّا ستكون عالم رياضيات بارد، رابط الجأش بنحو مُوجع. ما لم أكن مُخطئة، إنك رجل بارد جداً، دكتور كيسنجر؟

هـ. ك.: في التكتيكـات، لا في الإستراتيجيـة. في الواقع، أنا أؤمن أكثر بالعلاقـات الإنسـانية أكثـر من إيـماني بالأفكار. إننـي أستعمل الأفكـار إلا أنني أحتـاج إلى العلاقات الإنسـانية، كـما أظهرتُ

في عمـلي. عـلى أية حال، أليـس ما جرى لي هـو في الواقع جرى بمحض المصادفة؟ سبحان الله، كنتُ أكاديميًّا بدرجة بروفيسور غير معـروف على الإطلاق. كيـف كان باستطاعتـي أن أحدّث نفـسي قائلاً: أنا الآن ذاهب لأناور الأشـياء كـي أكون مشهوراً عـلى المسـتوى العالمي؟ كنتُ سأصبح أحمقَ بكـلّ معنى الكلمة. كنـتُ أريـد أن أكون في الموقع الذي تجري فيه الأشـياء، بالطبع، إلا أننـي لم أدفع الثمن كي أصل إلى هناك. لم أقدّم تنازلات قط. كنـتُ أسمح لنفسي دوماً أن تقودني القرارات العفوية. قد يقول المرء عندئذ إنها حدثت، لأنها يجب أن تحدث. هذا ما يقولونه على الدوام حين تكون الأشـياء قد وقعت. إنهم لا يقولون ذلك عن الأشياء التي لا تقع تاريخ الأشياء التي لا تقع لا تكون مكتوبة. بمعنـى ما، على كلّ حال، أنا قَدَري. أنـا أؤمن بالقضاء والقدر. أنـا مقتنع، بالطبع، أنّ عليـكِ أن تناضلي كي تصلي إلى هدف ما. إلا أنني أؤمن أيضاً أنّ هنالك حدوداً للكفاح بمستطاع الإنسان أن يُقيمها كي يبلغ هدفاً ما.

أ. ف.: ثمة شيء آخر، دكتور كيسنجر: لكن كيف توفِّق بين المسؤوليات الهائلـة التي اضطلعتَ بها وبين السـمعة النزقـة التي تتمتع بها؟ كيف يمكنك أن تجعل ماو تسي تونغ، شو إن لاي [1]، أو لِي دوك

(1) شو إن لاي Chu En – lai (1898 – 1976): أول رئيس وزراء لجمهورية الصين الشعبية، تقلد مسـؤوليات منصبه بدءاً من تشرين الأول/ أكتوبر 1949 حتى وفاته في كانون الثاني/ يناير 1976. عمل شو في ظل حكم ماو تسي تونغ Mao Zedong كما قام بدور فعال في تعزيز سيطرة الحزب الشيوعي على السـلطة وتشكيل السياسة الخارجية

ثـو يأخذون كلامـك على محمل الجَد، وبعدها تسـمح لنفسـك بـأن يُحكـم عليك باعتبـارك دون جوان مرتاح البال أو ببسـاطة باعتبارك رجلاً نَزِقاً؟

هــ. ك.: لا أبـداً. لمـاذا ينبغـي لي أن أحس بالحَرَج لمّـا أمضي لأتفاوض مـع لِي دوك ثـو؟ لمّا أتحدث مع لِي دوك ثـو أعرف ماذا يتعين عليّ أن أفعـل، وبعدهـا لمّا أكون مـع الفتيات، أعرف مـاذا ينبغي أن أفعـل مـع الفتيات. زيادة عـلى ذلك، لِي دوك ثـو لا يوافق قطعاً عـلى التفاوض معي، لأني أمثّـل أنموذجاً للاستقامة الأخلاقية. إنه يوافق على التفاوض معي لأنه يريد أشياءَ معينة مني بالطريقة نفسها التي أريد أشياءَ معينة منه. أنظري، في حالة لِي دوك ثو، كما في حالة شـو إن لاي وماو تسي تونغ، أعتقد أنّ سمعتي بوصفي رجـلاً نَزِقاً كانت ولا تزال مفيدة لأنها خدمت ولا تزال تخدم في طمأنة الناس. كي أُريهم أني لسـتُ قطعة متحف. على كلّ حال، هذه السمعة النزقة، العابثة تُسلّيني.

وتنمية الاقتصاد الصيني. وساعدت مهارة ودبلوماسية شو في العمل في منصب وزير الخارجيـة الصيني مـن 1949 إلى 1958. حيث دافع عن التعايش السـلمي مع الغرب بعـد توقف الحرب الكورية في مؤتمر جنيف 1954 كما ساعد في تنسـيق زيارة ريتشارد نيكسـون العام 1972 للصين. وساعد، أيضاً، في وضع السياسات المرتبطة بالنزاعات المريرة مع الولايات المتحدة وتايوان والاتحاد السـوفييتي (بعد 1960) والهند وفيتنام. وعُرف عن شو بأنه من كبار مساعدي ماو تسي تونغ، الذي رافقه مدةً طويلة، كما كان متخصصاً في السياسة الخارجية. وقد ساعدت شخصيات كلّ من شو وماو تسي تونغ المتباينـة في تكوين فريق كافٍ وفقاً للدبلوماسي الأمريكي هنري كيسـنجر الذي عمل كثيرا مع كلا الرجلين – م.

أ. ف.: وتعتقد أنني صدّقتُ أنها سمعة غير مُستحَقة، أعني إخفاءك مشاعرك عن الآخرين بدلاً من البوح بالحقيقة.

هـ. ك.: حسناً، إنها مُبالغ بها إلى حدٍّ ما، بطبيعة الحال. إلا أنها إلى حدٍّ ما، دعينا نواجهها، إنها صحيحة. ما يُعوّل عليه ليس إلى أيّ درجة هي صحيحة، أو إلى أيّ درجة أكرّس نفسي للنساء. ما يُعوَّل عليه هو إلى أيّ درجة أنّ النساء جزءٌ من حياتي، أنهن انغماس جوهري. حسناً، النساء لسن هكذا على الإطلاق. النساء بالنسبة لي هنّ مجرّد لهو، هواية. لا أحدَ يقضي وقتاً طويلاً مع هواياته. وأنا أقضي وقتاً محدوداً معهن وبإمكانكِ أن تُلقي نظرة على جدول أعمالي. سأخبرك شيئاً آخر: إنه ليس نادراً أني بالأحرى أرى وَلَديّ. أنا أراهما في أحيان كثيرة، في الواقع، مع أنه ليس كثيراً كما في السابق. كقاعدة، نحن نقضي الكريسماس معاً، العطلات المهمة، وأسابيع عدّة أثناء فصل الصيف، وأمضي إلى بوسطن مرة واحدة شهريًّا. لمجرد أن أراهما. إنك تعرفين يقيناً أني طُلقت من زوجتي منذ بضعة أعوام. لا، إن حقيقية كوني طُلّقتُ لا تُزعجني. إن حقيقة كوني لا أُقيم مع أولادي لا تسبب لي أيّ عُقد بالذنب. منذ أن انتهى زواجي، ولم تكن غلطة أيّ واحد منا أنه انتهى، ليس هناك سبب يحول دون طلاقنا. والأكثر من ذلك، أنا أقرب أكثر إلى أولادي الآن مما كنتُ عليه لّما كنتُ زوج أمهم. كما إنني أيضاً أسعد بكثير معهم الآن.

أ. ف.: هل أنتَ ضد الزواج، دكتور كيسنجر؟

هـ. ك.: إن معضلة الزواج أو اللا زواج هي معضلة يُمكن حلّها باعتبارها مسألة مبدأ. من الجائز أن أتزوج مرة ثانية... نعم، من الجائز أن يحصل هذا. لكن، كما تعرفين، لمّا تكونين شخصاً جاداً، مثلي أنا، على كلّ حال، وتُقيمين مع شخص آخر وأن تعيشي تلك الحياة معاً هو شيءٌ صعب للغاية. إن العلاقة بين المرأة، أيّ امرأة، وشخص من مثلي هي شيء معقد للغاية بنحو لا مفرّ منه... ينبغي للمرء أن يكون محترساً. أوه، إنه شيء صعب بالنسبة لي أن أشرح هذه الأشياء. لستُ من طراز الأشخاص الذين يثقون بالمراسلين الصحفيين.

أ. ف.: أنا فاهمة إذاً، دكتور كيسنجر. لم يسبق لي أن حاورتُ شخصاً تحاشى الأسئلة والتعريفات الدقيقة مثلك، أيّ شخص دافع عن نفسه مثلك من أيّ محاولة يقوم بها الآخرون في التغلغل إلى أعماق شخصيته؟ هل أنت خجول، دكتور كيسنجر؟

هـ. ك.: أجل. أنا خجول إلى حدٍّ ما. إنما كتعويض أعتقد أني متوازن بشكلّ جيد نوعاً ما. كما تعرفين، هنالك أولئك الأشخاص الذين ينعتوني بكوني شخصية غامضة، مُعذَّبة، وأولئك الذين ينعتوني بكوني شخصاً مبتهجاً تقريباً دائم الابتسام، دائم الضحك. كلتا الصورتين غير صحيحة. لستُ من هذا الصنف ولا الآخر. أنا... لن أخبركِ ماذا أنا. لن أخبر أحداً قط.

غولدا مائير

القدس [أورشليم]، تشرين الثاني/ نوفمبر 1972

إنّ قصة هذا الحوار قصةٌ خاصةٌ بكلّ معنى الكلمة. إنها قصة حوار سُرق بنحو مبهم وكان ينبغي إجراؤه مرةً ثانية ومن البداية. قابلتُ غولدا مائير مرتين، طوال ما يزيد على ثلاث ساعات، قبل أن تحصل السرقة. وثانية رأيتُ غولدا مائير مرتين، طوال ما يقرب من ساعتين بعد أن حصلت السرقة. لذا أعتقد أن باستطاعتي القول إني الصحفية الوحيدة التي تحدّثت أربع مرات على مدى ست ساعات كاملة مع هذه المرأة الرائعة التي بمستطاعك أن تمدحها أو تذمها كما تشاء، إلا أنكَ لا تقدر أن تحرمها من صفة «الرائعة». هل أنا غلطانة؟ هل أنا مُدانة بالتفاؤل، أو حتى دعنا نقل مُدانة بالنسوية؟ ربما. لكن فيما أنا أعترف بأني لا أملك شيئاً ضد «النسوية»، ينبغي لي أن أضيف أني لن أكون موضوعية فيما يتصل بغولدا مائير. لن أفلح في الحُكم عليها بخيبة الأمل التي أفرضها على نفسي لّما أقول إن شخصيةً قوية هي ظاهرة من المفترض أن تُحلل ببرود، جراحيًّا.

في رأيي، حتى إذا لم يكن المرء متفقاً بكلّ معنى الكلمة معها، مع سياستها، أيديولوجيتها، لا يستطيع المرء أن يتمالك نفسه من أن يحترمها، يُعجب بها، حتى يُحبها. أحببتُها تقريباً. وأولاً وقبل كلّ شيء، إنها تُذكّرني بأمي، التي كانت تشبهها نوعاً ما. أمي هي أيضاً كانت

تمتلك الشَعر الأشيب المجعد نفسه، ذلك الوجه المُتعَب والمتغضن، ذلك الجسم الثقيل الذي تسنده رِجلان متضخمتان، غير ثابتتين، مصنوعتان من الرصاص. أمي أيضاً كانت تمتلك ذلك المظهر العذب والحيوي، مظهر ربة بيت يسيطر عليها هاجس النظافة. إنهن سلالة من النساء، كما تعرف، أصبحن عتيقات الطراز وتتألف ثروتهنَّ من بساطة ساحرة، تواضع مُزعج، حكمة أتت من كونهن كدحن طوال حياتهن بألم، بمشقة، وعناء لم يترك وقتاً لما هو زائد عن الحاجة.

غولدا مائير أيضاً شيءٌ آخر، شيءٌ إضافي. على سبيل المثال، على مدى أعوام كانت هي التي بوسعها أن تُشعل أو تُطفئ صمام صراع العالم. على مدى سنوات كانت المثلة الأكثر تسلّطاً لعقيدة يدينُها أناس كثيرون وكنتُ أرفض مبادئها: الصهيونية. غير أنّ هذا هو ما نعرفه. وأنا لستُ مهتمة في أن أذكر ماذا نعرف عن غولدا مائير. أنا مهتمة في أن أذكر ما لا نعرفه عنها. هي ذي إذاً قصة هذا الحوار. أو بالأحرى قصتي مع غولدا مائير، في ذلك الوقت كانت رئيسة وزراء.

جرى لقائي الأول في بداية تشرين الأول/ أكتوبر، في مقر إقامتها في القدس/ أورشليم. كان يوم إثنين، وكانت قد لبست السواد، مثلما كانت تفعل أمي حين تتوقَّع زائرين. كما وضعت المسحوق على أنفها، مثلما كانت تفعل أمي حين تتوقع زائرين. كانت جالسة في صالة الاستقبال، مع كوب قهوة وعلبة سجائر، بدت مهتمة فقط بأن تجعلني أحس أني مرتاحة وبأن تقلل من تسلّطها. كنتُ قد بعثتُ إليها كتابي عن فيتنام وباقة زهور. كانت الزهور في مزهرية والكتاب بين يديها. قبل

أن أتمكـن من توجيه أيّ سؤال إليها، بدأت تناقش الطريقة التي نظرتُ فيهـا إلى الحـرب، وهكـذا لم يكن مـن الصعـب أن أجعلهـا تتكلّم عن الحـرب: عن الإرهـاب، عن الفلسـطينيين، الأراضي المحتلة، الشروط التـي ستضعهـا للسـادات والملـك الحسـين إذا تسـنى لهـا أن تتفاوض مـع العرب. كـان صوتها دافئـاً ورنانـاً، تعبير وجهها باسـم وبشوش. سحرتنـي على الفور، من دون جهد. كانت غزوتها قد انتهت لمّا قالت، بعد مضي ساعة وربع، إنها ستراني مجدداً.

أمـا اللقـاء الثـاني فقد جـرى بعد انقضـاء ثلاثـة أيـام، في مكتبها، مكتب رئيسـة الوزراء. ساعتان ممتعتان إلى حدٍّ كبير. متحاشـيةً المسائل السـياسية، التـي لاحقتُها بها غالبـاً بتحفظات، في اللقـاء الثاني تحدّثت بشكـل خـاص عـن نفسـها: عـن طفولتهـا، أسرتهـا، تجاربهـا كامرأة، صديقاتهـا وأصدقائهـا. بيـترو نيني [1]، عـلى سبيل المثـال، الذي كانت تكـنُّ لـه إعجاباً لا حدود لـه وعاطفة مؤثرة. في اللحظـة التي قلنا فيها مع السـلامة، أنـا وهي أصبحنـا صديقتـين. حتى أنهـا أعطتني صورة فوتوغرافيـة لأمي، بإهداء حافل بإطراء كبير لا نظير له في العالم بأسره. توسّلـت إليّ أن أرجـع وأزورها في وقت عاجل. «لكـن من دون ذلك الـشيء هنـا، إيه؟ من أجـل أن نتكلّم معاً من دون كلفـة على كوب من الشـاي! «ذلك الشيء هناك هو المسـجلة الشريطيـة، التي سجلتُ فيها

(1) بيترو نيني Pietro Nenni (1891 – 1980): سياسي اشـتراكي إيطالي، السـكرتير القومـي لـ «الحزب الاشـتراكي الإيطالي». نال جائزة ستالين للسـلام في العام 1951. وهو إحدى الشخصيات المهمة لليسـار الإيطـالي من عشرينيات حتى ستينيات القرن العشرين – م.

كلّ جملة، كلّ جواب. بدا معاونوها مندهشين؛ كانت تلك هي أول مرة تحدثت فيها بتلك الصراحة عن ذلك الشيء هناك. أحدهم طلب مني أن أرسل إليه نسخة من الأشرطة الصوتية كي يسلّمها إلى مزرعة جماعية يهودية (كيوبتز) تحفظ الوثائق المتعلّقة بغولدا مائير.

الأشرطة الصوتية. كما قلتُ، بالنسبة لعملي ما من شيء أثمن من الأشرطة. لا توجد هنالك تسجيلات اختزالية، ذكريات، ملحوظات باستطاعتها أن تحل محل الصوت الحيِّ للشخص. كانت الأشرطة شريطَيْ كاسيت صغيرين كلٌّ منهما بسعة تسعين دقيقة، إضافة إلى شريط ثالث يحتوي على خمس أو ست دقائق. من بين الأشرطة الصوتية الثلاثة، الأول وحده هو الذي تم استنساخه. لذلك وضعتُه في حقيبتي اليدوية بالعناية الحذرة لجوهرة، وغادرتُ اليوم التالي، ووصلت إلى روما في نحو الثامنة وثلاثين دقيقةً مساءً. في التاسعة وثلاثين دقيقة حجزتُ غرفةً في فندق. فندق جيد وذائع الصيت. وهنا، وما أن أصبحتُ في غرفتي، أخرجت أشرطة الكاسيت الصغيرة الثلاثة من حقيبتي اليدوية ووضعتها في مظروف. وبعدها وضعت المظروف على سطح المكتب، وضعتُ فوقها كأسين، علبة تجميل صغيرة ثمينة، وأشياء أخرى، وغادرت الغرفة. أقفلتُ الباب، بالطبع، وسلّمتُ المفتاح إلى موظف المكتب، وخرجت. أمضيتُ نحو خمس عشرة دقيقة كي أعبر إلى الجهة الثانية من الشارع وأتناول قطعة سندويتش.

ولمّا رجعتُ، كان المفتاح قد اختفى. ولمّا صعدتُ إلى الأعلى، كان باب غرفتي مفتوحاً. الباب فقط. كلّ شيء آخر كان مرتَّباً. كانت حقيبتا

سفري المستطيلتان مُغلقتين، علبة التجميل الصغيرة الثمينة والأشياء الأخرى لا تزال في المكان الذي تركتها فيه وعند النظرة الأولى بدا أن لا شيء قد مُسَّ. ولم استغرق سوى ثانيتين كي أعرف أن المظروف فارغ، وأنّ أشرطة غولدا قد اختفت. وحتى مسجلة الصوت العائدة لي، التي احتوت شريطاً صوتيًّا آخر بجمل قلائل، كانت مفقودة. كانوا قد انتزعوها من حقيبة السفر العائدة لي، متجاهلين علبة جوهرة، ومن ثم رتبوا ثانية وبعناية محتويات الحقيبة. وختاماً أخذوا قلادتين تركتُهما على المنضدة. كي يرمونا بعيداً عن المسار، قال رجال البوليس.

جاء رجال البوليس حالاً ومكثوا حتى انبلاج الفجر. حتى رجال القسم السياسي جاءوا، مُمَثَلين بشبان كئيبين وكريهين ممَن لا يهتمون بالسرقات العادية بل بالقضايا الأدق. حتى رجال القسم العلمي أتوا، مصطحبين كاميراتهم وأدواتهم التي كانوا يستعملونها كي يجدوا مفاتيح حل في حالات الجريمة. إلا أنهم لم يجدوا سوى بصمات أصابعي: كان اللصوص قد عملوا بقفازات أطفال، بكلّ معنى الكلمة. وبعدها الشبان الكئيبون والكريهون استنتجوا أنها سرقة سياسية، كما عرفتُ أنا أصلاً. ما لم أفهمه هو لماذا فعلوا ذلك، ومَن هم هؤلاء اللصوص. هل هو لص عربي كان يفتش عن معلومات؟ هل هو عدو شخصي لغولدا؟ هل هو صحفي غيور أو صحفية غيورة؟ كلّ شيء تم القيام به بدقة، بسرعة، ببُعد نظر بأسلوب جيمس بوند. ويقيناً كانوا يلاحقونني؛ ما من أحد عرف أنني سأصل إلى روما في ذلك اليوم، في تلك الساعة، في ذلك الفندق. وماذا عن المفتاح؟ لماذا اختفى المفتاح من خانته؟

في اليوم التالي حدث شيءٌ غريب. امرأة تحمل حقيبتَي خطوط جوية ظهرت في الفندق وطلبت رؤية الشرطة. كانت قد وجدت الحقيبتين في أجمات «ڤيللا بورغيسي» وأرادت أن تقلبهما للبوليس، ماذا تحتوي الحقيبتان؟ عشرين شريط كاسيت صغيرًا على غرار أشرطتي. قبضوا عليها في الحال واقتادوها إلى محطة البوليس. هنا، واحداً إثر الآخر، تم تشغيل الأشرطة. وعليها كلّها سُجلت أغنيات شعبية. هل هذا العمل بمنزلة تحذير؟ تهديد؟ ابتزاز؟ كانت المرأة عاجزة عن القول لماذا ذهبت لتفتش عن البوليس في ذلك الفندق بالذات؟

كي أرجع إلى غولدا. غولدا عرفت بالسرقة في مساء اليوم التالي، حين كانت في المنزل مع أصدقائها وصديقاتها وراحت تُخبرهم عن الحوار قائلة: «يوم أمس الأول كانت لي تجربة؛ استمتعتُ بأن يُجرى حوارٌ معي من قبل...» فقاطعها أحد معاونيها وسلّمها برقيَّتي. «سُرِق كلّ شيء، كرري كلّ شيء. حاولي أن تريني ثانيةً من فضلك». قرأت البرقية، أخبروني، وضعت يدها على صدرها، وطوال دقائق معدودات لم تنبس ببنت شفة. ومن ثم رفعت عينين حزينتين، مصممتين، وانبرت قائلة بتلفُّظ حذر، «من الواضح أن شخصاً ما لا يُريد أن يُنشر هذا الحوار. لذا يلزمنا أن نُجريه مرةً أخرى. جدْ لي ساعتين لموعد جديد». هذا هو ما قالته على وجه الدقة، أكَّدوا لي، ولا يسعني أن أصدّق أنّ أيّ زعيم أو زعيمة حكومة آخر أو أخرى يُمكن أن يكون ردّة فعله أو فعلها على هذا المنوال. إني متيقنة من أنّ أيّ شخص، في محلّها، ربما كان سيهز كتفيه بلا مبالاة. «هذا شيء سيِّئ للغاية بالنسبة لها. لقد منحتُها

أصــلاً أكثر من ثلاث ساعات. دعهــا تكتب ما يُمكنها أن تتذكره، وأن تتدبَّر الأمر بأفضل ما تســتطيع». الحقيقة هــي إن غولدا، قبل أن تكون سياسيــة، هي واحدة مـن سلالة النســاء التي أصبحت عتيقـة الطراز. الشرط الوحيد الذي وضعته هو إن عليّ أن انتظر شهراً كاملاً، والموعد التــالي قد حُدد في يوم الخميس، الرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر. وهكذا جرى الأمر. يقيناً، وأنا أعود إليها في ذلك اليوم، لم أكن أتصوّر أني سأكتشــف إلى أيّ مدى يُمكننــي أن أحبها على الرغم من كلّ شيء. لكــن، كــي أشرح مقولة جادة كهذه، يتعيّن عليّ القــول إنّ ما أثارني هو أكثر من ذلك.

غولدا تُقيم وحدها. في الليل لا يوجد حتى كلب كي يســهر عليها أثنــاء نومها، في حالة شــعورها بالمرض؛ كان هنــاك حارسها الشخصي في الواجــب عند مدخــل ڤيلّتها، وهذا هو كلّ شيء. في أثناء النهار، كي تســاعدها في أرجاء المنزل، لا توجد هناك ســوى فتاة تدخل كي ترتب فراشــها، تنفـض الغبــار، وتقوم بكــيّ ملابســها. إذا ما دعتــك لتناول العشــاء معها، على سبيل المثال، غولدا نفســها هي التــي تقوم بالطهي، وبعــد الطهي، تغســل الأطبــاق وتنظف كلّ شيء: كي لا تجـد الفتاة في الغد كلّ شيء وسخاً. حســناً، في المســاء الذي سبق موعدي، كان لديها ضيــوف على العشاء وظلوا صحبتها حتى الثانية فجراً، مُخلّفين وراءهم أكداســاً من الأطبــاق الوسخة، الكـؤوس الوسخة، منفضــات الرماد الطافحــة، الفوضى. وكي لا تجد الفتــاة في اليوم التالي كلّ شيء وسخاً، في الســاعة الثانيــة بعــد منتصــف الليــل بدأت غولــدا بغســل الأطباق

والكـؤوس، وراحـت تكنـس وترتـب، ولم تذهـب إلى فراشـها قبـل منتصف الساعة الثالثة. في السابعة صباحاً، نهضت من نومها، كعادتها، كـي تطالع الصحـف وتُصغي للأخبار مـن الراديو. في السـاعة الثامنة تباحثت مع بعض الجنرالات. وفي التاسعة تباحثت مع بعض الوزراء. في العاشرة... أحسـت بأنها مريضة. في عمر الرابعة والسـبعين، ثلاث ساعات ونصف من النوم ليست كافية.

لّمـا سمعتُ عن ذلك، خجلتُ من الدخول. ظللتُ أقول، «لنؤجل الموعـد، لا يهمّ، أُقسـمُ أنـه لا يهمّ! «إلا أنهـا كانت تُريـد الوفاء بموعد لقائها: «نعم، المسكينة، قطعت كلّ هذا الطريق وهي ثاني مرة تأتي وقد سرقوا أشرطتها الصوتية». وبعد أن ارتاحت عشرين دقيقة على الأريكة في مكتبها، ظهرت وراء طاولة مكتبها، شـاحبة الوجه، مُرهَقة، ولطيفة للغايـة. لم يكن ينبغي لي أن أقلـق بشأن التأخير؛ سوف تعطيني بقدر ما أحتاجه من الوقت. وتواصلَ الحوار كما في المرة السابقة، أفضل من المرة السـابقة. في تشرين الأول/ أكتوبر، كانت غير قادرة على التحدّث عن زوجهـا، عـمّا كان مأساة حياتهـا. في هذه المرة فعلت حتـى هذا الشيء؛ وبما أنّ التحدُّث عنه شيءٌ موجعٌ جداً بالنسـبة لها، ولّما وجدت أنها غير قـادرة على مواصلة الحديث، طمأنتني قائلـة: «لا تقلقي، سوف نُكمل حوارنا غداً! «

وبعدها أعطتني موعداً رابعاً، السـاعة الرائعة التي تكلّمنا فيها عن الشيخوخـة، الشبـاب، والموت. يـا إلهي، كم بدت فاتنـة حين تكلّمت عـن هـذه الأشـياء! يؤكد كثيرون أنّ غولـدا قبيحة وهـي تبتهج حين

يعملـون رسوماً كاريكاتورية قاسية عنها. أجبتُ قائلة: يقيناً الجمال هو رأي، إنما بالنسـبة لي غولـدا تبدو امرأة عجوز جميلـة. يؤكد كثيرون أنّ غولدا مُسترجلة وتستمتع بنشر النكات الفاحشة عنها. أرد قائلة: يقيناً الأنوثـة رأي، إنما بالنسـبة لي تبدو غولـدا امرأة من كـلّ الوجوه. ذلك التواضـع الوديع، على سبيل المثال. تلك الصراحة التي لا تكاد تُصدّق حـين تتذكر إلى أيّ مـدى يُمكن أن تكون بارعة وذكية لّما تسـبح وسط دوّامات السياسة. ذلك العذاب في نقل ألم امرأة لم يكن الحمل بالأطفال كافياً بالنسـبة لها. تلك الرقة في استدعاء إفادة أولادها وأحفادها. ذلك التغـزل العفوي. آخر مرة رأيتُها فيها كانت ترتدي بلوزة زرقاء سماوية ذات ثنيـات وقلادة مـن اللؤلؤ. كانت تربت عليهـا بأظافرها الوردية، القصـيرة والمشذبـة، بـدت كأنها تسـأل، «إذاً هـل أبدو على مـا يرام؟» وفكـرتُ، إنه لمن المؤسف أن تكون غولدا في السـلطة، إنه لمن المؤسف أن تكون إلى جانب أولئك الذين يحكمون. في امرأة كهذه، السلطة خطأٌ في الذوق.

لـن أكـرر قائلة إنهـا وُلـدت في كييـف العـام 1898، باسـم غولدا مابوڤيتـز، ترعرعـت في أمريكـا، في ملواوكـي، حيـث تزوجـت مـن موريـس ميرسـون في العـام 1917، وفي العام 1918 هاجـرت معه إلى فلسطين، وقد حثها ديـڤيد بن غوريون على تبني لقب «مائير «لأنه يبدو عبريًّا أكثر، وإنّ نجاحها بدأ بعد أن خدمت كسفيرة في موسكو في عهد ستالين، وإنها تدخّن ستين سيجارة في الأقل يوميًّا، وإنها كانت تسـتمر في تناول القهوة بشكل رئيس، وإنّ يوم عملها يدوم ثماني عشرة ساعة،

وإنها بوصفها رئيسة وزراء كانت تكسب مبلغاً بائساً يقارب أربعمائة دولار شهريًّا. لستُ بصدد البحث عن سر أسطورتها. الحوار الآتي يفسرها بكلّ حسناتها وعيوبها. رتبتُ الحوار مُتبعةً الجدول الزمني للقاءات.

بطبيعة الحال لم يتوصَّل البوليس إلى جوهر الغموض الذي لفّ سرقة تلك الأشرطة الصوتية. أو، إذا ما توصَّلوا إلى جوهره، حرصوا على ألا يُبلغوني به. إلا أنّ سرعان ما يغدو أكثر من مفتاح حل قدّم نفسه. وهو يستحق العناء كي أسرده، وليتني أُعطي فكرة أخرى عن أولئك الأشخاص في السلطة.

وتقريباً في الوقت نفسه الذي حاورتُ فيه غولدا مائير، طلبتُ أن أجري حواراً مع معمّر القذافي. وكان هو، عبر موظف رفيع المستوى في» وزارة الإعلام الليبية»، أخبرني أنه سوف يضمن لي إجراء هذا الحوار. إلا إنه فجأة بعد أيام قليلة من سرقة الأشرطة، أرسل في طلب مراسل صحيفة أسبوعية مُنافِسة لـ «L' Europeo». أسرع المراسل إلى طرابلس و، بمحض المصادفة، أبهجه القذافي بجمل بدت كردود على ما أخبرتني به السيدة مائير. الصحفي المسكين، من الواضح، كان جاهلاً بهذا التفصيل. إلا أنه، من الواضح، أدركه في الحال. وأثرتُ سؤالاً أكثر من منطقي: كيف تمكَّن القذافي من الرد على شيء لم يُنشر قط وأنه ما من أحد عرفه، سواي؟ هل استمع القذافي إلى أشرطتي الصوتية؟ هل تسلّمها فعلاً من شخصٍ سرقها مني؟ وفي الحال استذكر عقلي تفصيلاً غير منسي. في اليوم الذي أعقب السرقة لعبتُ دور بوليس سري هاوٍ

ومضيتُ خلسةً كي أنبش في القمامة التي جُمعت في الطابق الأرضي من الفندق حيث وقعت الجريمة. هنا، ومع أنهم في الفندق أقسموا أنه ما من عربي صعد على مدى أيام، اكتشفت قصاصة ورق مكتوب عليها بالعربية. سلّمتها، جنباً إلى جنب مع إفادتي، إلى القسم السياسي التابع للشرطة.

هذا هو كلّ شيء. و، بالطبع، ربما أكون مُخطئة. بالطبع، ربما يكون اللص سائحاً أمريكيًّا أو سائحاً فرنسيًّا. لم يضمن لي القذافي الحوار الموعود. لم يتصل بي في طرابلس كي يبدد الشك المُعيب الذي لا أزال أحس أني مُبرَّرة في تغذيته.

فيما يتصل بغولدا، حسناً، لم تعد منخرطة في ذلك الخطأ في الذوق المسمّى «السلطة». لم تعد رئيسة وزراء. بطريقة مفاجئة، قاسية نوعاً ما، أبعدها التاريخ من وظيفتها وأرسلها إلى المنزل. إلا إنّ المنزل هو المزرعة التعاونية التي كانت تهفو للسكن فيها و، أراهن، أنّ القسوة هي أجمل الهدايا التي كان بوسعها أن تحلم بها. ما من أحد يقدر أن يقنعني بأنها ليست أسعد بكثير الآن، بعيدةً جداً عن السلطة، أكثر مما كانت عليه لمّا قابلتُها. على كلّ حال، إنها تستحق أن تُنهي أيامها كما كانت تحلم على الدوام. سوف تفهم، عزيزي القارئ، ذلك من خلال كلماتها.

***

غولدا مائير: طاب صباحكِ، عزيزتي، طاب صباحك. كنتُ أنظر توًّا إلى كتابك الذي يتناول الحرب. وكنتُ أسأل نفسي ما إذا يكون

رد فعل النسـاء مختلفـاً فعلاً عن رد فعل الرجـال. بوسعي أن أقول لا. في هـذه الأعـوام الأخـيرة وإبَّـان حرب الاستنـزاف، ألفيـتُ نفسي في أحيـان كثـيرة جداً أنه يلزمني أن أتخذ قـرارات معينة: على سبيل المثال، أن أرسـل جنودنا إلى أمكنة لن يعودوا منها، أو أن أسند إليهم عمليات سـوف تكلّف أرواح بشر لا أحدَ يعـرف كم عددُهم من الجانبين. وقد عانيـتُ... عانيتُ. إلا أني أعطيتُ تلك الأوامر مثلما يُمكن أن يُعطيهم إياهـا رجل. وها أنا ذا الآن أفكر في ذلك، لسـتُ متأكدة على الإطلاق مـن أني عانيتُ أكثـر مما يُمكن أن يُعانيه رجل. من بين زملائي الذكور، رأيـتُ بعضهـم وقد استحوذ عليهم حزنٌ أشـدُّ من حـزني. أوه، حزني لم يكـن حزنـاً قليلاً! إلا أن هـذا لا يؤثر، لا، إنه لم يؤثـر على قراراتي... الحـرب هـي جنـون هائل. إني متأكـدة من أنـه في يوم ما سـوف تنتهي الحـروب كلّهـا. إني متأكـدة مـن أنـه في يـومٍ ما سـوف يـدرس أطفال المـدارس تاريخ الرجـال الذين صنعوا الحرب مثلـما تدرسين حماقة ما. سوف يندهشـون، سوف يُصابون بالصدمة، مثلـما يُصدَمون اليوم فيما يتصل بأكل اللحم البشري. حتى أكل لحم البشر كان مقبولاً على مدى زمن طويل باعتباره شـيئاً طبيعيًّا. ومع ذلك اليوم، في الأقل جسديًّا، لم يعد يزاوله أحد.

أوريانـا فالاتشي: سيدة مائير، أنا سعيـدة كونكِ أول من يتطرّق إلى هـذا الموضوع. لأنّ هذا الموضوع تحديداً الـذي نويتُ أن أبدأ به. سيدة مائـير، متى سيكـون هنالك سلام في (الشرق الأوسـط)؟ هل سيكون باستطاعتنا أن نرى هذا السلام في زمن حياتنا؟

غ. م.: سـوف يكـون باستطاعتكم، عـلى ما أعتقد. ربما... أنـا يقيناً لن يكـون باستطاعتي. في اعتقادي أنّ الحرب في (الشرق الأوسط) سـوف تسـتمر سنـوات طويلـة، طويلـة. وسأقـول لـكِ لمـاذا. بسـبب عدم الاكـتراث الذي يرسل فيـه القادة العـرب أناسهم كـي يموتوا، بسـبب التثمين المنخفض الذي يقـدّرون فيه الحياة الإنسـانية، بسـبب عجز الشعب العربي على أن يثـوروا ويقولوا كفى.

هـل تتذكرين حين أعلن خروشـوف جرائـم ستالين خلال «المؤتمـر العشرين للحزب الشيوعـي»؟ ارتفع صوت في مؤخرة القاعـة، قائـلاً، «وأيـن كنـتَ أنـت، رفيـق خروشـوف؟» ركز خروشـوف بصره في الوجـوه التي أمامه، لم يجد أحـداً، وانبرى قائـلاً، «مَـن الـذي تكلّـم؟؟» لم يرد أحـد. «مَن الـذي تكلّم؟» سـأل خروشـوف مجدداً. ومـرةً ثانية لم يرد أحـد. وبعدها صاح خروشـوف قائـلاً، «رفيـق، كنـتُ في الموضـع الـذي أنـتَ فيـه الآن». حسـناً، الشعـب العربي هم تحديـداً في الموضع الذي كان فيـه خروشـوف، في الموضع الذي وبخه فيـه الرجل من دون أن تكون لديه الشجاعة في إظهار وجهه.

لا يمكننـا أن نصـل إلى السـلام مع العـرب إلا عبر تطوّر في جانبهـم يتضمن الديمقراطية. لكنني أينـما أدير عينيّ كي أنظر، لا أرى ظـلّاً من الديمقراطية. لا أرى سـوى أنظمة دكتاتورية. الدكتاتـور لا يتعـين عليه أن يُـبرر لشعبه سلامـاً لا يصنعه هو.

حتـى أنه لا ينبغي لـه أن يبرر الموت الذي أنهى حياة جنوده. مَن الـذي اكتشف، يا ترى، كم عدد الجنود المصريين الذين ماتوا في الحربين الأخيرتين؟ الأمهات، الشقيقات، الزوجات، الأقارب الذين لم يروهم يعودون. قادتهم حتى غير مهتمين بمعرفة المكان الذي دُفنوا فيه، إذا دُفنوا. بينما نحن...

أ. ف.: بينما أنتم؟

غ. م.: أنظري إلى هـذه المجلـدات الخمسـة. إنهـا تحتـوي عـلى صورة فوتوغرافية وسيرة كـلّ رجل مات وكلّ امرأة ماتت في الحرب. بالنسـبة لنـا كـلّ ميتة مفـردة هي مأسـاة. نحن لا نريـد أن نشن الحرب، حتى حين نكسب. بعد الحرب الأخيرة، لم تكن هنالك مظاهر فرح في شـوارعنا. لا رقـص، لا أغنيات، لا احتفالات. ولا بدَّ أنكِ شاهدتِ جنودنا وهم يعودون منتصرين. كلّ واحد منهـم كان صـورةً للحزن. لا لأنهم شـاهدوا أخوانهم يموتون، بـل لأنه كـان لزاماً عليهـم أن يقتلوا أعداءهم. كثيرون حبسـوا أنفسـهم في حجراتهـم ولم يرغبـوا بالتحـدّث. أو حـين فتحـوا أفواههـم، فهـذا كـي يكـرروا كاللازمـة: «كـان يجب عـليّ أن أطلـق النار. لقـد قتلتُ». على العكس من العـرب. بعد الحرب عرضنـا على المصريين تبادلاً للأسرى. سبعين رجلاً منهم مقابل عشرة منَّـا. لكنهم قالوا، «لكن أسراكم ضبـاط، أما أسرانا فهم [فلاحون]! هذا مسـتحيل». [الفلاحـون]، المزارعون. أخشى أنني...

أ. ف.: هل تخشين من أنّ الحرب بين إسرائيل والعرب قد تندلع من جديد؟

غ. م.: أجل. إنها مُمكنة، أجل. لأنه، كما تعرفين، كثيرون يقولون إن العرب مستعدون لتوقيع اتفاقية معنا. لكن، في هذه الأنظمة الدكتاتورية، مَن الذي يقول إنّ اتفاقيةً كهذه ستساوي أيَّ شيء؟ دعينا نفترض أنّ السادات يوقِّع ومن ثم يتم اغتياله. أو ببساطة يُقصى من السلطة. مَن يقول إن خَلَفه سوف يحترم الاتفاق الذي وقعه السادات؟ هل أنّ الهدنة التي وقعتها معنا كلّ البلدان العربية مُحترمة؟ على الرغم من تلك الهدنة، لا يوجد أيُّ سلام على حدودنا، واليوم لا نزال ننتظرهم كي يهجموا علينا.

أ. ف.: لكن يوجد حديث عن اتفاقية اليوم، سيدة مائير. حتى السادات يتكلّم عنها. أليس أسهل أن تتفاوضوا مع السادات مقارنة بالتفاوض مع عبد الناصر؟

غ. م.: لا أبداً. سيّان بالضبط. لسبب بسيط وهو إنّ السادات لا يُريد أن يتفاوض معنا. أنا أكثر من مستعدة للتفاوض معه. كنتُ أقول ذلك على مدى أعوام. «دعنا نجلس إلى مائدة الحوار ونرى ما إذا بوسعنا أن نرتب الأشياء، سيد السادات». إنه يرفض بصراحة. إنه غير مستعد البتة للجلوس إلى طاولة الحوار معي. إنه يستمر في التحدّث عن الاختلاف بين «الاتفاقية» و «المعاهدة». إنه يقول إنه مستعد لإبرام اتفاقية، إنما ليس «معاهدة

سـلام». لأن «معاهـدة السـلام «تعنـي الاعـتراف بإسرائيـل، والعلاقـات الدبلوماسيـة مـع إسرائيـل. أنظـري مـاذا أقصد؟ السـادات لا يقصد محادثات مُحددة تضع نهاية للحرب، إنما نوعاً مـن وقف إطلاق النار. وبعدهـا يرفض التفاوض معنا مباشرةً. إنه يُريـد أن يتفاوض عبر وسطاء. لا يمكننا التحدّث أحدنا مع الآخـر عـبر وسطاء! إنـه شيء عديـم المعنى، عديـم الفائدة! في العـام 1949 أيضاً، في رودس، بعد (حـرب الاستقلال)، أبرمنا اتفاقيـة مع المصريين، الأردنيين، السـوريين، واللبنانيين. إنما من خـلال وسيـط، من خـلال الدكتور بونـشي [1]، الـذي نيابة عن (الأمـم المتحدة) التقـى أولاً بمجموعة واحدة، ومن ثم المجموعة الأخرى... نتائج عظيمة.

أ. ف.: والحقيقـة القائلة إن الحُسـين، ملك الأردن، يتكلّم عن السـلام أليست هذه إشارة جيدة هي أيضاً؟

غ. م.: قلـتُ أشـياءَ لطيفـة عن الحُسـين مؤخـراً. هنأته لأنـه تكلّم عن السلام جهاراً. سأمضي شـوطاً أبعد وأقول إني أصدّق الحُسين. إني متأكـدة أنـه الآن أدرك كـم هو شيء عقيم بالنسـبة لـه إذا ما بـدأت حربٌ أخرى. الحُسـين فهم أنـه ارتكب خطـأً مروِّعاً في

---

(1) رالـف بونـشي Ralph Johnson Bunche (1904 - 1971): عـالم سيـاسي، أكاديمـي، دبلومـاسي أمريكـي، نال جائـزة نوبل للسـلام في العـام 1950، لدوره في التوسُّـط في أواخـر الأربعينيات في إسرائيل. وهو أول أمريكـي إفريقي حظي بشرف هـذه الجائـزة. لعب دوراً فعالاً في عمليات عدّة لإحلال السـلام التـي ترعاها (الأمم المتحدة) – م.

العام 1967، حين مضى للحرب معنا من دون أن يفهم الرسالة التي بعثها إيشكول[1] إليه: «ابتعد عن الحرب ولن يحدث لك شيء». فهم الحُسين أنه قطعة مأساوية من الحماقة أن يصغي إلى عبد الناصر وأكاذيبه المتعلّقة بقصف تل أبيب بالصواريخ. هو الآن إذاً يُريد السلام. إلا أنه يُريده وفقاً لشروطه. إنه يُطالب بالضفة الغربية للأردن، أي (الضفة الغربية)، إنه يطالب بالقدس/ أورشليم، احتكم إلى (قرار الأمم المتحدة)... قبلنا ذات مرة بقرار (الأمم المتحدة). كان ذلك حين طُلب منا تقسيم القدس/ أورشليم. كان جُرحاً عميقاً في أفئدتنا، لكن مع ذلك قبلنا به. ونحن كلّنا نعرف النتائج. هل كنا نحن ربما الوحيدين الذين هاجمنا الجيش الأردني؟ لا، الجيش الأردني هو الذي دخل القدس/ أورشليم! العرب، حقيقةً، شعب غريب: إنهم يخسرون الحروب ومن ثم يتوقّعون أن يكسبوا منها. على كلّ حال، هل كسبنا أو لم نكسب (حرب الأيام الستة)؟ هل لنا أم ليس لنا الحق في أن نضع شروطنا؟ منذ متى في التاريخ الطرف الذي يهاجم ويخسر له الحق في أن يُملي شروطه على الرابح؟ إنهم لا يفعلون شيئاً باستثناء أن يقولوا لنا: أعيدوا هذه، أعيدوا تلك، تخلّوا عن هذه، تخلّوا عن تلك...

(1) ليڤي إيشكول Levi Eshkol (1895 – 1969): سياسي إسرائيلي، خدم بوصفه ثالث رئيس وزراء لإسرائيل من العام 1963 حتى إصابته بنوبة قلبية في العام 1969. وهو مؤسس (حزب العمل الإسرائيلي)، كما خدم في مناصب عدة، من بينها وزير للدفاع (1963 – 1967)، ووزير للمالية (1952 – 1963) – م.

أ. ف.: هل ستتخلّون عن القدس/ أورشليم، سيدة مائير؟

غ. م.: لا. البتة. لا. القدس لا. القدس البتة. إنه شيء غير مسموح به. القدس/ أورشليم شيء غير وارد على الإطلاق. نحن حتى لا نوافق على مناقشة موضوع القدس/ أورشليم.

أ. ف.: هل ستتخلّون عن (الضفة الغربية) العائدة للأردن؟

غ. م.: فيما يتصل بهذه النقطة ثمة اختلافات في الرأي في إسرائيل. لذا من الممكن أن نكون مستعدين للتفاوض بشأن (الضفة الغربية). دعيني أوضح كلامي أكثر. أعتقد أن السواد الأعظم من الإسرائيليين لن يطلبوا من (الكنيست)[1] أن يتخلّ عن (الضفة الغربية) تماماً. على أية حال، إذا وجب علينا أن نأتي للتفاوض مع الحُسين، سيكون معظم الإسرائيليين مستعدين لإعادة جزء من (الضفة الغربية). قلتُ (جزء) ليكن هذا واضحاً. وحتى هذه اللحظة لم تقرر الحكومة نعم أم لا. ولا أنا قررت. لماذا يجب علينا أن نتخاصم فيما بيننا قبل أن يقول رئيس دولة عربية إنه مستعد للجلوس إلى المائدة معنا؟ شخصيًّا، أعتقد أنّه إذا وجب أن يقرر الحُسين التفاوض معنا، ربما نُعيد إليه جزءاً من (الضفة الغربية). إما بعد قرارٍ صادر من الحكومة أو البرلمان، أو بعد استفتاء. يقيناً باستطاعتنا أن نُجري استفتاءً في ما يخص هذه المسألة.

(1) الكنيست Knesset: البرلمان الإسرائيلي – م.

أ. ف.: وماذا عن غزة؟ هل ستتخلّون عن غزة؟

غ. م.: أقول إنّ غزة ينبغي، يجب أن تكون جزءاً من إسرائيل. نعم، هذا رأيي. رأينا، في الواقع. على أية حال، كي نباشر بالتفاوض، أنا لا أطلب من الحُسين أو السادات أن يتَّفقا معي في أيّ مسألة. أقول، «رأيي، رأينا، هو أنّ غزة يجب أن تكون جزءاً من إسرائيل. أنا أعرف أنك تفكر بطريقة مختلفة. حسناً، دعنا نجلس إلى مائدة ما ونبدأ بالتفاوض». هل إنّ كلامي واضح؟ إنه شيءٌ لا غنى عنه في كلّ الأحوال أن نجد أنفسنا متفقين قبل المفاوضات: نحن نُجري المفاوضات بالضبط كي نتوصَّل إلى اتفاق. لمّا أذكر أنّ القدس/ أورشليم لن تُقسَّم، إنّ القدس/ أورشليم سوف تبقى في إسرائيل، لا أعني أنّ الحُسين أو السادات يجب ألا يذكر القدس/ أورشليم. ولا حتى أعني أنهما يجب ألا يذكرا غزة. بوسعهما أن يجلبا أيّ شيء يشاءان في وقت المفاوضات.

أ. ف.: وماذا بشأن (مرتفعات الجولان)؟

غ. م.: إنها الفكرة نفسها تقريباً. السوريون يُريدوننا أن ننزل من (مرتفعات الجولان) كي يكون باستطاعتهم أن يطلقوا علينا النار كما فعلوا ذلك من قبل. من الواضح، إننا لا نيةَ لنا في أن نفعل هذا، لن ننزل من الهضبة. على الرغم من ذلك، نحن مستعدون للتفاوض مع السوريين أيضاً. على شروطنا. وشروطنا تتألّف من رسم الحدود بين سوريا وإسرائيل؛ الحدود التي من شأنها أن تثبّت وجودنا هناك في الأعالي. بمعنى آخر،

السوريون اليوم يجدون أنفسهم بالضبط في المكان الذي يجب أن تكون فيه الحدود. فيما يتصل بهذه المسألة لا أعتقد أننا نتنازل عنها. لأنه فقط إذا مكثوا في المكان الذي هم موجودين فيه اليوم يُمكن أن نجعلهم يكفُّون عن إطلاق النار علينا كما فعلوا على مدى تسعة عشر عاماً.

أ. ف.: وماذا بخصوص سيناء؟

غ. م.: لم نقل قط أننا نريد سيناء كلّها أو معظم سيناء. نحن لا نريد سيناء كلّها. نحن نريد أن نسيطر على (شرم الشيخ) وعلى جزء من الصحراء، دعيني أقُل شريطاً من الصحراء، يربط إسرائيل بـ(شرم الشيخ). هل هذا واضح؟ هل ينبغي لي أن أعيد ذلك؟ نحن لا نريد معظم سيناء. وربما حتى لا نريد نصف سيناء. لأنه ليس مهمًّا بالنسبة لنا أن نجلس على طول (قناة السويس). نحن أول من أدرك أنّ (قناة السويس) مهمة جداً بالنسبة للمصريين، إنها بالنسبة لهم تُمثل مسألة هيبة. كما نعرف أنّ (قناة السويس) ليست ضرورية لدفاعنا. نحن مستعدون للتخلّي عنها من اليوم فصاعداً. إلا أننا لن نتخلّى عن (شرم الشيخ) وشريط من الصحراء يربطنا بـ(شرم الشيخ). لأننا نُريد أن تكون سُفننا قادرة على دخول ومغادرة (شرم الشيخ). لأننا لا نُريد أن نجد أنفسنا ثانيةً في ظروف وجدنا فيها أنفسنا في تلك المرة، حين تخلينا عن (شرم الشيخ). لأننا لا نُريد أن نخاطر بأن نستيقظ ثانية في صباح يوم ما فنجد سيناء قد امتلأت بالقوات المصرية.

على هـذه الشروط، على هذه الشروط فقط، نحن مستعدون للتفاوض مع المصريين. بالنسبة لي تبدو لي شروطاً معقولة جداً.

أ. ف.: إذاً من الواضح أنكم لن ترجعوا أبدا إلى حدودكم القديمة.

غ. م.: أبداً. ولّما أقول «أبداً»، لا بسبب إننا نقصد إضافة أراضٍ جديدة. السبب هو أننا نعني أن نضمن دفاعنا، بقاءنا على قيد الحياة. لئن كانت هنالك أيّ إمكانية في التوصل إلى السلام الذي تحدثتِ عنه في البداية، هذا هو السبيل الوحيد. لن يكون هنالك سلام إذا ما رجع السوريون إلى (مرتفعات الجولان)، إذا ما استعاد المصريون سيناء كلّها، إذا ما أردنا أن نثبت من جديد حدودنا العام 1967 مع الحُسين. في العام 1967، كانت المسافة إلى نيتانيا [1] والبحر قلّما تبلغ عشرة أميال، خمسة عشر كيلومتر. إذا ما أعطينا الحُسين إمكانية اجتياز تلك الخمسة عشر كيلومتر، تخشى إسرائيل من أنها سوف تنقسم على قسمين و... إنهم يتهموننا بكوننا «توسُّعيين»، لكن، صدّقيني، لسنا مهتمين بالتوسُّع. نحن مهتمون فقط بحدود جديدة. وأنظري، هؤلاء العرب يُريدون العودة إلى حدود 1967. إذا كانت تلك الحدود هي الحدود الصحيحة، لماذا حطموها؟

أ. ف.: سيدة مائير، حتى الآن تكلّمنا عن الاتفاقيات، المفاوضات، المعاهدات. لكن منذ هدنة العام 1967، الحرب في (الشرق

---

(1) نيتانيا Netania: مدينة في شمال الولاية الوسطية من إسرائيل، وهي عاصمة سهل شارون المحيط بها، وتقع 30 كم شمال تل أبيب و56 كم جنوب حيفا – م.

الأوسـط) اتخذت وجهاً جديداً: وجـه الإرهاب. ما رأيكِ بهذه الحـرب وبالرجال الذين ينفذونها؟ ما رأيكِ بياسر عرفات، على سبيل المثال، بجورج حبش، بـقادة (أيلول الأسود)؟

غ. م.: أنا ببساطة أعتقد أنهم ليسوا رجالاً. حتى أنني لا أعدُّهم بشراً، وإن أسـوأ شيء يُمكنـكِ أن تقوليـه عن رجل هو إنـه ليس كائناً بشريًّـا. إنـه يشبـه قولنا إنـه حيـوان، أليس كذلـك؟ لكن كيف يُمكنكِ أن تسـمّي ما يفعلونه الآن «حرباً»؟ ألا تتذكرين ما قاله حبـش لّما تـم تفجير حافلة مليئـة بالأطفـال الإسرائيليين؟» من الأفضـل أن نقتل الإسرائيليين فيما هـم لا يزالون أطفالاً». هيا، ما يفعلونه الآن ليس حرباً. وهي حتى ليست حركة ثورية، لأن الحركـة، أيُّ حركة، لا تريد سوى أن تقتل لا يُمكن تسـميتها بـ «ثورية».

أنظـري، في مطلـع القـرن في روسيا، في الحركـة الثورية التي تصاعـدت كي تُطيـح بالقيصر، كـان هنالك حـزب واحد يعدُّ الإرهـاب هو وسيلة النضال الوحيدة. وفي يوم من الأيام أُرسل رجل من هـذا الحزب ومعه قنبلة إلى ناصية أحد الشوارع حيث من المفترض أن تمرّ من هناك عربة أحد مسـؤولي القيصر. مرّت العربـة في الوقـت المتوقَّع. غير أن المسـؤول لم يكـن وحده، كان بصحبته زوجتـه وأطفاله. ماذا فعل إذاً هذا الثوري الحقيقي؟ لم يـرمِ القنبلة. جعلها تفلت في يده وتفجرت إلى شـظايا. أنظري، نحـن أيضـاً كانـت لدينـا مجموعاتنـا الإرهابيـة خـلال (حرب

الاستقلال): مجموعة (شتيرن) [1]، مجموعة (إرغون) [2].
وكنتُ معارضة لهما، كنتُ مُعارضة لهما دوماً. إلا أنّ أيًّا منهما لم تُغَطِّ نفسها بمثل هذا العمل الشائن كما فعل العرب معنا. لا واحدة من هاتين المجموعتين وضعت قنابل في السوبرماركتات أو وضعت الديناميت في حافلات المدارس. لا واحدة منهما تسببت بمآسٍ كتلك التي حدثت في ميونيخ أو [مطار اللد [3]].

أ. ف.: وكيف يستطيع المرء أن يحارب إرهاباً من هذا النوع، سيدة مائير؟ هل تؤمنين بالفعل أنه يساعد في تفجير قرى لبنانية؟

---

(1) مجموعة شتيرن Stern group: وهو الاسم البريطاني لمجموعة عسكرية صهيونية شنت حملات على الفلسطينيين في أربعينيات القرن العشرين من أجل خلق دولة يهودية. أسسها إبراهام شتيرن (1907 – 1942)، وهي قسم من مجموعة إرغون التي اغتالت الوزير البريطاني لـ (الشرق الأوسط) اللورد موييني، والكونت بيرنادوت، وسيط (الأمم المتحدة) لفلسطين – م.

(2) مجموعة إرغون Irgun: منظمة شبه عسكرية صهيونية، نفذت عملياتها في فلسطين الخاضعة للانتداب البريطاني للمدة بين 1931 و 1948. وهي قسم من منظمة شبه عسكرية صهيونية أكبر وأقدم تُسمى (هاغاناه – معناها بالعبرية: الدفاع). ولما انفصلت عنها سُميت: هاغاناه الثانية – م.

(3) اللد Lod: مدينة تقع 15 كم جنوب شرق تل أبيب، في الولاية الوسطية من إسرائيل. في العام 2019 كان عدد سكانها 77 ألفًا و223 نسمة. يُسمى «مطار اللد» الآن «مطار بن غوريون». هنا إشارة إلى «مذبحة مطار اللد»، وهي عملية (إرهابية) نُفذت في 30 أيار/ مايو 1972، وفيها هاجم ثلاثة أعضاء من (الجيش الأحمر الياباني) تلقّوا تدريبهم على يد مجموعة فلسطينية تُدعى (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، مطار اللد (بن غوريون حالياً)، وأسفر الهجوم عن مقتل 26 فرداً وجرح 80 آخرين – م.

غ. م.: إلى حدٍّ ما، نعم. لأنّ الفدائيين موجودون في تلك القرى. اللبنانيون أنفسهم يقولون، «مناطق معينة هي أرض [منظمة الفتح]». إذاً مناطق معينة يجب تطهيرها. إنهم اللبنانيون الذين يتعين عليهم أن يفكروا في تطهيرها. يقول اللبنانيون إنه ليس باستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً. حسناً، هذا ما تعوّد الحُسين أن يقوله في الوقت الذي عسكر فيه الفدائيون في الأردن. حتى أصدقائنا الأمريكيين قالوا ذلك: «ليست المسألة أنّ الحُسين لا يُريد أن يتخلّص منهم! المسألة هي إنه لا يمتلك قوة كافية كي يتخلّص منهم». لكن في أيلول/ سبتمبر 1970، حين كانت عمّان في خطر وكان قصره في خطر وهو نفسه وجد نفسه في خطر، أدرك الحُسين أنّ باستطاعته أن يفعل شيئاً ما. صفّاهم. إذا ما استمر اللبنانيون في عدم القيام بأيّ شيء، سوف نرد عليهم قائلين، «حسناً جداً. نحن نُدرك صعوباتكم. لا يُمكنكم أن تفعلوا شيئاً. لكن نحن نستطيع بأيّ شيء. ولمجرد أن نُريكم، سوف نفجر تلك المناطق التي تؤوي الفدائيين».

ربما أكثر من أيّ بلد عربي آخر، لبنان يوفّر الضيافة للإرهابيين. اليابانيون الذين نفذوا مذبحة (اللد) أتوا من لبنان. الفتيات اللواتي حاولن أن يخطفن طائرة الخطوط الجوية (سابينا)[1] في تل أبيب تلقين تدريبهن في لبنان. هل يتعين علينا أن نجلس مكتوفي الأيدي، نصلّي ونتمتم، «لنأمل ألّا يحدث شيء»؟ الصلاة

(1) سابينا Sabina: شركة الخطوط الجوية البلجيكية (1923 – 2001) – م.

لا تُساعدنا. ما يُساعدنا هو أن نشن هجوماً مُضاداً. بكلّ الوسائل المُتاحة، من بينها الوسائل التي لا نحبها بالضرورة. يقيناً نحن بالأحرى نحاربهم في الهواء الطلق. لكن بما أنّ هذا غير مُمكن...

أ. ف.: سيدة مائير، هل أنتِ مستعدة للتحدّث مع ياسر عرفات أو جورج حبش؟

غ. م.: أبداً! لستُ مستعدة للتحدّث معهما! أبداً! ماذا يوجد هناك كي أناقشه مع شخصين ليس لديهما حتى الجرأة في المخاطرة بجلديهما ويُسلّمان القنابل إلى أشخاص آخرين؟ على غرار ذينكَ العربيين في روما، على سبيل المثال. ذينك العربيان اللذان سلّما مسجلة الصوت مع قنبلة إلى الفتاتين الإنجليزيتين الغبيتين. اسمعي، نحن نريد أن نتوصل إلى سلام مع الدول العربية، مع حكومات مسؤولة للدول العربية مهما كانت أنظمتها، بما أنّ نظامها لا يعنينا. لكن مع أشخاص من مثل عرفات، حبش، (أيلول الأسود)، ليس لدينا شيء نقوله. الأشخاص الذين نُريد التكلّم معهم هم الآخرون.

أ. ف.: هل تقصدينا نحن الأوربيون، سيدة مائير؟

غ. م.: بالضبط. الأوروبيون، وليس الأوربيون وحدهم، هم الذين يجب أن يقرروا أن يوقفوا هذا العمل الذي تسمينه «الحرب». حتى الآن كان هنالك تسامح كبير جداً من جانبنا. تسامح، دعيني أقُل، له جذوره في معاداة السامية التي لم تُطفأ نارها

بعدُ. إلا أنّ معاداة السامية ليست مُستنفدة في معاناة اليهود وحدهم. كشف لنا التاريخ أنّ معاداة السامية في العالم قد جلبت على الدوام الكارثة للجميع. إنها تبدأ بتعذيب اليهود وتنتهي بتعذيب الجميع. وكي أُعطيكِ مثالاً مُبتذلاً، كانت هنالك تلك الطائرة الأولى التي تم اختطافها. كانت تلك الطائرة تابعة للخطوط الجوية (العال) [1]، أتذكرين؟ خطفوها إلى الجزائر. حسناً، بعض الأشخاص قالوا إنه شيء سيِّئ للغاية، أما آخرون فكانوا سعيدين بهذه العملية، وما من طيار حلم بالإعلان جهاراً، «من الآن فصاعداً لن أطير إلى الجزائر». لو إنه قال هذا، لو إنهم قالوا هذا، لما كان لهذا الكابوس المتعلّق بالقرصنة الجوية من وجود اليوم. بدلاً من ذلك، لم يصدر رد فعل من أيّ أحد، واليوم باتت القرصنة الجوية عادةً من عادات أزمنتنا. أيّ مجنون يستطيع أن يخطف طائرة كي يُشبع جنونه، أيّ مجرم يستطيع أن يخطف طائرة كي يبتز المال. لستِ بحاجة إلى أسباب سياسية.

لكن دعينا نَعُد إلى أوروبا والحقيقة التي مفادها أنّ الإرهاب له مراكزه الرئيسة في أوروبا. في كلّ عاصمة أوروبية توجد مكاتب لما يُسمى بـ «حركات التحرير»، وإنكم تعرفون حق المعرفة أنها ليست مكاتب عديمة الضرر. إلا أنكم لا تفعلون

(1) العال El Al: شركة الخطوط الجوية الإسرائيلية. معنى كلمة العال (بالعبرية): صوب السماء – م.

شيئاً حيالها. سوف تندمون. بفضل كسلكم وتسامحكم، الإرهاب سوف يتفاقم وسوف تدفعون ثمنه أيضاً. ألم يفعل الألمان ذلك أيضاً؟

أ. ف.: نعم، كنتم قساة للغاية على الألمان بعد أن أطلقوا سراح العرب الثلاثة.

غ. م.: أوه، يلزمكِ أن تحاولي فهم ماذا كانت تراجيديا ميونيخ تعني لنا! إن الحقيقة القائلة إنها جرت في ألمانيا... أعني، أنّ ألمانيا ما بعد الحرب ليست (ألمانيا النازية). أعرف ڤيلي برانت؛ أقابله دوماً في المؤتمرات الاشتراكية؛ كان هنا ذات مرة أيضاً، لّما كان رئيس بلدية برلين، وكنتُ أعي جيداً أنه حارب النازيين. لم أفكر حتى لحظة واحدة أنه سعيد بإخلاء سبيل أولئك العرب. إلا أنّ ألمانيا... كما تعرفين، لم يكن باستطاعتي أن أضع قدماً في ألمانيا. ذهبتُ إلى النمسا إلا أنني لم أستطع أن أقنع نفسي بدخول ألمانيا... بالنسبة لنا نحن اليهود، العلاقات مع ألمانيا هي صراع شديد بين العقل والقلب... لا تدعيني أقُل أشياءَ من هذا الضرب. أنا رئيسة وزراء، لديَّ مسؤوليات معينة... أنظري، دعيني أخلص إلى القول بأنّ حُكمي القاسي لا يُمكن تمالكه. التصريحات التي يُدلي بها الألمان كانت أشبه بإضافة إهانة إلى الجُرح البليغ. على أية حال إنها قضية العرب الذين ساهموا في قتل الإسرائيليين الأحد عشر العُزّل وهم الآن يحاولون أن يقتلوا آخرين.

أ. ف.: سيدة مائير، هل تعرفين ماذا يعتقد أناس كثيرون؟ يعتقدون

أنّ الإرهاب العـربي موجود وسيظل موجوداً دوماً طالما هنالك لاجئون فلسطينيون.

غ. م.: الأمـر ليـس كذلك، لأن الإرهـاب بات نوعاً مـن الشر العالمي مرضٌ يُصيب الناس الذين لا شـأنَ لهم باللاجئين الفلسطينيين. خُـذي مثـال اليابانيـين الذيـن نفذوا مذبحـة (اللـد). هل تحتل إسرائيل أيّ أرض يابانية؟ وفيما يتعلّق باللاجئين، اسمعي: كلّما تنشب حرب يكون هنالك لاجئون. اللاجئون الفلسـطينيون لا يُمكن أن يكونـوا اللاجئين الوحيدين في العالم؛ هنالك لاجئون باكستانيون، هنود، أتراك، ألمان. بالله عليكِ، كان هنالك ملايين اللاجئـين الألمان على طول الحـدود مع بولندا هم الآن في داخل بولندا. ومع ذلك تأخذ ألمانيا على عاتقها مسؤولية هؤلاء الناس، وهم أبناء شعبها. وماذا عن الألمان السوديتين [1]؟ لا أحدَ يعتقد أنّ الألمـان السـوديتين يجـب أن يعـودوا إلى تشيكوسلوڤاكيـا هم أنفسـهم يعرفـون أنهم لن يعـودوا قط. طوال عـشرة أعوام حضرتُ اجتماعات (الأمم المتحدة)، لم يسـبق لي قط أن سمعتُ أحداً يتكلّم عن الألمان السوديتين الذين رمتهم تشيكوسلوڤاكيا خـارج حدودها. لماذا يتعين على الجميع أن يكونوا عاطفيين تجاه الفلسطينيين وليس تجاه أيّ شخص؟

(1) الألمـان السـوديتين Sudeten Germans: أيّ الألمـان الذيـن كانـوا يسـكنون تشيكوسلوڤاكيـا قبـل العـام 1938. كـان هـؤلاء يُقيمـون في سودوتـين لانـد Sudetenland، وهـي منطقـة جبلية في شـمال التشيـك [جزء مـن تشيكوسلوڤاكيا] (1919 – 1938)، (1945 – 1993)] احتلتها ألمانيا (1938 – 1945) – م.

أ. ف.: لكن حالة الفلسطينيين حالة مختلفة، سيدة مائير، لأنّ...

غ. م.: يقيناً هي حالة مختلفة. أتعرفين ما السبب؟ لأنه حين تكون هنالك حرب والناس يهربون، هم عادةً يهربون إلى بلدان ذات لغة ودين مختلفين. الفلسطينيون بدلاً من ذلك هربوا إلى بلدان تتكلّم لغتهم وتتقيّد بدينهم. فرّوا إلى سوريا، لبنان، الأردن حيث لم يفعل أحد أيّ شيء لمساعدتهم. فيما يتعلّق بمصر، المصريون الذين أخذوا غزة حتى لم يسمحوا للفلسطينيين بالعمل وأبقوهم في حالة فقر وعوز كي يستخدموهم كسلاح ضدنا. هذه هي على الدوام سياسة البلدان العربية: أن يستخدموا اللاجئين كسلاح ضدنا. همرشولد [1] اقترح خطة تنمية لـ (الشرق الأوسط)، وهذه الخطة تشترط قبل كلّ شيء إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين. إلا إنّ الأقطار العربية قالت لا.

أ. ف.: سيدة مائير، ألا تشعرين في الأقل بقليل من الشفقة عليهم؟

غ. م.: بالطبع، أشعر. غير أن الشفقة ليست مسؤولية، ومسؤولية الفلسطينيين ليست مسؤوليتنا، إنها مسؤولية العرب. نحن في إسرائيل تشرّبنا مليوناً وأربعمائة ألف يهودي عربي: من العراق، من اليمن، من مصر، من سوريا، من بلدان شمال إفريقيا من مثل المغرب. الناس الذين وصلوا إلى هنا كانوا مليئين بالأمراض ولم

(1) داغ همرشولد Dag Hammarskjöld (1905 – 1961): اقتصادي سويدي والأمين العام للأمم المتحدة بين 1953 و 1962 – م.

يكونـوا يعرفون كيـف يفعلون أيّ شيء. من بين السـبعين ألف يهـودي أتوا من اليمن، على سبيل المثال، لا يوجد هنالك طبيب واحـد أو ممرضة واحـدة، وتقريبـاً معظمهم كـان لديهم مرض السـل الرئوي. ومع ذلك استقبلناهم، وشيّدنا مستشفيات لهم، واعتنينا بهـم، علّمناهـم، وضعناهم في منـازل نظيفة وحوّلناهم إلى فلاحـين، أطبـاء، مهندسـين، معلمـين... ومـن بـين المائـة وخمسـين ألف يهودي جاؤوا من العراق، كانت هنالك مجموعة صغيرة جداً من المتعلّمين، ومع ذلك اليوم أولادهم ينتظمون في الجامعـة. بطبيعة الحال، لدينا مشكلات معهم ليس كلّ ما يلمع ذهبـاً إلا أنّ الحقيقة الباقيـة هي إننا قبلناهـم وقدّمنا لهم العون. العـرب، مـن الجانـب الآخر، لم يفعلـوا أيّ شيء البتـة من أجل شعبهم. إنهم يستغلونهم وهذا هو كلّ ما في الأمر.

أ. ف.: سيدة مائير، ماذا لو أن إسرائيل جعلت اللاجئين الفلسـطينيين يتدفقون عائدين إلى هنا؟

غ. م.: هـذا مسـتحيل. على مـدى عشرين عامـاً تغذوا عـلى كُرهنا؛ لا يمكنهـم أن يرجعوا بيننا. أولادهـم لم يُولدوا هنا، لقد وُلدوا في المخيمات، والشيء الوحيد الذي يعرفونه هو أنه عليهم أن يقتلوا الإسرائيليـين، أن يدمـروا إسرائيل. وجدنا كتـب رياضيات في مدارس غزة وضعت لهم مسـائل من مثل هذه المسـألة: «لديكَ خمسة إسرائيليين. قتلتَ ثلاثة منهم. كم إسرائيلي بقي كي تقتله؟» حين تُعلّمين أشـياءَ كهذه لأطفال في سن السـابعة أو الثامنة، لا

يوجد هنالك مزيدٌ من الأمل. أوه، ستكون بليَّةً كبرى إن لم يكن هنالك حلٌّ آخر لهم باستثناء العودة إلى هنا! إنما يوجد حلّ. هذا الحل عرضه الأردنيون حين أعطوهم الجنسية واستدعوهم كي يبنوا بلداً يُسمّى «الأردن». أجل، ما فعله عبد الله والحُسين هو أفضل بكثير مما فعله المصريون. لكن هل تعرفين أنه في الأيام الفائتة الجيدة في الأردن، كان الفلسطينيون يتولون مناصب حكومية من مثل رئيس الوزراء ووزير الخارجية؟ هل تعرفين أنه بعد تقسيم العام 1922 كان الأردن لا يملك سوى ثلاث مائة ألف بدويٍّ وأنّ اللاجئين الفلسطينيين كانوا هم الأغلبية؟ لماذا لا يقبلون الأردن وطناً لهم، لماذا...؟

أ. ف.: لأنهم لا يعدُّون أنفسهم أردنيين، سيدة مائير. لأنهم يقولون إنهم فلسطينيون وأن وطنهم الأصلي هو فلسطين، وليس الأردن.

غ. م.: إذاً علينا أن نفهم ماذا نعني بكلمة «فلسطين». يلزمنا أن نتذكر أنه لّما كانت بريطانيا تتولى مسؤولية الانتداب على فلسطين، كانت فلسطين هي الأرض الممتدة بين (البحر المتوسِّط) والحدود العراقية. فلسطين هذه غطت ضفتي الأردن كلتيهما، حتى أنه كان يحكمها المفوّض السامي نفسه. وبعدها في العام 1922 قسّمها تشرشل، والأرض الواقعة غرب نهر الأردن أصبحت «هذا الجانب من نهر الأردن»، والأرض الواقعة شرق نهر الأردن أصبحت «ما وراء نهر الأردن». اسمان للشعب نفسه. عبد الله، جدُّ الحُسين، كان لديه «ما وراء نهر الأردن»

وتالياً أخذ أيضاً «هذا الجانب من نهر الأردن»، لكن، أكرر، لا يزال الشعب نفسه. فلسطين نفسها. قبل تصفية إسرائيل، يتعين على ياسر عرفات أن يصفِّي الحُسين. غير أنّ عرفات جاهل للغاية. إنه حتى لا يعرف أنه، في نهاية (الحرب العالمية الأولى)، أن ما هي الآن إسرائيل لم تكن تُسمى «فلسطين «: كانت تُسمى «جنوب سوريا». ومن ثم... على كلّ حال! إذا تعين علينا أن نتحدّث عن اللاجئين، سأذكّرك أنه على مدى قرون كان اليهود لاجئين من الدرجة الممتازة! كانوا مُشتتين في البلدان التي لا تتحدّث لغتهم، ولا يتم التقيّد بدينهم، طقوسهم لا يُعترف بها. روسيا، تشيكوسلوفاكيا، پولندا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، إنكلترا، بلاد العرب، إفريقيا... كانوا محتجزين في أحياء الأقليات، مُضطهَدين، مُبادين. وعلى الرغم من ذلك ظلّوا على قيد الحياة، ولم يكفوا عن أن يكونوا شعباً، وجاءوا معاً من جديد كي يجدوا بلداً...

أ. ف.: غير أنّ هذا هو ما يُريده الفلسطينيون، سيدة مائير: أن يكوّنوا بلداً. لهذا السبب تحديداً بعض الأشخاص يقولون إنه يتعين عليهم أن يمتلكوا دولتهم في (الضفة الغربية).

غ. م.: أنظري، لقد شرحتُ لكِ آنفاً أنه في شرق وغرب نهر الأردن تجدين الشعب نفسه. شرحتُ لكِ سابقاً أنهم كانوا يُسمون ذات مرة «فلسطينيين» وتالياً باتوا يُسّمَون «أردنيين». إذا أرادوا الآن أن يُسموا أنفسهم «فلسطينيين «أو «أردنيين»، فأنا لا أبالي قيد

أنملـة. إنـه ليس عملي. إلا أنّ عملي أنهـم لا يُقيمون دولة عربية أخرى بين إسرائيل وما يُسمى الآن «الأردن». في امتداد الأرض بين (البحر المتوسط) وحدود العراق، يوجد حيز لبلدين لا غير؛ بلـد عربي وبلد يهـودي. إذا ما وقَّعنا معاهدة سلام مع الحُسـين ورسمنـا حدودنا مـع الأردن، مهما يحـدث في الجانب الآخر لن يُقلِـق إسرائيـل. الفلسـطينيون بوسعهـم أن يأتوا مـن أجل أيّ ترتيب يشاءون مع الحُسـين؛ باستطاعتهم أن يسموا تلك الدولة مـا يشـاءون، أن يعطوهـا النظـام الـذي يرغبون بـه. إن الشيء المهـم هو أنّ دولة عربيـة ثالثة لا تظهر بيننا وبـين الأردن. نحن لا نُريدهـا. لا يُمكننـا أن نسـمح بقيامها. لأنها سوف تُسـتخدم بمنزلة خنجر ضدنا.

أ. ف.: سيـدة مائـير، أود أن أتناول موضوعاً آخر. وهو ذا. حين يكون لدى المرء حلم، هـذا الحلم يتغذى على مدينة فاضلة. ولّما يدرك حلمـه، يكتشـف أنّ... المدينـة الفاضلة هي مدينـة فاضلة. هل أنتِ مقتنعة بما هي عليه إسرائيل اليوم؟

غ. م.: أنا امرأة صريحة. سأُجيبكِ بصراحة. باعتباري اشـتراكية، لا. لا يسـعني القول إن إسرائيل هي ما حلمتُ به. كاشـتراكية يهودية كانت تضع دوماً أهمية كبيرة على المُكوّن اليهودي في اشتراكيتها، حسـناً، إسرائيل هي أكثر مما حلمتُ به. الآن سوف أشرح لكِ. بالنسـبة لي، إن الاعـتراف بالصهيونية هو جزء من الاشـتراكية. أعـرف أنّ اشـتراكيين آخرين سوف لا يتَّفقـون معي، إنما هكذا

أفكر بها. أنا لستُ موضوعية فيما يتعلّق بهذا الأمر، وأعتقد أنّ هنالك جورين كبيرين في العالم: الجور الجاثم على الأفارقة السود، والجور الجاثم على اليهود. وزيادةً على ذلك أعتقد أنّ هذين الجورين لا يُمكن تصحيحهما إلا بواسطة المبادئ الاشتراكية. أن أرى العدل للشعب اليهودي كان هدف حياتي و... باختصار، قبل أربعين أو خمسين سنة خلت، لم تكن لديَّ آمال على الإطلاق في أن تكون لليهود دولة ذات سيادة. نحن الآن نمتلك دولة من هذا الطراز الآن، لذا يبدو لي أنه ليس من الحق أن نقلق كثيراً فيما يتصل بالعيوب والأخطاء. لدينا الآن تراب يُمكننا أن نضع عليه أقدامنا، باستطاعتنا أن نُحقق مُثلنا الاشتراكية التي كانت فيما مضى مُعلّقة في الهواء لا غير. هذا شيء كثير جداً أصلاً. بالطبع، لو تسنى لي فعلاً أن أتفحص أفكاري...

أ. ف.: ما هو الشيء الذي لا تحبينه في إسرائيل؟ ما هو الشيء الذي سبّب لكِ الإحباط؟

غ. م.: أوه... أعتقد أنه لا أحدَ منا نحن الحالمين عرف في البداية ما هي الصعوبات التي سوف تحدث. على سبيل المثال، لم نكن نتنبأ مشكلة أن نجمع اليهود الذين نشؤوا في بلدان مختلفة بكلّ معنى الكلمة وظلوا منقسمين كلَّ واحد منهم عن الآخر على مدى قرون طويلة جداً. جاء اليهود إلى هنا من جميع أصقاع العالم، كما أردنا، نعم. إلا أنّ كلّ مجموعة كانت لديها لغتها الخاصة، ثقافتها

الخاصة، وكي ندمجها مع المجموعات الأخرى كان شيئاً أصعب بكثير مما بدا نظريًّا. ليس من السهل أن تخلقي بلداً متجانساً بشعبٍ مختلف تماماً... كانوا على وشك أن يتصادموا. وهذا الأمر سبّب لي خيبة الأمل والحزن. وكذلك... سوف تحسبينني سفيهة، ساذجة، إلا أنني حسبتُ أنه في دولة يهودية لن تكون هنالك شرور تُصيب مجتمعات أخرى. السرقة، القتل، البغاء... فكرتُ هكذا لأننا بدأنا عملنا بشكل حسن. قبل خمسة عشر عاماً في إسرائيل لم تكن هنالك سرقات، ولم تكن هنالك جرائم قتل، ولم يكن هنالك بغاء. الآن بدلاً من ذلك لدينا كلُّ شيء، كلُّ شيء... وهو شيء يكسر قلبكِ؛ إنه شيءٌ يؤذي أكثر أن تكتشفي أنكِ ما زلتِ لم تخلقي مجتمعاً أكثر عدالة، وأكثر مساواة.

أ. ف.: سيدة مائير، لكن هل لا تزالين تؤمنين بالاشتراكية كما كنتِ قبل أربعين سنة مضت؟

غ. م.: جوهريّاً، نعم. الاشتراكية لا تزال الفكرة الأساسية... إنما كي أكون صادقة، يتعين على المرء أن ينظر إلى الأشياء بنحو واقعي. يتعين عليه أن يعترف أنّ ثمة فارقاً كبيراً بين الأيديولوجية الاشتراكية والاشتراكية حين تُوضع قيد الاختبار العملي. سائر الأحزاب الاشتراكية التي تعين عليها أن تشكّل حكومات وأن تتولى مسؤوليات بلدٍ ما وجب عليها أن تنحني كي تتوصَّل إلى تسوية. ليس هذا فحسب، منذ أن كان الاشتراكيون في السلطة في بلدان منفردة، الاشتراكية العالمية ضعفت وتدهورت.

إنه شيءٌ أن تكوني اشتراكية عالمية حين كنتُ فتاة، كان ذلك عندما لم يكن هنالك حزب اشتراكي في السلطة، وشيءٌ مختلف تماماً الآن. الحلم الذي حلمتُ به، الحلم بعالم عادل متحد في الاشتراكية، قد ولّى إلى الأبد. المصالح القومية انتصرت على المصالح العالمية، والاشتراكيون السويديون أظهروا أنفسهم بأنهم أول السويديين، الاشتراكيون الإنجليز أوّل الإنكليز، الاشتراكيون اليهود أول اليهود كلّهم... هذا الشيء بدأتُ أفهمه خلال الحرب التي دارت في إسبانيا. في عدد كبير من البلدان كان هنالك اشتراكيون في السلطة. إلا أنهم لم يُحرّكوا ساكناً من أجل الاشتراكيين الإسبانيين.

أ. ف.: لكن أيّ اشتراكية هذه التي نتحدّث عنها، سيدة مائير؟ أعني، هل تؤيدين نيني حين يقول إنه توصَّل إلى تفضيل الاشتراكية السويدية؟

غ. م.: بالطبع! لأنه، كما تعرفين، باستطاعتكِ أن تمتلكي كلّ الأحلام التي تشائين، لكن حين تحلمين، أنتِ لستِ مستيقظة. ولمّا تستيقظين، تُدركين أنّ حلمكِ لا يمت إلا بصلة قليلة بالواقع. كي تكوني حُرّة، كي تكوني قادرة على أن تقولي ما تفكرين به، هذا شيء ضروري جداً... روسيا السوڤييتية ليست فقيرة، ليست أميَّة، ومع ذلك الشعب لم يكن يجرؤ على التحدّث. والهيبة لا تزال موجودة... في (الأمم المتحدة) لم أرَ أيّ فارق بين وزراء خارجية البلدان الاشتراكية ووزراء خارجية الدول الرجعية.

قبل عام مضى، لدى امتناعهم عن التصويت، سمحوا بتمرير قرار ما يُسمينا «مجرمي حرب». وقد قلتُ لزملائي الاشتراكيين لّما قابلتُهم في (مؤتمر ڤيينا): «بلدك امتنع عن التصويت. وهذا يجعل مني [مجرمة حرب]، إيه؟» لكنكِ تتكلّمين عن پيترو نيني... نيني شيء آخر. نيني فصل مستقل في تاريخ الاشتراكية. نيني واحد من أفضل الأفراد الموجودين في العالم اليوم. لأنه مخلص جداً، يمتاز باستقامة شديدة، وإنسانية بالغة، وبشجاعة فائقة في قناعاته! أنا مُعجبة به مثلما لم يُعجب به آخر سواي. إني فخورة بكوني قادرة على أن أُسميه «صديقاً».

و... بالطبع أفكر كما يفكر هو فيما يتصل بالاشتراكية!

أ. ف.: سيدة مائير، هل تعرفين بماذا كنتُ أفكر، فيما أنا أصغي إليكِ؟ كنتُ أتساءل ما إذا جعلكِ هذا الكَم الهائل من الحزن كلبيةً، أو في الأقل مُحبَطة؟

غ. م.: أوه، لا! أنا، أنا لستُ كلبية على الإطلاق! فقدتُ أوهامي كلّها، هذا هو كلّ شيء. على سبيل المثال، قبل أربعين أو خمسين عاماً خلت، كنتُ أعتقد أن الشخص الاشتراكي هو شخص صادق على الدوام، غير قادر على قول الأكاذيب. أما الآن فأعرف أنّ الشخص الاشتراكي هو إنسان شأنه شأن أيّ فرد آخر، قادر على قول الأكاذيب شأنه شأن أيّ فرد آخر، ويتصرف بنحو خادع أو غير أمين، حاله حال أيّ فرد آخر. هذا شيء مُحزِن، بطبيعة الحال، إلا أنه غير كافٍ كي يجعلكِ تفقدين إيمانكِ

بالإنسـان! غير كافٍ لأن تستنتجي: الإنسان هو أساساً سيِّئ. لا، لا! أنظـري، لمّـا أقابل شـخصاً ما، أعتقد دومـاً أنّ هذا فرد صـادق وأستمـر في الاعتقـاد هكـذا إلى أن أحصل عـلى دليل يثبـت العكـس. إذا ما حصلـتُ تالياً على دليـل يثبت العكس، مـع ذلك لا أقول إن ذلـك الشخص هو شـخص سيِّئ. أقول إن هـذا الرجل تصرّف أو هذه المرأة تصرفت معي بنحو سيِّئ. على كلّ حال، لستُ شكاكة. لا أتوقع الأسوأ من الناس. و... لا أعـرف ما إذا أسمّي نفسي «متفائلة». في عمري، التفاؤل هو ترف بالغ. لكن، أنظري، في حياتي الطويلة، رأيتُ كَمًّا كبيراً من الـشر، هذا صحيح. بالمقابـل، رأيتُ أيضاً قـدراً كبيراً جداً من الخـير. قدراً كبيراً... وإذا ما مررتُ في ذاكرتي على الأشـخاص الكثيريـن الذيـن عرفتهـم، صدّقينـي، هنالك قلّـة قليلة منهم يُمكنني أن أحكم عليهم بوصفهم سلبيين تماماً.

أ. ف.: لكن هل أنتِ مُتديِّنة، سيدة مائير؟

غ. م.: لا! أوه، لا! لم يسبق لي أن كنـتُ متديِّنـة. حتـى حـين كنتُ فتاة يافعـة. لا، موقفي هذا لم يأتِ من عقيدة دينية. إنه يأتي من إيماني الغريـزي بالبـشر، من حبي العنيـد للجنس البـشري. الدين... كما تعرفـين، كانت أسرتي أسرة تقليدية، إلا أنها ليسـت متديِّنة. جـدي وحـده هو الذي كـان متديِّنـاً، إنما معه ترجعـين إلى زمن بعيد جـداً، ترجعين إلى تلك الأيام التي كنا نُقيم فيها في روسيا. في أمريكـا، كما تعرفـين... كنا نتكلّم العبرية فيـما بيننا، كنا نتقيّد

بالعطلات، إلا أننا نادراً جداً ما كنا نمضي إلى المعبد. كنتُ أمضي فقط لمناسبة (السنة الجديدة)، أمضي مع أمي كي أجد لها مكاناً تجلس فيه. المرة الوحيدة التي تابعتُ فيها الصلاة في معبد يهودي كانت في موسكو. وأنتِ تعرفين ماذا أقول؟ لو أنني بقيتُ في روسيا، فربما كنتُ سأصبح متديِّنة. ربما.

أ. ف.: لماذا؟

غ. م.: لأنه في روسيا المعبد اليهودي هو المكان الوحيد الذي يستطيع فيه اليهود أن يُعبّروا عن مشاعرهم وأفكارهم. استمعي إلى ما فعلتُه لمّا أرسلتني الحكومة إلى موسكو في العام 1948، على رأس المهمة الدبلوماسية. قبل مغادرتي جمعتُ كلّ الأشخاص الذين سيذهبون معي وخاطبتُهم قائلة، «خذوا كتب صلاتكم كلّها، شالات الصلاة، قلنسواتكم، كلّ شيء. إني متأكدة من أننا لن نلتقي اليهود إلا في الكنيس». حسناً، هذا هو ما جرى على وجه الدقة. بالطبع، في أول سبت لم يكن يعرف أحد أني سأذهب إلى الكنيس، وبالكاد وجدتُ مائتي فرد هناك. أو أكثر بقليل. لكن بالنسبة لـ «روش هشانا»، السنة اليهودية الجديدة، ولـ «يوم كيبور»، يوم الكفّارة، جاءوا بالآلاف. مكثتُ في الكنيس من الصباح حتى المساء، وفي اللحظة التي رتّل فيها الحاخام جملته الأخيرة من صلاة الكفّارة، تلك الجملة التي تقول «ليشانا هابا بيورشا – لايم»، «السنة القادمة في القدس/ أورشليم». الكنيس كلّه بدا كأنه يرتعش. وأنا، المرأة العاطفية، صلّيت. إنكِ

تفهمين أنّ هذا لا يشبه أن تكوني في بوينيس آيريس أو نيويورك وترددين «السنة القادمة في القدس/ أورشليم». من بوينس آيريس أو نيويورك، باستطاعتكِ أن تأخذي طائرة وتذهبين. هناك في موسكو، المناشدة تتخذ معنىً خاصاً. وفي أثناء الصلاة، قلتُ، «يا إلهي، دع هذا يتحقق فعلاً! إن لم يتحقق السنة القادمة، في بضع سنوات». هل الله موجود واستمع إليّ؟ هذا الشيء يحدث حقاً.

أ. ف.: سيدة مائير، هل تحسين برباط عاطفي مع روسيا؟

غ. م.: لا، لا أبداً. تعرفين، أنّ كثيراً من صديقاتي وأصدقائي غادروا روسيا حين كانوا بالغين يقولون إنهم يحسون بأنهم متعلّقين بتلك البلاد، بمناظرها الجميلة، أدبها، موسيقاها. إلا أنني لم يكن لديّ الوقت كي أثمّن تلك الأشياء. كنتُ جدًّا صغيرة السن لّما غادرتُ روسيا؛ كنت في سن الثامنة ليس إلا، وليس لديّ عن روسيا سوى ذكريات سيئة. لا، لم آخذ معي من روسيا لحظة سعادة واحدة كلّ ذكرياتي حتى سن الثامنة هي ذكريات تراجيدية. كابوس المذابح المنظمة التي ذهب ضحيتَها الآمنون، وحشية القوزاق الذين يهجمون على الاشتراكيين الشبان، الخوف، الزعيق هذه هي الحقيبة التي حزمتُها في روسيا وحملتها معي إلى (الولايات المتحدة). أتعرفين ما هي أول ذكرى في حياتي؟ أبي وهو يدق المسامير في الباب والشبابيك كي يمنع القوزاق من اقتحام المنزل وقتلنا. أوه، صوت المطرقة وهي تدق

المسامير في الألواح الخشبية! أوه، صوت حوافر الخيول حين يتقدّم القوزاق على طول شارعنا!

أ. ف.: كم كان عمرك في ذلك الحين، سيدة مائير؟

غ. م.: خمسة أو ستة أعوام. إلا أنني أتذكَر كلّ شيء بحيوية بالغة. كنا نُقيم في كييف، وفي اليوم الذي غادر فيه أبي كييف كي يذهب إلى (الولايات المتحدة)... كنا فقراء جدًّا، حتى أننا لم نكن نملك كفايتنا من الطعام، وكان يفكر في الذهاب إلى أمريكا على مدى عام أو عامين، يدّخر قليلاً من المال ويعود من جديد. في مطلع القرن العشرين، كانت أمريكا بالنسبة لليهود نوعاً من بنك، حيث تمضي إليه كي تجني الدولارات المبعثرة على الأرصفة وتؤوب ثانيةً وجيوبك ممتلئة. إذاً غادر أبي كييف، غير أنّ كييف مدينة ممنوعة على اليهود الذين ليس لديهم مهنة، على سبيل المثال مهنة كمهنة أبي، كونه حِرفيًّا، وما أن غادر، حتى تعيّن علينا أن نغادر أيضاً.

وذهبنا إلى پنسك، أنا، أمي، شقيقتاي. كان هذا في العام 1903. مكثنا في پنسك حتى العام 1905، حين بلغت وحشية النظام القيصري أوجها. كان (دستور 1905)، في حقيقة الأمر، كذبةً قذرة خديعة من أجل جمع الاشتراكيين معاً وإلقاء القبض عليهم بسهولة أكثر. وكانت شقيقتي التي تكبرني سنًّا بتسعة أعوام، تنتمي إلى الحركة الاشتراكية. كانت أنشطتها السياسية تُبقيها في الخارج حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان من دأبها أن

تدفـع أمي للجنون لأن منزلنا كـان متاخماً لمحطة البوليس حيث كانـوا يجلبون الشبيبة الاشـتراكيين الذين يعتقلونهـم و... كانوا يضربونهم حتى الموت وليليًّا تسمعين صرخات المعذبين! كانت أمـي تعتقد عـلى الـدوام أنّ بمقدورها أن تميّز صوت شـقيقتي. «إنهـا هي! إنها هـي!» أوه، كنا سعداء جداً لّمـا كتب لنا أبونا كي نلتحق به في أمريكا لأنّ الأشياء في أمريكا جيدة!

أ. ف.: أنتِ متعلّقة للغاية بأمريكا، أليس كذلك؟

غ. م.: نعـم، لا لأننـي ترعرعتُ في أمريكا، لأنـه في أمريكا انتظمتُ في المدرسة، وأقمتُ هناك حتى سن العشرين تقريباً. لأنه... حسناً، لأنه في أمريكا فقدتُ رعبي من پنسك، من كييـف. كيف يُمكنني أن أشرح الاختلاف بالنسـبة لي بين أمريكا وروسيا؟ أنظري، لّما وصلنا، كان عمري أكثر قليلاً من ثمانية أعوام، وكانت شـقيقتي الأكـبر منـي سنًّا في السـابعة عشرة، وشـقيقتي الصغـرى أربعة أعوام ونصف. كان أبي يعمـل وينتمي للنقابة. كان فخوراً جداً بنقابته، وبعد مضي شهرين، في (عيد العمال)، قال لأمي: «اليوم يوجـد استعراض. إذا أتيتـم كلّكم إلى ناصية شـارع كذا وكذا، سـوف تجدوننـي أسير مـع نقابتـي!» اصطحبتنا أمنـا، وفيما كنا ننتظـر هناك الاستعراض، جـاء إلى هناك رجـال الشرطة الذين يمتطـون خيولهـم كي يُفسـحوا الطريـق للمشاركين في المسـيرة هـل تفهمـين؟ غـير أن شـقيقتي ذات الأربعة أعـوام ونصف لم يكن بوسعها أن تعرف ذلك، ولّما شـاهدت البوليس على ظهور

الخيول، بدأت ترتعش وتصرخ، «القوزاق! القوزاق!» كان يتعين علينا أن نأخذها بعيداً، من دون أن نُرضي أبي في مشاهدته يسير مع نقابته، ومكثت في فراشها أياماً عدّة وحرارتها مرتفعة جداً، وهي تكرر وتعيد: «القوزاق! القوزاق!» إذاً، أنظري، أمريكا التي عرفتُها هي المكان الذي يحمي فيها الرجال على ظهور الخيول استعراضاً للعمال، أما روسيا التي أعرفها فهي المكان الذي يذبح فيها الرجالُ على ظهور الأحصنة اليهودَ والاشتراكيين الشبيبة.

أ. ف.: ذلك ليس هكذا على وجه الدقة، سيدة مائير، لكن على أية حال...

غ. م.: أوه، اسمعي! أمريكا بلد عظيم. لديها كثير من العيوب، كثير من ضروب عدم المساواة الاجتماعية، وإنها تراجيديا، إنّ مشكلة الزنوج لم تُحل منذ خمسين أو مائة عام خلت، إلا أنها على الرغم من ذلك بلدٌ عظيم، بلدٌ مليء بالفرص، مليء بالحرية! هل يبدو لك أنه لا شيء أن تكوني قادرة على أن تقولي ما تشائين، أن تكتبي ما تشائين، حتى ضد الحكومة، «المؤسسة»؟ قد أكون غير موضوعية، إنما تجاه أمريكا أشعر بامتنان كبير! أنا مولعة بأمريكا، حسناً؟

أ. ف.: حسناً. وصلنا أخيراً إلى شخصية غولدا مائير. إذاً هل بوسعنا أن نتكلّم عن المرأة التي يسميها بن غوريون «الرجل الأكثر اقتداراً في كابينتي الوزارية»؟

غ. م.: هـذه إحدى الأساطـير التي نشأت من حولي. كـما إنها أسطورة وجدتُها مزعجة دوماً، مع أن الرجال يسـتعملونها كإطراء كبير. هـل هي هكذا فعلاً؟ أقول هكـذا. لأنه ماذا يعني هذا في حقيقة الأمر؟ إنه من الأفضل أن يكون المرء رجلاً على أن يكون امرأة، وهـو مبـدأ لا أؤيـده على الإطـلاق. إذاً هذا هو مـا أود قوله إلى أولئـك الأشـخاص الذين قدّموا لي هذا الإطـراء: وماذا لو قال بن غوريون: «الرجال في تشكيلتي الوزارية مقتدرون كامرأة؟» الرجال يحسـون دوماً بأنهـم متفوقون للغاية! لن أنسـى البتة ما حـدث في أحد مؤتمـرات حزبي في نيويـورك في ثلاثينيات القرن العشرين. ألقيتُ كلمـة، وكان بين الجمهور كاتب هو صديقي. وهـو رجل صـادق، ذو ثقافـة واسعـة وذوق رفيع. ولّمـا انتهى المؤتمر، أتى إليّ وهتف قائـلاً، «تهانينا! ألقيتِ كلمة مُذهلة! وأن يفكـر المـرء أنكِ مجـرد امرأة!» هذا هـو ما قاله على وجـه الدقة، بأسلـوب عفـوي، غريـزي. إنـه شيء جيـد أننـي أملـك روح الفكاهة...

أ. ف.: «حركة تحرير المرأة» سوف تحب ذلك، سيدة مائير.

غ. م.: هـل تقصديـن أولئك النسـاء المخبولات الأسـوأ اللائي يحرقن حمـالات صدورهـن ويمضـين هنـا وهنـاك منفوشـات الشعر ويكرهـن الرجال؟ إنهن مخبـولات. مخبولات. إنـما كيف يتقبّل المـرء نسـاءً مخبـولات كهـؤلاء اللـواتي يعتقـدن أنها محنـة إذا ما حملـن وكارثـة إذا مـا جلبـن الأطفـال إلى العـالم؟ ومتـى يكون

الامتيـاز الأعظم الـذي نحصل عليه نحن النسـاء على الرجال! الأنوثة... اسمعي، لقد دخلتُ ميدان السياسة في زمن (الحرب العالميـة الأولى)، حين كنتُ في سن السـادسة عشرة أو السـابعة عـشرة، ولم أكن منتمية إلى منظمة نسـائية. ولّمـا التحقتُ بحركة العـمال الصهيونية، وجـدتُ فقط امرأتين أُخريين تسـعين بالمائة من رفاقـي كانوا رجالاً. سكنتُ وعملـتُ وسط الرجال طوال سنـوات حياتي، ومع ذلك بالنسـبة لي حقيقة كوني امرأة لم تكن، أقـول لم تكـن، عائقـاً. إنها لم تجعلنـي منزعجـة أو تورثني عقدة الدونية. كان الرجال طيبين معي على الدوام.

أ. ف.: هل تقولين إنكِ تفضلينهم على النساء؟

غ. م.: لا، أنـا أقول إني لم أعاني بسـبب الرجـال لأني امرأة. أنا أقول إنّ الرجـال لم يُعاملوني معاملة خاصة ولا أنهم وضعوا العراقيل في طريقـي. بطبيعة الحـال كنتُ محظوظة، بطبيعـة الحال ليس سائر النسـاء لديهـن التجربـة ذاتهـا، لكن عـلى الرغم من ذلـك، فإن تجربتـي الشخصية لا تبرهن عـلى أنّ أولئك النسـاء المخبولات عـلى حق. هنالـك فقط نقطـة واحدة أتفـق بها معهـن: أن يكنّ ناجحـات، يتعين على المـرأة أن تكون مقتدرة أكثـر من الرجل. سواء أن تكرّس نفسـها لمهنة ما أو أن تكرّس نفسـها للسـياسة. لا توجـد نسـاء كثـيرات في برلماننا، وهـو شيءٌ يُزعجنـي كثيراً. وهؤلاء النسـوة القليلات، دعيني أُطمئنكِ، لسن على الإطلاق أقل كفاءة من الرجال. في الواقع، إنهن في كثير من الأحيان أكفأ

من الرجـال بكثير. لذا من المُضحـك أن تكون هنالك تحفظات كثيرة تجاه النسـاء، مظالم وإساءات كثيرة، بحيث أنه حين تُوضع لائحـة للانتخابات، على سبيل المثال، يتـم اختيار أسماء الرجال فقط. لكن هل أنّ هذا كلّه هو خطأ الرجال؟ ألن يكون هذا، في الأقل جزئيًّا، خطأ النساء أيضاً؟

أ. ف.: سيدة مائير، قلتِ تواً إنّ المرأة كي تكون ناجحة عليها أن تكون مقتـدرة أكثر بكثير مـن الرجل. ألا يعني هذا، ربما، أنه أن تكون امرأة أصعب بكثير من أن تكون رجلاً؟

غ. م.: نعـم، بالطبـع. أصعـب، متعـب أكثـر، أكثـر إيلامـاً. إنـما ليس بالـضرورة عـبر خطأ الرجـال لأسبـاب بيولوجيـة، يُمكنني أن أقـول. عـلى كلّ حـال، المرأة هي التـي تلد. المرأة هـي التي تُربِّي الأطفـال. وعندما لا ترغـب المرأة أن تلد، أن تُـربِّي الأطفال... عندما تُريد المرأة أيضاً أن تعمل، أن تكون شـيئاً ما... حسناً، إنه شيء صعب. صعب، صعب. أعرف هذا من تجربتي الشخصية. تكونـين في مهنتكِ وتفكرين في الأولاد الذين تركتِهم في المنزل. تكونـين في المنزل وتفكرين في العمل الذي لم تنجزيه. إن صراعاً كهذا ينشب في داخلكِ، قلبكِ يتمزق. ما لم تسكني في مستوطنة جماعيـة زراعيـة، حيـث تكـون الحياة منظمـة بشكل مـا بحيث يكـون بوسعكِ معاً أن تعملي ويكون لديـك أولاد. خارج هذه المسـتوطنة الجماعية الزراعية، كلّ شيء يدور ويلفُّ، تحاولين أن تكـوني في مكانين حـالاً، تصبحين منحرفة المزاج، و... حسـناً،

هذا كلّه لن يساعد إلا أنه ينعكس على بُنية العائلة. بخاصة إذا كان زوجك ليس حيواناً اجتماعيًّا مثلكِ ويحس أنه غير مرتاح مع زوجة فاعلة، زوجة لا يكفي بالنسبة لها أن تكون زوجة فقط... يجب أن يكون هناك اصطدام. والاصطدام يُمكن أن يندلع حتى عند الزواج. كما حدث معي. نعم، دفعتُ ثمن ما أنا عليه. دفعتُ ثمناً باهظاً.

أ. ف.: بأيّ معنى، سيدة مائير؟

غ. م.: بمعنى... الوجع. لأني، كما تعرفين، أعلم أنّ أولادي، حين كانوا صغاراً، عانوا كثيراً بسببي. تركتُهم وحيدين في أحيان كثيرة.... لم أكن معهم في الوقت الذي يجب أن أكون فيه معهم ووددتُ أن أكون هكذا. أوه، أتذكر كم يكون سعيدين، أولادي، في كلّ مرة لا أذهب فيها إلى العمل بسبب الصداع. كانوا يتقافزون فرحاً ويضحكون وينشدون، «ماما باقية بالبيت! ماما لديها صداع!» كان يلازمني شعور كبير بالإثم تجاه سارة ومناحيم، حتى يومنا هذا وقد أصبحا بالغين ولديهما أطفالهما. ومع ذلك... مع ذلك ينبغي لي أن أكون صادقة وأسأل نفسي، غولدا، في أعماق قلبكِ هل أنتِ فعلاً نادمة على الحقيقة التي مفادها أنكِ تصرفتِ هكذا معهم؟ لا. ليس في أعماق قلبي. لكنهم على الرغم من معاناتهم وهبتُهم حياةً هي ممتعة أكثر، أقل ابتذالاً من الحياة العادية. أعني، أنهم لم يترعرعوا في بيئة عائلية ضيقة. قابلوا أناساً مهمين، سمعوا نقاشات جادة، ساهموا في أشياء عظيمة. وإذا ما تكلّمتِ

معهم، سيقولون لكِ الشيء نفسه. سيقولون لك: «أجل، ماما أهملتنا كثيراً جداً، جعلتنا نعاني بسبب غيابها، بسبب سياستها، من خلال عدم الاهتمام بنا، إلا أننا لا نستطيع أن نحمل الضغينة لها لأنها، وهي بالطريقة التي كانت عليها، منحتنا أكثر بكثير مما تمنحه أيّ أُمٍّ أخرى!»

لو تعرفين إلى أيّ مدى كنتُ فخورة في اليوم الذي... في العام 1948، الوقت الذي كنَّا نقاتل فيه البريطانيين، كنتُ أكتب المنشورات التي كان صبيان وفتيات الحركة يلصقونها على الجدران ليلاً. ابنتي لم تكن تعرف أني هي التي تكتب تلك المنشورات وفي يومٍ من الأيام خاطبتني قائلة، «ماما، هذه الليلة سأرجع في ساعة متأخرة. وربما لن أعود مطلقاً». «لماذا؟» سألتُها، وأنا مروَّعة. «لا يمكنني أن أخبركِ، ماما». وبعدها خرجت ومعها رزمة تحت ذراعها. ما من أحد كان بمستطاعه أن يعرف أحسن مني ماذا يوجد في تلك الرزمة، ووضع المنشورات على الحيطان شيءٌ خطير جداً. ظللتُ ساهرة حتى الفجر انتظر سارة، لاعنةً نفسي بخوف أنّ شيئاً ما قد حدث لها. إنما في الوقت عينه كنتُ فخورة جداً بها!

أ. ف.: سيدة مائير، هذا الشعور بالإثم الذي أحسستِ به تجاه أولادك، هل تحسين به أيضاً تجاه زوجكِ؟

غ. م.: دعينا نتجنب التكلّم في هذا الموضوع... لا أحب التحدّث فيه... لم أتحدّث فيه قط... حسناً، لا بأس، دعيني أحاول. كما

تعرفين، زوجـي رجل لطيف بنحو استثنائـي. إنه رجل متعلّم، لطيف، صالح. كلّ شيء فيه جيد. إلا أنه أيضاً كان رجلاً مولعاً فقـط بأسرتـه، بالطبـع، بموسيقاه، كتبـه. كان يعـي المشكلات الاجتماعية، بطبيعة الحال، إنما فيما يتعلّق بمنزله ووحدة الأسرة، كانـت هذه المشكلات تفقد كلّ ضروب الاهتمام مهما كان نوعه بالنسـبة لـه. أما أنا فقد كنتُ مختلفة تماماً عنـه. كنتُ دوماً مختلفة عنـه تمام الاختلاف. السـعادة الأسرية لم تكن كافية بالنسـبة لي، كـان علـيّ أن أؤدي العمل الـذي أؤديه فعلاً! أن أتخـلّى عنه كان سيبـدو لي فعـلاً مـن أفعال الجُبـن، فعلاً مـن أفعال الخـداع مع نفسي. كنتُ سأصبح مُقحَمة في سأمي، في حزني...

قابلـتُ زوجـي لّمـا كنـتُ في ربيعي الخامس عـشر ليس إلا. تزوّجنـا في الحال، ومنـه تعلّمتُ سائر الأشـياء الجميلة من مثل الموسيقـى والشعر. إلا أنني لم أكن ساذجـة كي أقتنع بالموسيقى والشعـر و... كـان يُريـدني أن أمكـث في المنـزل وأنسـى كلّ ما يتصل بالسـياسة. وبدلاً من ذلك كنتُ دوماً خارج المنزل، دوماً منخرطـة في السـياسة و... بالطبـع كان لديّ إحسـاس بالذنب تجاهـه أيضـاً... جعلتُـه يعـاني كثيراً جـداً، هو أيضـاً... جاء إلى إسرائيـل لأني أردتُ المجـيء إلى إسرائيـل. جـاء إلى المسـتوطنة الجماعيـة الزراعيـة لأني أردتُ أن أكـون في مسـتوطنة جماعيـة زراعيـة. اتخذ حياة لم تكن تناسبه لأنها نـوع من حياة لا يُمكنني أن أقوم بها مـن دون... كانت تراجيديا... تراجيديا هائلة. لأنه

كـان، كـما ذكرتُ آنفـاً، فـرداً رائعاً، ومـع امرأة مختلفـة سيكون سعيداً للغاية.

أ. ف.: ألم يسـبق لـكِ أن بذلـتِ جهـداً كـي تكيّفـي نفسـكِ معه، كي تُرضيه؟

غ. م.: ضحيـتُ مـن أجلـه أكـبر تضحيـة في حيـاتي: تركتُ المسـتوطنة الجماعيـة الزراعيـة. كما تعرفـين، ما مـن شيء أحببتُه حبًّـا جمًّا كما أحببـتُ المسـتوطنة الجماعيـة الزراعيـة. أحببـتُ كـلّ مـا يتعلّـق بالمسـتوطنة: العمل اليدوي، الرفقة، المصاعب. كانت مستوطنتنا في وادي (جيزريـل)، وفي البدايـة لم تكـن تعطينـا شـيئاً سـوى المسـتنقعات والرمـل، إلا أنها سرعـان ما أصبحـت حديقة مليئة بأشـجار البرتقال، الفاكهـة، وكان مجرد النظر إليهـا يهبني سعادة بالغة بحيث كان باستطاعتي أن أمضي حياتي كلّها هناك. بدلاً من ذلك لم يكن زوجي ليحتمل ذلك، لا نفسـيًّا ولا جسـديًّا. لم يكن يستطيع أن يطيق تناول الطعام جالساً إلى مائدة مشتركة معنا نحن البقية. لم يكن يطيق العمل الشاق. لم يكن يتحمل المناخ والشعور بأنه جزء من المجتمع. كان فردانيًّا جداً، انطوائيًّا جداً، رقيقاً جداً. أصابـه السـأم و... تعيّن علينا أن نغادر، أن نرجـع إلى المدينة، إلى تل أبيب. إنه شـعور بـالألم لا يزال يخترقني كالإبـرة. كانت تلك فعلاً تراجيديا بالنسـبة لي، إلا أنني تحملتهـا، معتقدةً أنه في المدينة ستكـون الأسرة أهدأ ومتحدة أكثر. غـير أنّ الأمر لم يكن هكذا. وفي العام 1938 انفصلنا. وبعدها في العام 1951 فارق الحياة.

أ. ف.: ألم يكن فخوراً بكِ، في الأقل خلال الأعوام الأخيرة من حياته؟

غ. م.: لا أعرف... لا أعتقد ذلك. لا أعرف ماذا كان يفكر في السنوات الأخيرة، وزيادةً على ذلك كان منعزلاً جداً، بحيث أنه ما من أحد كان قادراً على التخمين. وعلى كلّ حال مأساته لم تأتِ من حقيقة كونه لم يفهمني لقد فهمني بنحو جيد جداً. مأساته أتت من كونه فهمني بالفعل، وفي الوقت ذاته أدرك أنه غير قادر على أن يُغيّرني. باختصار، كان يعرف أنه لم يكن أمامي خيار آخر، وأنه عليّ أن أكون ما أنا عليه. إلا أنه لم يوافق، هو ذا بيت القصيد. ومَن يعرف ما إذا لم يكن هو على حق.

أ. ف.: لكنكِ لم تفكري في طلب الطلاق، سيدة مائير، ولم تفكري في الزواج مجدداً لمّا توفي؟

غ. م.: أوه، لا! أبداً. إنّ فكرةً كهذه لم تخطر في بالي، البتة. كنتُ أواصل التفكير دوماً في نفسي بأني متزوجة منه! بعد الانفصال بقينا يرى أحدنا الآخر. في بعض الأحيان كان يأتي لزيارتي في مكتبي... لعلكِ لم تفهمي شيئاً غاية في الأهمية: مع أننا كنا مختلفين تماماً وغير قادرين على العيش معاً، كان الحب قائماً بيننا على الدوام. كان حبنا حبًّا رائعاً، دام من اليوم الذي تقابلنا فيه إلى يوم وفاته. وإن حبًّا كهذا لا يُمكن تعويضه.

أ. ف.: سيدة مائير، هل صحيح أنكِ محتشمة جداً؟ كيف يسعني أن أقول ذلك... متزمتة للغاية، متمسكة للغاية بالمبادئ الأخلاقية؟

غ. م.: انظري، كما قلتُ آنفاً، عشتُ دوماً وسط الرجال. ولم يحدث قط، لم يحدث قط، أن سمح رجلٌ لنفسه أن يحكي نكتة فاحشة بحضوري، أن يقول شيئاً غير محترم أو يراودني عن نفسي. أتعرفين السبب؟ لأني كنتُ أقول دوماً إنني إذا ما أعطوني كأس ماء، ذلك الماء ينبغي أن يكون نظيفاً. وإلا لن أشربه. هكذا أنا؛ أحب أن تكون الأشياء نظيفة. قال لي صديقٌ عزيز ذات مرة، «غولدا، لا تكوني صلبة للغاية. لا توجد أشياء أخلاقية أو لا أخلاقية. هنالك فقط أشياء جميلة أو قبيحة». في اعتقادي أنه كان على صواب. وما هو أكثر، في اعتقادي أنه الشيء نفسه يُمكن أن يكون جميلاً وقبيحاً. لأنه قد يبدو لبعض الناس جميلاً وللبعض الآخر قبيحاً. على أيّ حال... لا أعرف كيف أشرح هذا... ربما بهذه الطريقة: الحب جميل على الدوام، غير أن فعل الحب مع عاهرة شيء قبيح.

أ. ف.: كما يقولون إنكِ أيضاً صلبة للغاية، متعنتة...

غ. م.: أنا، صلبة؟ لا. توجد مسائل قليلة، في السياسة، ربما يعتقدون أنني صلبة فيها. في حقيقة الأمر، أنا لستُ من النوع الذي يقبل بتسوية مُذلّة وأنا أقول هذا بعناد. أنا أؤمن بإسرائيل، أنا لا أستسلم حين يتعلّق الأمر بدور إسرائيل. أجل، في ذلك المعنى كلمة «متعنتة «تنطبق عليّ. لكنني بخلاف ذلك، أعني في حياتي الشخصية، مع الناس، مع المشكلات الإنسانية... إنه لمن السخافة القول إني متعنتة. أنا الكائن الحساس جداً الذي لن

تقابليه أبداً. إنها ليست مصادفة أنّ كثيرين يتهمونني بأنني أتخذ قراراتي السياسية استناداً إلى أحاسيسي بدلاً من عقلي. حسناً، ماذا لو أنني أفعل هذا؟ أنا لا أرى شيئاً سيئاً في ذلك، على العكس تماماً. أنا أشفق على الناس الذين يخافون من أحاسيسهم، من عواطفهم، والذين يكتمون ما يشعرون به ولا يُمكنهم أن يبكوا من أعماق قلوبهم. لأنّ أيّ فرد لا يستطيع أن يبكي من أعماق قلبه لا يستطيع أيضاً أن يضحك من أعماق قلبه.

أ. ف.: هل تبكين فعلاً في بعض الأحيان؟

غ. م.: هل أبكي! وكيف! ومع ذلك لو أنكِ سألتِني، «أخبريني، غولدا، هل كان الضحك أو الدموع أكثر في حياتك؟» سأُجيبكِ، «أعتقد أنني ضحكتُ أكثر مما بكيتُ». بصرف النظر عن فواجعي الأُسرية، كانت حياتي سعيدة الحظ. عرفتُ أشخاصاً رائعين بكلّ معنى الكلمة، كانت لي علاقات صداقة مع أشخاص ظريفين بخاصة في الأعوام الخمسين التي قضيتُها في إسرائيل. كنتُ أتحرّك دوماً في نطاق حلقة من العمالقة المثقفين؛ كنتُ أحظى دوماً بالتقدير والمحبة. وماذا يسعكِ أيضاً أن تسألي عن الحظ؟ سأكون فعلاً ناكرة للجميل لو لم أكن أعرف كيف أقهقه.

أ. ف.: ليس شيئاً سيئاً بالنسبة لامرأة تُعدُّ رمزاً لإسرائيل.

غ. م.: أنا، رمز؟ رمز معين! لعلكِ تسحبين رِجلي؟ إنكِ لا تعرفين الرجال العظام الذين كانوا حقيقةً رمزَ إسرائيل، الرجال الذين

أسسوا إسرائيل وقد تأثرت بهم. بن غوريون هو الوحيد الذي بقي منهم، وأنا أقسم لكِ بأولادي وأحفادي أني لا أضع نفسي في نفس الصنف على غرار بن غوريون أو كاتزنيلسون[1]. لستُ معتوهة! لقد عملتُ ما عملت، هذا صحيح. إلا أنني لا أستطيع أن أقول إني إذا لم أفعل ما فعلتُ، ستكون إسرائيل مختلفة أيما اختلاف.

أ. ف.: إذاً لماذا يقولون إنكِ الشخص الوحيد الذي بوسعه أن يجعل البلد متماسكاً؟

غ. م.: كلام فارغ! سأقول لكِ الآن شيئاً سوف يُقنعكِ. لمّا توفي إيشكول في العام 1969، أجروا اقتراعاً كي يكتشفوا كم تبلغ شعبية خَلَفه المُحتملين. وأنتِ تعرفين كم عدد الأشخاص الذين خرجوا من أجلي؟ واحد بالمائة. ربما واحد ونصف بالمائة. حسناً، كانت هنالك أزمة في حزبي، حتى حين كنتُ وزيرة خارجية أحسستُ بتأثيرات ذلك إنما كانت النسبة لا تزال واحداً، واحداً ونصف بالمائة! وامرأة غير محبوبة على الإطلاق حتى ثلاثة أعوام خلت يجب أن تكون اليوم المرأة التي تجعل البلد متماسكاً؟ صدّقيني، البلد متماسك من تلقاء نفسه؛ إنه لا يحتاج إلى رئيسة وزراء تُدعى غولدا مائير. إذا تسنى للشبيبة أن يقولوا، «كفى قتالاً،

---

(1) بيرل كاتزنيلسون Berl Katznelson (1887 – 1944): أحد المؤسسين المثقفين لـ(الصهيونية العمالية) ولعب دوراً مساعداً في دولة إسرائيل الحديثة، ومحرر «داڤار»، أول جريدة يومية للحركة العمالية – م.

كفى حرباً، دعونا نستسلم»، لا غولدا مائير باستطاعتها أن تفعل شيئاً حيال ذلك. لو قالوا في المستوطنات الجماعية الزراعية العائدة لبيسان[1]، «يكفي العيش تحت صواريخ الفدائيين، يكفي النوم في الملاجئ، دعونا نمضِ بعيداً»، لا غولدا مائير ستكون قادرة على القيام بأيّ شيء إزاء ذلك. والأكثر من ذلك، إنها محض مصادفة أنه تسنَّى لغولدا مائير أن تقود البلاد. إيشكول فارق الحياة، وينبغي أن يحلّ محلّه شخصٌ ما، وفكّر الحزب أني ربما أحلّ محلّه لأني كنتُ مقبولة لكلّ الأحزاب السياسية و... هذا هو كلّ شيء. في الحقيقة، لم أكن حتى أرغب بالقبول. كنتُ خرجتُ من السياسة الحكومية، كنتُ مُتعبة. يمكنكِ أن تسألي أولادي وأحفادي.

أ. ف.: سيدة مائير، لا تحاولي أن تُخبريني بأنكِ لا تعين نجاحكِ!

غ. م.: بالطبع أعي! أنا لا أعاني من أوهام العظمة، ولا أنا مُبتلاة بُعقدة الدونية. حين أنكر كوني رمزاً وأني أوحِّد البلد، أنا لا أقول إني إنسانة فاشلة! ربما لم أكن أنموذجية دوماً، إلا أنني لا أرى أني فشلتُ في مسيرتي، سواء كوزيرة عمل، أو وزيرة خارجية، أو سكرتيرة الحزب، أو رئيسة الحكومة. في الحقيقة عليّ أن أعترف أنه، في رأيي، النساء بوسعهن أن يكنّ قائدات حكومة جيدات،

(1) بيسان (بالعبرية [بيت شاين Beath Shean]): مدينة في (المقاطعة الشمالية) من إسرائيل المكوّنة من ست مقاطعات. لعبت بيسان دوراً مهمًا في التاريخ بسبب موقعها الجغرافي كاتصال بين (وادي نهر الأردن) و (وادي جزريل). كانت تُدعى تاريخيًا باسم (سيكيثوپولس) – م.

رئيسـات دولة جيـدات. أوه، إلهي، ربما كنـتُ سأؤدي وظيفتي بالجودة نفسها لو كنتُ رجلاً... لا أعرف، لا يُمكنني أن أبرهن على ذلك، لم يسبق لي أن كنتُ رجلاً... إلا أنني أعتقد أنّ النساء، أكثر من الرجال، يمتلكن القابلية التي تساعدهن على أداء هذه المهنـة. إنهـا قابلية الذهاب مبـاشرة إلى جوهر الأشـياء، في أخذ الثـور من قرونه. النسـاء عمليات أكثـر، واقعيات أكثر. إنهن لا يشتّتنَ أنفسـهن في إرباكات مثل الرجـال، الذين يدورون دوماً حول الأجمة محاولين الوصول إلى لب القضية.

أ. ف.: ومـع ذلك إنـكِ غالباً ما تتحدّثين كما لو أنكِ لا تحبين نفسـكِ. هل تحبين نفسكِ، سيدة مائير؟

غ. م.: أيّ شـخص هـذا الـذي لديه أيّ إحسـاس يحب نفسـه؟ أعرف نفسي حق المعرفة كي أحب نفسي. أعرف حق المعرفة بكل معنى الكلمة أني لسـتُ كما أحببتُ أن أكـون. وكي أُعطيكِ فكرة ماذا أحببـتُ أن أكون، سأخبركِ مَن أحببـتُ أن أكون: ابنتي. سارة، جيدة، ذكية، صادقة فكريًّا بكلِّ معنى الكلمة! حين تؤمن بشيء ما، تمضي فيه حتى النهاية. حين تفكر في شيء ما، تقوله من دون كلمات متكلّفة. وهي لا تستسـلم للآخريـن، للأغلبية. أنا فعلاً لا يُمكنني أن أقول الشيء نفسـه عـن نفسي. حين تؤدين العمل الـذي أؤديه، عليكِ دومـاً أن تنحني من أجل التسـويات، إنكِ لا تسـتطيعين أن تجعلي نفسـكِ تبقين مائة بالمائـة وفيةً لأفكاركِ. بطبيعة الحال، ثمة حدّ للتسـوية، ولا يسـعني القـول إني أنحني

لهـا. على كلّ حال، لقد انحنيتُ بما يكفي. وهذا شيء سيِّئ. هذا سببٌ آخر أنني لا أقدر أن أنتظر كي أتقاعد.

أ. ف.: هل ستتقاعدين فعلاً؟

غ. م.: أعطيتكِ كلمتي. اسمعي، في أيار/ مايو السنة القادمة سأكون في الخامسـة والسبعين. أنا كبيرة السن. أنا مُرهَقة. صحتي جوهريًّا جيـدة، قلبي يؤدي وظيفتـه، إلا أنني لا أقوى على الاستمرار في هذا الجنون إلى الأبد. ليتكِ تعرفين كم عدد المرات التي خاطبتُ فيهـا نفـسي: ليذهب كـلّ شيء إلى الجحيم، ليذهـب الجميع إلى الجحيـم، لقـد أديتُ حصتـي من العمـل، الآن دعـي الآخرين يـؤدُّون حصصهـم مـن العمـل، كفـى، كفـى، كفـى! في بعض الأيـام تراودني رغبةٌ عارمة أن أحزم أمتعتي وأغادر من دون أن أُخـبر أحداً. إذا ما بقيتُ طوال هذه المدة، إذا ما بقيتُ حتى هذه اللحظة التي لا أزال فيها هنا، فهذا انطلاقاً من الواجب ولا شيءَ سواه. لا يُمكنني أن أرمي كلّ شيء من الشباك! نعم، كثيرون لا يُصدّقون أني سأغادر. طيب، من الأحسن لهم أن يُصدّقوا ذلك، حتى أنني سأعطيكِ التاريـخ: تشرين الأول/ أكتوبر 1973. في تشريـن الأول/ أكتوبر 1973 ستكون هنالك انتخابات. وما أن تنتهي هذه الانتخابات، مع السلامة!

أ. ف.: لا أُصـدّق ذلـك. والجميع يقولون إنـكِ ستغيرين رأيكِ لأنكِ غير قادرة على أن تجلسي من دون حراك ولا تفعلين شيئاً.

غ. م.: أنظري، ثمة شيء آخر لا يعرفه الناس عني. بطبيعتي، أنا امرأة كسولة. لستُ واحدة من أولئك الأشخاص الذين ينبغي لهم أن يملئوا كلّ دقيقة وإلا أصبحوا سقيمين. أنا أحب ألا يكون لديّ عمل أؤديه، وحتى أحب أن أجلس فقط في كرسي ذي مِسندين، أو أُضيّع وقتي مع أشياء صغيرة أستمتع بها. تنظيف المنزل، كيّ الملابس، أطهو وجبة طعام... أنا طاهية ممتازة، ربّة بيت ممتازة. كان من دأب أمي أن تقول، «لكن لماذا تُريدين أن تدرسي؟ إنكِ ربّة بيت جيدة بكلّ معنى الكلمة!» وإضافةً إلى ذلك أحب أن أنام. أوه، أحب النوم كثيراً جداً! أحب أن أكون مع الناس، أن أتكلّم عن هذا الشيء وذاك ليذهب الكلام الجاد إلى الجحيم، الكلام السياسي! أحب الذهاب إلى المسرح. أحب الذهاب إلى السينما، من دون أن يكون حرسي الشخصي تحت قدميّ. كيف يحصل أنه كلّما أرغب بمشاهدة فيلم، يرسلون حتى الجيش الإسرائيلي الاحتياطي معي؟ هذه حياة؟ مرّت أعوام عدّة وأنا عاجزة عن فعل ما يحلو لي، أن أنام، أن أتحدّث عن أشياء عادية، أن أجلس مكتوفة اليدين. كنتُ على الدوام مُقيّدة بقطعة ورق فيها لائحة بالأشياء التي ينبغي لي القيام بها، الأشياء التي يجب أن أقولها، نصف ساعة بنصف ساعة.

آ! ومن ثم هنالك عائلتي. لا أريد أن يقول أحفادي، «جدتنا تصرّفت بنحو سيِّئ مع أولادها وأهملتهم، وتالياً سوف تتصرّف بنحو سيِّئ معنا وتهملنا». أنا جَدّة. ليس لديَّ سنوات

طويلة جداً كي أعيشها. وأنا أنوي أن أقضي تلك السنوات مع أحفادي. كما أنوي أن أقضيها مع كتبي. لديَّ رفوف مكتظة بالكتب التي لم أقرأها. في الثانية صباحاً لمّا أذهب إلى فراشي، آخذ أحد الكتب معي وأحاول أن أطالعه، إنما بعد دقيقتين پفف! أغط في نوم عميق ويسقط الكتاب من يدي. وأخيراً أود الذهاب إلى مستوطنة سارة الجماعية الزراعية حين أشاء. طوال أسبوع، طوال شهر، لا أن أذهب إلى هناك بسرعة مساء الجمعة وأعود مسرعةً مساء السبت. يجب أن أكون سيدة الساعة، لا أن تكون الساعة هي سيدتي.

أ. ف.: أنتِ إذاً لا تخافين من التقدّم في السن.

غ. م.: لا، إنه لا يُخيفني قط. حين أعرف أني قادرة على تغيير الأشياء، أغدو فعالة كالإعصار. وعلى الدوام تقريباً أفلحُ في تغييرها. لكنني حين أعرف أنني عاجزة عن فعل أيّ شيء، أترك العمل أنا نفسي. لن أنسى المرة الأولى التي ركبتُ فيها في طائرة في العام 1929، من لوس أنجلوس إلى سياتل. من أجل عملي، إيه، لا من أجل المتعة والمرح! كانت طائرة صغيرة وفي لحظة إقلاعها، فكرتُ مع نفسي: يا للجنون! لماذا فعلتُ ذلك؟ لكني سرعان ما هدأتُ كم هو جيد أن تخافي؟ في مرة أخرى طرتُ من نيويورك إلى شيكاغو مع صديق لي، وقبضت علينا عاصفة مُروِّعة. كانت الطائرة تنتفض وتترنَّح، وكان صديقي يصرخ كالطفل الصغير. لذلك قلتُ له، «توقف عن البكاء، لماذا تبكي، ما نفع البكاء؟»

عزيزتي، التقدّم في السـن أشـبه بطائرة تطير أثنـاء عاصفة. ما أن تكوني في داخلها، لا يُمكنكِ أن تفعلي شيئاً. لا يُمكنكِ أن تُوقفي الطائـرة، لا يُمكنـكِ أن توقفي العاصفـة، لا يُمكنكِ أن توقفي الزمن. لذا من الأفضل أن تأخذي الأمر ببساطة، بحكمة.

أ. ف.: هل هذه هي الحكمة التي تجعلكِ قاسية مع الشبيبة؟

غ. م.: أنصتـي، ستكونـين معتوهـة إذا لم تُدركـي أنّ الجيـل الأصغـر سنّـا يفكـر بطريقـة مختلفـة وأنّ هذا هـو الأسلـوب الذي يجب أن يكـون. سيكون شـيئاً مُحزناً لو أنّ كلّ جيل يكون نسـخةً من الجيـل الذي سبقه؛ العالم لـن يمضي للأمام بعـد الآن. أنا أتقبّل الحقيقة بفرح، الحقيقة التي تذهب إلى القول إن الشبيبة يختلفون عنـي. ما أستهجنه فيهم هو استنتاجهم حين يقولون، «كلّ شيء فعلتموه خاطئ لذا سنقوم به كلّه من البداية». حسـناً، لو تسنى لهـم أن يفعلـوه ثانيةً بصورة أفضل، ما كنـتُ حتى لأبالي، إنما في حالات كثيرة هم ليسـوا أفضل منّا، نحن كبار السن وربما حتى أسـوأ. التقويـم ليـس معيار الخير والـشر! أعرف شـبيبة أنانيين ورجعيين وكبار سن شـهمين وتقدّميـين. وفضلاً عن ذلك ثمة شيء آخر أستهجنه في الشبيبة: هَوَسهم في استنسـاخ كلّ ما يأتي مـن الخـارج. أزياؤهـم الحديثـة تزعجنـي. لماذا تلـك الموسيقى ليسـت موسيقـى ولا فائدة منها سـوى أنها تُصيبـكِ بالصداع؟ لماذا هـذا الشعر الطويل، لماذا هذه التنـورات القصيرة؟ أنا أكره الموضـات الحديثـة، كرهتُهـا دومـاً. الموضـة هي فـرض، نقص

الحرية. شخصٌ ما في باريس يقرر لسببٍ ما أنّ النساء يجب عليهن أن يلبسن تنورات قصيرة للغاية، وها هنّ كلُّ النساء بتنورات قصيرة للغاية: أرجل طويلة، أرجل قصيرة، أرجل شديدة النحافة، أرجل سمينة، أرجل قبيحة... لا بأس بما أنهن لا يزلن شابات يافعات. ولّما يبلغن سن الخمسين، لقد جُننتُ فعلاً. هل سبق لكِ أن رأيتِ أولئك الرجال المُسنين الذين لهم مجموعة من الضفائر الصغيرة على ظهور أعناقهم؟

أ. ف.: الحقيقة هي، سيدة مائير، إن جيلكِ جيل بطولي، في حين أنَّ جيل اليوم...

غ. م.: وكذلك جيل اليوم. من مثل جيل أولادي. حين أرى رجالًا في سن الخامسة والأربعين أو الخمسين مَمن كانوا يقاتلون في الحرب على مدى عشرين، ثلاثين عاماً.. لكنكِ تعرفين ما أقول؟ حتى شبيبة اليوم هم جيل بطولي. في الأقل في إسرائيل. لّما أفكر أنهم في سن الثامنة عشرة كانوا جنوداً أصلاً، وأنه كي تُصبح جنديًا هنا لا يعني فقط التدريب ولا شيءَ سواه... أحس أنّ فؤادي ينفجر. حين أمضي وسط طلبة مدرسة ثانوية وأفكر أنّ نزوةً من السادات كان من شأنها أن تمزقهم إرباً بعيداً عن مناضدهم الدراسية، أشعر بالغصة في حنجرتي. على مدى لحظة أغدو عادة قليلة الصبر معهم.. أتجادل معهم. إنما بعد خمس دقائق أحدّث نفسي قائلة، «غولدا، في غضون شهر من الجائز أن يكون هؤلاء الطلبة في جبهة القتال. لا تكوني قليلة الصبر معهم. إذاً دعيهم

يُصبحـوا مختالين، متعجرفين. دعي الطالبات يلبسـن التنورات القصـيرة جداً، دعي الطلاب يمضـون هنا وهناك بشعر طويل. الأسبوع الماضي كنتُ في مسـتوطنة جماعية زراعية في الشمال. في المكتـب كانوا مصدومين، قالوا لي، «أن تقومي برحلة كهذه! إنه شيءٌ مُرهِـق جـداً! أنتِ مجنونة!» لكنكِ تعرفـين لماذا مضيتُ إلى هنـاك؟ لأن حفيـدة أحد رفاقـي القدامى كانت تتـزوج. وأثناء (حرب الأيام الستة) فقد اثنين من أحفاده.

أ. ف.: سيدة مائير، هل حصل أن قتلتِ شخصاً ما؟

غ. م.: لا... تعلّمـتُ إطلاق النـار، بالطبع، إنما لم يحصل أن قتلتُ فرداً مـا. لا أقـول هذا بوصفه عـزاءً لا يوجد فارق بـين القتل واتخاذ القـرارات التي ترسلين بموجبها الآخرين كي يقتلوا. إنه الشيء نفسه بالضبط. وربما أسوأ.

أ. ف.: سيدة مائير، كيف تنظرين إلى الموت؟

غ. م.: يُمكنني أن أقول لكِ حالاً: إن خوفي الوحيد هو أن أعيش طويلاً جـداً. إنكِ تعرفين، التقدّم في السـن ليس خطيئـة وليس سعادة ثمة كثير من الأشـياء غير المُستحَبة فيما يتصل بالتقدّم في السن. لا تكونين قادرة على صعود درجات السـلّم ونزولها، لا تكونين قـادرة عـلى القفز... وعـلى الرغم من ذلـك تتعوّدين على بعض الأشـياء من دون صعوبة. إنها فقط مسـألة مشكلات جسـدية، والمشكـلات الجسـدية ليسـت مُخزية. مـا هو مُخزٍ هـو أن تفقدي

شـفافيتكِ العقلية، أن تُصبحي هرِمة. الهَرَم... أعرف أشخاصاً ماتوا في سن مبكرة، وهذا الأمر آذاني. أعرف أشخاصاً ماتوا في سن متأخرة جداً، وهذا الأمر آذاني كثيراً بالقدر نفسه. اسمعي، بالنسـبة لي، أن أشـهد خـراب ذكاء رائـع هو إهانـة. لا أريد أن تحصل لي هذه الإهانة. أُريد أن أموت وعقلي نيّر. نعم، إن خوفي الوحيد هو أن أعيش طويلاً جداً.

مكتبة .. سر من قرأ

ياسر عرفات

عمّان، آذار/ مارس 1972

أوريانا فالاتشي: أبو عمّار، الناس يتحدّثون عنك كثيراً جداً، لكن لا شيءَ تقريباً معروف عنك و...

ياسر عرفات: إن الشيء الوحيد الذي يُمكن قوله عني هو إني مقاتل فلسطيني متواضع. أصبحتُ مقاتلاً في العام 1947 مع بقية أفراد أسرتي. نعم، هذه هي السنة التي استيقظ فيها وعيي وفهمتُ أيّ احتلال قمعي قد حدث في بلادي. ما من احتلال آخر يشبهه في تاريخ العالم بأسره.

أ. ف.: كم كان عمرك يومئذ، أبو عمار؟ أسألك لأنه ثمة جدال فيما يتصل بعمرك.

ي.ع.: لا أسئلة شخصية.

أ. ف.: أبو عمار، أنا أسألك فقط كم عمرك. لستَ امرأة. باستطاعتك أن تُخبرني.

ي.ع.: قلتُ، لا أسئلة شخصية.

أ. ف.: أبو عمار، إذا لا تُريد أن تخبرني بعمرك، لماذا تعرض نفسك دوماً لانتباه العالم وتجعل العالم ينظر إليك باعتبارك رئيس المقاومة الفلسطينية؟

ي. ع.: لكنني لستُ رئيس المقاومة! لا أريد أن أكون! حقيقةً، أُقسم لكِ. أنا مجرد عضو في (اللجنة المركزية)، واحد من بين كثيرين، وكي أكون دقيقاً أنا الشخص الذي أُرغم كي يكون الناطق الرسمي. أي أن أنقل ما يقرره الآخرون. إنه سوء فهم كبير أن تعتبريني رئيساً المقاومة الفلسطينية ليس لديها رئيس. نحاول في حقيقة الأمر أن نتخذ مفهوم القيادة الجماعية ومن الجلي القضية تُظهِر مصاعب، إلا أننا نصر على ذلك بما أننا نؤمن أنه شيء لا يُمكن الاستغناء عنه ألا نوكل المسؤولية والهيبة إلى شخص واحد بمفرده. إنه مفهوم حديث ويساعد في ألا نقترف الخطأ حيال الجماهير التي تقاتل، حيال أشقائنا الذين يموتون. لو وجب عليّ أن أموت، سيكون فضولك قد أُستنفد سوف تعرفين كلّ شيء عني. حتى تلك اللحظة، لا.

أ. ف.: لن أقول إن رفاقك لا يطيقون أن يجعلوك تموت، أبو عمار. و، إذا ما حكمنا من خلال حارسك الشخصي! أقول إنهم يعتقدون أنك ستكون مفيداً أكثر بكثير لو أنكَ بقيتَ حيًّا.

ي. ع.: لا. ربما بدلاً من ذلك أكون مفيداً أكثر بكثير ميتاً مني حيًّا. آ، نعم، موتي سيقدّم عوناً كبيراً للقضية، باعتباره حافزاً. دعيني حتى أضيف أنّ لدي احتمالات كثيرة بالموت قد يحدث الليلة، غداً. إذا متُّ، فهي ليست مأساة شخصٌ آخر سوف يدور حول العالم كي يُمثل (الفتح)، شخصٌ آخر سوف يُدير المعارك... أنا أكثر من مستعد للموت. لا أبالي فيما يتصل بسلامتي بقدر ما تحسبين.

أ. ف.: أفهم هذا. من الناحية الثانية، لقد اجتزتَ، أنتَ نفسك، الخطوط إلى داخل إسرائيل مرةً في كلّ حين، أليس كذلك، أبو عمار؟ الإسرائيليون مقتنعون أنكَ دخلتَ إسرائيل مرتين، وقد هربتَ لّما نصبوا كميناً لك. وقد أضافوا قائلين إن أيّ شخص ينجح في هذا لا بدَّ أن يكون ذكيًّا جداً.

ي.ع.: إن ما تسمينه «إسرائيل «هو بلدي. لذا لم أكن في إسرائيل بل في بلدي، ولي كلّ الحق في الذهاب إلى بلدي. نعم، كنتُ هناك، إنما أكثر من مرتين فحسب. أنا أذهب إلى هناك باستمرار، أذهب حين أشاء. بطبيعة الحال، كي أمارس هذا الحق هو شيءٌ صعب إلى حدٍّ ما بنادقهم الرشاشة جاهزة دوماً. إلا أنه شيءٌ أقل صعوبة مما يحسبون؛ الأمر يعتمد على الظروف، على النقاط التي تم اختيارها. عليكِ أن تكوني ثاقبة الفكر فيما يتعلّق بذلك، إنهم مُحقون فيما يتصل بذلك. إنها ليست مصادفة أنّ نسمي تلك الرحلات «رحلات الثعلب». إنما باستطاعتكِ أن تذهبي مباشرة وتُبليغهم أنّ فتياننا، الفدائيين، يقومون بهذه الرحلات يوميًّا. وليس على الدوام كي يهاجموا العدو. نحن عوّدناهم على اجتياز الخطوط كي يعرفوا بلادهم، ويتعلّموا التحرّك هناك جيئةً وذهاباً بارتياح. في كثير من الأحيان نمضي إلى حدٍّ، لأني فعلتُ ذلك، (شريط غزة) و(صحراء سيناء). وحتى نحمل معنا الأسلحة. مقاتلو غزة لا يتلقُّون أسلحتهم عن طريق البحر، إنهم يتلقُّونها منّا، من هنا.

أ. ف.: أبو عمار، إلى متى سيستمر هـذا كلّه؟ إلى متى ستظلّون قادرين على المقاومة؟

ي. ع.: نحن حتى لا ننهمك في إحصاءات كهذه. نحن فقط في بداية هذه الحرب. نحن الآن فقط نبدأ في تحضير أنفسنا لحرب طويلة الأمد. يقيناً الحرب مقدّر لها أن تكون مطوّلة على مدى أجيال. ونحن لسنا الجيل الأول الذي يقاتل. العالم لا يعرف أو ينسى أنه في عشرينيات القرن العشرين آباؤنا قاتلوا أصلاً الغازي الصهيوني. كانوا ضعفاء في ذلك الحين، لأنهم كانوا على مدى زمن طويل وحدهم ضد الخصوم الذين كانوا أقوياء وكانوا مدعومين من الإنكليز، من الأمريكيين، من إمبرياليِّي الأرض. لكننا أقوياء منذ كانون الثاني/ يناير 1965، أي، منذ ولادة (الفتح)، كنا خصماً خطيراً للغاية بالنسبة لإسرائيل. الفدائيون يكتسبون الخبرة، إنهم يُضاعفون هجماتهم ويحسنون تكتيكات حرب العصابات العائدة لهم؛ أعدادهم تتحسن بمعدل هائل. تسألين إلى متى نكون قادرين على المقاومة هذا هو السؤال الخاطئ. يتعين عليكِ أن تسألي إلى متى يكون الإسرائيليون قادرين على المقاومة. لأننا لن نتوقف إلى أن نرجع إلى وطننا الأم وندمِّر إسرائيل. إن وحدة العالم العربي ستجعل هذا الأمر ممكناً.

أ. ف.: أبو عمار، إنك دوماً تستشهد بوحدة العالم العربي. إلَّا أنكَ تعرف حق المعرفة أنه ليس كافة الدول العربية مستعدّة للذهاب إلى الحرب من أجل فلسطين وأنّه، فيما يخص تلك الدول

المنخرطة أصلاً في الحرب، من الممكن أن يكون هنالك اتفاق سلمي، وحتى مُتوقَّع. حتى عبد الناصر قال هذا. إذا ما حدث اتفاق كهذا، كما تتوقَّع روسيا أيضاً، ماذا ستفعلون؟

ي.ع.: نحن لا نتوقَّعه. أبداً! سوف نواصل شن الحرب على إسرائيل بأنفسنا إلى أن نستعيد فلسطين. إنّ نهاية إسرائيل هي هدف نضالنا، وهو هدف لا يسمح بالتسوية ولا بالتوسُّط. إن قضايا هذا النضال، سواء شاء أصدقاؤنا ذلك أم لا، ستبقى دوماً ثابتة وفقاً للمبادئ التي عددناها في العام 1965 مع خلق منظمة (الفتح). أولاً: العنف الثوري هو النظام الوحيد لتحرير أرض آبائنا؛ ثانياً: إن هدف هذا العنف هو تصفية الصهيونية بكلّ أشكالها السياسية، الاقتصادية والعسكرية، وإقصاؤها خارج فلسطين إلى الأبد؛ ثالثاً: عملنا الثوري ينبغي أن يكون مستقلّاً عن أيّ سيطرة بواسطة حزب أو دولة، رابعاً: هذا العمل سيكون طويل الأمد. نحن نعرف نيات بعض القادة والزعماء العرب: أن يُحَلَّ الصراع باتفاق سلمي. ولمّا يحصل هذا، سوف نعارضه.

أ. ف.: الاستنتاج: إنكم لا تُريدون مطلقاً السلام الذي يتمناه الجميع.

ي.ع.: لا! نحن لا نريد السلام. نحن نريد الحرب، النصر. السلام بالنسبة لنا يعني تدمير إسرائيل ولا شيء سواه. إنّ ما تسمينه «سلاماً»، هو سلام لإسرائيل والامبرياليين. بالنسبة لنا هو ظُلم وعار. سوف نقاتل حتى النصر. سنقاتل على مدى عقود من

الزمن إن دعت الضرورة، على مدى أجيال.

أ. ف.: لنكن عمليين، أبو عمار. تقريباً جميع قواعد الفدائيين في الأردن، القواعد الأخرى في لبنان. لبنان لديه رغبة ضئيلة في شن الحرب، والأردن ترغب كثيراً في الخروج منها. دعنا نفترض أنّ هذين البلدين، قد قررا الموافقة على عقد اتفاق سلمي، قررا منع هجماتكم على إسرائيل. بمعنى آخر، يمنعون الفدائيين من أن يكونوا فدائيين. وقد حدث هذا أصلاً وسوف يحدث من جديد. في مواجهة هذا، ماذا ستفعلون؟ هل تعلنون الحرب أيضاً على الأردن ولبنان؟

ي.ع.: نحن لا نقاتل على أساس الـ «إذا». من حق كلّ دولة عربية أن تقرر ما تشاء، بما فيها الاتفاق السلمي مع إسرائيل؛ ومن حقنا أن نعود إلى وطنا من دون تنازل مُهين. من بين الدول العربية بعضها تصطف معنا من دون شروط. بعضها الآخر لا. غير أنّ خطر البقاء وحدنا في مقاتلة إسرائيل هو خطرٌ كنا تنبّأنا به. يكفي أن نفكر في الإهانات التي رُشقوها منذ البداية؛ عوملنا معاملة سيئة جداً بحيث أننا الآن لا نُبالي البتة بأيّ معاملة سيئة. إن تكويننا بالذات، أعني، هو أعجوبة. الشمعة التي أُنيرت في العالم 1965 اشتعلت في أكثر الظلمات حلكة. لكننا الآن شموع كثيرة، ونحن نُنير الأمة العربية بأسرها. وما وراء الأمة العربية.

أ. ف.: هذا جواب شاعري للغاية ودبلوماسي للغاية، إلا أنه ليس جواب السؤال الذي طرحتُه عليك، أبو عمار. سألتك إذا كان

الأردنيون لا يريدونكم فعلاً بعد الآن، هل ستعلنون الحرب على الأردن؟

ي.ع.: أنا عسكري وقائد عسكري. بقدر المستطاع يتعين عليّ أن أحفظ أسراري. لستُ الشخص الذي يكشف معاركنا المستقبلية لكِ. لو أنني فعلت، سوف تحاكمني منظمة (الفتح) عسكريًّا. إذاً استقي استنتاجاتك مما قلتُه لك آنفاً. قلتُ لكِ إننا سنواصل مسيرتنا من أجل تحرير فلسطين حتى النهاية، سواء شاءت البلدان التي نجد أنفسنا فيها أو لا. حتى الآن نحن في فلسطين.

أ. ف.: نحن في الأردن، أبو عمار. وأنا أسألك: ماذا تعني فلسطين؟ حتى الهوية القومية لفلسطين ضاعت مع الزمن، وحدودها الجغرافية ضاعت هي الأخرى. كان الأتراك هنا[1]، قبل (الانتداب البريطاني) وإسرائيل. ما هي إذاً الحدود الجغرافية لفلسطين؟

ي.ع.: نحن لا نعرض للمناقشة مسألة الحدود. نحن لا نتكلّم عن الحدود في دستورنا لأن الذين وضعوا الحدود هم المستعمرون (الغربيون) الذين اجتاحونا بعد الأتراك. من وجهة نظر عربية، لا يتكلّم المرء عن الحدود؛ فلسطين نقطة صغيرة في المحيط العربي الواسع. وأمتنا هي الأمة العربية، إنها أمةٌ تمتد من (المحيط

(1) كان الأتراك هنا: الكاتبة أوريانا فالاتشي تقصد: كان العثمانيون هنا – م.

الأطلسي) إلى (البحر الأحمر) ووراءه. ماذا نُريد، منذ (النكبة)[1] التي انفجرت في العام 1948، هو أن نحرر أرضنا ونعيد بناء دولة فلسطين الديمقراطية.

أ. ف.: لكنكَ حين تتكلّم عن دولة، عليكَ أن تقول أيضاً ضمن أيّ حدود جغرافية تتكوّن هذه الدولة أو سوف تتكوّن! أبو عمار، أنا أسألك مجدداً: ما هي الحدود الجغرافية لفلسطين؟

ي. ع.: كإيضاح، ربما نقرر أنّ حدود فلسطين هي تلك الحدود التي أُنشئت في زمن (الانتداب البريطاني). إذا ما أخذنا الاتفاق البريطاني الفرنسي لعام 1918، فلسطين تعني الأرض الممتدة من (الناقورة) شمالاً إلى (العقبة) جنوباً، ومن ساحل (البحر المتوسط) الذي يضم (شريط غزة) إلى (نهر الأردن) و(صحراء النقب).

أ. ف.: فهمت. غير أنّ هذا يضم أيضاً قطعة جيدة من الأرض هي

(1) النكبة Catastrophe: وهو الاسم الذي يطلقه الفلسطينيون على تهجيرهم وهدم معظم معالم مجتمعهم السياسية والاقتصادية والحضارية العام 1948. وهي السنة التي طُرِد فيها الشعب الفلسطيني من بيته وأرضه وخسر وطنه لصالح إقامة الدولة اليهودية إسرائيل. وتشمل أحداث النكبة، احتلال معظم أراضي فلسطين من قبل الحركة الصهيونية، وطرد ما يربو على 750 ألف فلسطينيّ وتحويلهم إلى لاجئين، كما تشمل الأحداث عشرات المجازر والفظائع وأعمال النهب ضد الفلسطينيين، وهدم أكثر من 500 قرية وتدمير المدن الفلسطينية الرئيسة وتحويلها إلى مدن يهودية. وطرد معظم القبائل البدوية التي كانت تعيش في) النقب (ومحاولة تدمير الهوية الفلسطينية ومحو الأسماء الجغرافية العربية وتبديلها بأسماء عبرية وتدمير طبيعة البلاد العربية الأصلية من خلال محاولة خلق مشهد طبيعي أوروبي – م.

اليوم جزء من الأردن، أعنـي كلّ المنطقة الواقعة غرب الأردن. الأردن من هذا الجانب.

ي.ع.: نعـم. لكننـي أكرر أنّ الحدود لا أهميةَ لهـا. الوحدة العربية هي المهمة، هذا هو كلّ شيء.

أ. ف.: للحـدود أهميـة إذا كانـت تلامـس أو تتداخـل مـع: أرض بلدٍ موجود أصلاً، من مثل الأردن.

ي.ع.: ما تسميِّنه (الأردن من هذا الجانب) هو فلسطين.

أ. ف.: أبـو عمار، كيـف يُمكن التحدّث عن وحـدة عربية إذا من الآن فصاعـداً تلحقُ مشكلاتٌ كهذه ببلـدان عربية معينة؟ ليس هذا فحسب، لكن حتى أنتم الفلسطينيون لستم في اتفاق. كما يوجد انقسام كبير بينكم أنتم في (الفتح) والحركات الأخرى. في سبيل المثال، مع (الجبهة الشعبية).

ي.ع.: لكلّ ثورة مشكلاتها الخاصة. في (الثورة الجزائرية) توجد أيضاً أكثـر مـن حركة واحـدة، وكلّ الثـورات التي أعرفهـا، حتى في أوروبا إبَّان المقاومة ضد النازية. في ڤيتنام نفسها توجد حركات عـدّة، الـڤيتكونـغ هـم ببسـاطة الأغلبيـة السـاحقة مثلنـا نحن أعضـاء (الفتـح). إلا إننا في (الفتح) نضـم سبعا وتسـعين بالمائة مـن المقاتلين وهـم الذين يقومـون بالنضـال في داخل الأراضي المحتلة. إنها ليست مصادفة أنّ موشي دايان[1]، لمّا قرر تدمير قرية

(1) مـوشي دايـان Moshe Dayan (1915 – 1981): عسـكري وسيـاسي إسرائيـلي.

(الهول) وألغم 218 منزلاً كإجراء تأديبي، قال، «علينا أن نوضح مَن هو الذي يسيطر على هذه القرية، نحن أم (الفتح)». ذكر منظمة (الفتح) ولم يذكر (الجبهة الشعبية). (الجبهة الشعبية)... في شباط/ فبراير 1969 (الجبهة الشعبية) انشطرت إلى خمسة أجزاء، وأربعة منها انضمت أصلاً إلى (الفتح). وبناءً على ذلك، نحن نتوحَّد ببطء. وإذا لم يكن جورج حبش، قائد (الجبهة الشعبية) ليس معنا اليوم، سيكون معنا في القريب العاجل. لقد طلبنا منه سابقاً أن ينضمَّ إلينا؛ لا يوجد اختلاف جوهري في الأهداف بيننا وبين (الجبهة الشعبية).

أ. ف.: (الجبهة الشعبية) شيوعية. إنكَ تقول إنها لم تنشأ بتلك الطريقة.

ي.ع.: يوجد مقاتلون بيننا يمثلون الأفكار كلّها؛ يتعين عليكِ أن تلتقي بهم. وهكذا يوجد بيننا أيضاً حيزٌ لـ (الجبهة الشعبية). فقط طرائق معينة من الكفاح تميّزنا عن (الجبهة الشعبية). في حقيقة الأمر نحن أعضاء (الفتح) لم نختطف أيّ طائرة، ولم نزرع قنابل أو نتسبب بإطلاق نار في بلدان أخرى. نحن نفضّل

يُعَدُّ من أكثر الشخصيات الإسرائيلية تأثيرًا على إسرائيل في الثلاثين سنة الأولى من وجودها، مثّل بشخصيته الإسرائيلي الجديد (التسابار - الذي ولد في إسرائيل)، وهو الذي يحمل السلاح بيد والمعول بيد أخرى، رؤيته العسكرية ساهمت في بلورة منهجية قوة الردع للجيش الإسرائيلي كجيش هجومي ومبادر. تولّى مناصب رئاسة أركان الجيش الإسرائيلي ووزارة الزراعة والدفاع والخارجية. لعب أدواراً أساسية في حروب إسرائيل الأولى، عدَّ بطل النصر في إسرائيل في حرب 1967، وتم تحميله مسؤولية الفشل في حرب أكتوبر 1973، ضمن منصبه كوزير للخارجية ساهم في بلورة اتفاقية السلام بين إسرائيل ومصر – م.

أن نقـوم بكفاح عسـكري خالص. هذا لا يعنـي، على أية حال، أننا لا نملك ملاذاً كي نقوم بعمل تخريبي في داخل فلسطين التي تسـمينها إسرائيـل. على سبيـل المثال، نحن نُفجـر القنابل في تل أبيب، في القدس/ أورشليم، في إيلات.

أ. ف.: هـذا يتضمـن المدنيين، على كلّ حال. إنه ليس كفاحاً عسـكريًّا تماماً.

ي. ع.: إنه كفاح عسكري تماماً! لأنهم، مدنيون أو عسكريون، مذنبون عـلى السـواء في كونهـم يُريـدون تدمير شـعبنا. سـتـة عشر ألف فلسـطينيّ تـم اعتقالهم لأنهم يسـاعدون مغاويرنـا، ثمانية آلاف منـزل عائد للفلسـطينيين تم تدميرهـا، باستثنـاء العذابات التي يتعرّض لها أشـقاؤنا في معتقلاتهم، وقذائف النابالم على السكان العُزّل. لقد نفَّذْنا بعض العمليات، المسـماة «أعمالاً تخريبية»، كي نُريهم أننا قادرون على أن نُضايقهم بالأساليب ذاتها. هذا العمل يُصيـب المدنيـين بنحو لا مفـرّ منه، غير أنّ المدنيـين هم الشركاء الأوائـل للعصابة الإجراميـة التي تحكم إسرائيـل. لأنه إذا كان المدنيون لا يؤيدون أساليب العصابة التي تتبوأ السـلطة، عليهم أن يُظهِـروا ذلـك ليس إلَّا. نحن نعرف تمام المعرفة أنّ كثيرين لا يؤيدون هـذه الأساليب. أولئك، على سبيل المثال، الذين أقاموا في فلسـطين قبل الهجـرة اليهوديـة، حتى بعض الذيـن هاجروا بالنيـة الدقيقـة في أن يسـلبونا أرضنـا. لأنهـم أتـوا إلى هنا بنحو بـريء، على أمل أن ينسـوا معاناتهم الموغِلة في القِـدم. وُعِدوا بـ

(الجنة)، هنا على الأرض، وقد جاءوا كي يستولوا على (الجنة). إلا أنهم بعد فوات الأوان اكتشفوا أنها بدلاً من ذلك كانت (الجحيم) بعينه. هل تعرفين كم منهم الآن يرغبون بالهرب من إسرائيل؟ يتعين عليكِ أن تري استمارات الهجرة التي تتكدّس في السفارة الكندية في تل أبيب، أو سفارة (الولايات المتحدة). آلاف الاستمارات.

أ. ف.: أبو عمار، إنك لم تُجبني بشكل مباشر. لكنك هذه المرة يجب أن تفعل هذا. ما هو رأيكَ في موشي دايان؟

ي.ع.: هذا سؤال مُحرِج للغاية. كيف يُمكنني الإجابة؟ دعينا نقُل هذا: أتمنى أن تتم محاكمته في يوم ما باعتباره (مُجرم حرب)، سواء أكان قائداً بارعاً فعلاً أو أن تسميةَ (القائد البارع) شيءٌ أغدقه على نفسه.

أ. ف.: أبو عمار، يبدو أنني قرأتُ في مكانٍ ما أن الإسرائيليين يحترمونك أكثر مما تحترمهم. سؤال: هل أنت مستعد لأن تحترم أعداءك؟

ي.ع.: كمقاتلين، وحتى كاستراتيجيين... غالباً نعم. يتعين على المرء أن يقر أنّ بعض تكتيكاتهم الحربية بارعة ويُمكن احترامها. إنما كأشخاص، لا، لأنهم يتصرفون دوماً كبرابرة؛ لا توجد فيهم قطرة من الإنسانية. يتحدّث الناس في كثير من الأحيان عن انتصارهم؛ لديّ آرائي الخاصة فيما يتعلّق بنصرهم في العام 1967 ونصرهم في العام 1956. النصر في 1956 ينبغي ألا يُسمى نصراً؛

في ذلـك العام اصطفـوا وراء المُعتدين البريطانيين والفرنسـيين. وكسـبوا الحرب بمسـاعدة الأمريكيين. فيما يتصـل بنصرهم في 1967، إنهم مدينون به إلى مسـاعدة الأمريكيين. الأموال تدخل بتبرعات وفيرة وغير مُسيطر عليها من الأمريكيين إلى إسرائيل. وفضـلاً عـن الأمـوال، حصلـوا أيضاً عـلى شُـحنات وفيرة من الأسلحـة الفعالة للغاية، من التكنولوجيـا الأكثر تقدّماً. أفضل الأشـياء التي يمتلكها الإسرائيليون تأتي من الخارج هذه القصة المتصلة بالمعجزات التي حققوها في بلادنا، يجب إعادة تمحيصها بإحسـاس أكـبر بالواقـع. نحن نعـرف حق المعرفة مـا هي ثروة فلسـطين وما هي ليسـت ثروتها؛ إنك لا تصنعين شـيئاً أكثر مما تسـتطيعين مـن أرضنا؛ إنـكِ لا تخلقين الحدائق مـن الصحراء. ولهـذا فـإنّ الجـزء الأكـبر ممـا يملكونـه يأتي مـن الخـارج. ومن التكنولوجيا التي يجهزهم بها الامبرياليون.

أ. ف.: لنكـن صادقين، أبو عـمار. لقد وظفوا ويوظفـون التكنولوجيا للاستعمال النافع. وباعتبارهم عسكريين، نجحوا نجاحاً جيداً.

ي.ع.: لم يفوزوا بفعل جوانبهم الإيجابية؛ لقد فازوا دوماً عبر الجوانب السلبية للعرب.

أ. ف.: هـذا أيضـاً جزء من لعبة الحرب، أبو عمار. زيادة على ذلك، لقد فازوا كذلك لأنهم عسكريون شجعان.

ي.ع.: لا، لا، لا! إنهم ليسـوا شـجعاناً. في القتـال بالأيدي، في القتال

وجهاً لوجه، هم حتى ليسوا عسكريين. إنهم يخافون خوفاً شديداً من الموت، إنهم لا يُظهِرون بسالة. هذا ما جرى في معركة (الكرامة) وهذا ما جرى في ذلك اليوم في معركة (السفير). وهم يعبرون الخطوط، نزلوا إلى (وادا فيفا) بأربعين دبابة، ونزلوا إلى (وادا أباتي) بعشر دبابات، وإلى (خربت الديسة) بعشر دبابات وعشرين سيارة (جيب) ببنادق رشاشة عيار 106 ملم. سبقوا التقدّم بقصف مدفعي كثيف وبعد عشر ساعات أرسلوا طائراتهم، التي قصفت المنطقة بأسرها عشوائيًّا، وبعدها الطائرات المروحية كي ترمي القذائف على مواقعنا. كان هدفهم هو الوصول إلى (وادي النميري). لم يصلوا إليه؛ بعد معركة استمرت خمساً وعشرين ساعة، دفعناهم للخلف عبر الخطوط. أتعرفين السبب؟ لأننا استعملنا شجاعة أكثر مما فعلوا. طوّقناهم، هجمنا عليهم من الخلف ببنادقنا، بقاذفات الصواريخ المضادة للدبابات (البازوكا) التي بحوزتنا وجهاً لوجه، من دون رهبة من الموت. إنها دوماً القصة ذاتها مع الإسرائيليين. إنهم جيدون في الهجوم بالطائرات، لأنهم يعرفون أننا لا نملك طائرات، وبالدبابات، لأنهم يعرفون أننا لا نملك دبابات، ولكن حين ينخرطون في مقاومة مباشرة، وجهاً لوجه، لا يجازفون أكثر من ذلك. إنهم يلوذون بالفرار. ويا له من بارع الجنديُّ الذي لا يخاطر، الذي يلوذ بالفرار؟

أ. ف.: أبو عمار، ماذا تقول عن العمليات التي ينفذها مغاويرهم؟ على

سبيـل المثـال، حين ذهب مغاويرهم إلى مـصر كي يفككوا محطة رادار ويحملوهـا معهـم؟ إنكم تحتاجـون إلى قليل من الجرأة من أجل شيء من هذا القبيل.

ي.ع.: لا، لا إنـكِ لا تحتاجـين دوماً. لأنهـم يبحثون دوماً عن أهداف ضعيفـة، ضعيفـة جـداً. تلـك هـي تكتيكاتهـم، وهـي، أكـرر، تكتيكات بارعة، إلا أنها غير جريئة في كونها تتألف من استخدام قـوات ضخمة في مشروع متأكدين من نجاحـه مائة بالمائة. إنهم لا يتحرّكـون ما لم يكونوا متيقنين مـن أنّ كلّ شيء سوف يكون عـلى ما يـرام، وإذا ما باغتّهـم، لن يورِّطوا أنفسـهم كليًّا. في كلّ مـرة يهاجمها فيهـا الفدائيون بقـوة، كان الإسرائيليـون يُهزمون. مغاويرهم لا يستطيعون أن يتدبروا أمرهم معنا.

أ. ف.: ربـما لـن يتدبَّـروا أمرهـم معكـم، إلا أنهم يتدبَّـرون أمرهم مع المصريين.

ي.ع.: ما يفعلونه في مصر ليس عملاً عسـكريًّا، إنها حربٌ نفسـية. لا تـزال مصر هي عدوهم الأقوى، ولهذا هم يسـعون إلى إضعاف معنوياتهـا عبر حرب نفسـية تُحرّض عليهـا الصحافة الصهيونية بمساعدة الصحافة العالمية. يتألف هدفهم من ترويج فعل ما من خـلال تضخيمـه. الجميع انطلت عليهم الحيلـة لأنهم يمتلكون وكالـة صحافـة قويـة. نحـن لا نملك وكالـة صحافـة، لا أحدَ يعـرف ماذا يفعل المغاوير، انتصاراتنا تمـرّ من دون أن ينتبه إليها أحـد، لأننا لا نملك خدمـة سلكية كي ننقل الأخبار إلى الجرائد

التـي لن تنشرها بأية حال. إذاً لا أحـدَ يعرف، على سبيل المثال، إنه في اليوم نفسـه الذي سرق فيه الإسرائيليون محطة الرادار من المصريين، دخلنا قاعدة إسرائيلية ونقلنا خمسة صواريخ كبيرة.

أ. ف.: لم أكن أتحدّث عنكم، كنتُ أتحدّث عن المصريين.

ي.ع.: لا فـارق بـين الفلسـطينيين والمصريين. كلاهما جـزءٌ من الأمة العربية.

أ. ف.: هذه إشـارة شـهمة للغاية من جانبك، أبو عـمار. بخاصة إذا ما أخذنا بالحسبان أنّ أسرتكَ صادرها المصريون.

ي.ع.: أسرتي صادرهـا الملـك فاروق، وليس عبد النـاصر. أنا أعرف المصريين حـق المعرفة لأني التحقت بالجامعـة في مصر، وقاتلتُ مـع الجيـش المـصري في الأعـوام 1951، 1952، و1956. إنهـم عسكريون شجعان وهم أخوتي.

أ. ف.: دعنـا نَعُـد إلى الإسرائيلـين، أبو عـمار. إنكَ تقـول إنهم معكم تكبّدوا دوماً خسـائر فادحة. كم تعتقد عدد الإسرائيليين الذين قتلتموهم حتى هذا التاريخ؟

ي.ع.: لا يُمكننـي أن أُعطيكِ رقماً دقيقـاً، إلا أنّ الإسرائيليين اعترفوا بأنهم خسروا، في الحرب مع الفدائيين، نسـبة مائوية من الرجال أعلى من نسـبة الأمريكيين في ڤيتنام بالنسـبة إلى، بالطبع، سكان كـلا البلدين. وهـو شيءٌ ذو دلالة أنه، بعد حـرب العام 1967، ازدادت نسبة موتاهم بالحوادث المرورية عشر مرات. الخلاصة،

بعد كلّ معركة أو اشتباك معنا، يتضح أنّ كثيراً من الإسرائيليين قـد ماتوا في حوادث اصطدام سيارات. هذه الملحوظة كانت قد ذكرتها الصحف الإسرائيلية نفسـها، لأننـا نعرف أنّ الجنرالات الإسرائيليـين لا يعترفـون بإلحاق الخسـارة بي في الجبهة. غير أنه باستطاعتـي أن أخـبرك أنه، وفقـاً للإحصائيـات الأمريكية، في معركة (الكرامة) خسروا ألفاً و247 إنساناً، بين قتيل وجريح.

أ. ف.: وهل دفعتم ثمناً باهظاً بالقدر نفسه؟

ي.ع.: الخسـائر بالنسبة لنا غير مُعوّل عليها، نحن لا نُبالي إذا ما مُتنا. على كلّ حال، بدءاً من العام 1965 حتى يومنا هذا، لدينا أموات يزيد عددهم قليلاً عن تسـعمائة. إلا أنه يتعين عليكِ أن تأخذي بالحسبان السـتة آلاف مدنيٍّ ممَن فارقوا الحياة في الغارات الجوية وأخوتنا الذين ماتوا تحت التعذيب في السجون والمعتقلات.

أ. ف.: تسـعمائة قتيـل يُمكن أن يكون عدداً كبـيراً أو قليلاً، استناداً إلى عدد المقاتلين. كم يبلغ عدد الفدائيين كلّهم؟

ي.ع.: كـي أخبرك بالعـدد، يلزمني أن أطلـب الرخصة من (المجلس العسـكري)، ولا أظنهم سوف يعطونني إيـاه. إلا أنني أستطيع أن أخـبركِ أنـه في (الكرامـة) لم نكن سـوى 392 مقابل 15 ألف إسرائيلي.

أ. ف.: خمسة عشر ألفاً؟ أبو عمار، ربما تعني ألفاً وخمسمائة؟

ي.ع.: لا! لا! لا! قلت 15 ألفاً، 15 ألفاً! بمَن فيهم، بالطبع، العسكريون

الذين عملوا مع المدفعية الثقيلة، الدبابات، الطائرات، المروحيات، والمظليون. كقوات وحدها، كانت لديهم أربع فرق عسكرية ولواءان. ما نقوله لن تصدّقونه أنتم (الغربيين)، إنكم تستمعون إليهم وهذا هو كلّ شيء، تصدّقونهم وهذا هو كلّ شيء، إنكَ تذكرون كلّ ما يقولونه وهذا هو كلّ شيء.

أ. ف.: أبو عمار، إنك رجل غير عادل. أنا هنا وأنا أستمع إليك. وبعد هذا الحوار سوف أذكر كلمة بكلمة ما قلتَه لي.

ي.ع.: أنتم الأوربيون معهم دوماً. ربما بعضكم بدؤوا يفهموننا إنه في الجو، بمستطاع المرء أن يحس به. لكن جوهرياً إنكم لا تزالون معهم.

أ. ف.: هذه هي حربكم، أبو عمار، لا حربنا. وفي حربكم هذه نحن مجرّد مشاهدين. لكن مع كوننا مشاهدين لا يُمكنكَ أن تطلب منا أن نكون ضد اليهود ويتعين عليك ألا تندهش إذا ما عرفتَ أنه في أوروبا اليهود محبوبون في كثير من الأحيان. رأيناهم وقد تعرّضوا للظلم، لقد ظلمناهم. لا نريد أن يحصل هذا مجدداً.

ي.ع.: هذا مؤكد، عليكم أن تدفعوا الديون لهم. وإنكم تُريدون أن تدفعوا تلك الديون بدمنا، بأرضنا، بدلاً من أن تدفعوها بدمائكم، بأرضكم. إنكم تستمرون في تجاهل الحقيقة القائلة إننا لا نملك شيئاً ضد اليهود، نحن نملك شيئاً ضد الإسرائيليين.

اليهـود مُرحَّـب بهـم في دولـة فلسـطين الديمقراطيـة. سـوف نمنحهم خيار البقاء في فلسطين لمّا تحين اللحظة.

أ. ف.: لكن، أبو عمار، الإسرائيليون يهود. ليس كلّ اليهود يستطيعون أن يدمجوا أنفسـهم مـع إسرائيل، إلا أنّ إسرائيل لا تسـتطيع أن تتمالك نفسها عن دمج نفسها مع اليهود. ولا يُمكنكَ أن تطلب مـن يهـود إسرائيـل أن يذهبـوا ليتيهوا حـول العالم مـرة أخرى وهكـذا ينتهـي بهم الحال في معسـكرات الإبـادة. هذا شيء غير معقول.

ي.ع.: أنتِ إذاً تريدين أن ترسلينا نتيه حول العالم.

أ. ف.: لا. نحـن لا نريـد أن نرسـل أحـداً. أنتـم في الأقـل، لا نريد أن نرسلكم.

ي.ع.: لكـن التشرّد هنا وهناك هـو ما نفعله الآن. وإذا ما كنتِ مهتمة جـداً بأن تعطي بلداً لليهود، أَعطِيهم بلدكِ لديكم أرضٌ واسعة في أوروبـا، في أمريكـا. لا تفترضوا بأن تعطوهـم أرضنا. عشنا عـلى هـذه الأرض طوال قـرون وقـرون؛ لن نُعطيها كي نسـدد ديونكم. لقد اقترفتم خطأً حتى من وجهة النظر الإنسانية. كيف يُمكـن أنّ الأوروبيين لا يميزون هذا، بينما هم شـعب متحضر، متحـضر جداً، وربـما متحضر أكثر مـن أيّ قـارة أخرى؟ وعلى الرغم من ذلك، أنتم أيضاً خضتم حروب التحرير، فكري فقط

في «النهضة»[1] خاصتكم. ولهذا فإن غلطتكم هي بغرض ما. لا يمكنكم أن تزعموا الجهل بشأن فلسطين، لأنكم تعرفون فلسطين حق المعرفة. لقد أرسلتم حملاتكم الصليبية، وهي بلدٌ أمامكم تماماً. إنها ليست (غابات الأمزون). أعتقد أنه في يوم من الأيام سوف يستيقظ ضميركم. لكن حتى حلول ذلك اليوم من الأفضل ألا يرى أحدنا الآخر.

أ. ف.: ألهذا السبب، أبو عمار، أنك تلبس دوماً نظارات سود؟

ي.ع.: لا. ألبسها كي لا أدع الناس يعرفون ما إذا أنا نائم أو مُستيقظ. لكن، بيننا نحن الاثنين، أنا مُستيقظ دوماً خلف نظارتي. أنام فقط لمّا أخلعهما، وأنا أنام سويعات قلائل. قلتُ، لا أسئلة شخصية.

أ. ف.: سؤال واحد فقط، أبو عمار. أنتَ غير متزوّج، ويقولون إنه ما من امرأة في حياتك. هل تُريد أن تكون على غرار هو شي منه، أو أنّ فكرة العيش وبجوارك امرأة هي فكرة كريهة بالنسبة لك؟

ي.ع.: هو شي منه... لا، دعيني أقُل إني لم أجد المرأة المناسبة. والآن لا يوجد متسع من الوقت. أنا متزوّج من امرأة اسمها «فلسطين».

(1) النهضة أو الصحوة: وردت بالإيطالية في النص الإنكليزي Risorgimento: وهي حركة سياسية واجتماعية في القرن التاسع عشر أسفرت عن دمج الولايات المختلفة لشبه جزيرة إيطاليا في دولة واحدة، «مملكة إيطاليا» – م.

مُعمّر القذافي

التاريخ يُضاف لاحقاً[1]

إن لم تكن اللا عقلانية والعنف والخداع ليست هي المقوّمات الأولية لتلك الفوضى الكثيفة التي نسميها «التاريخ»، وإذا لم نكن نعرف أنّ المجانين والبهائم والأوغاد هم في الأعم الأغلب صنّاع مصيرنا، عندئذ ربما نُصاب بالصدمة إذا ما عرفنا أنّ هنالك كذبةً أخرى تختبئ في كلمة «ثورة»: الغالبية العظمى مما تُسمى «ثورات» هي في الحقيقة لا شيءَ أكثر من انقلابات شديدة الغباء. لا شيءَ أكثر من عملية إمساك بالسلطة تقوم بها زمرة صغيرة من اللصوص ذوي البذلات النظامية يتحرّكون خلسة في الظلام مثل لصوص يسطون ليلاً. أو، الأسوأ: إذا كان الذكاء والثقافة والموهبة لم تكن على الدوام تقريباً أشياء غريبة على أولئك الذين ينتزعون أو يسرقون السلطة، إن لم نكن نعرف أنّ أولئك الذين يحكمون ويقررون هم في الأعم الأغلب المتبلِّدون، الجهلاء، والسفهاء، فربما نغضب إذا ما لاحظنا أنّ أولئك اللصوص ذوي البذلات النظامية هم مغامرون جهلاء بنحو متوقَّع، مجرّدون من ذرة ذكاء أو فضيلة. إنّ سرقة بنك تُظهِر مشكلات ومصاعب غير متوقَّعة

(1) التاريخ يُضاف لاحقاً: ورد في الكتاب Date TK. المختصران TK، يُستعملان في الصحافة للدلالة على: to come، أي بمعنى أنّ ثمة مادة إضافية سوف تُضاف في وقت لاحق – م.

أكثر مما تُظهِره سرقة السلطة في انقلاب. هذا الأمر يفسر مسألة لماذا سرقات البنوك هي نسبيًّا نادرة، في حين أنّ الانقلابات شائعة نسبيًّا: ثلاثة أرباع الأنظمة الموجودة حالياً على سطح الكوكب هي نتيجة انقلاب عسكري.

هذا هو أول شيء يلزمني أن أتذكره فيما أنا أقترب من الدجال الوقح الذي كان يتنافس مع خميني في السعي من أجل قيادة حملة جديدة ضد (الغرب). المتآمرون الذي كانوا يتمنون تنفيذ انقلاب يحتاجون إلى قدرات قليلة جداً، وقدرات متواضعة بالإضافة إلى ذلك. إنهم يُريدون أن يكونوا رجالاً عسكريين برتبة أعلى من رتبة رقيب، يُريدون أن يكونوا قادرين على الاستفادة من ضعف وسذاجة الآخرين، كي يخونوا ثقة أو إيمان الآخرين؛ إنهم يريدون أن يكونوا قادرين على قتل خصومهم في أثناء نومهم. البقية سهلة. على سبيل المثال، إنهم لا يحتاجون ذلك السحر الذي يعتمد عليه القادة الثوريون الحقيقيون، لأنهم يعملون من دون دعم الشعب الذي لا يعرف شيئاً ولا يحتاج إلى أن يعرف أيّ شيء. إنهم لا يحتاجون إلى العمل الشاق والجرأة المطلوبيْن للنهب الطبيعي، لأنهم يعتمدون على الماكينة المُشحّمة جيداً، الموجودة سلفاً، والجاهزة كي تدور ما أن ينقروا مفتاح التشغيل: الجيش. هم ليسوا بحاجة إلى المخيلة أو القدرات التنظيمية التي تتطلّبها الجرائم الطبيعية، لأن تقنية الانقلاب لا تتغير. كلُّ ما يحتاجون إليه هو حشد مجموعة من الضباط الطموحين، كي يهيئوا نفسيًّا الرجال الذين يسيطر عليهم أولئك الضباط، كي يحفظوا السر وينفذوا هجوماً مُباغتاً

في منتصف الليل أو مع الضوء الأول من النهار. بقدر تعلّق الأمر بالفعل الحقيقي، الخطة مُملة نوعاً ما، حتى يُمكن أن تكون موجودة في الكرّاسات التي تفصّل كيفية إدراك انقلاب بالنبرة الفاترة ذاتها المستعمَلة في كرّاسات السيارة أو الكومبيوتر. في ساعةٍ مُحدّدة سَلَفاً الجميع يغادرون الثكنات وفي الوقت عينه يهاجمون، ويحتلون الأمكنة الرئيسة للسلطة: المباني الحكومية، مقرّات البوليس، دوائر البريد، الإذاعة، التليفزيون، الصحف. وبعدها، كلّ شخص من الجائز أن يُعارض الانقلاب يتم اعتقاله أو قتله، تُغلَق الحدود ويُفرض حظر التجوال، كي لا يستطيع أحد أن يهرب أو يطلب المساعدة. إن الجُبن الحقيقي للانقلاب، والانقلاب الذي يسمّي نفسه «ثورة»، يكمن هنا. سأوضح: ليست فقط فتن السلطة في الثورات الحقيقية هي التي يُثيرها في الأقل جزءٌ من الشعب، لكن الثورات الحقيقية لديها إحساس سوق موسمي في زمن الحرب يعبث معهم. أنا أقتلك وأنتَ تقتلني. في الانقلاب الذي يسمّي نفسه «ثورة»، شأنه شأن أيّ انقلاب آخر، كلّ حالات القتل هي أحادية الجانب، نفذها اللصوص ذوو البذلات النظامية الذين يتحرّكون في الظلام مثل لصوص يسطون ليلاً.

في الحقيقة، إنه شيء يستحق السؤال لماذا يتدرَّب العسكريون على القتال، وأن يطلقوا النار فقط على أولئك الذين يطلقون النار على المُهاجمين، لا يرفضون أن يمتثلوا لأوامر زمرة صغيرة قررت أن تقوم بالانقلاب. ألا يعرفون أنهم يقتلون أشخاصاً لا حول لهم ولا قوة، نفس رفاقهم المواطنين الذين من المفترض أن يدافعوا عنهم

ضد العدو الخارجي؟ ألا يخجلون من أن يمثلوا دور الجبناء، وفي أن يكسبوا من دون أن يخاطروا بأيّ شيء؟ حتى إذا تصوّرنا أنهم في البداية كانوا غير واعين بما يفعلونه لأنه لم يشرح لهم أحد، أو لأنهم خضعوا لغسيل الدماغ، إنه شيء لا يزال من المُرجَّح أنه، في اللحظة التي ينزلون فيها على الأمكنة الرئيسة للسلطة ويُطلقون النار ويعتقلون رفاقهم المواطنين، وربما حتى أصدقائهم وأقاربهم، إنهم يفهمون أنهم لا يقاتلون مُعتدياً أو غازياً. بالطبع إنهم يفهمون. إلا أنهم لا يبالون. أو، إذا كانوا يُبالون فعلاً، إنهم حتى لا يجرؤون على أن يفكروا بالفشل أو التمرّد. إنهم يتبعون الأوامر، الأوامر الواضحة والبسيطة؛ الطاعة العمياء والمُطلقة هي المفهوم الوحيد الذي يعرفونه. هذه الطاعة زُرعت على مدى شهور، على مدى سنوات، على مدى قرون، إلى أن استولت على كلّ حافز للمبادرة أو للانتقاد أو للهرطقة. سيدي، نعم سيدي. الآن حالاً، سيدي. و، بالطبع، أولئك الذين رفضوا سوف يؤتى بهم أمام فرق الإعدام رمياً بالرصاص، فرق خُلقت أيضاً من جنود مُطيعين، جنود منضبطين للغاية بحيث أنهم يطلقون النار على رفاقهم بدلاً من عدوهم. إنهم يستهدفون بعناية، يحاولون إصابة القلب والرأس، ولمّا يُؤمَرون بإطلاق النار يُطلقون النار. يُصيبونه في القلب والرأس، يقتلونه: رفيقهم. بقدر ما أعرف، لا يوجد هنالك عسكري رفض المشاركة في فرق الإعدام رمياً بالرصاص، رفض رمي أحد رفاقه بالرصاص. الشيء نفسه في أثناء الانقلاب. ولهذا السبب العسكريون

الذيـن ينفـذون الانقلاب هـم لصـوص في خدمة لصـوص، خونة في خدمـة خونة، جبناء في خدمة جبنـاء: الانقلاب هو الشيء الأقل ثورية في العالم.

عـلى الرغـم من ذلـك، لّمـا ينجـح الانقـلاب، أيّ انقـلاب، قادته يقرؤون بياناً لا يفشل في أن يضم كلمة «ثورة». وفيما هم يتبعون الخطة ذاتها حالهم حـال سائر الآخريـن الذين سبقوهم، يتوجَّـه الانقلابيون نحـو الراديو، وباسم (الشعب) أو (بلـد الآباء والأجداد) أو (الله)، أو ربـما الثلاثـة كلّهم، يُبلِّغون الجميع أن النظام السيِّئ قـد أُطيح به، وإن الرجـال الصالحين هـم الآن الذين يتولون السـلطة، وإنّ الثورة سوف تجلب القانـون والنظام، العدالة والحرية، المسـاواة والتقدّم، وكَمًّا كبيراً من الأشـياء المحببة إلى القلب. وحتى لا يهم إذا ما نسـوا أن يقولوا أيّ ثورة هذه التي حصلت توًّا، فهم أنفسهم لا يعرفون معنى هذه الكلمة، هـذه الكلمة لا يستطيع أحـد أن يُعرّفها تعريفاً كاملاً، وهي تُسـتعمل الآن بصـورة إعتباطيـة، عـلى غـرار كلمة «حـب «: أحـب أمي، أحب الآيـس كريـم، أحب السـلام، أحـب هذا المعطـف الثقيـل. في البيان، حـين يقولون «ثـورة»، يقصدون ما يقصده أغلـب الناس حين يقولون «حـب». شيء نبيل ومقـدّس، رمزٌ للخير، ضمانة للسـعادة التي سوف تنقلنا كلّنا من دون استثناء إلى مسـتقبل استثنائي كان قد بدأ أصلاً. ربما يكون هذا هو السـبب نفسـه الذي يجعلهم لا يتحاشون كلمات «الثورة المضـادة» و «الثـوري المضـاد». هـذه هـي المصطلحات التي تُسـتعمَل للإشـارة إلى الضحايـا الذين أُلقـي القبض عليهم وقُتلـوا وفي كثيرٍ من

الأحيـان يُعَذبون قبل أن يتم اعتقالهم وقتلهم الأبطال الذين رفضوا أن يعترفوا بذلك النصر المُختَلَس.

منـذ فجـر التاريخ، لم يسـمع العالَم مغتصبـاً يقول: لا أُبـالي البتة بـ (الشعب) و(بلد الآباء والأجداد) و(الله)، سرقتُ هذا العرش بسـبب مصالحي الخاصة القـذرة وغروري أنا. ومنذ زمن بونابرت، لم يرَ العالَم انقلابيًّا يُظهِر نفسـه بوصفه رجعيًّـا، يتكلّم جهاراً ضد الحقوق المقدّسة للإنسان. هو على الدوام أبٌ شهم، نزيه، ومثالي يعمل من أجل القانون والنظـام، العدالة والحرية، المسـاواة والتقدّم: الثـورة. حتى موسوليني سمّـى (مسـيرته في رومـا): ثورة، في حـين أنها في الحقيقـة لا شيءَ أكثر مـن انقلاب. وحتى پاپادوپولوس[1]، الـذي أطاح بالنظام الديمقراطي في اليونـان، سمّـى جريمته «ثورة». وحتى بينوشـيت، لّمـا أطاح بنظام سلفـادور أليـندي، سمّى تلـك المجزرة «ثـورة». وحتى عيـدي أمين، وبوكاسا، ومجموعة الضباط الاثني عشر الذين استولوا على السلطة في ليبيـا العام 1969 من دون أن يمطُّوا كاحـلاً أو يكسروا ظفراً. انقلابهم اتبـع الخطـة ذاتها التـي أوجزتُها أعلاه، وقـد وُلدت من الجُبـن الكلبي عينه، نقص الخيال نفسـه. لماذا تزعج نفسك بتوعية الشعب، تعليمهم،

(1) جورجيـوس پاپادوپولـوس Georgios Papadopoulos (1919 – 1999) عقيـد يوناني، استولى على الحكم في انقلاب عسـكري في 21 نيسـان/ أبريل 1967، وحارب الشيوعيـة بشراسـة، ثـم انقلب عليه زمـلاؤه العسـكريون، وبعد عـودة الديمقراطية حكـم عليه بالسـجن المؤبد فقضى بقية عمره في السـجن، رافضـاً استرحام الحكومة. عمل خلال السـنوات 1959–1964 في جهـاز المخابرات اليونانية، ورُقي العام 1966 إلى رتبـة عقيـد وعُيّن مديـراً للمكتب الثالث لقيـادة الجيش اليوناني، وتولى مسـؤولية العمليات – م.

تشجيعهم على تنفيذ الثورة مثل يرقة تُصبح فراشة؟ هذه مهمات مُضجرة، بطيئة وخطيرة: أنت لا تخاطر فقط بأن تفقد جلدك عليها، إنها تحتاج إلى كثير من الوقت والعمل الشاق. وفقط استخدام الجيش هو شيءٌ سهلٌ للغاية، بخاصة في ليبيا، بلدٌ خامل لم يسبق له قط أن كان بلداً فعلاً، حيث أبناء الشعب يلفُّون ويدورون وهم يفعلون الأشياء كما يشاءون على مدى قرون، امتداد معزول من الرمل لم تعلنه (الأمم المتحدة) بلداً إلا قبل ثلاثة عشر عاماً مضت. في ذلك الامتداد الشاسع من الرمل، الذي تبلغ سعته سعة أوروبا، لم يكن هنالك ساكنون أكثر من مليونيْ نسمة، مدينة واحدة أو مدينتان، قرى قليلة تتمايل على حافات ما قبل التاريخ، ميناءان، وآبار النفط التي يهتم بها الأجانب. كان يقود هذه كلّها ملكٌ كبير السن لطيف وسلس وشارد الذهن، الملك إدريس الثمانيني الذي كان يكره الحكم ويهدد يوميًّا أن يتنحَّى عن السلطة. وليس من العجب أنّ الجميع كانوا يُريدون أن ينفِّذوا انقلاباً ضده: أقاربه الطامعون، أفراد حاشيته الفاسدون، وضباط الجيش ذوو الرُتب العالية. كانت هنالك وفرة كبيرة من الانقلابات في الآفاق بحيث أنّ أحداً لم يكن يتستَّر عليها: إذا ما مضيتَ كي تشكّل تحالفات من أجل انقلابك سوف تسمع، «لا شكراً، إلا أنني أعمل على تحالفي أنا» رداً على سؤالك. مفتاح النجاح يكمن في أن تبدأ قبل الآخرين بثانية واحدة، وليس ثمة حاجة لأن تسعى من أجل الأصالة.

الضباط الاثنا عشر الذين نجحوا أخيراً استنسخوا انقلاباً كلمة بكلمة: الانقلاب الذي استخدمه الجيش العراقي كي يستولي على

السلطة في العام 1958 [1]. ثلاث كتائب مسلّحة غادرت الثكنات من أجل تدريب ليلي مُفترَض. لم يكن هنالك «سجن الباستيل «كي يقتحموه [2]، ولا «قصر الشتاء «[3]. قلّما كان هنالك سجناء سياسيون، والملك إدريس كان في تركيا، يزور بعض الينابيع الحارة مع زوجته فاطمة، وابنته سالمة، وبطانته. وما أن سمع بالمفاجأة حتى مضى إلى أثينا وأدلى بتصريح، قائلاً بأنه، في المستقبل، سيرغب بشدة بأن يكون قادراً على الرجوع إلى وطنه الأم كسائح، ولا شيءَ باستثناء ذلك. وهكذا، أولئك الضباط الاثنا عشر قرؤوا بيانهم المليء بالكذب من دون أن يضايقهم أحد. «شعب ليبيا، قواتكم المسلّحة ترجمت إرادتكم الحرّة، وقد استجبنا لمناشداتكم المتواصلة، واستمعنا إلى نصائحكم، حققنا أعز آمالكم. قواتكم المسلّحة تعهدت بأن تُطيح بالنظام الرجعي والفاسد الذي خنقتنا رائحته الكريهة، ومنظره زرع الخوف في قلوبنا. من هذه اللحظة فصاعداً، ليبيا جمهورية حرّة وذات سيادة، وهي ذي تنطلق في رحلة الحرية، الوحدة، والعدالة الاجتماعية، تضمن الحق في

---

(1) ذكرت الكاتبة أوريانا فالاتشي سهواً أنه جرى في العام 1956 – م.

(2) حادثة اقتحام سجن الباستيل وقعت في باريس في الرابع عشر من تموز/ يوليو العام 1789. كان السجن والحصن الذي يعود تاريخه إلى العصور الوسطى والمعروف باسم «الباستيل «يمثل رمزاً للسلطة الحاكمة وسط باريس. وعلى الرغم من أنه لم يكن في السجن سوى سبعة أسرى وقت اقتحامه إلا أن سقوطه كان بمنزلة شرارة اندلاع الثورة الفرنسية، وأصبح فيما بعد رمزاً للجمهورية الفرنسية – م.

(3) قصر الشتاء Winter Palace: قصر يقع في سان بطرسبرغ في روسيا، كان المقر الرسمي لإقامة قياصرة روسيا منذ العام 1732حتى سقوط الحكم القيصري العام 1917، حين جرت ثورة أكتوبر الإشتراكية العظمى بقيادة فلاديمير إيليتش لينين – م.

المساواة، إلخ». بالطبع، سمّوا أنفسهم «اللجنة الثورية». بطبيعة الحال، باسم «الثورة»، اعتقلوا وقتلوا وصادروا أموالاً وحجزوا الممتلكات وألغوا الأحزاب السياسية، النقابات والجمعيات الحرة. وفي النهاية، أدانوا حتى موت المُسِنِّ الجبان ضئيل البدن الذي، من منفاه، ظلّ يقول إنه يتمنى فعلاً العودة في زيارة، كسائح.

إنما كيف تمكّن معمر القذافي من اختطاف السيطرة على ما يُسمّى بـ «الثورة»، كيف أصبح نبيها ومسيحها المُنتظر؟ هذا السؤال هو الذي أزعجني فيما أنا أخطط لمقاربتي. إنه السؤال ذاته الذي كان يُعذبني في كلّ مرة أجد فيها نفسي أمام دجال وقح، أبله يرتدي ملابس دكتاتور، نبي، مسيح مُنتظر: كيف بحق السماء تمكن هذا المخبول من القيام بذلك؟ إنه حتى لا يستطيع التحدّث، حتى أنه لا يُثير الرعب. إنه مثل أيِّ رجل مُسِن، ليس لديه قدرات عقلية ولا شخصية ساحرة. والأكثر من ذلك، إنه كوميدي. كيف فعل ذلك، يا إلهي، كيف؟ وعندئذ تذكرتُ ما أخبرني به پيترو نيني في اليوم الذي قصّ عليّ فيه خرافة «ملابس الإمبراطور الجديدة»، وهي قصة طفل ينظر إلى هتلر وموسوليني.

في يوم من الأيام، لمّا كنتُ طفلة صغيرة، شاهدتُ هتلر وموسوليني. كان ذلك في فلورنسا، في الصيف الذي جاء فيه هتلر إلى إيطاليا، وكنتُ قادرة على رؤيتهما بفضل عمتي التي تزوجت من رجل فاشيٍّ. كانت الأسرة كلّها قد وبختها على هذه الخطيئة، وفوق الكلّ أبي، الذي قلّما اعترف بها. كانت أمي هي الشخص الوحيد الذي أظهر نحوها

الحنـان؛ كانت أمي تعتقد أنّ الزواج مـن رجل فاشيٍّ ليس خطيئة بقدر مـا يكون بلية، كالسرطان. هل من الصحيح أن نُسيء معاملة شـخص مصـاب بالسرطان؟ كان تسـاهل أمي يؤدي بها غالبـاً إلى أن تُعيرني إلى عمتـي، كي تلطِّف المعاناة التـي تشعر بها لأنها بلا أطفال. كانت عمتي تـأتي مراراً كي تحملني وتأخـذني إلى أمكنة لا تُطاق مثلما هي أمكنة غير ملائمة للأطفال.

«إلى أين نحن ذاهبتان، عمتي؟»

«للاستماع إلى حفلة لموسيقى الحجرة».

«إلى أين نحن ذاهبتان، عمتي؟»

«كي نجلب زهور الأقحوان لقبر والد زوجي».

لم نذهـب قط لجلـب الآيس كريم أو كي نركـب عـلى دوامة الخيل، ومـا مـن أحـد أوحى لهـا أنني ربـما أستمتـع بتلـك الأنشطة أكثـر. إن الـشيء المهـم هو أنها لم تتكلّـم معي عن هتلـر أو موسوليني. في المنزل، اسـما هذين الطاغيتين لا يُذكـران أبداً إلا جنبـاً إلى جنب مع الإهانات الفظيعـة، الإدانات كانت تجعل جلـدي ينكمش خوفاً. في صيف ذلك العام وُبختُ بقسوة لمّا قلتُ «دوتشي»[1].

«دوتشي مَن؟ دوتشي ماذا؟ مَن علّمكِ هذه الكلمة؟»

«معلمتي».

---

(1) دوتشي Duce: وردت بالإيطالية في النص الإنكليزي، وتعني «القائد» أو «الزعيم»، في إشارة إلى الزعيم الإيطالي الفاشي بينيتو موسوليني (1883 – 1945) – م.

«معلّمتكِ فاشية، وهذه الكلمة كلمةٌ سيئة، هل تفهمين؟ لا تتفوّهي بها ثانية».

في ما بعد ظهر ذلك اليوم، لم تأخذني عمتي إلى حفلة موسيقية أو إلى المقبرة. بدلاً من ذلك، كنا في ساحة مطوّقة بحبل لا نستطيع أن ندخلها إلا بالتذاكر. كنتُ مسحورةً بالأشياء الجديدة. «عمتي، لماذا نحن هنا؟»

«كي نرى شيئاً ما».

«ماذا؟»

«شيئاً ما».

لا أتذكر كثيراً فيما يتصل بالحدث عدا الحرارة الشديدة للشمس، ضجيج الحشد المُستثار، الحمامات التي كانت تخفق بأجنحتها جنباً إلى جنب مع الأَعلام، والعقدة الشريطية السوداء التي سحبتها عمتي من حقيبتها اليدوية وغرزتها بدبوس في شعري.

«لماذا هي سوداء، عمتي؟

«لأنّ زوج عمتك يقول إن اللون الأسود يُظهِر الاحترام للفوهرر والدوتشي!»

أتذكر الخوف الفظيع الذي غمرني لما سمعتُ هذه العبارة، لمّا فهمتُ أنّ «شيئاً ما «كان يعني هتلر وموسوليني. ماذا سيحدث إذا ما اكتشف أبواي أني ارتكبتُ الإثم بأني أتيتُ لرؤيتهما؟ وحتى إذا لم يكتشفا، أيّ

نوع من المرض سوف أُصاب به من رؤيتهما؟ مرض العينين، يقيناً. كان خوفي قد تفاقم حالاً بفعل رغبة جارفة في البكاء بسبب المساوئ التي عانيتُ منها: العقدة الشريطية السوداء، الإثم الذي كنتُ مُرغمة على اقترافه، العمى الذي سوف يشوّهني حالاً. وفيما كنتُ أكافح كي أكبح دموعي قررتُ أنّ السبيل الوحيد لانقاذ نفسي هو أن أغمض عينيّ حين يمرّ الاثنان. هذا الأمر من شأنه أن يمنعني من أن أصبح عمياء، ولا يتعين عليّ أن أكذب إذا ما أُجبرتُ على الشرح قائلةً: «لم أنظر إليهما».

وما حاجتي إلى أن أنظر إليهما، على أية حال؟ كنتُ أعرف وجهيهما. كنتُ دوماً أرى موسوليني في المدرسة، حيث كانت صورته معلقة تحت الصليب، صورته بجانب صورة الملك. كان رجلاً من النوع الضخم ذا وجه غير مُستساغ، فمٌ غاضب وثمة خوذة على رأسه. رأيتُ هتلر في الأفلام السينمائية وفي الصحف. كان من النوع المتعجرف ذا شارب مضحك أشبه بفرشاة الأسنان، وكان لديه نوع من ذيل السحلية من الشعر الزيتي البارز على صدغه الأيسر. كلاهما سبّب لي القلق الشديد، ولّما فكرتُ كم هما مهمان، بدأتُ أشك أنّ أبويَّ كانا على صواب فيما يتعلّق بهما: ظهرا أشبه بشخصين استثنائيين، غير اعتياديين، فريدين من نوعهما. هذه هي الصورة التي أعطتها معلّمتي لهما.

على كلّ حال، حينما انفجر الحشد في صراخ مبتهج وصاحت عمتي، «إنهما آتيان، إنهما آتيان!» كلّ نياتي الطيبة خرجت من النافذة واستسلمتُ للغواية. باتت الرغبة في رؤيتهما عارمة للغاية، لا سبيلَ لمقاومتها على الإطلاق، بحيث أنه بدلاً من أن أغمض عينيّ فتحتهما

على وسعهما. رأيتهما، ولم يُصيبني العمى. إلا أنني لم أرَ ما وصفه والداي دوماً، ولا رأيتُ ما أصرّت عليه معلِّمتي. رأيتُ رجلين حالهما حال الرجال الآخرين، أحدهما بدين والآخر هزيل، وهما لا يشبهان على الإطلاق صورهما الفوتوغرافية. كانت للبدين بسمة لطيفة، وكان يُبقي يديه على وركيه مثل غاسلة ملابس بالأجرة ذات جسم مكتنز؛ وبدلاً من الخوذة كان يعتمر قبعة صغيرة حلوة وفيها زهرة بيضاء. أما الريشة فقد منحتها مظهراً خجولاً، مثل قبعات نساء كثيرات. جَعَلتْه يبدو مُضحكاً للغاية، عديم الضرر إلى حدٍّ كبير، بحيث أنني وددتُ أن أطلب منه أن يأتي ويلعب معي كي أستطيع أن أسأله ما هي فائدة الريشة: هل لبسها كي يتفحص الريح، أم لمطاردة الذباب؟ أما الرجل النحيل فله وجه صغير طويل لا يُوحي بالعاطفة ولا الاحتقار، وشاربه الشبيه بفرشاة الأسنان بدا مثل شريط جروح مُلصَق تحت أنفه كي يُغطي خدشاً ما. لم يُخوّفني كما اعتاد البالغون ذوو الشوارب أن يفعلوا، على غرار بائع الآيس كريم، الذي لديه زوج هائل وحاد من الشوارب بنهايات طويلة بكلّ معنى الكلمة، بحيث كنتُ أرتعد في كثير من الأحيان فيما أنا أحاول أن أختار بين الڤانيلا والشوكولاته، بين الفستق والزابليونية [1]. بائع الآيس كريم يزمجر قائلًا: «هيا، دعينا نسمع، ماذا تُريدين؟ هل تُريدين أن تُبقيني هنا طوال الليل؟» ترتعد كلّ أوصال جسمي واختار نكهة بشكل عشوائي. لم يدفعني شارب

---

(1) الزابليونية zabaglione: حلوى هي مزيج من صفار البيض والسكّر والخمر أو عصير الفاكهة يُخفق بالماء الحار ويُقدّم ساخناً أو بارداً في كأس – م.

هتلـر إلى مثل هذه التخـوم. كان يلوح على وجهه تعبـير وديع، بشريط الجـروح الصغـير ذاك تحت أنفـه. كنتُ أتمنى من أعـماق قلبي أن يكون بائـع الآيس كريـم العائد لي. وما كان ليزمجر، أنـا متيقنة من ذلك. كان سينتظـر بصـبر وأناة فيما أنا أقـرر الاختيار بين الـڤانيلـلا والشكولاته، بـين الفسـتق والزابليونية، حتـى أنه ربما يوافق على مزجهـا كلّها معا في مخـروط واحد: وهي دماثة مـا كان ليقدّمها بائع الآيس كريم العائد لي. في الحقيقـة، لم يكـن باستطاعتـي أن أفهـم لماذا كانت أمـي تُصر على أنه رجـل صالح، على أنه فوضـوي: الفوضويون، قالت، هـم على الدوام رجـال صالحـون وعطوفون. إنـما في المقـام الأول، فيما كنـتُ واقفة في تلك السـاحة وأصيخ السمع للغوغاء المجانين وهم يصيحون «الزعيم الزعيم»، و «الفوهرر الفوهرر»، لم أفهم لماذا كان أبي يملك بغضاً كبيراً تجـاه موسولوليني وهتلر، لماذا يتهمهما بكلّ جريمة أو كارثة تحصل لنا، لماذا كان يسـمِّيهما» وحشين، مجرمين، سفاحين». حتى لم أكن أفهم لماذا كانـت معلمتي مأخوذة بهما إلى حدٍّ كبـير، لماذا وجدتهما استثنائيين، غير أعتياديـين، فريديـن في نوعهـما، مختلفين عنا. هل يوجـد هنالك ضربٌ معـين من سوء الفهم؟ ربما ليسـا هما؟ التفـتُّ إلى عمتي وسألتُها: «هل هُمـا فعـلاً هكـذا، عمتـي؟» أجابـت عمتي «نعـم»، وبعد مضي خمسـة وثلاثين عاماً أخبرت نيني بهذه القصة فيما كنا نتناول طعامنا في الـڤيللا

العائـدة له في (فورميا) [1]. أيدني وقال لي إني عشتُ حكاية أندرسون [2] الخرافية. «ثياب الإمبراطور الجديدة».

«لكننـي لا أستطيـع التوقـف عـن التفكـير فيهـا، نينـي. لأني الآن أتذكرهـا، الآن أصفيّهـا عـبر بـراءة طفلـة، أرى ثانية ما رأيتُـه في ذلك اليوم: غاسلة الملابس بالأجرة ذات الجسـم المكتنز وثمة ريشة في قبعته ورجلاً من نوع بائع الآيس كريم بلصقة جروح تحت أنفه».

«بالطبع»، قال نيني، «بالطبع».

«لا فـارق بينهـما، لا بالطريقة التي ذكرها أبواي، ولا بالطريقة التي ذكرتها معلِّمتي».

«بالطبع»، قال نيني، «بالطبع».

«إنهما رجلان شـأنهما شـأن سائـر الرجال الآخريـن، حتى أنهما غير مؤذيـين. لـولا الريشة البيضـاء ولصقة الجروح ربما كانـا سيختفيان في الحشد من دون أن ينتبه إليهما أحد أو يلتفت كي ينظر إليهما».

«بالطبـع»، قـال نينـي. «بالطبـع». وأضـاف قائـلاً: «في حالة هتلر سأصدّقـك، بـما أنني لم أره عن كثب. وفيما يتصـل بموسوليني، أعرف

---

(1) فورميـا Formia: مدينة وناحية في محافظة (لاتينا) على شـاطىء البحر المتوسط لـ (لازيو)، إيطاليا. تقع فورميا في منتصف المسافة بين روما ونابلس – م.

(2) أندرسـن: المقصود هنا هانز كريسـتيان أندرسـن Hans Christian Andersen (1805 – 1875)، وهـو كاتب وشـاعر دنماركـي يُعد واحداً من الكتـاب البارزين في مجـال كتابـة الحكايـة الخرافيـة. ويُعتبر شـاعر الدانـمارك الوطني، وأختير يـوم ميلاده ليكون يوماً عالمياً لكتب الأطفال – م.

أنكِ محقة من خلال تجربتي. كنا صديقين قبل أن يصبح زعيماً، وأقسم لكِ أنّ لا شيءَ فيه دلّ على أنه طاغية مُحتَمل. حتى أنه لم يكن يبدو كقائد ذي شخصية ساحرة. كان شابًّا مثله مثل أيّ شاب آخر: متعصبًا قليلاً، ربما، إلا أنه مليء بالاضطرابات العصبية ونقاط الضعف. كان يخشى الظلام، لم يشأ قط أن يمشي وحيداً صوب المنزل في أثناء الليل، وكان يسعى دوماً إلى أن يجد فرداً ما يرافقه إلى باب منزله الأمامي. لو أن فرداً ما قال لي، في ذلك الحين، إنّ موسوليني سيصبح القائد، كنتُ سأضحك».

«لكن لماذا أصبح كذلك؟ لماذا كان قادراً على أن يُصبح كذلك؟»

«لأنّ أيّ شخص بمستطاعه أن يُصبح طاغية»، قال نيني. «أنتِ باستطاعتك أن تُصبحي طاغية إذا شئتِ ذلك. وكذلك أنا».

حدّقتُ في وجهه الورقي الشبيه بوجه المومياء، جسمه المُتعَب المحشور في سروال مُدفئ مُضحِك كان قد صعد على بطنه مثل سروال تشارلي شابلن، وكان لطيفاً للغاية ومتحضراً للغاية بحيث لم يكن باستطاعتي أن أصدّقه.

«لا، نيني! لا أنت».

«بلى، باستطاعتي. حقاً. لأن الدكتاتور ليس مكتوباً له أن يكون هكذا. الدكتاتور يخترع نفسه. إنه يحتاج فقط إلى أن يرغب بذلك، أقول هذا من جديد، أو إن أشخاصاً معينين ينبغي أن يحتاجوا إليه. وسأضيف: إنه لا يحتاج إلى أن يكون ذكيًّا جداً أو ساحراً. عادة، كلّما

يكـون الدكتاتـور أكثر غبـاءً فهذا أفضل. الأشـخاص شـديدو الذكاء نادراً ما يرغبون أن يُصبحوا طغاة. الأشخاص الساحرون لديهم أشياء أفضل كي يفعلوها».

«غـير أنّ إسكندر الأكبر كان طاغية، ولا أعتقد أنه كان أبلهَ. وماذا عن جنكيز خان، يوليوس قيصر، أوليـڤر كرومويل؟»

«أزمنة مختلفة، حـالات مختلفة. وقتذاك كان العالم صغيراً، الآليات التـي تجعل الماكينة الإعلاميـة ممكنة لم تكن موجـودة، القائد، أيّ قائد، ينبغـي أن يكون مسـتحقًّا هذا الاسم. يتعين عليه أن يصل إلى السـلطة عـبر مؤهلاته، ينبغي أن يمتلك نزاهة. في العالم الحديث، الحالة ليسـت هكذا. إني أتكلّم عن الدكتاتور الحديث، الدكتاتور الذي يفرض نفسـه أو تفرضـه الجماهـير عبر الماكينـة الإعلامية. إنه الدكتاتـور الذي يخترع نفسه».

«لكن إذا تم اختياره بدلاً من دكتاتور آخر، إذا أراد ذلك بنحو سيِّئ بما يكفي كي ينجح، يتعين عليه أن يمتلك شـيئاً ما. شـيئاً مختلفاً، نيني، وشيئاً آخر بالإضافة إلى ذلك».

«هـل تقصديـن أن يمتلك شـخصية ساحرة[1]؟» قـال نيني باسمًا. «حتـى الشخصية السـاحرة تخترع نفسـها. أو، في الأقل، بالمسـتطاع أن تُخلَـق. عمري الآن ثمانون عامـاً، وفي عمري وحكمتي، أقول لك إنه لم

(1) شخصية ساحرة charisma: نقصد هنا أن يمتلك القائد سحراً في شخصيته يدفع الجماهير إلى تقديسـه. كلمـة «كاريزما »أصبحـت متداولة في عالمنا العـربي في الأعوام الأخيرة – م.

يحدث منذ زمن نابليـون لم يكن هنالك سوى القادة ذوي الشخصيات الســاحرة الذيــن اخترعوا أنفســهم. و، بالطبــع، القائـد ذو الشخصية الساحرة لا يحتاج حتى إلى شخصية ساحرة حقيقية».

انتهـى حوارنـا هنا، وما أزال لا أصدّق أنّ نينـي كان محقًّا حين قال إن الشخصية السـاحرة يُمكن اختراعها، يُمكـن خلقها. إنّ الشخصية السـاحرة كالذكاء، أو الموهبة: إمـا أن تملكها أو لا. على أية حال، أنا لا أؤيـده أكثر في المســألة القائلة إنّ القائد ذا الشخصية السـاحرة لا يحتاج إلى شخصية ساحرة حقيقية. وحين قال إن الدكتاتور الحديث هو الذي يخترع نفسه، إن القائد ذا الشخصية الساحرة هو قائد يبني نفسه بنفسه، كلماته مقدّسة. إنه شيء صحيح من دون ريب فيما يتصل بأولئك الطغاة الذين يظهرون من الانقلابات. وهذا ما جرى لمعمر القذافيّ.

***

جوهريًّا في هاتـين الذُكريين (مُثنى ذُكرى) نيني يتحدّث معي ويهز رأســه الورقـي الشبيه بـرأس موميـاء، واكتشـاف طفولتـي المصدومة للإمبراطـور العـاري هما اللتان وهبتاني الجواب الـذي كنتُ أفتِّش عنه طويـلاً فيـما يتعلّق بصعـود القـذافي إلى السـلطة. وما أن وجـدتُ هذا الجـواب، لم يكــن فهمه صعبـاً جدًّا. كلّ مـا يتعين علـيّ أن أفعله هو أن أتذكـر حقيقةً مريرة، مقبولة في كلّ جـو وفي كلّ ثقافة: الأبطال قليلون ومتباعـدون، والأبطـال الذيــن يتصـدّون لانقـلاب ما حتـى أقل. إن السـواد الأعظم من الجماهـير مشلولون بفعل الخـوف، مصعوقون بلا يقـين المسـتقبل، ولا يُريدون سـوى أن يعرفوا مَن هو الـذي ينبغي لهم

أن يُحبوه ويحترموه ويُطيعوه. إنهم يُريدون قائداً، جوهريًّا، مَلِكاً كي يحل محل الملك الذي أُطيح به، مَلِكاً يحقق حاجتهم المُخزية والأبدية إلى ملك. هل إنّ الطغاة ليسوا ملوكاً؟ هل إنّ رؤساء الجمهوريات ليسوا ملوكاً؟ إنّ الاختلاف الوحيد بينهم هو أنّ الملوك الذين يلبسون تاجاً ويحملون صولجانًا هو مسألة الوراثة وطول مدة حكمهم. إذا كان قد تم انتخابهم بالتصويت، فإنهم يحكمون طوال حقبتهم الزمنية المحددة؛ وإذا فرضوا أنفسهم بالعنف، فإنهم يحكمون حتى الموت، تكون نهايتهم بالمرض أو على يد قاتل الطاغية؛ لا أحدَ منهم يُمكن أن يضع ابنه أو ابن أخيه في العرش. غير أنّ الغرور الذي يُحيط بهم هو الغرور نفسه، الغطرسة التي يحكمون بها هي الغطرسة نفسها، التكبّر الذي يظهرونه، الخنوع الذي يوحون به، والامتيازات، والإطراء، والانحناء والتخاصم من جميع البُلهاء الذين لا يستطيعون أن يُوجدوا من دون ملك والذين يقطعون الرؤوس المَلَكية لمجرد أن يلصقوها من جديد. بما أنه من المستحيل أن تُعيد لصق الرأس، يعيشون متحسرين، نادمين على ما حطموه ولن ينعموا بالطمأنينة وراحة البال إلا بعد أن يحل محل الملك الميت ملكٌ حيٌّ، كائناً مَن يكون، مهما يُريد أن يُسمّى: فوهرر، حارس الثورة، كوديللو[1]، إمام، القائد الأعلى، السيد الرئيس، Monsieur Le President. تاريخ العالم يثبت هذا، وإحدى أقدم الأكاذيب في العالم هي كذبة الجمهورية. تيتو وحده هو الذي حاول أن يتغلّب عليها، بالموت، هو الذي كان ملكاً أكثر من الملك. ومهما يكن

---

(1) كوديللو Caudillo: وردت بالإسبانية في النص الإنكليزي، وتعني: قائد أو زعيم – م.

مـن أمر، الملك بات في عِـداد الأموات: يعيش الملك. الجمهورية تحتاج إلى ملـك. الشعـب يحتاج إلى ملك. سيكون هنالـك ملك، سواء سمّى نفسـه ملكاً أم لا. وإذا لم يكن هنالك ملك، فهو يخلق نفسه. إنه يُنشىء أو يُنصّب نفسه.

وعنـد هذه اللحظـة يخرج اللصـوص ذوو البـذلات النظامية إلى العـراء كي يُعلنوا عن أنفسـهم وينصّبوا أنفسـهم مُنقِذين؛ باختصار، كي يجعلوا من أنفسـهم ملوكاً. أو، عند هذه اللحظة، اللصوص ذوو البذلات النظامية يقررون بين أنفسـهم مَن الذي يضطلع بدور المُنقِذ، مَن الذي سيكون الملك. في كلتا الحالتين، الإجراء هو نفسه: جوهريًّا، العملية ذاتها التي يستعملها مُنتجو الأفلام السينمائية كي يبدؤوا مسيرة راقص أو ممثل عديم الموهبة، أو راقصة أو ممثلة عديمة الموهبة. توجد صـور فوتوغرافية، مقالات، مقابلات تليفزيونية، طويلة بنحو مُفرَط وأدوار سينمائيـة، في أفـلام سينمائيـة أضخـم وأكثر تكلفـة، ترويج لا ينقطع يجعل الجمهور يعتاد على ذلك الاسم، ذلك الوجه، ويقعون في حـب تلك الممثلة إلى درجة أنهم يمنحونها لقب «المغنية الأولى ديـڤا»، تلـك المغنية التـي خلقها المنتج بإيمانه السـيِّئ وكلبيته. أغلب المغنيات هـنّ كائنات تافهـات: إذا ما قابلتهنَّ على متن قطـار أو في الشارع من دون أن تعرف مَن هنَّ، لن تنظر إليهن مرتين. لكن لمّا تكون أسماؤهن ووجوههـن مشهورة، يكففـن عن أن يكنّ تافهـات ويغدون كائنات استثنائيـة: الأنـف المعقـوف والكبـير بإفـراط يغـدو مُشوِّقـاً ومن ثم مُغرياً ومن ثم فاتناً. عائق الحديث أو العَرَج يصبح شـيئاً غير مألوف،

ومـن ثم مُبهجاً، ومـن ثم لا سبيلَ إلى مقاومته. الممثلة ضئيلة الجسـم القبيحة، والراقصة غير البارعة تتحوّل إلى فنانة جميلة، موهوبة إلى حدٍّ كبير، إنهما شخصيتان استثنائيتان: ألا تريد أن تعرف قصص حياتهن؟ عـادةً ما تكون حياتهن قصصاً من دون قصص، إنما لا يهمّ، لأنه حتى الماضي يستطيع أن يخترع نفسـه، وحتى الحاضر يُمكـن تشييده، ومن الممكن دوماً أن يتم الإيحاء بأن الماضي مبهم والحاضر مُغطى بالسرّية. النجـاح قوة، والقوة تملأ أيّ فجـوة، تُلغي أيّ فراغ. أجل: كي تُصبح مُنقـذَ الوطن الأم، نبـيَّ الثورة، ملكَ الجمهورية الـذي تعقب الملك، قائد اللصوص ذوي البذلات النظامية الذين ببسـاطة اتبعوا قواعد العمل وقلّدوا السـيناريو كي يخلقوا فجـوة. في الأول من أيلول/ سبتمـبر 1969، مـا من أحد عـرف أنهم موجودون. بـدأت تنتشر شـائعة مفادهـا أنّ الانقلابيين هـم إثنا عشر شـابًّا، وهـم مخلصون للنبـي محمد ولجمال عبد الناصر، أعـداء للرأسمالية والشيوعية، مسـتعدون للتفاوض مع «الشرق» و «الغرب»، مع «الولايات المتحـدة» و «الاتحاد السـوڤييتي». في نهاية الشهر بدأت الأخبار تنتـشر، جنباً إلى جنب مع الذهـب والبَخور ومُـرّ كُهّان الديانة الزرادشـتية بمعنـى آخر الصحفيين بأن الملـك وُلد. الشكر لله، وصل المسيح. اسمه مُعمّر القوذافي، لا، مُعمّر القذافي، لا، عمر القذافي، لا، عمـر مُعمّر القدازي، مُعمّر الخـادفي، القذافي، قذافي: عقيد عمره سبعة وعشرون عاماً، كانوا أصلاً قد نزَّلوا رتبته إلى نقيب بسـبب قلّـة الانضباط، والـذي، استعاد الآن رتبة عقيـد، رفض بنبل

ترقيـات أعلى. يا لها مـن قصة استثنائية تلك التـي يملكها. كان بدويًّا وُلـد تحت خيمة قبيلة أبيّـة اسمها Kozzafi أو Qazzafi أو Kazafi أو Khadazi أو Ghadafi أو Qaddafi أو Ghedaffi أو كيفما تتهجى هذا الاسـم اللعـين. في هـذه الخيمة نشأ جنبـاً إلى جنب مع معـزات عدّة، بعير، أب، أُم، ثلاث شـقيقات والقـرآن. أُرسل إلى مدرسة ابتدائية في قرية قريبة في سن الحادية عشرة، وفي غضون أربعة أعوام تعلّم القراءة والكتابـة. في سـن الخامسـة عـشرة ربما لم يكـن بوسعـه أن يدافع عن بحث علمي، إلا أنه كان قد انتظم في مدرسة ثانوية و، فيما هو يستمع إلى الراديـو، اكتشـف عبد الناصر، جنباً إلى جنب مـع الأزمنة المجيدة التـي مضى فيهـا العرب هنا وهناك فاتحـين صقلية، إيطاليـا، وإسبانيا كـي يُبعدوا الكفار. وهكذا، مع عشرة مـن نظرائه ورجل ذكي يكبره ببضعة أعوام يُدعى عبد السـلام جلّود، أسـس خلية ثورية مع الفهم بـأنّ القيـام بانقـلاب سيكون شـيئاً ضروريًّـا إذا مـا أرادوا الاستيلاء على السـلطة. ومن أجل تحقيق هـذه الغاية، أقنع أصدقـاءه بالدخول إلى الجيـش وأن يُصبحـوا ضباطـاً. أعني، لمـاذا فعلوا ذلـك لو لا هذه الغاية؟ كان طويـلاً وهزيلاً، وسيماً، كأنه ممثل، ورعاً كرجل متصوّف أو كمحـب للجـمال في الفن، ولم يستسـلم للخطايـا الشهوانية في كلّ الأعوام التي أمضاهـا في التحضير للانقلاب. لا مشروبات كحولية، لا مـرح، لا نسـاء. وأعجوبة العجائـب، لم يعرف الاتصـال الجنسي. حتى حين أرسله الجيش، في سن الرابعة والعشرين، كي يتلقّى كورس تدريب أمده ستة أشهر في إنكلترا، لم يتخلَّ عن عذريته. وكان هذا في

العـام 1966: كانت ماري كوانت[1] قد أدخلت تـواً موضة التنورات القصـيرة، وكانت لندن عريناً للغواية وحتى القديس فرانسـيس[2] ما كان باستطاعته أن يقاوم.

كـان هنالـك فارق حقيقي واحد بين بدء مسـيرة ممثل وبدء مسـيرة قائد ذي شـخصية ساحرة. بينما بوسع السابق أن يزيّن نفسه بالفضائح والأشـياء الغريبة، التالي ينبغي له أن يُعلّي طهارته وصرامته الأخلاقية. السـابق ينبغـي لـه أن يُظهِر توقـاً حقيقيًّـا للنجاح، في حـين الثاني يجب أن يُخفـي هـذا التـوق. يقـترب القذاقـي من عامـة الناس مثـل مومس صغيرة تطوف خلسـة بحثاً عن فريسـة: تعطي ومن ثم تسـلب، تبتسم وبعدهـا تُدير ظهرها. الوصف السـيري ذاتي هو المرحلة الأولى في هذه الغواية، الآجرة الأولى في بناء الخرافة. بعد الوصف تأتي الأحاديث من الشرفـات، الولائم، مزيـد ومزيد من الفرص كـي يتغزل مع الجماهير، كي يسـمح للجماهير أن يُظهروا إعجابهم بالقائد عن كثب، كي يُقنعوا أنفسـهم أنـه ليس شـيئاً وهميًّـا. في حقيقة الأمـر، كان أكثر ذكـاءً، أكثر حكمـةً، أكثر جرأة، بارعاً أكثر. ومن ثم تأتي حقبة النفور، حينما يحاول

---

(1) مـاري كوانـت Mary Quant (وُلدت العام 1930): مصممـة أزياء وأيقونة أزياء إنكليزيـة، من أصل ويلزي. وهي واحدة مـن مصممي الأزياء الذين نالوا المديح عن تصميمها للتنورات القصيرة والسراويل القصيرة – م.

(2) القديـس فرانسـيس أو فرانسـيس الأسـيزي Saint Francis (1181 – 1226): راهـب وواعظ إيطالي كاثوليكي. أسس القديس فرانسـيس طائفـة الرهبان الصغرى للرجال، وطائفة القديسـة كلير للنسـاء، وطائفة القديس فرانسيس الثالثة. على الرغم مـن أنه لم يُرسـم في الرهبنة الكاثوليكية، إلا أن فرنسـيس الأسيسي هو واحد من أكثر الشخصيات الدينية المبجلة في التاريخ – م.

أن يجعلنا نصدّق أنه يضحي بنفسه من أجل مصلحة الشعب وأنه يقيناً لا يسعى لأن يصبح ملكاً. إنه لا يريد، إنه لا يرغب، تواضعه يمنعه من ذلك. في غضون ذلك، على كلّ حال، مواضيعه المستقبلية تتصادم مع حضوره الفذ وغير القابل للاستبدال، صوته يدخل إلى منازل وخيام الصحراء، صورته تكتسح الشوارع، الثكنات، الدوائر الحكومية، القاعات الدراسية، وأيّ مكان له جدار حيث يُمكن تعليق صورة المُنقذ عليه، أيّ مكان له مَخرج كي يُوصِل التيار الكهربائي إلى جهاز التلفزيون كي يتمكن الأطفال، كبار السن، العجزة أن يشاهدوا. في الماضي، المغامرون الذين وضعوا عيونهم كي يُصبحوا طغاة كانوا بحاجة إلى أقواس نصر، جرائد، مثقفين سفهاء أو مثقفي الخيانة. اليوم، كلّ ما يحتاجونه هو بعض الصور الفوتوغرافية، مصور تليفزيوني، وترانزيستور. هذا الشيء صحيح في البلدان التي لا يستطيع فيها الشعب أن يقرأ أو يكتب. في ليبيا في العام 1969، خمسٌ وتسعون بالمائة من السكان كانوا أُميين، الصحف قلّما موجودة هناك، والمثقفون أقلية فائضة عن الحاجة. لا يوجد شيء ولا يوجد أحد كي يعارضوا بأنفسهم صورة فارس وسيم، خالٍ من العيوب، ما من أحد كي يشرح أنّ أسطورة عذريته الرهبانية قد لوثتها نوعاً ما الشائعات المتعلّقة بحبه لعبد السلام جلّود، ما من أحد كي يلاحظ أنه لا يملك الحق في أن يسبق خميني في الحملة المناوئة للمثليين. بطبيعة الحال، في اللحظة التي اكتملت فيها الثورة، تزوج من ابنة أحد كبار ضباط الحُكم المَلَكي، وهكذا غُطيت القضية بنحو جميل.

بطبيعة الحال، معبود الحفلة الصباحية يحتاج مزيداً من الوقت كي

يصل إلى المجد، وما إن ناله، لم يؤذِ إلا نفسه. لا يحتاج الدكتاتور إلا شهوراً قلائل، وما أن ينال المجد، يقع الجميع في مشكلة. في أقل من عام كان قد صفّى جميع حوارييه باستثناء اثنين، وبالطبع صديقه الأثير عبد السلام جلّود. كان قد اعتقل ثلثيْ أعضاء «المجلس الثوري»، زملاء المدرسة الذين ساعدوه في الاستيلاء على السلطة. عيّن نفسه القائد الروحي، السياسي، والديني. كلّ شيء يعتمد عليه، حتى الالتزام بتعاليم القرآن: ساعات الصلاة، الصوم في رمضان، منع المشروبات الكحولية، العقوبات الجسدية. و، بطبيعة الحال، حالة الاقتصاد، الثروات الخرافية لآبار النفط، السياسة الخارجية استندت إلى كره إسرائيل، العداء تجاه (الغرب)، الحنين المَرَضي إلى أيام الماضي البهية حين قهر المسلمون صقلية، إيطاليا، وإسبانيا كي يسحقوا الكلاب الكافرة. الآن وقد مات جمال عبد الناصر، إنه هو الذي عيّن نفسه قائداً للعالم الإسلامي، وشرع يضايق البلدان المجاورة، بخاصة مصر، بمتطلباته وعجرفته: وحتى أنه صادر غواصة مصرية في محاولة منه لإغراق السفينة السياحية «كوين إليزابيث II»، التي كانت تجلب 2000 حاج يهودي إلى حيفا. دخل «أولمپ «قادة العالم وعاملهم مثل أصدقاء قدامى، ابتزهم بأساليب قاسية ورفيعة، مانحاً صداقة أو عداوة بلد كان، بسبب موقفه الاستراتيجي، قد اشتهاه كثيرون، والآن أكثر من أيّ وقت مضى اشتهاه الروس والأمريكيون. مثل مومس تذهب إلى الفراش مع المُزايد الأعلى، يدخل الفراش معهم جميعاً: يتكلّم كمناوئ للرأسمالية مع بعضهم وكمناوئ للشيوعية مع

البعض الآخر، يشتري الأسلحة الثقيلة من بعضهم والأسلحة الخفيفة من بعضهم الآخر. وبطبيعة الحال، كان أيضاً يشتري الأسلحة من الإيطاليين، من الباكستانيين، الإنكليز، السويديين، من كلّ مَن يبيعها، ولم يكن يساوم قط. بالنسبة له، النقود ثمينة حالها حال الرمل. كان له شغف جنسي إذا صح التعبير بالأسلحة: كان بوسعه أن يبيع أمَّه من أجل الحصول على قنبلة نووية، ولّما لم يجد أحداً يرغب بأن يبيعه هذه القنبلة أرسل عبد السلام جلّود إلى شو إن لاي، الذي، بحكمةٍ، طلب منه المغادرة فوراً. مع ذلك ظلّت ليبيا تدندن بالدبابات، المدافع، الطائرات المقاتلة، المروحيات، كلّ الجواهر التكنولوجية التي لا يعرف أيّ ليبي كيف يستعملها أو ما هو غرض استعمالها. كانت ليبيا تنبض بالمدافع الرشاشة، البنادق ذات المُصمّتات، قاذفات الصواريخ، قاذفات الصواريخ المضادة للدبابات، المتفجرات، الأجهزة الرهيبة التي ربما كانت حليّ بلاستيكية تافهة، لأن سائر أبناء الشعب يعرفون ماذا كانت هي.

لكن سرعان ما أمسى الأمر واضحاً. كانت تلك الأجهزة هناك كي تجلب الإرهاب لـ (الغرب)، أو إلى حيثما كان يرغب أن يجلب الإرهاب. كانت تلك الأجهزة هناك من أجل الهجمات، عمليات الاختطاف، المجازر، حالات القتل بالاتفاق مع مأجورين، كانت هناك كي تزرع بذور الشك والفتنة والخوف خارج حدود البلاد. بحجة مساعدة أشقائه الفلسطينيين زوّد وموّل واستثار الإرهاب بكلّ صنوفه وألوانه. في معسكرات التدريب التي فتحها في (سيرت)،

براعـة القتـل كانت تُعلّـم كترميـم اللوحـات الفنية في (فلورنسـا)، أو الأوبـرا الكلاسيكيـة في ميلانـو. بمستطاع أيّ امـرئ أن يدرسَ القتـل في تلك الـ (سوربـون) الدموية: الألوية الحمـراء الإيطالية[1]، على أيـدي أعضاء بـادر ماينهـوف الألمانيـة[2]، المسـلمين الفلبينين، الكاميكازيـين اليابانيـين[3]، الفدائيـين الفلسـطينيين. كـان المُلقِّنـون روسيـين، تشيكوسلوفاكيـين، بلجيكيين، كوبيـين، أمريكيين. بعض الأمريكيين كانوا (بيريات خضر)[4] في ڤيتنام، وكانوا يسلّون أنفسهم مـع جثـث الفيتكونـغ بـأن يقطعوا معـاً الـرأس والقضيـب ومن ثم

(1) الألوية الحمراء الإيطالية Italian Red Brigades: منظمة شـبه عسـكرية يسارية، مقرهـا في إيطاليـا، كانت مسـؤولة عـن عديد حـوادث العنف، بما في ذلـك عمليات الاغتيـال والخطـف والسرقـات خـلال ما يسـمى بـ «سنـوات الرصـاص». في العام 1980، نجحـت الشرطـة الإيطالية في تفكيـك المنظمة، بمعونة عدد مـن قادة المنظمة المعتقلين الذين ساعدوا السلطات في القبض على أعضاء آخرين- م.

(2) جماعة بـادر ماينهوف الألمانيـة German Baader Meinhof: إحدى أبرز وأنشط الجماعات اليسـارية المسـلحة بألمانيا الغربية ما بعد الحرب. وتصف نفسـها بأنها جماعة «مسـلحة مدنية «شـيوعية تشارك في مقاومة مسلحة، في حين أن حكومة ألمانية الغربية تعدُّها جماعة إرهابية. سُميت لاحقاً بـ «جماعة الجيش الأحمر» وقد تأسسـت رسميًّا في العام 1970. نشطت هذه المجموعة من السبعينيات حتى العام 1993 - م.

(3) الكاميكازيـون اليابانيـون Japanese kamikazes: الطيـارون اليابانيـون الانتحاريـون، الذيـن كانوا يهاجمون السـفن الحربيـة الأمريكية خلال الحـرب العالمية الثانيـة بعدما مالت كفـة التوازن العسـكري لصالح (الولايات المتحـدة الأمريكية). المعنى الحرفي لكلمة «كاميكاز «اليابانية «عاصفة النار». لكنها أصبحت تعني «الهجوم الانتحاري»- م.

(4) بيريات خضر Green Berets: القوات الخاصة التابعة لجيش (الولايات المتحدة) - م.

يدسُّون القضيب في فم الرأس المقطوع. كما كان هنالك جنود مرتزقة مطلوبون من قبل «مكتب التحقيقات الفيدرالي» (الـ FBI) من مثل إدوين ويلسون وفرانك تيرپيل وكارلوس، آينشتاين الجريمة عالمية الانتشار. كان جورج حبش، القائد المعتوه لـ (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) هو الذي عرّف كارلوس على القذافي. كان كارلوس قد ترك فيه إنطباعاً قويًّا بحيث أنه منحه راتباً ثابتاً، ڤيللا على البحر، حساب نفقات يساوي مليون جنيه إسترليني. المال في هذا الحساب قد رُصِد، من بين أشياء أخرى، لأخذ أحمد زكي يماني[1] ووزراء نفط آخرين رهائن في ڤيينا في مؤتمر منظمة (الأوبك). من العام 1970 فصاعداً ما من مجزرة، هجوم، اختطاف لم تحمل إمضاء العقيد، أو لم تُموَّل من قبله. حوادث القتل في مطارات فيومـچينو[2]، أثينا، مدينة لودز ببولندا (التي تضم اليهود)، وزيوريخ؛ مجزرة (الألعاب الأولمبية) في ميونيخ[3]، وفي (البنك الزراعي) بميلانو، إذا أردنا أن نذكر قليلًا

(1) أحمد زكي يماني (1930 – 2021): وزير البترول والثروة المعدنية السعودي سابقاً من 1962 – 1986 – م.

(2) المقصود هنا الهجمات على مطار روما واحتجاز رهائن في 17 كانون الأول/ ديسمبر، العام 1973. هذه العملية قامت بها مجموعة من الفلسطينيين بهجمات شنوها على مطار ليوناردو دافينشي فيومـچينو في فيومـچينو، لازيو، إيطاليا. أسفرت العملية عن مقتل 34 شخصاً. حيث شن الفدائيون هجماتهم على ترمينال المطار واحتجزوا رهائن، وأعقب ذلك تفجير طائرة عائدة للخطوط الجوية پان أمريكان وورد أيرويز. سيرد ذكر هذه الهجمات مرات عدّة في كتابنا – م.

(3) مجزرة (الألعاب الأولمبية) في ميونيخ: المقصود هنا عملية ميونيخ العام 1972، وهي عملية احتجاز رهائن إسرائيليين حدثت في أثناء دورة الأولمبياد الصيفية المقامة

منها. السهولة التي كان يتنقل فيها بين الأيديولوجيات المتناقضة تماماً والولـع الذي جعله أستاذاً حقيقيًّـا للغش والاحتيال. كانت المتاجرة بالأسلحـة في طرابلـس مدوِّخـة كحركـة مـرور الجواسيـس الذيـن كانـوا يجيئـون ويذهبون، عارفين بكـلّ شيء، وساعـدوا العقيد بدلاً مـن فضحـه. ألم تحذره المخابـرات الإيطالية والأمريكيـة من أن عمر المحيشي، وهو أحد الحواريين الذين تخلّى عنهم في حملة تطهير مُبكرة، كان يسعى للإطاحة به مع الجيش الليبي في العام 1976؟ ونتيجةً لهذه القطعة من التجسـس، أُديـن ثلاثة وعشرون ضابطـاً بالموت وأُطلق عليهم الرصاص بسبب دورهم في تلك المؤامرة؟

كـان يحتـاج إلى الأسلحـة الثقيلـة كـي يـدرك أحلامـه الموسولينية الجديدة المتصلة بالتوسُّع في منطقة البحر المتوسط، وكي يُعذّب البلدان المجـاورة التـي كـان باستطاعتهـا أن تحمـل أسلحتها الثقيلـة ضده. في البداية مصر، حيث أصبح أنور السـادات عدوًّا له بنحو صريح؛ بعدها تونس حيث لم يكن بورقيبة يحترمه؛ ناهيك عن ذكر المغرب، حيث كان الملـك الحسـن أقل من ممتن لسلسـلة الانقلابات التي موّلهـا القذافي في محـاولات عدة لقتله. وختاماً، كان القـذافي قد وضع أنظاره على تشاد، التـي كان يُريـد أن يجتاحها كي يضم قطعةً جيدة مـن أرضها إلى أرض

في ميونخ، ألمانيا من 5 إلى 6 أيلول/ سبتمبر سنة 1972، نفذتها منظمة «أيلول الأسود» وكـان مطلبهم الإفراج عن 236 معتقلاً في السـجون الإسرائيلية معظمهم من العرب بالإضافـة إلى كـوزو أوكاموتو مـن الجيش الأحمر اليابـاني. انتهت العمليـة بمقتل 11 رياضيًّا إسرائيليًّا و5 من منفذي العملية الفلسطينيين وشرطي وطيار مروحية ألمانيين. سيرد ذكر هذه المجزرة أو الواقعة مرات عدّة في كتابنا – م.

بـلاده. إلا أنـه أيضاً كان يودُّ أن يدسّ أنفه في شـؤون بلـدان بعيدة من مثـل أوغندا: خـلال الحرب مع تنزانيـا، أرسل القـذافي فريق عمليات من خمسـمائة رجل لمسـاعدة عيدي أمـين. ولا يهمّ أنّ كـلّ ما تطلّب هو بخّـات قليلة من مبيـد الحشرات كي تجعلهم يخرجـون من دباباتهم، لا يهـم أنّ آكل لحم البشر عيدي أمين خسر بحقـارة أمام التنزانيين. بدت إفريقيـا الواقعة أسفل (الصحراء الكبرى) أشـبه بإمبراطورية تنتظر أن تُقهَر، مسـتعمرة تتحوّل في حملة معاكسـة أخرى. كـان يُريد أن يُعيدها إلى قطيـع الإسـلام، أن يضم بلداناً لم يسـمع بها النبي محمـد. حفَّز على انقلابـات وعصيانـات في النيجر، مالي، السـنغال، غامبيا، الكاميرون، غانا، ڤولتا العليا، ونيجيريا. وكما لو أنّ هذا غير كافٍ، احتجز قادة هذه الأقليـات في طرابلـس وجعلهم رهائن بحجة تقديـم الضيافة لهم. من النيجـر، احتجز آية الله موهات موسى؛ من مـالي، احتجز آية الله مدينة سومبوني؛ من السنغال، احتجز آية الله خليفة موسى. ومَن يعرف ما إذا احتجـز الإمام موسى الصدر، زعيم الشيعـة اللبنانيين، بالطريقة ذاتها؛ كلّ ما عرفناه هو أنّ اختفاء الإمام قد سبّب مشاكل كثيرة لعلاقات ليبيا بإيـران. زعم أنه كان يُريد أن يُؤسس من جديد العلاقات الدبلوماسية التـي كانـت مُعلّقـة في ظـل حُكـم الشـاه، إلا أنه كـان يُريـد حقيقةً أن يخلـق تحالفاً مع خميني؛ تحالفاً أشـبه بـ (حلف الصُلب)[1] الذي شـكّله

(1) حلـف الصُلب Pact of Steel: المعـروف رسميًّا باسم ميثاق الصداقة والتحالف بين ألمانيا وإيطاليا، كان تحالفًا عسكرياً وسياسيًّا بين إيطاليا وألمانيا. وقعها في 22 أيار/ مايو 1939 وزيرا خارجية إيطاليا غاليلزو بيانو الإيطالي وجواكيم فون ريبنتروب من ألمانيا – م.

موسوليني مع هتلر في العام 1939. حاول مراراً الدخول إلى (قُم) لرؤية خميني؛ إلا أنه في كلّ مرة كان يُبعَد، وكان قد مُنع فعلاً من أن يضع قدماً في طهران. كان السبب وراء هذا الرفض هو اختفاء الإمام موسى الصدر، الذي كان خميني يحبه حبًّا جماً، بحيث أنه أعطاه ابنة أخته الأثيرة، المسمّاة بروين خليلي، زوجة له.

نعم، قصة موسى الصدر، المعروف أيضاً باسم «الإمام ذو العين الزرقاء» بسبب عينيه الشبيهتين بالحلزون البحري «البروْنق»، كانت حكاية بكلّ معنى الكلمة. إنها حكاية تكشف ببراعة جنون تلك الفوضى الكثيفة التي تُسمى «التاريخ»، الهيولى التي ألفيتُ نفسي فيها. هي ذي الحكاية. في آب/ أغسطس 1978 مضى موسى الصدر إلى طرابلس للقاء القذافي واختفى تماماً وعلى حين غرّة. هل تم اعتقاله، اختطافه، قتله؟ بعضهم قالوا إن لقاءهم قد انتهى بجدال على الخطة التي كانوا يُحيكونها: أن يحوّلوا لبنان إلى معقل إسلامي من خلال تنظيم الشيعة اللبنانيين إلى حركة عصابات من شأنها أن تطهر البلاد من (الغربيين)، بالإضافة إلى المسيحيين الذين كانوا يتعاطفون مع (الغرب)، ومع الصهاينة. بعضهم قالوا إنّ الشجار اندلع على مزرعة موسى الصدر للحشيش قرب بيروت، التي كانت تتاجر بمحصولها عبر ليبيا، مُعطية حصة من الأرباح للقذافي؛ وجد القذافي أنّ حصته قليلة جداً، فيما كان الصدر يعتقد أنّ حصته كثيرة جداً. على أية حال، لم يرجع موسى الصدر إلى فندقه، ولم يره أحد ثانيةً، حيًّا أو ميتًّا. ومع ذلك ثمة قصة أخرى تؤكد أنّ الشجار لم يحصل البتّة، ولم يكن هنالك

أيّ اجتماع. في الظاهر، أنّ القذافي كان منزعجاً من الوغد القديم، الذي كان يمضي هنا وهناك مستجدياً المال ولم يقبل بأيّ نصيحة، وأمر بأن يُحجز لدى وصوله، مكث أياماً قليلة في الثكنة. لكن، بسبب خطأ تراجيدي، بدلاً من جعله يُطيل التفكير في موقفه في الحبس، وضعوه إزاء حائط وأطلقوا عليه النار. هنالك نسخٌ أخرى من هذه القصة معقولة بنحو أقل، لكنها في الوقت عينه لا يُمكن استبعادها، ذهبت إلى القول سواء عُقد الاجتماع أم لم يُعقد، سواء حصل الشجار أم لم يحصل، موسى الصدر لم يُقتل بالرصاص. بالأحرى، كان في ركن قصي من الصحراء، قُبض عليه كرهينة حاله حال آيات الله من إفريقيا أسفل (الصحراء الكبرى)، كي يُجبر أتباعه في بيروت أن ينفذوا أوامر القذافي، فضلاً عن التفاوض بشأن إخلاء سبيله مع خميني مقابل (حلف الصُلب) الذي كان يهفو إليه طويلاً والذي من شأنه أن يأخذ بالحسبان القيادة الناجحة لتمرّد الشيعة اللبنانيين. مهما كانت الحقيقة، هذه الشائعات كلّها أبقت العقيد مسؤولاً، وقد دافع عن نفسه بنحو لا جدوى منه، قائلاً إن موسى الصدر قد أتى إلى طرابلس إلا أنه غادر إلى الخارج على متن طائرة تابعة لإحدى شركات الطيران الإيطالية، ترجَّل من الطائرة في روما، وهناك اغتاله عملاء صهاينة. لم يصدقه أحد. بعد أن أجرت مخابراته وجهاز الشرطة التابعة له تحرياتهما، أثبتت الحكومة الإيطالية أنّ الإمام اللبناني لم يترجل في إيطاليا، وفي الحقيقة، لم يأخذ طائرة متجهة إلى روما. الحكومة الإيرانية أقرّت هذه النسخة من الأحداث.

كنتُ أعرف هذا جيداً، بما أنني سألت مهدي بزرگان [1] سؤالًا شديد الوضوح حول الموضوع: «هل صحيح أنّ العلاقات الدبلوماسية بين ليبيا وإيران لم تُستأنف بسبب اختفاء موسى الصدر في طرابلس؟» ردّ بزرگان بصوتٍ حادٍّ قائلاً: «إنها الحقيقة. اختفاء الإمام موسى الصدر هو عامل مهم جدًّا في انعدام علاقاتنا الدبلوماسية مع ليبيا، والحكومة الإيطالية هي على حق حين أكدت أن موسى الصدر لم يطأ أرض إيطاليا. أنا أصدّقهم. في حقيقة الأمر، طلبنا من القذافي أن يقبل بلجنة تحقيق للبحث عن موسى الصدر في ليبيا، ولن نُعيد فتح سفارتنا في ذلك البلد، ولن نسمح بأن يفتح ذلك البلد سفارة في إيران، ما لم يتم تلبية طلبنا. ولما أخبرته أنّ نجل آية الله مُنتظري [2]، شيخ مُنتظري، ذهب توًّا إلى طرابلس وأخذ صورة فوتوغرافية مع القذافي وياسر عرفات، مصرّحاً بأنّ موسى الصدر، في الواقع، قتله عملاء صهاينة في أوروبا، فقد بزرگان رباطة جأشه تماماً. شحب وجهه، وراحت لحيته البيضاء ترتعش تعبيراً عن الاستياء، صفع بيده سطح الطاولة وصرّح

(1) مهدي بزرگان (1909 – 1995): أول رئيس حكومة في إيران بعد سقوط الشاه محمد رضا بهلوي. تولّى رئاسة الحكومة المؤقّتة من العام 1979 حتى 1980. كان من أنصار الثورة الإيرانيّة على الشّاه، وأحد القادة البارزين فيها – م.

(2) آية الله حسين علي منتظري (1922 – 2009): رجل دين إيراني، وأحد قادة الثورة الإسلامية. حكم عليه بالإعدام في عهد الشاه سنة 1975، لكن أطلق سراحه بعد ثلاث سنوات. وبعد انتصار الثورة عينه الخميني نائباً للمرشد الأعلى باعتباره الرجل الثاني في الثورة الإيرانية، وأطلق عليه لقب نائب القيادة العليا. لكنّه بعد مدة اختلف مع النظام في بعض القضايا وهذا ما أدّى إلى عزله من مناصبه. توفي منتظري في 19 كانون الأول/ ديسمبر 2009 في مدينة) قُم) بسبب أزمة قلبية – م.

قائلاً: «شيخ منتظري رجل غير طبيعي يحتاج إلى أن يُوضع تحت عناية طبيب نفساني، وكلّ ما يقوله أو يفعله ينعكس عليه هو وحده!».

كان شيخ منتظري رجلاً غير طبيعي بنحو لا يرقى إليه الشك. في الفوضى التي عمّت إيران، فقط القاتل خلخالي[1] الذي كان يتنافس معه في الغدر والبلاهة. والأكثر من ذلك، الاثنان كانا يبدوان متشابهين: نفس الجسم المشوّه، قصير القامة، نفس الوجه القبيح، نفس الضحكة المتلوية، الشبيهة بنعيب البوم. كي نفهم إلى أيّ مدى كان شيخ منتظري يحتاج إلى طبيب نفساني، لا يحتاج المرء سوى أن ينتبه إلى أنه يرتدي ثياباً تشبه ثياب مُلّائي، مع أنه لم يكن هكذا، وكان يحسب أنه مخوّل في الصعود إلى الطائرات من دون جواز سفر أو تذكرة. «هذه قواعد إمبريالية ورأسمالية!» كان يصيح، مصوّباً مسدسه إلى كل مَن يذكّره أن التذكرة ضرورية في الحقيقة، حالها حال جواز سفره، إذا ما خطط للسفر إلى خارج بلاده. وبعدها يخاطبه قائلاً: «سأطلق عليك الرصاص باسم الثورة! تعيش الثورة!» ويطلق الرصاص بنحو أعمى، مُسبباً مَشاهدَ من الرعب والقنوط، لأنّ أباه شاء أم أبى، رجلٌ مهمٌّ، وكان بعضهم يقول إنه منافس وربما وريث خميني. ولأن له أباً مهمًّا إبّان

(1) صادق خلخالي (1926 – 2003): أول مدعٍ عام إيراني في إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية، وكان يشتهر بالجدية والمواقف الحاسمة تجاه من يوصَفون بالمجرمين. يُنسب إلى صادق بعض الإعدامات التعسفية التي جرت في إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية. في حين يعتقد بعضهم أنه كان يقوم بواجبه كمدعٍ عام وحسب، وكثيرٌ من الذين تعرضوا للظلم من قِبل نظام الشاه يؤيدون مواقف صادق الحاسمة ويحبونه. في السنوات الأخيرة من حياته اختار العزلة ولم يظهر كثيراً بين الناس – م.

الثورة هو شيء مفيد مثلما يكون لك أب مهم في نظام محافظ.

على كلّ حال، تأكيد بزركان بأنّ سلوك شيخ منتظري كان ينعكس عليه لم يكن صحيحاً تماماً. ذلك أنه بفضله وجد القذافي طريقة للبدء في بناء تحالف مع إيران. لم يذهب شيخ منتظري إلى طرابلس حصراً كي يؤنبه على اختفاء الصدر، بل كي يجلبه هو وياسر عرفات إلى خطة عمل لـ «الشرق الأوسط». وهذا يعني إرسال ألف انتحاري إيراني إلى بيروت، يستخدمون الهجمات الانتحارية برًّا، بحراً وجوًّا كي يحطموا العدو الصهيوني وسائر حلفائه (الغربيين) والمحبين لـ (الغربيين). وعد منتظري أنّ الانتحاريين الألف مستعدون وينتظرون، وسوف يُقيمون في المعسكرات الفلسطينية، أو وسط الشيعة. كان هنالك أيضاً قليل من النساء بينهم، كن يعرفن كيف يخبِّئن المتفجرات تحت عباءاتهن.

عرفات لم يحبذ الخطة: كانت له أصلاً مشاكل كافية في لبنان من دون أن يكترث بالانتحاريين الألف الخاضعين لأوامر رجل أحمق. رفض العرض، ودفع الثمن بإجلاء (منظمة التحرير الفلسطينية) من ليبيا. سمح بالتقاط صورة فوتوغرافية انطلاقاً من الكياسة البسيطة. كان القذافي متحمِّساً، على أية حال، ووعد ليس فقط بتمويل المشروع، بل توفير المتفجرات الضرورية، إلا أنه تعهد شخصيًّا بأن يُضيف 200 ليبيّ من (الألوية الإسلامية) العائدة له. وصلت أخبار عن هذا الأمر لّما رجع شيخ منتظري وجمع نصف الانتحاريين الألف الذين وعد بإرسالهم إلى بيروت، وأحضرهم إلى المطار كي يبعثهم إلى العاصمة اللبنانية، من دون تذاكر أو جوازات سفر، غير أنهم مُسلّحون تماماً،

بالبنادق ومدافع البازوكا. من الجليّ، نجمت فوضى عن ذلك. منعهم بزرگان من المغادرة وأرسل فصائل من (الحرس الثوري) كي توقفهم، وصرّحت الحكومة اللبنانية قائلة إنها لن تسمح بهبوط طائرة إيرانية واحدة على أرض بيروت. عقد شيخ منتظري مؤتمراً صحفياً، وهتف قائلاً إنّ رجاله الألف سوف يذهبون إلى لبنان في كلّ الأحوال، يمرون عبر سوريا ويستقرون في وادي (البقاع). أما القذافي فسوف يضطلع بالبقية. كيف ضحك الجميع لمّا سمعوا تلك الكلمات. أنا بدوري ضحكت. لا يوجد شخص واحد في طهران أخذ مقترحاته الغريبالدية [1] على محمل الجَد. ويا للخزي والعار. بعد مضي عامين ونصف، في تموز/ يوليو 1982، وصل الانتحاريون الألف بالفعل، ناهيك عن الليبيين المائتين. كانوا قد مرّوا حقيقةً عبر سوريا، ووطنوا أنفسهم فعلاً في وادي (البقاع)، ويقيناً أنهم لم يُرسلوا إلى هناك من قبل رجل غير طبيعي كان يحتاج إلى طبيب نفساني: أرسلهم شخصٌ ما كان يعرف قراره. غادروا وادي (البقاع) في مواكب انتحارية مضت لذبح القوات الأمريكية والفرنسية التابعة لـ (الأمم المتحدة). وبعد هذه المجزرة، تقريباً كلّ انتفاضة أو هجوم عذّب بيروت الميتة كانوا هم الذين خططوا له، ونفذه الشيعة الذي كانوا يسيرون متباهين تحت صورة خميني، وعادةً تحت صورة موسى الصدر. وحتى أنهم في مرات

---

(1) الغريبالدية Garibaldian: نسبة إلى جيوسيبي غريبالدي Giuseppe Garibaldi (1807 – 1882): جنرال ووطني وجمهوري إيطالي. ساهم في توحيد إيطاليا وخلق (المملكة الإيطالية). يُعدُّ من أعظم الجنرالات في الأزمنة الحديثة وأحد «آباء الأبوة». كما يُسمى «بطل العالمين «بسبب مشاريعه العسكرية في أمريكا الجنوبية وأوروبا – م.

أكثر، كانوا يسـيرون تحت صورة واحدة لموسى الصدر، وعلى الجانبين صورتان لخميني.

غير أنه لم يكن باستطاعتي أن أعرف هذا الأمر، ولا كان باستطاعة أحـد أن يعـرف بـه، حـين حطـت طائـرتي عـلى أرض مطـار طرابلس وجهـزتُ نفـسي لمواجهة العقيد. كان لديّ إحسـاس بأنّ تحليلي قد فقد شيئاً ما. ما هذا الشيء؟

***

«أنا متأسف، لا يوجد حمّالون في ليبيا»، قال الشاب الذي استقبلني في المطار. كان اسمه البكر جمعة، وكان ملتفًّا بنسيج برقان [1] بني سميك مُثير للحزن، قدماه الحافيتان في صندلين باليين. كان أجيراً لدى النظام، عيّنوه كي يكون مرافقاً لي.

«ولماذا لا يوجد حمّالون؟»

«لأنّ الحمالين يؤدون عمل العبيد والثورة قضت عليهم».

«فهمت. هل باستطاعتك أن تجلب لي عربة لنقل الأمتعة؟»

«لا أرى أيّ عربة، لا أعتقد أنه توجد أيّ عربة».

«إذاً هل تستطيع من فضلك أن تساعدني؟»

(1) برقـان: نوع سميك مـن الخملة المصنوعة من الكتان، الصـوف، القطن أو الثلاثة جميعاً. عادةً ما يكون هذا الرداء مخططاً وذا هدّابات، يُستعمل كلباس خارجي في العالم العـربي، لكـلا الجنسـين. أي بمعنى أنه جلبـاب أبيض طويل، ملفوف حول الجسـم، بحيث تظل اليد اليمنى حرّة، ويكون بالمستطاع رفع طرفه ليكون غطاءً للرأس – م.

«لا أستطيع، ظهري يؤذيني».

«وكذلك ظهري، لسوء الحظ».

وفيما أنا أشتم، رفعتُ حقيبة السفر، وسحبتُها تحت العينين اليقظتين للعقيد، الذي كان يبتسم في بذلته النظامية من الصور الفوتوغرافية الكثيرة التي صادفتُها. لم أسأل ما إذا يتعين على العقيد أن يحمل حقيبة السفر العائدة له. ولا سألتُ مَن هو الذي يحمل الحقائب للرجل كبير السن، للمرأة العجوز، والنساء الحوامل اللواتي يصلن، لسوء حظهن، إلى مطار طرابلس. غير أنّ فكرة عمل العبيد أثارت انتباهي، وما أن أصبحنا في السيارة وتوجَّهنا صوب المدينة، حتى حاولتُ أن أكتشف المزيد.

«ما هي المهن الأخرى التي أُلغيت لأنها عمل العبيد؟»

«ماسحو الأحذية»، أجاب جمعة بزهو لم يتمكن من إخفائه. «ماسحو الأحذية قُضي عليهم أيضاً».

«وماذا عن منظفي الشوارع؟ هل قُضي عليهم؟»

«لا، ليس منظفي الشوارع».

«وماذا عن النُدل، الخادمات، العمال اليدويين، الشغيلة [1] بصورة عامة؟»

«لا، لكن يوجد عدد قليل جداً من الليبيين يعملون منظفي شوارع،

(1) الشغيلة: بعضهم يفضلون استعمال كلمة (بروليتاريا) – م.

أو نُـدل، أو خادمات، أو عمالاً يدويين، أو شـغيلة. تقريباً لا أحد. هذا البلد في الحقيقة بلدٌ اشتراكي».

عـلى أيـة حـال، فكـرتُ، أنّ هـذا البلد يجـب أن يكون بلـداً حُلّت فيهـا واحـدة مـن أكـبر المشاكـل التـي تواجه الجنـس البشري: وهي مشكلـة الإذلال أو العمـل المُرهِـق. في (الولايـات المتحـدة) بمعنـى آخر، في المجتمع الذي تمكن من استبدال أشـد أنواع العبودية الجسـدية بالتكنولوجيـا الحمّالـون لا يزالـون موجوديـن. وماسحـو الأحذيـة. والنُـدل، والخادمات، والعمـال اليدويون، والبروليتاريـا بصورة عامة، حتـى إذا لم يكونـوا يعتبرون أنفسـهم هكـذا، وهـم في الأرجح سوف يكسرون أنفك إذا ما قلتَ لهم إنهم يؤدون عمل العبيد. والشيء نفسـه صحيـح في (الاتحاد السـوفييتي) والبلـدان الشيوعيـة الأخرى؛ حيث يتباهـي أبنـاء الشعـب بكونهـم جزءاً مـن البروليتاريـا. المرة الوحيدة التـي ساورني فيها الشك فيما يتصل بهذا الزهو هي حين دشـن الروس (سـپوتتنـك)، وهـي صحيفة يوميـة ساخرة في موسكـو، نشرت رسماً كاريكاتوريًّـا لمنظفـة شـارع تكنس (السـاحة الحمراء) تنظـر مُقطبة إلى القمر. كانت تردد قائلة، «الآن يتعين عليّ أن أنظّف هذه أيضاً». حسناً، ليسـت هذه هي الحال في ليبيا، يلزمني أن أعترف أنّ العقيد فعل شـيئاً صحيحاً.

هنأتُ جمعة. «يا للهول!»

«أنـا مندهش كونـك مندهشة»، أجاب جمعـة. «ألم تقرئي (الكتاب الأخضر)؟ ألا تعرفين أُسس الاشـتراكية الإسلامية؟ لا أحدَ هنا يعاني

من الجوع كما هو الحال في (الغرب)».

لم أكـن قـد قـرأتُ بعدُ (الكتـاب الأخـضر). بعد الصدمـات التي أصابتنـي مـن (الكتـاب الأزرق) [1]، لم أكن أقوى على ذلـك. كنتُ قد وضعتُـه في حقيبة السـفر العائدة لي، عازمة عـلى مطالعته حين أكون في ليبيا. إنما من الأفضل ألا يعرف جمعة بذلك.

«ومَن قال إننا نعاني من الجوع في (الغرب)؟»

«كنتُ في إيطاليا، وتعلّمتُ الإيطالية في الجامعة المخصصة للأجانب في أوربينو [2]. كما أنني زرتُ باريس».

«وشاهدتَ الناس يموتون من الجوع في أوربينو وباريس؟»

«لم يكونـوا يموتـون على وجه الدقـة، لا، إلا أننـي لم أرَ نوع الرخاء الذي نستمتع به هنا في ليبيا لا في أوربينو ولا في باريس. أنظري فقط!» هتف قائلاً، أَفْلَت عجلة القيادة ونشر ذراعيه.

نظرتُ، إلا أنني لم أفهم ما كنتُ أنظر إليه. كان الوقت تقريباً الساعة العـاشرة مسـاءً، وكنا نجتاز شـارعاً مظلـماً، وكانت الأشـياء الوحيدة المرئية هي أشجار النخيل.

---

(1) الكتـاب الأزرق Blue Book: كتـاب يضم وصايا آية الله خميني، غلافه ذو خلفية زرقاء سماوية برّاقة. يرد اسم هذا الكتاب مرّات عدة في كتابنا – م.

(2) أوربينو Urbino: مدينة مسـوّرة يقطنها 15,444 ساكناً في إقليم ماركي، إيطاليا، جنوب غرب پيسـارو. منذ العام 1998، تعدُّ البلدة القديمة من مواقع التراث العالمي لليونسكو – م.

«لا توجد أكواخ في ليبيا»، استطرد قائلاً. «كلّ فرد لديه منزل أو شقة، ولديهم بيوتهم الخاصة. كلّ فرد لديه سيارة وأجهزة تليفزيون اثنان أو ثلاثة وجهاز راديو ترانزيستور. وكلّ فرد لديه حساب في البنك».

«أنتم شعب ثري»، سمحتُ لنفسي أن أقول. كان تلهُّفي لاكتشاف بلاد الوفرة هذه يزداد ويتضاعف. طرابلس بالتأكيد ستكون مدينة مُذهِلة، شوارعها مرصوفة بالذهب وناطحات السحاب فيها ستكون أجمل من أيّ شيء في نيويورك، ومكتظة بأناس قانعين، كونهم تحرروا من رباط العبودية، هم الآن قادرون على أن يكرّسوا أنفسهم للفن، للعلم، وللمساعي الفكرية. لم أندهش من أنّ العقيد كان يُريد أن يجلب ثورته إلى جهات العالم الأربع وأن يضايق الجميع بانقلاباته، بهجماته الإرهابية، باختطافاته، وعملياته الإجرامية التي تتسبب بمقتل الناس. لم يكن إمبرياليًّا، إنه رجلٌ شهم ليس إلا!

«الثروة لا شأنَ لها بذلك. إن الشيء الذي يؤخذ بالحسبان هو توزيع الثروة»، اعترض جمعة، مجادلاً. «عليكِ أن تفهمي أنّ كلّ شيء هنا مجاني: الطعام عمليًّا مجاني بما أنه يكلّف مبلغاً زهيداً للغاية. المدارس مجانية، وكذا الجامعات، والمستشفيات المساواة مطلقة. في مستشفياتنا، على سبيل المثال، ما من أحد يُعالَج بوصفه مواطناً من الدرجة الثانية أو الثالثة. كلّ إنسان يمرض له غرفة خاصة في المستشفى، وإذا ما احتاج إلى رؤية طبيب اختصاصي في الخارج، الدولة تدفع نفقات حجرة مُترَفة في عيادة طبية مُترَفة. الدولة تهتم بالمواطن هنا: ألم تعرفي ذلك

من (الكتاب الأخضر)؟ حتى أنّ الدولة تدفع لكلّ مواطن راتباً مدى الحياة، بقطع النظر عن المهنة التي يزاولها. في البلدان الرأسمالية الحال ليست هكذا. ولا حتى في البلدان الشيوعية!»

«حسناً، لا»، اعترفت. مسألة المهن المُلغاة بدأت تُقلقني من جديد. إذا كان الجميع يعيشون براحة ورخاء، مُصانين من المهد إلى اللحد، مَن الذي يقوم بالعمل المُهين والمُضني؟ مَن الذي يكنس الشوارع، أو يخدم في المطاعم، مَن الذي ينظف المباني والمنازل، يفرّغ الحمولة من أحواض السُفن، يدفن الجثث. أعني فعلاً، مَن الذي يضخ كلّ هذا البترول؟ ربما، بفضل نفطهم وثروتهم، اخترعوا بشراً آليين مُذهلين، من ذلك النوع الذي تصفه روايات الخيال العلمي، من نوع الكائنات القوية والذكية التي لها مواصفات البشر التي تلبي كلّ حاجة من حاجات الإنسان. ربما لا يتعين عليهم سوى أن يضغطوا زراً كي يروا أن أسرّتهم قد رُتبت من جديد ومحاصيلهم قد جُنيت.

«أنا متلهِّفة جداً لرؤية المدينة»، ختمتُ حديثي.

«لقد وصلنا تقريباً»، أجاب جمعة، وفي الحال أصبحنا في مركز المدينة. وكي أُعبّر باعتدال، كانت مدينة صغيرة بائسة ما كانت لتبدو في غير محلّها في أفقر مناطق جنوب إيطاليا؛ هنا وهناك توجد مجمعات قبيحة من الشقق، رماها إلى الأعلى محتالون من دون ضمير أو ذائقة، بنايات قديمة من زمن أمبرتو الأول[1]، ڤيلات كولونيالية قديمة تركها

(1) أمبرتو الأول Umberto 1 (1844–1900): ملك إيطاليا للمدة من العام 1878 حتى اغتياله في العام 1900. كانت لديه طموحات توسُّعية في (القرن الإفريقي)،

الإيطاليـون وراءهـم، ومن ثم أكـواخ صغيرة مغطـاة بالكلس، كتلك الأكواخ في (قُم). قلّما كانت هناك أيّ مصابيح كهربائية، حتى عدد أقل من السيارات، ولا توجد ناطحات سحاب مُذهِلة، لا توجد شـوارع مرصوفة بالذهب. في حقيقة الأمر، كلّما توغلنا أكثر في مركز المدينة، لا يوجد تعبيد في الطرقات على الإطلاق، والأرض التي تدوسها الأقدام مليئة بأعمق الحفر التي لم يسبق لي أن شاهدتُها في طريق ريفي.

«هنـا يقع [قصر ليبيا]»، أردف جمعة قائلاً، بالكاد تحاشـى حفرة في سطـح الطريق وتوقف أمـام فندق بشع على البحـر. رفعنا حقيبتي من السيارة وفي الحـال تناولهـا خادم خنوع من يـديّ. إلا أنـه لم يكن كائناً بلاستيكيًّـا لـه مواصفـات البشر، بـل كائناً بشريًّا بسـترة باليـة جعلني أرغب بالبكاء بمجرد النظر إليه.

«هل أنتَ ليبي؟» سألتُه بارتياب.

«مصري»، أجاب.

دخلنا بهو الفندق، حيث كان هنالك كائن مسـكين آخر يلمِّع آجر الأرضية.

«هل أنتَ ليبي؟» سألتُه، بحيرة.

«باكستاني»، أجاب.

صعـدتُ إلى الغرفـة التي حجزها لي جمعة. كانت شـقة واسعة، من

واحتـل بنجاح الصومال وإريتريـا، وأبرم في العام 1882 حلفاً ثلاثيًّا مع الإمبراطورية الألمانية والنمسا – هنغاريا – م.

الجلي أنه أراد أن يترك فيَّ انطباعاً جيداً. وفي الحال، أتت خادمة يلوح على محياها تعبيرٌ حزين كي تقدّم لي خدماتها.

«هل أنتِ ليبية؟» سألتُها، بقليلٍ من الأمل هذه المرة.

«تونسية»، ردّت.

أما النادل الذي جلب لي القهوة فهو من تركيا.

كما سأكتشف في الأيام القليلة التالية، كان صحيحاً بكلّ معنى الكلمة أنّ الليبيين لا يقللون من شأنهم من خلال العمل كحمالين، كمنظفي شوارع، خادمات، نُدل، عمال يدويين، أو كادحين عموماً. كانوا كلّهم بيروقراطيين أو عسكريين أو رجال أعمال أو طلبة أو عاطلين عن العمل. أما العمل المُهين أو المُضني، الذين يجدونه مبتذلاً وغير ملائم، فكان يؤديه على الدوام المصريون أو الباكستانيون أو التونسيون أو الجزائريون أو الأتراك أو السودانيون أو الأفارقة الآخرون، بالإضافة إلى بعض الأشخاص من أوروبا (الشرقية) أو (الغربية). لا يؤديها الليبي، البتة. في مواقع البناء، على أحواض السفن، وفي آبار النفط، معظم العمال تقريباً أجانب. ما يناهز 700 ألف أجنبيّ يخدمون السكان الذين يبلغ عددهم مليونين ونصف المليون نسمة.

كان هؤلاء جميعاً يتسلّمون أجوراً مُجزية، وكانوا منفيين إلى حافات المجتمع ومحكوماً عليهم بحياة لا تحتوي على وسائل راحة، لا حقوق، لا مرح، لا سعادة غامرة، ومن بينها السعادة الغامرة الناجمة عن شرب البيرة أو النوم مع النساء. كانوا حَملان مأخوذة إلى المَذبح، ولا شيء

عدا هذا. هـذا هو الاكتشاف الذي صنعه (الثوري العظيم). على غرار إيـڤيتـا پيـرون [1]، أو رئيس أسرة من المافيا ينوي حماية «أسرته»، أفسـد شـعبه بالشقـق، المنـازل المجانيـة، العيادات الطبيـة المُتَرَفة، السيارات الفخمـة، أجهـزة التليفزيـون الملـوّن، وأجهـزة الراديو الترانزيسـتور. جرّدهم من تباهيهم بعملهم بأن زوّدهم بالخدم الذين لم يكن مسموحاً لهـم بأن يسـكروا أو يطبعوا قبلـة على خد أو ثغر فتـاة. كانت الثورة قد فُسّرت ثانيةً باعتبارها إحساناً، باعتبارها استبدال العبيد بعبيد آخرين.

«كيـف هي الأشـياء كلّهـا؟» سألني جمعـة، وهو يتبعنـي إلى داخل الشقـة. كـان توّاقـاً لأن يتأكـد من أنّ الأشـياء تسـير وفقاً لمـا خطط له العقيد، وتوّاقاً للانخراط في مزيد من المديح قبل الحوار في الغد.

«رائع، جزيل الشكر».

«هل كانت الخادمة شديدة التدقيق في التفاصيل؟»

«شديدة التدقيق في التفاصيل بكلّ معنى الكلمة، شكراً لك».

«هل أحضروا لكِ القهوة».

«أحضروها لي، شكراً لك».

---

(1) إيـڤيتـا أو إيــڤا پيـرون Evita Peron (1919 - 1952): ممثلة وسياسية أرجنتينية. تزوجت من «خوان دومينجو پيرون» العام 1945، وبعد ذلك تولت رئاسة الأرجنتين في العـام التالي. كانت إيـڤا السـيدة الأولى ورئيسـة الحزب البيروني النسـائي ورئيسـة مؤسسـة إيفـا بـيرون والزعيمـة الروحية للأمـة. كانت تنتمـي إلى أصـول متواضعة. هاجرت إلى بوينس آيريس في الخامسة عشرة من عمرها حيث كرَّست حياتها للعمل؛ محققةً شهرة في الإذاعة والمسرح والسينما - م.

«في الثلاجـة الكهربائية تجدين بعض عصير البرتقال، عصير فاكهة أخـرى، بعض قناني البيبسي، زيادة على زجاجات ميـاه معدنية فوّارة. خذي ما تشائين».

«جزيل شكري».

«لا يوجد كحول، على كلّ حال. الكحول، ممنوع في ليبيا».

«أعرف ذلك، جزيل الشكر».

«يوجد، على أية حال، جهاز تليفزيون»، قال، وهو يُشير إلى الجهاز، الذي طقطق مشتغلاً كي يُظهِر الصورة الملونة للعقيد، ببيريته وجاكيتته، التـي كانت تتـأوّه من ثقل الأوسمـة، أنواط الـشرف، والأشرطة: إنها الصـورة ذاتها التي شـاهدتُها لّما كنـتُ أسحب حقيبة السـفر العائدة لي عـبر أرض المطـار. وفي الحال اختفى العقيد، على كـلّ حال، وحلّ محلّه حشد من البشر المسـعورين الذين يرفعون قبضاتهم ويهتفون «القذافي! القذافي! القذافي!»

«ما هذا، جمعة؟ هل هو تجمهر؟»

«لا، إنـه تقديـر بسـيط، يتـم عرضـه في الفواصـل بـين البرامـج التلفزيونية».

«لماذا؟»

«لأن الشعب يرغب بذلك! لأنه يسـتحق هـذا التقدير والإجلال! إنـه فعـلاً رجلٌ عظيم، هل تفهمـين؟ وهو لطيف جداً، ذكـي جداً. إنه

مفكر. سترين غداً، إن لم تفهمي ذلك أصلاً من (الكتاب الأخضر)».

«متى يُمكنني رؤيته؟»

«الوقت لا يزال يحتاج إلى ترتيب، إلا أنه سيكون حتماً في المساء. ومن الجائز ليلاً».

«ليلاً؟»

«نعم، إنه عادة يستقبل زائريه ليلاً. لديه التزامات كثيرة جداً أثناء النهار، لا يُمكنه أن يدّخر وقتاً لأشياء لا تُعدّ قضايا الدولة. بخاصة الآن تحديداً، مع كلّ ما يحصل في إيران. إنه يُجري دوماً اتصالات هاتفية مع طهران».

«كنتُ أعتقد أنه لا توجد علاقات دبلوماسية بين ليبيا وإيران».

«تجددت توًا. إنه يقدّر الثورة الإيرانية تقديراً كبيراً. إنه يكنُّ قدراً كبيراً من الاحترام لخميني».

على شاشة التليفزيون، ذاب حشد الناس المسعورين في صورة أخرى للعقيد، هذه المرة وهو يمتطي حصاناً ويرتدي برنساً أبيض بتطريز ذهبي، كالفارس الوسيم في الأسطورة البدوية الذي يمتطي حصانه كي يكافئ الأخيار ويُعاقب الأشرار. وعقب ذلك تلاشت الصورة، ومرةً أخرى حلّ محلّها الحشد المسعور الذين يرفعون قبضاتهم وينشدون «القذافي! القذافي! القذافي!»

«لن ألبس العباءة، هل يتعين عليّ أن ألبسها؟»

«أوه، لا! النساء لا يلبسن العباءات هنا، كما يُحتمل أن لاحظتِ. النسوة هنا غير مطلوب منهن أن يغطين رؤوسهن. إنهن يستمتعن بهذه المساواة مع الرجال بحيث أنهن حتى يؤدين الخدمة العسكرية».

«حقاً؟»

«بالطبع. من سن الرابعة عشرة حتى الثامنة عشرة، شأنهن شأن الرجال. التجنيد الإلزامي يدوم خمسة أعوام لكلا الجنسين. ولمّا يكملن خدمتهنَّ، باستطاعتهنَّ أن يستأنفنَ مسيرتهنَّ العسكرية مثلهنَّ مثل الرجال: كلّ ما هو مطلوب منهنَّ هو ألا يتزوجن قبل سن الخامسة والعشرين». رفع إصبعه، بمزاح، كي يوبخني. «أخشى أنكِ غداً لن تكوني قادرة على رمي عباءتك في وجه أيّ شخص».

«معذرة؟»

«الجميع يعرفون أنكِ كنتِ لئيمة مع خميني؛ أنكِ رميتِ عباءتكِ في وجهه».

«مَن أخبرك بهذا الكلام الفارغ؟»

«قرأتُ ذلك في الصحف. وكذا القذافي».

«إذا كان قد قرأ شيئاً كهذا، أشك أني سأكون هنا».

«على العكس. هذا جزء من سبب وجودكِ هنا. القذافي يعبد التحدّي، أيَّ تحدٍّ. وهو واثق من أنكِ ستحبينه أكثر مما أحببتِ خميني. الجميع يُحبونه، رجالاً ونساءً، إنما النساء على وجه الخصوص. كثيرٌ من

النساء ممَن حاورنه انتهى بهن الحال أن وقعن في غرامه...»

«لا تقل لي هذا!»

«إني أقول لكِ! وأنا متيقِّن من أنكِ ستقعين في غرامه أنتِ أيضاً. إنما يتعين عليّ أن أحذركِ أنه ينبغي لكِ أن تقرئي (الكتاب الأخضر) من جديد. لن يكون لديكِ حوار جيد إن لم تعرفي هذا الكتاب بنحو حسن».

وعقب ذلك، قال لي ليلة هانئة، تاركاً إياي أمام الشاشة حيث الجمهور الزاعق الذي غاب عن الأنظار، هذه المرة حلّ محلّهم شريط ڤيديوي للكولونيل في لباس رياضي: بذلة قفز زرقاء اللون وحذاء رياضي أبيض. وهو يرتدي هذا الزي، كان يلعب كرة القدم ضد فريق كامل، ممَن كانوا غير قادرين على تسجيل هدف وكانوا يتسللون، يهجمون، ويدافعون مخذولين. في كلّ مرة يمس فيها الكرة، كان يسجل هدفاً. وكان الصراخ تتضاعف قوته، القذافي، القذاقي، القذافي.

أطفأت التلفزيون. رأيتُ وسمعتُ ما يكفي اليوم، بخاصة تلقيت آخر الأخبار التي مفادها أنّ العلاقات مع إيران قد عادت إلى سابق عهدها بعد أخذ الرهائن الأمريكيين. أحتاج إلى أن أنعم بالراحة الآن، أن أنام نوماً ليليًّا هانئاً كي يكون شكلي جيداً في الغد، كي أُظهِر لجمعة أنّ الوقوع في غرام سيّده هو شيء غير ممكن. إلا أنّ حقيقة أني لم أقرأ (الكتاب الأخضر) أقلقتني كثيراً جداً، بحيث لم يُغمض لي جفن. بغتة، بدأت تساورني الظنون والشكوك التي جعلتني أعتقد أنّ السر الذي

كنتُ أفتش عنه يُمكن العثور عليه في صفحات ذلك الكتاب. رحلة القائد ذي الشخصية الساحرة لا تنتهي بانتصاره كطاغية. هذه الرحلة تتوسَّع وتستقر حين يقدّم نفسه بوصفه مفكراً كبيراً، كاشفاً عن صيغته للسعادة بالتفصيل، الأيديولوجية التي أفضت به إلى أن يظفر بالثورة ويحقق «النعيم «على «الأرض». هذه الصيغة، هذه الأيديولوجية، وُصفتا في الأعم الأغلب في (كتاب أزرق) أو (كتاب أحمر) أو (كتاب أخضر)، أو كتاب أصفر أو أرجواني، الأغلفة اللامعة تُخبئ سرَّ عقله.

سيكون تجاهل الكتاب أشبه بمحاولة لعب كرة القدم من دون كرة. كنتُ أحتاج إلى إخراجه من حقيبة السفر العائدة لي. أحتاج إلى أن أنقب هنا وهناك في داخل الكتاب وأن أكتشف ما لم أكن قادرة على اكتشافه حتى الآن. مهما يكن من أمر، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً: بدلاً من كتاب حقيقي، كان أكثر قليلاً من كراسين صغيرين، بنفس قياسات علبة سجائر. كان النص الهزيل مخففاً بأعمدة منتظمة قلّصت محتوى كلّ صفحة إلى نحو ثمانين كلمة. الكراس الأول لا يتجاوز ثلاثين صفحة مطبوعة، أما الكراس الثاني فلا يتجاوز عشرين. العنوان وحده هو الذي كان مُرعباً: «الأساس السياسي للنظرية الكونية الثالثة والأساس الاشتراكي للنظرية الكونية الثالثة». ومن ثم كان هنالك اللون الأخضر للغلاف: لون الإسلام وهي درجة لون كان شغوفاً بها بكلّ معنى الكلمة، هكذا أخبروني.

استجمعتُ شجاعتي: باشرتُ بقراءة «الأساس السياسي للنظرية الكونية الثالثة». حسناً، من المؤكد أن هذا الكراس لم يكن على غرار

«الكتاب الأزرق «الـذي دوّنه خميني. إنه لا يتحدّث عن جميع تفاصيل غوايـة الخراف، أو اغتصاب الأطفال، أو أيّ أنـواع الطعام التي يكون تقيؤهـا مقبولاً، وحتـى لم يكن يلامـس التعليمات المتصلـة بالعلاقات الشرجيـة بـين الأقـارب الذكـور. الديمقراطيـة، يقول الكـرّاس، هي دكتاتورية. ويرجع هذا إلى أن الكفاح السـياسي في الدول الديمقراطية مبتوت فيه بانتصار مرشحٍ أو حزبٍ يحصل على أغلبية الأصوات: هذا يعنـي أنّ الأقلية تحكمها الأغلبيـة، أو بالأحرى، الأغلبية تُسيء معاملة الأقليـة. النظام البرلماني هو خداع وغش. إنه شيءٌ مناسب للسـلاطين وزعـماء القبائل، حين تكون ثمة حاجة لأن يكون للشعب مُمثلون عنه. في عـصر الجماهـير والجمهوريـات، إنه لمـن المُخزي أن يكـون للشعب مُمثلون عنه من خلال البرلمان، لأنّ البرلمان يتكوّن من سياسيين، وليس مـن أفـراد الشعـب. الشعب يحتـاج إلى أن يُطيـح بالبرلمانـات بواسطة الثـورات. الانتخابات سخيفـة ومُضحكة، حالها حـال الاستفتاءات. إنها فقط تسـمح للشعب أن يختار هذا السياسي أو سواه، أو أن يصوّت بـ«نعم «أو «لا»، ولا شيءَ أكثر من ذلك. أما الآن، بفضل الله وبحكمته اللا محدودة، لدينا «الكتاب الأخضر»، الذي يُخبر سائر شعوب الأرض بحل كلّ مشكلة من المشكلات: ديمقراطية مباشرة، من دون برلمانات، مـن دون سياسيين، من دون إجراءات انتخابيـة، من دون استفتاءات، السـلطة للشعب، الذي لا يحتاج لأن يُمَثل من لدن أيّ شـخص. ومن أجـل تصوير هذه المعجزة التي لم يكن يتخيّلهـا أحد، عبر تاريخ الفكر السـياسي، ولا حتى من لدن أولئك الأشـخاص السـفهاء الذين سمّوا

أنفسهم فلاسفة، من أرسطوطاليس إلى كانط إلى ماركس إلى كروتشه [1] يستعمل الكولونيل رسماً صغيراً على شكل هَرَم. في قاعدة الهَرَم يوجد شريط أخضر يحمل رقعة تعريفية [ليبل] «الشعب». وفوق الشريط الأخضر هنالك خمسة مستطيلات، تحمل ليبل «الكونغرس الشعبي الرئيس». وفوق المستطيلات الخمسة، هنالك أربعة عشر خطاً تنتهي في خمس دوائر صغيرة، خمسة مربعات صغيرة، وخمسة أسهم متجهة إلى قمة الهَرَم، حيث يوجد شريط أخضر آخر يحمل ليبل «كونغرس الشعب العام». هذا الكونغرس عبّر عن الانتصار على الشيوعية والرأسمالية بالاشتراكية الإسلامية، التي تضمن لكلّ فرد منزلاً، سيارة، ثلاثة أجهزة تلفاز وما إلى ذلك، وقد بدأت للتو طريقاً مجيداً من شأنه أن يؤدي إلى إلغاء التدابير القانونية والإدارية، مبدأ الربح، واستعمال النقود. بما أنه، فيما يتعلّق بهذه المسألة، سيكون الإنسان في النهاية حرًّا في تكريس كلّ وقته لله، إنه شيء غير ضروري تقريباً أن تضيف قائلاً إن «النظرية الكونية الثالثة «سوف تنتشر في جميع أرجاء العالم، بما أنّ البشر سواسية في الأمكنة كلّها.

كلّ الأشياء التي كنتُ أفتش عنها من الجلي أنها ليست متوافرة هنا.

---

(1) بينديتو كروتشه Benedetto Croce (1866 – 1952): فيلسوف مثالي ومؤرخ وسياسي إيطالي، تناول موضوعات عديدة في كتاباته، من بينها الفلسفة والتاريخ وعلم التأريخ والجماليات. تشير معظم وجهات النظر إلى أن كروتشه كان ليبراليًّا، رغم معارضته للتجارة الحرة وفق مبدأ عدم التدخل وما كان له من تأثير معتبر على مثقفين إيطاليين آخرين من بينهم الماركسي أنطونيو غرامشي والفاشي جيوفاني جنتيلي. شغل كروتشه منصب رئيس «نادي القلم الدولي»، رابطة الكتّاب العالمية، منذ العام 1949 حتى العام 1952. ورُشح لجائزة نوبل للآداب 16 مرة – م.

الكتاب الأول أظهر لي فقط أنّ العقيد هو رجل أبله، وكنتُ أعرف هذا أصلاً. ربما سأجد سر عقله في الكتاب الثاني؟ التقطتُ «الأساس الاشتراكي للنظرية الكونية الثالثة «الذي كان قد عالج بشكل تام تقريباً مسألة النساء، وبالإمكان جمعه تقريباً في فصل يبدأ بشيء من هذا القبيل: «إنها حقيقةُ لا جدال فيها أنّ الرجال والنساء هم بشر. النساء يأكلن حالهنَّ حال الرجال، يحببن ويكرهن كالرجال. وحتى بوسعهن أن يفكرن كالرجال، وفي الختام النساء يعشن ويمُتن كالرجال. وعلى غرار الرجال، بناءً على ذلك، النساء بحاجة إلى السكن والملابس ووسائط النقل. إذاً، لماذا يوجد الرجال والنساء؟ لماذا لم يخلق الله عالماً مأهولاً بشكل حصري بالرجال أو بشكل حصري بالنساء؟ لا بدَّ أن يكون هنالك سبب. السبب موجود في الاختلاف بين الرجال والنساء: الحقيقة القائلة إن الرجال هم الجنس الذكر والنساء هنّ الجنس المؤنث!»

بنحو جاد: بدأ الفصل بهذه الكلمات. ويستمر في القول: «ووفقاً لاختصاصيي الأمراض النسائية، النساء يحضن ويضعفن بسبب طمثهن كلّ شهر. في بعض الأحيان لا يحضن: إن لم يحضن، فهن حوامل. وإذا كنّ حوامل، يكنّ ضعيفات بسبب الحمل طوال ما يقرب من العام. الرجال، على أية حال، لا يحيضون. الرجال لا يخضعون لأيّ ضعف ولا يتعين عليهم أن يرضعوا الأطفال من صدورهم. ومن هذا باستطاعتنا أن نستنتج أنّ الرجال والنساء ليسوا متساوين، لا يُمكنهم أن يكونوا متساوين، وأدوارهم في الحياة يجب أن تكون مختلفة. إن دور المرأة هو أن تنجب الأطفال. وإذا لم تنجب النساء الأطفال، فإن الجنس

البشري لن يكون له وجود. إذا كانت المرأة لا ترغب بإنجاب الأطفال، لا خيارَ أمامها سوى أن تقتل نفسها. لكن النساء لديهن دور آخر: رضاعة الأطفال من صدورهن وتربيتهم، كما تربي الدجاجة كتاكيتها. إذا رفضت المرأة رضاعة أطفالها وتربيتهم، ما من خيار أمامها سوى أن تقتل نفسها».

لا، حقاً. هذا ما ذكَره الكتاب. وزيادةً على ذلك: «اليوم توجد مؤامرة وهي محاولة إرضاع الأطفال صناعيًّا ووضعهم في ما قبل المدرسة [1]. إن فصل الأطفال عن أمهاتهم ووضعهم في رياض أطفال جريمةٌ، لأنه يحوّل الأطفال إلى نتاج يشبه الدجاج الذي يتربّى في الحقول. وحتى الدجاج، شأنه شأن سائر أعضاء المملكة الحيوانية، يحتاج إلى أمهاته. إن تربية الدجاج في الحقول بناءً على ذلك جريمةٌ ضد الطبيعة. إن لحم الدجاج الذي تربى في حقول الدجاج لم يعد لحماً طبيعيًّا: إنه يُصبح نوعاً من لحم صناعي لن تعود له أيّ نكهة ومُغذّياً أقل بكثير من لحم الدجاج الذي يعيش خارجاً في العراء، تحت حماية أمهاتها. إن لحم الطيور البرية، على سبيل المثال، ألذُّ ومُغذٍّ أكثر بكثير من لحم الدجاج الذي تربّى في حقول الدجاج لأن الطيور البرية تنمو حرّة، جنباً إلى جنب مع أمهاتها».

على الرغم من علاقة العقيد مع عيدي أمين وبوكاسا، لم أكن متيقنة تماماً ما إذا قصد أنّ الأطفال من المفترض أن تربيهم وترعاهم أمهاتهم كي يكون لحمهم لذيذاً ومُغذياً أكثر؛ إذا ما افترضنا، بمعنى آخر، أنّ

(1) ما قبل المدرسة pre – school: المقصود هنا رياض الأطفال ودور الحضانة – م.

يؤكـل الأطفال حالهـم حال الدجاج والطيور الأخـرى. حتى أنه شيء أقـل وضوحـاً لمـاذا كانت النسـاء الليبيـات مُجبرات عـلى أداء الخدمة العسـكرية على مـدى بضعة أعـوام، إذا كان غرضهـن في الحياة هو إما إنجاب الأطفال أو قتل أنفسهن. على كلّ حال، إن ما كنتُ أفتش عنه لم يكن موجوداً هنا، في هذا الكُتيب، أيضاً. أثبت الكتاب الثاني أنّ العقيد مخبـول. كـان السر المتعلّق بعقله مُختفياً في مكـانٍ آخر، عرفت ذلك توًّا. إذا ما أردتُ أن أكتشفه، ليس أمامي أيّ سبيل آخر باستثناء الحوار.

***

لمّـا وصـل جمعة في اليـوم التالي أخـبرني أني محظوظة: اللقـاء الكبير سـوف يحصل في السـاعة السـادسة مسـاءً. كانت قدماه أشـبه بكتلتين مـن الطين وكـان سرواله مكسـوًّا بالقذارة حتـى الركبتين. كـان المطر قـد هطـل الليلـة الفائتة، وبـما أنّ العقيد لم يكـن قادراً على بنـاء قنوات الصرف الصحي في السـنوات العشر المنصرمـة، الطريق خارج الفندق ببسـاطة لم يعد موجوداً. وبدلاً منه كـان هنالك تيار من الوحل سحب القـذارة وكـلّ ضروب النفايـات الأخـرى معهـا: النفايـات البشرية، الصنـادل التالفة، الحفاظات المنقوعة بالـدم، أوراق الكرنب الفاسدة، حتى بعض المواد غير المثيرة للاشـمئزاز من مثل الكراسي والدراجات الهوائيـة. وكي يجتـاز المرء الطريق ويدخل إلى (قـصر ليبيا)، يتعين عليه أن يجد البقعة التـي تجمعت فيها البلوى المتسرّبة في نوع من بِركة، وكلّ مَـن يحاول أن يشق طريقه عبرها ينتهي به الحال أشـبه بالمسـكين جمعة. أرسلته كي يستحم ومن ثم أرهفتُ السمع لنصيحته.

ينبغـي لي أن ألـحَّ على المترجـم، أي مترجم: مـع أنّ القذافي يعرف كلّ اللغات الغربية، بخاصة الإنكليزية، وطنيته تمنعه من التحدّث بأيّ لغـة باستثناء العربيـة. عليّ ألا أُضيّع أيّ وقـت في أن أتوجَّه إليه بأسئلة شـخصية، وهي أسئلة دون مسـتواه. كنتُ أعرف حق المعرفة أنه طلّق زوجتـه الأولى، والـدة ابنه الأول، وتـزوّج ثانية من ممرضـة أنجبت له خمسـة أولاد آخرين. ينبغي لي ألّا أنسـى أني إيطاليـة. ربما من الصحيح القول إنّ ليبيا لها علاقات تجارية وصناعية مع إيطاليا، وأنّ العقيد حتى يمتلك جزءاً من شركة (فيات) للسيارات، إلا أنه صحيح أيضاً أنّ لديه حسـاباً لا بدَّ من تسـويته مع إيطاليـا. كنا لا نُجـارى في الماضي. غزونا ليبيا، وقتلنا، وذبحنـا ومارسنا الاستغلال بآلاف الطرائق المختلفة. إذا لم تكن هنالك قنوات للصرف الصحي في شوارع ليبيا، فالسبب يرجع إلى أن إيطاليـا لم تُشيّـد أيًّا منها. أجل، إنها غلطتهـم بحيث أن كلَّ شيء كان رطباً ووسخاً.

غـادر جمعـة وقـال لي إنـه سـوف يـؤوب في السـاعة الخامسـة كي يصطحبنـي للحوار، وإن شـاء الله، يكون جدول الماء الفظيع قد جف. من بين قطع النصائح الثلاث هذه، النصيحة الأكثر تشويقاً هي بلا ريب تلك التي تلومني بسـبب نقص المجاري. لو أنّ العقيد هو الذي أوحى بذلك، فعليّ أن أستنتج أنّ العقيد أقل بلاهة مما ظننتُ. ليس من السهل بالنسبة لإيطالي، أو إيطالية، أن يزور بلداناً من مثل ليبيا وإثيوبيا بضمير بريء وطاهر، لأنه ليس من السـهل نسـيان ما فعله الإيطاليون في ليبيا وإثيوبيا. و، بينما نستطيع أن نُطمئن أنفسنا في إثيوبيا بأن نضع اللوم كلّه

على موسوليني، لا نملك ترفاً كهذا في ليبيا. بينيتو لم يكن هو أول من وطئت قدماه هذا المكان. بالأحرى، إنه الشعب الديمقراطي الصالح لحكومة جيوليتي [1]: رجال الثقافة، العلماء، المُبشِّرون، والليبراليُّون الذين اعتبروا أنفسهم تقدميين ومُتنوّرين. رجال كانوا بخلاف ذلك قد تكلّموا كلاماً فارغاً عن «الساحل الرابع» و «المصير التاريخي» و «الفضاء الحيوي». في حين أنّ پاسكولي [2] رتب ثرثرة عن «الكادحين العظماء الذين استفاقوا كي يكتشفوا عظمتهم، «واليسار صفق باستحسان، إذ أرسلوا أيضاً 35 ألف جنديٍّ إلى طرابلس وبنغازي. وعقب ذلك انقض المستعمِرون كما تنقض الصقور على السكان الفقراء، وراحوا ينهبون أرضهم الخصبة، ماشيتهم وماءهم، ومنعوهم

(1) جيوڤاني جيوليتي Giovanni Giolitti (1842 – 1926): سياسي إيطالي، تولى رئاسة الوزارة في إيطاليا خمس مرات، بين سنتي 1892 و1921، ولم يتولَّ أحد في إيطاليا رئاسة الحكومة خمس مرات على غراره، وثاني زعيم من حيث طول مدة خدمته بعد موسوليني. في خريف العام 1911 (في أثناء وزارته الرابعة) أعلن الحرب على الإمبراطورية العثمانية، وذلك بهدف غزو إيالة طرابلس الغرب. دعم بينيتو موسوليني بعد وصوله إلى السلطة العام 1922 اعتقاداً منه بأنه سيكون معتدلاً في سياساته، لكنه تراجع عن هذا الدعم العام 1924. يُعد واحداً من أقوى وأهم السياسيين في تاريخ إيطاليا، وبسبب موقعه المهيمن في السياسة الإيطالية، يُتهم بكونه قائداً مُستبداً ودكتاتوراً برلمانيًّا – م.

(2) جيوڤاني پاسكولي Giovanni Pascoli (1855 – 1912): شاعر إيطالي، كان أستاذاً للأدب بجامعة بولونيا (1905). نظم أشعاراً من نوع اللوحات الرعوية. ولذلك سُمي (ابن فيرجيل)، لتصويره الحياة الإيطالية، كما صوّرها الشاعر القديم، وتقريبها من حياة الفلاحين والرعاة في أيام أستاذه العظيم. شعره مليء بالتفاصيل البديعة والتأثيرات الرعوية. نشر شعره الإيطالي في سبعة أجزاء، وله مقالات وأشعار باللاتينية – م.

مـن التحـرّك للأمـام. كـان موسوليني قـد أكمـل ووسَّـع إستراتيجية السرقـة، وأضـاف قاعدة أخـرى تعمل على طول الخـط، لا نزال نشعر بالخجل منها بعد مضي أجيال عدّة. هذا التاريخ يمُيط اللثام عن الكذبة القائلـة إن الإيطاليين هم شـعب طيب، لطيف وتـوّاق لإدخال البهجة إلى قلـوب الآخريـن. نحـن بحاجـة فقـط لأن نتذكـر أن معسـكرات الاعتقـال قد اخترعها الجنرال بادوجليو [1]، الذي نفى 80 ألف ليبيٍّ إلى برقـة [2]. ثلاثـة أرباعهم ماتوا من العطش والمـرض. نحن بحاجة فقط لأن نتذكر قسوة الجنرال غرازياني [3] وقواته، جميع القرى التي أحرقوها

(1) الجنـرال بيـترو بادوجليـو General Pietro Badoglio (1871 – 1965): جنرال ورجـل دولـة في أثناء دكتاتوريـة بينيتو موسولينـي، في أيلول/ سبتمـبر 1943 انتشل إيطاليـا مـن الحـرب العالمية الثانية من خـلال ترتيب صلح مع (الحلفـاء). كان رئيس هيـأة الأركان العامـة الإيطالية للمدة من 1919 – 1921. عمـل سفيراً مدة وجيزة في البرازيـل قبل أن يسـميه موسوليني مرة ثانية رئيسـاً للأركـان في العام 1925. خدم في ليبيـا بـين سنتـيْ 1928 و 1934، وتولّى قيـادة القوات الإيطالية في إثيوبيـا العام 1935 وسيطـر عـلى أديس أبابا، وبقي هناك مدة وجيزة في العام 1936 بوصفه نائب الملك في إثيوبيا. وفيما بعد حصل على لقب «دوق «أديس أبابا – م.

(2) برقـة Cyrenaica: اسـم أُطلِق عـلى إقليم تاريخي في شرق ليبيا. تأسـست برقة في منتصف القرن السـادس ق. م. تاريخيًا كانت تسـكن هذا الإقليم قبائل ليبيا القديمة، وشهدت برقة جميع المراحل التاريخية التي عرفها شمال إفريقيا – م.

(3) رودولفـو غرازيـاني Rodolfo Graziani (1882 – 1955): ضابط إيطالي بارز في (مملكـة إيطاليا)، معروف في حملاته في أثناء الحـرب العالمية الثانية، وهو فاشيٌّ مُخلص. لعـب دوراً مهـمًا في تعزيز وتوسُّـع الإمبراطورية الإيطالية في عشرينيـات وثلاثينيات القـرن العشرين، أولاً في ليبيـا ومن ثم في إثيوبيا. ساءت سمعتـه على خلفية إجراءاته القمعية القاسية، من مثل استعمال معسـكرات الاعتقال، التي تسببت بموت كثير من المدنيين والإجراءات المسرفة المتخذة ضد المقاومة الوطنية من مثل إعدام عمر المختار.

وسكانها لا يزالون في داخلها، الأشخاص الذين شنقوهم، الإعدامات الجماعيـة التي نفذوها. كانت عمليات إطلاق النار ينفذها طيّارو إيتالو بالبـو [1]، الذيـن كتبوا عـن منجزاتهم قائلين: «لا أحدَ منـا كان يُريد أن يهبط بطائرته بعد إطلاق النار، كنا نستمتع ونلهو كثيراً جداً بهذه اللعبة الجديدة والأخاذة». و: «بعد ذلك، كانت الذئاب مغتبطة بنحو خاص، لأنها وجدت شـيئاً ما تُشبع بـه جوعها». وأخيراً، نحن بحاجة فقط إلى أن نتذكر العذاب الذي خضع له مقاتلو حرب العصابات الذين قُبض عليهـم، أو إعدام رئيس «المقاومة» الشجاع، عمر المختار، الذي شُنِق أمام 20 ألف ليبي، هو مثال على ذلك.

عـلى أية حـال، إذا سمحتُ لنفسي بأن أخاف مـن ذلك الماضي، أو إذا سمحـتُ لـه أن يُلهم درجةً معينة من التسـاهل مع العقيد، فسـوف يعنـي هذا الاستسـلام لضرب غير مقبـول من الابتـزاز، هو شيء غير مقبـول مثلما يرمي الإسرائيليون «المحرقـة النازية «بوجهك كي يبرِّروا جرائمهـم. بقطع النظر عما يظنه بعض الناس، آثـام الأحفاد لن تُلغيها عمليـات استشهـاد أجدادهم. ومثلما لم تحصل آن فرانـك [2] على بطاقة

وبسبب أساليبه الوحشية لُقب بـ «جزار فزان»– م.

(1) إيتالـو بالبو Italo Balbo (1896 – 1940): قائد عسـكري وسياسي فاشسـتي إيطـالي. طيار، حاكم ليبيا، وولي عهد بينيتـو موسوليني. كان زعيم فرق «القمصان السـود» الإيطاليـة، وزيـر طـيران، كما خـدم بصفة آمر القـوات الإيطالية في شـمال إفريقيا – م.

(2) آن فرانـك Anne Frank (1929 – 1945): كاتبـة ألمانيـة وواحدة من أكثر ضحايا الهولوكوسـت شـهرةً ونقاشـاً، وتعـد مذكرتهـا عن الحـرب «مذكرات فتـاة صغيرة»

تُتيح لها تفادي عقوبة أن تلتهمها نسور القدس/ أورشليم، عمر الخيام هو أيضاً لم يحصل على بطاقة تُتيح له أن ينجو من عقوبة أن تلتهمه نسور طرابلس. على أية حال، قام العقيد أصلاً بدرجة معينة من الثأر. كان قد طرد جميع الإيطاليين خارج ليبيا، حتى أولئك الذين وُلدوا هناك، الذين لا صلةَ لهم بالأشياء الفظيعة التي ارتكبها بادوجليو أو غرازياني أو بالبو، أولئك الأشخاص الذين أحبوا ليبيا بوصفها بلدهم الثاني. كان قد طردهم من دون سابق إنذار، ولم يُسمح لأيّ واحد منهم أن يأخذ معه سوى حقيبة سفر واحدة، أساء معاملتهم وأهانهم إلى اللحظة التي ركبوا فيها متن سفنهم وطائراتهم. كان قد فعل هذا بعد مصادرة أرضهم ومنازلهم وحساباتهم البنكية، بالإضافة إلى مدارسهم ومطاعمهم وعياداتهم الطبية وصيدلياتهم وسياراتهم وجرّاراتهم الزراعية وحيواناتهم الأليفة حتى كنائسهم. أتلف جميع الصُلبان، دمّر المذابح، ورمى الأجراس بعيداً، استبدل صور يسوع المسيح ومريم العذراء بصورته هو، وبعدها حوّل الكنائس إلى مساجد أو كراجات للسيارات أو مستودعات. دمر المقابر التي كانت تؤوي رفات الجنود المقتولين في العام 1919 وفي (الحرب العالمية الثانية)، ضحايا معارك (العَلَمين)، (طبرق) و(الجغبوب)، ورفض إعادة التوابيت إلى أعضاء

مصدراً للعديد من المسرحيات والأفلام. وُلِدَت في مدينة فرانكفورت بجمهورية فايمار الألمانية وعاشت معظم حياتها بأمستردام في هولندا وعلى الرغم من مولدها في ألمانيا إلا أنها فقدت الجنسية الألمانية في العام 1941، وقد اكتسبت آن شهرة عالمية وذاع صيتها بعد نَشر مذكراتها التي تحتوي على تجاربها في الاختباء في أثناء الاحتلال الألماني لهولندا في الحرب العالمية الثانية – م.

الأسر الأحياء وحطم القبور بالبلدوزرات. كسر عظامهم وخلطها مع التربة بوصفها سماداً. أخذ شاهدات القبور التي ظلّت سليمة واستعملها كآجرات أرضية في كافتيريا، حيث يمشي عليها الناس الآن جيئة وذهاباً، ويدوسون بأقدامهم بقوة على أسماء الموتى.

في الحقيقة، كان ذكاؤه قد ضلّله إذا كان قد ظنّ أن باستطاعته أن يبتزني بالمجاري المفقودة، التي لم تكن مبنية بفضل عدم كفاءته وإهمال رجال بلادي. جهزتُ نفسي لعودة جمعة من دون مشاعر الذنب. كان تيار الوحل قد خفّ، إلا أنّ لمعان النفايات البشرية ظلّ، مُنقَّطاً بالصنادل التالفة والحفاظات الملطَّخة بالدم وأوراق الكرنب الفاسدة، بحيث أن الشاب المسكين تعين عليه أن ينتعل جزمتين مطاطيتين ويلتقطني ويحملني إلى السيارة التي كانت في الانتظار كي تأتي بنا إلى (العزيزية)، وهي الثكنة التي يقيم فيها الكولونيل حيث، في الأرجح، قُتل موسى الصدر.

***

كانت قوات الأمن التي تطوّق (قُم) لتحمي خميني هي مزحة بالمقارنة. حتى الطفل، فيما هو يتوقف قليلاً عند مَدخل (العزيزية)، يستنتج أنّ العقيد كان يخشى من أن يُقتل. وما أن اجتزنا المَدخل، حتى هناك نقاط تفتيش في كلّ مائة متر، وفي كلّ نقطة تفتيش كانت هناك دبابات مع مدافع أو مدفعية ثقيلة. وحول كلّ دبابة كانت هنالك مجموعة من السفاحين يحتفظون بأسلحتهم كي يجرّبوها علينا. بعجز أظهر جمعة وثائق إثبات الشخصية العائدة له ودليلاً على أن حضورنا

متوقَّـع. وفيما هـم يلوّحون ببنادقهم، سمحوا لنا بالترجُّل من السيارة ومنعونـا من الاستمرار إلى أن تصل الموافقة عـلى هواتفهم اللاسلكية. أوقفونـا ثمان مـرات في الأقـل قبل وصولنـا إلى مقـر الكولونيل، وهو قـصر مُـتَرَف في وسـط المعقَل. هـذا المكان يحرسـه أيضاً عـرضٌ للقوة مُثير للانطبـاع. في أعـلى سلّـم يـؤدي إلى القـصر كـان هنـاك عشرون عسـكريًّا أو نحو ذلـك، أوقفونا بسرعة كما لو كنـا سفاحين، زجونا في حجـرة وفتشونـا تفتيشـاً كاملاً، حتى أنهم مشطوا عبر شَـعري وشَـعر جمعـة. وعومل الأخير أسـوأ معاملة بعد احتجاجـه؛ جلبوه إلى حجرة متاخمة وفتشوه بعد أن خلعوا ملابسـه. سمحوا له بالاستمرار، إلا أنهم صادروا قلمه الحبر، بما أنهم كانوا لا يزالون مرتابين. فحصوا مسجلتي الشريطيـة عـن كثـب، وحاولـوا أن يفككوها كـي يفتشوا عـن أجهزة متفجـرة؛ المصـور الفوتوغرافي الـذي أتى معي كان يراقـب فيما أخذوا جميـع أجهزة التصويـر العائدة له وقـد ألحقوا بأحدهـا ضرراً لا يُمكن إصلاحـه. أخذوا جمعة بعيـداً بذريعة أنّ قلمه الجاف يجب أن يُفحص بعنايـة أكثـر، وأرشـدونا أنا والمصـور الفوتوغرافي إلى جـزء آخر من القـصر، حيث كانت الأرضيـات الرخامية لامعة جـداً، بحيث أنكَ تجد نفسـك تتسـاءل مَن الذي نظفها. هل سُمِح للعبيد بالدخول إلى (العزيزيـة)؟ هنا اقتادونا إلى داخل نوع مـن مكتبة، مغطاة بورق من عـشرات الأعداد القديمـة من منشـورات «Who's Who»[1]. تركونا

(1) منشورات Who's Who: منشورات تضم عموماً معلومات سير ذاتية لشخصيات بارزة في بلدٍ ما – م.

هناك طوال مدة تزيد على ثلاث ساعات. في الساعة التاسعة العقيد لا يزال لم يصل بعدُ وما من أحد أزعج نفسه بأن يقدّم تفسيراً، أو يجلب لنا كوباً من القهوة، أو يسألنا ما إذا كنا نحتاج إلى استعمال دورة المياه. في الواقع، حين احتججتُ في نحو الساعة الثامنة، وغامرتُ بالدخول إلى الرواق بحثاً عن حمّام، العسكريون الواقفون كحرس في الرواق قفزوا كلّهم عليّ، مهددين إياي بمسدساتهم. في التاسعة والربع وصل رجلٌ بملابس مدنية، قال إن اسمه إبراهيم، وإنه المترجم الإنكليزي. وبعد ذلك حالاً اقتحم العقيد الغرفة. من دون أن يعتذر عن تأخيره، من دون أن يُلقي عليّ التحية، من دون حتى أن ينظر إلى ناحيتي أو يكشف أنه في أية حال انتبه إلى وجودي، رمى نفسه على كنبة وبدأ يقرأ بانتباه وثيقة رسمية.

انتبهت إليه بهدوء. فيما يتعلّق بالمظهر، لم يكن ليُوحي بالفضول الذي أحسست به تلك الفتاة ذات العقدة الشريطية السوداء في شعرها تجاه هتلر وموسوليني؛ ناهيك عن ذكر الفضول الذي من الجائز أن تحس به صحافية لمّا تكون وجهاً لوجه مع شخصية تاريخية. يقيناً لم يكن العقيد وسيماً، كما زعم كثيرون. كان له رأس ضخم، غير متناسب مع بقية جسمه، وكتلة كبيرة من الشعر المجعد. الملامح الوحيدة التي جذبت انتباهي هو جبينه المنخفض بنحو متزايد وذقنه الطويل بنحو مُفرَط وفكه البارز، اللحمي. هذا العيب لم يكن مرئيًّا في الصور الفوتوغرافية أو في التلفيزيون لأنه، عارفًا بذلك، كان يُبقي رأسه مرفوعاً ويشد عضلات رقبته. وفيما أنا أفكر بذلك الآن، الشيء

الوحيد الذي لفت انتباهي فعلاً هو جزمتاه. كانتا من جلد جميل، لين، بلون بُني دافئ لطيف. كانتا مستقدَّتين ولم يكن فيهما تقريباً درزات واضحة، والأمر الذي جعلهما جذابتين أكثر هما الشريطان الصغيران بالابزيمين الذهبيين اللذين يطوّقان كلَّ كاحل من كاحليه. كانتا، باختصار، غاليتين، وتكشفان أنّ غروره نزل مباشرة إلى أصابع قدميه. سوف تمر سنوات طوال قبل أن أرى زوجاً آخر من الجزم بنفس القَدَر من الجمال، وخمّنْ مَن هذا الذي ينتعلهما: فيدل كاسترو. بطبيعة الحال، كاسترو لم يكن يمتلك أيّ إبزيمين ذهبيين وامضين، ويقيناً لا يمتلك كعباً بارتفاع ثلاث بوصات تجعله مرتاحاً أكثر وهو ينتعل جزمة امرأة، على غرارة جزمة القذافي. لا بدَّ أنه كان يحبهما حقاً: بعد أن لفّ ساقاً على ساق، تفرّس فيّ بإعجاب. دوّر قدمه، رفعها، كشفها، وغالباً ما كان يرفعها إلى ركبته كي يكون باستطاعته أن يداعب جزمته، تاركاً إياي مشدوهة. هل من الممكن أنه يفعل هذا كلّه وفي الحقيقة يركز على الوثيقة التي كان يقرؤها؟ بعد مضي عشر دقائق توقف عن القراءة، أو توقف عن التظاهر بالقراءة. التفت إليّ بأسلوب مُتلطِّف وتحدّث بصوت ناعم ومحترس، صوت ممثل.

«لديّ أنباء سيئة. توجد حركة في القواعد الأمريكية في أوروبا، في اليونان، وفي تركيا. الأمريكيون يدرِّبون قوات مظلّية ويسلِّحونهم بالقذائف، بالغاز، والقنابل النيوترونية. هذه قضية خطيرة. إذا كانت هذه بداية (الحرب العالمية الثالثة)، سأحتاج إلى استعمال كلّ قواتي كي أضمن بقاء الأشياء تحت السيطرة. أحاول أن أُقنع الإيرانيين بإطلاق

سراح الرهائـن. ثمـة وفد إيـراني مكوّن مـن رجال مُقرّبـين من خميني وصلـوا تـوّاً. هؤلاء هـم الرجـال الذين يُصغـي إليهم خمينـي. سوف أسلّمهـم رسالة شـخصية، وأطلب من الإمام أن يُخـلي سبيل الرهائن. هـذه القضية أصبحت أخطـر فأخطر. بطبيعة الحال، إذا ما حصل شيءٌ مـا في إيـران، ليبيا لن تبقى في وضع الحيـاد. الإيرانيون أخوتنا، ومعهم يُمكننا أن نشكّل خطًّا فعَّالاً من العدوان ضد أمريكا».

فيما كان إبراهيم يترجم، طوّقني بنظرة محدّقة استقصائية، ساعياً إلى التأكـد من أن قدرتـه على ضمان إخلاء سبيـل الرهائن وتجنب (الحرب العالميـة الثالثة) قد تركـت فيَّ انطباعاً جيداً بقدر ما يتمنى. لم أكن أعتقد أنّ من الحكمة أن أكافئه على غطرسته.

«هـذا الأمر يُدهشنـي، كولونيل. لأنه في منتصـف أيلول/ سبتمبر حـين كنـتُ في طهران، لاحظتُ كمًّا كبيراً من العـداء تجاه ليبيا وتجاهك بالأخـص. وكي أعبّر باعتدال، إنهم بالتأكيـد لا يعتبرونك أخاً لهم. في اعتقادي أنك تعرف السبب».

«لا، لا أعرف السبب»، قال، وهو يداعب كعب جزمته.

«حسـناً، سأذكّرك. هذا بسبب اختفاء الإمام موسى الصدر، زعيم الشيعة اللبنانيين، زوج ابنة أخت خميني. كثيرون قالوا إنكَ قتلته هنا في طرابلس».

لم يحر جواباً، وظلّ يربت على كعب جزمته.

«أثنـاء حـواري مع رئيس الـوزراء مهدي بـزرگان تكلّمنا عن هذا

الموضوع بالتفصيل. شرح لي بزرگان أنّ اختفاء موسى الصدر في طرابلس هو السبب وراء عدم استئناف العلاقات الدبلوماسية مع ليبيا. وأضاف قائلاً إن الحكومة الإيطالية روت الحقيقة حين أكّدت، على الرغم من مزاعمك التي تذهب إلى العكس، إنّ موسى الصدر لم يصل إلى روما. قال بزرگان إنّ خميني يعتقد الشيء ذاته».

لم يجب أيضاً، وظلّ يداعب كعب جزمته.

«أنظر، كولونيل. إنه مكتوب هنا تحديداً...»

نهضتُ من كرسيي وسلّمته عدد جريدة «ذه نيويورك تايمز «الذي ضمّ حواري مع بزرگان. لم يأخذ الجريدة. وحتى لم يتطلّع إليها. ظلّ يربت على كعب جزمته.

«إنكَ لا تُجيبني على سؤالي، كولونيل؟»

وأخيراً ترك كعب جزمته وشأنه.

«بوسعي أن أُخبركِ أنّ العلاقات الدبلوماسية بين ليبيا وإيران قد تجددت بقوة حاليًّا. بوسعي أن أُخبركِ أنّ العلاقة بين ثورتين هي أقوى بكثير من العلاقة بين حكومتين طبيعيتين. هذا الشيء حقيقي بنحو خاص بعد طرد الشاه، بعد نجاح الثورة الإيرانية. باستطاعتي أن أقول لك إنّ إعادة فتح السفارتين هنا وفي إيران هو لا شيء من دون تأكيد هذه العلاقات، النتيجة الواضحة لصداقة متينة أصلاً».

«فهمت. إذاً كيف تفسر اختفاء شخصية مهمة بالنسبة للثورة الإيرانية مثل موسى الصدر، هنا في ليبيا؟»

صمت.

«وكيف يمكنكَ تفسير الحقيقة القائلة إن خميني على ما يبدو تجاوز هذا الاختفاء في قراره بإعادة العلاقات الدبلوماسية؟»

صمت.

«لأنه، وسأقول هذا مجدداً، إنه مولع جداً بزوج ابنة أخته».

صمت. ومن ثم أطلق ضحكة قوية، ساخرة إلى حدٍّ كبير.

«هنالك رجال كثيرون مثلي في الثورة الإيرانية. رجالٌ يعرفون كيف يستخدمون الجيش كي يمهدوا الطريق للجماهير».

«وعلاقتك مع هؤلاء الرجال، لا مع خميني: هل هذا ما تعنيه؟»

«هذا الموضوع لا يهمني. الأمريكيون يسلّحون أنفسهم بالقذائف والقنابل النيترونية، كما قلتُ آنفاً. تلقَّيتُ أنباءً سيئة، قلتُ، وأنتِ لا تريدين أن تتحدّثي في هذا الموضوع».

«لا أريد التحدّث في هذا الموضوع. حتى أكثر من ذلك في ضوء الأنباء السيئة التي أملكها لك، أيها العقيد. السفارة الأمريكية في طهران زُوِّدت بالمتفجرات، والرهائن الخمسون هم في خطر أن يتم نسفهم في أيّ لحظة. السفارة في إسلام آباد أُحرقت ودُمرت، وموظفوها ماتوا في النيران. توجد هجمات أخرى ضد السفارات تحدث في الهند، بنغلادش، وفي تركيا...»

«ثورة عالمية! ثورة عالمية ضد أمريكا!» صاح الكولونيل. وقهقه من جديد: بجفاف، بسخرية.

«ثورة أم تحريض، أيها العقيد؟»

«ثورة! هذه الأشياء تحدث لأن الشعب يكره أمريكا، لأن كراهية أمريكا تتفجر الآن! الجميع يكرهون أمريكا، الجميع! إذا كان كارتر لا يحب ذلك، عليه أن يسلّم الشاه إلى خميني».

«كولونيل... إذا طالبت أوغندا بعيدي أمين، هل تُعيده إليها؟»

«إذا كان عيدي أمين هنا، ربما سأتقبّل هذه المقارنة وأفكّر في سؤالكِ. بما إنه ليس هنا، المقارنة باطلة وليس لديّ جواب يُمكنني أن أُعطيه لكِ».

«كولونيل، المقارنة مشروعة، لأن أمين هنا: إنه ضيفكَ المُبجَّل. إنه يقيم في ضواحي طرابلس، في ڤيللا ذات متنزه وحوض سباحة. إنه يُقيم مع اثنتين من زوجاته الكثيرات وعشرة من أولاده الذين يزيد عددهم على ذلك. لقد حاوره في ڤيلته صحافي فيليبيني، اعتقلته عقاباً له».

«ربما ذلك الصحافي أجرى الحوار معه أثناء زيارته طرابلس».

«زيارته، كولونيل؟ إذا كنتَ تُريد أن تسميها زيارة، إذاً بوسعنا أن نقول إن الشاه يزور نيويورك. سأكرر سؤالي: إذا طالبت أوغندا بأمين بالأسلوب نفسه الذي تطالب فيه إيران بالشاه، هل ستسلّمه؟»

«اسمعي... كلّ فرد له الحق في أن يطلب لجوءاً سياسيًّا من أيّ شخص يختاره، في أيّ بلد أو أيّ جزء من العالم يشاء، لذا أعتقد أنّ الشاه له الحق في أن يبحث عن لجوء في أمريكا وأيّ مكان آخر. وفي الوقت عينه، على أية حال، الإيرانيون لهم الحق بأن يطالبوا بالشاه، وأتمنى أن يستعيدوه. لا أفهم السؤال المتعلّق بعيدي أمين».

حدّقتُ فيه، مُثبطة العزيمة. هل هو مُتعب، هل يشعر أنه ليس على ما يُرام؟ لا، بدا صاحياً وفي صحة ممتازة. ربما إبراهيم لم يُترجم أسئلتي كما ينبغي، ربما كان يتستر على معناي؟ إنما لا يُمكن أن يكون هذا هو الحال: حتى من دون مساعدة إبراهيم، كان الكولونيل يفهم الإنكليزية بنحو تام. لعل الخطأ خطئي، ربما عبّرت عنه بأسلوب مغلوط، ربما يتعيّن عليّ أن أبدأ من جديد؟ نعم، ربما يجب عليّ أن أبدأ من الأول ومجدداً، أستفزه أكثر، أدفع الموضوع أبعد.

«كولونيل، ثمة بطاقات على الطاولة. أود أن آخذ صورتك، وأود أن أفعلها بالطريقة الآتية: أريد أن أفهم لماذا الجميع يكرهونك كرهاً شديداً، لماذا أنت محبوب قليلاً جداً...»

قاطعني بنبرة ثلجية. «أنا غير محبوب من أولئك الذين يعملون ضد الجماهير وضد الحرية، أنا محبوب من أولئك الذين يناضلون من أجل الجماهير ومن أجل الحرية».

«أجل، أجل، إنما دعني أشرح لماذا طرحتُ عليكَ هذا السؤال عن أمين. اخترتُ أمين باعتباره رمزاً لصداقاتك السيّئة. الجميع يعرفون أنّ

أمين مجرم، طاغية دموي حطّم شعبه على مدى أعوام. ولهذا فالناس يسألون أنفسهم: لماذا يختار القذافي دوماً هذا النوع من الرفقة، و...»

«إن حقيقة كونهم يسألون لماذا يختار القذافي دوماً هذا النوع من الرفقة تُظهِر الرأي السامي الذي يحمله الشعب عني. حتى الأشخاص الذين يكرهونني. على كلّ حال، رأيكِ عن أمين خاطئ، كلّ ما تقولينه عن أمين خاطئ، نتيجة الدعاية الصهيونية. إنكِ لا تعرفين شيئاً، إنكم (الغربيين) لا تعرفون شيئاً. وبدلاً من ذلك تتكلّمون بنحو سيِّئ عن أمين من الأفضل أن تُدينني نيريري، الذي يحتل أوغندا اليوم. ماذا يتعين أن أفعل مع حكومة أمين؟ هل لي الحق في أن أتدخَّل في الطريقة التي اختارها أمين في الحُكم؟ أنا لا أتدخَّل في شؤون الناس الآخرين».

«لكنكَ تدخَّلتَ، كولونيل. لقد فعلت، بحجة مساعدة الشعب المظلوم، وهم يكونون مظلومين فقط حين يكون ذلك ملائماً لك، وإنكَ تتدخَّل باستمرار في شؤون الناس الآخرين: أوغندا هي حالة واحدة من بين حالات كثيرة. دعنا نتكلّم عن تشاد...»

«شعب تشاد ضد القوات الفرنسية! لنا الحق في التدخُّل في تشاد لمساعدة أولئك الناس في مقاتلة الفرنسيين! لدينا الحق نفسه في التدخُّل في أوغندا خلال الحرب التي يشنها نيريري كي يقهرها!»

نظرتُ إليه، وأنا واهنة العزيمة أكثر من أيّ وقت مضى.

«كولونيل، إنك تواصل مناقضة نفسك. قبل قليل قلتَ إنكَ لا تتدخَّل في شؤون الآخرين، وبعدها تقر أنكَ تتدخَّل في أوغندا وتشاد.

في الأول قلتَ إن أمين شخصٌ صالح، ومن ثم تعترف أنه ليس هكذا، مـع أنكَ فعلتَ ذلك بطريقة غير مبـاشرة. باسم التماسك، هل يُمكنني أن أذكّـرك أنـك كنـتَ صديقـاً لأمين قبل مـدة طويلة مـن انخراطه في الحرب مع تنزانيا؟»

«لأن أمـين كـان ولا يزال ضـد إسرائيل. لأن أمين هـو أول رئيس جمهورية إفريقي تجرّأ على طرد الإسرائيليين من بلاده. لأن أمين مسـلم وسياساتـه الداخلية لا تهمني، أقول. أنا رجل واقعي. هل سبق لكِ أن سمعتِ بالواقعية؟

«نعـم، مرات كثـيرة. لكن دعنا ننسـى ما يتصل بأمـين، كولونيل: نحن نركِّز كثيراً جداً عليه، وقد اخترتُ [أمين] كمثال لا غير. ربما كان بوسعي أيضاً أن أختار بوكاسا أو...»

«مَن؟»

«بوكاسا؟ الشخص الذي يأكل الطفل الصغير المشوي».

«حالـة بوكاسا هي نفس حالة أمين. قد أجـد الميزة الذاتية لبوكاسا وأمين غير مُستسـاغة، قد لا أؤيد سياساتهـما الداخلية، لكنني لا أحب تدخل فرنسا وتنزانيا. وقبل كلّ شيء، أنا لا أحب الدعم الذي تقدّمونه أنتم (الغربيين) لإسرائيل. هل هذا واضح؟»

«لا. ما صلة إسرائيل ببوكاسا الذي يأكل الطفل الصغير المشوي؟»

«توجـد صلـة. لأن موقفكـم (الغـربي) هـو الذي يتسـبب بموت الفلسطينيين. إنه قراركم بتزويد إسرائيل بالأسلحة، رفضكم الاعتراف

بأنكم أنتم الذيـن تجعلون (الحرب العالمية الثالثة) هي النتيجة المحتمَلة الوحيدة. زيادةً على ذلك، أنتم دوماً الذين تقتلوننا».

يـا إلهـي. هذا يشبه الوقوع في انشطار تيـار، لا تعرف إلى أين يُمكن أن يأخـذك، وفي الوقت المناسب تلتقط كلّ النفاية الطافية بجانبك. أيّ عملية عقلية مُرّجحة قادته من بوكاسا إلى الفلسـطينيين؟ كيف يُمكنني أن أكـون غافلة جداً كـي أستشهد ببوكاسا بعد أمـين مباشرة؟ هل من الجائز أنّ افتقاره للمنطق قد أصابني بالعدوى إلى درجة أني لم أعد قادرة عـلى التحكم بالحوار؟ هل من الجائـز أني لن أحصل على جواب واحد متماسك منه، عبارة ذكية واحدة؟ يتعين عليّ أن أركز، أن أحاول إماطة اللثـام عـن سرّ عقله. لا يسـعني ببسـاطة أن أستنتـج أني أجلس وجهاً لوجـه مـع أبله. في بعض الأحيـان لا يبدو كالأبله، حتـى إذا كان أبله، فـإن بلاهته تخفي عيباً آخر، جادًّا أكثـر. لكن ما هو هذا العيب الآخر؟ وكيف يُمكنني أن أميّزه؟ ربما إذا سمحتُ للتيار أن يجرفني، إذا تقبّلتُ هذا الحوار المجنون».

«مَن الذي يذبحكم حالياً، كولونيل؟»

«إيـه!» صـاح، وعاد اهتمامـه بكعب السـيدات العائد لـه، وأطلق ضحكـة قوية أخـرى. «هـل إن ليبيا هي التـي اجتاحت إيطاليـا أو إنّ إيطاليا هي التي اجتاحت ليبيا؟»

«إنها إيطاليا، قبل سبعين عاماً».

«لكـن اليوم الشيء نفسـه، مع أنكـم تهاجموننا بأنظمـة أخرى، من

مثل دعم إسرائيل ومعارضة الوحدة العربية وثورتنا، وتعبّسون بوجه الإسلام. كنا صبورين معكم كثيراً جداً، تحمّلنا استفزازاتكم مدةً طويلة كافية: لو لم نكن حكماء جداً، لكنا باشرنا بالحروب ضدكم آلاف المرات حتى الآن. تبقى الحقيقة إننا حكماء، وإننا متحضِّرون على الدوام. ألم نكن نحن الذين حضرناكم، في (القرون الوسطى)؟ كنتم حفنة من الكائنات البرابرة، الوحوش، والبدائيين، ولم تكونوا تعرفون شيئاً قط. إن العلم الذي تستخدمونه الآن تعلّمتموه منا، الطب الذي تستخدمونه اليوم تعلّمتموه منا. والشيء نفسه فيما يتصل بالرياضيات، علم الفلك، الأدب، الفن...»

«هل تعني أنّ جيوتو ودانتي، القديس أوغسطين وپترارك، ومن ثم ميخائيل أنجلو وليوناردو دا فينشي درسوا في طرابلس؟»

«حسناً، يسوع المسيح لم يكن رومانيًّا بالتأكيد».

«لا، كان يهوديًّا. لكن ونحن نشاهد كيف أنّ ليبيا أعطتنا كلّ هؤلاء الخريجين في الفيزياء والرياضيات، في الفنون الجميلة والنحت، هل يُمكنني أن أوجّه إليكَ سؤالاً مرتبطاً بموضوع الحضارة؟»

«أرجوكِ»، أجاب، بنبل.

«لماذا أخرجتَ عظام الجنود الإيطاليين المدفونين في ليبيا؟»

«لماذا أخرجتم كلّ العرب الذين أتوا إلى إيطاليا كي يجلبوا إليكم نور الحضارة قبل 250 سنة مضت؟ لماذا أخرجتموهم من إسبانيا حيث كانوا هناك طوال 800 سنة للغرض نفسه؟ ستقولين إن السبب هو

أنهـم كانـوا مُعتدين. حسـناً، أخرجنا الأموات الإيطاليـين لأنهم كانوا مُعتدين!»

«مُعتدين على الجثث؟»

«بالطبـع. وعـلى كلّ حـال، على الرغم مـن أفعالنـا، نحن نتصرف بلطـف وتهذيب. سـأشرح. لأنّ كثيراً مـن المقابر الإيطاليـة وكثيراً من المقابـر الإسلامية كذلك كانت تُعيـق التخطيط الحَضَري الذي ابتركناه بعـد الثـورة، ولهذا كـان لا بدَّ مـن إتلافها. لكن، كي نضمـن ألا تأخذ إيطاليـا هـذا باعتبـاره فعلاً مـن أفعال العنـف، أخـبرتُ الإيطاليين أنّ الأشخاص الذين يريدون بقايا جنودهم بوسعهم أن يأتوا ويأخذوها، وإلا فإنها سوف تُزال بالبلدوزر. وإيطاليا أخذتهم».

«وأين انتهى الحال بشاهدات القبور؟»

«لا أعرف».

«هـل أنـا مُخطئـة إذا مـا ذكـرت أنكـم استخدمتموهـا كمـواد بناء لكافيتيريا ما؟»

«أشـياء تافهة وأكاذيب. هذا أنموذج من نـوع الشائعات التي تنبع من الكراهية (الغربية) للإسلام».

«لكـن توجد صـور فوتوغرافية لهذه الأكاذيب، صـور فوتوغرافية لأرضية كافيتيريا مصنوعة من شاهدات القبور».

«سأقـول لـكِ إن الجثث الإيطاليـة الأخرى سوف تُـزال من ليبيا.

في الوقت الحاضر قبور الجنود الذين ماتوا في بنغازي وطبرق أثناء (الحرب العالمية الثانية) تُعيق تخطيطنا الحَضَري. كثير من تلك الجثث موجودة بالضبط في الأمكنة التي ننوي أن نشق فيها الشوارع، الطرق السريعة، وقطع الأراضي المخصصة لوقوف السيارات. إن لم تُرفع تلك الأجداث، سوف تمزقها بلدوزراتنا إرباً إرباً»، أجاب الكولونيل، بنبرة ساخرة.

نعم، إستراتيجية الحوار المجنون تعمل على قدم وساق: إن لم تفعل شيئاً آخر، فقد كشفت قسوته وفظاظته. إلا أنني لا أزال أفتقد شيئاً ما، لا أزال غير قادرة على كشف سرّ عقله. ليت يحدث شيء معين: كارثة، مَن يعرف، حادثة مفاجئة تكشف السرّ لي! ليت إبراهيم هَبَّ لمساعدتي! ابتسمت لإبراهيم بطريقة ودية. إبراهيم المسكين. إنه رجل صغير البنية، في منتصف العمر، ذو وجه خجول، خنوع. مَن يعرف أيّ انعطافة غريبة من القَدَر تلك التي قادته إلى هذه الثكنة، مُعرِّضاً فؤاده إلى خطر الإصابة بنوبة قلبية في كلّ مرة يتعين عليه فيها أن يمرّر واحداً من أسئلتي. كن شجاعاً، إبراهيم، وسامحني.

«كولونيل، هل تسمح لي أن أواصل استجوابي وأن أستشهد بأحد الأسباب لماذا لا أحدَ في العالم يحبك؟ إنها هوايتك في تمويل كلّ مجموعة إرهابية في عصرنا...»

«هذا إدعاء غير مُثبَّت. إدعاء ينبثق من دعاية صهيونية تسعى إلى تشويه سمعتي لأني أدعم القضية الفلسطينية».

«لا، كولونيل. أنا لا أُشير إلى الدعم الذي تقدّمه إلى فلسطين. أنا أُشير إلى الدعم الذي تقدّمه إلى كلّ مَن يريد أن يطلق النار ويقتل: الأيرلنديُّون، الباسكيُّون، الفاشيُّون... لكن بما أنكَ أتيتَ على ذكر الفلسطينيين، دعنا نتكلّم عنهم، أيضاً. على سبيل المثال، المجزرة التي دبروها في فيومـچينو».

«أين؟»

«فيومـچينو، المطار الواقع في روما حيث لقي كثيرٌ من الإيطاليين مصرعهم. ألا تتذكر؟ ثمة معلومات شائعة تُفيد بأنك الشخص الذي موّل تلك المجزرة، أنكَ منحتها بركتك».

ضحك ضحكته القوية، رفع حنكه الطويل، وشخر.

«لا أعرف. لا أتذكر».

«لا تعرف؟ لا تتذكر؟ عليك أن تفعل. الجميع يعرفون أنكَ دفعت المال ودعمتَ تلك المجزرة. إنما دعنا نجد مثالاً آخر: ماذا بشأن زيارة كارلوس إلى (الألعاب الأولمبية في ميونيخ)؟ أليس هذا إرهاباً أيضاً برعايتكَ وبأمركَ؟»

ضحكة قوية أخرى، حنك مرفوع آخر، شخير آخر.

«كانت ردة فعل على الإرهاب الإسرائيلي. ألا تتذكرين لمّا أسقط الإسرائيليون الطائرة العائدة لـ (الخطوط الجوية الليبية)»

«لا، لا أتذكر. أنت لا تتذكر مذبحة فيومتشينو وأنا لا أتذكر الطائرة

العائـدة لـ (الخطوط الجوية الليبية). إلا أنني أتذكر (الألوية الحمراء)... هـل سبق لكَ أن سمعتَ بهـا؟» ألححتُ، وأنا أنقـب في حقيبتي اليدوية عـن قلم حـبر. فكرتُ في سؤال خبيـث ومؤذٍ وكنتُ أريـد أن أدوّنه كي لا أنساه.

«إن ظواهـر كهـذه هي ظواهر أنموذجية لــ (الغرب) والرأسمالية. إنهـا حركات تعبّر عن رفض مجتمعٍ ما يجب تدميره. لا يهم ما إذا سمّوا أنفسـهم (الألوية الحمراء) أو (بيتلز) أو (أبناء الله) [1]. لا أريد أن أفعل لهم شيئاً».

«على الرغم من ذلك، لقد فعلتَ شـيئاً ما لـ (الألوية الحمراء). لقد زوّدتهـم بالأسلحة، بالمال، وقد دربتهم بمسـاعدة من الفلسـطينيين»، صـددتُ الهجوم، وختاماً حـددتُ موضع القلم كي أدوّن سؤالي. وهنا حصلـت الكارثة التـي كنتُ أتمنى أن تحصل. في اللحظـة التي انحنيتُ فيهـا على دفـتر الملاحظـات العائد لي، بـدأ يُطلق نخـراً [2] غريبـاً، مثل حيوان مُستثار.

«أخضر! أخضر! أخضر!»

«معذرة؟» التفتُ إلى إبراهيم وعلى وجهي إمارات الاستفهام.

---

(1) أبناء الله Children of God: طائفة مسيحية متشددة للغاية، نشطت بشكل خاص في مطلع سبعينيات القرن العشرين، أعضاؤها الشبيبة الذين اعتنقوا الديانة المسيحية يُقيمون في أغلب الأحيان في كوميونات – م.

(2) النخر grunt أو grunting: هو صوت الخنزير – م.

«لاحظ العقيد أنّ قلمك الحبر أخضر اللون»، قال إبراهيم، وهو مرتبك للغاية.

كان ذلك صحيحاً: قلم الحبر أخضر اللون. بحوزتي أقلام حبر بألوان مختلفة كثيرة في حقيبتي. حددتُ موضع القلم الأخضر أولاً.

«نعم، إنه أخضر اللون»، أيَّدته، من دون فهم.

«أخضر كراية الإسلام، أخضر مثل (الكتاب الأخضر)»، شرح إبراهيم، وهو يحس بمزيد من الارتباك.

استمر النخر: «أخضر، أخضر، أخضر!»

«هل تُريده؟» سألته، وأنا قلقة نوعاً ما.

مدّ القذافي يده وأمسك به مثل طفل طمّاع يمسك بلعبة تمناها كثيراً. وبعدها أخرج منديلاً أخضر اللون من جاكيتته وقارن بين درجتيْ الاخضرار.

«إنه اللون الأخضر نفسه»، قال لاهثاً. «إنه اللون الأخضر العائد لي!».

«أرجوك احتفظ به».

«لا».

«أنا سعيدة بأن أعطيكَ إياه».

«لا!» ومثل طفل وقح رماه على الكنبة، حيث استقر بين حشيتين. كان العقيد يجلس هناك، يتأمله بصمت.

وماذا الآن؟ تطلّعتُ بتوتر إلى إبراهيم.

«الوقت متأخر جداً. أعتقد أن العقيد مُتعَب»، تمتم إبراهيم.

«أنا أيضاً أعتقد ذلك. هل بوسعنا أن نُكمل الحوار غداً؟»

«سوف أسأله».

اقترب من الكنبة بحذر، سعل مرات قلائل في محاولة منه في مقاطعة التركيز العميق للكولونيل على قلم مُودَع بين حشيتين. نجحت قحته الرابعة، وأدار إليّ الكولونيل وجهاً شاحباً، خالياً من التعابير. تحدثا برقة بالعربية لحظات قلائل.

«يقول إننا نستطيع أن نلتقي ثانية في الغد عند الساعة السادسة»، ترجم إبراهيم. «إلا أنه يود أن يعرف ما إذا سيكون المصور الفوتوغرافي هنا».

«لماذا؟»

«لأنه في حالة أن يكون المصور الفوتوغرافي هنا إنه يتساءل ما إذا تفضلينه أن يكون ببذلته النظامية أم بالبرنس العائد له؟»

«أيّ برنس؟»

«برنس من الكتان الأبيض ذو تطريز ذهبي»، أوضح إبراهيم. «إنه يظهر بصورة جيدة جداً في الصور الفوتوغرافية».

«دعنا نختر البرنس الأبيض ذا التطريز الذهبي، في تلك الحالة».

«هنا في المكتبة أم تحت الخيمة؟»

«أيّ خيمة؟»

«الكولونيل لديه خيمة بدوية، هنا في (العزيزية)، مع رمل جيء به من صحراء (سيرت) حيث وُلد هناك»، شرح قائلاً. «ذلك المكان يظهر أيضاً بصورة جيدة جدًّا في الصور الفوتوغرافية».

«دعنا نختار الخيمة مع رمل الصحراء، إذاً».

بدا الكولونيل أنه نسي القلم الحبر الأخضر، وبدا مقتنعاً بخياراتي. و، كما لو أننا حصلنا توًّا على اللقاء الأكثر ودية الذي يُمكن تخيّله، هزّ يدي في وداع حار. وبعدها تركني وحدي مع سؤال مُلحٍّ: هل هو مجنون؟ و، إذا كان الأمر كذلك، كيف مجنون؟

***

إن المشكلة هي أنّ صفة «مجنون» غامضة وملتبسة جداً. ماذا يعني أن يكون المرء مجنوناً؟ إذا ما سئلتَ طبيباً نفسانيًّا سوف يقول لك إنّ هذا المصطلح يُشير إلى أيّ نوع من التبدل العقلي، أيّ نوع من الشذوذ الذي يُظهر نفسه في أفعال غير مُبجلة أو متهوّرة، أيّ شيء خارج الطبيعي. وبعدها يُضيف قائلاً إننا جميعاً مجانين قليلاً، وأنّ جميع هواجسنا ومعتقداتنا الخرافية وهوسنا هي ظواهر خارج الطبيعي تماماً. وحين تسأله ماذا يعني أن يكون المرء طبيعيًّا أو غير طبيعي، سيقول لك إنه حين تكون طبيعيًّا يعني أن تتصرّف في حدود الواقع وتميّز تضارب الجيد والسيِّئ؛ أن تكون غير طبيعي يعني أن تتصرّف خارج الواقع ومن دون أن تميّز ذلك التضارب. بمعنى آخر، أن تتبرأ من التضارب

كلّه وترفض الشكوك كلّها بأسلوب متطرف. تعريفه سوف يتركك في حالة ارتباك وتشوش لأنه، إذا كانت الصحة العقلية تعني امتلاك إحساس جيد والقبول بالشك، الإيمان نفسه هو جنون: أيّ فرد يتبع حلماً يقبع وراء واقعه المباشر هو فرد مجنون، أيّ فرد يدعم فكرة أو عقيدة يوتوبية هو فرد مجنون، أيّ فرد يشكّل مبدأً أخلاقيًّا أو علميًّا هو فرد مجنون، أيّ شخص يتجاهل التعريفات الحالية للجيد والسيِّئ، للممكن والمستحيل، هو شخص مجنون. سقراط، أفلاطون، النبي موسى، يسوع المسيح، كارل ماركس، سيغموند فرويد، ألبرت أينشتاين، وأوائل الرجال الذين مشوا على سطح القمر كلّهم مجانين. غير أن الأهم، كلّ من يقود أو يمسك بالسلطة هو شخص مجنون. في الحقيقة، سواء أكانوا سياسيين أو دينيين، القادة لا يمكنهم أن يتفادوا التفريق بنحو واضح بين الجيد والسيِّئ، ولا يمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم بأن يرتابوا في أيّ شيء يبشرون به أو يفرضونه بالقوة؛ لا يمكنهم أن يرتابوا في مَن يكونوا هم وماذا يُمثلون. وما أن يتزوجوا حقيقتهم، يتعين عليهم أن يلتصقوا بها بصرامة لا تتيح مجالاً للشك أو إعادة التفكير. بخاصة إذا كان أحدهم دكتاتوراً أو مستبدّاً.

لكن بعدئذ الدكتاتور والمستبدُّ هو شخص مجنون أوتوماتيكيّاً، أكثر جنوناً بكثير من الشخص الذي يحاول أن يأكل الحساء بالشوكة، أكثر جنوناً من المرأة التي تقتل أطفالها على غرار ميديا [1]، وهو شيء عديم

(1) ميديا Medea: ساحرة في الأساطير الإغريقية وكانت ابنة أيتس ملك كولخيس، وقد رماها أبوها في السجن بعد أن خاف من سحرها، واستخدمت سحرها في الهرب

الفائدة أن تسأل ما إذا هم أشرار بالأسلوب الذي يمارسون فيه السلطة، أو ما إذا تجعلهم ممارسة السلطة أشراراً. هل يتعين علينا أن نعتبر شخصاً مجنوناً مسؤولاً عن إثمه؟ أليس صحيحاً أنه حين يخترق القانون ويقتل فرداً ما، المحاكم تحكم عليه بأنه ليس مذنباً بسبب جنونه؟ باسم المنطق علينا أن نغفر لهم جميعاً، من كاليجولا إلى جنكيز خان، من عيدي أمين إلى بوكاسا، من خميني إلى القذافي. ينبغي لنا أن نغفر لهم قائلين إنهم مخلوقات مسكينة، كانوا مرضى، إنهم مرضى، إنهم لا يعرفون ماذا يعني أن يتصرّفوا ضمن الواقع، أن يميزوا التضارب، أن يميزوا بين الصالح والطالح أو يتقبلوا شكوكهم. يبدو هذا، بالنسبة لي، شيئاً سهلاً للغاية، وغير دقيق كذلك، بما أنّ الدكتاتور والمستبدَّ يعرف حق المعرفة ماذا يعني أن يتصرّف ضمن الواقع. إنهم يفعلون هذا كلّ يوم، كلّ دقيقة. إنهم يعرفون حق المعرفة الفارق بين الصالح والطالح، وبنحو ساحر يستخدمون هذه المعرفة يوميًّا. وبناءً على ذلك، جنونهم، أو جنونهم المفترَض، لا يشبه قط تناول الحساء بالشوكة أو قتل الأطفال بأسلوب ميديا، أو أوفيليا [1] وهي تغرق نفسها في بحيرة. لا يُمكننا أن نفصل

من السجن وذهبت إلى معبد هيليوس إله الشمس وهو جدها كما يزعم. وقعت في حب جاسون زعيم الأرغونوت الذي وصل لكولخيس في ذلك الوقت، وساعدته على الهرب، وعندما عادا إلى ثيساليا خدعت عم جاسون المدعو بيلياس وقتلته بعد أن وعدته بردّ شبابه – م.

(1) أوفيليا Ophelia: في مسرحية شكسبير المعنونة (هاملت)، وهي مسرحية تراجيدية تقع أحداثها في الدنمارك تحكي قصة انتقام الأمير هاملت من عمه كلوديوس. كان كلوديوس قد قتل أخاه واستولى على العرش وتزوج من أرملة أخيه. أوفيليا هي حبيبة هاملت وابنة بولونيوس (لورد شمبرلاين). أوفيليا الفتاة الرقيقة التي لا يبارك

إثمهـم عـن أفعالهم، الأفعـال التي من شـأنها أن تقود قاتـلاً طبيعيًّا إلى السـجن المؤبد أو إلى الكرسي الكهربائي. باختصار، إن التسـاؤل بشأن ما إذا كان الكولونيل مجنوناً، وإذا كان هكذا، كيف مجنون، لا يعفيه من التبعـات على الإطلاق. إنـه شيء ساعدني كي أستعد بنحو أفضل للّقاء النهائي، الذي سوف يحصل تحت خيمة.

وجـدتُ جمعـة، الذي كان قـد تأخر كلّ هذا الوقت بسـبب أولئك الأشخاص الذين ضايقوه، وفيما كان يأخذني بالسيارة في طريق عودتي إلى الفنـدق تذكرتُ الأحداث التي سبقت المَشهد العصي على التصديق على قلم الحبر الأخضر. في البداية، كانت هنالك ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة انتظار، أو في الحقيقة، الحبس الذي منعني حتى من دخول الـرواق والبحث عن حمّام. ومن ثم اقتحـم الكولونيل الغرفة من دون أن يقـدّرني، مـن دون أن يبرر وصوله المتأخـر، وحتى من دون أن ينظر إليَّ. لمـاذا؟ هل هذا ببسـاطة كُره أو غطرسة طاغيـة لا يُبالي بالتصرفات السـليمة؟ مسـتحيل. رئيس دولة، مهما يكن قاسيـاً، لا يتصرّف هكذا بالمصادفـة، وكلتـا الحادثتين كشفت حُسـباناً ماكراً جداً مـن جانبه: نية دقيقـة في مضايقتـي. كـان يلزمني أن أفتـش عن سبب في مكـان آخر، وحاولتُ أن أتذكر ماذا أخبرني جمعة. «الجميع يعرفون أنكِ كنتِ لئيمة مـع خميني. حتى القذافي يعرف، وهـذا جزء من سبب وجودكِ هنا. إنه

أبوهـا علاقتها بهاملت، تتـأذى كثيراً من هاملت بعد أن إدعـى الجنون وأنه لا يعرفها (في محاولتـه لكشف حقيقة مقتـل والدِه، وذلك حتى يخفي نياتـه بالانتقام ويتأكد من الحقيقة) – م.

يعبـد التحـدّي». لقـد تحدّاني. فعـل ذلك بتكتم شـخص يهاجم كي لا يُهجم عليه، وبعدها يتخذ إمارات الاحتقار كي لا يتهمه أحد بالهجوم. لكـن بعدئـذ، لماذا لم يسـتمر هذا التكتـم؟ أثناء الحوار كـان عاجزاً عن تجميـع جملة متماسكة واحدة أو صياغة جـواب بارع مناسب واحد. ما الذي أرغمه كي يختبئ وراء تلك الضحكات الصغيرة القوية، حالات الصمـت المتكررة المتغطرسة تلك، وتلك الإفـادات المتضاربة الشاذة؟ من الجلي، إنها غلطتي. لقد اقترفت غلطة. هجمتُ عليه أنا نفسي بقصة موسـى الصدر وبعدها قصة عيدي أمين، مـن البداية، كنتُ قد أدخلته في حـرب لم يكـن يعـرف كيف يقاتـل فيها. كـان رد فعله هـو التراجع إلى نـوع من الجمود العقـلي، اللامبالاة البليدة، إذ كـف عن الدفاع عن نفسـه. هـل هذا هـو مـا أدى إلى الأزمة، هذيـان قلم الحـبر الأخضر؟ بطبيعـة الحـال هذا ما حصـل بالفعـل. لا يتطلب الأمـر أن يكون المرء عبقريًـا كي يسـتنتج أن اللون الأخـضر لـ(الكتاب الأخـضر) العائد لـه، اللون الأخضر للإسلام، هو رمز سلطتـه، الذي رآه مُهاناً من لدن عـدو أجنبي. إن رؤيته تحديداً جعله يفقد سيطرته على نفسـه، وكان قد تعلّـق بالقلم كما لو أنه طرف منحدر صخري شـاهق يكاد أن يهبط منه عموديًـا. «أخضر، أخضر، أخضر!» هل كنتُ أرسم بورتريه لشخصية مصابة بجنون الارتياب؟ الجميع يعرفون أنّ الشخص المصاب بجنون الارتيـاب لا يكون مجنوناً بما يكفي كي يرتدي سترة المجانين [1]، بل هو

(1) سـترة المجانـين straight jacket: سـترة مـن الخيش إلـخ. يُقصد بها تقييد جسـم المجنون أو السجين الخطر وذراعيه كي لا يؤذي نفسه أو غيره – م.

بالأحرى شخص مخبول ظاهريًّا يكون عقله ملوّثاً بهذيان يجعله يفقد شيئاً فشيئاً التماس مع الواقع. إنه عاجز سليم التفكير يكون عقله مبتلى بأوهام العظمة التي تظهر غالباً بأساليب بريئة. وهْم بناء جهاز الحركة السرمدية، أو تخمير إكسير الشباب الأبدي.

الأوهام تظهر غالباً بطرائق خطيرة، على أية حال: إدعاء الانتصار على العالم، على سبيل المثال، وهو حق وهبه الله وإدعاء لعب دور متَّسم بالمثالية. ويلٌ لكلّ مَن يشك في تفوّقه، عصمته من الزلل. إنه متقلّب، مخادع، مُصاب بجنون العظمة، ظنون؛ مُرتاب يحسب نفسه مُضطهَداً، وهو يضطهِد أكثر فأكثر كلما يحس بأنه مُضطهَد أكثر. ولمّا لا يضطهِد، يسجن نفسه في حالات صمت مُزدرية يبدو أنها تقول: أيها الحقير ماذا تعرف عن جهاز الحركة السرمدية العائد لي، عن إكسير شبابي الأبدي؟ في الحقيقة، إنه لا يختبر نفسه إزاء آراء أخرى، لا يتشبث بحوار مفتوح، لا يسمح بإجراء نقاش من الجائز أن يخسره، ويُطالب أن يُبجَّل، أن يُمدَح، ويحظى بالإعجاب في الأمكنة كلّها. إن لم يشعر أنه مُقدّر، تعذبه المخاوف. الخوف من أن يُساء فهمه، الخوف من أن يُنتقَد، الخوف من أن يُهان. الخوف من أن يُخان، أن يُسمَّم، من أن يقتله أصدقاؤه وأتباعه. الخوف من الموت الذي يراه في جميع الجهات من حوله، الموت الذي يحاربه بلا طائل بإصراره على أنّ قوى خارقة هي التي توجِّهه. يكون هذا الأمر صحيحاً إن كانت لديه سلطة. في حلّة القائد العائدة له إنه جبان يفوّض انتقاماته وفنتازيات عنفه. كما أنه ضعيف، يخفي ضعفه وراء اصطناع وضع ذكوري حاسم. بالطبع،

إنـه إظهاري [1] رهيب، رجـلٌ أجوف يتمرّغ في نرجسـيته. وأخيراً، إنه استمنائـي مُبتلى برغبات جسـدية غريبة، طقوس فتشية [2] شـاذة؛ مِثلي مُسـتَتر يكره النساء ويحسـدهنَّ على السـواء. في أصل جنون الارتياب العائـد له، يقول الأطباء النفسـانيون، يوجد حافز مِثـلي: فكر في هتلر، ذلك المصاب بجنون الارتياب من الطراز الممتاز [3].

«ما الذي تفكرين فيه؟» سألني جمعة وهو يقطع سلسلة أفكاري.

«هتلر»، أجبته.

«ما صلة هتلر بأيّ شيء؟» هتف، مصعوقاً.

«لأني أود أن أحاوره»، أجبتُه.

«يقيناً إنكِ لا تنوين أن تقولي إن القذافي له شيءٌ مشترك مع هتلر؟» صاح جمعة، وهو ساخط أكثر منه مصعوقاً، الآن.

«لا، لا»، حاولتُ أن أهدِّئه.

إلا أنه كان لديه فعلاً شيءٌ مشترك مع الزعيم الألماني. ذات مرة قرأتُ تحليـلاً لشخصية هتلر، وهي القصة ذاتها، حتى في التفاصيل غير المهمة ظاهريًّا. تلك الدبابات في نقاط التفتيش، أولئك السـفاحون بالبذلات

---

(1) إظهـاري exhibionist: وهو الشخص المصاب بالإظهارية exhibitionism وهو نزوع المرء إلى إظهار قدراته أو إلى السلوك بطريقة تُلفت الأنظار إليه – م.

(2) طقـوس فتشيـة fetishes: الفتـش شيء أو جـزء من أجزاء الجسـد غـير ذي صلة بالرغبة الجنسية يستثير تلك الرغبة عند بعض المنحرفين – م.

(3) من الطراز الممتاز: نقصد هنا المصاب – م.

النظاميـة، المتأهبـون لإطلاق الرصـاص، عمليات التفتيـش المبالغ بها والمطوّلـة، ألم تبرهن كلّها هلعه من أن يُقتل؟ الرغبة المتلهفة لأن يُصوَّر فوتوغرافيًّا ببرنســه الأبيض ذي الزخرفة الذهبية، ألا تكشف إظهاريته المُبالَغ بهـا، غروره النرجسي؟ وتلك المداعبة الحســية لجزمتيه بالكعبين العاليين، أليســت هــي علامة دالة عـلى رغباته الشهوانيـة الغريبة، على طقوس فيتشية استمنائية شــاذة؟ الأطباء النفســانيون يقولون إن بعض الأشــخاص يرون انعكـاس أعضائهم التناسليـة في أحذيتهم، الكعب بوصفه امتداداً لعضو الذكورة، لذا بمعنى آخر...

انفجرتُ ضاحكة.

«أنا سعيد برؤيتكِ تضحكين. هل أنتِ مسرورة؟» سألني جمعة.

«في منتهى السرور»، كذبتُ عليه.

«لا بدَّ أن الأمور سارت سيراً حسناً»، قال جمعة.

«جيدة جداً»، كذبتُ عليه ثانية.

«غداً ستكون الظروف حتى أفضل»، قال جمعة.

«أنــا متيقنة مــن أنها ستكون هكذا»، أجبت هـذه المرة بصدق. لأنه ليس لديّ شك في أنه، في بحر سويعات، سأعطي للعقيد حبلاً كافياً كي يشنق نفسه. شكي الوحيد هو ما يتصل بالموقع الذي اختاره لانتحاره.

***

كـان أكثر المَشاهد إثارةً للضحك التي كـان باستطاعتي أن أتمناها،

استنتجتُ، لمّا رجعتُ كي أُنهي الحوار. كانت الخيمة في وسط فناء مُغلق، مزروعةً في الإسفلت، وبدت سخيفة ولا واقعية للغاية بحيث أحسستُ كما لو أنني في موقع من مواقع تصوير «الشيخ»[1]، ذلك الفيلم الذي جعل ڤالنتينو مشهوراً في عشرينيات القرن العشرين. كلُّ ما هو مفقود هو أفراد الطاقم المزوّدون بكاميراتهم، كيبلاتهم الكهربائية، ميكروفوناتهم، والمخرج السينمائي الذي يهتف بغضب قائلاً، «بحق الجحيم، مَن الذي قال لكم أن تضعوا هذه الخيمة هنا؟!».

مَبخرتان مشتعلتان استقرتا في العتبة، بجوار ثلاث شجيرات ورد مُزهِرة، ودفعني الداخل لأن أتذكر المَشهد الذي يغوي فيه رودولف عشيقته وهو يغني، «أنا ملك الصحراء، فؤادكِ يعود لي، حين تنامين هذه الليلة، سآتي إليكِ وأقبّلكِ». كان هنالك غطاء من الرمل الأبيض الناعم على الأرض، ذات حصران حلوة ممدودة فوقه. السقف والحيطان مصنوعة من قماش فخم ذي تصاميم هندسية، وفي جميع الجوانب كانت هنالك كنبات طويلة مُغطاة بوسائد مكتنزة، مُغرية. هنالك مصابيح رخامية على المناضد تسلّط الأضواء على الجوانب وتجعل المكان يبدو أشبه بعش غرام. في الوسط هنالك كرسي بلاستك مُخيف ذو مسندين، بالضبط كتلك الكراسي التي يستعملها الممثلون في أثناء استراحاتهم. على ذلك الكرسي، كان جالساً هناك، ملتفًّا ببرنسه

(1) الشيخ The Sheik: فيلم أمريكي رومانسي صامت، أُنتج العام 1921، من إخراج جورج ميلفورد، وتمثيل رودولف ڤالنتينو وأغنيس آيريس. حقق الفيلم نجاحاً تجاريًّا منقطع النظير، وساعد ڤالنتينو في أن ينطلق بسرعة إلى النجومية – م.

الكتان الأبيض وجاهزاً تماماً على غرار ممثل ينتظر سماع كلمة «أكشن!»

كان قد اختار وضعية مَلَكية. كتفاه مستقيمتان، رِجلاه مضمومتان معاً، يداه تستريحان على مَسنديْ الذراعين وأنفه في الهواء. لم يكن باستطاعته أن يحتفظ بهذه الوضعية، على أية حال، ومن دون أن يعرف أني كنتُ أتطلّع إليه، ظل يضبط من جديد بُرنسه، ويملِّس التجاعيد ويحرّك القماش بعصبية. كان مُعجباً بجزمتيه، اللتين كانتا سوداوين اليوم، بكعبين عاليين جداً، وكانت إيماءاته ذات طبيعة ملتبسة نوعاً ما، نوعاً من التغزل الخنثوي، غواية الذات. كان واضحاً أنه مُغرم بطريقة لبسه كبدوي، شعر أنه وسيم، وسوف يقتل أيّ امرئٍ كائناً مَن يكون إذا ما قال غير هذا.

«مساء الخير، كولونيل».

اتخذ وضعيته من جديد، ربما هو منزعج قليلاً لأنه وجد نفسه محط أنظار، ولم ينهض كي يرحِّب بي. حرّك رأسه الضخم ذا الخصلات المجعدة السود بإيماءة ربما كانت بمنزلة تحية ومطّ شفتيه في شيء ربما يُسمى بسمة. أمر إبراهيم بأن يجد ما إذا كانَ المصور الفوتوغرافي راضياً، وما أن تلقّى جوابه حتى رفع سبابته اليمنى كي يُشير إلى الكرسي الذي قبالته. جلستُ وفي الحال سلّمته الأحبولة، متمنيةً أن يكون انتحاره بطيئاً.

«كولونيل، إنكَ واسع الثراء. اشتريتَ أرضاً عبر العالم (الغربي)، وتملك من بين أشياء أخرى، حصة في شركة (فيات). لذا أنا أتساءل:

كيـف تمكـن القذافي أن يكـون صديقـاً للإرهابيـين الذين يُريـدون أن يدمـروا المجتمع (الغربي)، بينما في الوقت ذاته يسـتثمر الملايين في ذلك المجتمـع، ولديـه علاقات تجارية مـع أنصار قضايا ذلـك المجتمع، من مثل جياني أنيللي[1]؟»

«جيـاني مَـن؟» سـأل الكولونيـل، وهـو يحـرّك رِجليه كـي يتباهي بالبُرنس.

«جياني أنيللي، رئيس (فيات)».

«فيات؟ أوه، فيات! شركتي».

«نعم، شركتك. جياني أنيللي».

«لا أعرفه».

«لا تعرف جياني أنيللي، شريكك؟»

«لا أعرفه. ليس شأني أن أعرفه. هذه المهمة تقع على عاتق موظفيَّ، مستخدمي بنكي، (البنك الأجنبي الليبي)».

---

(1) جيـاني أنيلـلي Giani Agnelli (1921 – 2003): رئيس نادي يوفنتوس السـابق، وأحـد ابـرز رجال الأعـمال في القـرن العشرين، المنحـدر من عائلـة أنيلـلي الإيطالية العريقة التي تمتلك شركات السـيارات فيات وفيراري، كما تسـيطر على 4٪ من الناتج المحـلي الإجمالي. في عصر جياني تطورت الشركة كثيراً ووصلت حدًّا أصبحت فيه من أبرز الأسماء في عالم السـيارات والاقتصاد والأمـوال، حتى رأى فيه بعض الايطاليين «سفيراً لإيطاليا «لذكائه اللا محدود وأسلوبه وعلاقاته الكبيرة والممتدة مع الجميع من اقتصاديـين وسياسـيين ورياضيين، كـان مشاركاً في الكثير من الاستثـمارات التجارية والاقتصادية، وامتدت شركاته شرقاً وغرباً – م.

كان يكذب، بطبيعة الحال. إنها معلومة شائعة أنّ الاثنين كلّ واحد منهما يعرف الآخر، وحتى إنهما أخذا صورة فوتوغرافية معاً في موسكو. في الحقيقة، (البنك الأجنبي الليبي) قد استثمر بمبلغ أولي يناهز نصف مليون دولار عقب ذلك اللقاء.

«كولونيل، إنكَ حتى لا تعرف مَن هو أنيللي هذا؟»

«بلى، لا أعرفه».

«ولم يسبق لك أن شاهدتَ صورته الفوتوغرافية، أو سمعتَ باسمه؟»

«مطلقاً. ولماذا يتعين عليّ أن أفعل هذا؟ لستُ مهتمًّا به، لا شأنَ لي به. لديّ أشياء أفضل كي أفعلها من معرفة أسماء شركائي أو الأشخاص الذين يستوطنون عالمَ المال».

«أنا أفهم، إنكَ تمزح».

«لا أبداً. لستُ وزيراً، لا أبدد وقتاً على هذه الأشياء التافهة. أنا مهتم بالفلسفة، بالحرية، بالنضال، وبـ (الكتاب الأخضر) العائد لي. كنتُ أحسب أنكِ أردتِ اللقاء بي ثانيةً كي نتحدّث عن (الكتاب الأخضر) العائد لي، وحتى الآن أنتِ لم تفعلي شيئاً سوى توجيه أسئلة عن أشياء غير مهمة: إيران، السفارات، الدبلوماسيين الذين احتفظت بهم إيران كرهائن، أمين، جياني أنيللي، فيات. بصراحة، هذه المواضيع تُضايقني. هل تُريدين أن ترسمي صورتي الشخصية؟»

«هذا ما أفعله الآن، كولونيل».

«إن كنتِ تريدين أن ترسمي صورتي الشخصية، اسأليني عن (الكتاب الأخضر). اسأليني عن الثورة و(الكتاب الأخضر)».

«لاحقاً، كولونيل، لاحقاً. حتى هذه الأشياء المملة هي أشياء مفيدة لرسم صورتك. لأنك تتحدّث دوماً عن (الغرب) بوصفه عالماً فاسداً، وعن (الولايات المتحدة) بوصفها نسخة جديدة من ألمانيا هتلر، ومن المهم أن نلاحظ أنك استثمرتَ ملايين الدولارات في ذلك العالم الفاسد، النسخة الجديدة من ألمانيا هتلر».

«نحن العرب نعيش في ظل الهيمنة الأمريكية، في ظل الإمبريالية الأمريكية. أيّ دولة سيطرت عليها بلدان أخرى تتحدّث عن هذه البلدان الأخرى. ڤيتنام تتحدّث بنحو سيِّئ عن الصين، على سبيل المثال. وينبغي لكِ أن تسأليني عن (الكتاب الأخضر)»، قال بوجه مُتحجِّر.

«لكن ما صلة ڤيتنام، أو الصين، بأيّ شيء؟ وهل أن السوڤييت في ڤيتنام الآن!»

«تجاربي مع (الاتحاد السوڤييتي) لم تكن سلبية. لو أن لـ (الاتحاد السوڤييتي) موقفاً إمبريالياً تجاه ليبيا، سأسمي (الاتحاد السوڤييتي) إمبرياليًّا. لا أريد أن أتكلّم عن (الاتحاد السوڤييتي)، أو عن الصين وڤيتنام. أريد أن أتكلّم عن (الكتاب الأخضر) العائد لي، عن الثورة».

«مدام، من فضلكِ»، قال إبراهيم، وهو يرشقني بنظرة توسُّل.

«حسناً. دعنا نتحدّث عن الثورة. ماذا تعني بـ (الثورة)؟»

«الثورة... الثورة هي حين تقوم الجماهير بثورة. ثورة شعبية. إنما حتى حين يقوم الآخرون بثورة باسم الجماهير، مُعبّرين عما تريده الجماهير، عندئذ تكون ثورة. لأنها تمتلك دعم الجماهير وهي تترجم إرادة الجماهير. هل إنّ كلامي واضح؟»

«لا. أعطني مثالاً».

«ليبيا. إيران. ڤيتنام».

«لكن ما حدث في ليبيا في أيلول/ سبتمبر 1969، لا يشبه الثورة قط. إنه انقلاب، أتتذكر؟»

«نعم، إنما فيما بعد أصبح الانقلاب ثورة. لقد نفذتُ انقلاباً وصنع العمال ثورة من خلال احتلال المعامل، أصبحوا شركاء بدلاً من مُستخدَمين، وألغوا بذلك الإدارة المَلَكية وشكّلوا اللجان الشعبية التي تحدثتُ عنها في كتابي، (الكتاب الأخضر). ونتيجةً لذلك، في ليبيا اليوم، الشعب هو الشيء الوحيد الذي يهمّ. أعتقد أنكِ أدركتِ هذا الشيء».

«في الحقيقة، لم أدرك. لأنه حيثما أنظر، كلّ ما أراه هو صورتك، صورتك الفوتوغرافية. وحتى هنالك صورة فوتوغرافية لك وأنتَ تغطي واجهة ما اعتادت أن تكون (الكاتدرائية الكاثوليكية) في طرابلس».

«وماذا يُمكنني أن أفعل حيال ذلك؟ ماذا يسعني أن أفعل كي أحول دون ذلك؟ إنه الشعب الذي يطالب بذلك»، أجاب، مسروراً للغاية

بنفسه. مدّ يداً وفتح جهاز التليفزيون، الذي لم أكن قد شاهدته بسبب إنارة عش الغرام. أُضيئت الشاشة، مُظهِرة الحشد المترنم القديم نفسه الذي طاردني طوال الأيام الثلاثة الفائتة في غرفتي بالفندق. «القذافي! القذافي! القذافي!»

«أترين؟ لا يسعني أن أفعل شيئاً إزاء ذلك. لا يسعني أن أمنعه».

«لقد منعتَ أشياءَ كثيرة، كولونيل، يشق عليّ أن أصدّق أنك لا تستطيع أن تمنع هذا أيضاً».

«لكن الجماهير تحبني! إنهم يحبونني حبًّا جمًّا!»

«اسمع، كولونيل: لئن كانت الجماهير تحبك حبًّا جمًّا، لماذا إذا تحمي نفسك منهم؟ كلّ تلك الدبابات والسيارات المدرَّعة، أولئك العسكر المتأهبين لإطلاق الرصاص... لقد أوقفوني مرات لا حصر لها قبل أن أتمكن من اللقاء بك. فتشوا شعري وحذائي، الشيء ذاته يحدث لكل مَن يقترب من (العزيزية)».

«أفهم أنكِ مُصرّة على تجنب الحديث عن (الكتاب الأخضر) الذي دوّنته. سأجيب على سؤالكِ بسؤال: كيف تفسرين حذري؟»

«في اعتقادي أنكَ تخاف خوفاً شديداً من أن يقتلوك، كولونيل. وأنا لا أُلقي عليك باللائمة. كانت هنالك محاولات كثيرة لاستهداف حياتك».

«هذا جزءٌ آخر من الدعاية المُضحكة ضدي التي يُنتجها (الغرب). لا يسعني سوى أن أضحك عليها. لكن، حتى إذا كانت هنالك

محاولات تستهدف حياتي، كيف يُمكنكِ أن تفسريها؟»

«أعتقد أنكَ لستَ، في الواقع، محبوباً في هذا البلد، وأنّ الشعب يصفقون لك تعبيراً عن خوفهم».

ضحك ضحكة مكبوتة بنحو ساخر، بارماً حاشية بُرنسه، وأطفأ جهاز التلفزيون، وأغطس الخيمة ثانيةً في ظلامها، ظلام عش الغرام. وبعدها، وهو يعقف إصبعه، أمر خادمه الذي كان يحوم عند فتحة الباب أن يُشعل النار في المَبخرتين ويُعدّل الأحبولة من حول عتقه.

«يبدو هذا أشبه باستنتاج شديد الغرابة، غريب إلى حدّ ما شأنه شأن تأكيدكِ بأني دكتاتور».

«لم أقلْ لك بأنك دكتاتور. لكنني سأقول لك الآن».

«قلتِ الشيء نفسه لخميني».

«هذا صحيح».

«وقلتِ له إن الجماهير ساندت هتلر وموسوليني».

«هذا صحيح».

«هذا اتهام خطير للغاية، هذا الأمر يتطلّب ردًّا حادًّا للغاية. وهو ذا. إنكِ لا تفهمين أنّ ثمة اختلافاً بيني وبين هتلر أو موسوليني، وبين خميني وهتلر أو موسوليني. إنكِ لا تفهمين هذا لأنكِ لم تقرئي (الكتاب الأخضر) العائد لي. هتلر وموسوليني استغلّا دعم الجماهير كي يحكما الشعب، نحن الثوريون نستغل دعم الجماهير كي نساعد الشعب على

أن يحكمـوا أنفسـهم. أقـول لشعبـي: إن كنتـم تُحبونني، استمعـوا إليّ، احكموا أنفسـكم. وهذا عكس ما قاله هتلر للجماهير: سأتولّى أمركم، سأفعل كلّ شيء لكم».

«كولونيل، هل تفهم المقارنة بين هتلر وموسوليني باعتبارها إساءة أو لا؟ إني أطـرح عليـك هذا السـؤال لأنـك لا تبدو منزعجـاً، وأنكَ تتحدّث عنهما بدرجة معينة من الاحترام».

«أنا... أنا لستُ دكتاتوراً»، أجاب بعد صمت طويل، طويل جداً.

«إذاً ماذا أنت؟»

«أنا قائد الثورة. من الجلي أنكِ لم تقرئي (الكتاب الأخضر) العائد لي!»

«لكنني قرأته، كولونيل».

«كلّه؟»

«بالطبـع، كلّـه. قراءتـه لا تتطلّب وقتـاً طويلاً جـداً: نصف ساعة في أقـصى الأحـوال. إنه صغير جداً! ربـما نحن (الغربيـين) تعوّدنا على المجلّـدات الضخمة من مثل (الإنجيل) و(رأس المال)، لكن ألا تعتقد أنكَ دوّنتَ كتاباً صغيراً جداً؟»

«إنكِ كالسـادات، الذي يقول إن (الكتاب الأخضر) يناسب راحة يدك».

«إنه فعلاً كذلك. كم استغرقتَ في كتابته؟»

اهتز الحبل قليلاً، وبدأ الانتحار بشكل جاد.

«سنوات عدّة. قبل أن أجد الحل المحدد تعيّن عليّ أن أفكر مليًّا في تاريخ الجنس البشري، في صراعات الماضي والحاضر».

«فهمت. وكيف توصلت للاستنتاج أنّ الديمقراطية هي نظام دكتاتوري، أنّ البرلمان هو خداع وأنّ الانتخابات حيلة؟ هذه الخلاصة جعلتني أشعر بالارتباك نوعاً ما».

«هذا لأنكِ لم تدرسيني كما ينبغي. عليكِ أن تمكثي هنا في ليبيا ردحاً من الزمن، كي تفهمي البلد بنحو أفضل حيث لا توجد حكومة ولا برلمان ولا إضرابات لأنه توجد (جَماهيرية)».

«جَما ماذا؟»

«جَماهيرية! سلطة الشعب، كونغرس الشعب، لا؟ إنكِ لم تقرئي كتاباتي على الإطلاق! إنكِ لم تفهمي أيَّ شيء، إنكِ لا تفهمين شيئاً!»

«أنا أحاول، كولونيل. أنا هنا كي أتعلّم، أرجوك اشرح لي».

«طيب». تناول قصاصة ورق وبدأ يرسم الدوائر الصغيرة، المربعات الصغيرة، والأسهم التي أرهقتُ نفسي بها في الليلة الأولى تلك. كانت هنالك اختلافات قليلة، أيضاً. في رسمه الدوائر الصغيرة شكّلت دوائر أكبر والأسهم بداخل المربعات الصغيرة شعت إلى الخارج صوب دائرة كبيرة كانت تطوّق كلّ شيء.

«هو ذا، حاولي أن تحتفظي بها. الدوائر الصغيرة هي (مجالس الشعب) التي تقرر كلَّ شيء، حتى الحرب والسلام، المربعات الصغيرة هي (اللجان الشعبية). كلّ مربع صغير يجب أن يستجيب لدائرته

الصغـيرة. الآن، دعينـا نرى مـا إذا فهمتِ: أين هـي الحكومة؟ أيٌّ من هذه الدوائر أو المربعات؟»

«الدائرة الأكبر».

«لا، لا، لا! قلـتُ لكِ إن الحكومـة لا وجودَ لها! قلتُ لكِ إن تلك هي (مجالس الشعب)، الدوائر الصغيرة، هي التي تقرر كلّ شيء! قلتُ لكِ إنه لا توجد حكومة!»

«إذاً ما فائدة الدائرة الكبرى؟»

«إنـه (مجلـس الشعـب العـام) الذي يجتمع مـرة واحـدة سنويًّا كي يناقش قرارات (مجالس الشعب)! (مجلس الشعب العام) لا يقرر شيئاً! إنه لا قيمة له!»

«إذا كان لا قيمة له، لماذا يجتمع إذاً؟»

«للنقاش، كما أخبرتكِ. للمساهمة».

«مَن ينتخب الدوائر الصغيرة؟ من ينتخب المربعات الصغيرة؟»

اهتـز الحبل مرةً أخـرى، وبدأ دماغه يُصاب بالزرقة. بدأتُ أشـفق عليه نوعاً ما.

«لا أحـد. في (الجماهيرية) لا يُنتخـب أحد. لا توجد انتخابات، لا يوجـد تمثيل. أنتم (الغربيين) تقليديـون للغاية! إنكم لا تفهمون سـوى الديمقراطيـة، الجمهورية، هـذه الآثار! أنتم غير مسـتعدين للعـصر الجديد، عصر الجماهـير. دعيني ألخِّص، دعينـي أرى ما إذا

بوسعكِ أن تتابعيني: في الأول كان هنالك حُكم مَلَكي، صحيح؟ إنه المرحلة الأولى من تاريخ الجنس البشري، صحيح؟ وبعدها اجترح كفاح الشعب الجمهورية، بحكوماتها وبرلماناتها ورؤسائها، صحيح؟ هذه هي المرحلة الثانية، صحيح؟ صحيح، الآن الجنس البشري تجاوز المرحلة الثانية. وقد خلق (الجماهيرية)، وهي الحل الأخير».

«الأخير؟!»

«نعم، لأنه بـ (الجماهيرية) تتحقق سلطة الشعب. حلم الإنسان تم التعرّف إليه. انتهى الكفاح».

«إنكَ لستَ متواضعاً بكلّ معنى الكلمة، أليس كذلك، كولونيل؟»

«لا، لستُ متواضعاً. لأني أستطيع أن أنجو من هجمات العالم كلّه. ولأن (الكتاب الأخضر) العائد لي حلَّ مشاكل الإنسان، مشاكل المجتمع. أمريكا بوسعها أن تشن الحرب ضدنا، (الغرب) باستطاعته أن يعذبنا، لا يهم: العالم لديه (الكتاب الأخضر) العائد لي. كلّ ما نحتاج إليه كي ندافع عن أنفسنا هو (الكتاب الأخضر)».

«لكن ماذا عن المعارضة؟» سألته، وأنا أقهر ذلك الشعور بالشفقة.

«أيّ معارضة؟ ما صلة المعارضة بكلّ شيء؟ حين يكون الجميع جزءاً من (مجلس الشعب)، ما الحاجة إلى المعارضة؟ المعارضة تعبّر عن نفسها في الحكومة. حين تختفي الحكومة والشعب يحكمون أنفسهم، يعارضون مَن؟»

«يعارضونك».

«أنا؟»

«نعـم، لأن هذا الـشيء ذا الدوائر الصغـيرة والمربعات الصغيرة لا أؤيده، إنه لا يناسبني. لستُ مقتنعة. وأنا أعارضه».

«باسم ماذا؟»

«باسم الحرية».

«أيّ حريـة؟ الحريـة هـي كلمة أخـرى لـ (الجماهيرية) ليـس إلا. هذه هي الحرية الصحيحة، الوحيدة. لذا لا يوجد شيء ولا أحد يُمكنكِ أن تعارضيه».

«أنـا أعـارض عـلى الرغـم مـن كـلّ شيء. وأقـول: إذا رفضـتُ القبـول بـ (جماهيريتك)، ماذا ستفعل لي؟ هل ستعتقلني، تطلق عليّ الرصاص، تشنقني؟»

«لكنكِ لا تستطيعين أن ترفضيها! (الجماهيرية) هي قَدَر العالم! إنها الحلّ الأخير!»

«الضبـاط الأربعـون الذيـن أطلقـتَ عليهـم النـار العـام الفائـت رفضوها. الخمسة والخمسون الآخرون الذين رميتهم بالرصاص العام 1977 رفضوهـا. الطلبـة الجامعيـون العشرة الذيـن أعدمتهم جهاراً في إحدى ساحات بنغازي قبل بضعة أشهر رفضوها!»

«أكاذيـب. افـتراء وتشويه سمعـة من (الغرب). هذه هي الأشـياء التي تجعلني أفقد الثقة بكم. لماذا تقولون هذه الأشياء عني؟»

«لأننـا نغـار منك، أعتقد أننا نقولها انطلاقـاً من الغيرة. على أية حال،

قلْ لي شيئاً واحداً: هل تعتقد فعلاً أنّ كتابكَ الصغير سوف يغيّر العالم؟»

اهتز الحبل هزة أخيرة، حاسمة. وفيما كان دماغه العليل متدليًّا فوق الحبل وجسمه الميت، انفجر الهذيان مجدداً: هذه المرة هذيان هائل جداً ومُروِّع جداً، بحيث أنّ أزمة اليوم الفائت بدت أشبه بعطسة مقارنة بهذا. نهض ببطء، رفع ببطء ذراعيه الملتفَّين بالكتان وبصوت راعد، أشبه بصوت يسوع المسيح، بدأ يهتف بأجوبته مباشرةً بالإنكليزية.

«والجماهير سوف تمسك بالسلطة: بفضل (الكتاب الأخضر)! والعمال سوف يُصبحون مشاركين في السلطة: بفضل (الكتاب الأخضر)! لأن يوم الحل عالمي الانتشار يعتمد علينا: بفضل (الكتاب الأخضر)! ودليل الثورة سيكون (الكتاب الأخضر)! (الكتاب الأخضر) العائد لي! (الكتاب الأخضر) هو الإنجيل الجديد! إنجيل المستقبل، العصر الجديد! (الكتاب الأخضر) هو الكلمة! في البدء كانت هنالك الكلمة، هكذا تقول الأناجيل. (الكتاب الأخضر) هو الكلمة، كلمتي! كلمةٌ من كتابي بوسعها أن تدمِّر العالم، بوسعها أن تجعل العالم ينفجر! كلمةٌ من كتابي باستطاعتها أن تخلّص العالم وتبدِّل قيمة الأشياء. وزنها. حجمها. في كلّ مكان وعلى الدوام! لأنه أنا الإنجيل. أنا الإنجيل».

ظلّ على مدى دقيقة أو أكثر، يكرر قائلاً، «أنا الإنجيل». من دون توقف، من دون تنفس، «أنا الإنجيل. أنا الإنجيل! أنا الإنجيل. أنا الإنجيل». أحس إبراهيم بالهَلَع، أما المصور الفوتوغرافي فكان أكثر من مصعوق. كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما وأصابعه تقبض على

آلـة التصور الألمانية العائدة له ماركة (لايكا) فيما هو يغمغم قائلاً: «لن نخرج من هنا أحياءً. سوف يقتلنا كلنا».

أما أنا فلم يكن بوسعي سوى أن أقول: «كولونيل، أرجوك! كولونيل، اهـدأ». وفي الختام هدأ. شـاحباً ومبللاً بالعرق، انهـار في كرسيه البلاستك ذي المسندين، حيث بقي جالساً هناك، يحدّق في زاوية ما من زوايا الخيمة.

أغلب الظن كان يتعين عليّ أن أُبدي تجاهه قليلاً من الرحمة، وأزحف خارجـةً على أطراف أصابعي. إنما في تلك اللحظة كرهتُه كُرهاً شـديداً بحيث أنني كنتُ سأمنح حياتي من أجل أن أُدير السكين مرةً أخرى.

«كولونيل، هل يُمكنني أن أطرح عليكَ سؤالاً آخر؟»

«نعـم، إنـما اسـألي بسرعـة»، ردّ عـليّ. «المبعوثـون الإيرانيـون ينتظرونني».

«هل تؤمن بالله؟»

«بالطبع أؤمن بالله! لماذا تسألينني سؤالاً كهذا؟»

«لأنني حسبتُ أنكَ الله، كولونيل».

نظر إليّ، من دون أن يستوعب سؤالي.

محمد رضا پـهلوي

طهران، تشرين الأول/ أكتوبر 1973

أوريانـا فالاتشي: بـادئ ذي بدء، جلالة الملك، أود أن أتحدّث عنكَ وعـن مكانتـكَ كمَلِـك. لم يتبقَّ سوى عـدد قليل جداً مـن الملوك، ولا يسعني أن أخرج من رأسي شيئاً قلتَه في حوار سابق: «لئن كان بوسعي أن أفعل ذلك من جديد، سأكون عازف كمان، أو طبيباً جرّاحاً، أو عالِم آثار، أو لاعب پولو... كلّ شيء إلا أن أكون مَلِكاً».

محمد رضا پهلوي: لا أتذكر أني قلتُ تلك الكلمات، لكنني إذا قلتُ ذلك، فإنني كنتُ أشير إلى الحقيقة القائلة أنّ مهنة الملك، أيّ ملك، هي صـداع هائل. ويحدث عـادةً أن يُغذّى الملك بكونه مَلِكاً. حدث لي هذا أيضـاً. بيد أنّ هـذا لا يعني أني سأتخلّى عن هذا المنصـب إني أؤمن إيماناً قويًّـا بـما أنا عليه وبما أفعلـه من أجل هذا المنصب. كـما تعرفين... حين تقولـين إنه لم يتبـقَ سوى عدد قليل جـداً من الملوك، إنـكِ تُلمِّحين إلى سـؤال لا يمكنني سـوى أن أُعطيكِ جواباً واحداً عنـه. حينما لا يكون لديكِ حُكم مَلَكي، يكون لديكِ فوضى أو حُكم الأقلية أو دكتاتورية. وعـلى أية حال الحُكم المَلَكي هو السـبيل الممكـن الوحيد لحكم إيران. لئـن كـان باستطاعتـي أن أفعل شـيئاً، أو بالأحرى أفعل أشـياءَ كثيرة، لإيـران، فهـذا يرجـع إلى التفصيل الصغـير بأنه حصل أن كنـتُ مَلِكاً. كي يتم إنجاز الأمور تحتاجين للسـلطة، وكي تحتفظي بالسـلطة عليكِ

ألا تطلبي الرخصة أو النصيحة من أيّ شخص. يلزمكِ ألا تناقشي قراراتكِ مع أيّ شخص و... بالطبع، ربما اقترفتُ بعض الأخطاء أيضاً. أنا، أيضاً، كائن بشري. على أنني لا أزال أؤمن أنّ لديَّ رسالةً ينبغي لي أن أنجزها حتى النهاية، وأنوي أن أنجزها حتى النهاية من دون التخلّي عن عرشي. لا يُمكنكِ أن تتكهني بالمستقبل، بطبيعة الحال، غير أنني مقتنع بأنّ الحُكم المَلَكي في إيران سوف يدوم مدةً أطول من أنظمتكم. أم يجدر بي القول إن أنظمتكم لن تدوم ونظامي سوف يدوم؟

أ. ف.: جلالة الملك، كم مرة حاولوا أن يقتلوك؟

م. ر. ب.: مرتين، رسميًّا... وبعدها... الله وحده يعلم. لكن ماذا يهم؟ أنا لا أعيش بهاجس أن أُقتل. في الحقيقة. لا أفكر في ذلك البتَّة. في وقتٍ من الأوقات فكرتُ في ذلك. قبل خمسة عشر عاماً، على سبيل المثال. خاطبتُ نفسي، «أوه، لماذا أذهب إلى ذلك القصر؟ ماذا لو أنهم خططوا لأن يغتالوني ويقتلوني فعلاً؟ أوه، لماذا يرسمون تلك الخطة؟ ماذا لو إنهم زرعوا قنبلة وتنفجر أثناء الطيران؟» لا، لم أعد أفكر في ذلك. الآن الخوف من الموت هو شيءٌ لا أحس به. ولا صلة للشجاعة والتحدّي به. هذه الرزانة تأتي من نوعٍ ما من الإيمان بالقضاء والقدر، من الإيمان الأعمى بالحقيقة القائلة إن لا شيءَ يُمكن أن يحدث لي حتى اليوم الذي أكون قد أنجزتُ فيه رسالتي حتى النهاية. نعم، سأظلّ حيًّا حتى ذلك الوقت فيما أنا أُنهي ما يتعيّن عليّ أن أُنهيه. وذلك اليوم حدده الله، وليس أولئك الأشخاص الذين يُريدون قتلي.

أ. ف.: إذاً لماذا أنتَ حزين جداً، جلالة الملك؟ قد أكون مُخطئة، لكنك على الدوام تمتلك هذه الإطلالة الحزينة والقلِقة.

م. ر. ب.: ربما تكونين على حق. ربما أنا رجلٌ حزين في أعماق نفسي. إلا أنّ حزني هو حزن صوفي، على ما أعتقد. حزنٌ يأتي من جانبي الصوفي. لا أعرف كيف يُمكنني أن أفسره بطريقة أخرى، بما أنه ليس ثمة سبب، لماذا يتعين عليّ أن أكون حزيناً. بحوزتي الآن كلُّ ما أريده كإنسان وكملك. لديَّ فعلاً كلّ شيء، حياتي تسير للأمام مثل حلم جميل. ما من أحد في العالم يجب أن يكون أسعد مني، ومع ذلك...

أ. ف.: ومع ذلك البسمة المبتهجة على محيّاك أندر من الشهاب. هل سبق لك أن ضحكت، جلالة الملك؟

م. ر. ب.: أضحك فقط حين يحصل لي شيءٌ مُضحك. إنما يجب أن يكون فعلاً شيئاً مُضحكاً للغاية. وهذا لا يحدث عادة. لا، لستُ واحداً من أولئك الأشخاص الذين يضحكون على كلّ شيء سخيف، إنما يتعين عليكِ أن تفهمي حياتي كانت دوماً صعبة للغاية، مُرهِقة للغاية. فكري فقط كيف كان ينبغي لي أن أتحمّل في الأعوام الاثني عشر الأولى من حُكمي. روما في العام 1953... مُصدّق [1]... أتذكرين؟ وأنا لا أُشير هنا إلى

(1) محمد مصدّق (1967 – 1882): رئيس وزراء إيران الأسبق، انتخب مرتين (سنة 1951 و1953). إلا أن المخابرات الأمريكية (CIA) والبريطانية (MI6) خلعتاه في عملية مشتركة سميت بعملية «أجاكس». سببت قراراته في تأميم شركات النفط في

عذاباتي الشخصية أنا أُشير إلى عذاباتي كمَلِك. زيادةً على ذلك أنا لا أستطيع أن أفصل الإنسان عن الملك. قبل أن أكون إنساناً، أنا مَلِك. مَلِكٌ قدره يتأرجح على وفق مَهمة من المفترض أن يؤديها. أما البقية فلا قيمة لها.

أ. ف.: يا إلهي، لا بدَّ أن يكون ثمة فارق دقيق كبير! أعني، لا بدَّ أنكَ كنتَ وحيداً إلى حدٍّ ما كمَلِك بدلاً منكَ إنساناً.

م. ر. ب.: لا أنكر أني وحيد. أنا وحيد بعمق شديد. الملك، عندما لا يتعيّن عليه أن يعتمد على أيِّ شخص في ما يقول أو يفعل، هو بنحو لا مناص منه ملكٌ وحيدٌ جداً. على أنني لستُ وحيداً بكلّ معنى الكلمة، لأنه ترافقني قوةٌ لا يستطيع الآخرون رؤيتها. قوتي الصوفية. ومن ثم أنا أتلقّى رسائل. رسائل دينية، أنا مُتديِّن جداً، جداً. أنا أؤمن بالله، وقد قلتُ على الدوام إذا لم يكن موجوداً، فمن الضروري أن نخترعه. أوه، أحس بشفقة بالغة على أولئك المساكين الذين ليس لديهم إله. لا تستطيعين أن تعيشي من دون إله. عشتُ مع الله منذ سن الخامسة. ذلك منذ أن وهبني الله تلك الرؤى.

أ. ف.: رؤى، جلالة الملك.

إزاحته بانقلاب عليه يوم التاسع عشر من آب/ أغسطس 1953، بعد إجراء استفتاء مزور لحل البرلمان – م.

م. ر. ب.: نعم، رؤى. أطياف.

أ. ف.: رؤى عن ماذا؟ رؤى عن مَن؟

م. ر. ب.: عن أئمة [1]. أوه، أنا متعجب من كونكِ لا تعرفين عن ذلك. الجميع يعرفون أنّ لديّ رؤى. وحتى أنني كتبتُ ذلك في سيرتي الذاتية. إبان طفولتي، كانت لي رؤيتان. واحدة لمّا كنتُ في سن الخامسة وواحدة لما كنتُ في سن السادسة. في أول مرة، رأيتُ إمامنا المهدي [2]، الذي، وفقاً لديننا، اختفى كي يعود في اليوم الذي ينقذ فيه العالم. كانت لي حادثة وقعتُ على صخرة. وقد أنقذني وضع نفسه بيني وبين الصخرة. أعرف هذا لأني رأيتُه. وليس في حلم في الواقع. الواقع المادي، إن كنتِ تفهمين ما أعني. أنا الشخص الوحيد الذي رآه. الشخص الذي كان معي لم يرَه على الإطلاق. إنما لا أحدَ من المفترض أن يراه عداي لأنه... أوه، أخشى أنكِ لا تفهمينني.

أ. ف.: في الحقيقة لا أفهمك، جلالة الملك. لا أفهمك على الإطلاق. كنا قد بدأنا بداية جيدة، وبدلاً من ذلك الآن... هذه المسألة

(1) وردت في النص كلمة prophets التي تعني «أنبياء»، لكن المقصود بالطبع هو «الأئمة»؛ أئمة الشيعة، كما سيتضح من السياق تالياً. ربما لأن (الغربيين) لا يفرّقون بين الأنبياء الذين نعرفهم جيداً وبين أئمة الشيعة – م.

(2) الإمام المهدي: هو الإمام الحجة لدى المسلمين الشيعة، وهو آخر الأئمة الاثني عشر، وهو ابن الامام الحادي عشر: الحسن العسكري. الإمام المهدي، بحسب المسلمين الشيعة سوف يظهر في آخر الزمان «ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلِئت ظلماً وجوراً»– م.

المتعلقة بالرؤى، بالأطياف. إنها غير واضحة لي، هذا هو كلّ شيء.

م. ر. ب.: لأنكِ لا تؤمنين. لأنكِ لا تؤمنين بالله، إنكِ لا تصدّقينني. أشخاص كُثر لا يصدّقونني. حتى أبي لا يصدّق ذلك. لم يصدِّق ذلك قط، كان دوماً يضحك على تلك الرؤى. على كلّ حال، أشخاص كثيرون، وإن يكن بصورة محترمة، يسألون ما إذا سبق لي أن شككتُ أنها خيال جامح (فنتازيا). وجوابي هو لا. لا، لأني أؤمن بالله، في الواقع لأن الله اختارني كي أؤدي مَهمة ما. كانت رؤاي معجزات أنقذت البلاد. عَهدي أنقذ البلاد وهي مُصانة لأن الله يقف بجانبي. أعني، ليس من العدل بالنسبة لي أن آخذ كلّ الصيت لي بسبب الأشياء العظيمة التي عملتُها لإيران. دعيني أذكِّركِ، باستطاعتي أن أفعل ذلك. إلا أنني لا أريد، لأني أعرف أنّ ثمة شيئاً آخر خلفي. إنه الله. هل تفهمين ما أعني؟

أ. ف.: لا، جلالة الملك. لأنه... حسناً، هل كانت هذه الرؤى في أثناء الطفولة فقط، أم أنك رأيتَها أيضاً، تالياً، حين أصبحتَ بالغاً؟

م. ر. ب.: قلتُ لكِ، إبَّان الطفولة حسب. لم تكن لي إبَّان سنوات البلوغ أحلام فقط. في فواصل زمنية من عام واحد أو عامين. أو حتى كلّ سبعة أو ثمانية أعوام. على سبيل المثال، ذات مرة شاهدتُ حلمين خلال مدة خمسة عشر عاماً.

أ. ف.: أيّ أحلام، جلالة الملك؟

م. ر. ب.: أحلام دينية. استنادي إلى تصوّفي. أحلام رأيتُ فيها ماذا سيحصل في بحر شهرين أو ثلاثة، وتلك الوقائع حصلت بتلك الطريقة في غضون شهرين أو ثلاثة. لكن عن أيِّ شيء كانت هذه الأحلام، لا يسعني أن أخبركِ. إنها لا تمتُّ إليَّ شخصيًّا؛ إنها تتصل بالمشاكل الداخلية للبلاد ولهذا يجب أن تُعد أسرار الدولة. لكن لعلك تفهمين بنحو أحسن إذا ما بدلاً من كلمة (أحلام) استعمل كلمة (هواجس) أو (أحاسيس داخلية). أنا أؤمن بالهواجس، أيضاً. بعضهم يؤمنون بـ (تناسخ الأرواح)، أنا أؤمن بالهواجس. لديَّ هواجس مستمرة، قوية كغريزتي. حتى في اليوم الذي رموني فيه بالرصاص من مسافة ست أقدام، غريزتي هي التي أنقذتني. لأنه، غريزيًّا، فيما كان السفاح يفرغ مسدسه عليَّ، فعلتُ ما يُسمى في الملاكمة (أن ترقص وحدك). وفي جزء من الثانية قبل أن يستهدفني في قلبي، تحرّكتُ جانباً بطريقة ما بحيث أنّ الرصاصة دخلت في كتفي. معجزة. كما إنني أؤمن بالمعجزات. حين تفكرين أني جُرحتُ بخمس طلقات كاملة، واحدة في الوجه، واحدة في الكتف، واحدة في الرأس، اثنتان في الجسم، والطلقة الأخيرة علقت في أسطوانة المسدس لأن الزناد حشر... عليكِ أن تؤمني بالمعجزات. كانت لي كوارث جوِّيَّة لا تُعد ولا تُحصى، ومع ذلك خرجتُ منها سليماً بفضل معجزة أرادها الله والأئمة. أرى أنكِ مرتابة.

أ. ف.: أكثر من مرتابة، أنا مشوّشــة. أنا مشوّشة. جلالة الملك، لأنه... حسـناً لأني أجد نفسي أتحدّث مع شـخص لم أكن أتوقّعه. أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المعجزات، هذه الرؤى... أتيتُ إلى هنا كي أتكلّم عن البترول، عن إيران، عنك... وحتى عن زيجاتك، عن حـالات طلاقـك... لا أريـد أن أغيّر الموضـوع، إلا أنّ حالات الطـلاق تلـك لا بدَّ أنها كانت درامية بكـلّ معنى الكلمة. أليس كذلك، جلالة الملك؟

م. ر. ب.: يشق عليّ أن أقول؛ لأن حياتي مضت للأمام تحت لافتة القدر، وحين تعيّن على أحاسيسي الشخصية أن تعاني، كنتُ أحمي نفسي دوماً بالفكرة القائلة إن الوجع الذاتي يُسببه المصير. لا يسعكِ أن تتمـرّدي على القدر حين تكون لديـكِ رسالة تُريدين أن تؤديها. ولـدى الملك، المشاعر الشخصية لا قيمة لها. الملك لا يبكي على نفسه. ليس له الحق في ذلك. الملك يعني قبل كلّ شيء الواجب، ولـديَّ على الـدوام ذلك الشعـور القوي بالواجـب. على سبيل المثـال، حين قال لي والدي، «سوف تتزوج من الأميرة فوزية من مـصر»، لم يخطـر ببالي قط أن أعترض أو أقـول، «أنا لا أعرفها»، وافقتُ على الفور؛ لأنه من واجبي أن أوافق على الفور. المرء إما أن يكـون ملكاً أو لا يكون. حين يكـون المرء ملكاً، ينبغي له أن يتحمل جميع المسؤوليات وجميع الأعباء عن كونه ملكاً، من دون أن يستسلم لندم أو مطالبات أو أحزان الناس العاديين.

أ. ف.: دعنـا نتجـاوز حالـة الأميرة فوزية، جلالة الملـك، ونأخذ حالة

الأميرة ثريًا. لقد اخترتها أنت بنفسك. إذاً ألم تشعر بالأذى لمّا طلّقتها؟

م. ر. ب.: حسناً... نعم... شعرتُ بالأذى مدة من الزمن، نعم. وبمستطاعي أن أقول في الحقيقة إنه، على مدى مدة من الزمن، كان ذلك واحداً من أكبر الأحزان في حياتي. إلا أن العقل سرعان ما ساد، وسألتُ نفسي السؤال الآتي: ما الذي يتعين عليّ أن أفعله لبلادي؟ وكان الجواب هو أن أجد زوجةً أخرى أتقاسم معها قدري وأطلب منها وريثاً للعرش. بمعنى آخر، مشاعري لم تكن منصبَّةً على القضايا الخاصة بل الواجبات المَلَكية. دربتُ نفسي دوماً بألَّا أهتم بنفسي بل ببلادي وعرشي. إنما لا تدعينا نتحدَّث في هذه الأشياء عن حالات طلاقي وما إلى ذلك. أنا أعلى بكثير، أعلى بكثير جداً، من هذه القضايا.

أ. ف.: بطبيعة الحال، جلالة الملك، إنما يوجد شيءٌ واحد لا أتمالك نفسي من أن أسأله، بما أنني أعتقد أنه يجب أن يُوضَح. جلالة الملك، هل صحيح أنكَ أخذت زوجة أخرى؟ منذ اليوم الذي نشرت فيه الصحافة الألمانية خبراً...

م. ر. ب.: افتراء، وليس خبراً، وقد انتشر عبر وكالة الصحافة الفرنسية بعد أن نُشرت في الصحيفة الفلسطينية «المحار «لأسباب واضحة. افتراء غبي، حقير. سأقول لك فقط إن الصورة الفوتوغرافية للمرأة التي من المفترض أن تكون زوجتي الرابعة هي صورة ابنة أختي، ابنة شقيقتي التوأم. ابنة شقيقتي، وهي

فضـلاً عن ذلـك متزوجة ولديها طفـل. نعم، بعـض الصحف تفعـل كـلّ شيء كي تفضحنـي هـذه العملية يُديرها أشـخاص عديمـو الضمـير، عديمو الأخـلاق. إنـما كيف يسـتطيعون أن يقولـوا أنا، أنا الذي أردتُ القانون الـذي يمنع أن يتخذ الرجل أكثر من زوجة واحدة، تزوجتُ ثانيةً وسراً؟ إنه شيء مستحيل، إنه شيء لا يُطاق، إنه شيء مُخزٍ.

أ. ف.: جلالة الملك، لكنكَ مسـلم. دينك يسـمح أن تأخذ زوجة ثانية من دون أن تطلّق الإمبراطورة فرح ديبا.

م. ر. ب.: نعـم، بالطبـع. وفقـاً لدينـي، بوسعـي، بما أن الملكـة تُعطي موافقتهـا. و، لأكـون صادقـاً، يتعين على المرء أن يقـر أنه توجد حـالات حين... على سبيل المثال، حين تكـون الزوجة مريضة، أو لا تريـد أن تلبـي واجباتهـا كزوجـة، وبناءً على ذلك تسـبب التعاسـة لزوجهـا... على كلّ حـال! عليكِ أن تكـوني منافقة أو ساذجة كي تعتقدي أنّ بمسـتطاع الزوج أن يتحمل شـيئاً كهذا. في مجتمعـكِ، حين يقـع ظرف من ذلك النـوع، ألا يتخذ الرجل عشيقـة له، أو ربـما أكثر من عشيقة واحدة؟ حسـناً، في مجتمعنا، بمستطاع الرجل أن يأخذ زوجة ثانية. شريطة أن توافق الزوجة وتوافق المحكمة. من دون هذين الشرطيْن اللذين أسندتُ إليهما قانوني، على أية حال، الزواج الجديد لا يمكن أن يحصل. لذا أنا، أنا نفسي لا بدَّ لي أن أخرق القانون بأن أتزوج في السر؟ وأتزوج من مَن؟ ابنة شقيقتي؟! اسمعي، أنا حتى لا أرغب بمناقشة أيِّ

شيء فاحش للغاية. أرفض التحدُّث عنه لحظة أخرى.

أ. ف.: حسناً. لا تدعنا نتكلَّم عنه بعد الآن. دعنا نقُل إنك تنكر كلّ شيء، جلالة الملك، و...

م. ر. ب.: لا أنكر شيئاً. أنا حتى لا أقبل المشكلة كي أنكرها. أنا حتى لا أرغب بأن أُقتبس في الإنكار.

أ. ف.: كيف يحصل هذا؟ إن لم تنكر الخبر، سوف يستمر الناس في القول إن الزيجة حصلت.

م. ر. ب.: جعلتُ سفاراتي تصدر إنكاراً!

أ. ف.: ولم يصدِّقه أحد. لذا الإنكار يجب أن يأتي منك، جلالة الملك.

م. ر. ب.: لكن فعل الإنكار يُخزيني، يضايقني، لأن القضية ليست ذات أهمية بالنسبة لي. هل يبدو صحيحاً لكِ أنّ عاهلاً من مقامي، عاهلاً لديَّ مشاكلي، يحط نفسه كي ينكر مشاكله مع ابنة شقيقته؟ إنه شيء مثير للاشمئزاز! إنه شيء مثير للاشمئزاز! هل يبدو صحيحاً بالنسبة لكِ أنّ ملكاً، إمبراطور بلاد فارس يجب أن يضيّع وقته في التحدّث عن أشياء كهذه؟ التحدّث عن الزوجات، النساء؟

أ. ف.: يا له من شيء غريب، جلالة الملك. لئن كان هنالك ملكٌ واحد يتحدّث دوماً عن علاقته بالنساء، فهو أنت. والآن بدأتُ أشك أنّ النساء لا قيمة لهنّ في حياتك.

م. ر. ب.: ها أنا ذا أخشى فعلاً من كونكِ أدليتِ بملحوظة صحيحة. لأن الأشياء التي لها قيمة في حياتي، الأشياء التي تركت أثرها فيَّ، كانت مختلفة بكلِّ معنى الكلمة. يقيناً ليست زيجاتي، يقيناً ليس النساء. النساء، كما تعرفين... أنظري، دعينا نعبِّر بهذه الطريقة. أنا لا أقلل من شأنهن؛ استفدن أكثر مما استفاد أيُّ شخص آخر من (الثورة البيضاء) العائدة لي. كافحتُ بجدٍّ كي تكون لهن حقوق ومسؤوليات متساوية. حتى أني وضعتهن في الجيش حيث يحصلن على التدريب العسكري مدة ستة أشهر ومن ثم يُرسَلن إلى القرى كي يقاتلن في المعركة ضد الأمية. ولا تدعينا ننسَ أني ابن الرجل الذي خلع حجاب النساء في إيران. على أنني لن أكون وفيًّا إذا ما قلتُ إني تأثرت بواحدة منهن. ما من أحد يستطيع أن يؤثر فيَّ، لا أحد. فما بالكِ بالنساء. النساء لا يكنّ ذوات أهمية في حياة الرجل إلا إذا كنّ جميلات وفاتنات ويحافظن على أنوثتهن و... مسألة الأنوثة هذه، على سبيل المثال. ماذا تُريد أولئك المنخرطات في الحركات النسوية؟ إنكِ تقولين المساواة مع الرجال. أوه! لا أريد أن أبدو قاسياً، لكن... إنكِ متساوية في نظر القانون لكنكِ غير متساوية، اعذريني على قولي هذا، في القابلية.

أ. ف.: غير متساوية، جلالة الملك؟

م. ر. ب.: بلى. إنكم معشر النساء لم تنتجن ميخائيل أنجلو أو باخ. ولم تنتجن حتى طاهياً كبيراً. وإذا ما تحدّثتِ معي عن الفرصة، كلُّ

ما أستطيع قوله، هل تمزحين؟ هل حدث أن افتقدتن الفرصة كي تهبن التاريخ طاهياً كبيراً؟ أنتن معشر النساء لم تنتجن شيئاً كبيراً، لا شيء! أخبريني، كم عدد النساء القادرات على الحُكم من اللواتي قابلتِهنَّ خلال حواراتكِ؟

أ. ف.: اثنتان في الأقل، جلالة الملك. غولدا مائير وأنديرا غاندي.

م. ر. ب.: مَن يعرف؟... كلّ ما يسعني قوله هو إنّ النساء حين يحكمن، يكن أقسى بكثير من الرجال. أكثر فظاظة وخشونة. متعطشات للدم أكثر. إني أستشهد بحقائق، وليس بآراء. تكونين متحجرة القلب حين تكون لديكِ السلطة. فكري في كاترين دِي ميديشي[1]، كاترين روسيا[2]، إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا[3]. ناهيكِ عن ذكر

(1) كاترين دِي ميديشي Catherine de Medici (1519 – 1589): هي زوجة ملك فرنسا هنري الثاني الذي حكم في الفترة من (1547–1559) وكانت هي الوصية على العرش في المدينة من (1560–1574). ولدت في فلورنسا، إيطاليا – م.

(2) كاترين إمبراطورة روسيا أو كاترين العظيمة Catherine of Russia (1729 – 1796): هي إحدى أبرز وأهم وأكبر حُكَّام روسيا عبر التاريخ، وأعظم شخصيَّة حكمت البلاد الروسيَّة في التاريخ الحديث، ومن أطول النساء الحاكمات عهداً، إذ امتدَّ عصرُها من سنة 1762حتَّى وفاتها سنة 1796 عن عُمرٍ يُناهز 67 سنة. كما أنَّها من بين أشهر النساء الحاكمات عبر التاريخ ومن أعظمهنَّ شأناً وتأثيراً. وخِلال حقبة لاحقةٍ من حياتها تزوَّجت الإمبراطور الروسي بُطرس الثالث، ومن ثُمَّ تربَّعت على عرش الإمبراطوريَّة بِنفسها بعد الانقلاب الذي جرى ضدَّ حُكم زوجها والذي أفضى إلى اغتياله. انتعشت روسيا انتعاشاً كبيراً في ظل الحُكم الكاتريني، فتوسَّعت أراضي الإمبراطوريَّة على حساب جيرانها، وازدادت قُوَّتها العسكريَّة حتَّى اضطرَّت الدُول الأوروپيَّة الغربيَّة إلى الاعتراف بها كقُوَّةٍ عُظمى إلى جانبها في العالم – م.

(3) إليزابيث الأولى Elizabeth 1 (1533 – 1603): ملكة إنجلترا، وأيرلندا من 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1558 وحتى وفاتها. لُقبت بالملكة العذراء، وغلوريانا،

لوكريزيا بورجيا الإيطالية[1]، بسمومها ودسائسها. أنتن مُدبّرات مكائد، أنتن شريرات. كلّكنَّ.

أ. ف.: أنا مندهشة، جلالة الملك، لأنكَ أنتَ الذي عيّنت الملكة فرح ديبا الوصية على العرش إذا ارتقى ولي العهد العرش إذا لم يكن قد بلغ سن الرشد.

م. ر. ب.: هِم... حسناً... نعم. إذا وجب أن يكون ابني ملكاً قبل

والملكة المباركة الفاضلة، وهي الحاكم الخامس والأخير من سلالة تيودور. كانت إليزابيث في فترة حكمها أكثر اعتدالاً من والدها وإخوانها غير الأشقاء. وكان أحد شعاراتها «أرى، ولكني لا أتكلم». لم يكن لديها تعصب ديني، بل كانت تتجنب الاضطهاد المنهجي. وفي العام 1570 أعلن البابا أن إليزابيث حاكمة غير شرعية، كما أحل رعاياها من الولاء لها، وجرت مؤامرات عديدة تهدد حياتها، ولكن تم إحباط جميع هذه المؤامرات بفضل جهاز الخدمة السرية الذي يديره وزراؤها. عُرفت فترة حكم الملكة إليزابيث بالعصر الإليزابيثي، حيث اشتهرت تلك الحقبة بازدهار الدراما الإنجليزية بريادة عدد من الكتاب المسرحيين من مثل وليم شكسبير وكريستوفر مارلو، كما اشتهر ببراعة البحارة الإنجليز المغامرين مثل فرنسيس دريك – م.

(1) لوكريزيا بورجيا Lucrezia Borgia (1480 – 1519): ابنة غير شرعية لـ رودريغو بورجيا، الذي أصبح فيما بعد البابا الكسندر السادس، أكثر الباباوات إثارة للجدل في عصر النهضة، من عشيقته فانوتسا دي كاتاني. أصبحت عائلة لوكريسيا فيما بعد صورة مصغرة من الميكافيلية السياسية عديمة الرحمة والفساد الجنسي المزعوم لتكون سمة مميزة للعصر النهضة البابوية. كثيراً ما صُوّرت لوكريسيا باعتبارها امرأة فاتنة، وهو دور صوّرته عديد الأعمال الفنية كما هو الحال في الروايات والأفلام. قُذفت لوكريسيا بورجيا طوال القرون بأشنع التهم: ومنها القضاء على الأزواج، والأنسباء والأعداء بالسم، واتخاذ عدد كبير من العشاق، والتدخل في الشؤون السياسية في عدد من الدول الإيطالية. فبدت طوال فترة من الزمن غيرِ قصيرة وحشاً من وحوش الإثم والخطيئة – م.

العمر المطلوب، الملكة فرح ديبا ستكون هي الوصية على العرش. إنما سيكون هنالك أيضاً مجلس عليها أن تتشاور مع أعضائه. أنا، من الناحية الأخرى، لستُ مُجبراً على التشاور مع أيِّ أحد، وأنا لا أتشاور مع أيِّ أحد. هل فهمتِ الاختلاف؟

أ. ف.: فهمت. غير أنّ الحقيقة الباقية هي إن زوجتك ستكون الوصية على العرش. وإذا ما اتخذتَ هذا القرار، جلالة الملك، فهذا يعني أنك تعتقد أنها قادرة على الحُكم.

م. ر. ب.: هِم... على كلّ حال، هذا ما فكرتُ به لمّا اتخذتُ القرار. و... نحن لسنا هنا كي نتحدَّث فقط عن هذا الموضوع، صحيح؟

أ. ف.: يقيناً لا. زيادةً على ذلك أنني حتى لم أبدأ بسؤالك عن الأشياء التي تهمني كثيراً جداً، جلالة الملك. على سبيل المثال، حين حاولتُ التحدّث عنكَ، هنا في طهران، حبس الناس أنفاسهم في صمت مُخيف. إنهم حتى لا يجرؤون على النطق باسمك، جلالة الملك. ما سبب ذلك؟

م. ر. ب.: تعبيراً عن الاحترام البالغ، على ما أعتقد. معي، في الواقع، لا يتصرفون هكذا على الإطلاق. لمّا رجعتُ من أمريكا، قدتُ السيارة عبر المدينة في سيارة مفتوحة، ومن المطار إلى القصر كان يصفق لي بقوة ما لا يقل عن مليون فرد سيطرت عليهم الحماسة. كانوا يهللون، كانوا يهتفون بشعارات وطنية، لم يكونوا على الإطلاق مسجونين بالصمت، كما قلتِ. لم يتبدل شيء منذ

اليوم الذي أصبحتُ فيه ملكاً ورفع الشعب سيارتي على أكتافهم ونقلوها ثلاثة أميال. ماذا يُفترض أن يكون معنى سؤالكِ؟ أنهم كلّهم ضدي؟

أ. ف.: لا سَمِح الله، جلالة الملك. عنيتُ ما قلتُه. هنا في طهران الناس يخافون منك خوفاً شديداً بحيث أنهم حتى لا يجرؤون على نطق اسمك.

م. ر. ب.: ولماذا ينبغي لهم أن يتكلّموا عني إلى أجنبية؟ لا أفهم إلى ماذا تُشيرين.

أ. ف.: أنا أُشير إلى الحقيقة، جلالة الملك، بأنّ أناساً كثيرين يعتبرونك دكتاتوراً.

م. ر. ب.: هذا ما كتبوه في جريدة «لو موند»[1]. وماذا يهمني؟ أنا أعمل لصالح شعبي. أنا لا أعمل لصالح جريدة «لو موند».

أ. ف.: نعم، نعم، لكن هل تُنكر أنك ملك مستبدٌّ جداً؟

م. ر. ب.: لا، لن أنكر ذلك، لأنه بمعنىً من المعاني أنا كذلك. إنما انظري، كي تنفذي الإصلاحات، لا يستطيع المرء إلا أن يكون مستبدًّا. بالأخص حين تحصل الإصلاحات في بلدٍ مثل إيران،

---

(1) لو موند (بالفرنسية Le Monde)، تعني بالعربية (العالم): صحيفة فرنسية يومية مسائية، ظهرت أول طبعة منها في 19 كانون الأول/ ديسمبر 1944م. أسسها هيربرت بيوف ميرى بناءً على طلب من الجنرال تشارل ديغول بعد خروج الجيش الألماني من باريس في أثناء الحرب العالمية الثانية. بيوف ميرى طلب تحرير افتتاحية الاستقلال كشرط لتوليه المشروع – م.

حيث فقط خمسة وعشرون بالمائة من السكان يعرفون القراءة والكتابة. يتعين عليكِ ألا تنسي أنّ الأمية مستفحلة هنا استغرقُ عشرة أعوام في الأقل كي أمحوها. وأنا لا أقول أمحوها للجميع بل أقول أمحوها لأولئك الذين تبلغ أعمارهم اليوم دون سن الخمسين. صدّقيني، حين يكون ثلاثة أرباع الشعب لا يعرفون كيف يقرؤون أو يكتبون، لا يُمكنكِ تنفيذ الإصلاحات إلا بواسطة أكثر أنواع الاستبداد صرامة بخلاف ذلك لن تحققي شيئاً على الإطلاق. لو لم أكن قاسياً، لما كنتُ قادراً على إنجاز الإصلاح الزراعي وسيتوقف تماماً برنامجي الإصلاحي كلّه. وما أن يحصل هذا حتى يصفّي اليساريون المتطرفون اليمينيين المتطرفين في بحر ساعات قلائل، وإنّ (الثورة البيضاء) وحدها هي التي تنتهي. كان يجب عليّ أن أفعل ما فعلتُه. على سبيل المثال، أن آمر قواتي بفتح النار على أيِّ شخص يعارض توزيع الأراضي. إذاً أن تقولي إنه في إيران لا توجد ديمقراطية...

أ. ف.: هل توجد ديمقراطية، جلالة الملك؟

م. ر. ب.: أُؤكد لكِ، توجد ديمقراطية. أُؤكد لكِ أنه بطرائق عدّة إيران دولة ديمقراطية أكثر من بلدانكم الأوروبية. بقطع النظر عن الحقيقة القائلة إن الفلاحين يمتلكون أراضيهم، وإنّ العمال يشتركون في إدارة المصانع والمعامل، وإنّ أكبر المجمعات الصناعية تملكها الدولة بدلاً من أشخاص معينين، عليكِ أن تعرفي أنّ الانتخابات هنا تبدأ في القرى وتجري على مستويات محلية، بلدية،

وعلى مستوى الأقاليم. في البرلمان، بطبيعة الحال، هنالك حزبان فقط. إنما يوجد هنالك الأشخاص الذين يتقبلون البنود الاثني عشر لـ (الثورة البيضاء) العائدة لي، وكم عدد الأحزاب التي ينبغي أن تمثل أيديولوجية (الثورة البيضاء) العائدة لي؟ فضلاً عن ذلك، هذان الحزبان فقط هما القادران على حصول أصوات انتخابية كافية الأقليات مهملة جداً، مضحكة جداً في الحجم بحيث أنهم غير قادرين على انتخاب نائب عنهم. وحتى إذا قبلنا بهذه المعلومة، لا أريد أن تنتخب بعض الأقليات أيّ نواب عنها. مثلما لن أسمح للحزب الشيوعي. الشيوعيون خارج القانون في إيران. إنهم لا يُريدون سوى أن يدمِّروا، يدمِّروا، يدمِّروا، وهم يدينون بالطاعة للآخرين بدلاً من بلادهم ومَلِكهم. إنهم خونة، وسأكون مجنوناً إن سمحتم لهم بالوجود.

أ. ف.: ربما عبّرت عن رأيي بنحو سيِّئ، جلالة الملك. عنيتُ الديمقراطية كما نفهمها في (الغرب)، أي بمعنى، نظام يسمح لكلّ فرد أن يفكر كما يشاء ويستند إلى برلمان حيث تكون جميع الأقليات مُمَثَّلة...

م. ر. ب.: لكنني لا أريد هذا النوع من الديمقراطية! ألا تفهمين؟ لا أعرف ماذا أفعل مع ديمقراطية من هذا النوع! إنها كلّها مُلككم، باستطاعتكم أن تأخذوها ملكاً لكم! ديمقراطيتكم الباهرة! سترين، في غضون سنوات قلائل، إلى أين ستقودكم ديمقراطيتكم الباهرة.

أ. ف.: حسناً، ربما تكتنفها بعض الفوضى. إلا أنها الشيء الوحيد الممكن إذا كنتَ تحترم الإنسان وحرية تفكيره.

أ. ف.: حرية التفكير، حرية التفكير! الديمقراطية، الديمقراطية! مع أطفال في سن الخامسة يمضون في إضراب ويستعرضون في الشوارع.

أ. ف.: هذه هي الديمقراطية؟ هذه هي الحرية؟

م. ر. ب.: حسناً. ليست بالنسبة لي. ودعيني أُضف: كم هو حجم الدراسة التي أنجزتموها في الأعوام القليلة الأخيرة في جامعاتكم؟ وإذا ما واصلتم عدم الدراسة في جامعاتكم كيف يمكنكم أن تُسايروا مُتطلبات التكنولوجيا؟ ألن تصبحوا خدماً للأمريكيين بفضل نقص استعداداتكم، ألن تُصبحوا بلداناً من الدرجة الثالثة أو الرابعة؟ الديمقراطية، الحرية، الديمقراطية! لكن ماذا تعني هاتان الكلمتان؟

أ. ف.: اعذرني إذا ما نلتُ حريتي في قول ذلك، جلالة الملك. لكن في رأيي إنهما تعنيان، على سبيل المثال، عدم إزالة كتب معينة من مخازن الكتب حين يأتي الرئيس نيكسون إلى طهران. أعرف أن كتابي عن ڤيتنام رُفع من مخازن الكتب لمّا أتى نيكسون إلى هنا ولم يَعُد إلا بعد مغادرته.

م. ر. ب.: ماذا؟

أ. ف.: نعم، نعم.

م. ر. ب.: لكنكِ لستِ في القائمة السوداء، أليس كذلك؟

أ. ف.: هنا في طهران؟ لا أعرف. ربما أنا في هذه القائمة. أنا في اللائحة السوداء للجميع.

م. ر. ب.: هِـم. وهـا أنـا ذا أستقبلـك في قـصري، وأنـتِ هنا جالسـة بجواري...

أ. ف.: وهذا لطف كبير منك، جلالة الملك.

م. ر. ب.: هِم... إنه بالتأكيد يكشف أنّ لدينا ديمقراطية وحرية هنا...

أ. ف.: إنـه يكشـف ذلـك بالتأكيـد. إلا أننـي أود أن أسألك شـيئاً ما، جلالـة الملك. أود أن أسألك: لو أننـي إيرانية بدلاً من أن أكون إيطاليـة، وعشتُ هنا وفكرتُ كما أفكـر الآن وأعيش كما أعيش الآن، أعني إذا انتقدتُكَ، هل ترميني في السجن؟

م. ر. ب.: ربـما. إذا مـا فكـرتِ وكتبتِ على الضد مـن قوانيننا، سوف تُحالين إلى المحاكمة.

أ. ف.: حقاً؟ وأخضع للعقوبة أيضاً؟

م. ر. ب.: أعتقد ذلك. بالطبع. لكن، بيننا، لا أعتقد أنكِ ستجدين أنه مـن السـهل أن تنتقديني أو تهاجميني في إيران. لمـاذا تنتقديني أو تهاجميني؟ بسـبب سياستي الخارجية؟ بسبب سياستي النفطية؟ لأني وزعتُ الأراضي على الفلاحين؟ لأني سمحتُ للعمال في أن يتقاسمـوا الأرباح إلى درجة عشرين بالمائـة وأن يكونوا قادرين

على التخزين إلى أربعين بالمائة؟ لأني حاربتُ الأمية والمرض؟ لأني جلبتُ التقدّم للبلاد حيث لم يكن هنالك سوى قليل منه أو لا تقدّم على الإطلاق؟

أ. ف.: لا، لا. لا ليس لهذه الأسباب، جلالة الملك. أهاجمك... دعني أرى... أعرف: بسبب القمع الذي يُنفذ ضد الطلبة والمثقفين في إيران، على سبيل المثال. قيل لي إن السجون والمعتقلات مكتظة جداً؛ بحيث أنّ المعتقلين الجدد يجب وضعهم في معسكرات للجيش. هل هذا صحيح؟ لكن كم يبلغ عدد السجناء السياسيين في إيران اليوم؟

أ. ف.: لا أعرف على وجه الدقة. يعتمد الأمر على ما تعنينه بتعبير «السجناء السياسيين». إن كنتِ تتكلّمين عن الشيوعيين، على سبيل المثال، أنا لا أعدّهم سجناء سياسيين لأنّ القانون يمنع أن يكون المرء شيوعيًّا. بناءً على ذلك فإن الشيوعي بالنسبة لي ليس سجيناً سياسياً بل هو مجرم عادي. وإذا ما كنتِ تقصدين عندئذ أولئك الذين تتسبب أفعالهم بموت كبار السن، النساء، الأطفال الأبرياء، فالأمر أوضح بكلّ معنى الكلمة بحيث أني حتى لا أعدّهم سجناء سياسيين. وتجاههم، لا أُبدي أيّ رحمة. أوه، كنتُ أصفح دوماً عن أولئك الذين حاولوا قتلي، إنما لا أُبدي أدنى شفقة تجاه أولئك المجرمين الذين تسمونهم «الفدائيين «أو تجاه خونة البلاد. إنهم صنف من البشر قادرون

على قتل ابني لمجرد أن يدبِّروا خطة ضد السلامة العامة. إنهم أشخاص يجب التخلّص منهم.

أ. ف.: في حقيقة الأمر، لقد رميتَهم بالرصاص، صحيح؟

م. ر. ب.: أولئك الذين قتلوا الناس، بالطبع. لقد رُموا بالرصاص. لا لأنهم شيوعيون بل لأنهم إرهابيون. الشيوعيون ببساطة عوقبوا بالسجن، على مدى حقب زمنية تتراوح بين أعوام قليلة إلى أعوام طويلة. أوه، بوسعي أن أتخيّل ماذا تفكرين بشأن عقوبة الموت، وما إلى ذلك. لكن، كما تعرفين، بعض الآراء تعتمد على نوع التعليم الذي تلقّاه المرء، على الثقافة، على الجو، ويجب ألا تعدِّينه شيئاً مُحتم الحدوث، مسألة أنّ ما ينطبق على بلدٍ ما ينطبق على البلدان كلّها. خُذي بذرة تفاح وازرعيها في طهران، ثم خُذي بذرة أخرى من ثمرة التفاح نفسها وازرعيها في روما الشجرة التي تنمو في طهران لن تكون الشجرة ذاتها كتلك الشجرة التي تنمو في روما. هنا إنه شيء صحيح وضروري أن تطلقي الرصاص على أشخاص معينين. الورع شيء سخيف هنا.

أ. ف.: فيما أنا أرهف السمع إليك، كنتُ أتساءل مع نفسي شيئاً ما، جلالة الملك. كنتُ أتساءل ما رأيك بموت سلفادور أليندي.

م. ر. ب.: هو ذا ما أفكر به. أعتقد أنّ موته يلقّننا درساً؛ على المرء أن يكون شيئاً ما أو لا يكون، أن يكون منحازاً إلى هذه الجهة أو إلى تلك، إن كنتِ تريدين أن تنجزي شيئاً ما وتفوزي. تسويات

منتصف الطريق ليست ممكنة. بمعنى آخر، إما أن تكوني ثورية أو بخلاف ذلك تصرين على القانون والنظام لا يُمكنكِ أن تكوني ثورية قانونية ونظامية. فما بالك أن تكوني مسامحة. ولئن كان أليندي يُريد أن يحكم وفقاً لأفكاره الماركسية، لماذا لم ينظم نفسه بنحو أفضل؟ لمّا جاء كاسترو إلى السلطة، قتل ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص، بينما أنتم كلّكم قلتم «براڤو، براڤو، براڤو!» حسناً، بمعنىً من المعاني إنه يستحق تلك البراڤوات طالما أنه لا يزال في السلطة. وبعدها أنا أيضاً. وأنا أخطط للبقاء هناك من خلال الكشف أنه بالقوة باستطاعتكِ أن تفعلي أشياءَ كثيرة، حتى أنني أبرهن أنّ اشتراكيتكم انتهت. اشتراكية عتيقة الطراز، أكل الدهر عليها وشرب، مُنتهية. كان الناس يتحدّثون عن الاشتراكية منذ مائة عام؛ إنهم يكتبون عن الاشتراكية منذ مائة عام خلت. اليوم إنها لا تتوافق مع التكنولوجيا الحديثة. لقد أنجزتُ أكثر من السويديين، وفي الحقيقة لا يسعكِ أن تري أنه حتى في السويد الاشتراكيون يفقدون أرضيتهم؟ آ! الاشتراكية السويدية!... إنها حتى لم تؤمم الغابات والماء. أما أنا فقد فعلتُ ذلك.

أ. ف.: ثانيةً، جلالة الملك، أنا لا أفهم. هل تقول لي إنه بمعنىً ما إنك اشتراكي، وإن اشتراكيتك أكثر حداثة وتقدّماً من الاشتراكية الاسكندينافية؟

م. ر. ب.: بالطبع. لأن تلك الاشتراكية تعني نظاماً من الضمان

الاجتماعـي لأولئـك الذيـن لا يعملـون وعلى الرغـم من ذلك يسـتلمون راتبـاً في نهاية الشهر على غرار أولئـك الذين يعملون فعـلاً. أما اشـتراكية (الثـورة البيضـاء) العائدة لي، مـن الجانب الآخـر، فهي حافز للعمل. إنها اشـتراكية جديـدة، أصيلة، و... صدّقينـي، في إيـران نحن فعـلاً متقدّمون أكثر بكثـير منكم وفي الحقيقة لن نتعلّم منكم شـيئاً. لكن هذه أشـياء لن تكتبوها أنتم الأوربيين أبدًا الصحافة العالمية اخترقها إلى حدّ كبير اليساريون، مـا يُطلـق عليهم بـ «اليسـار». آ، هذا اليسـار! وحتـى إنّ رجال الدين قد أفسدوها. وحتى القساوسة! في الوقت الحاضر، حتى أنهـم تحوّلـوا إلى عناصر هدفها فقط هو أن يدمِّـروا، أن يدمِّروا، أن يدمِّـروا. حتى في بلدان (أمريكـا اللاتينية)، حتى في إسبانيا! إنه يبدو شـيئاً لا يُصدّق. إنهم يُسـيئون استخدام كنائسهم. إنهم يتكلّمـون عـن العدالـة، عن المسـاواة... آ، هذا اليسـار! سوف ترين، سوف ترين، إلى أين سيجلبكم.

أ. ف.: دعنـا نعد إليـك، جلالة الملك. مُتعنِّتٌ جداً، قـاسٍ جداً، وربما حتـى عديم الشفقـة، وراء هذا الوجه الحزين. في النهاية شـديد الشبه بأبيك! إني أتساءل إلى أيّ مدى تأثرتَ بأبيك؟

م. ر. ب.: لم أتأثـر بـه على الإطـلاق. ولا حتى أبي كـان باستطاعته أن يؤثـر فيَّ. قلتُ لك، ما من أحد يُمكن أن يؤثر فيَّ! نعم، أنا مولع بـأبي. نعـم، أنا مُعجب بـه. إلا أنّ هذا هو كـلّ شيء. لم أسعَ قط إلى استنسـاخه، إلى تقليـده. ولا حتى كان ذلك ممكنـاً، حتى إذا

أردتُ. بما أن شخصيتينا مختلفتان للغاية. أبي بدأ من اللا شيء. لمّا جاء إلى السلطة، لم يكن البلد يمتلك شيئاً. ولا حتى كان يمتلك المشاكل التي نملكها الآن على الحدود، بخاصة مع الروس. وكان بمستطاع أبي أن يُقيم علاقات حسن جوار مع الجميع. التهديد الرئيس الوحيد تَمَثَّل من قبل الإنكليز، الذين في العام 1907 قسّموا إيران بينهم وبين الروس، وأرادوا أن تكون إيران نوعاً من الأرض لا تنتمي لأحد بين روسيا وإمبراطوريتهم في الهند. لكن الإنكليز تخلّوا تالياً عن هذه الخطة وأصبحت الأمور سهلة إلى حدٍّ ما بالنسبة لأبي.

أنا، بدلاً من ذلك... لم أبدأ من لا شيء، وجدتُ عرشاً. لكنني ما أن كنتُ على العرش حتى ألفيتُ نفسي أنه يتعين عليّ أن أقود بلداً احتله الأجانب. ولم يكن عمري يتجاوز الحادية والعشرين. هذا ليس بالعمر الكبير، سن الحادية والعشرين، ليس بالعمر الكبير. زيادة على ذلك، لم يكن أمامي مجرّد أن أُبقي الأجانب تحت السيطرة ولا شيءَ سوى هذا. كان يجدر بي أن أواجه (الطابور السادس) في اليمين المتشدد واليسار المتشدد كانوا يرومون أن يفرضوا تأثيراً أكبر علينا، الأجانب خلقوا يميناً متشدداً ويساراً متشدداً... لا، لم يكن الأمر هيّناً بالنسبة لي. ربما كان أصعب عليّ مما كان على أبي. من دون الأخذ بالحسبان عهد (الحرب الباردة)، التي استمرت حتى سنوات قلائل خلت.

أ. ف.: جلالة الملك، ذكرتَ توًّا المشاكل التي واجهتها على الحدود. مَن هو جاركَ الأسوأ اليوم؟

م. ر. ب.: لا يمكنكِ أن تجزمي، بما أنكِ لا تعرفين من هو جاركِ الأسوأ. إلا أنني أميل إلى القول في هذه اللحظة إنه العراق.

أ. ف.: أنا مندهشة، جلالة الملك، أنك تحدد العراق بوصفه جارك الأسوأ. كنتُ أتوقَّعك أن تقول (الاتحاد السوفييتي).

م. ر. ب.: (الاتحاد السوفييتي)... لدينا مع (الاتحاد السوفييتي) علاقات دبلوماسية وتجارية جيدة. لدينا مع (الاتحاد السوفييتي) أنبوب غاز. أعني أننا نبيع الغاز لـ (الاتحاد السوفييتي). التقنيون يأتون إلينا من (الاتحاد السوفييتي). و(الحرب الباردة) انتهت. غير أن المسألة مع (الاتحاد السوفييتي) ستبقى دوماً كما هي عليه الآن، وبالتفاوض مع الروس، إيران يجب أن تبقي في بالها المعضلة الرئيسة: هل تصبح شيوعية أو لا؟ ما من أحد يستطيع أن يكون مخبولاً أو ساذجاً جداً كي ينكر الإمبريالية الروسية. ومع أنّ روسيا لها على الدوام سياسة إمبريالية، الحقيقة الباقية هي أنها أخطر بكثير اليوم؛ لأنها مرتبطة بالعقيدة الشيوعية. أعني أنه من الأسهل أن تواجهي البلدان التي هي إمبريالية فقط من مواجهة البلدان الامبريالية والشيوعية معاً. يوجد ما أسمِّيه «حركة الإتحاد السوفييتي الشبيهة بالكماشة». إنهم يحلمون بالوصول إلى (المحيط الهندي) من خلال المرور عبر (الخليج الفارسي). وإيران هي الحصن الأخير للدفاع عن حضارتنا،

عـما نعدّه مبجَّلاً. لئن كانوا يسـعون للهجوم عـلى هذا الحصن، بقاؤنا على قيد حياتنـا سوف يعتمد حصراً على قدرتنا وعزيمتنا في المقاومة. لذا فإن مسألة المقاومة تظهر من الآن فصاعداً.

أ. ف.: وإيران قوية عسكريًّا إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟

م. ر. ب.: قويـة جـداً، إنما ليسـت قوية بما يكفي كـي تقاوم الروس في حالـة الهجوم. هذا شيء واضح. على سبيل المثال، ليس بحوزتي قنبلـة ذريـة. إلا أنني أحس أنّ إيـران قوية بما يكفـي كي تقاوم (الحـرب العالميـة الثالثـة) في حالة نشوبها. أجـل، قلت (الحرب العالميـة الثالثـة). كثيرون يعتقـدون أنّ (الحرب العالميـة الثالثة) تندلـع فقط عـلى (البحر المتوسط)، إلا أنني أقـول إنها يُمكن أن تندلـع فقط بنحـو أسهل على إيـران. أوه، أسهـل بكثير! نحن، في الحقيقة، الذين نسـيطر على مصـادر الطاقة العالمية. كي يصل إلى بقيـة بلـدان العالم، البترول لا يمر عـبر (البحر المتوسط)، إنه يمر عبر (الخليج الفارسي) و (المحيط الهندي). لذا إذا ما هاجمنا (الاتحاد السوڤييتي)، سوف نقاوم. ومن الجائز أن يتغلبوا علينا، وعقـب ذلك البلدان غـير الشيوعية نادراً ما تظل جالسـة هناك مكتوفـة الأيدي. و، سوف تتدخَّـل. وستنشب (الحرب العالمية الثالثـة). بنحـو جلـيّ. العالم غـير الشيوعـي لا يُمكنـه أن يتقبل اختفـاء إيران، لأنه يعرف أنّ فقدان إيران يعني فقدان كلّ شيء. هل أن جوابي واضح؟

أ. ف.: واضـح تماماً؟ وبنحو مروِّع. لأنـك تتكلّم عن (الحرب العالمية

الثالثة) كأنها شيء سوف يحدث في المستقبل القريب، جلالة الملك.

م. ر. ب.: إني أتكلّم عنها باعتبارها شيئاً ممكن الحدوث على أمل ألا تحصل. كاحتمال بالنسبة للمستقبل القريب، أرى بدلاً من ذلك حرباً صغيرة مع واحد من جيراننا. على كلّ حال، لا شيءَ لدينا باستثناء الأعداء على حدودنا. ليس العراق وحده هو الذي يسبب لنا المشكلة.

أ. ف.: وصديقتكم الكبيرة، جلالة الملك، أعني (الولايات المتحدة) هي بعيدة جغرافيًّا.

م. ر. ب.: لو سألتِني مَن الذي أَعدُّه أعزَ أصدقائنا، سيكون الجواب (الولايات المتحدة) من بين أصدقاء آخرين. لأنّ (الولايات المتحدة) ليست صديقتنا فقط كثيرٌ من أصدقائنا يُبدون لنا الصداقة ويؤمنون بنا، بأهمية إيران. غير أنّ (الولايات المتحدة) تفهمنا بنحو أفضل للسبب البسيط ألا وهو أنّ لها مصالحَ كثيرةً جداً هنا. مصالح اقتصادية، وبناءً على ذلك هي مصالح مباشرة، مصالح سياسية ومن هنا فهي مصالح غير مباشرة... قلتُ للتو إن إيران هي مفتاح، أو أحد مفاتيح العالم. أحتاج فقط إلى أن أضيف أنّ (الولايات المتحدة) لا يسعها أن تحتجز نفسها في داخل حدود هذا البلد، لا يسعها أن ترجع إلى (مبدأ مونرو)[1].

(1) مبدأ مونرو Monroe Doctrine: هو سياسة أمريكية قُدِّمت في 2 كانون الأول/ ديسمبر 1832، قالت إن المحاولات الإضافية من الدول الأوروبية لاستعمار أراضٍ أو

إنها مُرغمَة على أن تلتزم بمسؤولياتها تجاه العالم وبالتالي أن تهتم بنا. وهذا لا يقلل شيئاً من استقلالنا، لأنّ الجميع يعرفون أنّ صداقتنا مع (الولايات المتحدة) لا تجعلنا عبيداً لـ (الولايات المتحدة). القرارات تُتخذ هنا، في طهران. وليس في مكان آخر. لا في واشنطن، على سبيل المثال. أنسجمت مع نيكسون مثلما انسجمت مع رؤساء آخرين لـ (الولايات المتحدة)، إلا أنني لا أستطيع الاستمرار في الانسجام معه إلا إذا كنتُ متيقناً من أنه يُعاملني كصديق له. في الواقع، كصديق وخلال أعوام قليلة سوف يمثل قوة عالمية.

أ. ف.: كما أنّ (الولايات المتحدة) لها علاقة صداقة طيبة مع إسرائيل، وقد عبّرتَ أنتَ نفسك مؤخراً عن القدس/ أورشليم بمصطلحات قاسية جداً. وكنتَ أقل قسوة تجاه العرب، من الناحية الأخرى، الذين ترغب بتحسين علاقاتك معهم، على ما يبدو.

التدخل في شؤون دول الأمريكتين ستعتبره (الولايات المتحدة) عملاً عدائيًا يتطلب تدخلًا أمريكيًا. وقد أكد مبدأ مونرو على أن نصف الكرة الغربي يجب ألا يتعرض للمزيد من الاستعمار من قبل البلدان الأوروبية، وأن الولايات المتحدة لن تتدخل في المستعمرات الأوروبية الموجودة بالفعل ولا في الشؤون الداخلية للبلدان الأوروبية. صدر المبدأ في وقت كانت فيه عدّة بلدان في أمريكا الجنوبية على وشك الاستقلال عن إسبانيا؛ لذا فقد كانت (الولايات المتحدة)، تعكس مخاوف رددتها بريطانيا العظمى، كانت تأمل في ألا تأخذ قوة أوروبية مستعمرات إسبانيا. إلا أن الاستفزاز الفوري حصل في أوكاسه (آلاسكا تقريباً) العام 1821 ، حين قامت روسيا بتأكيد حقوقها في الشمال الغربي ومنعت السفن غير الروسية من الاقتراب من الساحل – م.

م. ر. ب.: نحـن نشيِّـد سياستنـا على قواعـد جوهريـة، ولا يُمكننا أن نتقبـل الفكرة القائلة أن يضم بلدٌ مـا، في هذه الحالة (إسرائيل)، أرضـاً عبر استعمال الأسلحـة. لا يمكننا أن نقبل لأنه إذا طُبقت هـذه القاعدة على العرب، فمن الجائـز أن تُطبق علينا في يوم من الأيـام. إنـكِ تقولـين لي إن الحال كان دومـاً هكـذا، إنّ الحدود كانـت تتغير دومـاً نتيجة لاستعمال الأسلحـة والحرب. أؤيدك، إنـما لا يوجـد سبـب لأن نميّـز هـذه الحقيقـة باعتبارهـا قاعدة صحيحة. زيـادةً على ذلك الجميع يعرفـون أنّ إيران قبلت قرار (الأمم المتحدة) الصادر في العام 1967، وإذا فقد العرب الإيمان بـ (الأمم المتحدة)، كيف يتسنى لكِ أن تقنعيهم أنهم هُزموا؟ ما الـذي يُبعدهم عن أن يأخذوا ثأرهم؟ حتى من خلال استخدام سـلاح النفـط؟ النفط سـوف يذهـب إلى رؤوسهـم. إضافة إلى ذلك إنه أصلاً يذهب إلى رؤوسهم.

أ. ف.: جلالـة الملـك، إنـك تقـف مـع العرب لكنـك تبيـع النفط إلى الإسرائيليين.

م. ر. ب.: النفـط تبيعـه شركـات النفـط، وهـي تبيع للجميـع. نفطنا يذهـب إلى كـلّ مكان فلِـمَ لا يذهـب إلى إسرائيـل؟ إنه يذهب حيثـما يذهب. وفيما يتصـل بعلاقاتنا الشخصية مع إسرائيل، كما تعرفـين، ليـس لدينا سفارة في القـدس/ أورشـليم إلا إنه لدينا تقنيون إسرائيليون في إيران. نحن مسـلمون إلا إننا لسـنا عرباً. وفي السياسة الخارجية نتخذ موقفاً مستقلًّا جداً.

أ. ف.: هـل إنّ موقفـاً كهذا يتنبأ باليوم الذي تقيـم فيه إيران وإسرائيل علاقات دبلوماسية طبيعية؟

م. ر. ب.: لا. أو بالأحـرى إلى أن تُحـل مسـألة انسـحاب القـوات الإسرائيليـة مـن الأراضي المحتلة. وفيما يتعلّـق باحتمالات حل هـذه المسـألة، لا يمكنني سـوى أن أقـول إن الإسرائيليين ليس لديهم خيار آخر إن كانوا يُريدون أن يعيشوا بسـلام مع العرب. ليـس العـرب وحدهـم هـم الذيـن ينفقـون كميـات طائلة من الأمـوال على المـواد الحربية، بـل الإسرائيليون أيضـاً. ولا أرى كيف يسـتطيع العـرب والإسرائيليون أن يسـتمروا هكـذا زمناً طويلاً. زيادة على ذلك، ظواهر جديدة بدأت تحدث في إسرائيل إضرابـات، عـلى سبيل المثال. إلى متى سوف تسـتمر إسرائيل في رعايـة الـروح المروِّعة والرائعة التي ألهمتهـا في زمن تكوّنها؟ أنا أفكر بالأخص في الأجيال الجديدة في إسرائيل، وفي الإسرائيليين القادمين مـن (أوروبا الشرقية) الذين يجدون أنفسـهم يُعامَلون بطريقة مختلفة عن الآخرين.

أ. ف.: جلالـة الملك، قلتَ شـيئاً ما قبل قليـل صدمني. قلت إن إيران سـوف تمثل عاجلاً قوة عالمية. هل كنـتَ تُشير، ربما، إلى تنبؤات أولئك الاقتصاديين الذين يقولون إنه في غضون الأعوام السـتة والثلاثين القادمة ستكون إيران أغنى بلد في العالم؟

م. ر. ب.: إن القـول بأنها ستصبح أغنى بلد في العالم هي مبالغة أغلب الظن. لكن أن نقول إنها سوف تُصنف واحدة من بين أكبر وأقوى

خمسـة بلدان في العالم ليست مبالغة على الإطلاق. وبالتالي إيران سوف تجد نفسها في نفس مستوى (الولايات المتحدة)، (الاتحاد السـوڤييتي)، اليابـان، وفرنسـا. أنا لا أذكر الصـين؛ لأن الصين ليسـت بلداً غنيًّا، ولا يمكنها أن تكـون بلداً غنيًّا إذا ما بلغ عدد سكانها في غضون الأعوام الخمسـة والعشريـن مليارا وأربعمائة مليـون نسـمة كما هـو متوقَّـع. نحن، مـن الناحيـة الأخرى، في غضون الأعوام الخمسة والعشرين سنكون ستين مليوناً كأقصى حـدٍّ. أوه، نعم، باستطاعتنا أن نتوقَّع ثـروة كبرى، وقوة كبرى، مهما يُحتمل أن يقول الشيوعيون. إنها ليست مصادفة أني مستعد لأن أطلق برنامج السيطرة على الإنجاب. وهذه هي النقطة التي أرغب أن أُشير إليها: لا يمكنكِ أن تفصلي الاقتصاد عن الأشياء الأخـرى، ومـا أن يكون بلدٌ ما غنيًّا اقتصاديًّـا، حتى يُصبح غنيًّا بالمعاني كلّها. إنه يُصبح قويًّا على المسـتوى العالمي. بالإضافة إلى ذلك، حين أتحدّث عن الاقتصاد، أنا لا أشـير فقط إلى النفط بل أشـير إلى اقتصاد متوازن يضم صنوف الإنتاج كلّها، من الإنتاج الصناعـي إلى الإنتاج الزراعي، من الأعمال اليدوية إلى الأجهزة الإلكترونيـة. علينـا أن ننتقل من السـجاجيد إلى الكومبيوترات النتيجـة، بـدلاً من ذلك، هـي إننا احتفظنا بالسـجاجيد في حين أضفنـا الكومبيوتـرات. لا نـزال نصنـع السـجاجيد يدويًّا، إلا أننـا نصنعها أيضاً بواسطة الماكينات. ومـا هو أكثر، نحن نصنع سجاجيد من الحائط إلى الحائط. سنويًّا نضاعف إنتاجنا القومي.

على أية حال هنالك إشارات كثيرة جداً بأننا سنصبح قوة عالمية. قبل عشرة أعوام، على سبيل المثال، حين بدأت (الثورة البيضاء) العائدة لي، كان هنالك مليون طالب وطالبة في الجامعات. يوجد اليوم ثلاثة ملايين ومائة ألف، وفي بحر عشرة أعوام سيكون هنالك خمسة ملايين أو ستة ملايين.

أ. ف.: قلتَ توًّا إنكَ لا تشير فقط إلى النفط، جلالة الملك، لكننا كلّنا نعرف أنه بفضل النفط أنكم تملكون الكومبيوترات، وبفضل النفط تُديرون محركات الماكينات التي تصنع السجاد، وأنّ ثروة الغد سوف تأتي إليكم أيضاً بفضل النفط. هل باستطاعتنا أن نتحدّث أخيراً عن السياسة التي تبنيتَها فيما يتعلّق بالنفط وفيما يتصل بـ (الغرب)؟

م. ر. ب.: إنه سؤال بسيط. أنا أمتلك هذا النفط ولا يمكنني أن أشربه. إلا أنني أعرف أنّ بوسعي أن أستغله إلى أقصى درجة من دون أن أبتز بقية دول العالم وحتى من خلال محاولة أن نبعده من أن يُستخدم لابتزاز بقية دول العالم. ولهذا اخترتُ سياسة ضمان بيعه للجميع من دون تمييز. لم يكن خياراً صعباً لم أفكر قط في أن أصطف مع البلدان العربية التي كانت تهدد بابتزاز (الغرب). قلتُ أصلاً إنّ بلدي بلدٌ مستقلٌ، والجميع يعرفون إن بلدي بلد مسلم إنما ليس بلداً عربيًّا، ولهذا ما أقوم به لا لأُرضي العرب بل لأساعد إيران. فضلاً عن ذلك إيران تحتاج إلى المال، وبالنفط يمكنكِ أن تكسبي أموالاً طائلة. أوه، هذا هو مجمل

الاختـلاف بيني وبين العـرب. لأن البلدان التي تقـول «إننا لن نبيـع النفـط بعـد الآن لـ[الغـرب] «لا تعرف مـاذا تفعل بمالها، ولهـذا هي لا تبالي فيما يتصل بالمسـتقبل. عادة لديهم سكان يبلغ تعدادهم ستمائة أو سبعمائة ألف نسـمة ومبلغ كبير جداً من المال في البنك باستطاعتهم أن يعيشوا طوال ثلاثة أو أربعة أعوام من دون أن يضخـوا أو يبيعـوا قطرة واحدة من النفط. ولسـتُ أنا. لديَّ هـؤلاء الواحد والثلاثون مليوناً ونصف نسـمة، واقتصاد يتعـين عليّ أن أطـوّره، ولديّ كذلك برنامـج إصلاحات ينبغي لي أن أكملـه. ولهذا، أحتاج إلى المال. أنا أعرف ماذا أفعل بالمال، ولا أستطيع أن أطيق عدم ضخ النفط. لا أستطيع أن أطيق عدم بيعه للجميع.

أ. ف.: في حين أنّ القذافي يسميّك خائناً.

م. ر. ب.: خائنـاً؟ ربـما أكـون خائنـاً، حـين آخـذ العمل كلّـه في يديّ وأتـصرّف بنسـبة الواحـد والخمسـين بالمائـة من الإنتـاج الذي كـان سابقاً يعود حصراً لشركات النفط الأجنبية؟ لم أكن أعرف أنّ القـذافي قـد وجّـه إليّ إهانة كهذه و... انظري، لا يسـعني أن آخذ السـيد القـذافي هذا على محمل الجـد، يمكنني فقط أن أتمنى لـه النجـاح في خدمة بلاده كـما نجحتُ أنا في خدمـة بلادي، لا يمكننـي سـوى أن أذكّـره إنه لا ينبغـي له أن يصرخ كثيراً جداً احتياطـي النفـط الليبـي سـوف ينفـد في غضون عـشرة أعوام. نفطـي، في الجانب الآخـر، سوف يدوم ثلاثـين أو أربعين عاماً.

وربما خمسين، ستين. يعتمد ذلك على مسألة ما إذا نكتشف آبار نفط جديدة. لكن في الأرجح سوف نكتشف آبار نفط جديدة. لكن حتى إذا لم يحصل ذلك، سوف نتدبر بنحو جيد بإفراط على السواء. إنتاجنا يزداد بنحو واضح في العام 1976 سوف نستخرج ما يصل إلى ثمانية ملايين برميل في اليوم. ثمانية ملايين برميل كمية كبيرة، كبيرة بكلّ معنى الكلمة.

أ. ف.: مهما يكن من أمر، لقد خلقت أعداءً قليلين بكلّ معنى الكلمة، جلالة الملك.

م. ر. ب.: هذا ما أزال غير قادر على ذكره. في الواقع، منظمة (الأوبك) لم تقرر بعد عدم بيع النفط لـ (الغرب)، وربما هو شيء جيد جداً أنّ قراري المتعلق بعدم ابتزاز (الغرب) سيحث العرب على أن يحذو حذوي. إن لم يكن كلّ العرب، في الأقل بعضهم. إن لم يحصل هذا الآن حصراً، فسوف يحصل في غضون وقت قصير. بعض الأقطار غير مستقلة على غرار إيران، وليس لديهم الخبراء الذين تمتلكهم إيران، وليس لديهم الشعب الذي يدعمهم مثلي. باستطاعتي أن أُملي شروطي، أما هم فلا يزالون غير قادرين على ذلك. ليس من السهل أن تصلي إلى النقطة التي تستطيعين فيها أن تبيعي نفطكِ مباشرة وتكوني متحررة من شركات النفط التي لديها نظام احتكاري على مدى عقود وعقود. حتى إذا ما تمكنت البلدان العربية من إتباع قراري... أوه، سيكون الأمر أسهل بكثير، وأكثر أماناً أيضاً، إذا ما كانت البلدان (الغربية)

هـم المشـترون حـصراً ونحـن البائعـون المبـاشرون. لـن يكون هنالـك استيـاء، ابتزاز، حقد، عـداوة... أجل، لعلـه شيءٌ جيد جـداً أني ضربـتُ مثالاً جيداً، وعـلى أية حال، سأمـضي قُدُماً في طريقـي هذا. أبوابنـا مفتوحة على وسعها لأيّ فرد يُريد أن يوقع عقـداً معنا، وكثيرون عرضوا أصلاً أن يفعلوا ذلك. بريطانيون، أمريكيون، يابانيون، هولنديون، ألمان. كانوا خجلين جداً في أول الأمر. إلا أنهم الآن يُصبحون أكثر جرأة من أيّ وقت مضى.

أ. ف.: وماذا عن الإيطاليين؟

م. ر. ب.: نحـن لا نبيع نفطاً كثيراً للإيطاليـين في الوقت الحاضر، غير أننا قـد نتوصل إلى اتفاق مهم مع (هيـأة الهيدروكاربون القومية)[1]، الـ (ENI)، وأعتقـد أننـا في طريقنا لأن نفعل ذلك. أجـل، ربما نُصبح شريكـين ممتازين مع (ENI)، وعلى أية حال علاقاتنا مع الإيطاليين كانت حسـنة على الدوام. منـذ زمن ماتيي [2]. ألم يكـن العقد الذي وقعتُـه مع ماتيي في العـام 1957 هو نجاحـي الأول في كسر النظام القديـم لاستغـلال شركـات النفط الأجنبيـة؟ أوه، لا أعـرف ماذا

(1) هيـأة الهيدروكاربـون القوميـة (بالإيطاليـة Ente Nazionale Idrocarburi)، اختصـاراً ENI، (بالإنكليزيـة National Hydrocarbon Authority) ملحوظـة المترجم من الإيطالية إلى الإنكليزية – م.

(2) إنريكـو ماتيـي Enrico Mattei (1906 – 1962): مديـر حكومي إيطالي لـ (هيأة الهيدروكاربـون القومية)، اختصاراً بالإيطالية ENI. في ظل إدارته تفاوضت الـ ENI للحصـول على امتيازات نفط مهمة في (الشرق الأوسط) وكذلك أبرمت اتفاقاً تجارياً مع (الإتحاد السوفييتي) – م.

يقـول الآخـرون عن ماتيي؛ لكننـي أعرف أني لن أكـون قادراً على أن أكون موضوعيًّا في التكلّم عنه. لقد أحببته حبًّا جمًّا. إنه شـخص لطيـف للغايـة، وهـو رجـل قـادر على قـراءة المسـتقبل، شـخصية استثنائية فعلاً.

مكتبة .. سر من قرأ

أ. ف.: في حقيقة الأمر، لقد قتلوه.

م. ر. ب.: ربـما. لكـن مـا كان ينبغي لـه أن يطير في ذلك الجو السيِّئ. الضباب في ميلانو يغدو كثيفاً جداً في الشتاء، والنفط بوسعه أن يكون لعنةً حقًّا. لكن ربما لم يكن الجو السيِّئ وحده هو السبب. وعلى كلّ الحال إنه عارٌ كبيرٌ. بالنسـبة لنا نحن أيضاً. حسـناً، أنا لا أقول إن موت ماتيي خلق نكسة لعلاقاتنا مع الـ (ENI). لا، لا، بـما أننـا نهم بـأن نتوصَّـل إلى صفقة كبيرة. لم يكن بمسـتطاع ماتيي أن يفعل أفضل مما فعله، بما أنَّ ما نوشك أن نفعله الآن هو الحـدّ الأقصى في حقيقة الأمر. مع ذلك لـو ظلّ ماتيي حيًّا، لكنا توصَّلنا إلى هذا الاتفاق منذ سنوات خلت.

أ. ف.: أود أن أعود وأستوضح النقطة التي ذكرتَها قبلاً، جلالة الملك. أتعتقد أم لا تعتقد أنّ العرب سوف ينتهي بهم المطاف أن ينفذوا تهديدهم في أن يوقفوا كلّ مبيعاتهم لـ (الغرب)؟

م. ر. ب.: يصعـب القـول. إنـه شيء صعب جداً، لأنه بمسـتطاع المرء أن يقـول فقـط (نعـم) أو (لا)، بفرصـة متسـاوية في أن يكـون مُخطئـاً. على أنني أميل إلى أن أقول (لا). أن يوقفوا النفط المجهز

إلى (الغـرب)، أن يتخلّوا عن مصدر ربـح، سيكون قراراً صعباً جداً بالنسـبة لهم. ليس العرب جميعاً يتبعون سياسة القذافي، ربما بعضهـم لا يحتاجـون إلى المـال، إلا أنّ بعضهـم الآخر يحتاجون إليه.

أ. ف.: وخلال ذلك سوف يرتفع سعر النفط؟

م. ر. ب.: يقينـاً سـوف يرتفـع. أوه، بشكـل مؤكـد جـداً! يمكنكِ إن تعـودي إلى الأخبار السيئة وتضيفي قائلة إنها آتية من شـخص يعـرف عَـمّ يتحـدث. أعرف كـلّ ما يُمكـن معرفته فيـما يتصل بالنفط، كلّ شيء. إنه تخصصي فعلاً. وأقول لكِ كمتخصص إن سعر النفط يجب أن يرتفع. ما من حلٍّ آخر. غير أنه حلٌّ جلبتموه أنتـم (الغربيـين) أنفسـكم. أو، إن شـئتِ، حلٌّ جَلَبـه مجتمعكم الصناعي المتحضر بإفراط. لقد رفعتم سعر القمح بنسبة ثلاثمائة بالمائة، والشيء نفسه لسـعر السكر والاسمنت. وجعلتم أسعار المـواد البتروكيمياوية ترتفع ارتفاعـاً سريعاً. أنتم تشترون النفط الخام منّا ومن ثم تبيعونه إلينا مجدداً، مصفى إلى بيتروكيمياوات، بمائة ضعف السـعر الذي دفعتموه مقابـل شرائه. إنكم تجعلوننا ندفـع أكثر عن كـلّ شيء، أكثر بنحو مُخزٍ، وإنـه شيء عادل فقط أنـه من الآن فصاعـداً عليكـم أن تدفعوا أكثر عـن قيمة النفط. لنقل... عشرة أضعاف أكثر.

أ. ف.: عشرة أضعاف أكثر!

م. ر. ب.: لكنكم أنتم، أكرر، الذين أجبرتمونا على رفع الأسعار! ومن المؤكد لديكم أسبابكم. إلا أنني أيضاً، إذا ما جاز لي القول، لديّ أسبابي. فضلاً عن ذلك نحن لن نستمر في الخصام إلى الأبد في أقل من مائة عام مهنة النفط هذه سوف تنتهي. الحاجة إلى النفط ترتفع بسرعة متزايدة، مخزونات النفط تُستهلك، وعما قريب يتعين عليكم أن تجدوا مصادر جديدة للطاقة. مصادر ذرية، شمسية، أو ما إلى ذلك. ستكون هنالك حلول كثيرة؛ الحل الواحد لن يكون كافياً. على سبيل المثال، نحن أيضاً يتعين علينا أن نلجأ إلى التوربينات التي تحرّكها تيارات المحيط. حتى أنا أفكر في بناء منشآت ذرية كي أُحلّي ماء البحر. وإلا يتعين علينا أن نحفر بنحو أعمق، ونبحث عن النفط عند عشرة آلاف مترٍ تحت مستوى سطح البحر، نبحث عنه في (القطب الشمالي)... لا أعرف. أعرف فقط أنّ الأوان قد حلّ كي نتخذ تدابير قوية وألا نضيّع النفط كما كنا نفعل دوماً. إنها جريمة أن نستعمله كما نستعمله اليوم، النفط الخام. لو إننا نفكر فقط أنه حالاً لن يكون هنالك نفط خام بعد الآن، لو إننا نتذكر فقط أنه يُمكن تحويله إلى مشتقات عددها عشرة آلاف، أعني مُنتجات بيتروكيمياوية... بالنسبة لي إنها على الدوام صدمة، على سبيل المثال، أن أرى النفط الخام يُستخدم للمولدات الكهربائية، من دون أن نبالي بالقيمة الضائعة. أوه، لمّا تتحدّثين عن النفط، الشيء المهم جداً ليس السعر، إنه ليس مقاطعة القذافي، إنها الحقيقة التي مفادها

أن النفط ليس أزليًّا وإننا قبل أن نستهلكه علينا أن نبتكر مصادر جديدة للطاقة.

أ. ف.: هذه اللعنة نسميها «النفط».

م. ر. ب.: في بعض الأحيان أتساءل ما إذا لم يكن هو فعلاً هكذا. كُتب كثيرٌ جداً عن اللعنة التي نسميها «النفط»، وصدّقيني، حين تملكينه، من ناحية النفط بركة إلا أنه من الناحية الأخرى مُصيبة كبرى. لأنه يُمثل خطراً كبيراً. العالم بوسعه أن ينفجر بسبب هذا النفط اللعين. وحتى إذا كنتِ تواجهين، مثلي، تهديداً... أرى أنكِ تبتسمين. لماذا؟

أ. ف.: أبتسم، جلالة الملك، لأنك تكون مختلفاً تماماً حين تتحدّث عن النفط. يشرق وجهك، تتمايل، وتركز انتباهك. تغدو إنساناً آخر، جلالة الملك. وأنا أمضي بعيداً من دون أن أتمكن من فهمك. من جهة، أنك إنسان عتيق الطراز بكلّ معنى الكلمة، ومن الجهة الأخرى حديث للغاية و... ربما هما عنصران يلتحمان في داخلك، العنصر (الغربي) والعنصر (الشرقي) بحيث...

م. ر. ب.: لا، نحن الإيرانيين لا نختلف كثيراً جداً عنكم، أنتم الأوربيين. إذا كانت نساؤنا يلبسن الحجاب، نساؤكم يفعلن هذا أيضاً. حجاب (الكنيسة الكاثوليكية). لئن كان رجالنا لديهم أكثر من زوجة، رجالكم أيضاً كذلك. الزوجات تسمونهنَّ «عشيقات». وإذا كنا نؤمن بالرؤى، أنتم تؤمنون بالعقائد. إذا

كنتم تحسبون أنفسكم أسمى منّا ، نحن لا نمتلك عُقداً. لا تنسي أننا مهما نمتلك، لقد علّمناكم قبل ثلاثة آلاف سنة خلت.

أ. ف.: ثلاثة آلاف سنة خلت... أرى أنكَ تبتسم أيضاً، جلالة الملك. إنكَ لم تعد تبدو حزيناً جداً. آ، إنه شيءٌ سيِّئ جداً أننا لا نستطيع أن نتفق على مسألة القوائم السود.

م. ر. ب.: لكن هل تستطيعين فعلاً أن تكوني في القائمة السوداء؟

أ. ف.: جلالة الملك. كما لو أنك لا تعرف، أنت (ملك الملوك) والذي يعرف كلّ شيء! غير أنني أقول لك، من الجيد أن يكون الحال كذلك. أنا في القائمة السوداء لدى الجميع.

م. ر. ب.: يا للأسف. أو بالأحرى، لا يهمّ. حتى إذا كنتِ في القائمة السوداء لإداراتي، سأضعكِ في قائمة قلبي البيضاء.

أ. ف.: إنكِ تُخيفني، جلالة الملك. جزيل الشكر، جلالة الملك.

آيـة اللّه خُميني

التاريخ يُضاف لاحقاً

إنهم يسـمونه (الكتـاب الأزرق) لأنّ للغلاف خلفيةً زرقاءَ سماوية برّاقـة، غـير أنّ العنـوان الدقيق هـو (وصايا آية الله خميـني). إنه يحتوي عـلى قواعد الحياة اليومية التي يجب، وفقاً لخميني، أن يعرفها كلّ رجل شـيعي أو امرأة شـيعية، وأن يلتزما بها بدقة شديدة. وكان آية الله يعمل على الكتاب على مدى سنوات طوال، وتعامل مع طباعته شخصيًّا. وفي طهران كانوا يبيعونه حتى في الشوارع، وكلّ شـخص قادر على القراءة حصل على نسـخة منـه. أما في (الغـرب)، على أية حال، فقـد اكتشفوه بالمصادفـة، وفقط الصحف الأكثر شـجاعة هي التـي تجرأت في تقديم ترجمات للعبارات الأكثر ترويعاً.

«الرجـل الـذي لديه علاقات جنسـية مـع حيوان، نعجـة، على سبيل المثال، لا يُمكنه أن يتناول لحم ذلك الحيوان، لأن تناوله سيكون إثماً قاتلاً. والشيء نفسـه ينطبق إذا كانت النعجة قـد شربت حليب خنزيرة؛ في تلك الحالة، لا يستطيع الرجل أن يقيم علاقة جنسية مع الخنزيرة، أيضاً».

«إذا تـزوج رجلٌ من فتـاة لم تبلغ سن التاسعة وأقام علاقات معها، يتعـين عليـه ألا يفض غشاءَ بكارتها، أو يجب عليـه ألا يواصل علاقاته معها».

«أم، بنت، أو شقيقة رجل مارس علاقة جنسية شرجية مع رجل آخر لا يُمكنهن الزواج من ذلك الرجل. على أية حال، إذا حصل الزواج قبل أن تنكشف العلاقة الشرجية بين زوج المرأة وابنها، أبيها، أو شقيقها، يكون هذا الزواج شرعيًّا، طالما أنّ الرجلين هما من الأقارب بالمصاهرة».

«إذا مارس رجل، خلال الصيام في رمضان، العادة السرّية إلى حدّ بلوغه الذروة الجنسية (الأورجازم)، لا يكون الصيام شرعيًّا. وإذا قذف الرجل، على أية حال، بنحو لا إرادي، لا يكون آثماً. الشيء نفسه صحيح إذا ما استيقظ ووجد نفسه أنه قذف في أثناء نومه. يبقى الصيام كذلك شرعيًّا إذا ما قذف الرجل بنحو لا إرادي خلال النهار، إلا أنه تدخَّل كي يوقفه. على كلّ حال، يكون الصيام باطلاً إذا ما تقيأ الرجل أو المرأة عن عمد، أو غسلا رأسيهما، أو إذا بللا نفسيهما».

أضعُ جانباً الجريدة التي أعادت نشر العبارات المذكورة أعلاه، جنباً إلى جنب مع عبارات عديدة أخرى متصلة بالزواج، الطلاق، العنف الزوجي، وآثام الأكل والشرب، وقد حاولتُ أن أتذكر كيف كانت ردّة فعلي حيال ما حصل في إيران خلال ذلك الزمن الجهنمي في حياتي. كلّ شيء حدث بسرعة شديدة، بنحو غير متوقَّع بكلّ معنى الكلمة. حين أوقعني ضبابي في شِركه، وكانت جثث أولئك القتلى في الانتفاضات ضد الشاه تتكدّس في طهران، وشرع الناس يتحدّثون عن آية الله خميني ذي السنوات الثمانين، الذي كان يقود التمرد وهو في منفاه من منزله الواقع في أطراف باريس ابتسمتُ وأحصيتُ الأسباب لماذا

سلّتني هذه الأنباء، ولا شيءَ آخر. السبب الأول: لم يسمح الأمريكيون لأنفسهم بأن يفقدوا حليفاً، أو في الحقيقة، تابعاً ثميناً من مثل محمد رضا پهلوي، الذي لم يسبق له أن رفع إصبعاً من دون موافقتهم؛ رجلٌ لم يسيطر فقط على خمسة آلاف كيلومتر مربع من الحدود مع (الاتحاد السوفيتي)، بل سيطر أيضاً على (الخليج الفارسي) و(المحيط الهندي)، الطريقين الرئيسين اللذين كان النفط يمر عبرهما كي يصل إلى (الغرب). السبب الثاني: تعلّم محمد رضا پهلوي الدفاع عن نفسه بعد أن أُطيح به في مرة سابقة؛ كان جيد التسليح وكان يدفع أجوراً سخية، وكان جيشه قادراً على قمع أيّ محاولة للقيام بثورة؛ وكانت شرطته السرّية تؤدي وظيفتها بكفاءة خبيثة، تعتقل، تعذّب، تقضي على كلّ فرد، كائناً مَن يكون، يحاول المطالبة بقدرٍ ضئيل من الحرية. السبب الثالث: على الرغم من جنونه، جنون العظمة العائد له أقنعه أنه وريث أحشورس الأول، لم يكن محمد رضا پهلوي أبلهَ. كان قد فهم أن العالم يتغيّر، وأنه حتى العالم الإسلامي يتعين عليه أن يتغيّر، وأنّ التغيير شيءٌ لا مَفر منه وضروري، وأنّ المسألة الرئيسة التي تواجه كلّ مجتمع من المجتمعات هي أن يتعلّم كيف يتدبَّر تغييره الخاص. أن يتقبّل التغيير، إنما في الوقت ذاته، يمنع ذلك التغيير من تقويض النظام المؤَسَس بصرامة شديدة. زيادةً على ذلك، بطريقته الخاصة، كان أصلاً قد صنع ثورةً: (الثورة البيضاء). كان قد وزّع بعض الأراضي للفلاحين، وجرّد الإقطاعيين من امتلاكهم الغابات والينابيع، وباشر حملةً ضد الأمية وأدخل التكنولوجيا. والأهم، كان قد أزال فرض

الحجاب على النساء، مفسراً ذلك بالقول إنّ العباءة غير مقبولة في عشية القرن الحادي والعشرين، وأنّ النساء بحاجة إلى أن يُحرِّرن أنفسهنَّ من العبودية الأسرية وأن يتلقين التعليم، يخترن مهنة، حتى يشتركن في الخدمة العسكرية. باختصار، سعى لأن يُدخل حقائق عصرنا إلى بلاده. إنه شيء غير صحيح أنّ سائر الناس كانوا يكرهونه. فقط أولئك الذين يعرفون معنى كلمة (الديمقراطية) ويُريدون شيئاً أكثر من نعمة الطاغية المتعلّقة بالتقدّم كانوا يتمنون موته، في الأقل لأسباب طبيعية. الآخرون جميعاً، أي بمعنى السواد الأعظم من الشعب، كانوا سعداء جدًّا في أن يحتشدوا في الشوارع ويصفقوا له كلّما يُغيّر زوجاته، أو يُرحِّبون بقدوم وريث آخر إلى العالم أو حين يعود من إجازاته التي يقضيها في (زرمات) بسويسرا. رجل الدين ذو الأعوام الثمانين كان يحسب أنّ بوسعه أن يقلب ذلك كلّه مستعملاً الجوامع والصلوات، متجاهلاً بنحو جليّ المنطقَ بأسره.

بعد مدَّة قصيرة شاهدتُه على التلفزيون. لم يكن يشبه رجل دين، وكان أقرب ما يكون إلى قديس في رسمٍ من رسوم ميخائيل أنجلو، أشبه بموسى[1] متجهِّم الوجه، ذو لحية بيضاء براقة وعمامة سوداء، وعينين وامضتين مروَّعتين لمنتقِم لا يعرف الصفح. كان يجلس متقاطع الساقين على سجادة، مُحاطاً بحاشيةٍ من الأوفياء المتوددين له. لعن الشاه همساً، لعن شقيقته، أولاده، الأولاد المستقبليين لأولاده. ومن دون أن يفوّت لحظة، استمر، شارحاً كيف سيسقط السافل، الشرير، وكيف

(1) موسى Moses: المقصود هنا النبي موسى – م.

سيعاقبه الله. هذه المرة، لم أبتسم. لم يكن واضحاً ماذا كان يُريد، إلا أنه كان ثمة شيء في ذلك الوجه عديم الرحمة، المُخيف، وليس فقط التعبير الظاهر عليه. كان شيئاً لم يسبق لي أن انتبهتُ إليه في وجه محمد رضا بهلوي: المادة المتعلقة بشخص ما قادر على الإمساك بالسلطة بقبضته حتى قبل حصوله عليها؛ سكينة قائد لا يستسلم البتة، ولا حتى في وجه المستحيل؛ الكاريزما الخطيرة لرجل قوّاه إيمانٌ لا يتزعزع، رجل يعرف كيف يؤثر[1] في الجماهير بضرب من الغطرسة التي لا تفشل مطلقاً.

لم يكن شيئاً مفاجئاً، إذاً، أنّ الرسائل التي سجلها وبعثها إلى إيران كانت كافية كي تُنعش تمرداً حطمته المجازر. بعد أن أنصتوا إلى صوته، أصبح المنشقُّون فرحين جداً، كما لو أنهم تعاطوا كيلوغرام من العقاقير المخدرة. أصبحوا فخورين بأنهم سيموتون من أجله، وأن يرموا أنفسهم أمام نار المدفع الرشاش وهم يصرخون قائلين «أطلق النار عليَّ، أطلق النار عليَّ!» فعلوا هذا جنباً إلى جنب مع نسائهم، اللائي تخلّين عن الملابس (الغربية) التي حررتهن من الغيتو وساهمن في هذا الانتحار وهنّ مكسوات بعباءاتهن. كن يُخبِّئن الأحجار وكوكتيلات المولوتوف تحت حجابهن، يقبضن على عباءاتهن بأسنانهن إلى أن تسقط، إلى أن يُضربن ويهوين أرضاً مثل خفافيش عديمة الأجنحة.

كنتُ أحتاج إلى أن أفهم الحقيقة القائلة إن (التاريخ) لا يكتبه المنطق، إنّ التعصب يجعل الحمير تطير، البشر يتبعون دوماً كلّ مَن يخدعهم

(1) يؤثر manipulate: المقصود هنا أن يؤثر بأساليب غير قويمة، أو بمعنى آخر يغشهم – م.

أكثـر وكلّ مَـن يخدعهم باسم الـرب، ذلك الرب الذي لا يسـتطيعون أن يفعلوا شـيئاً من دونه. كنتُ أحتاج في الأقل إلى أن أفكر في الفرضية القائلة إنّ الرجل الهرم الشرير، الماكر، سوف ينتصر.

لقـد انتـصر بنحـو أسرع ممـا تخيّلت. في مطلـع العـام 1979، محمد رضـا پهلوي بعـد أن تخلّى عنـه الأمريكيون وتقلّـص إلى يرقة مريضة، فرّ إلى مصر صحبة أفراد أسرته. الجيش الذي وجب عليه أن يدافع عن خمسـة آلاف كيلو متر مع (الاتحاد السـوڤييتي) ذاب، تقوّضت مسالك النفط، والرجل المُسنُّ الشرير رجع إلى إيران كي يعلن قيام (الجمهورية الإسلاميـة)، حيث تم استقباله كـما لو أنّ النبيَّ محمداً قـد بُعِث. وبينما كـان المجاهـدون العائـدون لـه يطلقـون الرصـاص على الجنـرالات، الـوزراء، موظفـي الدولـة، رجال الشرطـة، النكرات المسـاكين الذين كانـوا أبريـاء على الـدوام قُذف بهـم أمـام الجلادين مـن دون محاكمة، الرجـل الشريـر أوضح أنّ مـا كان يبتغيـه: الوثبة الأكثر جنونـاً للوراء لم يسـبق لكوكبنـا أن رأى مثيـلاً لهـا. وفي بحـر أيـام قلائـل تخلّص من العلمانيـين الذيـن ناضلوا ضد الحُكم الملكي على مـدى سنوات طوال، قـضى على الأحزاب والمجموعات التي آمنت بالديمقراطية، صادر كلّ نوع من حرية الصحافة، حرية الفكر، حرية الإحسـاس، واستهل إبادة جماعيـة ضد الكورد، الذين كانوا يُقتَّلون يومياً في المحافظات. أضحت إيران جامعاً عملاقاً، كـان المُلائيُّون الغِلاظ والجهلة يفرضون الالتزام الأعمـى بالقواعـد المكتوبة منذ ألف وأربعمائة سنـة خلت، و، بالطبع، القواعد المنشورة في (الكتاب الأزرق) الذي وضعه خميني. كان هنالك

فصلٌ صارم بين الرجال والنساء، في المنزل وفي موقع العمل على السواء، في المسيرات الجماهيرية وعلى الشاطئ. كانت النسوة مُجبرات على تغطية أنفسهنَّ من الرأس إلى القدم بملاءة جنازة تُسمى (العباءة): حتى في الماء، حتى في أثناء السباحة، وليكن الله في عون مَن تقول إنّ لبس سبعة أمتار من القماش لم يدعكِ تسبحين، بل خيّب أملك. كانت الفتيات يخضعن إلى الفحوصات النسائية قبل الزواج بغية التأكد من عُذريتهنَّ. يُحظر كليًّا: شرب الكحول، الاستماع للموسيقى، الرقص، التقبيل خارج إطار الزواج، القيام بأي شيء خارج نطاق الزواج. كلّ مَن يعصي الأوامر يواجه فريقَ الإعدام رمياً بالرصاص. الآن الجنرالات، الوزراء، الموظفون الحكوميون، شرطة الشاه، أشخاص كانوا مشبوهين تقريباً بسبب انخراطهم مع النظام القديم أُطلق عليهم الرصاص، استدارت فرق الإعدام إلى الزناة والزناة المزعومين، إلى المثليين أو المثليين المزعومين، إلى العشاق اليافعين الذين ضُبطوا وهم يُظهِرون عاطفتهم، إلى النساء اللائي مضين هنا وهناك برؤوس غير مُغطاة أو غير مُغطاة جزئيًّا، إلى الشاردين ذهنيًّا الذين ضُبِطوا وهم يحتسون البيرة أو كأساً من النبيذ. كانت المحاكمات تستمر أربع أو خمس دقائق، من دون أيّ محامين أو مرافعة، كان المُدانون يُعدمون حالاً بعد صدور العقوبات. كان الرمي بالرصاص يُستبدَل غالباً بالرجم بالحجارة حيث تُدفن الضحية حتى العُنق في الأرض وبعدها تُرمى الحجارة على الرأس المكشوف حتى الموت. فقط المحظوظون للغاية هم الذين يفلتون بأن يُجلَدوا في البازار، بين خمسين وثلاث مائة جلدة

بالسوط التي من شأنها أن تقلّص الظهر محوِّلةً إياه إلى لُّب. لا أحد يُقاوم. لا أحد يرفع صوته جهاراً، لا أحدَ يقول كفى، إننا لم نقاتل الشاه من أجل هذا، لم نذبح أنفسنا أمام مدافعه الرشاشة من أجل هذا.

كان (الغرب) يلاحظ بصمت غير مُريح، وأولئك الذين رحبوا بمجيء آية الله بحماسة أُجبروا على الإقرار، عبر أسنان مُطبَقة، أنهم كانوا مخطئين. ما أُصطُلح على تسميته بـ (اليسار)، ذلك (اليسار) الذي كان يعتقد أنّ الثورة، أيّ ثورة، ينبغي دوماً أن يُغفَر لها، وأنّ كل مَن لا يؤيدها هو فاشيٌّ، وحتى حاول أن يُبرر الذبح.

«يتعين عليكَ أن تفهم أنّ الثورة ليست مأدبة عشاء».

«تذكر روبسبير وآلاف المقاصل (جمع مقصلة) إبَّان (عهد الإرهاب)، تذكر لينين ومئات الآلاف الذين تمت تصفيتهم خلال (عمليات التطهير الكبرى).

«لا تنسَ أنّ بعض التجاوزات هي أشياء لا مفر منها وضرورية. إنها ليست أولَ مرة تلتهم فيها الثورةُ أبناءها».

ألم يقولوا الأشياء ذاتها، بالإضافة إلى ذلك، لمّا قُتلت الحرية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا و(ألمانيا الشرقية)، حين ضُلِّلت الأحلام في كوبا وڤيتنام؟ ألم يُلوِّثوا أصلاً بالعقيدة السيئة ذاتها، أولئك المنافقون، ألم يختبئوا وراء نفس الخداع، نفس الخوف من الظهور بأنهم رجعيون؟ كنتُ أعرف هذا حق المعرفة. طالما كنتُ أنشر المقالات المتعلقة بالرعب الذي رأيتُه في سايغون، المقالات التي تتعلّق بإضرابات الأمريكيين

والڤيتناميين الجنوبيين، التي أنجزتُها بنحو جيد جداً، جاذبةً كنوزاً من المعجبين والأصدقاء. صحافية مُذهلة، كاتبة مُذهِلة. امرأة مُذهلة! لكن، ما أن بدأتُ بنشر المقالات المتعلقة بالرعب الذي شاهدتُه في هانوي، إضرابات الڤيتناميين الشماليين والـڤيتكونغ واليابانيين، أعدموني في الصحف من دون محاكمة قانونية. وتحوّل المعجبون بي إلى مُستخفين بي، وانقلب أصدقائي إلى أعداء. «نذلة، مُفترية، جاسوسة وزارة الدفاع الأمريكية! أهانت الثورة!»

الثورة. منذ الهجوم العنيف على الباستيل، كان (الغرب) يعيش على كذبة تُسمى (الثورة). منذ ذلك اليوم، هذه الكلمة المشبوهة سيطرت على عقولنا مثل كلمة مقدّسة، إلى درجة أنه انتهى بها المطاف أن تكون مرادفة لـ «حرية مساواة إخاء»، أصبحت رمزاً للخلاص والتقدّم، أمل المضطهَدين. منذ ذلك اليوم، المجازر التي تُرتكب باسم الثورة يُصفح عنها، تُبرَّر، وتُقبَل، الحقيقة التي مفادها أنّ أبناءَها (أيّ أبناء الثورة) ذُبحوا بعد أن أصبح ذبح الآخرين مقبولاً. إن الفكرة القائلة إن الثورة هي علاج كلّ سرطان، دواءٌ لكلّ داء، كانت مقبولة. لا نزال ننطق هذه الكلمة باحترام، نحن ندرسها بإجلال، ونحن بإجلال نحلِّلها في البحوث السياسية والفلسفية. إن إجلالنا لكلمة (الثورة) إجلالٌ كبير جداً، بحيث أننا لا نجرؤ على مناقشتها، دحضها، كشف القناع عنها وبصقها من جديد في وجه الأشخاص المعتوهين والقساة الذين يستعملونها كي يُحسنوا مسيراتهم. قبل أعوام مضت، ثوري إيطالي، كان قد سبق سواه في (الألوية الحمراء)، وهو الآن صيرفي في لندن،

أخبرني قائلاً: «إن لم تنفجر قنابل قليلة، لن تحدث الثورة هنا».

لا يهم إذا ما سمّى موسوليني دكتاتوريته (ثورة)، مثلما فعل هتلر، ومثلما فعل پاپادوپولوس، مثلما فعل بينوشيت. لا يهم ما إذا فشلت الثورة في فرنسا، في روسيا، وفي أيّ مكان آخر تكررت بمصاحبة الموسيقى التصويرية حيث كان الناس يهتفون مطالبين بالحرية، المساواة، الأخوة، العدالة، والتقدّم. لا يهم إذا ما سفكت هذا الكلمة وتستمر في أن تسفك أنهاراً عقيمة من الدم في جميع أرجاء العالم؛ ذلك أنها دمرت وتستمر في أن تدمر الأشياء التي ينبغي أن تُحفَظ، انتصارات الحضارة؛ ذلك أنها أسست وتستمر في أن تؤسس أنظمة تعسفية هي عادةً أسوأ من تلك الأنظمة التي حلّت محلّها؛ ذلك أنها تُعتّم الوعي بالخوف وغسيل الدماغ. لا يهم. يبقى الهجوم العنيف على الباستيل حدثاً ينبغي تبجيله، يوماً ينبغي الاحتفاء به. كلمة (الثورة) كلمة مقدسة، وإنّ مناقشتها هو محض تدنيس ليس إلا، إنها عقيدة أكثر حصانة من عُذرية السيدة مريم.

وهكذا، مرةً أخرى، أرونا أنّ الثورة هي كذبة لا تُفضي إلا إلى تغيير الطغاة لا غير، وهي خُدعة كنا نحبها إلى درجة العبادة على مدى قرنين من الزمن، لأننا فكريّاً كُسالى أو جبناء أو خجلون. إن الثورة الحقيقية هي صبر، ثبات وإصرار، ذكاء. إنها يرقة تتحوّل ببطء شديد إلى فراشة، تتعلّم الطيران من زهرة إلى زهرة، تتعلّم التغذي على حبوب اللقاح لا على الدم، تجلب السعادة لعيون أولئك الأشخاص الذين يُعجَبون بنحو غيور بحريَّتها. إنكَ تعرف كم يطول هذا الأمر، كم حجم الصبر

والتحمّل الذي تستغرقه اليرقة كي تغدو فراشة. إذا ما أزعجتَها بسرعتكَ، أو عذّبتها بمتطلّباتك، لن تصبح حتى شرنقة.

وهكذا، مرةً أخرى، كنتُ أحاول أن أفهم لماذا نجحت الكذبة، لماذا انتصرت الخسة بمساعدة العقيدة السيئة والجنون. باختصار، قررتُ أني بحاجة لأن أذهب إلى طهران، كي أجري حواراً مع خميني هذا، كي أسأله كيف واتته الجرأة أن يُسمي حمام الدم هذا (ثورة)؛ كي أسأله أيّ نوع من المبادئ هذه التي حدت به لأن يُصنّف الموسيقى والشَّعر غير المُغطى باعتبارهما إثمين، في حين أنّ اغتصاب خروف شيءٌ مسموح به طالما أنكَ لا تأكله فيما بعد. كانت هنالك مشكلة، على أية حال: الاتصال به، وإقناعه بقبول زيارتي. لم يضمن قط حواراً حقيقيًّا، فما بالك إذا كان المحاوِر امرأة، وكانت علاقته مع الصحافة حتى يومنا هذا تتألف من لقاءات موجزة مع صحافيين ذكور.

بمستطاعكَ أن تتخيّل دهشتي حين قالوا لي، كاشفين أنه من الجائز تحقيق البرنامج: «إذا ما كان ثمة أحد يستطيع أن يأمل بإجراء حوار مع خميني، فهو أنتِ. في إيران، أنتِ نوعٌ من بطلة».

«أنا؟ ومن أيّ شيء يُحتمل أن تنبع بطولتي؟»

«من حواركِ مع الشاه. إبّان التمرّد كان المُلائيُّون ينوّهون به كالقرآن، وكان المتمردون يلوّحون به كالراية. الحوار المنشور مع الشاه أُعيدت طباعته أربع عشرة طبعة مختلفة في طهران، وحتى أنهم كانوا يبيعونه

على أرصفة المشاة. إن كنتِ تريدين توكيداً، اسألي فقط الصحافية مريم مفاي: كانوا قد حسبوها أنتِ في أحد المؤتمرات واستقبلوها استقبال بطل وحتى أجبروها على مخاطبة الحشد الجماهيري».

حواري مع الشاه! تذكرتُ الأصيلين اللذين أمضيتُهما مع محمد رضا پهلوي في مكتبه بـ(قصر المرايا) في خريف العام 1973. سألتُ نفسي ما إذا كنتُ قاسيةً عليه، إذا ما سمحتُ لنفسي، في إدانته بنحو قاسٍ جداً، أن أقع في النوع نفسه من المانوية [1] التي استعملتها كي أصفّي القرض بفائدة Loan. ومع ذلك، فيما أنا جالسة خلف ذلك المكتب الثقيل ذي الأشياء الثمينة، عديمة الفائدة هذه العلب الذهبية المزخرفة بالحرف «ي» المُوضحة بنحو لا لبسَ فيه في أنقى وأكبر اليواقيت التي رأيتُها في حياتي كلّها؛ تماثيل صغيرة مُطعّمة بالياقوت، كلّ تمثال براق وأنموذجي للغاية، بحيث أنها تكفي كي يشتري بها المرء فيلا في (كان) عمل جاهداً بكلّ ما أوتي من قوة كي يزيل كلّ العواطف المتعلّقة بالفهم أو الإحساس الذي من الجائز أن أمتلكه. كان قد وثق بي، شرح نفسه،

(1) المانوية Manichaeism: ديانة تنسب إلى ماني المولود في العام 216 ميلادية في بابل، والذي ظهر في زمان شابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن شابور. حاول ماني إقامة صلة بين ديانته والديانة المسيحية وكذلك البوذية والزرادشتية، ولذلك فهو يعتبر كلًا من بوذا وزرادشت ويسوع أسلافاً له، وقد كتب ماني عدة كتب من بينها إنجيله الذي أراده أن يكون نظيراً لإنجيل عيسى. أتباع المانوية هم من تعارف عليهم أولا بإطلاق لقب الزنادقة. المانوية من العقائد الثنوية أي تقوم على معتقد أن العالم مركب من أصلين قديمين أحدهما النور والآخر الظلمة. ثمة رواية للكاتب الفرانكوفوني أمين معلوف بعنوان (حدائق النور) تدور حول ماني والمانوية وهي مترجمة إلى العربية – م.

أجبر نفسه على التصدّي لعدائي بالحُجج: «أوه، بوسعي أن أتخيّل ما تفكرين به فيما يتعلّق بعقوبة الموت وما إلى ذلك. إنما أنصتي إليّ، بعض الأحكام تعتمد على نوع التنشئة التي حصل عليها المرء، على الثقافة، المناخ، وسيكون من الخطأ أن نبدأ من الافتراض أنه ما يكون نافعاً لبلدٍ ما سيكون نافعاً لكلّ بلدٍ من البلدان. إذا ما أخذتِ بذرة تفاح وزرعتِها في طهران، وزرعتِ بذرة تفاح أخرى في روما، الشجرة التي تنمو في طهران لن تكون هي الشجرة نفسها كالشجرة الرومانية». ولمّا بدأت النبرة القاسية لأسئلتي في تحذيره، سألني ما إذا صنفتني حكومته ضمن اللائحة السوداء. قلتُ له إنّ هذا ممكن، بما أنّ الجميع تقريباً صنفوني ضمن القائمة السوداء، وسمح لوجهه لأن يذوب في بسمة متسامحة. «لا يهم... سأضعكِ في قائمة قلبي البيضاء».

فعلتُ كلّ شيء كي أعذبه، كي أرغمه على أن يقول شيئاً غبيًّا. والله يعلم أنه فعل ذلك. روى قصصاً عن الرؤى، قصصاً عن أولياء صالحين (أئمة) تجسدوا أمام عينيه كي يخبروه بالمستقبل ويصادقوا على رسالته الإلهية. في سن الخامسة، الإمام علي، ظهر له، وأنقذ حياته: «وقعتُ على صخرة، وأنقذني الإمام. رمى نفسه بيني وبين الصخرة. إنها حقيقة مادية، هل إنّ كلامي واضح؟»

«... فخامتكَ. هذه القصة المتعلّقة بالرؤى، المتعلّقة بالأطياف... لا أفهمها تماماً، هذا هو كلّ ما في الأمر. لم يسبق لي أن ساعدتُه فيما يتصل بالمآزق التي قدتُّه إليها، لم يسبق لي أن شجعتُه كي يشرح لي كيف كان يحاول، بطريقته الخاصة، أن يُحسّن مجتمعاً مُتخلّفاً وإقطاعيًّا. كرهتُ

استبداديته كرهاً شـديداً، كرهتُ ثروته، زهوه وأُبَّهته. كنتُ مَعنية فقط برسم تخطيط للصورة التي أحتفظ بها له: شـخصٌ معتوهٌ سمَّمه جنون العظمة.

إنـه لمن الخطأ أن نعتقد أنّ أيّ شـخص هـو شرير تماماً. وحتى إذا كـان هذا الشخـص هكذا، فثمة على الدوام شـخصٌ مـا أسوأ. الآن تلك الصورة التي لم تأخذ جانبه الإيجابي بنظر الاعتبار، بيعت في أربع عـشرة طبعة مختلفة، ولمنفعة خميني. كنتُ بطلة بسـبب تلك الصورة، بطلة بالنسـبة لنظام أسوأ ألف مرة من نظام الشاه. أحسستُ بالفزع، وهـذا أقل مـا يُمكن قولـه، ووجدتُ نفـسي راغبة بشـدة لأن أكتب رسالـة إلى محمد رضا پهلوي، الذي كان في ذلك الحين قد تقلّص إلى دودة مبتلاة بالسرطان، يسـافر من بلد إلى بلد باحثاً عن سرير يموت فيه، يسـافر من مصر إلى (المغرب العـربي)، ومن (المغرب العربي) إلى جزر البهاما[1]، من جزر البهاما إلى المكسـيك، من المكسـيك إلى بنما، من بنما إلى تكساس، ومن تكساس إلى نيويورك.

«جلالتـك، أنا المرأة التي عاملتـكَ معاملة سيئة في العام 1973 وأنا أكتـب إليـك الآن كـي أطلب منـك العفو. كنـتَ ابناً حقيقيًّـا لعاهرة، جلالـة الملك، طاغية طـمّاع وقاسٍ، إنما في ضوء الأشـياء التي تجري في

(1) جـزر البهامـا Bahamas: هو بلد ناطق بالإنكليزيـة ويتألـف من 29 جزيرة و661 مـن الجزر الصغيرة المنخفضة و2387 من الجزيرات (الصخور). تقع الجزر في المحيط الأطلسي شـمالي كوبا وهسـبانيولا) جمهورية الدومينيكان وهاييتي (وشمال غربي جزر تركـس وكايكوس وإلى الجنوب الشرقـي من) الولايات المتحدة الأمريكية) أقرب إلى ولاية (فلوريدا) – م.

أعقـاب فـرارك الجبان، ينبغي لي أن أعترف أنكَ أهـون الشرِّيرين. كان مـن الأفضل لو أنكَ بقيتَ في إيران مع زُمرّداتك، ياقوتاتك، وأطيافكَ الحمقاء. في ظل حُكمكَ، في الأقل كان للناس حلمٌ يناضلون من أجله وآمال يتعلّقون بها: حلم الحرية والأمل بمستقبل أفضل. أرجوك تقبّل تحياتي، الوفية لك، إلخ إلخ».

في النهايـة، لم أكتب إليـه. رفعتُ بصري إلى مريم مفاي التي أكدت صحـة مغامرتهـا في إيران وقدّمـت لي نصيحة ما. الوصـول إلى خميني؟ هنالـك علمانيـان فقط يسـتمع إليهما الخمينـي: وزير الماليـة بني صدر، ومديـر دائـرة التلفزيون صـادق قطـب زاده. إن طلب مسـاعدتهما لن يكون شـيئاً صعبـاً، بما أنّ خادمهما رجلٌ في مقتبل العمر يُسـمي نفسـه مترجم كتبي إلى الفارسية: باقر سلامي. يتعين عليّ أن أتصل به هاتفيًّا، هـو ذا رقـم تليفونه. اتصلتُ بـه هاتفيًّا وبعد ثمانية أيـام أضعُ قدمي في (عهد الإرهاب).

***

جميـع الأنظمة الشمولية تُثبِّت أنفسـها عبر الخوف. خوف المرء من أن يتم التجسـس عليه، الإبلاغ عنه، تهديـده، اعتقاله، خطفه، تعذيبه، معاقبته بطريقة أو بأخرى. خوف المرء من أن يُعدَم بالمقصلة، أن يُشنق، أن يُقطـع رأسـه، أن يُطلَـق عليه الرصـاص، أن يُرجم بالحجـارة. هذا الخوف يُغذيه الجنود، البوليس، حرّاس السلطة: الخلاصة، أيّ شخص يرتدي بذلة نظامية ويحمل مسـدساً، بندقية، وسيفاً. والأكثر من ذلك، رئيـس النظـام الشمولي يلبس عادةً بذلة نظاميَّة أيضـاً: فكر في نابليون،

هتلر، موسوليني، محمد رضا پهلوي، كاسترو، بينوشيت، القذافي، عيدي أمين، بوكاسا. إذا لم يلبس بذلة نظامية، يُغطِّي نفسه بالميداليات، على غرار الطُغاة السوڤييت. إن لم يُغطِّ نفسه بالميداليات، إنه يمتلك ماضياً أو حاضراً حربيًّا، على غرار روبسبير أو هو شي منه. مهما يكن من أمر، الخوف الذي يُوحيه الطغاة يصلنا أيضاً عبر رجالهم المسلّحين بالزي العسكري. إن النظر إلى بزاتهم النظامية كافٍ كي يجعلكَ تشعر بأنه مُهدَّد، حتى إذا كانت وجوههم رحيمة. لا يسعكَ أن ترى وجوههم. حين تنظر إلى جندي أو شرطي، أو أيّ حارس للسلطة، فإنك لا ترى سوى البذلة النظامية، وتقفز عيناك مباشرة إلى وجه ورأس الشخص الذي يلبسها، ومن ثم تستقران على البيرية أو الخوذة. الجنود، رجال الشرطة، والحراس هم كائنات من دون رؤوس، ذوو قبعات جثمت على جماجم غير مرئية. إنكَ تُدركُ فقط أنهم بشر في اللحظة التي يموتون فيها أو يسقطون، نازفين، أرضاً. مثلك تماماً، هم ضعفاء، سريعو التأثر، مثلك تماماً، هم خائفون؛ مثلك تماماً، هم ضحايا الغطرسة والكلبية. ومن ثم أنت لم تعد خائفاً منهم، حتى أنكَ قادر على أن تستصرخهم، لكن عندئذ، يكون الأوان قد فات.

طيب، في إيران خميني، لم يكن الخوف ينتقل بهذه الطريقة. فيما كان هنالك رجال مُسلّحون، يُدعَوْن «پاسداران»[1]، كان الخوف يُنشئه

---

(1) الپاسداران Pasdran: الحرس الثوري الإيراني، وهو أحد فروع القوات المسلحة الإيرانية التي تأسست بعد الثورة الإسلامية الإيرانية بأمر من آية الله روح الله خميني. ففي حين يقوم جيش الجمهورية الإسلامية الإيرانية النظامي بالدفاع عن الحدود الإيرانية وحفظ النظام الداخلي وفقًا للدستور الإيراني يقوم الحرس الثوري

رجالٌ غير مسلحين من دون بذلات نظامية، رجال يلبسون جلابيب رجال الدين[1]: المُلائيون. المُلائيون في خدمة خميني، رجل غير مسلّح آخر، من دون بذلة نظامية أو ميداليات، من دون ماضٍ أو حاضر حربي. على كلّ حال، هذا الرجل في اتصال مباشر مع الله، والله هو الذي اختاره ممثلاً لجلالته. وهذا يعني أنه في إيران، الخوف يأتي مباشرةً من الرب، من الله. الله هو الذي يتلصص عليك، يبلّغ عنكَ، يهدِّدكَ، يلقي القبض عليك، يخطفك، يُعذِّبكَ. الله هو الذي يطلق الرصاص عليك، يرجمكَ بالحجارة، يقضي عليكَ من خلال معاقبة روحك جنباً إلى جنب مع معاقبة جسمكَ، وفي النهاية يلعنكَ. وهكذا فإن هذا الخوف، الخوف من أن تُلعَن طوال الأبدية كلّها، كان يندمج في جميع المخاوف الأخرى، المخاوف من رؤية جسمكَ يُعذّب. وأنتَ تعيش في الخوف، مهما كانت أفعالك، أينما تكُن، حتى في سرّية غرفة مُغلَقة بلا ميكرفونات، حتى في ألغاز ضميركَ. فقط في حالة أنكَ تمكنتَ من نسيان أنَّ عينيْ الله الربانيتين تراقبانكَ باستمرار، وتستمع إليكَ أذنا الله الربانيتان، يتدّخل خميني كي يُذكّرك بصورته كليّة الوجود. عاجلاً أم آجلاً سوف ينتهي بكَ المطاف أن تُظهِر نفسك، تكشف آثامكَ لشخصٍ ما سوف يُبلّغ عنها إلى مُلَّائي. هذا المُلَّائي يتصل بعدئذ بـ «الـپاسداران»، الذي يُصفِّي وجودكَ الدنيوي والسماوي.

«پاسداران» بحماية نظام الجمهورية الإسلامية في الداخل والخارج. يتركز دور الحرس الثوري في حماية النظام الإسلامي ومنع التدخل الأجنبي أو الانقلابات العسكرية أو «الحركات المنحرفة والمتطرفة». اسم إيران غير موجود في شعار الحرس الثوري – م.

(1) جلابيب رجال الدين: تُسمى (القِباء). مفردها تعني، بالدارجة العراقية، «صاية»– م.

هـذه هي الحيلة الشيطانية للهـرِم الشرير الذي حلّ محلّ الشاه. هذا هو الغش العصي على التصديق لسلطته غير المحدودة. يتعين عليكَ أن ترجـع زمنيًّا إلى أكثـر لحظات (العصـور المظلمة) عتمةً كـي تجد بطشاً مشابهـاً، إلى الزمن حين كان العِلمُ الأسمـى هو اللاهوت، حين كانت (محاكم التفتيش) تقطع أوصال الزنادقة، تحرق الفتيات الصغيرات على المحـك، وتُـذلّ غاليلو بأن تجعله يُعلن صراحـةً أنّ (الأرض) لا تدور. لّمـا كان الملوك يحكمون بموافقة الـــپاپا. لّما كانت الثقافة والفن والمبادئ الأخلاقيـة تعتمـد على الكنيسـة. لّما يتعـين على أفضل البـشر وأكثرهم ذكاءً أن ينحنوا لإرادة الكاردينالات والرُهبان، لا ينحتون أو يرسمون سوى تماثيل ولوحات يسـوع المسـيح والقديسـين ومريـم العذراء، لا يبنـون سوى الكاتدرائيات أو الكنائس الصغيرة أو الأديرة، لا يؤلفون سـوى الموسيقى المقدسة. حين كان كلّ شيء إثماً، لّما يكون باستطاعتك أن تذهب إلى الجحيم لأنكَ تناولتَ السجق في يوم الجمعة.

عـلى أنّ ثمـة اختلافـاً مهـمًّا بين طغيـان خميـني والطغيـان الديني: استبداد (العصور الوسطى) تمكن، بشكلٍ من الأشـكال، من أن يغذي العقـل والـروح، وأن يوسِّـع ميـدان الأفكـار، أن يُنتج تماثيـلَ صغيرة ونـماذجَ جصِّيـة ورسومـاً باهـرة لـــ يسـوع المسـيح، القديسـين، مريم العـذراء؛ كاتدرائيات مذهلـة، كنائس صغيرة باهرة، أديـرة استثنائية، أناشـيد جيورجية رفيعة باختصار، أناقة وجمال الحضارة. طغيان خميني الديني لم ينتج شيئاً باستثناء الغباء والتحجر، إضعاف العقل، استئصال الأفكـار، إزالة الأناقة والجـمال، استبدال الحضـارة بالبربرية. حتى أنه

غـيّر مفهـوم الإثم تحديـداً، وقلّصه إلى هوس بالجنس، كـما لو أنّ الحياة لا شيءَ أكثـر من قضيب أو مهبـل أو عضلة عاصرة. هذا هو أول شيء انتبهتُ إليه حين وصلتُ إلى طهران.

«أنا متأسف، الله لا يسـمح بذلك»، تمتم مُستخدَم (الخطوط الجوية الإيرانيـة)، مـن دون أن ينظـر في عينيّ مباشرة. كنتُ مـددتُ يدي كي أشـكره لأنه أتـى كي يقابلنـي في الطريق المسـفلت. كان خائفـاً للغاية بسـبب يدي الممدودة، التي اقتربت كثيراً جداً منه وكادت أن تلامسـه، بحيـث أنـه احتفظ بيديـه خلف ظهره مثـل طفل فُوجِئ وهو يمسـك بشيء محظور.

سحبـتُ بسرعة الشيء الممنـوع، ووضعته على صدري كي أُظهر له أني متأسفـة، أنه لا نيـةَ لي كي أجعله حاملاً. فهمتُ عـلى الفور أنّ هذه غلطـة أكبر. براحة يدي الممدودة إليه، لم تكن أظافري مرئية؛ الآن وقد استقرت راحة يدي على صدري انكشف طلاء الأظافر الأحمر الفاضح. نظر إليّ مثلما نظر إليّ السكرتير الثاني للسفارة لمّا سلّمني تأشيرة الدخول العائـدة لي ووبخني قائلاً: «تلـك الأظافر الحُمر! يلزمكِ ألا تذهبي إلى إيران بتلك الأظافر الحُمر!»

«جـوازكِ أرجـوكِ، أُريد أن أدقّقه»، قال لي، ما أن استعاد السـيطرة على نفسـه. ولمّا مدّ سبابتـه وإبهامه كي يتناوله كان من الجلي أنه يسـعى لأن يتفـادى أيّ تماس مع جلدي قرر أخيراً أن ينظر في وجهي مباشرة. وقد شاهد شعري الطويل يتموّج في نسيم المساء.

«أوه، يا إله! يا إلهي! ألا تملكين وشاحاً كي تغطي به رأسكِ؟»

«لا».

بطبيعة الحال كنتُ أملك وشاحاً. أيّ غبية هذه التي تأتي إلى إيران من دون وشاح كي يكون بديلاً عن العباءة، حتى لو كان يغطي فقط الرأس والعنق؟ على أية حال، لم أكن أريد أن أسدي له معروفاً بأن ألبسه هنا في الطريق المسفلت.

«لا بأس. سوف يفهمون أنكِ أجنبية. وإذا ما أحدثوا لكِ مشكلة، سوف أذكّرهم بحواركِ مع الشاه. من فضلكِ اتبعيني».

«شكراً لك». أقلقني كلّ الحوار المتبادَل بيننا، مثلما أقلقتني الصورة العملاقة لخميني التي تلمح المسافرين وهم غافلون عنها فيما هم يقتربون من الترمينال. تبعتُ المستخدَم جنباً إلى جنب مع المسافرين الآخرين الذين ترجّلوا من الطائرة معي: فرنسيان، ثلاثة ألمان، ستة رجال عرب من الكويت، وأمريكي كان يستورد الكافيار الطازج وكان يهدد بفسخ عقده. «إنهم لا يعرفون كيف يفعلون أيّ شيء حتى الآن. إنهم لا يتمكنون من إغلاق العلب كما ينبغي. مهما كانت قليلةً الكمية التي أستلمها تكون فاسدة على الدوام. لو استمرت الأمور على هذا المنوال، سأبدأ بشراء الكافيار من الروس».

فيما أنا أجيلُ النظر من حولي، لم يكن من الصعب أن أصدّق أنّ ما قاله صحيح. المطار، الذي كان تحفة النظافة والكفاءة إبَّان عهد الشاه، بات الآن عصيًّا على التمييز تقريباً: الجدران مكسوة بالخربشات

وبصمات الأصابع الملوّثة بالشحم، الأرضيات يتبعثر عليها البصاق والورق المُجَعَّد، وثمة حشدٌ غفير من المُلائيين يملؤون القاعات، مع أنه لم يكن من الواضح ماذا كانوا يفعلون، ولماذا هم موجودون هناك. كان ترمينال الواصلين مهجوراً عمليًّا، غير أنّ ترمينال المُغادرين المرئي من خلال زجاج نافذة مكتظاً بنحو مستميت. مئات ومئات من البشر كانوا قد عسكروا مع الأطفال وحزم الثياب، وهم يُحدِثون جلبةً جهنمية. أخبرني الأمريكي أنهم يجتمعون هناك كلّ يوم فجراً على أمل مغادرة البلاد، يتوسلون من أجل الحصول على مقعد في طائرة، أيّ طائرة، لا يهم الوجهة التي تمضي إليها. كثير من هؤلاء البشر من النساء، وجعلت عباءاتهن شَعري العاري أكثر عُرياً، جعلت رفضي تغطية نفسي يبدو عملاً متهوِّراً. ماذا لو أنهم لن يسمحوا لي بالدخول للبلد؟

لا ينبغي لي أن أقلق طويلاً: ذلك الحوار اللعين مع الشاه هو مفتاح عمومي ثمين فعلاً. في نقطة تفتيش البوليس، مُستخدَم (الخطوط الجوية الإيرانية) جعلهم يدمغون جواز سفري بسرعة مُذهلة، وعند الجمارك، حيث كان دزينة من الخمينيين الصغار يهددون الركاب الذين كانوا حمقى بما يكفي كي يسافروا مصطحبين معهم نسخة من مجلة (بلاي بوي) الإباحية أو يجلبون معهم قنينة ويسكي، ما من أحد سألني ما إذا جلبتُ معي الكحول أو مجلة إباحية. وقبل أن أعرف كنتُ مُبرَّأة من الشك: كان ينتظرني تحت صورة خميني التاسعة على اليسار شابٌ يلبس عوينات طبية ذو شارب ولحية، رجل فارسي موغِل في القِدم. كان هذا

ما يُسمى المترجم سلامي، الذي سيكون حارسي من الآن فصاعداً. أحمد يحمل وثيقة يبدو أنها تتفادى أيّ نوع من العقبات، مشى بخطوات واسعة عبر المُلائيين، جاعلاً يديه تلامسان جنبيه بإحكام كي يتحاشى أيّ تماس مُحتمَل، انحنى لي بطريقة معصومة من الخطأ وخاطبني بلغتي.

«الله أكبر. مرحباً بكِ في طهران. سيارتي تحت تصرّفكِ كي تأخذكِ إلى المدينة».

كان الشارع المؤدي إلى المدينة سلسلة بلا نهاية من الخمينيين الذين ينظرون إليك من كلِّ مبنى من المباني، من وراء كلِّ نافذة من النوافذ، وعند كلِّ تقاطع. كان حارسي هو الشخص الأخير في العالم الذي تصوّرتُ أن أكون معه في هذا الوضع. بدا عليه أنه كانت تُعذبه ألف مشكلة. سوف أكتشف تالياً أنه كانت قد أزعجته ألف كذبة، بدءاً من كذبة أنه كان قد حصل على موعد مع آية الله.

كان خجولاً للغاية من اسم أسرته. «لا تسمِّيني سلامي، أرجوكِ، سمّيني باقرًا. إني أقول لجميع (الغربيين) إن اسم أسرتي هو باقر». كانت عُقدته المتعلّقة بأنه يُسمى سلامي قد بدأت في فلورنسا، حيث درس في الجامعة على مدى ثمانية أعوام من دون أن يُنهي دراسته في الجامعة كي يحصل على الشهادة. كانوا يعاملونه بقسوة توسكانية أنموذجية: "خبز وسلامي [1]، خبز وسلامي!» سلامي ريفي، سلامي خنزير بري،

(1) السلامي salami: السجق، أو النقانق- م.

سلامـي مُعد بأسلوب الصياد[1]! سلامي طفـل صغير! سلامي مُريب قليـلاً!» كان متديِّناً جداً، وكان يلفـظ اسم الله بصوت أجش يخرج من فمـه مثل تجشؤ، لمجرد أن يمتصه من جديد مثل لقمة طعام. كان يُظهِر حبًّا هستيريًّا تقريباً لآية الله خميني.

«ليس آية الله، إنه إمام. الإمام يعني [ولي]».

تحـدّث عـن الثـورة التي انضـم إليها في الأيـام الأخـيرة، وأُصيب بجـرح أو جرحـين بحماسـة منقطعـة النَفَس. كان هـذا شـيئاً مفهوماً، رؤيـة كيف كانـت نقطة البداية فيما يتصل بمسـيرته. كان قد انخرط في النِعـم الجيـدة لبني صدر وصـادق قطب زاده، وحصل عـلى وظيفة في مكاتب التلفزيون الرسمي. يعتقد أنّ الثورة هي انتصار عظيم للجنس البـشري، وبدايـة عصر ذهبي سـوف يأتي بمبادئ الإسـلام إلى جهات العالم الأربع. في كلّ مرة يُلمِّح بها إلى أشهر التمرّد البطولية، يزداد عدد الأموات. في مفترق الطرق الأول كان عددهم خمسين ألفاً. وفي المفترق الثاني أصبحوا ستين ألفاً. وفيما كنا نمرُّ بسـيارتنا عبر بوابات المدينة بلغ عددهـم مائة ألف. وطـوال الأيام القليلة التالية سـوف يقفز العدد إلى مائة وعشرين ألفاً، ومن ثم مائة وخمسـين ألفاً. في لحظات من الابتهاج الخاص، يصل العدد غالباً إلى مليون قتيل.

«ألم تقل إن عددهـم خمسون ألفاً من قبل؟»

(1) سلامي مُعد بأسلوب الصياد: وردت بالإنكليزية والإيطالية في النص الإنكليزي salami alla cacciatore، أيّ مُعَـد مـع البصـل والأعشـاب، وبخاصـة الطماطـم، والفلفل الأخضر وغالباً النبيذ. تُلفظ كما يلي: سلامي آلا كاتشاتوري – م.

«لا بدَّ أنكِ سمعتِني خطأً».

كان مستعداً للقبول بأيّ تحقير أو شتيمة، لأيّ سخافة باسم أولئك الأموات، الذين ظلّوا يتضاعفون كأرغفة الخبز والأسماك، والذين يبدو أنهم ماتوا كي يمنحوا الإيرانيين انتصاب القضيب. حتى أنه فهم اشمئزاز مُستخدَم (الخطوط الجوية الإيرانية):

«إن مصافحة أيدي النساء ممنوعة»، لأن هذا يُقلل من احترام النساء.

«إن طلاء أظافر المرأة باللون الأحمر ممنوع»، لأنه يُقلل من احترام الرجال.

«إن ذهاب المرأة إلى خارج المنزل برأس غير مُغطى شيء ممنوع»، وليس ثمة حاجة لأن نُعطي السبب. إلا أنني إذا ما فكرتُ في المسألة، كان باقر متيقناً من أنني سأفهم: ما هو الجزء التشريحي الأكثر جاذبية لدى المرأة، بالنسبة للرجل؟ لا، ليس الثديان المكتنزان أو الردفان المستديران أو الساقان الجميلتان. بعض تلك الخصائص مهمة لاحقاً، في البوح الذي يأتي مع اللذة الهمجية. إن الشيء الأكثر جاذبية فيما يتصل بالأنثى، بالنسبة للرجل، أكثر من أيّ شيء آخر، أكثر من عينيها أو فمها، هو شعرها. بالأخص إذا كان طويلاً وقد هبّت عليه الريح. هذا إذاً يُفسر لماذا يجب أن يُغطى الشعر قبل كلّ شيء، ولماذا يكون مقبولاً أحياناً أن تُستبدَل العباءة بمنديل يخفي الجبين ويُعقد عند الرقبة كحجاب الراهبة. إنما لا شيءَ يُمكن أن يحل فعلاً محل العباءة، لأنه ما

مـن شيء يُبهج فنتازيا الرجل كالعباءة. إذا ما رأيتَ وجهاً حلواً مؤطراً بعباءة، سوف تحترق بالإثارة، تسـأل نفسكَ حالاً ماذا يوجد تحتها. إذا لم يكـن بوسعكَ أن ترى وجهها لأنهـا مُخلصة جداً لله بحيث أنها تغطي وجهها أيضاً، حسـناً، فإنك تكاد أن تفقد عقلك. صباح هذا اليوم كان قد شـارف على الجنون لمّا عبر الطرقات رفقة امـرأة محتشمة جداً كانت تمـشي هنا وهناك وكـلّ شيء مُغطـى باستثناء عين واحدة. كـان قد بدأ يتعقبها يحدوه الأمل في الأقل أن يرى عينها الثانية، وكلّ حواسه كانت حية بالأسئلة: هل هي شـابة أو كبيرة السـن، هل هـي بدينة أو نحيفة، حلوة أو قبيحة؟

«أنتـن (الغربيـات)، من الناحيـة الثانية كـلّ شيء مكشوف، ما من شيء مخفي أو مُحاط بالسرّية. إنه شيء واضح إذا ما كنتِ شـابة أو كبيرة الســن، سمينة أو هزيلة، حلـوة أو قبيحة. إنه شيء مسـتحيل أن يكون ثمة شيء مُثير فيكِ. وكلّما خلعتِ مزيداً من الملابس، نشعر بإثارة أقل!»

لم أستطـع أن أفهـم مـا إذا كان يقول ذلـك عن قناعـة، انتهازية، أم عـن خـوف. إلا أنه تغنى بمدائـح آية الله أعذرني، الإمـام بالنبرة ذاتها. فيلسـوف عظيـم، قائد عظيم، سياسي وعالِم لاهـوت عظيم. من دونه، كيف يتسـنى لنا أن نتذكر أنّ الإسلام هو قانون، وأنّ قانون الله هو بناءً على ذلـك القانون الوحيد؛ وأنّ علماء الدين وحدهم الذين يعرفون أنّ القانون ينبغـي أن يحكم المجتمع، ويحلّ المشاكـل التشريعية، التنفيذية، والإداريـة؛ ولـن تكون حكومـة بلد إسلامـي شرعية مـا لم يكُن علماء الديـن خلفهـا؟ كيف يتسـنى لنا أن نتذكـر أنه خارج القـرآن لا توجد

عدالـة، وأنـه لن تكـون هنالك عدالـة، وأنه لا يُمكن تخطـي القرآن أو إبطالـه، وأنّ القوانـين المتعلقـة بعقوبة الموت التي تفرضهـا الدولة على مرتكبي الجرائم لا تزال هي أفضل سبيل لردع اللصوص، السـكارى، ومتعاطي المخـدرات؟ زيادةً على ذلك، الإمام نزيـه وصادق، إنه ليس لصًّا على غرار محمد رضا پهلوي. إنه لا يملك شيئاً، باستثناء السجادة ذات اللونـين الأزرق والأبيـض التـي نـام عليهـا حـين كـان منفيًّـا في كوميـون Neuilly – sur – Seine، والتـي لا يـزال ينام عليها في مدينة (قُـم) المقدسة. وهـذه هي اللحظة التـي اكتشفتُ فيها الكذبـة المتعلّقة بالموعد مع آية الله.

«بما أننا بصدد الموضوع، متى يُمكننا رؤية هذه السجادة؟»

«حالاً، حالاً. لا تهتمي بهذا الموضوع».

«لكني مهتمة به. أُريد أن أستعد للحوار، كي أذهب إلى (قُم)».

«سوف نمضي إلى (قُم) معاً. لا تسـتطيع امرأة، أيُّ امرأة، الدخول إلى (قُم) من دون أن يرافقها أحد».

«حسناً، هذا رائع، لكن في أيّ تاريخ سيجري الحوار؟»

«ليس هنالك تاريخ».

«حسـناً، بـما أنّ هنالـك موعـداً، لا بـدَّ أن يكـون هنالـك تاريـخ، صحيح؟»

«ليس هنالك موعد».

«لا يوجد موعد؟ هل تقول لي إنكَ جعلتني أركب بالطائرة من نيويورك إلى طهران من دون الموعد الذي طمأنتني أنكَ رتّبتَه أصلاً حين تحدّثنا على الهاتف؟ هل تقول لي إنكَ كذبتَ عليَّ؟!»

«نعم، كذبتُ. لو لم أكذب ما كنتِ لتأتين. لما كان باستطاعتكِ أن تكتشفي هذه الثورة العظيمة، وإنها ليست خطيئة على المسلم إذا ما كانت الكذبة في خدمة الإسلام. في حقيقة الأمر، إذا كانت الكذبة في خدمة الإسلام، فمن الواجب أن يكذب المرء. إنها فضيلة».

«أنتَ كذاب لعين، نصّاب مُثير للاشمئزاز، رجلٌ تُلاحق العباءة، ومنافق قذر!»

«لا تهينيني. لا يحبذ الله أن يُهين الكفار المؤمنين به. سوف تتمكنين من رؤية خميني، أعدكِ أنكِ ستزورينه. إنه يعرفكِ، لقد شاهد حواركِ مع الشاه. في غضون ذلك، لماذا لا تجرين حواراً مع صادق قطب زاده[1]؟»

«أنا لا أعبأ بصادق قطب زاده».

«إذاً أجري حواراً مع بني صدر[2]».

---

(1) صادق قطب زاده (1936 – 1982): سياسي إيراني، خدم بوصفه مساعداً قريباً لآية الله خميني في أثناء منفاه في فرنسا العام 1978، كما خدم كوزير خارجية للجمهورية الإسلامية في إيران بين عامَيْ 1979 و1980، خلال أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران في أعقاب الثورة (1979). أُعدم رمياً بالرصاص في العام 1982 بمزاعم تُفيد بأنه كان يُخطط لاغتيال خميني والإطاحة بـ(الجمهورية الإسلامية) – م.

(2) أبو الحسن بني صدر (وُلد العام 1933): أول رئيس لإيران بعد الثورة الإيرانية

«أنا لا أبالي ببني صدر».

«إنكِ ترتكبين خطأً: العالم سوف يعرف اسميهما».

«العالم سوف يعرف اسمكَ إذا لم تحصل لي على موعد مع خميني، هل تفهم؟ لأني سوف أعلّقكَ بالعباءة!»

مع هذا الكلام تركتُه أمام الفندق الذي أسكن فيه، لمجرد أن أقابل مباشرة وبالمصادفة خمينيًّا جباراً آخر كان يسد المَدخل تقريباً. كان هنالك خميني آخر في الصالة، ومن ثم عند تسجيل الاسم، عند البواب، في المطعم. في غرفتي، كان جهاز التلفزيون مفتوحاً بحيث كان باستطاعتي أن أشاهد خمينيًّا آخر خميني هذا متحرّك وملوّن فيما هو يخاطب الحشود في (قُم). أطفأتُ جهاز التلفزيون، وأنا مغتاظة. فتحتُ الثلاجة الكهربائية، متمنيةً أن أجد مشروباً وأُهدِّى أعصابي. بدلاً من ذلك، حممتُ حنجرتي الجافة بالصرخات. شلّتني الثلاجة الكهربائية بحفلة صاخبة من عصير الليمون، عصير البرتقال والماء المعدني. بطبيعة الحال، لم تكن هنالك زجاجة بيرة واحدة. وفجأةً استحوذت

سنة 1979، التي انتصرت وأنهت الحكم الملكي. تولّى رئاسة الجمهورية الإيرانية في 4 شباط/ فبراير 1980 حتى 21 تموز/ يوليو 1981، ليليه في هذا المنصب محمد علي رجائي. اختلف أبو الحسن بني الصدر مع آية الله خميني بعد أن اتهمه الأخير بضعف الأداء في قيادة القوات الإيرانية في الحرب العراقية الإيرانية، تمت تنحيته في 10 حزيران/ يونيو 1981 من موقع مسؤوليته بسبب معارضته لاستمرار الحرب بين إيران والعراق. استقر بضعة أعوام في فرنسا، وساهم في تأسيس (المجلس القومي للمقاومة الإيرانية). وهو الآن في سن الثامنة والثمانين، حالياً أقدم رئيس إيراني سابق على قيد الحياة – م.

علـيّ رغبةٌ عارمة في أن أحتسي البـيرة، النبيذ، شراب كحولي مُقطّر، أيّ شراب مذاقه كالكحول. أنا، امرأة تشرب دوماً باعتدال، لم يسبق لها أن ثملـت طوال حياتها. اتصلتُ بخدمـة الغرف في الأسفل، مصممةً على خـرق القانون، أن أنتقم نوعاً ما مـن الحيلة القذرة التي لعبها عليّ ذلك المُتعصب الكـذّاب. كنتُ سأعرّض نفسي لخطـر الاعتقال، الفضيحة، والضرب العلني، لمجرد الحصول على قطرة واحدة من الكحول.

«أُريد بيييرة!»

«لا توجـد بـيرة، لا توجد بـيرة»، قال النادل، فيما كـان يفرّ، خائفاً. حاولـتُ من جديد، اتصلتُ هاتفيًّا بالبـواب في الأسفل، الذي بدا من نوع الأشـخاص الذين يرغبون في القيام بأيّ عدد من الأشياء من أجل الحصول على بقشيش.

«أنا أجنبية، كما تعرف، وأنا أريد زجاجة بيرة».

«أنـا متأسـف، في إيران لا يتم تقديم البـيرة»، ردَّ عليَّ، وبحدَّة أنهى المكالمة الهاتفية.

لـذا اتصلـت هاتفيًّـا بمديـر الفندق الذي كـان مبتهجـاً للغاية كي يرحِّب بي ووعدني بتلبية كلّ احتياج من احتياجاتي.

«أرجوك، أن تُحضر زجاجة بيرة إلى غرفتي».

«هـذا شيء مسـتحيل. لو إنـكِ طلبتِ القمر سأعطيـه إليكِ، إنما لا تطلبـي منـي زجاجة بـيرة». وأضـاف قائـلاً إن العاملـة المنزلية سوف تصعد إلى غرفتي وتشرح لي.

وصلت بسرعة وعلى وجهها بسمةٌ قلقةٌ وفي يدها نسخةٌ من كتابي. قلّما كان رأسها مغطى بمنديل شفاف، ولها عينان لطيفتان، جذابتان. بدت مستعدة لأن ترمي نفسها على ركام من الحطب مُعد لإشعال النار من أجل أن تهدِّئني.

«يتعين عليكِ أن تحضري لي زجاجة بيرة. أرجوكِ، كوني لطيفة، جِدي لي زجاجة بيرة».

تلاشت بسمتها في الحال وانزلق كتابي على الفراش كما لو أنّ يدها لم تَعُد قادرة على حمله.

«أعرف أنكِ تُريدين زجاجة بيرة. الآن الجميع يعرفون أنكَ تريدين زجاجة بيرة. إنما لا أحدَ يستطيع أن يساعدكِ».

«أنا لستُ مسلمة. لستُ مُلزَمة بأن أطيع محمداً».

«هذا ليس بالشيء المهم هنا. حتى إذا كان مهمًّا، فليس ثمة أيّ فارق. كلّ صناديق البيرة أُتلفت، جنباً إلى جنب مع كلّ قنينة من قناني النبيذ، الشمبانيا، الكونياك، الويسكي، الفودكا، وكلّ الأنواع الأخرى من المشروبات الكحولية. جاء (الحرس الثوري) مع المُلائيين وهشَّموا القناني، واحدة بعد أخرى. وبعدها أضرموا النار في جميع الأمكنة التي تبيعها، الفنادق، المطاعم، والمحال التجارية. السفارات وحدها التي تم استثناؤها من هذه الحملة. أينما تديري بصركِ، تجدي أنّ المدينة تحترق؛ أينما تسيري، فسوف تختنقين من رائحة الكحول الكريهة. والآن لم يبقَ شيء باستثناء ما يستعمله الأطباء كي يُطهروا أدواتهم في المستشفيات. لكن...»

«لكن؟»

عـادت بسـمتُها، وغمزت لي. مضت إلى البـاب وفتحته، كي تتأكد من أنه لا يوجد أحد يرهف السمع في المجاز، وبعدها أغلقته من جديد ورجعـت إلى المكان الذي أجلـس فيه. بدأت تتحـدّث ثانية، هذه المرة بهمس.

«عليـكِ أن تعـرفي أني أكنّ لكِ إعجاباً شـديداً. أعتقد أنكِ مُذهِلة، مـع أننـي لا أعرفكِ. بحـوزتي جميع كتبـكِ، ولمّا اكتشفتُ أنـكِ آتية إلى هنـا قلتُ لزوجي الذي يسـتمتع بكتبكِ بنفس القـدر الذي استمتع بها أنا. هذه هي نسـخته، إن لم يكن لديكِ مانع من وضع إمضائك عليها؟ قال زوجي إننا يجب أن نحضر إليكِ هدية، وأعطاني شيئاً ما كي أُعطيه إليكِ. إنها بحوزتي في مكتبي بالطابق الأرضي».

«شكراً جزيلاً لك! ما هي الهدية؟»

«زجاجة شمبانيا».

«زجاجة شمبانيا؟!»

«ششش! لا تصرخي! كان زوجي يحتفظ بها من أجل عيد ميلاده، إلا أنـه قـال لي أن أجلبها إليكِ. على أية حـال. نحن لا نملك الشجاعة كـي نشربهـا. إنه ليس بالأمر السـهل، كما تعرفـين، أن أجلب الزجاجة من منزلي إلى الفندق. كنتُ خائفة للغاية. لم أكن أعرف أين أخبِّئها، لذا لففتهـا وأبقيتهـا تحت عباءتي. الآن المشكلة هـي أن أُصّعد الزجاجة إلى هنا وأن أقرر ما هو المكان الذي أضعها فيه».

«أحضريها إلى غرفتي، سأشربها. لا، سوف نشربها معاً».

«لا، ليس باستطاعتي أن أفعل ذلك. سأشعر أني مذنبة للغاية. وعلى كلّ حال، المشكلة بعد ذلك».

«بعد ماذا؟»

«بعد أن تنتهي من شربها. أعني، ماذا ستفعلين بالزجاجة الفارغة؟»

«سأرميها بعيداً».

» وماذا لو وجدوها؟ ماذا لو حققوا، واكتشفوا أني من جَلَبها إليكِ؟ حتى مدير الفندق لا يعرف بذلك. يلزمنا أن نكون حذرتين. الخادمات في الفندق لديهن أوامر من المُلّائيين في تفتيش الغرف كلّها. كلّ فندق من الفنادق يشرف عليه مُلّائي، وحين يغادر نزلاء الفندق، تمضي الخادمات وينهبن غرفهم. في بعض الأحيان، هنّ حتى يكسرن أقفال حقائب النزلاء».

بدا أنها ندمت على جرأتها، على سخائها. الآن أنا التي تحاول أن تهدئها.

«لا تقلقي، سأزيل الليبل من على الزجاجة بالماء الحار في الحمام».

«زجاجة الشمبانيا ستظل مميزة حتى من دون الليبل العائد لها».

«سأرميها من الشباك، إلى وسط الشارع».

«هذا من شأنه أن يكون أسوأ، الزجاج المكسور سوف يجذب قَدراً كبيراً من الانتباه».

«إذاً سوف أتركها في طابق آخر، أمام باب أحد الخمينيين. عندئذ سيتهمونه وسوف نتسلّى قليلاً».

راقتها الفكرة. غادرت الغرفة، ضاحكة، ورجعت بسرعة بالهدية الخطيرة في حقيبتها اليدوية، سعيدةً في التخلّص منها. إلا أنّ الزجاجة كانت دافئة، وبما أنني لا أستطيع أن أضعها في الثلاجة الكهربائية، حيث سيجدها الجواسيس في الصباح، خبأتها في خزّان دورة المياه، حيث في الأقل ستبقى معتدلة البرودة. ومن ثم، مستسلمةً، تناولتُ قرصاً منوِّماً وغلبني النعاس. وحين أفقتُ من النوم في صباح اليوم التالي كان عقلي يطنُّ بالأسئلة والتشويش. هل كان تهوُّراً أن أعتقد أنَّ الأشياء كانت أحسن في ظل حُكم الشاه، أن أستنتج أنّ الثورة أخفقت ثانيةً حتى الآن، وأنها في حقيقة الأمر ليست ثورة بقدر ما هي انكفاء[1]؟ ماذا لو مات هؤلاء الناس كافة، لمجرد أن يجعلوا الأشياء أسوأ؟ ماذا لو كدّرت عقلي المبادئ الأخلاقية والأيديولوجية التي تربيتُ عليها؟ ماذا لو عماني مذهبي الخاص بالمنطق والحرية بالطريقة نفسها التي أعمى فيها دينُ آية الله ووصاياه المُلائيين؟ رائع، الأشياء التي خبرتُها عند وصولي مُربكةٌ، كالأشياء التي قرأتُها قبل مغادرتي، لكن هل من الصحيح أن نستنتج أحكاماً مُحددة بعد حادثة صغيرة واحدة أو حادثتين؟ هل هو شيء ذكي وبارع أن أحبس نفسي في داخل الغضب والاحتقار؟ من الجائز أني كنتُ ضحية عدد

(1) استعملت الكاتبة هنا جناساً لفظيًّا في اختيارها لكلمتيْ revolution (ثورة) و involution (إنكفاء) – م.

قليل من الوقائع المنحوسة، أو أني تأثرتُ بمبالغات أشخاص آخرين. مهما يكن من أمر، ساهم الإسلام في قدر كبير من الحضارة: شعراء لَبِقون وذوو رُقي، علماء رياضيات عباقرة، فلاسفة مُبّجلون، أساتذة معرفة من مثل ابن سينا. الذُرى التي وصلها الفكر الديني والصوفي في هذا الجزء من العالم لا يمكن أن تمحوها الحقارة الدينية لرجل مُسنٍّ شرير. وفضلاً عن ذلك، فيما يتصل بالحقارة الدينية، جزئي من العالم لم يكن أفضل: صرامة الصوم قبل القرباني[1] كانت مساوية لصرامة شهر رمضان؛ سجق يوم الجمعة الممنوع مساوٍ للبيرة الخارجة عن القانون؛ وكان حزام العفة في العصور الوسطى أقسى من أقسى عباءة. لماذا يتعين عليّ أن أتعجب؟ (الغرب) في غطرسته الزائفة، كان قد بدأ (الحروب الصليبية)، وقد ألبسها ثياباً جميلة كما لو أنها مشروعٌ نبيل من دون أن يقر أنها حروبٌ استعمارية، إبادات جماعية. نعم، (محاكم التفتيش) العائدة لنا جرت قبل خمسمائة سنة، غير أنّ أولاد (الإصلاح) أحرقوا ساحرات (سالِم) [2] قبل مدة غير طويلة، والخوف من الخطيئة الذي أحسستُ به حين كنتُ طفلة لم يحصل أكثر من أربعين عاماً مضى. في النهاية، كان الاختلاف في التواريخ والأسماء. هنا يقول الناس إنه من الحق أن يكذب المرء باسم القرآن، ونقول نحن إن الغاية تبرر الوسيلة.

---

(1) القرباني Eucharistical: المقصود هنا ما له صلة بالقربان المقدس – م.

(2) ساحرات سالم Salem Witches: هؤلاء النسوة كن يمارسن السحر في ولاية ماسوشيتس، الولايات المتحدة، وقد خضعن للمحاكمات وجلسات الاستماع، بين شباط/ فبراير 1692 وأيار/ مايو 1693، أسفرت عن إعدام عشرين شخصاً أغلبهم من النساء. كانت هذه المحاكمات تُسمى «محاكمات السحر في سالم» – م.

هـل استحق سلامي فعلاً ازدرائي وهتافـاتي؟ يبدو أنه كان مقتنعاً جداً أنـه أسدى لي معروفاً من خلال الاحتيال عليَّ، وأنه كان متيقناً جداً من أنـه سـوف ينتهي بي الحال أن أقدّر ثورتهـم. باختصار، كنتُ أحتاج إلى أن أسعى لرؤية الأشـياء بدرجة أكبر من التجرّد والمرونة. كنتُ أحتاج إلى السـعي مـن أجل أن أفهم. ربما هو شيء جيـد أنّ الموعد مع خميني لم يُحدد حتى الآن. لقـد منحني وقتاً كي أتأكد مـن معلومات معينة، كي أتغلّب على صدمة وصولي المنحوس، كي أواجه الحوار في (قُم) بأهواء ومحاباة أقل.

وهكـذا، وأنـا أنسـى، أرغب بأن أنسـى النـماذج الجصية لـ يسـوع المسـيح، مريم العذراء، والقديسـين؛ الكاتدرائيـات المُذهلة، الكنائس الصغيرة الباهرة، الأديرة الاستثنائية؛ الأناشيد الجيورجية السامية التي جـدد بهـا الاستبداد الديني نفسـه في داخـل أوروبا. قـررتُ أن أُقارب بقيـة إقامتي في طهران بالمنطق والتسـامح. إلا أنني اتخـذتُ هذا القرار مـن دون أن أفكـر في البديهـة المتمردة التـي تقاتل ضد المنطـق. وما أن انتهـى هجائـي الداخلي السـخي، حتى غمرتنـي حاجةٌ كانـت عارمةً بقـدر رغبتـي في شرب البـيرة في الليلـة الفائتة. كنتُ أحتـاج لأن أجد حلّاقاً كي يغسـل شـعري، كي يكون بوسعي أن أفضـح عدوي بشعرٍ يُلهِم اشتياقاً ساحقاً. كانت لي العلاقة العدائية ذاتها مع الحلّاقين كتلك العلاقـة العدائية مع أطباء الأسنـان. إني أكره عاقصات الشعر وفرّاشي الشعـر بقـدر ما أكـره آلات حفـر الأسنان وكمّاشـات الأسنـان. كنتُ أُخـدع باستمـرار بمعالجـات تعديل لن تـدوم أكثر من نصـف ساعة،

أكـون مُرغَمـة بعدها على أن أسحب شـعري كلّه للخلـف ليتحوّل إلى ذيل مهرة مضطرِب ذي طوق مطاطي. إلا أنني كلّما حدّثتُ نفسي أكثر أنّ هذا دافعٌ سفيهٌ، هدرٌ للوقت، نزوةٌ، تتعاظم الحاجة أكثر. إنها حاجة لا تُقهَر، لا تُقاوَم، وتأتي مع كلِّ أشـكال الأعذار المتضاربة. كان يتعين عـليّ أن أطلـع بتحدٍّ أكثر تطرفاً من الشمبانيا التي خبأتها في خزّان دورة الميـاه. كان ينبغي لي أن أطلع بشيء ما كـي أعاقب أولئك الممتنعين عن شرب الكحـول المجانين الذين كانـوا مهووسين بالشَّعر أكثر من الهنود الذيـن سلخوا فروة رأس المسـتكشفين في (الغـرب الأدنى). إن إظهار شَـعري النظيف والمُسرَّح على وفق الأسلـوب الجديد في عُريه المُخجِل لا، الفاحش هو جزء من أذى كان أكثر من مجرّد ثأر: إنه موقف سياسي، وفعل من أفعال (المقاومة).

اتصلـتُ هاتفيًّـا بصديقتـي العاملـة المنزليـة وسألتُها مـا إذا يوجد مصفف شعر في الفندق. قالت إنها سوف تأتي إلى غرفتي في بحر دقائق قلائل، وفي الحال أتت إلى باب غرفتي بمسـحة تواطؤ، وراحت تُخبرني أنّ التليفون يخضع للمراقبة وأنه من الأفضل ألا يُسمع كلامنا فيما نحن نتحدّث عن موضوع حسـاس كهذا. أجل، يوجد مصفف شـعر، وهو موهوب جداً. لا توجد حلّاقة بل حلّاق، والحلّاقون الذكور ممنوعون من العمل. بعد تمرير هذا القانون الجديد، خمسـون ألف حلّاقٍ نسـائيٍّ أصبحـوا عاطلين عن العمل، وحلّاق الفندق ليـس باستطاعته العمل من دون مسـاعدة شقيقته، التي كانت مريضة اليوم. هل باستطاعتنا أن نقنعـه بخرق القانون؟ كانت تشك في إمكانية أن ننجح. غير أنها قالت

إنـه بمسـتطاعنا أن نحـاول، و، هامسـةً، جعلتني أنـزل إلى السرداب، حيـث كانت أبواب صالون التجميل مفتوحة ورجلٌ في عقده الخامس يجلـس بنحو كئيب خلف كاونتر العطور. كان يعرف ما أريد حتى قبل أن أفتح فمي، وانفجر مَشهدٌ ميؤوس منه.

«أرجـوكِ، مدام، لا تطلبي مني! لا تطلبي منـي! إذا ما فعلتُ ذلك سأعرّض نفسي لخطر الاعتقـال، سيكون باستطاعتهم أن يحرقوا محلي! هـل تعرفين كم عـدد صالونـات التجميل التـي أُحرقـت في الأسابيع القليلة الفائتة؟»

«لن يرانا أحد. لن يسمعنا أحد. لن نُخبر أحداً».

«على الرغم من ذلك سوف يكتشفون الأمر، مدام. أرجوكِ، أتوسَّل إليكِ، اغسلي شعركِ بنفسك! أنظري سوف أُعيركِ مجفف الشعر العائد لي. سأعطيكِ الشامبو. سأعطيكِ فرشـاة شـعر جديـدة. سأعطيكِ أيّ شيء، فقـط أرجوكِ لا تطلبي مني أن ألمس رأسكِ. لا يسـتطيع الرجل أن يلمس رأس امرأة إلا إذا كانت تلك المرأة زوجته».

«لكـن هـذه السـيدة هي التـي حاورت الشـاه. وهي هنـا الآن كي تحـاور خمينـي»، تدخَّلت العاملـة المنزلية. وفجأةً تلاشـى قنوطه وتنوّر بسعادة جيّاشة تقريباً، وفاض بالفهم والاستعداد.

«هل ستحاورينه فعلاً؟»

«خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة»، كذبتُ عليه.

«بالطريقة ذاتها التي أجريتِ فيها حواراً مع الشاه».

«بالطريقة ذاتها، بوسعكَ أن تتأكد».

«في تلك الحالة... دعيني أفكر. ربما بوسعي أن أغلق المحل وأجعلهم يعتقدون أنني مضيتُ إلى المنزل، ومن ثم أعود وأدخل عبر المَرأب وأغسل شعركِ خلف أبواب مُوصَدة».

«تبدو هذه فكرة رائعة».

«أحتاج إلى شاهد عيان، أيضاً. كما تعرفين، مثلما تكون هنالك ممرضة في الغرفة حين يفحصون مريضة. هل تفهمين كيف أعني؟ بتلك الطريقة، إذا سارت الأمور في الاتجاه الخاطئ، قد يشهد شخصٌ ما أني غسلتُ شعركِ بكفاءة مهنية، وأنه لم تكن لي نيّات سيئة».

«بوسعي أن أمكث هنا»، قالت العاملة المنزلية.

«حسناً، إذاً». خفّض حاجب النور الدوّار بحذر متآمرٍ يستعد لاجتماع سوف يقرر مصير بلد. غادر، وراح يُخبر كلّ مَن يقابله أنه نال ما يكفيه هذا اليوم، وأنه ذاهب إلى المنزل. بعد مضي عشر دقائق عاد عبر مَدخل المَرأب، وراح يفتح أبواب صالون التجميل خلسة، ويُدخلنا أنا والعاملة المنزلية ويغلق الأبواب بسرعة خلفنا. جعلني أجلس على كرسي وأمال رأسي للوراء إلى داخل المغسلة.

إلا أنني لم أكن أعتمد على الله، الله الرهيب الذي بوسعه أن يرى ويسمع حتى في غرفة مُغلقة من دون ميكروفونات، حتى في ألغاز ضميرك. الآن، وهو يعرف أنّ العينين الإلهيتين تراقبانه، وأنّ الأذنين الإلهيتين تستمعان إليه، أدرك رعونة قراره.

«لا أستطيع! أوه، لا أستطيع! سامحيني، لا أستطيع!»

«هيا، شعري مُبتلٌّ أصلاً! هل ستتركني وشعري مُبتلٌّ؟ سوف أُصاب بالزكام!»

«اغسليه بنفسكِ، جففيه بنفسكِ، لا أستطيع، أنا خائف. هذا الخوف أقوى مني... أرجوكِ افهمي، أتوسَّل إليكِ».

«لا، لقد وعدتَني. وأنظر، لدينا ممرضة، أعني شاهدة عيان. هيا، استمر. لن أنظر».

«إنه ينظر إليّ! إنه يراني!»

«لكن جلالته يعرف أننا لا نقوم بأيّ شيء سيِّئ. جلالته يعرف أنكَ تؤدي عملك ليس إلا! وزيادةً على ذلك، ألم يقل القرآن إننا نحتاج لأن نُبقي أنفسنا نظيفين، وأنه في داخل الجسم القذر توجد روح قذرة؟ الرأس جزء من الجسم. إنكَ من خلال غسله تُطيع واحدة من وصايا الله».

«لا، لا، لا! أنتِ امرأة! امرأة!» بدا أنّ قرناً انقضى قبل أن يقرر أن يسكب الشامبو. ولمّا بدأ أخيراً بتدليك فروة رأسي، كانت يداه ترتعشان كما لو أنه يقترف تدنيساً. وكي يتغلّب على خوفه شرع يتكلّم، ويتكلّم، وارتعش صوته أكثر من يديه: تشظى صوته، عَلِق في حنجرته. إلا إنه لم يكن غبيًّا. لم يكن جاهلاً. كان قد سافر، تدرَّب على مهنته في باريس. حتى أنه تكلّم بفرنسية لائقة.

«أنا لا أشعر بأيّ شيء غير مناسب، كما تعرفين. لا شيء. بالنسبة

لي، إنه الشيء نفسه مثل استئصال زائدة دودية. الطبيب الجرّاح لا يبالي مَن هو المريض الذي يشكو من التهاب الزائدة الدودية، سواء أكان رجلاً أم امرأة. إنه يلامس، إنه يقطع، إنه يُزيل، وهذا هو كلّ ما في الأمر. الطبيب الجرّاح لا يقدر أن يرفض تقديم خدماته. إذا لا يقدر الطبيب الجرّاح أن يرفض تقديم خدماته، لماذا ينبغي لي أن أرفض تقديم خدماتي؟ هذه هي مهنتي. لقد كرّستُ حياتي لهذه المهنة، لهذا الفن. درستُ مع ألكسندر، ليس من الصحيح أن أنسى ما تعلّمته. وأنا متيقن من أنّ الله، في هذه اللحظة، يفهمني. هل أنا مُحق؟

«نعم».

«الله رحيم، وهو لا يُحب أولئك الذين يُقصون رحمته. وقبل كلِّ شيء، هذا فعل من أفعال الرحمة. شعركِ وسخ، والآن، بفضلي، سيكون لكِ حالاً شعرٌ نظيفٌ. وأنا لا أحسُّ بأيِّ شيء، سأقول هذا من جديد. حتى حين أجفِّفه. بطبيعة الحال، إن تجفيفه شيء مُعرّض للشبهة أكثر، لأنه ثمة سعادة بالغة في الشعور بأنّ الشعر يمر عبر الأصابع حين يكون نظيفاً، خفيفاً، وناعماً... أوه لا، ماذا قلتُ! أوه من فضلكِ، لا تُسيئي فهمي! لم أكن أعني أن أقول تلك الكلمات! ينبغي أن تصدّقيني، هل تصدّقيني؟» بعدها، وقد أعماه الرعب، أنزل الفرشاة ومجفف الشعر ورفض مواصلة العمل. وتعين عليَّ أن أُنهي تصفيف الشعر بنفسي، بمساعدة العاملة المنزلية.

لكن في هذه اللحظة اكتمل فعل (المقاومة). كان شعري كتلةً طائرة

ستجعل قبيلةً كاملة من الأباتشي [1] أو النافاجو [2]، (غيمة حمراء) [3] هو نفسه، (ثور جالس) [4] هو نفسه، يفقدون عقولهم. الآن باستطاعتي أن أعمل، باستطاعتي أن أدرس الفوضى المخيفة التي أدخلتُ نفسي فيها. بوسعي أن أنظر بعينيّ وأراقب تراجيديا البشر الذين يدمِّرون أنفسهم.

***

إن هذه البلاد تشبه سفينة من دون دفة أو مجاذيف، مزقتها الأمواج في أثناء عاصفة، امتلأت بالماء، بحيث أن الرّكاب حتى لم يزعجوا

---

(1) الأباتشي Apache: فرد ينتمي للسكان الأمريكيين الأصليين (الهنود الحُمر)، الذين كانوا سابقاً بدوًا ومولعين بالحرب، يسكنون في جنوب غرب (الولايات المتحدة) وشمال المكسيك – م.

(2) نافاجو Navajo: فرد ينتمي إلى قومٍ هنود أمريكيين يُقيمون في شمال نيو مكسيكو وأريزونا – م.

(3) غيمة حمراء Red Cloud: زعيم بارز لعشيرة أوغلالا من قبيلة لاكوتا تحالف مع قبيلتي شايان وأراباهو. خاضت (الولايات المتحدة) حرباً ضدهم (سمتها: «حرب الغيمة الحمراء») بين عاميْ 1866 و1868، من أجل بسط السيطرة على منطقة حوض نهر باودر الواقعة شمال وسط ولاية وايومنغ الحديثة. كانت هذه الأرض العشبية والغنية بالجواميس الأمريكية الأرض التقليدية لهنود الغراب في الأصل، غير أن قبيلة لاكوتا كانت قد بسطت سيطرتها عليها مؤخراً آنذاك. احتفظت قبيلة الغراب بأحقيتها في الأرض المتنازع عليها وفقًا للمعاهدة الكبرى التي جرى التوصل إليها في فورت لارامي العام 1851، وكان كلّ المشاركين في «حرب الغيمة الحمراء» أطرافاً في تلك المعاهدة – م.

(4) ثورٌ جالس Sitting Bull (1831 – 1890): هو قائد مجموعة هونك پاپا لاكوتا، الذي قاد قومه إبان سنوات المقاومة ضد سياسات (الولايات المتحدة). تُعد مجموعته من السكان الأصليين في (الولايات المتحدة) – م.

أنفسهم بأن ينزحوا الماء من داخلها، بما أنهم كانوا مصممين جداً على أن يسحقوا رأس أحدهم الآخر. إن النشاط البنّاء الوحيد الذي أنجزوه هو الصلاة لله من أجل الخلاص، ونتيجةً لذلك كان البلد يهبط ببطء إلى فوضى سياسية ميؤوس منها. عندما لا يُروِّع النظام شعبَه بالخوف من (الجحيم)، العقاب، والموت، أو يُغذي الشك وعدم الثقة المتبادَلة، فإن مهنته الحقيقية الوحيدة هي تنظيم مسيرات ضخمة، حيث ملايين البشر المجانين يرفعون صيحاتٍ تصم الآذان، صيحات «الله أكبر»، أو تنظيم مجموعات هائلة حيث كان رجال الدين المدججون بالأسلحة[1] يهتفون بالتهديدات أو يُطالبون بتسليم الشاه الفار إلى حكومته الشاه الذي كان لا يزال يفتش عن سرير يموت فيه. إن جميع الأشياء التي تصنع آليات البلاد، الأجزاء المتحرّكة العضوية العائدة لمجتمعٍ ما، الأجزاء التي تفكر وتعمل مُزقت إرباً إرباً وبعثرتها الفوضى، التشوش، والكسل. حتى أنهم توقفوا عن الاهتمام بآبار النفط العائدة لهم، وقد هجروا معظمها ولم يعودوا يصدّرون النفط القليل الذي كان لا يزال يُضَخُّ خارج الأرض. حتى أنهم توقفوا عن إنتاج الكاڤيار: كانت أسماك السلمون تسبح في أعالي الأنهار، بطونها منتفخة بالبيض الذي لم يُجمع قط؛ الكمية القليلة منها التي تم اصطيادها من الأنهار تفسخت في نور الشمس إلى أن أصبحت عصيدة فاسدة وعديمة النفع. حتى أنهم توقفوا عن الاهتمام بالأرض الزراعية ولم يعودوا يرعون

---

(1) المدججون بالبنادق gun – toting: المقصود هنا الأشخاص الذين يحملون البنادق أو يستعملونها لأغراض إجرامية – م.

ماشيتهم: الخضار القليلة جمعها حفنة من المتطوعين كي يجلبوها إلى المراكز الحضرية فسدت وماتت، بما أنه لا توجد قطارات أو سيارات، ولا توجد أيّ وسائط نقل عموماً؛ الطعام شحيح بنحو دراماتيكي. أغلب المصانع أُغلقت بسبب نقص المواد والإداريين، الذين تم إلقاء القبض عليهم في كثير من الأحيان وغالباً ما كانوا يُقتلون. ثمانون بالمائة من المتاجر كانت مغلقة، لأنهم لا يملكون شيئاً يبيعونه، أو لأن أصحابها هربوا إلى خارج البلاد. المدارس لم تُفتَح من جديد، لأن رجال الدين كانوا يُريدون ألا يتم تعليم سوى القرآن، في حين أنّ الخبراء بالقرآن، المُلّائيين، كانوا يُفضِّلون النشاط السياسي على التعليم. الجامعات لم تُفتح ثانيةً لأن مسألة الطالبات الجامعيَّات لم تُحل حتى الآن. كان محمد رضا پهلوي قد شجع عدداً كبيراً من الشابات على أن يُحدّثن أنفسهن، أن ينتظمن في كلية الطب، على أن يصبحن معماريات ومهندسات، إلا أنّ النظام الجديد منع النساء من حضور المحاضرات التعليمية. إنكَ يقيناً ليس بوسعكَ أن تطلب من الرجال والنساء اللائي في عمر الإنجاب أن يتقاسموا القاعات الدراسية والمختبرات ذاتها، هل بوسعكَ أن تفعل هذا الآن؟ حتى إذا منحتَ النساء الحق في الدراسة في قاعات دراسية أو مختبرات منفصلة، فإنكَ يقيناً لا تستطيع أن تسمح لشابات محترمات أن يطمحن أن يُصبحن طبيبات، فالطب علمٌ يطلب من ممارسيه أن يفحصوا ويلمسوا الأجسام العارية، الآن هل بمستطاعكَ أن تفعل هذا؟

بكلمات أخرى، إن انهيار الشرعية وتحطم البناء بأسره خلقَ فجوة

لم يكن بطش خميني قادراً على أن يردمها. كان يعيش في منفى فرضه على نفسه في مدينة (قُم) المقدسة، وهي نوع من قرية كبيرة مؤلفة حصراً تقريباً من مساجد وأكاديميات دينية مُحاطة بصحراء وتبعد نحو ساعتين [1] بالسيارة عن العاصمة. كان يجهل تماماً المسائل التي بحاجة إلى الانكباب كي تجعل البلد يستمر. لو إنكَ سألته ما هي الشبكة الكهربائية أو شهادة المرور، لن يكون قادراً على الإجابة عن سؤالك. كانت معرفته معرفةً صوفيةً وأخلاقيةً حصراً، كانت قيادته مقتصرةً على فرض القوانين المتعلقة بالجنس والصيام، وكانت أنشطته الأولية قد تركزت على حماية سلطته الشخصية. مكوّراً على السجادة التي كان سلامي يؤمن أنها رمز من رموز الفضيلة التي لا حدَّ لها، كان وفيًّا لَمثل سائر من ابتكاره هو: «حين تضع الدجاجةُ بيضة، فإن قوقأتها يثقبُ طبلات الآذان». بهذه الروح، أبقى نفسه مشغولاً جداً مروِّجاً لفكرة عدم إمكانية استبداله ومُغذِّياً التعصب الديني الذي أبقاه في السلطة. رسّخ الانشقاقات والنزاعات بين آيات الله متنوعين، ووفّق بين طوائف مختلفة، وكان بالتناوب يصل إلى التسويات ويُحرّض على المشاجرات. الخلاصة، لعب دور الأستاذ الدمية، أدى رقصته، رقصة الدمية المتحرّكة، وأعطى أحاديث يومية كانت تُذاع على تلفزيون صادق قطب زاده، كي لا ينسى المخلصون تلكما العينين عديمتيْ الشفقة. وبالنتيجة، طالما أنّ لا أحدَ تعدّى على القوانين الأيديولوجية، كان الجميع أحراراً

(1) ذكرت الكاتبة أوريانا فالاتشي أنّ (قُمّ) تبعد عن العاصمة طهران نحو ست ساعات. وهذا خطأ، فهي لا تبعد أكثر من ساعتين بالسيارة، لأن (قُمّ) تقع على بُعد 157 كم جنوب طهران – م.

كي يفعلوا ما يحلو لهم. ما من أحد يعرف مَن المسؤول.

توجد حكومة، أو في الأقل شيءٌ ما يشبه الحكومة، أيَّ حكومة، وكان يُديرها الرجل الذكي الوحيد الذي ظهر في أعقاب الثورة: مهدي بزرگان. بزرگان، الذي كان في سن الثانية والسبعين، دخل مضمار السياسة إبان عهد محمد مصدّق، وأمضى معظم سنوات حياته في السجن: باستثناء فترات موجزة قليلة، وكان سجيناً بين عامَيْ 1955 و1978. كان مُحترماً من جانب واحد على نزاهته وثباته على مبادئه، وكان سائر الناس يُؤمنون بأنه الشخص القادر على جلب النظام إلى فوضى إيران. حتى الشاه كان قد طلب مشورته حين أدرك، وقت اندلاع التمرد، أنه من الضروري التوصُّل إلى تسوية. أرسل رئيس جهاز أمن الدولة والاستخبارات (السافاك) إلى زنزانة بزرگان: «جلالته يود معرفة الشروط التي تطلبها كي تغادر هذه الزنزانة وتقبل بمنصب رئيس الوزراء». غير أنّ بزرگان لم يستسلم، أدار ظهره وأجاب قائلاً، «شرطي هو أن يتخلّى عن عرشه ويغادر البلاد». كان رجلاً متديناً للغاية، إلى درجة إنه قيل إنه أوقف سيارته على الطريق السريع، أخرج سجادته، وبدأ بأداء صلاة المغرب في وسط حركة المرور. وهو على الرغم من ذلك دافع عن الحق بالعلمانية وكان، بمعنىً من المعاني، غلاماً هولنديًّا صغيراً يحاول أن يدعم الحاجز الصخري الوحيد الذي باستطاعته أن يمنع مياه رجال الدين القائمة من أن تبتلع البلاد. يُقال إنّ خميني يحترمه وأنه يتحمله ويسامحه لأنه يعرف كيف يحافظ على رأس نقي. إلا أنّ استعطافاته لم تجد آذاناً صاغية، وكانت

مقولته الأثيرة هي: «أعطوني خنجراً، إنما المقبض فقط. أما الأشخاص الآخـرون فكانـوا يقبضون عـلى النصل». لم يسـتمع إليـه أحد. يقضي لياليـه وهو يكتـب رسائل استقالاته، التي يُرسلهـا إلى (قُم) صباح كلّ يـوم، والتي كـان خميني يرفضها دوماً بالكلـمات ذاتها: «سوف تنفذها. ارفع صوتك، دعهم يُطيعوك. وروِّج قضاياك بنحو أفضل. حين تضع الدجاجة بيضتها، قوقأتها تصم الآذان».

كـان لا يزال هنالك (برلمان)، أو شيء يشبـه (البرلمان) بنحو مُبهَم، غـير أن الغالبية العظمى من أعضائه هم مُلَّائيون أغبياء ومشاكسـون، كانـوا يضيّعـون كلّ جلسـة مـن جلسـات (البرلمان) في الخصـام حول إلزاميـة (الكتـاب الأزرق). حـين تسـتعد لشهر رمضـان، إذا وجدتَ نفسـك، مـن دون عود نبـش الأسنـان، وبإيمان جيد تؤمـن أنك أزلـتَ الطعـام بـين أسنانـك بظفـر وردي، إلا أنّ فتاتـاً بقي تحـت لثتكَ، هل أنّ الصيـام مـشروع أو لا؟ إذا ذُبحـت النعجة التـي أغويتَها وبيعت في السـوق، وزوجتكَ تشتري لحمها كي تعد لكَ حساءً، بما أنكَ لا تعرف أنكَ تأكل عشيقتكَ السابقة، هل أنت ترتكب خطيئةً أم لا؟

كان لا يزال هنالك جهاز قضائي، أو شيء ربما يُسمي نفسه «جهازا قضائيّـاً»، إلا أنّ خميني وضعه بين يدي «خلخالي" سيِّئْ الصيت، وهو آية الله كان مُعتقلاً في مستشفى للأمراض النفسية على مدى ثلاثة أعوام لأنه كان يُسلّي نفسه بالقطط الضالة. كان خلخالي مسؤولاً عن إلغاء كلّ نوع مـن أنواع البراهين والدفاع في المحاكـمات، ومن هنا قلّص الجدال إلى قراءة بسـيطة للتُهم ومن ثم إصدار عقوبة الموت. إن الحقيقة القائلة

إنـه معتوه كانت واضحة أيضاً في ضروب الشَطَط الأخرى. على سبيل المثال: كان يحسب نفسه وسيماً إلى حدٍّ بعيد، على الرغم من جسمه الذي كان جسمَ قزم ذي كرش البيرة، وكان يختال أمام المصورين الفوتوغرافيين هاتفاً «هل أنا جميل الطلعة، مُبهج، جذاب؟»

كانت لا تزال هنالك قوة الشرطة، أو شيء يشبهها من ناحية المفهوم. إلا أنّ إدارتها وقعت بين أيدي (الحرس الثوري الإيراني) الوحشي وغير الكفء، هذا الحرس، بدلاً من فرض الانضباط المَدني، اقترف كلّ ضروب المفاسد وبعث التكتيكات التي استعملها شرطة الشاه، وكان يلجأ للتعذيب كي يحصل على الاعترافات من أولئك الذين لا يملكون شيئاً يعترفون به. كانت الأظافر تُقلع، والأقدام تُسلَخ، والأعضاء التناسلية تُحرَق، وأعضاء الذكورة تُضرب بالهراوات وتُسحق.

لم تكن هنالك قوات مُسلّحة، إن لم تكن هنالك فلول بائسة من القوة العسكرية التي بناها محمد رضا پهلوي. وما أن أُطلق الرصاص على الجنرالات والضباط رفيعي المستوى، حتى رمى ثمانون بالمائة من الجنود بذلاتهم النظامية وباعوا بنادقهم. على الرغم من هذا، أعلن خميني نفسه (القائد الأعلى للقوات المسلّحة) ودعا الهاربين من الخدمة العسكرية إلى معاقبة الكورد، الذين يطالبون الآن، بعد أن ناضلوا أكثر من أيّ مجموعة عِرقية أخرى للإطاحة بالنظام المَلَكي، بالحكم الذاتي المحلي. وما هو أسوأ، نجحت دعوته. وكونه استولى على كلّ سيارات الأجرة، الحافلات، والدراجات النارية، والشاحنات المتوافرة،

سفاحـون بملابـس مـن دون زخرفـة أو خطـوط، نزلـوا عـلى المـدن الكورديـة لـ كرمنشاه، سننذج، ومهاباد. ومـا أن أصبحوا هناك، حتى شـكّلوا حواجز طرق كبيرة جـداً بحيث أنّ ممثلي الفلول البائسـة كانوا غـير قادرين على دفعهم للوراء كـي يحتووهم. «أرجعـوا، أيها البُلهاء! مَن الذي أرسلكم إلى هنا؟ عودوا إلى منازلكم، لا تتعرّضوا للعمليات العسـكرية»، صاح النقبـاء والعُقداء، وراحوا يطلقـون الرصاص على الحشـد بنحو أعمـى. غير أنهم ظلّـوا في أمكنتهم، وسمحوا لأنفسـهم أن يُضربـوا، مكررين المرة تلو المرة أنهم كانـوا يُطيعون (القائد الأعلى) وأنـه ما مـن نقيب أو عقيد باستطاعته أن يُلغي أمـراً صادراً من (القائد الأعـلى). وقـد استغرق الأمر دهـوراً كـي يتخلّصوا منهـم، وبعضهم كانـوا قادريـن على أن يجـدوا بذلاتهم النظاميـة وبنادقهـم القديمة كي يصطـادوا الكـورد بفاعلية أكثر. كانـت تصل يوميّـا إلى العاصمة أنباءٌ عـن مذبحة جديـدة. روت لي فتاة هربت إلى طهـران، باكيةً، عن مقتل شـقيقيها، وهما بعمر عشرين وخمسة وعشرين. كان الشقيق الأكبر سنًّا قـد جُرِح في رأسه، أما الأصغر سنًّا فقد جُرِح في رِجليه، وكلاهما وجد مـلاذاً في كوخ. السـفاحون وجدوهمـا، جرّوهما إلى الخـارج، ورموهما عـلى جدار كـي يقتلوهما. كانت التعليـمات تفيد بأنّ الرجـال ينبغي أن يُقتلوا وهم واقفون، وأمرهم السفاحون بأن يقفوا في وضع الاستعداد. كـان الشقيق الأكبر المصـاب بجُرح في رأسه قادراً عـلى الوقوف، لكن الأصغـر ذا الرِجـل الجريحة لم يكن قادراً على ذلك، لـذا جرّ الأكبر سنًّا شـقيقه الأصغر سنًّا عـلى كتفيه، وفارقـا الحياة هكذا، كـلّ واحد منهما

فوق الآخر، هاتفين بصوت عال «تعيش الحرية».

الشخص الوحيد الذي عارض هذه الإبادة الجماعية هو آية الله طالقاني [1]، الذي كان مُودَعاً في السجن طوال إحدى عشرة سنة، منها ست أمضاها في الزنزانة نفسها مع بزرگان. وبدلاً من التكيّف مع خسّة بُنية السلطة الجديدة، شجبهم، وراح يعقد الاجتماعات وبندقيته مُعلّقة على كتفه منتقداً خميني بصراحة، هاتفاً بأنّ هذه ليست نوعاً من ثورة، وأنّ الثورة التي تصادر الحرية، ولا تساعد الفقراء والأميين بل تضطهدهم بنحو أكثر وحشية من المُضطهِد القديم هي ليست نوعاً من الثورة على الإطلاق. كان مثاليًّا مُخلصاً يُفضّل تثقيف نفسه بالنصوص اللبرالية والاشتراكية (الغربية) بدلاً من أن يثقف نفسه بالقرآن. فَهِم طالقاني أنّ الثورة قد أخفقت للأسباب المألوفة كلّها، استبدادٌ يخلع استبداداً، وقد حاول طالقاني أن يُنقذ [2] ما يقدر عليه من خلال إيقاظ ضمائر أبناء الشعب. إلا أنه في ذلك الأسبوع تُوفي في

(1) محمود طالقاني (1911 – 1979): عالم دين شيعي وسياسي إيراني، وهو أحد رموز الثورة الإسلامية الإيرانية. دعم الدكتور محمد مصدق في قرار تأميم صناعة النفط الإيراني، ثم التحق بالحركة الوطنية الإيرانية، وبعد أن حلّها الشاه أسس حركة المقاومة الإيرانية وشارك في تأسيس حزب) حركة حرية إيران. (اعتقله جهاز (السافاك) مرات عدّة وأمضى 15 سنة من عمره في سجون الدولة البهلوية. بعد انتصار الثورة الإسلامية أصبح عضو مجلس خبراء الدستور واختاره روح الله خميني ليكون إمام صلاة الجمعة في طهران. توفي بعد أشهر من انتصار الثورة فنعاه خميني ووصفه بأنه كان بمنزلة الصحابي أبي ذر الغفاري للثورة الإسلامية – م.

(2) يُنقذ: ورد في النص فعل salvage الذي يعني «يُنقذ سفينة من الغرق أو إنقاذ (ممتلكات) من الحريق» – م.

ظـروف غامضة. كان يتناول عشاءه، و(بام)، هوى ميتاً على طبقه. هل كان السـبب نوبة قلبية أو حسـاء مسـموم؟ قالت الإفـادة الرسمية إنه استسـلم للإعيـاء، لمرض قديم، لخيبة أمله من الحـاضر. كانت الشائعة غير الموجودة هي إنه تمت تصفيته بحسـب أوامر خميني، وأنه كان يُنظر إليه بوصفه منافساً خطيراً. على الرغم من ذلك، كان موته قد وفّر عُذراً لعشرات المسيرات، التي حضرها مئات الآلاف، الرجال في ناحية، والنساء المحجبات في الناحية الأخرى، وبذلك شلّوا المدينة من شروق الشمس حتى غروبها. كما أنني حضرتُ، وفي ذهني فكرة الاختلاط بالخفافيش عديمة الأجنحة، إنما بدلاً من أن أستمتع بالانتصارات مع صديقتي مريم التي رحبت بها، أبعدوني بوصفي متطفلة بشعر غير مُغطى. انسحبتُ إلى شرفة مكشوفة عائدة لمنزل قريب، والمَشهد اللافت الذي شاهدتُه يتكشّف أمامي أدخل الخوف إلى جوانحي. ليس بسبب العجينة البشرية التي امتدت على طول أميال كالكفن، بل بسبب الضوضاء، التي مزقت الهواء مثل رَعد بعد الكارثة: «زَنده باد، إمام[1]! پياندہ باد[2]، إمام! عسى أن تعيش للأبد، إمام! عسى أن تكون أبديًّا!» كانوا هناك كي يندبوا موت رجلٍ أحبهم، ضحّى بنفسه من أجلهم، وبدلاً من ذلك كانوا يتمنون له حياةً أبدية لقاتله المُحتمل.

عندئذ فهمتُ أني كنتُ أحتاج إلى معرفة المزيد قبل أن أخوض

(1) زنده پاد، إمام!: وردت بالفارسية اللفظية Zendeh bad , Imam، وتعني: يعيش، الإمام! – م.

(2) پاينده باد!: وردت بالفارسية اللفظية Payandeh bad، وتعني: ليبقَ خالداً – م.

المعركـة في (قُم). كنتُ أحتـاج إلى أن أفهم بوضوح أكثر مَن هو تحديداً هـذا المُسـنُّ الشرير، كي أكتشف مـا هو الشيء الـذي يختبئ وسط هذه الفـوضى كلّهـا، كي أعرف بالحـدس كيف حدثت كارثـةٌ بهذا الحجم. وكي أكتشف ما كنـتُ أحتاجُ لمعرفته، اخترت بَزرگان، الرجل الذي لم يكن يستمع إليه أحد.

***

لم أكن أتوقَّع أن أجد شريكاً في الجريمة: انتقاد خميني لم يكن يمر عبر شـفتيه. وإن اللقاء به لن يكون سهلاً، أيضاً: انخرط في السـياسة طوال ما يزيد على أربعين عاماً، لم يسـبق له أن تحدّث إلى صحافي أو صحافية، وكلمـة (حوار) تضايقـه، وكان مُحاطاً بفراغ غريـب، تقريباً مؤامرة من صمـت مـدروس. كلّما تحـاول الاقـتراب منه، تـرى نفسـكَ تُدفع إلى الوراء بطريقة حاسمة. «لا، بَزرگان لا». لكن إذا كان هنالك قائدٌ قادرٌ عـلى تزويد تصوير منوِّر للموقف، فهو بَزرگان. أخبرني شـخصٌ ما أنّ واحدة من بناته، فيرشـته، هي قارئة نهمـة لعملي، ومن الجائز أن تكون قـادرة على إقناعـه برؤيتي. اتصلـتُ هاتفيًّا بفيرشـته، وفي صباح اليوم التـالي عادت واتصلت بي هاتفيًّا: «فعلتُها! سيكون الموعد غداً في المبنى الحكومـي. سآتي صحبتكِ وأترجم». بعد مـضي أربع وعشرين ساعة، كان شعري مُغطى بنحو حكيم بوشاح، ووجدتُ نفسي أمام رجل مُسن هزيـل وقوي ومقطب الجبين بدا أشـبه بتوأم المؤلف لويجي پيرانديللو: كـان لديه نفس الرأس الأصلع، الشبيه بالكمثرى، نفس الوجه المدبب وحتـى أطول قليلاً بلحية صغيرة مُشذّبـة بيضاء، والنظارات ذاتها أمام

عينيه البراقتين، المليئتين بروح الدُّعابة. ويا لدهشتي العظيمة، شعرتُ به يهز يدي فيما كان صوته الصافي، الحاد يقول بالفارسية: «كنتُ أهمُّ بوضع الأحبولة حول رقبتي، أعرف. وابنتي لا بدَّ أنها حاولت أن تقتل أباها بنحو غير مباشر. لكن إذا وجب أن أُشنق، في الأقل سأموت ميتة جيدة: اسأليني ما تشائين. ما هو سؤالك الأول؟» سيكون سؤالي الأول هو السؤال الذي لم يكن باستطاعتي أن أجد جواباً له حتى الآن. جلستُ، شغّلتُ مسجلتي، وسألته قائلة:

«حضرة رئيس الوزراء، إلى أيّ مدى تهمك الحكومة التي تتزعمها، أو بالأحرى كم أهميتُها قليلة بالنسبة لك؟» أمست عيناه حزينتين حالاً وأطلق تنهيدة استقالة.

«إنه سؤال مشروع، والجواب ليس سهلاً، لأنه مُعادِل لسؤالكِ مَن يقود إيران اليوم. إذا ما قلتُ لكِ إني أقود إيران، سأكذب؛ إذا قلتُ لكِ إن خميني يقود إيران، لن أقول الحقيقة كلّها؛ إذا قلتُ لكِ إن حشداً من الأشخاص يقودون البلاد، لن تكون إجابتي واضحة. بطبيعة الحال، أنا أهتم قليلاً جداً. جزئيًّا لأن الثورة حدثت فعلاً هنا، وجزئيًّا لأن خميني له تأثير لا يُقارَن على الشعب. إنهم يفكرون بالطريقة نفسها، إنهم يتكلّمون اللغة ذاتها. إيماءة واحدة بالرأس تكفي لأن تخلق تفاهماً بينهم. لذا، بوسعنا أن نقول إنه، من وجهة نظر رسمية، الحكومة هي التي تقود إيران؛ من وجهة نظر أيديولوجية، خميني هو الذي يقود، بمساعدة اللجان الثورية، مستشاريه الثوريين، حَرَسه الثوري الپاسدران وعلاقته الخاصة مع الجماهير. ومن ثم هنالك المحاكم

الثوريـة، السـلطات الدينيـة التـي تدير عدداً مـن المدن بعُـذر مواصلة الثورة، وخلق الفوضى بجميع أنواعها... إنه وضع غير مُريح، لا».

«في الحقيقـة، يبـدو أنّ الـشيء الوحيـد الـذي تفعلـه هـو التهديـد بالاستقالة».

«نعـم، ومع أنني لم أفكـر حقيقةً في مغادرة المنصب بجدٍّ، الإغراء قـوي جـداً. كان ذلك من البدايـة، من اللحظة التي أدركـتُ فيها أنّ الحكومـة لا تمتلـك سلطـة؛ لأنّ هنالك بـشراً كثيرين جـداً انخرطوا فيها، وهو أكثر منهم جميعاً. مضيتُ إلى (قُم) وقلتُ له [لا يُمكنني أن أعمل هكذا، إمام. إن كنتَ تُريدني رئيس وزراء، هذا التداخل ينبغي أن يتوقـف. ولئن كنتَ تنـوي أن تُعطي أوامـر لا يُمكنني أن أفهمها لأنهـا معقـدة جـداً، عليـكَ أن تسـألني أولاً]. وعدني بأنـه سيفعل، وبعدها ظلّ يتصرّف بالطريقة ذاتها. قبل شهرين حصل الشيء نفسه، ومن ثم بدأ يوجِّه انتقاداً شديداً لي: كوني لا أقود حكومةً فاعلة، كوني لا أقـود حكومة ثورية، وأنّ كلّ شيء خطأ... كتبتُ له رسالة. ذكّرته أني تولَّيـتُ هذا المنصب بإلحـاح منه، وكررتُ قائـلاً إنني لا أستطيع أن أجعل الحكومة تسـير على قـدم وساق إذا ما كان الجميع يعتقدون أنهم مسؤولون، وختمتُ رسالتي قائلاً: إن لم تقتنع بي، دعني وشأني، ستكـون هـذه استقالتي. ردّ عـليّ قائلاً إنـه لا يمتلك شـخصاً آخر، وطلـب مني البقـاء في منصبي، ووعـدني ثانيةً أنه لـن يتدخَّل، وبعد ذلك...»

«وبعد ذلك تدخَّل. بطرائق غير متوقَّعة للغاية، على غرار تلك المرة

حين أعلن نفسه (القائد الأعلى للقوات المسلّحة). أليس هذا سلوك دكتاتور؟ أليس هذا نوعاً من الفاشية؟»

«لا. أرى كيف أنّ (غربيًّا) يُمكن أن يكوّن هذا الانطباع، غير أنه لا يُريد أن يكون طاغية. لا يُريد أن يفرض قراراته أو أمنياته. حتى حين كان يُعطيني أوامر لا أفهمها لأنها معقدة جداً، حتى حين يقصفني بنصيحة متغطرسة وهو شيءٌ يحصل في أحيان كثيرة جداً لم تكن لديه نيات دكتاتورية. إنه يتصرّف من دون وعي، وبوسعي القول إنه يتصرّف بإخلاص جيد: إنكِ مخطئة إذا ما سمّيتِ هذا السلوك سلوكاً فاشيًّا. إني لن أقارنه مع موسوليني، ولا حتى مع نابليون، أو ديغول. يتعين عليكِ أن تلتقي به كي تصدّقي ذلك، كي تفهمي شخصيته، كي تفهمي كينونته. بهذا المعنى، كان محمد مصدق على غراره. قال: أنتَ على حق، بعض القرارات يجب أن يتخذها البرلمان. وبعدها نسي كلّ ما يتعلّق به وفعل كلّ ما كان يُريده، مقتنعاً بأنه يعمل من أجل المصالح العليا للشعب. وكان محمد مصدّق قد تلقَّى تعليمه في سويسرا، في معقل الديمقراطية. يعتقد خميني أنه يعمل من أجل المصالح العليا للشعب».

ردّ على أسئلتي من دون أن ينزعج. لم يكن هنالك أيّ أثر من العاطفة في صوته الصافي، الحاد، وعلى وجهه، أو في إيماءاته، التي كانت غير موجودة من الناحية العملية. وبعد أن حزنت عيناه وأطلق تلك التنهيدة الطويلة بدا كأنه انقلب إلى حجر، وراح يزن كلماته، وجلس كالتمثال: ظهره مستقيم مثل مكبس البندقية، رِجلاه ساكنتان، ذراعاه

ثابتتان بلا حراك. حتى يداه، اللتان كانتا تستقران على ركبتيه، لم تتحركا مرةً واحدة. فيرشته، من الناحية الأخرى، بدت متوترة الأعصاب للغاية، وكلّما أطرح سؤالاً كانت ترتجف، ترفع وجهها المحبوب وتثبت عينين متوسِّلتين عليَّ، بحيث كان يتعين عليّ أن أشجعها ببسمة. شجعتُها ببسمة.

«سيد بَزرگان، سبق لي أن حاورتُ طُغاةً كثيرين ولم أقابل أحداً يستطيع أن يسمي نفسه طاغية؛ جميعهم قاطبة يقولون ويعتقدون أنهم يعملون من أجل المصالح العليا للشعب».

«هذا خطاب (غربي) أنموذجي آخر. إنه يأتي من المفهوم الذي تملكونه أنتم (الغربيين) عن الديمقراطية والحرية. هنا من المستحيل أن ترسمي خطًّا مستقيماً وتقولي: إذا عملتَ هكذا فأنتَ ديمقراطي، إذا عملتَ هكذا فأنت فاشيٌّ. بصرف النظر عن الحقيقة القائلة إن هنالك حالات يجب أن يقررها هو، والمسؤوليات التي لا يستطيع أن يتولَّاها سواه، إنكِ تحتاجين إلى أن تفهمي أنه يعد نفسه نوعاً من أب، رب أسرة. إنه يُريد أن يساهم الجميع في هذه الأسرة الحكومة، لكنه في الوقت عينه يُدرك أنّ القيادة تقع على عاتق الأب وحده. إنه ينسى أنّ بعض الخيارات تقع أيضاً على عاتق الأم، وثمة خيارات أخرى تقع على عاتق الأولاد. بكلمات أخرى، إنه ينسى أنّ هنالك سلطة تنفيذية وسلطة تشريعية وسلطة سياسية. لكنكِ إذا ما ذكَّرتِه بهذا، يُدرك خطأه بسرعة بالغة. في بعض الأشكال، هذا انفراج، وفي أشكال أخرى إنه

كارثة، لأنّ القائد بسلطته يجب ألا يغيّر رأيه بسهولة شديدة. على الرغم من كلّ شيء، هذه ليست خصائص الدكتاتور».

«ربما هي خصائص مُسن شرير».

«لا، إنها خصائص رجل ليست لديه تجربة بوصفه قائداً سياسيًّا. خميني لم يسبق له فعلاً أن كان سياسيًّا، لم يسبق له أن كان جنرالاً أو رئيس شركة. ما أعنيه هو، إنه لم يتدرَّب على كيفية التعامل مع المسؤوليات الإدارية التي يتعين عليه الآن أن يحملها على منكبه. إنه لا يعرف كيف تعمل إدارة البلاد. لقد ولج عالم السياسة لمّا بدأ بالنضال ضد الشاه، وقد ولج عالم السياسة بطريقة خاصة جداً، بوصفه رجلاً مُتديِّناً ومن دون نية في قيادة الثورة، أيّ ثورة. في بعض الأحيان أسأل نفسي إذا ما فهم أنه سوف يُحدِث ثورة. ومع ذلك، هو الذي جعلها تحدث، هو الذي أطلق شرارتها، وسوف يسجل (التاريخ) هذه الحقيقة. أنظري، بأشكال معينة، خميني رجل بدائي، فظٌّ، وبأشكال أخرى خميني عبقري. لم يسبق لي أن قابلتُ فرداً يمتلك قدرته على تفسير مزاج وإرادة الجماهير، فرداً يعرف كيف يتواصل معهم بنظرة بسيطة أو طريقة قول شيء ما. إنّ الشيء الاستثنائي هو إنه ليس فقط محبوباً من الجماهير، ثمة مثقفون كثيرون يُحبونه، أيضاً. ثمة مثقفون كثيرون كانوا يتبعونه هنا وهناك كالأيتام الباحثين عن أب، كالتلاميذ الباحثين عن مُعلّم».

«هل تُحبه؟»

«نعم، على الرغم من عيوبه وقدرته المُحيّرة على تغيير رأيه. من

المستحيل ألا يحب المرء رجلاً من مثله. أنا أُحبه، حتى أنني لا أستطيع أن أستكثر عليه الحق في أن يشعر أنه أكثر من زعيم ديني، أن يشعر أنه مثل ناصح مخلص ومشرف وحارس الثورة. لأني لا أستطيع أن أنسى أنه هو الذي أعطانا القوة كي نخلع أقوى حكم مَلكي في العالم. أنا أُحبه وهو يُحبني: وإذا ما تكلّم امرؤٌ ما بالسوء عني لا يُصغي إليه، وهو يدافع عني بغضب. باختصار، من وجهة النظر الإنسانية، علاقتنا جيدة. ومن وجهة النظر السياسية، هي ليست هكذا. نحن نمضي قُدُماً في قوة نزاعاتنا واختلافاتنا. لقد بدأت في اليوم الذي وصلتُ فيه باريس كي أدرس إستراتيجيتنا في النضال ضد محمد رضا پهلوي معه. كنتُ أؤمن بمقاربة الخطوة خطوة، في المقاومة التدريجية. كنتُ مقتنعاً أننا نحتاج لأن نجعل (الولايات المتحدة) تتخلّى عن الشاه رويداً رويداً، نجعله أضعف فأضعف، في حين يغدو الشعب أقوى. كنتُ مقتنعاً بهذا الأمر لأن الشعب الإيراني كان على الدوام تحت إبهام الطاغية: الطاعة متوقَّعة، وبالنتيجة، كلّما يثورون بقوة تجري الأمور في غير صالح أولئك الذين في السلطة. قلتُ: الشعب ليس مستعدًّا للحرية، علينا أن نجعلهم يتعوّدون على الفكرة، علينا أن ندرِّبهم سياسيًّا. دعنا نستحوذ على السلطة في زيادات صغيرة، أولاً في المدارس، ومن ثم في الصحافة، وبعدها في الجهاز القضائي، وبعدها الاقتصاد، وبعدها القوات المسلّحة. دعنا نتحرّك ببطء، وإلا تعم الفوضى في كلّ شيء وينتهي بنا الحال بطاغية آخر».

«وماذا قال؟»

«قـال العكس تماماً: ما مـن مقاربة تدريجية، ما من انتظار، حتى أننا لا نتحمـل أن نضيّـع يوماً، دقيقـة، فالشعب كان يطالـب بثورة فورية، ينبغـي أن تحصل الآن وإلا فلا. كـان يُريد كلّ شيء حالاً. كنا تقريباً قد بدأنـا الجـدال. إلا أنني لمّا رأيتُ أنه متأكد جداً مـن أنه على حق، متأكد جداً مـن الفوز، انتصرت عليّ كلياً ثقتُه التي لا تتزعزع، واستسـلمت. قلتُ حسناً، دعنا نندفع بقوة، دعنا نُشعل ثورة».

نطـق جملته الأخيرة بتجرّد مطلـق، كما لو أنه كان يختتم نادرة تتعلّق بخصام عاشـقين تطوّرت من موقف سفيه: اختيار شـقة سكنية، شراء سجـادة. دعنـا نشترها، لا دعنا نشترهـا؛ دعنا ندفع ثمنها كلّـه مُقدَّماً، دعنا ندفعه بهيأة أقسـاط، حسـناً، رائـع: سوف نشتريهـا وسوف ندفع ثمنها مُقدّماً. في تلك اللحظة كنتُ متيقنة أني أسأتُ فهمه، وطلبتُ من فيرشته أن تؤكد لي جوابه.

«هل يُمكنكَ أن تُعيد ذلك، من فضلك؟»

«قلـتُ حسـناً، دعنـا نندفـع بقـوة، دعنـا نُشعل ثـورة. وحتـى إنه لم تطرف له عين. أمرني أن أكون رئيس وزراء الحكومة التي سوف تفرض سيطرتها بعد نصرنا. على أية حال، على الرغم من الحقيقة التي مفادها أنّ الأشياء جرت على وجه الدقة مثلما توقَّع هو أن تجري، نقطة بنقطة، بدقة مُذهلـة، ما أزال أعتقد أنّ إستراتيجيتي هي الإستراتيجية الصحيحة. لو إننـا اتخذنا مقاربة الخطوة خطوة، لما كانت لدينا المشاكل التي لدينا الآن، وسيختبر البلد هذه الصدمة بطريقة مختلفة تماماً. إن ابتغاء كلّ شيء حالاً هو آفة إيرانية قديمة تجلب معها عبئاً كاملاً من المشاكل».

«المشاكل والموت، سيد بَزرگان. لأن رغبة خميني في امتلاك كلّ شيء، حالاً، عشرات الآلاف من البشر ذُبحوا. ولا يزال هنالك بشرٌ يُذبحون. ألا يبدو هذا ثمناً غالياً جداً ينبغي دفعه؟»

«سأجيبك بسؤال: هل سبق لكِ أن سمعتِ بثورة، وليس بالضرورة أن تكون ثورة سياسية، بل حتى ثورة علمية، حدثت من دون سفك دماء؟ ما من مستبدٍّ يترك عرشه حين يُطلب منه ذلك، حين يُطلب منه بلطف أن يتخلّى عن سلطته. العمل الأخير هو الحرب دوماً. كانت إستراتيجيتي تتطلّب جوهريًّا أن يُسفك الدم، أيضاً».

«حقاً؟ لكنك اعترفتَ توًّا أنّ إيران سوف تختبر هذه الصدمة بنحو مختلف لو لم يكن خميني نافد الصبر للغاية. و، أُضيف قائلةً، ما كان ليستمر الذبح».

«أجل، ينبغي لي أن أعترف أنه بسبب هذه الثورة العفوية والنصر الفوري، بحيث أنّ الحكومة تبدأ بفقدان السيطرة. أنظري فقط إلى المحاكم الثورية، الحالة المُزرية للقوات المسلّحة، الشرطة، الحرس: هذه كلّها أجهزة ضرورية إذا ما كنا نأمل أن نستأنف الشرعية. بما أنّ الشعب يعتبرها رواسب شيطانية من الماضي، بقية خطيرة من النظام الإمبراطوري، لم نكن قادرين على تنظيمها. والأكثر من ذلك، اللجان الثورية لم يكن باستطاعتها أن تحلّ محلها لأنها غير مؤهلة وكانت تستنزفها المشاكل الداخلية... التشتت في السلطة بلغ حداً بحيث أنه ما من أحد يعرف مَن الذي يُدير حركة المرور».

كـان الوقـت قـد تأخر كثيراً، وكانت هنالـك أسئلة كثيرة أخرى وودتُ أن أسأله إياها. لذا لم أقاطعه كي أقول إن هذه هي المشكلة على وجـه الدقة: عدم قدرة البشر على القيـام بثورة من دون خلق الفوضى، الخطـأ الأبدي لأولئك الذيـن يحتاجون إلى الدم والفـوضى كي يغيروا الأشياء أو كي يصنعوا عالماً أفضل. زيادة على ذلك، لم يكن ليفهم. على الرغم من عينيه البراقتين ورأسه، رأس پيرانديللو، على الرغم من هدوئه الأنيق، كان واحداً منهم. بطريقته الخاصة، كان ينتمي أيضاً إلى السلالة الممجدة والمعبودة والمبجلة كثيراً، سلالة روبســپير، سانت جاست [1]، دانتون [2]، لينين، تروتسـكي، ماو، كاسترو، وكلّ السـوبرمانات الذين

---

(1) سانـت جاسـت Saint – Just (1767 – 1794): اسمـه الأصـلي لويـس أنطـوان دي سانـت جاسـت، زعيم نـادي اليعاقبة خلال الثورة الفرنسـية. كـان صديقاً مقرباً لماكسـيميليان روبسـبيير وأكثر حلفائه ثقـة خلال فترة حكم نـادي اليعاقبة (1793 – 1794) في الجمهوريـة الفرنسـية الأولى. عمل سانت جاسـت بصفته مُشرِّعاً ومفوضاً عسـكريًا وتمكـن من تحقيـق سمعة دائمـة باعتباره وجهـاً معروفاً في عهـد الإرهاب. سلم بشكل علني تقارير الإدانة الصادرة عن روبسـبيير ولجنة السـلامة العامة ودافع عـن استخـدام العنف ضد معـارضي الحكومـة. أشرف على اعتقال بعض من أشـهر الشخصيـات في الثورة، وأعدم عديـداً منهم بالمقصلة. سُمي في وقت لاحق بـ «ملاك الموت» بسبب قسوته التي لا تتزعزع – م.

(2) جـورج دانتـون Georges Jacques Danton (1759 – 1794): زعيـم ثـوري فرنـسي، محام وخطيب بارع من زعماء الثورة الفرنسـية أهمله أبـواه، وضربته مدرّسته لأنه كان فاسدًا خليعاً، ولكنه شديد الذكاء فإذا به يصبح من ألمع محامي لماكسيميليان زعيـم حركة اليعاقبة المتطرفة في الجمعية الوطنية الفرنسـية، لعب دوراً مهمًا في سقوط الملكية في فرنسـا سنة 1792. كانت حملاته على الزعماء المناهضين للثورة الفرنسـية من أسبـاب فـراره إلى إنكلـترا، غير إنه مـا لبث أن عـاد إلى باريس؛ ليصبح وزيـراً للعدل في الحكومـة المؤقتـة. وعـلى الرغـم من إنـه لم يكن مسـؤولاً مباشراً عـن الكثير من

يشعرون أنّ التضحية بخروف ليست مقبولة فحسب، بل ضرورية. إن لم يتدفق الدم على مذبح الأحلام، إن لم يُدمر التشوش حتى تلك الأشياء التي يجب إنقاذها، عندئذ تكون الأفكار رديئة النوع والقادة بلا خصي. ألم يقر توًّا أنه حتى مقاربته، مقاربة الخطوة خطوة كانت ستنتهي بالموت والألم؟ ألم يقر توًّا أنه يحب خميني، ألم يكن شريكه في الجريمة وخادمه؟ ما يقوله الآن، كي يُبرر عدم كفاءة حكومته أعطاني برهاناً قاسياً على هذا. إنه لمن المهم أن نحترس من الأعداء الداخليين، كان يقول، أن نحترس من اليسار الذي كان مُخرِّباً ومُشعِلاً للنيران ذات الدخان من دون لهب، اليسار الذي كان ينشر الأكاذيب المشوِّهة للسمعة، اليسار الذي يُحرّض العمال ورجال الأعمال بانتهازية ماكرة. إنه لمن المهم أن نحترس من المشتركين السابقين في جهاز الـ (ساڤاك)، الذين حرّضوا النساء اللائي أفسدهن أصلاً النظام البائد كي يغادرن المنزل برؤوس غير مُغطاة، كي يحتججن على العباءة. إنه لمن المهم أن نفكر في مسألة استياء قوى المعارضة التي أُغلقت جرائدها وصودرت صحافتهم المطبوعة. ما من ثورة يُمكن أن تُبيح لنفسها ترف تحمّل حرية الصحافة أو أيّ شكل آخر من أشكال الحرية الحرية بالمعنى الذي نفهمها فيه نحن (الغربيين)، في مجتمعاتنا مرهفة الإحساس. الثورة تمنع

الفظائع التي ارتكبت في الثورة الفرنسية، فقد كان مشتركاً مع الذين كانوا مسؤولين عن ذلك، واقتَرع على موت الملك لويس السادس عشر. كان دانتون رئيساً للجنة الأمن والسلامة العامة مدة من الزمن، وعمل في محاكم الثورة، اختلف مع روبسبير على كثرة الإعدام والعنف المبالغ فيه، واستقال من اللجنة بعد إعادة تنظيمها، فكلّفه ذلك حياته – م. .

كـلّ شيء، إنها تكمِّمُ الأفواه، إنها تعاقب، وكلُّ أولئك الذين يتحملون وطأتها العظمى سـوف يحاولون أن ينتقموا. بقدر تعلّق الأمر بالأعداء الداخليـين، مـن مثـل الكـورد، كانوا قد هاجمـوا أولاً. عـلى الرغم من كونهـم متطرّفـين راديكاليين، تقبـل خميني مطالبهم بالحكـم الذاتي: أن يكـون حاكم كوردستان كورديًا، وأن يكون جنـود كوردستان كوردًا، وأن تُـدار الدوائـر الإداريـة في المدن من لدن الكـورد. لكن بعدئذ، مع الإصلاحات الزراعية وتوزيع الأراضي التي كانت تعود للشاه، طالب الكـورد أن تعـود الأراضي الكورديـة للكورد. كانوا قد بـدؤوا يرمون الأحجـار على الموظفين القادمين من طهـران الذين يزورون مناطقهم، وقد نظموا مسـيرات احتجاجية وجلب الناس السـكاكين والهراوات، كانـوا قـد حاولـوا أن يجمعـوا ثانيـةً أعضـاء (الحـزب الديمقراطـي الكوردسـتـاني)، عـدو الإسـلام. وكـان مـن الـضروري مواجهتهـم بالقوات المسلّحة، وغالباً يتم إطلاق النار عليهم.

«مـاذا بوسعـكَ أن تُخبرني فيـما يتصـل بالمحاكـم الثوريـة، سيد بزرگان؟

«هـذه قصة مختلفة. إن المحاكم الثورية لا تبلّغ الحكومة. إنها خارج يديَّ تماماً. لئن كان الأمر في يدي... في رسالة للأمة شجبتُ مفاسدهم، تمّرسهـم في عقـد المحاكـمات مـن دون شـهود عيـان أو وكـلاء دفـاع. اعترضـتُ، عبّرتُ عـن ازدرائي، ماذا يسـعني أن أفعل أكثر من ذلك؟ كـان من المفـترض بهم أن يصدروا الأحكام وفقـاً للشريعة الإسلامية، إلا أنهم حتى لا يفعلون ذلك. القرآن لا يفرض إطلاق النار على الزناة،

البغايـا، والمثليين. في مثال البغاء، إنه حتى لا يتطلّب محاكمة، ما لم يكن هنالك دليلٌ لا يقبل الجدال، وهو شيء نادراً ما يكون».

«يقـول القـرآن إن البغاء لا يُمكـن إثباته إلا في حالـة ألّا يمر خيطٌ بين الجسـدين، وأنّ الدليل ينبغي أن يحصل بحضور أربعة شـهداء. فيما يتعلّق بهذا الشأن، في الأقل، أنت ليبرالي بنحو مُذهل».

«بالضبـط، وبالنتيجـة أنـا لا أفهم كيف تسـتطيع تلـك المحاكم أن تـبرر أفعالها. مَـن الذي يؤكد لهـم أنّ الفعل الجنسي قـد أُرتكب فعلاً؟ أو بالأحـرى، مَـن الذي منحهم التفويض بأن يتخـذوا أحكاماً كهذه؟ النبـي محمد يقول أيضاً: من الأفضـل أن يُخلى سبيل عشرة رجال آثمين عـلى أن يُعاقب رجل بريء واحـد. لكن حتى هنا، فيما يتصل بحوادث إطـلاق الرصـاص هـذه، أنتـم (الغربيـين) تبالغـون. أحـدب واحد، أربعون أحدب، كما نقول نحن هنا في إيران. أتعرفين تلك الخرافة؟ يأتي رجـلٌ إلى المنزل ويخاطب زوجته قائلاً: [ثمة رجل أحدب في الخارج]. تقـول الزوجة لجارتها: [ثمة رجلان أحدبـان في الخارج]. الجارة تقول لشقيقهـا: [يوجـد أربعة رجـال محدودبي الظهـر في الخـارج!] الشقيق يقول لصديقه: [يوجـد ثمانية رجال محدودبي الظهر في الخارج!] إلى أن يصلـوا إلى الأربعـين، وعند هذه اللحظة يلوذ الجميـع بالفرار زاعقين: [الرجـال ذوو الحدبـات اقتحموا المكان!] إنكـم تعاملوننا بصورة غير عادلـة. إنكم لا تتحدّثون عن العناصر الإيجابية في هذه الثورة، إنكم لا تكتبـون كلمة واحدة عن الجهود التي نبذلها من أجل إعادة بناء البلاد. إنـما ما أن يحدث شيء بغيـض حتى تتكالبوا عليه بطمـع. هذا الشيء لم

يكـن يحـدث في ظل حكـم الشاه. غير أنه كان جيـداً جدًّا في عقد علاقة صداقة مع الصحافة الأجنبية».

«أنا لم أكن صديقته، أنت تعرف ذلك».

«أنتِ لم تكوني صديقته، إلا إنكِ تبالغين في مسألة إطلاق الرصاص عـلى الزنـاة. وربـما لن تقولي شـيئاً عـن المجرمـين الذين أُطلـق عليهم الرصاص لأنهم يغتصبون الطفلات أو يُجبرون الفتيات القاصرات على العمـل كعاهرات. إنكِ لن تكتبـي أنّ أغلب حالات الرمي بالرصاص هي بسبب جرائم سياسية».

«سأكتب هذا، لا تقلق. سأكتب هذا».

«ستكتبـين بـازدراء، إني متيقن من هـذا. ومـن دون أن تُشيري إلى مسـألة، مقارنـةً بالثورات الأخـرى، أن عدد الأشـخاص الذين أُطلق عليهم الرصاص بسـبب جرائم سياسية كانوا قليلين نسبيًّا. مثل مقارنة قطرة ماء مع بحيرة».

«أشـك في ذلـك، سيد بزرگان. لكـن، إذا سلّمنا مـن أجل الجدال أنكَ على صواب، سأقول ما يلي: غالباً حتى قطرة واحدة من الماء كافية لأن تكشـف لنـا حقيقة مجتمع مـا. في هذه الحالة، الحقيقـة هي استبداد رجـل دين بليد ومحتدم غيظاً يسـتعمل الجهل والفقـر ببراعة باسم الله. هـل بوسعـي أن أطرح عليكَ سـؤالاً صعباً جدًّا، سيد بـزرگان، صعباً جدًّا في حقيقة الأمر؟»

«قلتُ لكِ سابقاً إنّ باستطاعتكِ أن تسأليني ما تشائين».

«حسناً، إذاً. المحاكم الثورية بأيدي رجال الدين، اللجان الثورية بأيدي رجال الدين، الحرس الثوري بأيدي رجال الدين، والبرلمان بأيدي رجال الدين. إنَّ ضعف حكومتكَ، هذا الحصن الأخير للعلمانية، يكشف أنه لا مكان للعلمانيين في إيران. هل هذا هو ما كنتَ تريده حين وافقتَ على إرسال كلِّ أولئك الأشخاص كي يُذبحوا؟»

«لا! بوصفها مفارقة كما قد تبدو، ولا حتى خميني كان يُريد ذلك. أعرف هذا منذ لقائنا الأول في باريس. كان يُريد كلَّ شيء، غير أنه لم يكن يُريد أن ينتهي البلد في أيدي رجال الدين. لو لم تكن الحال هكذا، لما قبلتُ بمنصب رئيس الوزراء. أنا رجل متديِّن جداً، هذا الأمر معروف جداً، غير أن عواطفي تصطف دوماً مع أشخاص من مثل آية الله طالقاني، الذي قال إن الدين المفروض بالقوة لا يُمكن أن يكون صالحاً وسليماً. سأقول أكثر من ذلك: إن أحد كتبي الأثيرة كان على الدوام كتاب آية الله نعيني [1]، الذي يشرح فيه أنه يوجد دوماً نوعان من الاستبداد ينبغي النضال ضدهما: الاستبداد الملكي والاستبداد الديني. الحقيقة هي، بعد الثورة، حدث شيءٌ غير متوقع وغير منظور: رجال الدين اعترضوا سبيلنا وتمكنوا من السيطرة على البلد».

(1) آية الله شيخ محمد حسين نعيني غرافي (1860 – 1936): وُلد لأسرة دينية، ويُعد أشهر منظري الثورة الدستورية الإيرانية، التي جرت بين عاميْ 1905 و1911. أدت الثورة إلى إنشاء البرلمان في بلاد فارس (إيران)، أثناء سلالة القاجار، كما فتحت الثورة الطريق لتغيير جذري في بلاد فارس. من طلابه: محمد علي الكاظمي الخراساني، سيد محسن الطباطبائي الحكيم، آية الله العظمى الخوئي، وسيد محمد حسين الطباطبائي، وآية الله العظمى محمد تقي بهجت – م.

«هـل تقصـد القـول إنه كـان هنالك نـوعٌ من الانقـلاب في داخل الثورة؟»

«ليـس بالضبـط، بما أنّ الثـورة وقعت وفقـاً لمبادئ الإسـلام، وبما أنّ رجـال الديـن لديهم دور مُسـلّم به وحـازم في هذا الأمـر. أعني أنّ صعـود رجال الدين جـرى بالضبط في اللحظة التـي كان يجب أن يحل فيهـا العلمانيون محل رجال الدين. غير أنها غلطتنا، غلطة العلمانيين. لو كنـا يقظين أكثر، لو إننا تصرفنا كقوة سياسية بدلاً من أن نصبح غافلين ومتحيرين، ما تُسـمينه أنتِ انقلاباً ما كان ليحصل. أو كنا قادرين على منع حصوله. إلا أنه اكتسحتنا تماماً مشاكل البلاد كلّها، وكانت هنالك حاجةٌ مُلحَّة لأن نُعيد الأمور إلى نصابها ونجعل البلاد تقف على قدميها مـن جديد، إذ لم نكن نُدرك أننا ضيّعنا المركب. أجل، بعد الثورة، جميع الأحزاب السـياسية للمجموعة المسلمة نامت على [الشغلة]. ولمّا ناموا تركـوا الأعنـة لرجال الدين الذيـن، ربما، لم يكونوا ينـوون أن يحتكروا السـلطة، وكانـوا يودون فقـط أن يغتنمـوا الفرصة التـي منحهم إياها [التاريـخ]: أن يملئـوا الفـراغ الـذي تركنـاه. وفيـما يتعلّـق بالأحزاب اليسـارية، لم تكـن هذه الأحزاب قـادرة على أن تفعـل الكثير، حتى إذا شـاءت. لم تكن قادرة قط على جذب الجماهير في إيران، كانت قد لبثت عند هوامش الواقع».

» والآن كيف يمكنكم أن تتخلّصوا من رجال الدين؟»

«إيـه! عاجـلاً أو آجلاً سوف نكون قادرين عـلى انتزاع بطشهم من تحتهم؛ إن عملهم البغيض قد مضى أشواطاً بعيدة للغاية. بالإضافة إلى

ذلك، بخاصة في المناطق البعيدة عن العاصمة، كان الفراغ الذي تركناه قد مُلئ بطريقة مروِّعة فعلاً. إن عدداً كبيراً منهم ليسوا مُلائيين فعلاً، إنهم فقط يتظاهرون بذلك لأن لباس الملّائي يفرض الاحترام والطاعة، وهم يقترفون كلّ ضروب المفاسد التي تتوقعينها من الأشخاص الجهلاء. لكن ثانيةً، من المهم ألا نُغالي، أو أن نشمل رجال الدين كلّهم في هذه التُهمة. توجد أيضاً حالات مُلئ فيها الفراغ بطرائق إيجابية، من مثل رجال الدين الشبان، اليقظين الذين قاتلوا في المقاومة ضد الشاه. طالقاني فارق الحياة، إلا إنه ترك وراءه أتباعاً مثقفين، تقدميين، ومتجددين، ولا يزال لفكره جذورٌ قوية في إيران. لا، لا أعتقد أنه سوف تتأسس دكتاتورية دينية هنا. الشعب سوف يثور».

بدا شديد الحذر الآن، مصمماً جداً على إصابة الهدف، على قول كلِّ شيء من دون أن يقول أيَّ شيء من شأنه أن يكشفه كثيراً جداً، وكانت ستكون مبالغة أن أسأله ما إذا توفي طالقاني، لأنّ أحداً دسّ السُمّ في حسائه. قصرتُ نفسي على ملحوظة أنّ دكتاتورية رجال الدين كانت قد تأسست، الآن، وأنّ أبناء الشعب لم يكونوا يثورون لأنهم خائفون. ولأن الخوف قد حرّضهم، احتشدوا عند ترمينالات المغادرات في المطار ولاذوا بالفرار في أول طائرة متجهة إلى بلد آخر، لا يهم أيّ بلد من البلدان. كان خوفهم يغذي الهجرة والتشرد مقارنةً بلاجئي القوارب في ڤيتنام. إلا إنّ خيبة الأمل اختلطت بخوفهم، خيبة الأمل ذاتها التي أصابتنا في (الغرب) لّما أدركنا أنّ الشاه كان بمنزلة شرير بدرجة أقل. لقد أحسُّوا بنوع من الغيظ؛ لأنهم خُدعوا من

قبل أولئك الذين ألهموهم الأمل والثقة، وكان هنالك رفضٌ في أن يسمحوا لأنفسهم أن يستعبدهم كتابٌ كُتِب قبل ألف وأربع مائة سنة، أن يستعبدهم ماضٍ مقبورٌ.

وبعدها فقد رباطة جأشه. بلحيته الصغيرة المُشذبة البيضاء المرتعشة، غرز سبابته بقوة في ركبته، وأجاب بغضب أنّ أزلام النظام القديم هم وحدهم الذين يفرون من البلاد، البورجوازيون الأثرياء الذين لم يحبذوا البناء الاقتصادي الجديد، الناس الضجرون الذين وجدوا أنه من الأسهل عليهم أن يموتوا في معركة على أن يعيشوا عبر التضحيات التي فرضها عليهم مجتمعٌ متغيرٌ، الأشخاص كثيرو المطالب الذين لم يفرحوا قط بأيّ شيء. إنه ليس صحيحاً أنّ الحركة الإسلامية هي كشكول من الرجعيين غير القادرين على تثمين الثقافة الحديثة، حضارة أزمنتنا. إنه ليس صحيحاً أنّ القرآن ينبش القوانين التي كانت سليمة قبل ألف وأربعمائة سنة خلت. إنه ليس صحيحاً أنّ إيران خميني تُريد أن تسوّر نفسها في الماضي. إن بعض الناس كانوا حازمين إلى حدٍّ بعيد، أجل، إلا أنه يتعين عليَّ أن أفهم أنه في الجو المضطرب الذي ينبثق بعد الثورة، أيّ ثورة، أيّ نظرية بمستطاعها أن تثبت نفسها بوصفها غير كافية، وأيّ زيادة يُمكن أن تحصل. وبرغم كلّ شيء، الثورة ليست مأدبة عشاء.

استغرقنا بعض الوقت كي نهدأ ويسود بيننا السلام والطمأنينة. ولما فعلنا، كان الحوار قد تدهور وبات حواراً سئماً. بدأنا نتكلّم عن غضبه اتجاه الأمريكيين، عن عدم ثقته بالسوفييت، عن كراهيته للقذافي، الذي

لم يُبرر اختفاء الإمام موسى الصدر في ليبيا. ولمّا سألته ما إذا يخشى من أن يُقتل عندها فقط كافأني بابتسامة.

«يُمكن أن يحصل هذا، مع أنني غير راغب قطعاً على أن أرمي نفسي إلى الذئاب. ماذا تُريدينني أن أقول؟ حياة الإنسان كلّها في يدي الله». تأهبتُ للمغادرة، قائلةً له إني أتمنى للذئاب الهزيمة، وغادرت، معتقدةً أنّ معرفة المزيد تفعل الشيء القليل في تخفيف فتور الهمّة. إلا أنها جعلتني مستعدة لمواجهة «معركة قُم».

***

متى تحصل المعركة؟ انطوت الأيام ببطء فيما كنتُ أنتظر، زجاجة الشمبانيا ظلّت مُخبأة في خزّان دورة المياه، الرغبة في أن أُظهِر شعري النظيف تلاشت ببطء تحت الوشاح الذي كنتُ، الآن، ألبسه حتى وأنا في الفراش. كبريائي تفتّتت إلى عبودية مُؤسِفة.

كوني انصرفتُ عن بزرگان بطُرفتي المتعلّقة بالشاه كونه أهون الشرِّيرين، لم يعد باستطاعتي أن أخدع نفسي بعد الآن بأنه باستطاعتي الوصول إلى (قُم) من دون مساعدة شريك في الجريمة. وجدتُ نفسي، مرةً أخرى، تحت رحمة سلامي، سلامي الذي أسأتُ معاملته كثيراً لدى وصولي. توددتُ إليه بمكر جدير بالازدراء، طلبتُ منه أن يستعمل الأسلوب الإيطالي غير الرسمي في المخاطبة tu معي، تظاهرتُ بأني سأكون منزعجة بصورة مروِّعة إن لم يأتِ لزيارتي بمراوغاته ذوات الشوارب، بأعذاره الكاذبة، بدعواته كي أكون متفائلة: «الإمام

مريض، الإمام مشغول، الإمام يُعطي سلسلة محاضرات في اللاهوت. صدقيني، سوف يراكِ حالاً». كنتُ صبورة فيما هو يواصل تجديد عروضه في إجراء حوارات مع صادق قطب زاده وبني صدر، إذ شجعه لقائي برئيس الوزراء. هذان الاثنان عرضا نفسيهما بنحو مُعيب عبر سلامي، مُوضحين أنّ استعدادهما لتقريبي من خميني يعتمد كليًّا على استعدادي لإجراء الحوار معهما. لا يهم إذا ما أضاف هذا مشكلةً أخرى لمجمل مشاكلي الحالية. الغيرة القاسية فرّقتهما، هذان الاثنان كلّ واحد منهما يكره الآخر بأقصى ما يستطيع، وبسرعة استنتجتُ أنني إذا ما حاورتُ أحدهما سيصبح الآخر عدوي، وإذا ما حاورتُهما كليهما سيصبحان معاً عدوَّيْن لي، لذا تعيّن عليّ أن أسعى جاهدةً لأن أُبقيهما سعيدين بوعود غامضة وأتحاشى لقاء أيٍّ منهما. كان هذا الأمر سهلاً مع بني صدر، وهو رجل متغطرس، وميّال إلى الشك؛ في حين أن الأمر صعب للغاية مع صادق قطب زاده. لا يمكنك أن تفلت من صادق قطب زاده وهوسه بالانتشار. كان يأتي إلى الفندق الذي أسكن فيه كلَّ ليلة، يرافقه حرّاسه الشخصيون، كي يتناول العشاء في المطعم حيث كان الصحافيون (الغربيون) يأكلون، وكان قادراً دوماً على أن يجد صحافيًّا يرغب أن يجعله يتكلّم. إذا كان الشخص الذي يمارس العمل الصحافي امرأة، فالأمور تسير بنحو قبيح بسرعة شديدة. ببنيته الرياضية المُتنّمرة، يقينه من كونه لا يُقاوَم، والإنكليزية التي تعلّمها خلال أربعة أعوام من النفي في واشنطن، دي. سي.، يطوّقك بحيويته وحماسته بحيث لا يخطر ببالك كيف تفلت منه. أرسل إليّ باقة ضخمة

مـن الورود الحُمر ومفكّرة داعرة جداً بحيث أنني بدأتُ أتخطى العشاء كـي لا أراه، وعـادةً انتهـى بي المطـاف أن عذّبتُ العاملـة المنزلية طوال ساعات.

«انزلي وانظري ما إذا هو موجود هنا، وما إذا يأكل».

«إنه هنا، إلا أنه لم يطلب الطعام حتى الآن».

«اذهبي وتفحصي من جديد».

«لقد طلب الطعام، غير أنه يأكل ببطء شديد».

«اذهبي وتفحصي من جديد».

«لقـد فـرغ من تناول طعامـه، إلا أنه لا يزال هنـاك، يتكلّم من دون كلفة».

«مرةً أخرى، من فضلكِ».

«المكان آمن!»

لـو إنـكَ قلـتَ لي إني سأضمـن موعـداً مـع خميني بفضـل صادق قطـب زاده، لضحكـتُ في وجهكَ. غـير أنّ الله يعمل بطرائـق مُبهَمة، وأن الكراهيـة التي فرّقت ذَينـك النِّدين لها عواقب أكثر غموضاً. ذات مساء لم يكن على العشاء، لذا نزلتُ إلى المطعم كي آكل. وما إن تناولتُ اللقمـة الأولى، حتـى اقتحـم الصالة مـع حرّاسه الشخصيـين واختار مائدة متاخمة لمائدتي تماماً. جلس، متظاهراً بأنه لم يرني. بدا أشـبه بكلب

حراسة متغطرس[1]، أو الأفضل، مثل ملاكم فاز في جولات كثيرة جداً. طلب طبق هامبورغر وقنينة كوكا كولا بصوت مرتفع جداً، وفي النهاية التفت إليّ، من دون أن يُبدد أيّ وقت في التعارف، وفعل شيئاً لا أزال لا أفهمه حتى الآن. هل كان يسعى لأن يصدمني، لأن يشوّه سمعتي؟ هل ما يزال يضمر الاستياء حيال الطريقة التي كنتُ أتحاشاه فيها؟ هل كان يحاول أن يخلق عُذراً لنفسه في الاحتمال الضئيل بأن فرداً ما يرهف السمع؟ مهما كان الأمر، من دون أيّ تحفيز مُمكن تخيّله، ومن دون أن يفسر لماذا كان يتكلّم معي، استهل خطبةً لاذعة ضارية ضد الأمريكيين لم يسبق لي أن سمعتها: إنهم قتلة، مجرمون، نازيو عصرنا، نفاية (التاريخ)، عار الجنس البشري، وتمنى أن يموتوا جميعاً متأثرين بالسرطان. وبعدها، بصورة مفاجئة مثلما بدأ، توقف. جرع قنينة الكوكا كولا العائدة له وتناول لقمة كبيرة من الهمبورغر العائد له، وطلب رأيي.

«ماذا تعتقدين؟»

أجبتُه، باسمةً: «أعتقد أنّ أيّ فرد يكره الأمريكيين كرهاً شديداً يتعين عليه ألا يأكل الهمبورغر ويشرب الكوكا كولا. ومن المؤكد عليه ألا يقبل ضيافتهم على مدى أربعة أعوام».

لم يرقه كلامي. رماه في لُجّة غضب وحشي، لا يُمكن السيطرة عليه

---

(1) كلب حراسة متغطرس: وردت في النص كلمة bullmastiff التي تعني «الدرواس»، والكلب المنتمي لهذه السلالة يكون ضخماً، قوي البنية وذا أنف قصير ويُستخدم للحراسة – م.

الغضب نفسه الذي سوف يقوده، بعد مضي عامين، إلى أمام فريق الإعدام رمياً بالرصاص. الهمبورغر والكوكا كولا هما الشيئان الجيدان الوحيدان اللذان ابتكرهما الأشخاص المصابون بالعدوى، بدأ يصيح. بصق على ضيافة الأمريكيين، كان سيموت قبل أن يشكرهم. أما من ناحيتي، فبوسعي الذهاب إلى الجحيم جنباً إلى جنب معهم، أنا واحدة منهم على أية حال، وجميع (الغربيين) هم هكذا. و، مُطلِقاً تجشؤاً مدمدِماً، هبّ واقفاً، تاركاً إياي مقتنعةً بأنه ينبغي لي الرجوع إلى غرفتي والبدء بحزم أمتعتي. وداعاً للحوار مع خميني.

نسيتُ العواقب الغامضة للكراهية التي فرّقت النِدين. كي أثبت لخميني أنّ صادق قطب زاده هو مغفل أبله، غلام مجنون لا يستحق اهتمامه، كان بني صدر سيقطع أصبعه هو. كان سيقطع إصبعين لو أنه فكر أنّ بوسعه أن يُظهر لأوروبية أنه يوجد رجل واحد فقط قادر على توفير مَدخل إلى (القائد الأعلى): وزير المالية، الرئيس المستقبلي لـ (الجمهورية الإسلامية). لذا، ما أن سمع عن أداء صادق قطب زاده في المطعم، حتى أسرع إلى (قُم) في سبيلي، وبعد يومين اقتحم غرفتي سلامي وهو مُحرَج. لم يوافق على استفزازي الوقح للسيد صادق قطب زاده، قال لي، ومن المؤكد لم يكن يقر بأنّ آراء الرجل الثوري الذي كان، زيادةً على ذلك رئيسه، كانت خاطئة: في الحقيقة، الأمريكيون لم يفعلوا شيئاً ذا قيمة، باستثناء الكوكا كولا والهمبورغر. مهما يكن من أمر، كان سعيداً بأن يُعطيني شيئاً من الأنباء السارة. السيد بني صدر أقنع الإمام بأن يستقبلني. سنغادر متَّجهين إلى (قُم) صباح اليوم التالي.

نعم، صباح اليوم التالي في الساعة الثامنة، الموعد تحدد في الساعة الثالثة بعـد الظهر وإن الوصول إلى (المدينة المقدسة) سوف يسـتغرق ساعتين بالسـيارة.[1] هـل أنا جاهزة؟ هـل بحوزتي الملابـس المناسبة؟ الملابس شيء شـديد الأهمية: يجـدر بي أن أتذكر أني امرأة، وأنّ الإمام لم يسـمح لنفسـه أن تحاوره امرأة، وأنّ استثناءً كهذا هو استثناء رائع وأنه يتوجَّب عليّ ألا أرتكب أيّ أخطاء.

«أحـضرتُ بعض السراويل السـود وقميصاً أسـود بكُمين طويلين وبرقبة عالية جداً».

«هذا غير كافٍ».

«أحضرتُ أيضاً وشاحاً أسود يُغطي رأسي وكتفيّ».

«هذا غير كافٍ».

«أحضرتُ أيضاً شالاً أسود يغطي كل جسمي حتى القدمين».

«هذا غير كافٍ».

«كيف أنّ هذا غير كافٍ؟»

مكتبة .. سر من قرأ

«إنكِ تحتاجين إلى عباءة».

«لا أملك عباءة».

(1) ذكرت الكاتبة أوريانا فالاتشي ثانيةً أنّ (قُمّ) تبعد عن العاصمة طهران نحو ست ساعـات. وهـذا خطأ، فهي لا تبعد أكثر من ساعتين بالسـيارة. ربـما خانتها الذاكرة، والله أعلم – م.

«سأعـيركِ إحدى عبـاءات زوجتي. ومـن فضلـك: لا أظافر حُمر. الإمام سوف يمتعض».

«بالطبع».

«لا تورُّد الخدّين، لا أحمر شفاه. سوف تُشوّه سمعة الإمام».

«بالطبع».

«لا عطر، لا أشـياء تافهة أو نزقة مـن أيّ نوع كانت. سيراها الإمام بوصفها استفزازاً».

«بالطبع».

كنـتُ مغتبطة جـداً بحيث أنه حتى لو طلب منـي أن أحلق رأسي، كنتُ سأفعل. وأنا في غمرة تلك السـعادة، رميتُ بالحذر أدراج الرياح وهرعتُ إلى خـزان دورة المياه. سحبتُ زجاجة الشمبانيا وعرضتُ أن أتقاسمها مع سلامي. إلا أنه رفض، مُروَّعاً، واقترح أن نحتفل بتدخين الأفيون في منزل ثلة من أصدقائه الحكوميين. الأفيون مسموح، وكذلك الحشيـش، حتى أنـه مكتـوب في (الكتـاب الأزرق): «إن شرب النبيذ أو أيّ مشروب يُسـبب السُـكر هو إثـم. إنه ليس إثماً أن يسـتعمل المرء الأفيون أو الحشيش، حتى ولو بأشـكال سائلة». كان ينبغي لي أن أقول نعـم. وهكذا، أمـضي عشية مغامرتي الكبرى أتثـاءب على سجادة جنباً إلى جنب مع عشرة من المنافقين كانوا مسـتعدين لبيع أمهاتهم من أجل كـأس بيرة، فيما كانوا يمـررون الأنبوب العاج بينهم بمـزاج مُبهج. في طـاس الأنبوب، كانت هنالك كرة سـوداء، لزجة تحترق، تبعث رائحة

روث لا تُطاق: استهلال للمغامرات الحزينة الذي سوف أخبرها في (قُم)، وهو مكان يتعين على كلّ امرئ أن يراه، كي يستطيع أن يفهم أنّ السلطة ليست جادة على الإطلاق.

***

ثمة شيء مفقود في جميع الكتابات المتعلّقة بالسلطة: قلة قليلة هم القادرون على أن يفهموا كم هي مضحكة. حين يُمحِّصون الرعب الذي ترتكبه السلطة، المعاناة التي تفرضها، الدم الذي تتلوّث به، المؤرخون وعلماء السياسة ينسون دوماً أن يسلّطوا الضوء على الجوانب المضحكة للمِسخ الذي لا مَفرّ منه. إنهم يرون السلطة باعتبارها شيئاً جادًّا للغاية، وليس شيئاً مُضحكاً؛ إنهم يروون دوماً التراجيديات، وليس الكوميديات. أرجوك لا تُسئْ فهمي، بطرائق كثيرة هذا اختيار سليم، بما أنّ المكوّنين الرئيسين للسلطة الألم والموت ليسا مُضحكين للغاية. بطرائق أخرى، هذا خطأ. لو إننا نكتب فقط عن التراجيديا، صورة المِسخ التي تبقى هي صورة مشوّهة وغير كاملة، إنها تخفق في أن تُبلِّغ أن المِسخ، بصرف النظر عن كونه شريراً، فهو مُضحك. كلّ ما نحتاج لأن نفعله هو أن ننظر إلى الرجال والنساء الذين يُمثلون السلطة، حتى حين يكونون أشخاصاً مُبجَّلين ومهذَّبين وهو، على أية حال، شيءٌ نادر الحدوث كي نرى كم هم مضحكون. إن غطرستهم فيما هم يسعون لإقناعنا أنهم أشخاصٌ ممتازون ويستحقون أن يقودونا أو يُسيطروا علينا هي غطرسةٌ مُضحكة. إن التواضع الزائف الذي يتبنّونه كي يُبرروا امتيازهم الموروث أو الذي حصلوا عليه بصعوبة هو تواضع

مُضحك. إن الاحترام الذي يطلبونه من رعاياهم، حتى حين يسمُّونهم رفاقـاً، هو احترام مُضحك. الطريقة التي يجلسـون فيهـا جميعاً مُبجَّلين عـلى الكرسي الرئـاسي أو العرش هـي طريقة مُضحكـة؛ الطريقة التي يتحرّكون أو يتكلّمون فيها حين يعرفون أن الناس يراقبونهم هي طريقة مُضحكة؛ الطريقـة التي يؤمنون فيها بأهميتهم هي طريقة مُضحكة. إن عدم ارتياحهم وارتياحهم مُضحـك؛ بذلاتهم النظامية المكوية وثيابهم الثمينة والأوسمة التي لا يستحقونها والجوائز المُخترعة كلّها مُضحكة. إنها كلّها مُضحكة جداً بحيث أنّ حافزاً مباغتاً، عفويًّا ينبثق كي يسـأل لماذا ينحني الناس أو ينسـحبون للـوراء، مرعوبين أمامهم، بدلاً من أن يضحكوا في وجوههم.

هل يرجع السبب إلى الخوف؟ ليس تماماً، بخاصة إذا ما فكرتَ أنّ الأقويـاء خائفـون، أيضاً: قبل كلّ شيء، إنهم خائفون من الأشـخاص الذيـن يُخوِّفونهـم، أو يُريـدون أن يخوِّفوهـم. إنهـم يخافون مـن فقدان منصبهـم؛ خائفـون من أن يُرفـع عنهم القناع، أن يُسـحقوا، أن يُقتلوا؛ خائفون من أن يفقدوا كلّ الأشـخاص الذين يخوِّفونهم، أو يرغبون أن يخوِّفوهـم. هـل يرجع سبب هـذا إلى العمى، أو إلى حاجـة ما للإنحناء أمـام قائد مُتسـلّط؟ ليـس تماماً، إذا ما فكـرتَ أنه ما مـن أحد يجب أن تُفرض السلطة عليه، وأن عادةً الأقوياء مكروهون أكثر منهم محبوبين. هل يرجع سبب هذا إلى الكسـل، أو إنه الخضـوع للفكرة القائلة إننا لا نسـتطيع أن نتدبـر أمرنا من دونهم، وأنّ فرداً مـا يجب أن يبقى عند قمة الهـرم الاجتماعي؟ ربما. إنما كي نتغلّب عـلى ذلك الخوف، تلك الحاجة

للانحناء أمام قائد، ذلك الكسل، ذلك الخضوع، كلّ ما نحتاج أن نفعله هو أن ننظر بعينيْ الطفل في خرافة هانز كريستيان أندرسن، الذي يُشير بإصبعه ويصيح: «الإمبراطور بلا ملابس!» نحن بحاجة لأن نفكر بشقاء القيادة: نعم، باستطاعتهم أن يُعاقِبوا ويدمِّروا ويقتلوا، إلا أنه بوسعهم أيضاً أن ينتهي بهم الحال أن يُعاقَبوا، يُدمَّروا، ويُقتلوا. على كلّ حال، إنهم كائنات ضعيفة، شديدة التأثر تعيش في كابوس تقصيرها هي. سعيتُ دوماً لأن أنظر إليهم هكذا، حتى أني غالباً أتخيّلهم في ملابسهم الداخلية، أو في ظروف مُحرِجة. هذه الحالة تنجح دوماً بشكل جيد جداً، مع أنها تُضيف نوعاً من الشفقة الإنسانية على الرغبة في الضحك، التي بوسعها بسهولة تامة أن تفسح المجال لنوعٍ خطير من التسامح. غير أنها حقيقة أنهم حين يفقدون بذلاتهم النظامية المكوية، تلك السترات الرمادية والزرق ذوات صفين من الأزرار، تلك الأوسمة التي لا يستحقونها والجوائز المُختَرَعة، يكفُّون عن كونهم مُضحكين. بالأخص إذا ما أصبحوا ضحايا الشخص القوي التالي: الضحايا لا يكونون مُضحكين قط.

إنه شيء لا يُمكن نكرانه أن السلطة تجعلنا كوميديين، أو في الأقل تضخم إمكانية التهريج الموجودة فينا جميعاً؛ الدليل يوجد في الحقيقة التي مفادها أنه كلّما يكون الرجل القوي شريراً أكثر، يُصبح مُضحكاً أكثر. فكِّرْ فقط كم كان هتلر مُضحكاً، بشاربه الصغير الشبيه بفرشاة الأسنان وقَصّة شعره المُتكلّفة، وعوائه الهستيري كلّما يستشيط غضباً أو يخاطب الحشود في ساحة ألكسندربلاتز العامة ببرلين. فكِّرْ كم كان

موسوليني مُضحكاً، بوجهه المتعجرف وصدره المنتفخ، يداه على وركيه وقدرته على قول أشـياء بلهاء. فكِّرْ كم كان نابليون مُضحكاً، بتجهُّمه، تجهم سوبرمان، يداه على الدوام تربتان على أحشائه، رِجلاه الصغيرتان القصيرتـان وإدعـاؤه بأنه (إمبراطور الحرية، المسـاواة، الإخاء). و، إذا مـا استعملنـا مثالاً معـاصراً، فكِّـرْ كم هـو مُضحك كاسـترو: بلحيته الطويلـة وصوتـه المرتفـع، طموحاته، طموحـات سيمون بوليـڤار [1] وتنكره الأبـدي بوصفه مشاركاً في حرب العصابات نزل توًّا من جبال سييرا مايسـترا: جزمتا النزهـات الطويلة سيراً على الأقدام، المسـدس المُهيَّأ لإطـلاق النار، بذلة نظامية شـتوية على جزيـرة استوائية. فكِّرْ في الاستعـمال الظريف الذي صنعه ويصنعـه دوماً نظراؤهم من كلِّ عِرق ولون من السـلطة، محوّلين إياها إلى حكاية ساخـرة، رسماً كاريكاتوريًّا لمسيرات ضخمة، أقواس النصر، الهتافات البذيئة. وقُلْ لي: كيف يُمكن أن يسـاندهم الشعب، يُعجب بهم، يصفق لهم؟ كيف يُمكن ألا تنفجر السـاحات ضاحكةً في كلّ مرة يصرخون فيها؟ قُلْ لي: ماذا يفعلون إذا مـا امتلأت سـاحـة بأسرها بالبشر، وبدأ هـؤلاء بالضحك عليهم؟ هل سيقتلونهـم جميعـاً؟ حسـناً. وإذا بدلاً من إطـلاق النار، الجنـود الذين

(1) سيمـون بوليـڤار Simon Bolivar (1783 – 1830): عسـكري وسياسي فنزويلي في فترة ما قبل الجمهورية القبطانية العامة لفنزويلا. وُلد في كاراكاس عاصمة فنزويلا في 24 تمـوز/ يوليـو العـام 1783. وهـو مؤسس ورئيـس كولومبيا الكـبرى، وواحد مـن أبـرز الشخصيات التي لعبـت دوراً مهمًّا في تحريـر كثير من دول أمريكـا اللاتينية التـي وقعـت تحت طائلة الحكم الإسباني منذ القرن السـادس عشر مـن مثل كولومبيا وفنزويـلا والإكـوادور وبيرو وبوليفيا وبنما. وأُطلق عليـه» جورج واشـنطن أمريكا اللاتينيـة «- م.

عُهِـدت إليهم مهمة القتـل بدؤوا يضحكون هم أيضاً؟ ماذا لو ضحك الشعب بأسره.

عـلى أيـة حـال، يوجـد شيء مضحـك أكثـر مـن الدكتاتـور الذي يـصرخ. إني أُشـير إلى قوة التفاهـة: القوانين البلهـاء، التعليمات عديمة المعنى، والقواعد السـخيفة التي تسـتعملها السـلطة بطريقة فعالة أكثر من الأسلحة كي تُبقي نفسـها في مكانها. والصلابة الهزلية التي يفرض بهـا خَدَم السـلطة القوانين البلهاء، التعليمات عديمـة المعنى، والقواعد السـخيفة، مُحدِثين مواقف غريبة وبشعة للغاية، بحيث أنّ الأشـخاص المَعنيـين يتوقون لفرقة الإعدام رمياً بالرصاص. إذا كانت بحار الدموع التـي سفكهـا الغيلان عبر تاريـخ الجنس البـشري يُمكـن قياسها إزاء المواقـف الغريبـة والبشعـة التـي سبّبها غباؤهـم، لن يكـون للمرء أيُّ شـكوك أخرى فيـما يتصل بـروح دعابة السـلطة والحاجة إلى التفسـير بمصطلحـات هزليـة، بـدلاً من المصطلحـات التراجيديـة. بخاصة في إيران. خُذْي العباءة، على سبيل المثال. عند الوهلة الأولى، تبدو العباءة عديمـة الضرر: في أسوأ الأحوال، هي قطعة من القماش، وهي مزعجة لأنهـا ترمز للعبوديـة. إنما حاولي فقـط الدخول إلى فـوضى تحتوي على العبـاءة، حـاولي الدخـول إلى حصن السـلطة التـي أوجـدت العباءة، القوانين التي تؤسس دنيا المرأة، العلاقة بين الجنسين. سترين ما يحصل لـكِ. إنكِ حتى من الجائز أن تجدي نفسـكِ متزوجة مـن الرجل الذي حـدث أن وقفتِ بجـواره في تلك اللحظـة من الزمن. إنـكِ في حقيقة الأمـر لا تسـتطيعين أن تتخيّلي مـا يُمكن أن يحدث بسـبب العباءة. كلّ

الأشياء التي حدثت لي حدثت بسبب العباءة التي توجَّب عليّ أن ألبسها أمام الرجل المُسن الشرير.

جرى الأمر على هذا المنوال. بعد حفلة الأفيون رجع سلامي إلى المنزل كي يجد عباءة زوجته، إلا أنه لم يستطع أن يجدها، لأن زوجته لم تكن في طهران ولم تكن لديه أدنى فكرة أين احتفظت بها. لذا طلب عباءة واحدة من زوجات الرجال الآخرين، وهكذا فقد انتشرت شائعة أنّ سلامي يبحث عن عباءة، جنباً إلى جنب مع سؤال معقول: لماذا؟ كان الجواب الجليّ عن هذا السؤال قد وصل حالاً: بما أنّ سلامي يعمل معي عن كثب، لا يُمكن أن تعني العباءة سوى أني أتهيأ لإجراء حوار مع خميني. في هذه اللحظة أصبحت الشائعة خبراً، الخبر وصل إلى الصحافيين، وقرر طاقم التلفزيون أن يُعسكروا في الرواق أمام غرفتي بالفندق كي يُفاجئوني فيما كنتُ أغادر، وأن يتعقبوني، وأن ينتظموا في الفعاليات. غير أنّ سلامي اكتشف ذلك في الوقت المحدد. جاء كي يصطحبني قبل الساعة الثامنة في صباح اليوم التالي ومعه عباءة مُستعارة، وكان يتعين علينا أن نسرع بالذهاب إلى (قُم) كي ننجو بأنفسنا. «إنهم ينتظرون في الطابق الأسفل، وحمداً لله إنهم لا يعرفون أننا نغادر صباح هذا اليوم. نحن بحاجة لأن ننسلَّ خارجين تحت أنوفهم من دون أن نبلغهم: لا يُمكنكِ أن تغادري وأنت تلبسين ملابس رسمية. البسي تي شيرت وسروال جينز أزرق اللون». أخذتُ نصيحته وخبأتُ الثوب المقدس في حقيبتي اليدوية جنباً إلى جنب مع مسجلتي وأشرطتي. انطلقتُ مسرعة

خارج الفندق، مارّة بزملائي وزميلاتي، بمظهر امرأة ذاهبة لالتقاط علبة سجائر. في سرعتي، لم أسأل نفسي أيًّا من الأسئلة التي كانت تُعذّب سلامي حالياً. هل سيسمحون لي بالدخول إلى (قُم) في تي شيرت وسروال جينز؟ هل سنجد فندقاً يكون باستطاعتي أن أُغيّر فيه ملابسي؟ بدت المشكلة الأولى أقل جدِّيَّةً، بما أنه باستطاعتي أن أحلّها بارتداء العباءة، مع أنه لم يكن لي متسع من الوقت كي أُجرّب لبسها أو كي أتعلّم كيفية استعمالها. أما المشكلة الثانية فكانت مُقلِقة أكثر: كانت هنالك فنادق قليلة في (قُم)، وكانت مكتظة على الدوام. وكذلك الأمكنة التي تُعير الأفرشة. في الحقيقة، كان الحجاج عادةً ما يجلبون الخيام معهم. كانت دورات المياه العمومية للرجال فقط، وسيكون من المستحيل أن أطلب ضيافةً في أحد المنازل الخاصة. لم يجرؤ سلامي على فعل ذلك. في الختام، كي أتفادى المفاجآت غير السارّة، سيكون شيئاً ذكيًّا أن أغيّر ثيابي قبل الوصول. لكن أين؟ سنكون في الأقل ساعتين خارج طهران ولم نتخطَ حتى الآن مدينة واحدة، محطة غاز، أو كوخاً. كان الطريق يتلوّى كالثعبان عبر صحراء من الرمل والحجر، كثبان رملية تنمو فيها أعشاب قليلة، ولم تكن هنالك أكثر من شجرة واحدة كي يتبول المرء خلفها.

«ماذا لو غيّرتُ ثيابي هنا في السيارة؟»

«بسم الله! هل تمزحين؟» كان مصعوقاً جداً بحيث بدا أنه خاف من أني سأستثمر الوضع واغتصبه. والآن، وقد أمست (المدينة المقدسة) أوضح في الأفق مجموعة من المآذن الرمادية في وسط اللامكان بدأت المشكلة

تُرهـق كاهلنا بشدة. أضحـت مُلحَّةً أكثر مع كل كيلومتر، فيما كانت حركة المـرور تزداد؛ حتى لو كـان قادراً على التغلّب على احتشامه ويسـمح لي أن أفعل ما اقترحتُه، لن أكون قادرة على فعل ذلك. أعني، أنهم سوف يروني. وسأعرّض نفسي لخطورة الإعدام من دون محاكمة قانونية.

«ماذا لو عُدنا؟ سأختبئ وراء تل؟ ثمة تل صغير نحو نصف ساعة بالسيارة في الخلف».

«إنه يبعد عنا ساعة تقريباً. سوف نتأخر».

«دعنا نواصل الرحلة إذاً. يُمكننا أن نفعلها».

على حين غرّة كنا عند بوابات المدينة، كتلةٌ متشابكة من الشاحنات، الجِـمال، الحافلات والقوافل المكتظة تماماً بالمخلصين، الذين جاؤوا من جميـع أنحـاء البلاد كي يُعـبّروا عن ولائهـم للرجل الهـرم الشرير، كي يلقوا عليـه نظرة على مدى لحظة، كي يحصلوا على بركته. كانوا يتلوون هنـا وهنـاك كاليرقـات، كثـير منهـم صحبة أطفـال خائفين، كسـيري الأفئـدة، كسـيري الأفئـدة أكثـر مقارنـة بفكـرة الجهـل والشقـاء بحدِّ ذاتهـا. كـان بعضهـم قد سـاروا، جالبين معزاة وسجـادة معهم لا غير، وجلسـوا هناك مكوّمين مثل كدس من الأجسـاد والبسـط والغبار إلا أنهم كانـوا سعداء وصامديـن بوجه الإعياء، الجـوع، وحشية الحراس الذين أساءوا معاملتهم، أجبروهم على التحرّك كي تستطيع السيارات أن تمرّ، وصامدين بوجه السائقين الذين يحتجون، يصيحون، ويطلقون أصـوات الإوز بأبواقهم في تنافر نغمات جهنّمي. كنتُ أعتزم أن أبكي،

فيـما كنـتُ أراقبهم: أن أفكـر، أنّ عشرات الآلاف من البـشر ماتوا من أجل هذا.

«غطي رأسكِ»، قال سلامي، متوتر الأعصاب.

غطيتُ رأسي.

«قوّسي جذعكِ قليلاً، حاولي ألا تجعليهم يرونكِ».

قوّست جذعي قليلاً، محاولةً ألا أدعهم يروني.

«جهزي عباءتكِ».

جهزتُ عباءتي.

أمسـكتُ بالعبـاءة، وتهيـأتُ لارتدائها حالمـا أتلقَّى أمـراً بأن أفعل ذلـك. وجاء الأمر فيـما كنا نقود السـيارة في الشارع الرئيـس في (قُم): طريق كريه الرائحة، غير مرصـوف، يعج بالبائعين والأكواخ الصغيرة الصُفـر. وسطهم يوجـد مبنى فخم تقريبـاً من الجائز أن يكـون فندقاً. توقفنا أمامه وخرجتُ كي أُغطي الـتي شـيرت وسروال الجينز الأزرق الاستفزازيـين، لكـن مـا أن طوّقنـي الحجـاب الأسـود حتـى تملّكني الخوف. لم يكن قط كما حسبتُه: توقعتُ أن يكون نوعاً من وشاح ترمينه عـلى كتفيكِ وتمسـكينه حول وجهكِ. كان أشـبه بمـلاءة، طويلة جداً، ثقيلـة جـداً، كانت فخـاً. لا سبيـلَ لي لأن أعرف أين بـدأت العباءة أو انتهت، أيَّ جانبٍ منها الواجهة وأيًّا منها الخلف.

«البسيها، بسرعة!»

«كيف ألبسها، أين أضعها؟»

«ضعيها عليكِ!»

«لا أعرف كيف!»

حاولتُ أن أرميها على رأسي كالمنشفة، إلا أنها انزلقت حالاً، وجلبت وشاحي معها، وهي ذي الآن تنزلق على طول المكان كلّه كسمكة جرّي؛ لو إني أمسكت بالجانب الأيمن تنزلق إلى الجانب الأيسر، ولو أمسكت بالجانب الأيسر تنزلق إلى الجانب الأيمن. في غضون ذلك، كان شعري عارياً في الشمس، الأمر الذي صدم الناس المارين، وكنتُ ألعن بفزع.

«لعنةٌ على إمامكَ! لعنةٌ على القرآن وعلى كلِّ مَن يقرؤه!»

«أوه أرجوكِ، اهدئي!»

أخيراً، اكتشف أين الواجهة وأين الخلف. ساعدني على لبسها بأن ضغط حافةً على جبيني وسمح للجانبين أن ينزلا بجانب وجهي. قررتُ أنه إذا أمسكتُ بالجانبين معاً عند حنكي وضغطتُ كتلة القماش على صدري، باستطاعتي أن أمسك بها على مدى دقائق قلائل.

«هل يمكنكِ أن تفعلي ذلك؟»

«ربما».

«هل باستطاعتنا أن نمضي؟»

«دعنا نذهب».

تبعتُـه، وأنـا أزلُّ باستمـرار: الفـخ الرهيب عَلِق بـين قدميّ وكنتُ أُعرّض نفسي لخطر السقوط على الكفل مع كلّ خطوة. دخلتُ الفندق صحبته وشـخصٌ ما دفعنـي إلى الخارج ثانيةً على الفـور، وراح يُصيح شيئاً ما مَن يعرف ماذا.

«ماذا يقول هذا الرجل؟ ماذا يبغي؟»

«إنه يقول إنه لا يُسمح بدخول النساء».

«ماذا يعني ذلك، لا يُسمح بدخول النساء؟»

«إنـه يعنـي أنهـن لا يدخلـن. لا تقلقـي، سنجـد فندقاً يُسـمح فيه بدخول النساء».

رجعنـا إلى السـيارة وواصلنا قيادتها إلى أن وجدنـا فندقاً آخر. هذه المرة دخل سلامي وحده، قائلاً إنّ ذلك سيكون أسهل من دوني هناك. بعد دقائق قليلة عاود الظهور، وهو يلوّح بمفتاح انتصار.

«فعلتُها! ودفعتُ الأجر سَلَفاً! هيا!»

نُصحتُ بأن أتصارع مع العباءة، وانتهى بي المطاف أن بدوتُ أشبه بضحيـة صدمة ملفوفة ببطانية بعـد حادثة ما. أخذتُ المفتاح، ومشيتُ مارةً بالبواب بمُسحة حازمة. لم يقل كلمة، غير أني ما كدتُ أمشي عشر أقدام حتى سدَّ عليَّ مُلائيٌّ طريقي.

«لا للسيدات».

«لكن لديّ مفتاح، دفعتُ الأجر!»

«لا للسيدات. هيا إلى الخارج!»

عدتُ إلى سلامي، وأنا أحس أني مثل (مريم العذراء) وهي تبحث عن مكانٍ تلد فيه. سأكون سعيدةً تماماً مع مربط مليء بالأبقار والحمير.

«إذا كان بوسعنا أن نجد دورة مياه عمومية... كنتُ سأغيّر ثيابي هناك. لا بدَّ أن يوجد مكانٌ ما في (قُم) يُسمح للنساء فيه أن يستعملن دورة المياه».

«سنحاول».

كان الفندق الثالث أفضل من الفندقين الآخرين. سُمِح لي بأن أمشي عشرين قدماً عبر الصالون، حتى كان بمستطاعنا أنا وسلامي أن نجادل المُستخدَم الذي يتكلّم الإنكليزية. قلنا له مَن أكون، ماذا كنتُ أُريد، لماذا أنا في (قُم). عرضنا عليه أن ندفع ثمن شقة صغيرة كي ندخل إلى الحمام، لوّحنا ببقشيش مُعتبَر أمامه [1]، حتى أننا تقاسمنا اهتمامنا بشأن المنظر الذي تصنعه الثورة من نفسها أمام امرأة أجنبية، لا تُريد سوى أن تستعمل الحمام. كان المُستخدَم لطيفاً بما أنه غير متأثر. كان قد تعرّف إليّ، قال، صورتي الفوتوغرافية مشهورة حالها حال حواري مع الشاه. كان يأمل أن أصدّقه حين قال ذلك، لو إنه يملك منزلاً في (قُم)، كان سيفتحه لي. إنما لسوء الحظ كان يقيم في الفندق، حيث أنّ التعليمات مُغلّفة بالحديد، وسيعرّض نفسه لعقوبة السجن لو إنه خرق تلك التعليمات. النساء لا يُسمح لهن بالدخول، وهذا الأمر ينطبق على

(1) هنا التلويح بالبقشيش على سبيل الإغراء – م.

الحمامات أيضاً. لماذا لا نذهب ونتحدّث مع العمدة؟ كان دخول النساء إلى الحمامـات العموميـة موضوع جدال قديم لم يكونـوا قادرين على أن يجـدوا حلًّا له حتـى الآن، وحالتي الجديرة بالملاحظـة تُرغمه يقيناً على إعادة تمحيص التعسـف ونقص الروح الإنسـانية هذين. أدرتُ ظهري له، مُغتاظة.

كـان الوقـت نحو الثانية بعد الظهر، وموعـد الحوار يقترب بسرعة مُزعجـة، بـدا سلامي مُحبطاً للغايـة، غير قادر على مسـاعدتي في خضم هذه الفوضى. لكن، لمّا رجعنا إلى السيارة، أشرق وجهه.

«أعطاني فكرة! لنذهب إلى مبنى البلدية، إلى العمدة!»

«لمـاذا بحـق السـماء نذهـب لرؤيـة العمدة؟ لمـاذا يتعين عـليّ بحق الجحيـم أن أُعطي اهتماماً فيما يتعلّق بجدال دورة المياه في (قُم)؟ سوف نتأخر عن الموعد!»

لم يكن العمدة في مكتبه، إنما كان هناك نوعٌ من موظف فهم الموقف بسرعـة. كان بوسعه أن يعطينا حجرة العـرش؛ بما إن الشاه لاذ بالفرار ولم يعد يسـتعملها أحد. هل تنجح حجرة العرش؟ سوف تنجح. لذا، انطلقنـا إليها. قبضتُ على حقيبتـي اليدوية مع الثوب المقدس، سمحنا لأنفسـنا بـأن يقودونا إلى حجـرة كبيرة، مؤثثة بكـرسي ذهب ضخم لا غير. دخلنا بسرعة، حبسـنا أنفسـنا في الداخل، رميـتُ الثوب المقدس على العرش، واستدار سلامي كي لا يراني وأنا أنضو عني ثيابي.

مـا جرى لاحقاً سيظل ماثلاً في ذاكرتي مثل كابوس سريع الإيقاع.

كـلّ شيء جـرى بسرعـة شـديدة، وبنحـو غير متوقـع للغايـة. الصور تتشابـك في ذاكـرتي، والأصوات، الأحاسيس. وفيـما أنا أخلع سروالي الجينـز الأزرق، أفكر أنّ الوقت الآن قـد أصبح الثانية وعشرين دقيقة، وما من وقت كي نبدِّده. وفيما أنا أخلع الـتي شـيرت العائد لي يجتاحني شـعور غريـب بكارثة وشـيكة التي أحـاول أن أتجاهلها، مـن دون أن أرغـب بـأن أُلهّي نفسي. البـاب يبعث صريراً وهو يُفتـح، عمامة رمادية تنظـر خلسـةً، وينغلق الباب مجـدداً بعنف. يُطلق سلامي أنينـاً متألماً لا يُصدّق. هذا النوع مـن الأنين تُطلقه الحيوانات الجريحة، أنين كائن فقد آماله كلّها.

«أوه لاااا!»

«مَن هذا الرجل؟»

«مُلاّئي. وقد رآكِ».

«إنه شيء سيِّئ؟»

«إنـه شيء سيِّـئ للغاية. يتعين عـليّ أن أتحدّث معـه. واصلي ارتداء ثيابكِ».

غادر من دون أن يلتفت إليّ، استأنفت ارتداء ثيابي بسرعة مسعورة. سروال أسـود. قميص أسود. طرحة سوداء. شـال أسـود. عباءة. ولمّا أصبحـتُ جاهـزة، رجـع سلامـي ودخـل الحجرة، شـاحباً شـحوب الأموات. كان وراءه شـخصٌ وحشي بعينين قاسيتين، إنه المُلائي الذي ضبطني وسروالي الجينز حول كاحليَّ.

«إنه يُريد أن يرى أوراقك، إنه يريد أن يعرف ما إذا نحن متزوجان».

«قُلْ له إننا متزوجان!»

«قلتُ له ذلك إلا إنه لم يصدّقني».

وأنـا ألعن، سلّمته جواز سفري. الشخص الوحشي قلّب صفحاته بإبهامـه، يبدو أنه لم يكن يفهم كثيراً، وبعدهـا سلّمه إليّ ثانيةً، وبصوت أشبه بصوت الدجاجة تحدّث حديثاً طويلاً بلغته غير المفهومة.

«ما الذي يقوله بصوته الشبيه بصوت الدجاجة، ماذا يُريد؟»

«إنـه يقـول إن جواز السـفر هـذا لا يثبـت أننا متزوجـان لأنك لا تملكين اسمي. إنه يقول إن شـخصين من جنسـين مختلفين لا يُمكن أن يكونـا في الغرفة ذاتهـا إذا كانا غير متزوجين، والمرأة يقيناً لا يسـعها أن تخلـع ثيابها على بُعد خطوات قليلة من رجلٍ ليس زوجها. إنه يقول إنه لا يسعنا أن نغادر هذا المكان ما لم يقرر ماذا يفعل لنا».

«لا يُمكننـا المغـادرة؟ الوقـت الآن الثانية وخمس وثلاثـون دقيقة، اللعنة! قُلْ له إنّ لدينا موعداً مع خميني في الساعة الثالثة!»

«قلـتُ لـه سابقـاً. زدتُ الطـين بلّـة. أجـاب إن الإمام لا يسـتقبل الأشخاص النجسين».

«الأشـخاص النجسـين! أنـا مُغـادرة. أنـت مُغـادر. وأنـتَ الذي أحضرتني إلى خميني، هل تفهم؟»

«هذا مسـتحيل. سوف يُوقفوننا. لقد رأى أني متزوج في أوراقي و،

نظريًّا، يُمكن أن يتهموني بالزنى ويُعاقبوني بسبب ذلك».

«هـذا ليس صحيحاً! إنك تحتاج إلى خيط كي تُثبت الزنى! بزرگان نفسه قال لي ذلك! قُلْ له!»

«لـن يجدي الأمر نفعـاً. لكن، ربما، يوجد سبيـل للخروج من هذه الورطة».

«سبيل للخروج من الورطة؟ كيف؟»

«زواج مؤقـت، فـوري. أنـتِ غير متزوجـة وأنا، بوصفي مسـلماً، باستطاعتي أن أتزوج أربع نساء».

نظرتُ إلى ساعة معصمي. كان الوقت الثانية وأربعين دقيقة تقريباً، وسيسـتغرق الأمـر خمس عشرة دقيقة في الأقل كـي نصل إلى مقر إقامة خمينـي. هـذا من دون نقـاط التفتيش. أخبرني سلامي حـين كان يفتش عن العمدة.

«كم يستغرق الأمر كي نُجري هذا الزواج المؤقت، الفوري؟»

«دقيقة واحدة. كلّ ما يتعين علينا هو أن نوقع أمام شاهدين».

«حسناً، دعنا نتزوج، من أجل يسوع المسيح! دعنا نذهب!»

تحدثـا بليونـة بينهـما، سـارا مُبتعدَين قليـلاً، وراحا يومئـان بفرح، وبعدهـا قفـلا راجعين، وهما يحمـلان سجلًّا بالفارسيـة، ومعهما رجل ضئيل البنية خائف. وقَّعنا نحن الأربعة، واقفين هناك، اسمي مكتوب بجـلاء جنباً إلى جنب مع تلك الكلـمات الهيروغليفية الغامضة، ودفعنا

ثمن المضايقة. وفي الختام، جمعتُ قميصي القطني وسروالي الجينز، ثبّتُ العباءة، التي ما فتئت تنزلق من على شالي الحرير، وها أنا: متزوجة ومُغلّفة مثل مومياء سوداء، متجهة نحو الذي لا يستقبل الأشخاص النجسين. كان أصيلاً مُشمساً وكان ثقل الخِرَق التي أحملها مُرهِقاً حاله حال التفكير في توقيعي الواضح في ذلك السجل. كنتُ أتصبب عرقاً، ولم أكن حتى أفكر في الأسئلة التي أهمّ بطرحها على الطاغية: ما فعلتُه الآن توًّا كان مُزعجاً أكثر بكثير. ماذا يعني «الزواج المؤقت»، على وجه الدقة؟ هل هو عقد يكون شرعيًّا مدة أسبوع، شهر، عام لا غير؟ كم تبلغ قيمته في ظل القانون الإيراني؟ وفي ظل القانون الإيطالي؟ هل يوجد هنالك أيّ نوع من الاتفاق بين البلدين فيما يتعلّق بقضايا الزواج؟ لمّا أرجع إلى طهران ينبغي لي أن أتصل هاتفيًّا بسفارتي وأوضح هذه المسألة. بدت تلك أشبه بمزحة هناك في مبنى البلدية، فيما كنتُ أنظر بنفاد صبر إلى ساعة معصمي، لكن من الجائز ألا تكون مزحة. وإذا لم تكن مُزحة، كيف يتسنى لي أن أخرج من هذا المأزق؟ لن أخرج منه. وجدتُ نفسي مرتبطة، مَن يعرف كم طول المدة الزمنية، بهذا الصبي ذي الشوارب الآشورية البابلية، الذي لم أكن أحبه حتى. أنا، امرأة ترتعش بمجرد أن تفكر في مسألة الزواج. أنا زوجتُه. أنا السيدة سلامي. وزوجته الأولى، السيدة سلامي الحقيقية، كيف سيكون انطباعها؟ إنطباعاً سيئاً، كنتُ متيقنة. عرفتُ أنها إسبانية، والجميع يعرفون أنّ النساء الإسبانيات غيورات. إنهن يطلقن الرصاص، إنهن يطعنَّ بالسكاكين. أوه يا إلهي. سوف ينتهي بي الحال أن تطعنني زوجة

إسبانيـة غيـورة، كـلّ ذلـك لأني أردتُ أن أحاور خمينـي. رائع. عندئذ سيقول قرائـي وقارئاتي: كيف توفيت فالاتشي؟ هل ضربها رذاذ مدفع رشـاش في ڤيتنام، توفيت برصاصة ضالّـة في بنغلاديش، توفيت بقنبلة في بيروت؟ لا، طعنتْها حتى الموتِ زوجةٌ إسبانيةٌ غيورةٌ في طهران.

مـا لم تنخـرط في المسـألة: هـذه الفوضى كلّهـا من الجائـز أن تكون جـزءاً من خطة شـيطانية. دعنا نفترض أنّ سلامي رتبهـا كلّها، خطوة خطـوة، معهـا. دعنا نفـترض أنّ القصة المتعلّقـة بالعبـاءة المفقودة هي كذبة، وكذلك قصـة الصحافيين الراغبين بملاحقتي، ضرورة المغادرة بسروال جينز أزرق. أحقاً أنه لم يكن يعرف، ذلك الأبله، أنّ النسـاء لا يُمكنهنَّ دخول الفنادق في (قُم)، وأنهن حتى لا يسـتطعن الدخول إلى الحـمام؟ أحقاً أنه لم يكن يُخمِّن أن مباني البلديات في كلّ حدب وصوب هـي أمكنة خطـيرة، وأنّ البشر يتزوجون في مبـاني البلديات، وأنّ هذه الأمكنة يجب تحاشـيها؟ بطبيعة الحال كـان يعرف، وفيما هو يعرف هذا اصطنـع بمكر حبكـة جديرة بأجاثا كريسـتي. في حقيقة الأمر، كان قد مكـث في غرفة العـرش معي فيما كنـتُ أتجرّد من ملابـسي. لماذا مكث هناك، حتى لو أنه استدار كي يواجه الجدار؟ كان قد بدا مُحتشماً جداً في السـيارة؛ لماذا فقد حشمته فجأةً؟ لا، كان يُريـد أن يراه المُلائي، المُلائي جـزء مـن اللعبة أيضاً. لكن لمـاذا كان يُريد أن يتزوجنـي؟ ما من رجل مُرهف الإحساس يرغب بأن يفعل شيئاً كهذا، أن يتزوجني. ربما كانت فعلاً محض مصادفة، خدعة من خُدع القدر، خُدعة العباءة. ربما في تلك اللحظة كان المسـكين قلقاً حاله حالي، ربما كان يُفكر في كيفية التوصُّل

إلى إلغـاء الزواج. ماذا يتعين على خمينـي أن يقول فيما يتصل بالإلغاء؟» الزواج لا يُمكن أن يُلغى إلا إذا اكتشف الرجل، بعد المراسم، أنّ المرأة لديهـا أحد العيـوب الآتيـة: الجنون، الجـذام، العمى، مـرض جلدي، عَرَج واضح، أو عيوب جنسـية. كما يُمكـن إبطال الزواج إذا اكتشفت المرأة، بعد المراسم، أنّ الرجل مجنون أو يفتقر إلى عضو تناسلي». طيب، لـن يقـر أنه مجنـون أو يفتقر إلى عضو تناسـلي، وأنا لا أملـك الجذام أو عيوباً جنسـية أو مرضاً جلديًّا. وأنا حتى لسـتُ عمياء. إنما باستطاعتي أن أقـر أني مجنونة قليـلاً وعرجاء قليلاً. كانت قـد ضربتني رصاصة في رِجلي بالمكسيك، ولمّا تمطر السماء أعرج. على أية حال، ينبغي لي أن أقرأ (الكتـاب الأزرق) مجدداً، الذي يحتوي على فصل شـامل نسـبيًّا في هذا الموضوع و...

«نحن ندخل منطقة الإمام»، قال سلامي. وفيما هو يركن السـيارة، نسـيتُ حالاً ما يتعلّـق بالفوضى التي خبرتُها. أمامـي كان هنالك شيءٌ مـروِّع أكثـر من زواج مؤقت غـير مرغوب فيه. كـان هنالك حشدٌ من المتعصبـين الزاعقين جعلوا من الرعاع عند بوابات المدينة يبدون أشـبه بتجمـع صغير. كان كلّ واحد منهم يدفع الآخر، يصيحون، كلّ واحد منهـم يدوس على الآخر، كلّ واحد منهم يخنق الآخر. أما النسـاء فكنّ أسوأ الجميع طـرًّا: كان عددهن أكثر بكثير من الرجال، وكنّ شرسات أكثر بكثير. إحدى النساء فقدت وعيها في هذيانها، وحالما فقدت وعيها مرروها فوق رؤوس الحشد مثل شيء انتهت صلاحية استعماله. رموها على شاحنة حيث رشها رجال الـپاسدران بخراطيم البوليس.

«مَن هم كلّ هؤلاء القوم الزاعقين؟»

«إنهم حجاج من القوافل [1]. إنهم لا يزعقون، إنهم يصلّون».

«هل هم موجودون هنا دوماً؟»

«دوماً. حتى في أثناء الليل. إنهم يجلسون طوال ساعات الليل على الأرض، ينتظرون».

«ينتظرون ماذا؟»

«ينتظرون الإمام كي يصعد على السطح ويُباركهم».

«وعلينا أن نجتاز هذا الكابوس؟»

«نعم، هيا».

رمينا أنفسنا في داخل الحشد، وكان شيئاً مروِّعاً. الجماهير دفعونا للوراء، ضربونا، منعونا من الوصول إلى أول نقطة تفتيش، النقطة التي كانت تتحكم بطريق الدخول الرئيس. ولمّا وصلناه، فقدتُ عباءتي مرتين، حذائي ثلاث مرات، حقيبتي اليدوية ومسجلتي مرة واحدة وحين وصلنا إلى هناك رجال الپاسدران لم يكونوا يرغبون بالسماح لنا بالمرور. احتج سلامي بلا جدوى قائلاً إن الإمام ينتظرنا، وتوسل إليهم أن يتأكدوا من الأمر في أجهزتهم اللاسلكية. استغرق التوكيد وقتاً طويلاً حتى يأتي، لكننا أخيراً كنا نمشي نحو نقطة التفتيش الثانية،

(1) القوافل caravans: هذه القوافل تُسمى «حملات» بالدارجة العراقية. وهي تضم الحجاج الذاهبين لزيارة الأضرحة المقدسة – م.

ولا نـزال نُـضرَب ونُركَـل ونُدفَـع. كـان رجـال الـپاسـدران في نقطة التفتيـش الثانية أكثـر عدوانية مـن المجموعة الأولى، وعلينـا أن نجتاز الـشيء ذاته مجدداً كـي نصل إلى الثالثة والأخيرة، حيث يجب أن نُفَتَّش. كان ارتباكهم في مسـألة الضرب الخفيف على جسم امرأة ارتباكاً بالغاً، بـما أنه بحسـب القـرآن، المـرأة ينبغي ألا تُمَـس. تلا ذلـك تشوش كبير فيـما يتعلّق بمسـألة ماذا يفعلـون، وفي الختام قـرروا أن يأخذوا كلمتي باعتبارهـا كلمة صادقة. فُتحت البوابـة الثالثة على زقاق ذي دجاجات تُصـدر صريراً وبنايتين بائسـتين من طابق واحد، مكسـوتين بالكلس. منـزل خميني في جهة اليمين، ومكتبه في جهة اليسـار. هنا، المكان يغص بالحرّاس، إنهم موجودون هنا وهناك، من السطح إلى الشرفة المكشوفة، جنبـاً إلى جنـب، مثـل فيلم من أفـلام پانشو ڤيلـلا [1]. كانوا مُسـلّحين بالبنادق، المسـدسات، المدافع الرشاشـة، وهـم يلاحقونك وأصابعهم على الزناد، من دون أن يفقدوا تركيزهم لحظة واحدة. أيّ إيماءة مباغتة، أيّ حركـة زائفـة، وإذا بهـم يُفرّغون أطناناً من الرصاص في جسـمك. مسـتحمةً بالعرق ومتأوهة من الضربات التي تلقيتُها، تقلّصت العباءة إلى فضلـة مُغبرة، راقبتهم بذهول: هل يوجد حقاً خطرٌ كبير من أن يتم اغتيال الإمام المحبوب جداً؟

«أعـداء الثـورة ينتـشرون في كلّ حـدب وصوب»، ترنَّـم سلامي، وهـو يركل دجاجة كانت تنقر حول قدميه. دفعني صوب المبنى الواقع

(1) پانشو ڤيللا Pancho Villa (1878 – 1923): جنرال ثوري مكسيكي وأحد أبرز الشخصيات في «الثورة المكسيكية»– م.

في ناحيـة اليمين كـي أدق على باب مُغلق بإحكـام. كان هنالك صوت سلسـلة ثقيلة وهي تُرفع، وتأرجح الباب وفُتِح. وجدنا أنفسـنا في فناء يعـج بالعمائـم والثياب الطويلة (الجلابيب)، ومن ثم وجدنا أنفسـنا في حجـرة كبـيرة حيث كـان هنالك مُلائيـون آخرون يجلسـون القرفصاء على حصران يحتسـون الشاي في سكون يشبه سكون الكنيسـة. من بين المُلائيين كان هنالك رجل ضئيل البدن ذو نظارات بلباس مدني. كانت سترتـه المجعدة مفتوحة عـلى قميص، لكن من دون ربطـة عنق، وكان ذراعـاه يطوّقـان ركبتيه، متكـوّراً على نفسـه، بدا أشـبه براهبة محتشمة تحـاول أن تحمـي نفسـها من جماعة مـن المُغرين. لم تكن لـديّ فكرة مَن يكون هذا الرجل، أو لماذا كان حاضراً هناك.

«إنـه بني صدر. أتى كـي يأخذكِ إلى الإمام ويقـوم بدور المترجم»، همس سلامي قائلاً. «وجِّهي الشكر إليه. إنه يتكلّم الفرنسية».

وكوني حذرة من تعكير السـكون الشبيه بسـكون الكنيسـة، دنوتُ من مُحسِني، الذي رفع وجهه الطويل، المليء بالكآبة، وبنحو غير متوقَّع نشّطه زوجٌ من شوارب شارلي شابلن. قدّمتُ نفسي ومددتُ يدي.

«مرحباً...» أجاب، بصوت بدا أشبه باللوم، متظاهراً بأنه لم يرَ يدي.

جلسـتُ لصقه وعبّرتُ عن امتناني للموعـد ولحضوره غير المتوقَّع في (قُم).

«لا بأس»، قال بالصوت الحزين ذاته.

شرحتُ له كم أنا مُبجلة أنه سيقوم بدور مترجمي.

«كيف الحال، هذا لا بأس به»، قال بالصوت ذاته.

حاولتُ أن أبدأ حواراً أطول، واصفة المصاعب التي واجهناها فيما نحن نجتاز نقاط التفتيش والحشد. هل خَبَرَ هو الشيء نفسه؟

«الهليكوبتر!» تأوه، ممتعضاً تقريباً من الفكرة التي مفادها أنني يُمكن أن أتخيّله في موقف غير مُحتشم كهذا: ألم أكن أعرف أنّ الأشخاص المهمين يسافرون بواسطة الهليكوبتر؟ انطوى على نفسه من جديد، كما لو أنه ينفث تلك الكلمات القليلة التي تتطلّب جهداً جباراً. خيّم السكون من جديد، إلى أن سُمع خلطٌ كبير، وأتى رجلٌ رياضي، في مقتبل العمر، جلبابه، جلباب رجل دين يُغطي عنقاً غليظاً وكتفيْ لاعب (رگبي)، أتى يتدحرج على صندلين قذرين كقدميه.

«هذا أحمد، نجل الإمام»، غمغم سلامي بانصياع خادم يُقدّم نفسه في محكمة، يوشك أن يُغمى عليه من الشرف.

«مساء الخير. الآن الإمام يستقبلكم أنتم الثلاثة. ساعة واحدة، لا أكثر»، قال أحمد بإنكليزية رهيبة. عدنا واجتزنا الفناء والباب الأمامي ورجعنا إلى داخل الزقاق ذي الدجاج. وفيما كانت الدجاجات عند كعوب أقدامنا ولجنا المبنى الواقع في جهة الشمال، ومن ثم تركونا في رواق قذر كان فيه، على أية حال، مصطبة. هنا انتظرنا، وحدنا، على مدى ردحٍ طويل من الزمن: أصبحتُ مُتعبة أكثر فأكثر، سلامي أمسى فرحاً أكثر فأكثر، وبني صدر أضحى مُنغلَقاً أكثر فأكثر في صمته. وفي الختام عاود أحمد الظهور، جعلنا نخلع أحذيتنا، وأرشدنا إلى غرفة

صغيرة قبيحة من دون أثاث، تغص بالرجال الملتحين. في الغرفة الصغيرة القبيحة، جلس ورِجلاه معقودتان على سجادة باللونين الأزرق والأبيض، عديم الحراك كالتمثال ويغطيه جلباب طويل صوف بُني اللون، رئيس إيران، القائد العظيم للإسلام. فضيلة روح الله خميني الأقدس والأكثر تبجيلاً.

***

كان رجلاً طاعناً في السن. بدا بعيداً جداً وراء كبريائه، شديد التأثر، ومع ذلك كان وقوراً جداً، بحيث أنكَ تبدأ بالشك أنّ سنه لا يتجاوز الثمانين عاماً وهو رقم، على أية حال، مجرّد تخمين، بما أنه هو نفسه لا يعرف تاريخ ولادته. كما كان أيضاً مُسنًّا وسيماً للغاية لم يسبق لي أن قابلتُ مثيلاً له. وجه عميق، منحوت، بتجاعيد عميقة، مُحزِزة تقطع وجهه، جبين عالٍ وأنف بارز، شفتان حسيتان وواجمتان في آن، فم رجل عانى كثيراً جداً كي يكبت إغراءات الجسد أو ربما لم يكبتها على الإطلاق. لحية بيضاء، كثة، شبيهة بلحية مُسن في إحدى لوحات ميخائيل أنجلو؛ حاجبان مقطوعان، رخاميان تجعلانك تنظر بقلق إلى العينين الواقعتين أسفل منهما. لم يكن باستطاعتي رؤية عينيه، في حقيقة الأمر، لأنه كان يُبقي أجفانه نصف مُغمضة، ونظرته ثابتة بعناد على السجادة، كما لو أنه يحاول أن يجعلني أعرف أنني لا أستحق اهتمامه. أو أنّ اهتمامه بي يُضايق كبرياءه، كرامته نوعاً ما. كان ينزُّ كرامةً، هذا الكم الكبير شيءٌ مؤكد. لا يسعكَ أن تتخيّله في ملابسه الداخلية، من المستحيل أن تعزو أيًّا من الحقارة الخاصة بالطغاة إليه. بدلاً من الحقارة،

تلاحظ حزنـاً مُبهَماً، سخطاً غامضاً استنزفه كـما لو أنه أحد الأمراض. وحـين تنتبـه إلى ذلك، سـوف تُصدَم لـدى معرفتـكَ الأحاسيس التي تشعر بها وأنت تلاحظه تُلهم: احتراماً لا يُمكن نكرانه، رقةً عصبيَّةً على التفسـير، تجريـداً صارخاً يجعلـك تشعر بعار حقيقـي. أحقاً هو مؤلف (الكتـاب الأزرق)؟ هـل هو فعلاً الرجل الـذي رمى الجميع في خضم كارثـة، الرجـل الذي ارتكب أعمالاً شـائنة كثيرة جـداً، أفعالاً مُخزية لا تُعَـد ولا تُحـصى؟ نعـم، وصليتُ كي لا أنسـى هذا الأمـر. صليتُ كي لا أدع هيبتَـه المُبهَمـة تصرف انتباهـي، أو أن يغويني سحرُه، سحر أب كبير السـن. وفيما كان بني صدر جالسـاً بجـواره، واستقر سلامي على بُعد مسافة مُحترمة، واجهتُ عدوي: أنا مستعدة للهجوم، أتجاهل الجُبن الذي يوشك أن يضايق الشطر الأول من مشروعي.

«إمام خميني، البلاد بأسرها في يديك. كلّ قرار هو قرارك، أمُنياتكَ تَحكُم. وأشـخاص كثـيرون يقولون إنـه لا توجد حرية في إيـران، وإنّ الثورة لم تجلب لهم الحرية، بل على العكس، الثورة قتلت الحرية».

ظلّ بأجفانه نصف المغمَضة، وبصوت ضعيف جداً بدا أشبه بصدى همس، قدَّم جواباً ترجمه بني صدر بنوعٍ غريب من الحيرة والارتباك.

«نحـن نعرف عملكِ واسمكِ. نحن نعرف أنكِ سافرتِ إلى بلدان كثـيرة، أنكِ رأيتِ حرباً واستجوبتِ رجالاً أقوياء. وبناءً على هذا نحن نشكـركِ على الشرف الذي أَسبغتِه علينـا؛ نحن نشكركِ على مواساتكِ لمناسبة فقدان آية الله طالقاني».

هـل كان يسـخر منـي، أو أنّ بني صـدر لم يترجم سـؤالي؟ التفتُ، مرتبكـة، إلى سلامي. هزّ الأخير رأسه قليلاً كي يجعلني أفهم أنّ سؤالي لم يُترجَم.

«أنتَ تترجم سؤالي!»

وفعل، مع أن طرح السؤال جعل الألوان كلّها تنسحب من وجهه. غير أنّ تلـك الأجفان ظلّت نصف مُغمَضة، تلامذته غير المرئيين ظلّوا مسـجونين على السـجادة، ولم يمرَّ حتى ظِـلٌّ عاطفة على ذلك الصوت الضعيف الذي كان يوزع بحذر كلّ كلمة من الكلمات.

«إيـران ليسـت في يديّ. إيـران في أيدي الشعـب. لأنّ الشعب هو الـذي ائتمـن بلاده لدى شـخصٍ يُريد الأفضل له. لقد شـاهدتِ، بعد مـوت آية الله طالقاني، هـرع الناس إلى الشوارع بالملايـين، من دون أن يتعرّضـوا للتهديـد. وهذا يعني أنه توجد حرية في إيـران، وأنّ الشعب يتبع رجال الله. وهذا رمزٌ للحرية».

حسـناً، كـان خميني يعرف كيف يدافع عن نفسـه. وحتـى إنه أبطلَ أيّ استفزازات مُحتملة فيما يتصل بطبيعة موت طالقاني بأن طرحه أولاً، كي لا أتمكن من استعماله (أي الموت) كي أخضّه. ألقيتُ نظرة على بني صـدر، محذّرةً إياه مـن أن يتلاعب بالألفاظ، ويمارس مزيداً من الخُدع، وتابعت حديثي.

«لا، إمـام خمينـي. ربـما لم أفسر كلامـي جداً. أرجـوك سامحني على إلحاحـي: كنتُ أريد القول إن أناساً كثيرين، في داخل إيران وخارجها،

يعتقدون أنك دكتاتور. أو الأفضل، الدكتاتور الجديد، الطاغية الجديد، شاه إيران الجديد».

لكن من الجواب الذي تلقيتُه من بني صدر، بدا واضحاً مرةً أخرى أنـه ابتكر سـؤالاً تافهاً. بدا واضحاً أنّ هذا هو السـبب الذي دفعه لأن يـأتي إلى (قُـم)، السـبب الـذي جعله يختار نفسـه مترجماً. كـي يتلاعب بالحوار وكي يتدبَّر أيّ خطورة.

«نعـم، إن هزيمـة الطاغية هي التي أحضرتنـا إلى عصر غنيّ بالقيم والمبادئ الأخلاقية. نحن نُثمِّن تثميناً عالياً سؤالكِ الثاني، و...»

«قف!» أَسكتُّ بني صدر والتفتُّ من جديد إلى سلامي، الذي أكد التضليـل بإيماءة رأس خفيفة. وهكذا جثوتُ أمام خميني، ساعيةً إلى أن أجعله يفهمني بلغةٍ أخرى غير الفارسية.

«لا، إمام، لا! السيد بني صدر لا يُترجم أسئلتي. أنا لا أحب هذا. إنـه لا يترجم ما أقـول. أتفهم؟ أقول إنـك اليوم الدكتاتـور، الطاغية، الشاه. أنتَ. أتفهم؟»

لقـد فهـم، أو في الأقل حـدس. في الواقـع، ارتفعـت أجفانه بغتة، وبضربة برق حادة مثل نصل سكين رأيتُ أخيراً عينيه: عينان ذكيتان إلى حدّ كبير، قاسيتان، مُخيفتان. إلا أنها كانت محض لحظة، وقد انصرمت: عـادت عينـاه إلى تركيزهما على السـجادة. ومـن دون أن يكسر نظرته، همس شـيئاً ما إلى بني صدر، لا بدَّ أنه كان شيئاً مُرعِباً، لأن ذلك الوجه الكئيـب قد انقلـبَ رماديًّا، شـاربه بدا كأنه يرتعـش في رعب، وبدأت

جداول العرق تسيل على صدغيه، خديه، وعنقه. ومن ثم يد خميني شديدة الشبه بيدٍ رسمها ميخائيل أنجلو مثل تلك اللحية ارتفعت بازدراء كي تُشير إلى أنّ بني صدر قد أُعفي من واجباته، وأمرت سبابة متغطرسة سلامي كي يأتي إلى جانبه. مرتعشاً من العاطفة، جلس سلامي إلى يمينه.

«لا تخف، ترجم ما قلتُه. واسأله ما إذا يسبّب له سؤالي الألم أو يجعله غير مكترث»، شجّعتُه. بدأ سلامي بجرأة يترجم ما أقوله؛ وظل خميني هادئاً، عديم الإحساس.

«إنه يورثني بعض الألم، نعم، لأنّ إطلاق اسم دكتاتور عليَّ هو شيء غير عادل ولا إنساني. على كلِّ حال، أنا لا أبالي البتة، لأني أعرف كيف أنّ الحقد هو جزء من الشخصية الإنسانية، وأيّ قدر منه يأتي من الأعداء. إن الطريق الذي نسلكه هو طريق مُعاكس لمصالح القوى العظمى، وإنه من المتوقَّع أن خَدَم الأجانب سوف يحاولون أن يلدغوني بسُمِّهم ويرمون عليَّ شتى ضروب الافتراءات. لا، أنا لا أخدع نفسي بأنّ البلدان التي تعوّدت أن تنهبنا وتلتهمنا سوف تبقى هادئة ومطمئنة. أوه، مُرتزقة الشاه يقولون أشياءَ كثيرة جداً: حتى أنّ خميني أمر بقطع أثداء النساء. أخبريني، هل يبدو شيئاً مُحتَملاً لكِ أنّ خميني ارتكب فظاعة من هذا النوع، بأنه قطع أثداء النساء؟»

«لا، ليس مُحتَملاً. وأنا لم أتهمكَ بقطع أثداء النساء. غير أنكَ رجلٌ مُخيف، حتى إذا لم تشوّه أجساد النساء. نظامكَ يعيش على الخوف. إنهم خائفون ويجعلون سائر الناس خائفين. حتى هذا الجمهور الذي يُردد

اسمك هو جمهور خائف. هل تسمعه؟»

من النافذة وراء كتفيه، كان ضجيج الحشد المُزعج في الأسفل، يُحرّض بين العقبتين الأولى والثانية. «زنده باد، إمام! پاينده باد!» كان الضجيج مرتفعاً جداً، بحيث كان يحجب أصواتنا في كثير من الأحيان.

«بالطبع أسمعه. وحتى إني أسمعه ليلاً».

«وماذا تشعر حين تسمعهم يصرخون هكذا، حتى أثناء الليل؟ ما هو شعورك إذا ما عرفتَ أنهم مستعدون لأن يقتلوا أنفسهم لمجرّد أن يروك لحظة واحدة ليس إلا؟»

«إنني استمتع بهذا. من المستحيل ألا أستمتع. نعم، إنني أستمتع لّما أسمعهم ولّما أراهم. لأن هتافاتهم هي الهتافات ذاتها التي طردت مُغتصب العرش، لأنهم هم الذين طردوه، ولأنه شيءٌ جيد أنهم يستمرون في الغليان بهذه الطريقة. إلى أن يُقهَر أعداؤنا الداخليُّون والخارجيُّون، إلى أن يروي الشعب عطشه، يجب أن يغلي. ينبغي أن يكون أبناء الشعب جاهزين للمسيرة إذا دعت الضرورة. وبالطبع، ما يشجعهم هو المحبة».

«المحبة أو الفاشية، إمام؟ إنها تبدو لي كالتعصب، محبة من النوع الخطير جداً: النوع الفاشي. هل بوسع أيّ شخص أن يُنكر أنّ ثمةً تهديداً حقيقيًّا للفاشية في إيران اليوم؟ من الجائز أنّ الفاشية قد تأسست فعلاً؟»

«لا، الفاشية لا صلةَ لها بذلك. التعصب لا صلةَ له بذلك. إني أكرر أنهـم يهتفون لأنهم يُحبونني. وهم يُحبونني لأنه باستطاعتهم أن يشعروا أني أُريـد مـا هو أفضل لهم، وأني أعمل في صالحهـم، وأني أطبِّق وصايا الإسـلام. الإسلام هـو العدالة، وفي الإسـلام الدكتاتوريـة هي أخطر الآثـام، ومـن هنا فإن الفاشـية والديانة الإسلامية شـيئان متناقضان لا يقبلان المصالحة».

«ربما نحن لسـنا واضحين فيما يتعلّق بمعنى كلمة (الفاشية)، إمام. إني أتحـدّث عـن الفاشـية باعتبارهـا ظاهرة رائجـة، على سبيـل المثال، الفاشـية التي خبرتها إيطاليـا في ظل حُكم موسولينـي. الحشود تُصفق لموسولينـي بالطريقة التي يُصفقون بها إليـكَ الآن. كانوا يُطيعونه مثلما يُطيعونك الآن».

«لا، ذلك النوع من الفاشية شائع في العالم (الغربي)، إنما ليس شائعاً بين الشعوب المسـلمة. جماهيرنـا هي جماهير مُسـلمة، تربَّت على أيدي رجال الدين، على أيـدي رجال يُبشِّرون بالروحانية والطيبة. وبناءً على ذلك، هذا النوع من الفاشـية سيكون مُمكنـا فقط إذا رجع الشاه، أو إذا مـا وصلت الشيوعيـة. إن الهتاف باسمي لا يجعلهم فاشـيين، إنه يعني أنهم يُحبون الحرية».

الآن وقـد وصلتـه أسئلتي، بات الهجـوم سهلاً. إلا أنـه يدافع عن نفسـه بسـهولة أكثر مع كلِّ سـؤال جديد، بثقة بالنفـس لدى بطل قادر على تجنّب كلّ ضربة غير متوقَّعة وغير عادلة، مقاومة ملاكم لا ينحني، حتـى بعـد أن يُضرب بشـدة على أحشائه. فعـل هذا مسـتعملاً تقنيتين

نادرتـين: رباطة الجأش والإخلاص. بعـد أن هزّني بنظرة البرق تلك لم يرفع عينيه من جديد، لم يكسر تركيزه على السـجادة، لم يُحرّك إصبعاً أو عضلـة، لم يُغيّر نـبرة صوته الضعيف، وهـو يردُّ على كلّ اتهـام وإهانة. كنـتُ عاجـزة عن كـسر رباطة جأشـه. كنـتُ عاجزة، لأنـه، وهي ذي المسـألة: كان يؤمن فعلاً بما يقوله. بما أنه يؤمن به، لم تكن به حاجةٌ لأن يلجـأ إلى المراوغات والأكاذيب التي يسـتعملها دوماً الرجال الذين في السـلطة حتى يدافعوا عن أنفسـهم. كما لو أنّ هذا غير كافٍ، كان يُحب أن يتجادل مع هذه الأجنبية التي سافرت إلى بلدان كثيرة وقابلت أناساً كثيرين، لكنهـا الآن عند قدميه، غارقة في أرطال من الخِرق التي كانت غريبـة بالنسـبة لهـا. هجومـي جلب له سعـادة سريَّة. سلامـي لم يشعر بسـعادة كهذه. ما أن أسأل شـيئاً مـا كان يرمي نظـرةً مخنوقة في اتجاهي ويترجـم وقلبه في حنجرته. بقدر تعلّق الأمر ببني صدر المسـكين، ظلّ مشلولاً في الموضع نفسه الذي كان فيه لحظةَ صرفه؛ كان لا يزال ينضح عرقاً.

«دعنـا نتكلّـم عـن الحرية إذاً، إمـام خميني. في واحد مـن أحاديثك الأولى قلـتَ إن الحكومـة الجديـدة سـوف تكفل حرية الفكـر والتعبير عـن الرأي. هـذا الوَعد لم يتم الحفاظ عليـه، وإذا خالف امرؤ وصاياك تلعنه وتعاقبه. على سبيل المثال، إنكَ تسـمي الشيوعيين (أبناء إبليس)، وتُسمي الأقلية الكوردية (شرٌّ على الأرض)...»

«في البداية تُدلين بتأكيدات معينة وبعدها تتوقَّعين مني أن أشرحها لـكِ. حتـى إنـكِ تتوقعين منـي أن أعـترف بمؤامـرات أولئـك الذين

يُريدون أن يُفسدوا البلاد. حرية الفكر والتعبير عن الرأي لا تعني حرية التآمر والفساد. طوال مدة تزيد على خمسة أشهر سامحتُ أولئك الذين يفكرون بطريقة مختلفة عن طريقتنا، وكانوا أحراراً في أن يفعلوا ما يحلو لهم، ضمن حدود ما أسمح به. مع بني صدر الحاضر هنا دعوتُ الشيوعيين كي يأتوا ويتحدّثوا معنا. وردًّا على ذلك أحرقوا حصاد الحبوب، أضرموا النار في صناديق الاقتراع السرّي، كان رد فعلهم بالأسلحة والبنادق، لقد نبشوا القضية الكوردية. لذا، حين أدركنا أنهم كانوا يغتنمون تسامحنا كي يدمرونا، حين اكتشفنا أنهم اشتاقوا للشاه، وأنّهم كانوا يستقون إلهامهم من النظام البائد والقوى الأجنبية التي ترغب في تحطمينا، أجل، لقد جعلناهم يسكتون».

«إمام خميني، كيف يُمكنكَ أن تقول إنهم اشتاقوا للشاه عندما قاتلوه بأنفسهم، عندما كان يضايقهم ويعتقلهم ويعذبهم، عندما ساعدوا في الإطاحة به؟ هل أنّ الأحياء والأموات في جناح اليسار لا قيمةَ لهم؟»

بني صدر بدأ يتحرك، وأخيراً خرج من حالته المتخشبة. خلع سترته كي يكشف قميصه الذي كان مبلَّلاً جداً بالعرق، كما لو أنه أُغطس توًّا في دلو ماء. أما خميني، من الناحية الأخرى، فلم تطرف له عين.

«هم لا قيمةَ لهم، لأنهم لم يشتركوا في شيء، لم يخدموا الحلّ بأيّ طريقة من الطرق. لم يحاربوا أو يُعانوا، بالأحرى إنهم قاتلوا من أجل مُثُلهم العليا ومُثُلهم العليا فقط، أهدافهم وأهدافهم فقط، مصالحهم ومصالحهم فقط. لم يُبالوا بنصرنا، لم تكن لديهم صلة بالحركة الإسلامية، لم يكن لهم تأثير بأيّ حال من الأحوال. على العكس، لقد شوّهوا

الأعمال. كانوا بكلّ معنى الكلمة ضدنا إبَّان نظام الشاه مثلما هم عليه الآن، إنهم يكرهوننا أكثر مما يكرهون الشاه. إنها ليست مصادفة أنّ تأتي المؤامرة الحالية منهم. من وجهة نظري، إنهم حتى ليسوا يساريين حقيقيين، بل يساريون مُصطنعون، أنجبهم وربّاهم الأمريكيون كي يشوّهوا سمعتنا ويحطمونا».

«بكلمات أخرى، حين تتحدّث عن الشعب، إنك تُشير فقط إلى أولئك المخلصين إليك. في رأيكَ، هؤلاء القوم قتلوا أنفسهم من أجل الإسلام، وليس من أجل الحرية؟»

«من أجل الإسلام. الشعب يقاتل من أجل الإسلام. والإسلام يعني كلّ شيء، حتى الأشياء التي، في عالمكِ، تُسمى الحرية والديمقراطية. نعم، الإسلام يحتوي على كلِّ شيء، الإسلام يطوّق كلَّ شيء، الإسلام هو كلُّ شيء».

«أنا لا أفهم. من فضلكَ ساعدني كي أفهم. ماذا تقصد بالحرية؟»

«الحرية... ليس من السهل أن نعرّف هذا المفهوم. دعينا نقُل إن الحرية هي أن تكوني قادرة على أن تختاري أفكاركِ وأن تفكري كيفما تختارين، من دون أن تكوني مُجبرة على أن تفكري بطريقة أخرى... وأن تقيمي حيثما تُريدين... وأن تؤدي الوظيفة التي تُريدينها...»

حسناً، بدأ الإمام يتلعثم؛ بجهد صغير ربما سيكون بالمستطاع أن أضربه على فكِّه.

«أن أسكن حيثما أشاء وأن أؤدي الوظيفة التي أُريدها، ولا شيءَ

آخـر. أن تؤمن بما تشاء إنما لا تُعبّر أو تُجسِّـد ما تؤمـن به. الآن أنا أفهم بنحو أحسـن، إمام. وماذا تعنـي بالديمقراطية؟ لأنه، إن لم أكن مُخطئة، حـين دعـوتَ للاستفتـاء عـلى الجمهوريـة، منعـتَ تعبـير (الجمهورية الإسلامية الديمقراطية). شطبتَ صفة (الديمقراطية)، قلّصت التعبير إلى (الجمهورية الإسلامية) وقلتَ [لا كلمة أكثر، ولا كلمة أقل]».

استفاق حالاً.

«بـادئ ذي بدء، كلمـة الإسلام لا تحتاج إلى صفات. كما شرحتُ تـوًّا، الإسلام هو كـلُّ شيء: إنه يعني كلَّ شيء. بالنسـبة إلينا، إنه لمن المُحزن أن نضع كلمة أخرى بجوار كلمة (إسلام)، وهي كلمة كاملة ومثاليـة. إذا كنـا نريـد الإسلام، لماذا نحتـاج إلى أن نضيـف أننا نُريد الديمقراطيـة؟ سيكـون ذلك أشـبه بالقول إننا نُريـد الإسلام إلا أننا نُريـد أن نؤمن بالله. وكذلك، هـذه الديمقراطية التي هي عزيزة جداً عليك وثمينة جداً بالنسبة لك لا معنى دقيقاً لها. إن ديمقراطية أرسطو شيء، ديمقراطية السـوڤييت شيءٌ آخـر، ديمقراطية الرأسماليين شيء آخـر أيضـاً. ونتيجة لذلـك، لا يُمكننا أن نسـمح لأنفسـنا أن نُدخل مفهومـاً مُلتبسـاً كهـذا في دستورنـا. وبعدها، لّمـا أقـول ديمقراطية، أعنـي مـا عناه عليٌّ. لّمـا أصبح عليٌّ الخليفـة بعد النبي ورئيسـاً للدولة الإسلاميـة، حين امتـدَّ حُكمه من العربية السـعودية إلى مصر، وضمَّ جـزءاً كبيراً من آسيا وكذلك أوروبا، تحالف أو اتحاد كونفدرالي بكلّ أنواع السـلطات، كان لديه خصام مع رجـل يهودي. وكان اليهودي قـد دعاه للمثول أمام أحـد القضاة. تقبل عليٌّ دعوة القاضي، ووصل

إلى مكتب القاضي الخاص. ولمّا رآه القاضي يدخل هبّ واقفاً، وخاطبه عليٌّ قائلاً بغضب: [لماذا تقف حين أدخل، لكنكَ عندما دخل اليهودي بقيتَ جالساً؟ كلا الطرفين يجب أن يُعاملا بمساواة أمام القاضي]. ومن ثم انصاع للعقوبة، التي كانت ضده. سأسألكِ، بما إنكِ سافرتِ شرقاً وغرباً نحو بلدان كثيرة وقابلتِ أناساً كثيرين: هل باستطاعتكِ أن تُعطيني مثالاً أفضل للديمقراطية؟»

«أجل. ديمقراطية تسمح بشيء أكثر من السكن حيث تشاء، وأن تؤدي المهنة التي ترغب بها، والإيمان بما تشاء من دون أن تعبر عن ذلك. حتى الإيرانييون يقولون هذا، لأنهم، مثلنا نحن الأجانب لا يفهمون، إلى أين تتجه (الجمهورية الإسلامية)».

«لئن كان بعض الإيرانيين لا يفهمون، فهذا أسوأ لهم. إنه يعني أنهم لم يفهموا الإسلام. إن لم تفهموا أنتم الأجانب، فلا يهم. على أية حال، الأمر لا صلةَ له بكم. ليس لديكم صلة بخياراتنا».

حمداً لله، بدأ الجو يسخن قليلاً. لذا لم يكن مستحيلاً أن أجعله يخرج عن طوره. كلّ ما ينبغي لي أن أفعله هو أن أُبقي طاقة الملاكم العائدة له في باله. زدتُ من متطلباتي.

«ربما لا صلةَ له بنا، إمام، غير أن الاستبداد الذي يمارسه رجال الدين اليوم له صلة بالشعب الإيراني. و، بما أننا هنا نتكلّم عنهم، هل تفسر لي من فضلك الفكرة القائلة إن رئيس البلاد يجب أن يكون الزعيم الديني الأعلى، بكلمات أخرى، أنت؟ هل بوسعكَ أن تفسر

لي لماذا القرارات السياسية يتخذها فقط أولئك الذين يعرفون القرآن جيداً، بكلمات أخرى رجال الدين؟»

«[المبدأ الخامس] الذي أقرّته [مجموعة الخبراء] خلال إعداد الدستور يقر ما قلتِه لا يُمكن مقارنته مع فكرة الديمقراطية. بما أنّ الشعب يحب رجال الدين، يثق برجال الدين، ويُريد أن يقوده رجال الدين، فمن الصحيح أنّ السلطة الدينية العليا تراقب عمل رئيس الوزراء والرئيس المستقبلي للجمهورية. إذا لم أفرض أنا نفسي هذه السلطة، من الجائز أن يرتكبوا الأخطاء أو يخالفوا القانون، وأن يخالفوا القرآن. أنا نفسي أو مجموعة مُخوّلة من رجال الدين، على سبيل المثال، خمسة حكماء قادرون على إقامة العدل وفقاً للإسلام».

«أوه، نعم؟ دعنا إذاً نتكلّم عن نوع العدل الذي يُقيمه رجال الدين العائدون لك، إمام. دعنا نبدأ بالميتات الخمسمائة التي نفذها فريق الإعدام رمياً بالرصاص، هذه الميتات التي نُفذت خلال الأشهر القليلة الماضية في إيران. قل لي ما إذا توافق على الأسلوب المختصر الذي عُقدت فيه هذه المحاكمات، من دون محامين ومن دون استئناف الدعاوى».

كَبَتَ بني صدر آهةً كانت ستجعل الحجر يشعر بالشفقة. أطلق سلامي تنهيدة بدا أنها تنقل كلَّ نَفَسه إلى الخارج. نظر أحمد إلى ساعة معصمه وبدأ الحراس في الحجرة يغمغمون بطريقة مُهدِّدة. إلا إنّ خميني كان متصلّباً.

«من الواضح أنكم (الغربيين) لا تعون مَن هم هؤلاء الأشخاص، الأشخاص الذين أُطلقت عليهم النار. أو ربما إنكم تتظاهرون بالجهل. كان هؤلاء أشخاصاً اشتركوا في مجازر، أو أشخاصٌ أُمِروا بتنفيذ مجازر. أشخاصٌ أحرقوا المنازل، عذّبوا السجناء، وسموا أذرعهم وأرجلهم، قلّوهم وهم أحياء على شبكات الحديد. هل يتعين علينا أن نصفح عنهم، ربما؟ أن ندعهم وشأنهم؟ وقد سمحنا لهم فعلاً أن يُجيبوا على الاتهامات الموجهة ضدهم، وأن يدافعوا عن أنفسهم، كان باستطاعتهم أن يردّوا بأيّ طريقة يشاءون. ما أن تيقَّنَّا من الإثم الذي اقترفوه، على أية حال، هل كنا نحتاج فعلاً إلى محامين ودعاوى استئناف؟ قد تكتبين ما تشائين، على أية حال: أنتِ المرأة التي تحمل قلم الحبر. اطرحي الأسئلة التي ترغبين في طرحها، لكن فلتعلمي أنّ أبناء شعبي أنفسهم لا يحتاجون لأن يسألوا هذه الأسئلة ذاتها. أُضيف قائلاً، لو أننا لم نأمر بتنفيذ تلك الإعدامات، كان سيظهر أعضاء لجان الأمن الأهلية [1] وسوف يتم خرق عدالة الشارع من دون رقابة. والأموات بدلاً من أن يكونوا خمسمائة، سيكونون بالآلاف».

«وسيكونون، إذا ما واصلتَ هذا النهج، إمام. بصرف النظر عن ذلك، أنا لا أُشير إلى أعمال التعذيب والقتل التي نفذها جهاز (السافاك). أنا أُشير إلى الضحايا الذين لا صلةَ لهم بجرائم النظام السابق. بكلمات أخرى، الأشخاص الذين لا يزالون يُعاقبون اليوم على الزنى أو العُهر

(1) لجان الأمن الأهلية vigilantes: لجان مؤلفة من المواطنين تأخذ على عاتقها مهمة توطيد النظام ومعاقبة المجرمين [بخاصة حين يعجز القانون عن ذلك] – م.

أو المثليـة. في رأيـكَ، هل من العدل أن تطلق الرصـاص على عاهرة أو امرأة خدعت زوجها، أو رجل مُغرَم برجل آخر؟»

«إذا أُصيـب إصبـعٌ بالغنغريـن، مـاذا ينبغـي لنـا أن نفعـل؟ أن نـدع بقيـة اليد ومـن ثم الجسـم كلّـه يُصـاب بالغنغرين أيضـاً، أم نبتر الإصبـع؟ الأشـياء التي ترشـد أشـخاصاً معينـين إلى الفسـاد يجب أن تُجتَـث كالأعشـاب الضـارة في حقل الحبـوب. أعرف، ثمـة مجتمعات تسـمح للنساء أن يستمتعن بصحبة رجال آخرين هم ليسوا أزواجهنَّ، ويسـتمتع رجـال بصحبة رجـال آخرين. غـير أنّ المجتمع الـذي نريد أن نبنيـه لا يسـمح بهذه الأشـياء. من خلال الإسـلام، نُريد أن نؤسس سياسـة مُطهِّـرة. وإلى أن نكون قادريـن على تحقيق هـذا الهدف، يتعين علينا أن نعاقب أولئك الذين يرتكبون الإثم من خلال إفسـاد شـبيبتنا. سواء أنتم (الغربيين) شـئتهم أم أبيتهم، لا يسعنا أن نسمح للأشرار أن ينشروا أساليبهم الشريـرة. وبعدها، ألا تفعلون أنتم (الغربيين) الشيء نفسـه؟ حين يسرق اللص، ألا تودعونه السـجن؟ في بلـدان كثيرة، ألا يُحـضَر القتلـة إلى العدالة ويُعدَمون؟ ألا تفعلون هـذا لأنهم، إذا ما بقوا أحـراراً وأحياءً، سوف ينقلون العـدوى إلى الآخرين ويوسِّعون لطخة خسـتهم؟ أجل، الخسيس يجب أن يُقـضى عليه، أن يُجتَـث حاله حال الأعشاب الضارة».

قـال هذا بهدوئه المألوف. وفيما كـان يتحدّث، دارت ذبابة واتجهت إلى الأسفـل وأتـت لتستقر عـلى يـده الشـمال، وراحـت تحك رأسها وتنهمك في كلّ ضروب الشقلبات والرقصات. إلا أنه لم يقم بأيّ شيء

من مثل إيماءة كي يُحرر نفسه من الحشرة، وحتى أنه سمح لها أن تزحف صاعدة إلى لحيته، حيث شرعت تلعب الآن برضا بين شاربه الأبيض. كانت قد دفعتني إلى الجنون، لأنها شتتت ذهني وأمست رمزاً لعُقمي. هل من الممكن أنه لا يرتبك حتى قيد أنملة، لا يفقد رباطة جأشه على مدى لحظة واحدة ليس إلا؟ كانت علامة التقدّم الوحيدة هي في تنفسه، الذي، من جواب إلى جواب، أصبح ضعيفاً بنحو متزايد، كاشفاً ضعف رجل هرم يحتاج إلى قيلولة بين الحين والآخر. ونتيجةً لذلك، ناهيك عن كونه منزعجاً، كنتُ قلقة أنا أيضاً من أنه يغفو تحت عمامته. يتعين عليّ أن أُوقف ذلك.

«إمام خميني، كيف تجرؤ على أن تضع مواطن يمارس حريته الجنسية في نفس مستوى وحوش (السافاك) أولئك؟ خذ حالة شاب أُعدم بسبب اللواط يوم أمس...»

«فساد، فساد. يجب علينا أن نقضي على الفساد».

«خذ حالة فتاة حامل في ربيعها الثامن عشر أُعدمت بسبب البغاء قبل أسابيع قليلة».

«أكاذيب، أكاذيب. أكاذيب حالها حال النساء اللواتي قُطعت أثداؤهن. في الإسلام هذه الأشياء لا تحدث، نحن لا نطلق الرصاص على النساء الحوامل».

«إنها ليست أكاذيب، إمام. جميع الصحف الإيرانية كتبت عن الفتاة الحامل التي قُتلت بسبب البغاء. كان هنالك جدال على التلفزيون حول

حقيقة أن عشيقها لم يُعاقب إلا بمائة جلدة بالسوط».

«إذا كانوا قد عاقبوه فقط بمائة جلدة بالسوط، إذاً كان يستحق الجلدات بالسوط فقط. إذا كانوا قد عاقبوها بالموت، إذاً هي تستحق الموت. لا أعرف أيّ شيء عن هذه الواقعة. اسألي المحاكم التي أدانتها. ولا تدعينا نتكلّم عن هذا بعد الآن، الحرية الجنسية وهذه الأشياء كلّها. إنها ليست ذات أهمية. هوه! الحرية الجنسية. ماذا يُمكن أن تعني؟ هذه المسألة تُتعبني. كفى!»

هو ذا، هو ذا يحدث. النعاس يداهمه.

«حسناً، دعنا نتكلّم عن الكورد الذين قُتلوا لأنهم يُريدون الحكم الذاتي، إمام. دعنا نتحدّث عن...»

«أولئك الأشخاص الكورد ليسوا الشعب الكوردي. إنهم مُخرّبون يعملون ضد الشعب؛ يوم أمس قتلوا ثلاثة عشر جنديًّا. حين يُلقى القبض عليهم ويُعدمون أشعر بسعادة غامرة. كفى. لا أريد أن أتكلّم عن هذه القضية أيضاً، كفى. أنا مُتعب. أُريد أن أرتاح.

تدخَّل أحمد، بأسلوب وريث للعرش يُلبِّي كلّ احتياجات الملك.

«الإمام قال كفى. الإمام مُتعب ويُريد أن يرتاح. الإمام لا يُريد التحدّث عن هذه الأشياء».

«دعنا نتحدّث عن الشاه، إذاً».

«لا، يجب أن تقولي له مع السلامة وتدعيه يرتاح. انتهت الساعة.

يجب أن تقولي له وداعاً وتذهبي في حال سبيلك».

غير أنّ كلمة «الشاه» وصلت إلى أذنيه المقدستين. وكانت قد أنجزت ما عجزت حتى الذبابة عن إنجازه في لحيته، الذبابة برقصها وشقلباتها. بنحو غير متوقَّع، العمامة الساكنة تحرّكت، والعينان الساكنتان نسيتا السجادة واستدارتا إلى سلامي.

«هل قالت الشاه؟»

«نعم، فضيلتكَ المبجلة المقدّسة».

«ماذا تريد أن تعرف عن الشاه؟»

«سألَ ماذا تُريدين أن تعرفي عن الشاه»، همس سَلامي بتعبير قَلِق.

«هذا فقط، إمام: أحدهم أمر بأن يُقتل الشاه خارج إيران، وأوضح أن القاتل سوف يُعَدّ بطلاً. هذا إذا مات وهو يُنفذ عملية القتل، سوف يذهب إلى الجنة. هل أنتَ مَن أصدر هذا الأمر؟»

«لا. لا أُريده أن يُقتل خارج إيران. أُريد أن يُقبض عليه ويُعاد إلى إيران، وأن يُحاكم جهاراً على الأعوام الخمسين من الجرائم التي ارتكبها ضد الشعب، بما فيها جرائم النهب والخداع. نهب رأس المال. لو مات خارج البلاد، فإن هذا المال سيضيع. لو إننا حاكمناه هنا، باستطاعتنا أن نسترجع المال. لا، أُريده هنا. هنا! أُريده كثيراً جداً، بحيث إنني أُصلّي من أجل صحته، مثلما صلّى آية الله المُدرِّس [1] من أجل صحة

(1) السيد حسن طبطبائي زوارة (1870 – 1937): المعروف باسم (المدرس) من الشخصيات الدينية والسياسية الإيرانية المعروفة، الذي برز دوره منذ أحداث الحركة

پهلوي الآخر ذاك، والد پهلوي الذي فرّ أيضاً، والذي أخذ مبلغاً طائلاً من المال معه، أيضاً. أعرف أنه مريض. أنا متأسف على ذلك لأنه من الجائز أن يموت جرّاء مرضٍ من الأمراض. الويل لنا إذا تُوفي جرّاء أحد الأمراض فيما هو لا يزال خارج البلاد».

«وإذا ما سلّمك المال، هل ستتوقف عن الصلاة من أجل صحته؟»

«إذا أعاد إلينا المال، ذلك الجزء من الحِساب سوف يُحسم. إلا إنّ الخداع الذي مارسه ضد الإسلام وضد بلاده سوف يبقى. مجزرة (الجمعة السوداء) سوف تبقى، المجزرة التي جرت قبل ستة عشر عاماً. لا يُمكن أن نغفر له الأموات الذين تركهم في أعقابه. فقط إذا عاد الأموات إلى الحياة سوف أقنع نفسي باستعادة المال الذي سرقه هو وأفراد أسرته».

«هل تعني القول إن أمر اعتقاله وإعادته إلى إيران يتعلّق أيضاً بأفراد أسرته؟»

«إن أولئك الذين يقترفون الجرائم هم مُذنبون. لو لم يرتكب أفراد أسرته الجرائم، لا أرى أيَّ سبب لأن تتم إدانتهم. إن الانتساب إلى

الدستورية الإيرانية (1905 - 1907)، والحرب العالمية الأولى، فكان عنصراً حيويًّا في مقارعة الاستبداد والظلم في الحقبة التي كان يعاني فيها المجتمع الإيراني من السيطرة الأجنبية. حيث قام بتعضيد ودعم حركات المقاومة المسلحة خلال تلك السنوات، وكان من المعارضين الأشداء لسياسة الحكومات الإيرانية. وقد استكمل دوره ذلك حتى بعد انحلال الأسرة القاجارية وتولي رضا شاه بهلوي سدة الحكم. ولكن بعد مدّة تمت تصفيته جسديًّا من قبل قوات الأمن الإيرانية وبإيعاز شخصي من قبل الشاه رضا بهلوي – م.

أسرة الشاه ليس جريمة. على سبيل المثال، لا أعتقد أنّ ابنه رضا قد تلطَّخت يداه بجرائم ضد الشعب، ولهذا ليس لي شيءٌ ضده. بوسعه العودة إلى بلاد فارس حين يشاء ويعيش كمواطن اعتيادي. تُرى، هل يعود».

«أُراهن أنه لن يعود».

«إذا لم يرغب بالعودة، إذاً لن يعود».

«وماذا عن فَرَح ديبا؟»

«المحاكم هي التي ستقرر حالتها».

«وماذا بشأن أشرف؟»

«أشرف هي توأم الشاه القبيح، وهي سارقة وخائنة بقدر الشاه نفسه. على الجرائم التي اقترفتها، سوف تُحاكم وتُودعُ السجن على غراره هو. نعم، أُريد أيضاً التوأم القبيح».

«ورئيس الوزراء السابق بختيار؟ يقول بختيار إنّه كانت لديه أصلاً حكومة جاهزة كي تحل محل حكومة بزركان. ويقول إنه سيرجع حالاً».

«تُرى، هل سيرجع! يداً بيداً مع الشاه، أتمنى. وبعدها بوسعهما أن يذهبا إلى المحكمة معاً. هل سيُعدَم بختيار أو لا، لا أعرف حتى الآن. لكنني أعرف أنه يجب أن يُحاكم، وسأعترف أني أحب كثيراً أن أراه هو والشاه وهما يُعادان، يداً بيد. إني أنتظر ذلك».

«الموت لبختيار أيضاً، إذاً. الموت لأشرف التوأم القبيح، الموت لفَرَح

ديبـا، المـوت للجميع. إمام خميني، أتسـمح لي بتوجيه سؤال يمضي وراء المجـال الأخلاقي للثورة؟ أنـاس كثيرون يقولون إن الثـورات لا تغفر، إنها لا تعـرف الشفقة. أنتَ، كرجل، وفي الحقيقة، كرجل دين، هل سبق لكَ أن غفرتَ لأحد؟ هل سبق لك أن أشفقتَ على عدوٍّ أو تفهَّمتَه؟»

«ماذا؟ ماذا؟»

«سألـتُ مـا إذا تعرف كيف تغفر، كيف تتفهـم. و، بما أننا في صُلب الموضوع، سأطرح عليك هذا السؤال أيضاً: هل سبق لكَ أن بكيت؟»

«أنا أبكي، أضحك، أعاني. أنا كائن بشري. هل تعتقدين أنني لستُ إنساناً؟ بقدر تعلّق الأمر بالمغفرة، لقد غفرتُ للسواد الأعظم من البشر الذين آذونا. وفيما يتعلق بالشفقة، أنا أكفل العفو لضباط الشرطة الذين لم يقوموا بعمليات التعذيـب، لرجال الدرك الذين لم يقترفوا انتهاكات خطـيرة، للكورد الذيـن وعدوا بالتوقف عن مهاجمتنـا. إنما بخصوص الأشـخاص الذيـن تكلمنا عنهـم في وقت أبكـر، لا توجـد مغفرة، لا توجد شفقة، لا يوجد تفهم. كفى الآن. أنا مُتعب. كفى».

بدا منزعجاً، وقرر أن يصرفني. حاولتُ أن ألفت انتباهه.

«أرجوك، إمام. لا يزال لديّ أشياء كثيرة أود أن أسألك عنها. بشأن هـذه العباءة، على سبيـل المثال، التي فرضتها على النسـاء، فُرِضت عليَّ كي يكون باستطاعتي المجيء إلى (قُم). لماذا تُجبر النسـاء على أن يختبئن تحـت ثوب غير مريـح وسخيف بكلّ معنى الكلمـة، تحت ملاءة تجعل حركة النسـاء مستحيلة، ويسـتحيل عليهن حتى أن ينفخـن أنوفهن؟ اكتشفتُ مؤخراً أنه يتعين عليهن حتى أن يلبسن عباءة السباحة. كيف،

بحق السماء، تستطيع المرأة أن تسبح بالعباءة؟»

عندئـذ تلكما العينان الرهيبتان اللتان تجاهلتاني، كما لو أنني شيء لا يسـتحق أيَّ فضـول، التفتتا إليَّ. وقد أطلقتا نظـرةً أكثر غضباً بكثير من تلـك النظرة التي صدمني بها في بداية الحوار. صوته، الذي كان ضعيفاً حتى ذلك الحين، والقريب من الهمس، أصبح أكثر امتلاءً، حاداً أكثر.

«هذا الأمر لا يعنيكِ. تقاليدنا لا صلةَ لها بكم، أنتم (الغربيين). إن لم تُحبـي اللباس الإسلامي، أنتِ لسـتِ مُرغمة على إتباعه. العباءة فقط للشابات والنساء المُحترمات».

«معذرة؟»

حسبتُ أني أسأتُ الفهم. لكن لا. فهمتُ بنحو مضبوط.

«قلتُ: إن لم تُحبي اللباس الإسلامي، أنتِ لسـتِ مُجبرة على إتباعه. العباءة فقط للشابات والنساء المحترمات».

الكاتبة أوريانا فالاتشي تجلس على الأرض أمام آية الله خميني، وإلى يساره بني صدر.

بعدهـا قهقه. صوت دجاجة حين تدعـو صغارها، ضحكة الرجل المُسـن. وضحـك أحمـد. ضحـك بني صـدر. واحـداً إثر الآخـر، كلّ الحـراس الملتحين ضحكـوا؛ جفلوا قليلاً، وبعدهـا استرخوا، راضين. كـان هذا أسوأ من التفاتتي إلى خلخالي. سائر العذابات والمهانات التي جرحتني طوال الأيام القليلة الفائتة رجعت إليَّ مُسرعة، وراحت تُدوم سويـةً وتُصبح عقـدةً صلبة في تجويف بطني: البـيرة التي حُرمتُ منها، دراما مصفـف الشعر، المشاكـل المحيرة لــ (مريم العـذراء) ويوسف

الكاتبة أوريانا فالانشي، في إيران، مرتديةً العباءة.

النجـار وهمـا يفتشـان عن فنـدق، إسطبل كـي تلد فيه، وصـولاً إلى لا شرعيـة المُلائي الذي أرغمني على أن أبصم أنا نفسي على زواج مؤقت. والآن، بدأ كلُّ شيء يخنقني بغضب أصم؛ كنتُ متورِّمة جرّاء الازدراء.

«شـكراً، سيد خميني. إنكَ مهذب للغاية، جنتلمان حقيقي. سأفعل كـما طلبتَ مـن دون أيّ تأخير إضافي؛ سأخلع هـذه الخرقة القروسطية الغبيـة حالاً». وبهزة كتفين، سمحت للعباءة أن تسـقط على الأرض في بركة صغيرة سوداء قذرة.

ما جرى تالياً سيظل مطبوعاً في ذاكرتي، كظل قط يرقد مكوّراً غاطاً في نومه وفجأةً يقفز إلى الأمام كي يلتهم فأراً. نهض بسرعة شديدة، بنحو مباغت جداً، بحيث أنني ظننتُ على مدى لحظة أن هبّة ريح صدمتني توًّا. وبعدها، بقفزة كانت لا تزال غادرة جداً، داس على العباءة وتوارى عن الأنظار.

***

صُعق الجميع بسبب اختفائه، ناهيك عن قول شيء بشأن خفة حركته، خفة حركة لاعب جمباز في سن العشرين، وظل الجميع جالسين على الحصير، يستنطق أحدهم الآخر بعيونهم. بما أنّ الصوت الآن هو صوت الهرج والمرج الآتي من خارج الحيطان، انفجر سؤالي مثل رصاصة بندقية في سكون الغرفة.

«هل كان يجب أن يذهب ليتبوّل؟»

حسبتُ فعلاً أنه مضى ليتبوّل. غالباً المُسنون يُضبطون وهم يكبتون رغبةً في التبوّل. ولمّا يحصل ذلك لا أحدَ يصر على المراسم. إنهم ينهضون ويهرعون إلى الحمام. حتى من دون أن يتفوّهوا بأيّ شيء.

«لا»، أجاب أحمد. «لقد ذهب بعيداً».

«بعيداً؟! بعيداً أين؟»

«إلى حجرته، كي يرتاح».

«لكن الحوار لم ينتهِ».

«نعم، لقد انتهى. عليكِ المغادرة».

«لن ينتهي في مليون سنة. لن أغادر هذه الغرفة إلى أن ينتهي الحوار. قلْ له ذلك».

«سأقول لكِ مجدداً: إنه يرتاح في حجرته. ربما هو نائم الآن».

«إذا هو نائم الآن سوف يستيقظ في نهاية الأمر. سأنتظر».

«هذا غير ممكن. وزيادةً على ذلك، كانت لديك ساعتان، وهو ضعف الوقت الذي اتفقنا عليه. كوني مهذبة، انهضي». ومدّ يداً كي يساعدني على النهوض.

«لا تلمسني!»

سحب يده، وأقبل سلامي وعلى وجهه نظرة متوسِّلة.

«إنه على حق. ساعتان وقتٌ كثير. لم يسبق له أن تكلّم ساعتين بشكل متصل. لم يحصل هذا مع أيّ شخص. حتى مع وزرائه. اسألي بني صدر».

إلا أنّ بني صدر لم يكن هناك. كان قد تسلل خلسةً من الغرفة بعد سؤالي عن التبوّل. من دون أن يُلقي تحية الوداع، من دون أن يُعلّق.

«ليس لي صلة ببني صدر. أنا لا أنهض من مكاني. على أية حال، لا يسعكَ أن تلمسني. دينُكَ يمنع ذلك. وإذا لمستني سأخبر الجميع أننا متزوجان».

«من أجل محبة الله! هل تُريدين أن تحطميني؟» تذمر سلامي.

«أنا لا أُحطمك. أنا أنتظر. عاجلاً أم آجلاً سوف يؤوب».

«لن يؤوب. إنه غاضب».

«أنا غاضبة أيضاً. لقد سمّاني مسنة وعديمة الأخلاق. إنما يتعين عليّ أن أكمل عملي، وسوف أكمله. قُلْ لأحمد».

متنهداً باستسلام، بدأ سلامي يتكلّم مع أحمد، الذي رمى، في لحظة معينة، يديه عالياً ومشى مبتعداً. عاود الظهور بعد دقائق قليلة.

«قال إنه لن يأتي. لا الآن، ولا تالياً. قال إنه ليس لديه شيء كي يُضيفه، وإنه مُتعب ويُريد أن ينام».

«إذاً قُلْ له إني سأنام أيضاً. هنا تحديداً».

«مدام، إنكِ تضعينني في موقف صعب. إنكِ تُجبرينني على أن أدعو النساء كي يأخذنك بعيداً».

«فقط جرّب وسوف ترى ماذا سيحصل. سأكتب أن خميني رماني في الخارج بعنف، وأنّ نساءه ضربنني. ستكون فضيحة. فضيحة عالمية. قُلْ له».

مهزوزاً بتهديدي، غاب أحمد عن الأنظار ثانيةً. إلا أنه رجع بعد ثوانٍ قلائل، كما لو أنّ والده ركله للوراء كالكرة.

«لا يمكنني أن أقنعه. الآن هو غاضب مني، أنا أيضاً. مدام، أرجوكِ!»

«لا».

لم يكـن سؤالاً أُنهي به حواري بقـدر ما كان ثأراً لنفسي على الكلمة الساخرة والضحكـة. ما كنـتُ لأدعهم ينجون من العقـاب بأيّ حال مـن الأحوال، حتى أني لم أحلم بالمغادرة من دون أن أُصَفّي الحسـاب. ومـن ثم، لنكـن صادقين، لقد سلّيـتُ نفسي كثيراً جداً. أحمد المسكين ذاك الـذي جرجر قدميه ذهاباً وإياباً كي يوقظه من النوم، لمجرد أن يُرَد للـوراء كالكرة. تلك النظرة الضائعة في عيـون الجميع، حتى الحرّاس، ذلـك الإحسـاس بالعُقم الذي كان يتعاظـم في كلّ لحظة، في حين تحت الشبـاك كان نشيـد المخلصين يختلط مـع صوت الدجاجـة التي تنادي على صِغارها. وأنا، جالسةٌ هناك، أصمّ أذنيَّ إزاء احتجاجات سلامي، الذي كان يتضرّع إليّ، صوته مختنق بالعبرات.

«هل لديكِ أدنى فكرة عما تفعلينه حاليًّا؟»

«بالطبع. إني أحاول أن أفكر ما إذا وضعت بيضة».

«مَن؟؟؟»

«الدجاجة؟»

«أيّ دجاجة؟»

«الدجاجة التي هناك في الطريق».

«لا توجد دجاجة في الطريق!»

«بلى توجد دجاجة. وأعتقد أنها وضعت بيضة. اسمع».

«أنتِ معتوهة، أنتِ معتوهة!»

وفي الختام، قرر أحمد أن يطلب العون من أمه، امرأة ضئيلة الجسم ذات وجه حلو، يائس نظرت وهي في الباب على مدى لحظة واحدة فقط، انتبهت إليَّ باستهجان، ومن ثم تلاشت عن الأنظار. معاً أيقظا عدوي للمرة الثالثة وكلّ شيء أفلح كما أردتُ.

«قال إنه يتعين عليكِ أن تنهضي وتنصرفي، وغداً بعد الظهر سأعطيكِ نصف ساعة أخرى».

«أقسم بذلك».

مكتبة .. سر من قرأ

«أقسم بذلك».

«لستَ أنت، بل هو. يلزمه أن يقسم بذلك. يقسم بالقرآن».

«بالقرآن؟»

«بالطبع. نحن (الغربيين) نقسم بالإنجيل. سوف يقسم بالقرآن».

«أرجوكِ، دعيني أقسم بذلك».

«أبالقرآن؟»

«اجلبوا لي قرآنًا!»

جلبوا القرآن له. أَقسمَ؛ بالإنكليزية، بالفرنسية، وبالفارسية.

«الآن هل ستغادرين؟»

«نعم».

بفرح جمعت عباءتي وخرجتُ مع سلامي عبر زقاق الدجاج.

لم أكـن أعـرف أنّ السـاعتين اللتين أمضيتهـما مع الرجل المُسـنّ الشرير قـد طهرتني مـن كلّ آثامـي، عيوبي، خسَّـتي، بحيـث أنهـا حوّلتني إلى نـوع مـن تعويذة مُقدّسة أو قنينـة ماء مقدّس. كلّ مَـن يدنو منه يلج إلى قدسيتـه، يغدو واسطة نقل للنقاء والسـعادة، فرداً قـادراً على أن يُعطي الحظ السـعيد، الصحة الجيـدة، وحق الدخول إلى الجنـة: كان يكفي أن ألامـس الشخص المغـرور كي أنال بركته. في بعض الحالات، لمسـةٌ من هـذا النـوع بوسعهـا أن تُشفـي الخـزي أو المـرض. ولهذا السـبب، كان الوزراء الذين يسـتقبلهم يتجنَّبون التماس مع الحشد ويسـافرون بطائرة الهليكوبـتر. غـير أنني لا أملـك طائرة هليكوبـتر، وانتـشر في المدينة نبأ يُفيـد بأن سيـدة أجنبية كانت مع الإمـام، هذه النبأ أثار النسـاء اللواتي، بوصفهنَّ نسـاءً، كان مسـموحاً لهن أن يلمسـنني بنحو مسعور. كن قد انهلـن عليَّ حـالاً تقريباً. وفيما كنّ يطوقنني لم تكن لـديّ أدنى فكرة لماذا كـن يمددن أيديهـن بمثل هـذه الحماسة، لماذا كـنّ يناديني بفـرح طاغٍ. وبعدهـا شرح لي سلامي ما كـن يهتفن به، وأحسسـتُ بنفسي أهوي في كابـوس مأهـول بذئاب جائعـة. «باركيني، أيتها المقدّسة! شـافي طفلي! خذيني معك إلى الجنة!» هؤلاء النسـوة المسـكينات كـن يمددن أصابع متلّهفة كي يداعبننـي، كي يتفحَّصنني، كي يمتصصن طاقاتي الملائكية. وما أن أصبحت المداعبات والفحوصات أقوى، وتطوّرت إلى سيل من الضربـات انهالت على رأسي، عـلى كتفيّ، على فخذيّ. كانت تلك حالة إعـدام مـن دون محاكمة. حاولتُ أن أحمي نفسي بلا طائل، أن أُشير إلى

سلامـي، كي أقول لهن أن يلمسـنه، كـان هناك هو أيضـاً [1]، إنه أفضل لأنـه مسـلم، أنـا مارقة عن الديـن. إنهن حتـى لم ينظرن إليـه. و، بما أنه رفـض ترجمـة التماساتي، ما أن أصبحنا في السـيارة حتى بدأنا في الخصام بشراسة بشأن ذلك، مثل ثنائي تزوجا منذ أمد بعيد. وبَّختُه لأنه لم يدافع عنـي، لم يقل إن إيمانـه بالإسلام جعله مباركاً أكثـر مني، وعزلتُ نفسي في صمـت وقـح، وهذا بـدوره جعله يسـقط في صمت وقح، ويسـمم رحلـة عودتنـا إلى طهران. كانت ساعـة متأخرة من الليل لمّـا رجعنا إلى الفنـدق، والتوتر العصبي الناجم عـن مغامراتنا كلّها لم يدعني أخلد إلى النـوم. المشاجرة الزوجية أعادت كلّ قلقي فيما يتصل بالزواج القسري. ظللـتُ صاحية حتـى انبلاج الفجر، أتصفح (الكتـاب الأزرق)، باحثةً عـن مَنفذ كي أخرج منه. لكنني كلّما قرأتُ أكثر، أدركتُ أكثر أنّ فرصة إيجـاد مَنفذ واحد كانت ضعيفة في حقيقـة الأمر. «أن يتزوج الرجل من أُمه، من شـقيقته، أو زوجـة أبيه خطيئة»، ذكر الفصـل المتعلّق بالطلاق وإبطـال الزواج. وأنا لسـتُ أُمَّـا ولا شـقيقةً ولا أُمَّ زوجي. «إن الرجل الـذي تكون لديه علاقة بعمته أو خالتـه لا يُمكن أن يتزوّج من ابنتها»، واستمر الفصل. وأنا لستُ عمة أو خالة سلامي ربما ذهب أو لم يذهب معهـا إلى الفراش. حتى أنني لم أستطـع أن أستفيد من الوصية التي تمنع الـزواج بين مسـلم ومارقـة عن الدين، طالمـا أنه أعقبها هـذا الإيضاح: «على أية حال، قد يتخذ المسـلم مسـيحية أو يهودية باعتبارها محظيته، و،

---

(1) كان هناك هو أيضاً he was there too: المقصود هنا أنّ سلاّمي أيضاً حضر اللقاء مع آية الله خميني – م.

إذا شـاء، قد يتخذها زوجة ثانية». إن الفقرة الوحيدة التي في مصلحتي هي تلـك الفقرة المتعلّقة بالعذرية: «إذا طالـب الرجل أن تكون زوجته عـذراء قبل الزواج واكتشف تالياً أنها ليسـت كذلك، من الممكن إبطال الزواج». غير أنّ زوجي لم يعبّر عن مَطلب كهذا، ومن الجائز أنّ المُلائي شَهِد على العكس. على أية حال، إن المَخرج الوحيد هو ذاك الذي فكرنا فيه أصلاً: أن أعترف أني معتوهة، وهي تهمة كان قد أدلى بها بعد نقاشنا حول البيضة، وأن أعترف أني عرجاء قليلاً. سأفكر في هذا غداً.

***

غـادرتُ في صبـاح اليوم التالي وأنا مُجلّلة بالسـواد تمامـاً، كالراهبة. تجنبـتُ العودة إلى مبنى البلديـة كي لا أسمح لنفسي أن يلاحقني مئات طواقـم الكاميرات التليفزيونية، وبغض النظر عن ذلك، لم يكن هنالك صحافيـون في الجـوار صبيحة ذلك اليوم. حتى الأكثر شـكوكاً ما كان بوسعـه أن يتوقـع استجواباً ثانيـاً. لم أكن ألبس عبـاءتي. بعد ما حصل أمـس، سيكون ارتداء العبـاءة إهانةً لكرامتي. على كـلّ حال، إنها رمز لانتقامـي. كانـت الرحلة رحلة حزينـة. سلامي لا يـزال غاضباً بشأن الحقيقـة التـي مفادهـا أني أعطيتُه المعاملـة الصامتة بدلاً من أن أشـكره عـلى لطفه وبراعته في الترجمة. لم يفتح فمـه إلى أن وصلنا بوابات (قُم)، وفي هـذه اللحظـة أطلقَ تحذيراته العديدة. يتعين عـليّ ألا أسأل ما يزيد على ثلاثين دقيقة: هذه الرسالة أتت من أحمد نفسـه. ينبغي لي ألا أسأل أسئلـة غير مُحترمـة، وإلا سيغادر خميني قبل أن ينتهـي وقت الحوار. لا ينبغي لي أن أسأل أيّ شيء عن العباءة، كما إنه ينبغي لي ألا أذكر الكلمة

(العباءة): يتوجب عليّ أن أفهم أنّ هذا موضوع حساس يعكر مزاجه كثيراً جداً. وعدتُ أن أحترم التحذيرين الأوَّلَيْن، إلا أنني رفضتُ الامتثال للتحذير الثالث. وعقب ذلك أعطيتُ سلامي تحذيري أنا: ألا يفقد جرأته التي تسمح له بأن يذلَّ بني صدر، طالما أنّ المعركة لم تنتهِ. ولهذا السبب أنا راجعة من دون عباءتي.

«لم تجلبي العباءة؟!؟»

«نعم. كلُّ مَن لا تحب اللباس الإسلامي ليست مُرغمة على لبسه».

«سوف يُقرأ هذا السلوك بوصفه فعلاً من أفعال العداء!»

«على وجه الدقة!»

«لكننا يجب أن نجتاز (قُم)، نمشي عبر الشوارع!»

«شالي سيكون كافياً. ووشاحي».

وهكذا، شرفي تمت صيانته بواسطة وشاح وشال لا غير، رميتُ نفسي في الفوضى ذاتها التي خبرتُها أمس، اللمسات والمداعبات والفحوصات ذاتها من النساء اللائي تعرّفن إليّ. سارت الأمور بانسيابية عند نقاط التفتيش، على أية حال، رجال الـپاسدران تعرّفوا إليّ ولم يكن يتعين عليّ أن أنتظر في قاعة الاستراحة التي كانت مكتظة تماماً بالمُلائيين. من زقاق الدجاج أُخذنا مباشرةً إلى الحجرة المروِّعة، كانت خالية تقريباً اليوم. كان مُرتَّباً على السجادة، يحميه أحمد. جثمتُ جالسةً على السجادة وفككتُ شالي، دفعتُ وشاحي إلى الخلف قليلاً: كي أجعل نفسي واضحة.

«كم هو جميل أن أراكَ ثانيةً، إمام. أتمنى أن تكون الآن مرتاحاً جداً».

كدأبه، ظلّ جامداً بلا حِراك، رأسه مُطأطأ. إلا أنه رفع عينيه الرهيبتين ورأى أني لا ألبس عباءتي، وحدّق فيّ بنظرة طويلة، وامضة، بدت كأنها تجرّدني من ثيابي.

«لن نكون مرتاحين كثيراً إلا حين تبدئين بطرح الأسئلة التي تُتعبنا. أسئلتكِ تُتعبنا».

«السؤال الذي أهمُّ بأن أوجهه إليك لن يُتعبك، إمام، سوف يجعلك تغضب. إنه يتعلّق بالعباءة. طُلب مني ألا أذكر كلمة عباءة. لكنني سأذكرها، لأننا لم نكن قادرين على إكمال حديثنا عن العباءة أمس».

شفتاه البشعتان قُرصتا إلى الأعلى في تقليد غريب لبسمة.

«نحن مستعدون لإكمال الحديث».

«طيب. هو ذا السؤال إذاً: يوم أمس سألتكَ لماذا تُجبر النساء المسكينات على أن يخبِّئن أنفسهن تحت ثوب غير مريح ومُضحك، ملاءة تمنعهن من الحركة، حتى من أن ينفخن أنوفهن؟ اليوم سأضيف قائلة: إنكَ تفعل هذا على الرغم من الحقيقة القائلة إنّ النساء أثبتن أنفسهن كونهن مساويات للرجال هنا. لقد قاتلن شأنهن شأن الرجال، وأُودعنَ السجون والمعتقلات، وعُذِّبنَ حالهن حال الرجال، وصنعنَ الثورة، على غرار الرجال تماماً».

تلاشت الابتسامة الغريبة. الفم القبيح تصلّب.

«النساء اللواتي صنعن الثورة هن نساء باللباس الإسلامي، وليس نساء أنيقات ومتبرّجات مثلك، نساء يمضين هنا وهناك أنصاف عاريات، يسحبن رتلاً من الرجال وراءهن. العاهرات اللواتي يصبغن أنفسهن ويخرجن إلى الشارع كاشفات أعناقهن وشعرهن وآذانهن وأجسامهن لم يقاتلن الشاه. إنهن لم يفعلن أيّ شيء جيداً، تلكم النساء. لم يكنَّ قادراتٍ قطُّ على أن يجعلن من أنفسهن نافعات، لا اجتماعيًّا ولا سياسيًّا، ولا مهنيًّا. وهذا لأنّ إظهار أعناقهن وشعرهن وآذانهن وأجسامهن يصرف انتباه الرجال. إنه يبلبلهم. كما أنه يصرف انتباه ويبلبل النساء الأخريات، أيضاً».

أنا أيضاً تصلّبت.

«إمام خميني، مَن قال لك إني أمضي هنا وهناك وأنا أجرجر ورائي رتلاً من الرجال؟ لا أرى أيّ طابور من الرجال ورائي».

«لكنكِ تصرفين الانتباه، تصرفين الانتباه».

«بثيابي هذه، وأنا كالراهبة؟ إمام، يوم أمس سمّيتني عجوزاً غير محتشمة، أو كدتَ تسميني هكذا. قلتَ لي هذا على الرغم من الحقيقة القائلة إن شعري وأذنيّ تغطيهما العباءة جيداً، والعباءة ذاتها تغطي بقية جسمي أيضاً. إلا أنه شيء صحيح، أنّ هذه ليست هي الحالة المعتادة، وإنه شيء صحيح أني سكنتُ دوماً جنباً إلى جنب مع الرجال. كنتُ في الحروب مع الرجال. ونمتُ جنباً إلى جنب مع الجنود في خطوط

الجبهة. في رأيكَ، هل هذا يجعل مني امرأة عديمة الأخلاق؟»

«ضميرك وحده هو الذي يستطيع الإجابة عن سؤال كهذا. أنتِ وحدك مَن يستطيع. لا أعرف ما فعلتِ مع أولئك الجنود في الحرب. وأنا لا أحكم في القضايا الشخصية، لا أعرف ما إذا كانت حياتك متمسكة بالأخلاق أم بلا أخلاق، إن كنتِ تسلكين سلوكاً حسناً أم لا حين تكونين وسط الجنود. غير أنني أعرف أنه، على مدى حياتي الطويلة، الأشياء التي أقولها تُثبَت صحتها على الدوام. حين تكشف النساء أعناقهن وشعرهن وآذانهن، حين يرتدين ثياباً تكشف أجسامهن، حين يختلطن بالرجال، وحين يكنّ مختلطات معهم، ينتهي بهن المطاف دوماً أن يزعجن الآخرين وأنفسهن. اللباس الإسلامي يمنع هذه الكارثة. من دون اللباس الإسلامي النساء لا يستطعن أن يعملن بطريقة صحية ومفيدة. ولا حتى الرجال. قوانيننا قوانين مشروعة ومُلزِمة».

«إمام، أنا لا أتكلّم فقط عن الثوب المسمى عباءة. أنا أيضاً، وبنحو أهم، أتكلّم عما يمثله هذا الثوب: العزل الذي تفرضه هذه القوانين السليمة على النساء. لا يُسمح لهنّ بالدراسة في الجامعات، على سبيل المثال. لا يستطعن الانخراط في مهنة أو وظيفة مثلما يفعل الرجال، لا يستطعن أن يعملن جنباً إلى جنب مع الرجال. لا يُسمح لهن بالاستمتاع بالشمس على الشاطئ أو يسبحن في البحر...»

«قلتُ لكِ آنفاً إن هذا لا يعنيكِ. هذه هي عاداتنا، قوانيننا، وهي عادات مُلزِمة، قوانين مُلزِمة».

«إنهـا عادات وقوانين يبدو أنها كانـت مناسبة أكثر لألف وأربعمائة سنـت خلت، إمام. ألا تعتقـد أنه، خلال هذه الفـترة الزمنية، أنّ العالم سـار للأمام؟ دعنا نتكلّـم عن القانون الذي يبيح للرجل أن يتخذ أربع زوجات».

«إنّ قانـون الزوجـات الأربع هـو قانون تقدّمي جـداً. كُتب لمنفعة النسـاء، بـما إنّ عددهن أكثـر من عدد الرجال: النسـاء يُولـدن أكثر مما يولـد الرجال، الحروب تقتلُ الرجال أكثر مما تقتلُ النسـاء. المرأة تحتاج إلى الرجـل، وبنـاءً على ذلك ماذا يسـعنا أن نفعل لمّا يكون عدد النسـاء أكثر من عدد الرجال في العالم؟ هل تفضلين أن تصبح النسـاء الباقيات عاهـرات، أو أنكِ تفضلين أن يتزوجن من رجل لديه زوجات أصلاً؟ يبدو أنه شيء غير صحيح أن نجعل من النسـاء عاهرات؛ ببسـاطة لأنه ليس هنالك عددٌ كافٍ من الرجال. وسأقول إنّ هذا القانون هو أفضل من قانون الزوجة الواحدة. إنه أفضل، حتى إذا يفرض بعض الشروط الصعبـة جداً على الرجـال. إن الرجل ذا الزوجتـين أو الثلاث عليه أن يعمل بدأب كي يحرص على أن يعامل جميع زوجاته على قدم المسـاواة، كـي يعطيهـن الوقت نفسـه والعاطفة نفسـها. هذا شيء صعـب للغاية لأنه... إنكِ تبدئين بأن تُتعبيني من جديد. أسئلة مُتعبة.

نظـر أحمد إلى ساعته. سلامي توسَّل بعينيـه. إلا أنني تظاهرت بأني لم أنتبه.

«هـل تسـمي القوانـين التـي جددتَها مؤخـراً التي تحظـر الموسيقى والكحـول قوانـين تقدّمية أيضـاً، إمام؟ أرجـوك اشرح لي، لماذا شرب

كأس من النبيذ أو البيرة هو خطيئة؟ لماذا الاستماع إلى الموسيقى خطيئة؟ في (الغرب)، قساوستنا يشربون وينشدون الأغاني. حتى الـپاپا يشرب حين يكون عطشانَ ويغني حين يرغب. هل يعني هذا أنّ الـپاپا آثم؟»

«لستُ مهتماً بالقواعد التي يتبعها قساوستكم. الإسلام يحرّم المشروبات الكحولية، نقطة. إنه يمنعها بشكل مطلق لأنها تُفسد الفكر وتمنع البشر من التفكير بطريقة صحيّة. حتى الموسيقى تغشي العقل، لأنها تحمل في داخلها سعادات غامرة ونشوة تكون فعالة حالها حال العقاقير المخدرة. موسيقاكم، أعني. نعم، موسيقاكم لا تسمو بالروح، إنها تجعلها تنام. وهي تصرف انتباه شبيبتنا، الذين ينتهي بهم الحال مسمومين ولا يعودون مهتمين ببلادهم».

«حتى موسيقى باخ، بيتهوفن، وڤيردي؟»

«لا أعرف هذه الأسماء. إذا كانت لا تُغشي العقل لن تُحظر. بعضٌ من موسيقاكم غير محظور، نحن نسمح بألحانكم العسكرية والأناشيد المُستعمَلة في الألحان العسكرية. نحن نُريد موسيقى ترفعنا، تسمو بنا، مثلما تفعل الألحان العسكرية، موسيقى تُحرّك الشبيبة بدلاً من أن تشلَّهم، موسيقى تُلهمهم كي يهتموا ببلادهم. نعم، ألحانكم العسكرية مُباحة. إذا كانت تلك الأسماء قد كتبت الألحان العسكرية، لن نحظرها. وأسئلتكِ تورثني التعب. قلتُ لكِ إنها أسئلة مُتعبة. ماذا تودين أن تعرفي باستثناء ذلك؟

«هذا، إمام خميني: إنك تتكلّم دوماً عن (الغرب) بمصطلحات

قاسية أو ميّالة إلى الانتقاد. سائر أحكامك تبدو كما لو أنك تنظر إلينا بوصفنا أبطال كلِّ ضروب القُبح، كلِّ ضروب الانحراف. ومع أنّ (الغرب) استقبلك لّما كنتَ في المنفى، واستقبل كثيراً من المتعاونين معك، كثيرون منهم درسوا بالفعل في (الغرب). كثيرون منهم درسوا مجاناً، بمُنح دراسية. ألا تعتقد أنّ هذا ربما يُشير إلى شيء نافع فينا؟»

بدا كما لو أنه ضُرِب في صدره، طأطأ صدره إلى أن استقر حنكه على عظم القص العائد له وتدحرجت عمامته على السجادة، كاشفةً جمجمته اللامعة، الصفراء، الشبيهة بعاجّ قديم. أخذها بسرعة وأعادها بإيماءة غاضبة وحتى ضجرة.

«ثمة شيء. هو ذا. لكن حين لدغنا العقرب، بقينا بعيدين حتى عن العيدان التي تبدو شبيهة بالعقارب من مسافة معينة. وأنتم عقرب لدغتنا مراراً وتكراراً. كنتم تنظرون إلينا على الدوام وترون سوقاً، لا شيءَ سوى هذا. أشياء جيدة، من مثل التقدّم المادي، تحتفظون بها لأنفسكم. نعم، لقد تلقينا كمًّا كبيراً من الشر من (الغرب)، كمًّا كبيراً من المعاناة، والآن لدينا الأسباب كلّها كي نخافكم ونمنع شبيبتنا من الاقتراب منكم، من أن يبيحوا لأنفسهم أن يتأثروا أكثر بـ (الغرب). أنا لا أحب حقيقة أن يدرس شبيبتنا في (الغرب)، حيث تفسدونهم بالكحول، بالعقاقير المخدِّرة، والنساء شبه العاريات. يُمكنكم أن تحتفظوا بمُنحكم التعليمية. إنها لا تفعل شيئاً عدا كونها تخلق الجهل. إنكم لا تمنحون شبيبتكم الشهادة العلمية ما لم يدرسوا. إنكم تمنحون شبيبتنا الشهادة العلمية حتى لو كانوا جهلة».

«هذا صحيح، إمام. حتى مع المتعاونين معكم كنا مبسوطي الأيدي للغاية، لقد بالغنا في ضيافتنا. ما من أحد يستطيع أن يرتاب في الحقيقة التي مفادها أنهم يتعلّمون قليلاً جدًّا في جامعاتنا. وفي كثير من الأحيان حتى أنهم لا يتعلّمون اللغة التي يجب أن يدرسوها. إنه ليس صحيحاً، على أية حال، أننا أنكرنا تقدّمكم المادي. الطائرة التي أتيتَ فيها إلى بلادك هي نتاج (الغرب)، وليست نتاج الإسلام. التليفون الذي تستعمله للاتصال من (قُم) هو نتاج (الغرب)، وليس نتاج (الإسلام). الأشرطة التي تستعملها لتسجيل أحاديثك، التي أرسلتها إلى إيران كي تُغذي التمرد ضد الشاه هي نتاج (الغرب)، وليس نتاج الإسلام. جهاز التلفزيون الذي تستعمله يوميًّا للتواصل مع بلادك هو نتاج (الغرب)، وليس نتاج الإسلام. وجهاز تكييف الهواء الذي تستعمله كي تبقى في جو بارد، على الرغم من حرارة الصحراء، هو نتاج (الغرب)، وليس نتاج الإسلام. إذا كنا فاسدين ومُفسدين جداً، لماذا تستعملون أدواتنا وأجهزتنا، وهي أدوات وأجهزة الشر؟»

كنتُ غاضبة بالفعل. حتى أني رفعتُ صوتي، وبدأتُ أنتبه أنّ سلامي المسكين كان يبذل جهوداً بطولية أكثر كي يترجم كلماتي. كان يتردد مع كلّ عبارة، يسحب شاربه كي يستجمع شجاعته. وشعرتُ فجأةً أني أود الاعتذار إليه، شارحةً أني لم أكن أنوي أن أَغضب. وأنا عائدة إلى (قُم)، كنتُ أريد ببساطة أن أُعطي الرجل المسنَّ حبلاً كي أدعه يشنق نفسه به، وكنتُ أُريد أن أفعل ذلك بلطف. غير أن التيار الذي لا نهاية له من السفاهة، من الشتائم المجانية، من الحقد الذي انبثق من التعصب المتعفن، الأعمى، كان قد أغضبني بنحو إيجابي. لم

أعد أهتم إذا ما قال أنا مُتعب، وأنّ أحمد ينظر إلى ساعته، وأنّ كليهما كان ينتظر بلهفة أن يرميني خارجاً. حتى أنني لم أعد أبالي بأن أطرح عليه أسئلة أخرى جعلتني فضولية جداً من قبل: ما إذا لديه زوجة واحدة أم زوجتان أم ثلاث زوجات، لماذا أصبح رجل دين، إماماً، كيف كانت حاله صبيًّا. كنتُ مهتمة فقط بالخروج من هنا، انتزاع ذلك الوجه من ذاكرتي، ذلك الوجه الذي أغواني تقريباً في أول الأمر، الذي أوحى بالرهافة. فهمتُ. وفيما بدأت تلك البسمة الغريبة تعود إلى شفتيه، طوّقني بنظرة مليئة باحترام غير مرجو. أم أنها كانت عاطفة غير مرجوة؟

«لا، الأشياء التي سردتِها ليست أدواتكم الشريرة. إنها الأشياء الجيدة المتعلّقة بـ (الغرب). في حقيقة الأمر، نحن لسنا خائفين منها؛ نحن نستعملها. لسنا خائفين من علمكم، من تقنيتكم؛ نحن خائفون من عاداتكم. نحن نرفضها لأننا نريد أن يكون بلدنا ملكاً لنا، لأننا نطالب بألا تتدخَّلوا في سياستنا، في اقتصادنا، في عاداتنا، في شؤوننا. ومن هذه اللحظة فصاعداً سوف نعارض كلّ مَن يُهددها مجدداً، يميناً وشمالاً، هنا وهناك. لكن كفى، الآن، كفى. أنا مُتعب. خارجاً! خارجاً!»

ربطتُ شالي من جديد، سحبتُ وشاحي إلى الأسفل من جديد على جبيني، متأهبةً للانسحاب.

«أنا راحلة، إمام. لكنني سآخذ معي صورة بلد بائس، غارق في الاضطراب، في الفوضى، في البؤس، وفي فتنة الدولة التي يقول بعض

الناس إنها تُنذر بحرب أهلية أو انقلاب. أُغادر مع برهان على أن ثورتكم لم تنتج الثمرة الجيدة التي كان يتمناها الشعب، لم تجلب أيًا من الأشياء التي وعدتَ بأن تجلبها. حريةٌ أقل من أيّ وقت مضى. إنك تتوجَّه نحو مياه أكثر عتمة، إمام. ثمة قدرٌ كبير من العتمة في إيران. وهي عتمة لا حلَّ لها».

ارتفع إصبعه المتغطرس، مانعاً إياي من النهوض. اهتزت العمامة السوداء، ماحيةً أيَّ شرارة ممكنة من التعاطف. الهمس الضعيف أمسى رعداً.

«لا، يوجد حلّ! نحن مولودٌ جديد عمره ستة أشهر. ثورتنا عمرها ستة أشهر ليس إلا. وهي ثورة في بلد دمرته الفضائح مثل حقل قمح موبوء بصراصير الليل. بدأنا توًّا نسلك دربنا. ماذا تتوقعين من مولود جديد أتى إلى العالم في حقل قمح موبوء، بعد ألفين وخمسمائة سنة من الحصاد السيِّئ [1] وخمسين سنة من الحصاد المسموم [2]؟ ذلك الماضي لا يُمكن محوه في بحر أشهر قليلة، ولا حتى في سنوات قليلة. نحن نحتاج إلى الوقت. نحن نطلب الوقت. ونحن نطلب، في المقام الأول،

(1) بعد ألفين وخمسمائة سنة من الحصاد السيئ: في الأرجح يقصد هنا آية الله خميني الجوع والفقر اللذين كانا يضربان بلاد فارس بسبب قلّة المحاصيل الزراعية – م.

(2) خمسين سنة من الحصاد المسموم: يقصد آية الله خميني هنا مدة حُكم الدولة البهلوية من العام 1925 وحتى العام 1979، حين اندلعت (الثورة الإسلامية). تأسست الدولة البهلوية إثر إنقلاب قام به رضا بهلوي ضد الشاه أحمد مرزا القاجاري. لكن الغزو البريطاني السوفييتي أُجبره على التنحي عن الحكم لصالح ابنه في العام 1941 خلال الحرب العالمية الثانية بسبب علاقة الأب الشخصية مع هتلر وخوف الحلفاء من تزويده للجيوش النازية بالبترول الإيراني قام الحلفاء بعد الاحتلال بتتويج محمد رضا بهلوي ابن رضا بهلوي شاه على إيران – م.

من أولئك الذين يسمون أنفسهم ديمقراطيين. أو شيوعيين، أو الله يعرف ماذا. لأنهم هم الذين هجموا علينا، هم الذين شوّهوا سمعتنا، هم الذين نشروا الشائعات حول حروبنا الأهلية والانقلابات التي لن تحصل! إنهم الأشخاص الذين يغذون الفوضى والفتنة والبؤس! هم أنفسهم! وبهذا الرأي، وداعاً. خارجاً، خارجاً! إن شاء الله».

وثب كالقط، ومضى قبل أن أتمكن من الرد على توديعه. إلا أنه هذه المرة لم يكن يركض كي يأخذ قيلولة، لكنه بالأحرى مضى إلى السطح، كي يُبارك الحشود الغفيرة التي واصلت التضرّع إليه. ونتيجةً لذلك، الصورة الأخيرة التي أمتلكها له هي صورة تلك الهيأة البشرية السوداء، الهشة، التي تمكنت بشكل من الأشكال من أن ترتقي السطح وأن تصعد على كرسي بمساعدة أحمد، أن تقف كي يكون مرئيًّا من مسافة معينة. ترنَّح لحظةً، تمايل وكاد أن يسقط بنحو خطير رأسيًّا [1] إلى داخل الزقاق، وبعدها أمسكه أحمد من رِجليه، حافظ على توازنه بمساعدة ثلاثة حراس كانوا يمسكونه من فخذيه وأبطيه. في هذا الموقف المُضحك، الموقف نفسه الذي يستعمله الأطفال الذين يرتقون بصعوبة كتفيْ أبيهم كي يشاهدوا استعراضاً عسكريًّا، يرفع ذراعه بوهن ويلوّح بيده الشمال في إيماءة يبدو أنها تقول: «هاي، مرحباً». على وجه الدقة الطريقة نفسها التي يفعلها الأطفال، على أكتاف آبائهم، أن يلوّحوا للاستعراض العسكري. في عيون الحشد، على أية حال، إنها بركة، والهدير الرهيب يغدو محموماً ومستميتاً، يهز السماء مثل عاصفة

(1) رأسيًّا headfirst: المقصود هنا أن يكون الرأس في المقدمة. نقول بالدارجة العراقية «يوگع على رأسه»– م.

رعدية: «زنده باد، إمام! پاينده باد!» النساء اللائي حرّكنني يدويًّا أمس يصرخن، الرجال الذين جلبوا ماعزهم معهم يصرخون، المُلائيون الذين أتوا إلى هنا كجمهور يصرخون، الـپاسدران الذين من المفترض أن يمنعوا أيّ محاولة اعتداء على الإمام يصرخون، ناسين بنادقهم، يهزون قبضاتهم في الهواء هزًّا عنيفاً في إيماءة نصر.

وهو يُمتع نفسه بالضبط بالطريقة نفسها التي وصفها لمّا سألتُه ما هو شعوره حين يكون هدف عبادة الأصنام هذه. يبتسم بسعادة غامرة، يقهقه بلا خجل، من دون احتشام، مُلغياً الكلمات الحكيمة التي ختم بها الحوار. وهو يشبه الشاه، بطريقة غريبة. لا، السلطة ليست بحاجة إلى عضلات أو إلى شباب. أو ثروة أو رتوش.

أنتبه إليه بمرارة متعاظمة، والسؤال الذي لم أطرحه عليه يعود كي يُثير فضولي: كيف كانت حاله إبان الطفولة؟ إلا أنني أعرف أصلاً. كان على غرار أدولف، بنيتو، جوزيف، ماو، مُعمر، فيدل، عيدي، نابليون، جنكيز: الصغير، على غرار أيّ واحد من الطغاة الآخرين الذين جعلوا، ويجعلون وسوف يجعلون الجنس البشري قانطاً، على الدوام. مُستديرون، ليّنون، ساحرون حين يضحكون بعد أن يشبعوا من تناول الطعام، مُزعجون حين يصرخون بعد أن يُلطِّخوا أنفسهم. الأطفال يشبه أحدُهم الآخر تماماً. كان طفلاً حاله حال أيّ طفل آخر. لمّا يتأفف، تأخذه أُمّه بين ذراعيها وتسأله قائلة: «روح الله، روح الله، هل ستكون هذا الوغد حين تكبر؟» أو تسأله قائلة، «روح الله، روح الله، ماذا ستكون حين تكبر؟» وكان يُجيبها بأن يمص إصبعه،

بـأن يركل قدمه الصغيرة السـمينة، وهـو يُبادلها النظـر بعينين بريئتين. كـان طفلاً صالحاً جـداً، روح الله. وحتى حين تعلّم المشي، كان لا يزال طفـلاً صالحاً جداً، حتى حـين تعلّم الكلام. أصبح طفلاً سيئاً فيما بعد، حـين كبر. ذات مـرة قال لي أحدهـم إنّ البشر لا يُولـدون سيِّئين، إنهم يُصبحـون سيئين حين يكبرون، حـين يفهمون أنّ الحيـاة تكافئ الذين يجدون الاستقامة مُملة. نسي أن يُخبرني أنه ما من شيء يجذب الأشخاص السـيئين مثل السلطة، ما من شيء يُكمل خبثهم بكلّ معنى الكلمة مثل السـلطة. لـذا فـإن السـؤال الذي كـان يتعيّن عـليّ أن أوجهـه إلى ذلك الرجل المُسـن الشرير لم يكن السـؤال المتعلّق بطفولته. كان ينبغي لي أن أسألـه متى أدرك أنه سيِّئ بما يكفـي كي يُصبح آية الله خميني. إلا أنه لن يُخـبرني. لن يكن قـادراً على أن يُخـبرني. لأنه، وهنا لُبّ المسـألة: لم يكن يعتقد أنه سيِّئ. وبشكل من الأشكال، هذا الأمر جعله عاطفيًّا.

***

«هـل أنـتِ راضية؟ هل اكتشفـتِ كلَّ ما كنـتِ تُريدينـه؟» سألني سلامـي فيـما هو يقود السيارة على طـول الطريق المتجه نحـو طهران، وعلى وجهه سيماء شخص أفلتَ تواً من كارثة ما.

«إلى حـدٍّ ما»، أجبتُه. «ولو أنّ معظم الأشـياء التـي اكتشفتُها كنتُ أعرفهـا أصـلاً. وعلى أيـة حال، الأشـياء التي لم اكتشفتْها ليسـت ذات أهمية».

«على سبيل المثال؟»

«على سبيل المثال، كم عدد زوجاته؟»

«باستطاعتي أن أخبرك بهذا: لديه زوجة واحدة، أُمّ أحمد. لم يتزوج من أيّ امرأة أخرى». هذا الكلام جعلني أتذكر الفوضى الزوجية التي زججتُ نفسي فيها بفضل القوانين المُضحكة للسلطة. يا إلهي، علينا أن نستدير، ونتوجَّه عائدين إلى مبنى البلدية كي أعلن أني معتوهة وعرجاء، وأن أطلب إلغاء الزواج أو الطلاق. أخبرت سلامي بهذا الأمر، وأنا مُستثارة. ظلّ يقود سيارته، هادئًا تماماً.

«لا نحتاج إلى هذا الأمر. لم أُوقع على الرخصة».

«هل تعني القول إنني لستُ متزوجة؟»

«لستُ متزوجة مني، على كلّ حال».

«ممَن أنا متزوجة، إذاً؟»

حدّق فيّ من طرف خفي، وهو يأخذ وقته.

«حسناً، حصل شيءٌ ما... لم ينتبه إليه المُلائي».

«ماذا؟»

«حسناً، أتذكرين حين وقّعه؟ حسناً، أنظري، إنه يشبه هذا: كان مستعجلاً وارتكب خطأً. وقّع في الموضع الذي من المفترض أن يوقّع فيه العريس. أدركتُ هذا، ووقعتُ في الموضع الذي كان يجب أن يُوقع فيه. ومن ثم أغلق السجل وهربنا من هناك، و...»

«هل تقول إنني متزوجة من المُلائي؟»

ضحك بحقد.

«حسناً، نعم. من الناحية النظرية. لذا، إن كنتِ تُريدين إبطال

الـزواج أو الطـلاق عليـكِ أن تطلبي منـه ذلك. لو كنـتُ في محلكِ لن أفعـل. لأنه مـا أن يكتشف الخطأ، سـوف يزوّجنا من جديـد، وبعدها نعـود إلى المكان الذي بدأنا فيه. وإنـكِ لا تعرفين، فربما يقرر أنه يرغب أن يكـون متزوجاً منكِ، يحرمك من إبطـال الزواج، فربما يقول إن هذا من حقه».

أوه يـا إلهي. كنتُ متزوجة من مُلائي. من مُلائي مثير للاشـمئزاز، ربـما يقـرر أنـه يرغب أن يكـون متزوجـاً مني. كان هـذا شـيئاً أكثر مما يُطيقـه المرء. إذا ما حكيتُ هـذه القصة إلى صديقاتي هناك في بلدي، لن تصدّقني أيّ واحدة منهن. تبًّا لك سلامي. لهذا السبب كان هادئاً جداً فيما بعد. وحتى أنه لم يخبرني، لم يُلمِّح إلى ذلك، الحقير.

«لم أشـأ أن أكـدّر مزاجك»، قال. «كنتِ تحتاجين إلى أن تسـتعدي، إلى أن تُركـزي، والحوار كان أهـم من ذلك، صحيح؟ فضلاً عن ذلك، لم يكـن هنالك متسـع من الوقت. وصلنـا إلى تلك السـاحة على الفور تقريباً، و...»

«لكن فيما بعد! فيما بعد!»

«لم يكـن الحـوار قـد انتهى بعـدُ، بعد ذلـك. وحتـى إذا وددتُ أن أخبركِ، كنتِ غاضبة لأني لم أحمِكِ من النساء اللواتي كنّ يلمسنكِ. إنكِ لم تتكلّمي معي طوال أربع وعشرين ساعة، إلى أن رجعنا إلى (قُم)».

«نحتاج إلى أن نفعل شيئاً ما. ما اسم المُلائي؟»

«بأمانة، لا أعرف. لم أنتبه حتى إلى اسمه. كنتُ عصبيًّا جداً».

«أنا إذاً متزوجة من المُلائي الذي لا أعرف حتى اسمه و...»

«لكنه زواج مؤقت».

«وكم يدوم الزواج المؤقت؟»

«طالما يرغب الزوج. شهر، ستة أشهر، سنة».

«وإذا ظلّ الزوج صامتاً، إذا لم يقل شيئاً؟»

«عندئذ يدوم الزواج إلى الأبد. لكن لا تقلقي. كان مارًّا بـ (قُم) مروراً عابراً، مَن يعرف أين يُقيم، وسوف لن يدقق ذلك السجل. لئن كنتُ في محلكِ لنسيتُ كلّ ما يتعلّق بالمسألة».

كانت ليلة جميلة من ليالي أواخر أيلول/ سبتمبر، والارتياح الذي أحسستُ به كوني أنهيتُ عملاً صعباً حماني من كلّ ضروب القلق العقيمة. أجل، في مدينة أو قرية ما في إيران أقام مُلّائي كنتُ أنا زوجته المؤقتة، ومن الجائز إلى الأبد. مُلّائي مُثير للاشمئزاز بمستطاعه أن يفرض حقوقه الزوجية في أيّ لحظة، أو يجعلهم يرجموني بالحجارة بسبب الزنى، أو مَن يعرف ماذا، غير أنّ هذا كلّه لم يكن سيئاً كنهاية وأنا أُطعن حتى الموت من قبل إسبانية غيورة، وعلى أية حال، إنه شيء عقيم أن أسهب كثيراً جداً في هذه المسألة، سأمضي في غضون ساعات قلائل، وعاجلاً ستكون هنالك قارةٌ ومحيط بيننا وبين زوجي. كائنا مَن يكون. لذا تخليتُ عن كلّ استيائي وغضبي اتجاه سلامي، وقررتُ أن أنظر إليه بعينين مختلفتين من هذه اللحظة فصاعداً. على أية حال، كان هو الشخص الذي جعلني أحصل على هذا الحوار، وقد تعامل معي بشهامة خلال

القضيـة كلّها. كان سكرتيري، سائقي الشخصي، مترجمي. ترجم أسئلتي بجـرأة ودقـة. ولّما فكـرتُ في الأمر، لم يكـن حتى غير محبـوب كما ظننتُ في أول الأمر. كان، بكلّ بسـاطة، متعنّتاً، رفـض رؤية عواقب التعصب، وانتهازيًّا يربط نفسـه بإحكام بأيّ عربة مهما كانت تسـلك الطريق، ليس أسوأ من كثير من السـلاميين الذين يُقيمـون في (الغرب). ليس أسوأ من السـلاميين الذين عاشـوا في زمن (محاكـم التفتيش). ربما نسـيتُ أنه على مـدى قرون أوروبا المسـيحية، مهد التقـدّم والثقافة والفـن ذاك[1]، منارة التحـضر تلك، قد أحرقت الناس على الخـازوق، ولم يكن أحد يجرؤ على الاحتجـاج. مـن إسبانيـا إلى إنكلترا، مئـات الملايين من البـشر طحنتهم عدالةٌ تُسـمي نفسـها إلهية، وتمت التضحية بهم في مُحاكمات جعلت إعمال خلخـالي المُشينة تبدو أشـبه بأمثلة على التصحيح بالمقارنـة. فكوك حديد مزقت أذرعهم وأرجلهم، ملاقط انتزعت ألسنهم وأعضاءهم التناسلية، أُدخلت أظافر في عيونهم. كانت هنالك طقوس عربدة رافقت الأجسـام المذبوحـة، المشوّهـة، المعتـدى عليها بكلّ صنوف العنـف، ومن ثم جيء بهـم إلى المحرقـة التي يتصاعـد منها الدخان، إذا كانـوا لا يزالون على قيد الحيـاة. بعـد المرسـوم الـبـابوي الذي خـوّل في ظـروف مُحددة استعمال التعذيب من قبل (محاكم التفتيش) كأداة في الاستجواب [2]، كلّ شـخص يُمكـن أن يُتهـم بالتواطؤ مع الشيطان، أن يكون مشعـوذاً أو عرّافاً. وليم

(1) ذاك: نقصـد هنـا: ذاك المهد وليس ذاك الفن. في النص الأصلي that cradle of progress etc.... – م.

(2) في النـص الإنكليـزي After Papal bull Ad Extirpanda. هـذا المرسوم أصدره الـبابا إنوسنت الرابع في 15 أيار/ مايو 1252 – م.

الأول، ملك إنكلترا، قال إن المشعوذة يُمكن التعرّف إليها إذا ما بدأت تبكي بعد أن يتم إدخال الإبر تحت جلدها من رأسها إلى أصابع قدميها، أو، بالتعاقب، برميها في بركة. إذا كانت بريئة، سوف تغرق. إذا كانت مذنبة سوف تطفو، وعندئذ تكون مستعدة للتعذيب ومن ثم الخازوق. لم يكن الملك هو وحده الذي حرّض على ذلك الكم الكبير من الغضب الشديد. لم يكن الـپاپاوات هم الوحيدون الذين مزقوا ضحاياهم في تلك التحقيقات المروِّعة، الذين جعلوهم يشتعلون على المحرقات أو في الأفران، في كثير من الأحيان جنباً إلى جنب مع أولادهم. كان سلاميو ذلك الزمن مذنبين حالهم حال الملوك والـپاپاوات: بجنبهم، بصمتهم، بتعنتهم، بانتهازيتهم، بصلبانهم تحت تصرفهم. يتعين عليّ أن أصفح عن هذا الشاب ذي الشارب الذي لم يتزعزع إيمانه قيد أنملة خلال الأعوام الثمانية التي أمضاها في فلورنسا. ينبغي لي أن أشكره على جعل مواجهتي مع توركويمادا العائد لي [1] ممُكنة. شكرتُه. سألتُه ماذا بوسعي أن أفعل له.

«أنا حتى لم أجرؤ على أن أسألكِ، بما أنه سوف يعني محاولة إلغاء البركة التي تطوّقك وتقرّبك من رجال الدين»، أجاب. أخبرتُه أن يسألني على أية حال، ألا يقلق بشأن ذلك. إن علاقتي مع رجال الدين كانت سيِّئة جداً، قلتُ له، وأنه ما من بركة يُمكن أن تُحسّنها. هيا، قُلها: ماذا كان يُريد؟

«أحد الثياب التي كنتِ تلبسينها في حضور الإمام. كنتُ أتمنى أن

(1) توركويمادا العائد لي my own Torquemada: توماس توركويمادا هو المحقق الإسباني الكبير. أحد أشهر محققي الكنيسة الكاثوليكية. حتى اليوم، يتم تذكر اسمه بقليل من الخوف، حيث أن الأفعال التي ارتكبها فظيعة حقاً. وهو مسؤول عن موت آلاف اليهود والمشعوذين المشبوهين خلال محاكم التفتيش الإسبانية (1420 – 1498) – م.

أعطي واحداً لزوجتي. تلك الثياب هي تذكارات عجائبية، ولسوء الحظ العبـاءة لم تكن عباءتها». أعطيتُه كلّ شيء: الشال، القميص، الوشـاح. حتـى أني أعطيتُه تذكار التذكارات كلّها، المسـجلة الغالية التي سجلت ذلـك الصوت الضعيـف. و، متجرّدةً من كلّ سر مقـدّس ومُطَهَّرةً من كـلّ قداسة، مضينـا إلى المطار وتبادلنا تحية الوداع مثل جنديين خدما في الخندق نفسه، مُقسِمين بصداقة أبدية وامتنان بلا نهاية.

إلا أننـي لَمّـا نشرتُ الحـوار، تغيّر كـلّ شيء. لا يهمّ عـلى الإطلاق أنّ الوغد باع أصلاً نسـخة مُلفَّقـة من الحوار لصحف طهـران، الذي عرّف فيـه الإمام بوصفه «نـور عينيّ» و «أمـل البشرية». الرجل المُسـن الشرير لم يشـترِ الحوار. حصـل بصعوبة بالغة على النص الأصـلي، قرأه، وبعدها لجـأ إلى مكبرات الصـوت خارج (قُم)، وراح يقـرأ حديثاً ضدي جعلت إنوسينت الثالث، غريغوريوس التاسع، وألكسندر الرابع الأعداء الكبار للزندقة أولئك تُعسـاء لأني امتلكتُ شـيئاً كانوا يُريدونه. مضيتُ إليه كي أتهمه بقطع أثداء النسـاء، وبلا جدوى حـاول أن يُقنعني أنه لم يقطع ثدياً واحداً، وأنه كان يتصرف بشفقة على الدوام. ذهبتُ إليه كي أُهين اللباس الإسلامـي، وبلا طائل حاول أن يشرح فضيلة العباءة. مزقتُ عباءتي شرّ تمزيـق ورميتُها في وجهه. هذا الأمر برهن على أنّ أعداء الثورة يختبئون في الأمكنة كلّها، وحتى وسط أولئك الذين لم يكونوا أصدقاء الشاه.

كـان سلامي مروَّعاً. نسي الصداقة الأبدية والامتنان الذي لا نهاية لـه، نسي كـلّ الحسـنات التي كسـبها من اللقـاء بخميني وكونـه صُوّر فوتوغرافيًّـا وهـو بجانبه. خدعنـي بطريقة غير متوقعـة على الإطلاق:

ربط نفسه مع محرري جريدة «زاني روز» وكتب دعوة من أجل عقوبة الموت. أما أنا فقد اغتنمت الثقة الجيدة التي استقبلوني بها، كنتُ منجذبة إلى الإمام بهدف وحيد هو دعم قضية العاهرات، الزناة، المثليين، والمتمردين الكورد. أنا عميلة الشاه، جاسوسة المناوئين للثورة، امرأة فاسدة ومُفسِدة. كنتُ بحاجة إلى أن أُعاقب إذا ما حصل أن وطأت قدماي تربة إيران من جديد، حتى إذا لم أفعل هذا. بجوار المقالة الافتتاحية، موقعةً باسم امرأة، كانت صورتي الفوتوغرافية، ممزقة إلى الأسفل حتى المنتصف للإشارة إلى أنه يجب أن يقطعوني إلى نصفين في أول فرصة ممكنة. أن يقطعوا أوصالي مثلما يقطعون أوصال مُشعوِذة.

عادةً عدم الاكتراث والصمت هما أفضل سلاحين تجاه الحمقى. ما من شيء يُثبط عزيمتهم ويُذهلهم بنجاح مثلهما. غير أنه من الصعب جداً أن تمنع نفسك من أن تسمي المعتوه معتوهاً، وقد اقترفتُ هذه الغلطة. أجبتُ ببرقية ذكّرته بأنّ الميزات الأولية للفاشيين، سواء أكانوا متدينين أو علمانيين، يمينيين أو يساريين، هو البلادة. الميزة الثانية هي الجهل، الذي يدعو إلى الجهل. الميزة الثالثة هي الحاجة إلى أن تضرب بقبضتيك كلّ مَن لا يتفق معك. والمقالة كانت مكتوبة من قبل ذلك السجق السفيه الذي خَبّأ شاربه وراء اسم أنثى مُستعار هو توحيد لتلك الميزات الثلاث. الجميع يعرفون أني كنتُ في جانب العاهرات، الزناة، المثليين، والكورد المقتولين في إيران. إذا كان هذا قد جعل قتلتهم يكرهونني، لا يسعني سوى أن أكون سعيدةً حيال ذلك. أن يحبني أولئك الذين لا يحبون الحرية هو، بالنسبة لي، إهانة. بقدر تعلّق الأمر بالتهديدات، الاعتراف بها لن يكون صعباً. ليس لديّ حراس شخصيّون، أنا لا أختبئ تحت عباءة،

ووجهي وجه مشهور، وكذلك عناويني، مع أنهم ليسوا بحاجة إليها، بما أني لن أعود إلى إيران. كانوا مُهانين بنحو مروِّع. أخذوا الصورة الفوتوغرافية الممزقة نحو المنتصف وطبعوها على مئات الملصقات ونشرات الإعلان، ألصقوها كلّها على جدران المدينة. وهناك وجدتُها في آذار/ مارس، الشهر الذي أكملتُ فيه تحديي الأهوج: نوع من مُلصق شبيه بتلك المُلصقات التي ألصقناها في الصالونات في (الغرب الأدنى)، وهي تحمل وجه (جين البلاء) [1] أو خارجين آخرين عن القانون كي يُلقى القبض عليهم أو يُطلق عليهم النار في أول نظرة.

بعد نحو شهر من إرسال برقيتي، اقتحمت فرق خميني السفارة الأمريكية في طهران وخطفوا الدبلوماسيين وأبقوهم رهائن طوال مدة تزيد على العام، وكانوا يزعمون أنّ تلك محاولة لاستعادة الشاه ومليارات الدولارات التي أودعها في (تشيس منهاتن بانك). ونتيجة لذلك، كفّ بزركان أخيراً عن ترؤس الحكومة التي لم تكن موجودة أصلاً، والشخصيات الثلاث التي كانت، في فيلمي السينمائي، ثانوية، وجدت نفسها فجأةً مندفعة بعنف على منصة التاريخ. صادق قطب زاده رُّشح وزيراً للخارجية، أصبح سلامي يده اليمنى وسفيراً في إيطاليا. بني صدر أُنتخب رئيساً لـ (الجمهورية الإسلامية). لا يهم ما إذا كانت أكاليل الغار هذه ستتحوّل حالاً إلى أنشوطات ستشنقهم

(1) جين البلاء Calamity Jane (1852 – 1903): اسم شائع لمارثا جين بوركي التي أضحت مشهورة في (غرب أمريكا المتوّحش) بسبب مهارتها في ركوب الخيل وإطلاق النار. كانت تلبس ثياب الرجال وتقول إنها سوف تجلب البلاء لكل مَن يجعلها تغضب أو يحاول أن يعشقها – م.

ثلاثتهم جميعاً، جارّة إياهم إلى داخل تراجيديات أو داخل العار. في اللحظة التي أُلقي فيها القبض على الرهائن، واجه العالم منعطفاً سوف يُضاعف بؤسه. والرحلة التي قمتُ بها كي أزيل الضباب من عقلي، كي أنفض وجعي، أمست نفقاً آخر، فخًّا من دون مَخارج ومن دون أمل. أينما ألتفتُ أُبصرْ حرباً أو تهديداً بحرب، الغوغاء يحكمون والحرية تموت. ذلك العام انتهى بغزو أفغانستان، وكان أيضاً العام الذي بدأت فيه الحملة ضد (الغرب)، الذي كان فجأةً مصدر الشرّ كلّه والخزي كلّه، رمز كلّ خطيئة وكلّ عمل شائن. من سوريا إلى العراق، من الكويت إلى قطر، اليمن الشمالي، اليمن الجنوبي، من الهند إلى بنغلاديش، من تركيا إلى باكستان، السفارات الأمريكية يُهجم عليها أو تُحرق أو تُدمَّر. الكراهية امتدت إلى كلّ فرد يتكلّم الإنكليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الإسبانية أو الفلمنكية [1]. كنت ستقول إن ثقافتنا وحضارتنا تخضعان لعملية انجراف، في نوعٍ من حملة عنيفة معاكسة، يقوم بها أبناء الله.

وهذه الحملة العنيفة انتصرت، مثلما انتصر الرجل الشرير، الدجال المتغطرس الذي كان يبتزنا طوال أعوام بملياراته، بنفطه، مُحرّضاً ومُموّلاً ومُدرباً الإرهابيين العالميين، مستفزاً ومغذياً الصراعات في جميع أنحاء العالم، موفراً الحماية لكلّ أبله عرّفه باعتباره ثوريًا. في حالة واحدة، كان

(1) الفلمنكية Flemish: وهي أي نوع من لهجات اللغة الهولندية التي تستخدم في فلاندرز، في الجزء الشمالي من بلجيكا، فضلاً عن فلاندرز الفرنسية وفلاندرز الزيلندية الهولندية التي يستخدمها نحو 6,5 مليون شخص. تُسمى أيضاً: الفلمنكية الهولندية أو البلجيكية الهولندية أو الهولندية الجنوبية – م.

قد حمى ندّه: قائد ليبيا الذي كان سنّه يومذاك ثمانية وثلاثين عاماً، العقيد مُعمـر القذافي. لـذا قررتُ أن أذهب وأبحث عنـه في الضباب الرهيب الـذي رميـتُ نفسي فيه فيما كنـتُ أسعى للهَرَب من ضبـاب آخر. هذا سوف يساعدني، قبل كلّ شيء، في أن أفهم بنحو أفضل كلمتين تدعمان الحيلة التي تُدعى السلطة: كلمة (قائد) وكلمة (الثورة).

telegram @soramnqraa

أنديرا غاندي

نيو دلهي، شباط/ فبراير 1972

أوريانا فالاتشي: سيدة غاندي، لديّ أسئلة كثيرة جداً أود أن أطرحها عليكِ، أسئلة شخصية وسياسية على السواء. الأسئلة الشخصية، على كلّ حال، سأتركها إلى وقت متأخر. أُريد أن أفهم لماذا يخاف منكِ عددٌ غفير من البشر ويسمونكِ باردة، في الحقيقة، ثلجية، قاسية...

أنديرا غاندي: إنهم يقولون ذلك لأني مخلصة. حتى مخلصة جداً. إني لا أضيّع الوقت في الحديث الصغير المزوّق، كما يفعل الناس في الهند، حيث ينقضي نصف الساعة الأول في تبادل التحيات: «كيف حالك، كيف حال أولادك، كيف حال أحفادك، وهلم جرًّا». أرفض الانغماس في حديث قصير. والتحيات، إذا كان لا بدَّ منها، أستبقيها بعد إكمال العمل. إلا إنه في الهند الناس لا يسعهم أن يُطيقوا موقفي هذا، وحين أقول، «أسرعوا، دعونا نصل إلى لُبّ القضية»، يحسون بالأذى. ويحسبون أني باردة، في الحقيقة ثلجية، قاسية. إذاً هنالك سببٌ آخر، وهو سببٌ يواكب صراحتي: أنا لا أتصنّع مَظهراً ما. لا أعرف كيف أتصنّع مظهراً ما؛ أنا دوماً أُظهر نفسي كما أنا عليه، في أيّ مزاج أنا مهما كان نوعه. إذا كنتُ سعيدة، أبدو سعيدة؛ إذا كنتُ جائعة، أُبدي جوعي. من دون أن أهتم كيف ستكون ردّة فعل الآخرين. حين تكون للمرء حياة صعبة كحياتي، لا يهتم كيف ستكون ردّة فعل الآخرين.

والآن تابعي. بمستطاعكِ أن تسألي ما تشائين.

أ. ف.: رائع. سأبدأ بالسؤال القاسي جداً. لقد كسبتِ، أكثر مما كسبتِ، حرباً. غير أن قلّةً منا يعدّون هذا النصر نصراً خطيراً. هل تعتقدين بالفعل أنّ بنغلادش ستكون هي الحليفة التي تتمنينها؟ ألا تخافين من أن احتمال أن تتبين بدلاً من ذلك أن تكون العقبة المزعجة جداً؟

أ. غ.: أنظري، الحياة مليئة دوماً بالمخاطر ولا أعتقد أنه يتعين على المرء أن يتفادى المخاطر. أعتقد أنه يتعين على المرء أن يفعل ما يبدو صحيحاً. وإذا ما يبدو صحيحاً يتضمن خطراً... حسناً، يتعين على المرء أن يواجه الخطر. كانت فلسفتي هكذا على الدوام لا أفكر قط في عواقب عمل ضروري. أتفحص العواقب تالياً، حين يبرز موقف جديد، وعندئذ أواجه الموقف الجديد. وهذا هو الحال. إنكِ تقولين إن هذا النصر الجديد خطير. أقول إنه اليوم لا أحد باستطاعته أن يقول لكِ ما إذا هو خطير، ذلك أنني اليوم، لا أرى المخاطر التي تذكرينها. إذا، على أية حال، كان يجب أن تكون تلك المخاطر واقعاً... سوف أتصرّف وفقاً للواقع الجديد. أتمنى أن يبدو هذا أشبه بمقولة إيجابية. أُريد أن أجيبكِ بطريقة إيجابية. أود أن أصرّح أنه ستكون هنالك صداقة بين بنغلاديش وبيننا. وليست صداقة من جانب واحد، بطبيعة الحال لا أحدَ يفعل شيئاً من دون مقابل؛ كلّ طرف لديه شيء يُعطيه وشيء يأخذه. إذا ما أعطينا شيئاً ما إلى بنغلاديش،

مـن الجـليّ أنّ بنغلاديـش تُعطينـا شـيئاً مـا. ولمـاذا لا يتعين على بنغلاديش أن تكـون قادرة على الوفاء بوعودهـا؟ اقتصاديًّا هي مليئـة بالمـوارد، وبوسعها أن تقف على قدميهـا. سياسيًّا يبدو لي أنها تُقاد من قبل أناس مُتمرِّسين. اللاجئون الذي وجدوا ملاذاً لهم هنا يذهبون إلى بلادهم...

أ. ف.: هل حقاً يذهبون إلى بلادهم؟

أ. غ.: نعم، مليونا شخص عادوا أصلاً.

أ. ف.: مليونان من بين عشرة ملايين. هذا ليس بالعدد الكبير.

أ. غ.: لا، لكـن أعطيهم وقتاً. إنهم يرجعـون بسرعة. بسرعة كافية. أنا مقتنعة بذلك. أكثر مما توقَّعت.

أ. ف.: سيـدة غانـدي، في ذكـر المخاطر التي تُحيق بنصركِ، أنا لا أُشـير فقـط إلى بنغلاديش. أنا أُشـير كذلك إلى (بنغـال الغربية)، وهي تابعـة للهند، وهي الآن تُثـير صخباً من أجل استقلالها. سمعتُ أن النكسـاليين [1] في كالكوتـا... وثمـة جملة تعـود للينين تقول «الثورة العالمية سوف تمر عبر شنغهاي وكالكوتا».

أ. غ.: لا، هـذا غير ممكن. وتعرفين السـبب؟ لأن الثورة تجري في الهند

(1) النكسـاليون Naxalites: النكسـالي هو عضو منظمة سياسية مُسلّحة تدّعي إرث الحزب الشيوعي الهندي (الماركسيون اللينينيون)، تأسسـت في كالكوتا العام 1969. اسم النكسـالي مُستقى من اسم قرية (نكسـال باري) في (البنغال الغربية)، حيث وقع تمرد الفلاحين النكساليين في العام 1967. يُعد النكساليون شيوعيين في أقصى اليسار، وهم مدعومون من الماوية (نسبة إلى ماو تسي تونغ) – م.

أصلاً. الأشياء تتغيّر هنا أصلاً بطريقة سلمية وديمقراطية. لا يوجد خطر الشيوعية. سيكون هنالك خطر لو كان لدينا حكومة يمينية بدلاً من حكومتي. في حقيقة الأمر، الشيوعيون اكتسبوا القوة في الهند حين كان الشعب يعتقد أن حزبي[1] يتحرّك إلى اليمين. وكانوا على صواب. في مواجهة تهديد كهذا، لم يكن لديهم خيار آخر سوى أن يرموا أنفسهم إلى أقصى اليسار. لكن الآن وقد بات الشعب يعي جهودنا، الآن وهم يروننا ونحن نحلّ المشاكل، الشيوعيون فقدوا قوّتهم. فيما يتصل بالنكساليين في (بنغال الغربية)، إنهم تحت السيطرة تماماً، وأنا متيقنة أنّ أولئك الموجودين في بنغلاديش سوف يتم أيضاً السيطرة عليهم. لا، لا أتوقَّع أيَّ مشكلة.

أ. ف.: لقد سبّبوا لكِ أصلاً مشكلةً ما، في بنغلاديش. رأيتُ إعدامات مُخيفة من دون محاكمة في دكا بعد التحرير.

أ. غ.: حصل هذا في الأيام الخمسة الأولى وكانت قليلة بالمقارنة مع المجازر التي نفذها الآخرون، بالمقارنة مع المليون الذين قتلهم الآخرون. كانت هنالك وقائع مؤسفة، هذا صحيح، وقد حاولنا أن نمنعها. ليتكِ فقط تعلمين كم عدد الأشخاص الذين أنقذناهم! غير أننا لم نكن قادرين على أن نكون في الأمكنة كلّها، لم يكن بوسعنا رؤية كلّ شيء، وإنه شيءٌ لا مفرَّ منه أنّ بعض الأشياء تفلت منا. في سائر المجتمعات تجدين مجموعات

(1) حزب أنديرا غاندي هو (حزب المؤتمر الوطني) – م.

تتـصرّف بنحو سيِّئ. إنما ينبغـي لكِ أن تفهميهم أيضاً. الاستياء جعلهـم محتدمين غيظـاً، الاستيـاء أعمى أبصارهـم. كي نكون مُنصفين، يتعين على المرء ألا يفكر في ما ترينه في أيام قلائل بل في ما رأوه وعانوا منه على مدى شهور طوال.

أ. ف.: سيدة غاندي، إنكِ تعرفين الاتهام الذي يذهب إلى القول إنكم الهنـود الذين حرّضوا على هـذه الحرب وهم الذين هاجموا أولاً. ماذا تقولين بشأن ذلك؟

أ. غ.: سأُجيـب بالاعـتراف بأنه، إذا كنتِ تُريدين العـودة للوراء، لقد قدّمنـا العـون إلى موكتـي باهينـي[1]. إذاً، إن كنـتِ تعدين ذلك كلّـه بوصفه بدايةً مع ذلـك العون ومنذ تلك اللحظة، نعم نحن الذيـن بدأنـا الحرب. إلا أنه لم يكن بمسـتطاعنا أن نفعل خلاف ذلك. لم يكن بوسعنا أن نستبقي عشرة ملايين لاجئ على ترابنا؛ لم يكـن بوسعنـا أن نتحمّل وضعاً غير مسـتقر كهـذا طوال مدة زمنيـة لا أحد يعـرف كم تدوم. تدفق اللاجئـين ذاك كان ينبغي إيقافـه على العكس. لقد استمر واستمـر واستمر، إلى أن يحصل انفجار. لم نعد قادرين على أن نسيطر على وصول أولئك الناس، في مصلحتنـا علينـا أن نضـع حـدًّا لذلـك! هـذا ما قلتُه للسـيد

(1) موكتـي باهينـي Mukti Bahini: معنـى هاتـين الكلمتين الحـرفي «الفدائيون» أو «جيش التحرير». وهم أعضاء حركة مقاومة، تتألف من عسـكريين وشـبه عسكريين ومدنيين بنغلاديشيين قاتلوا في أثناء (حرب التحرير) التي حوّلت (باكستان الشرقية) إلى بنغلاديـش في العـام 1971. سُميّ هؤلاء أيضاً في وقت أبكر «موكتي فوج». فوج، لا ريب كلمة عربية – م.

نيكسـون، لكلّ الزعماء الآخريـن الذين زرتُهم في محاولةٍ لتفادي الحرب.

علـى أيـة حال، لمّا تنظرين إلى بداية الحـرب الفعلية، إنه لمن الصعب ألا تعترفي أنّ الباكسـتانيين هم الذين هجموا. كانوا هم الذين نزلوا علينا بطائراتهم، في السـاعة الخامسـة من ذلك الأصيل لمّا هوت أول القنابـل عـلى (أغـرا). باستطاعتـي أن أثبت ذلـك لكِ من خـلال الحقيقة القائلة إننا فوجئنـا. إنّ نهاية الأسبوع هي الوقت الوحيـد الذي نسـتطيع فيه نحن العاملـين في الحكومة أن نغادر دلهـي، و، حسـناً، تقريباً لا يكون هنالك أحـد في دلهي. مضيتُ إلى كالكوتا. وزير الدفاع ذهب إلى پاتنا ومن هناك كان سيذهب إلى بنغالـور في الجنوب. وزير الماليـة ذهب إلى بومباي وكان يهمّ بالذهـاب إلى پوونا. رئيس القوات المسـلّحة كان في موقع آخر. لا أتذكـر أين. كان علينـا جميعاً أن نسرع عائدين إلى دلهي، ولهذا السـبب لم تذهـب قواتنا إلى الهجوم المعاكـس إلا في اليوم التالي، بـدلاً مـن أن تفعل هـذا في غضون ساعات قلائل. لهذا السـبب نجـح الباكسـتانيون في احتـلال بعـض المناطـق. مـن الطبيعي، كنـا جاهزين؛ كنـا نعرف أنّ شـيئاً ما سوف يحصـل. إلا أننا كنا مسـتعدين فقط للهجمات الجوية، في الواقـع. لو لا ذلك، لكانوا قد صرعونا.

أ. ف.: سيـدة غاندي، ذكرتِ الرحلة التي قمتِ بها إلى أوروبا وأمريكا كي تتجنبي الصراع. هل تسـتطيعين أن تقـولي الحقيقة اليوم عما

جرى؟ كيف سارت الأمور مع نيكسون؟

أ. غ.: قمتُ بالرحلة وأنا أعرف أني أشبه بالطفل الذي يضع إصبعه في ثقب بالجدار. وكانت هنالك أشياء بحيث... لا أعرف... لا يقدر المرء... أوه لِمَ لا! الحقيقة هي إني تكلّمت بوضوح مع السيد نيكسون. وقلتُ له ما قلتُه للسيد هيث، السيد بومبيدو، السيد برانت. قلتُ له من دون كلمات متكبرة إننا لا نستطيع أن نستمر وعلى ظهورنا عشرة ملايين لاجئ، لا يمكننا أن نتحمل بعد الآن فتيلاً من هذا النوع والموقف المتفجر. حسناً، السيد هيث، السيد بومبيدو، والسيد برانت فهموا جيداً جدًّا. لكن السيد نيكسون لم يفهم. الحقيقة هي أنّه حين يفهم الآخرون شيئاً، يفهم السيد نيكسون شيئاً آخر. أنا أشك في كونه مسانداً فعالاً للباكستانيين. أو بالأحرى كنتُ أعرف أنّ الأمريكيين كانوا على الدوام يساندون باكستان لا لأنهم يساندون باكستان، إنما لأنهم ضد الهند؟

على كلّ حال، كان لديّ مؤخراً الانطباع بأنهم يتغيّرون لا لأنهم يصبحون مساندين لباكستان بنحو أقل بل لأنهم يصبحون ضد الهند بنحو أقل. كنتُ غلطانة. زيارتي لنيكسون فعلت كلّ شيء باستثناء تجنب الحرب. كانت مفيدة لي وحدي. التجربة علّمتني أنه حين يفعل الناس شيئاً ما ضدكِ، ذلك الشيء ينقلب دوماً ويغدو في صالحكِ. في الأقل بمستطاعكِ أن تستغليّه في مصلحتكِ. إنه قانون الحياة تمحصي ذلك وسترين أنه لا يزال

صائباً في كلّ موقف من مواقف الحياة. أتعرفين لماذا فزتُ في الانتخابات الأخيرة؟ السبب هو أن الشعب يُحبني، نعم، لأني عملتُ بجد، نعم، لكن أيضاً لأنّ المعارضة تصرفت بنحو سيِّئ تجاهي. وهل تعرفين لماذا كسبتُ الحرب؟ لأن جيشي كان قادراً على أن يفعل هذا، نعم، لكن أيضاً لأن الأمريكيين كانوا إلى جانب باكستان.

أ. ف.: لا أفهم.

أ. غ.: دعيني أشرح لكِ. كانت أمريكا تعتقد على الدوام أنها تساعد باكستان. لكنها إن لم تساعد باكستان، باكستان ستكون بلداً أقوى. إنكِ لا تساعدين بلداً بواسطة دعم نظام عسكري يسلب أيّ علامة من علامات الديمقراطية، وما جعل باكستان تُهزم هو نظامها العسكري. ذلك النظام كان يدعمه الأمريكيون. غالباً الأصدقاء خطرون. علينا أن نكون محترسين جداً فيما يتصل بالمساعدة التي يقدمها لنا الأصدقاء.

أ. ف.: وماذا عن الصينيين؟ الصينيون أيضاً كانوا يقفون إلى جانب باكستان، وإن لم أكن مُخطئة، الصين هي أكبر عدو ممكن للهند.

أ. غ.: لا. لا أرى سبباً لماذا نحن والصينيون يجب أن نكون أعداءً. نحن لا نُريد أن نكون أعداءهم. إذا كان هذا هو ما يُريدونه، لا يسعنا أن نفعل شيئاً حيال ذلك، إلا أنني لا أعتقد أنهم فعلاً يُريدون ذلك، لأني لا أعتقد أنّ ذلك في التحليل الأخير سيعود عليهم

بأيّ نفـع. فيما يتعلّـق بموقفهم الذي اتخذوه في هـذه الحرب... حسـناً، أعتقد أنهم كانوا أكثر مهارة من الأمريكيين. يقيناً كانت لهم لمسة أخف لو كانوا يُريدون، كانوا سيفعلون أكثر لباكستان. أليـس الأمر هكذا؟ إنهم الأمريكيـون الذين أرسلوا (الأسطول السـابع) إلى (خليج البنغال)، وليسـوا الصينيـين. وكي لا أقوم بشيء خطير، لم أسحب قواتنا من الحدود الصينية، لكنني لم أكن أعتقـد أنّ الصينيـين سوف يتدخَّلـون من خلال القيـام بحركة كاذبـة. بكلمات أخـرى، لم أكن أؤمن بخطر وقـوع حرب عالمية ثالثـة. مـن الطبيعي، لـو كان الأمريكيـون قد أطلقـوا رصاصة واحـدة، لو عمل (الأسطول السـابع) شـيئاً أكثـر من أن يجلس هنـاك في (خليج البنغال)... نعم، (الحرب العالمية الثالثة) كانت ستنفجر. لكن، بكلّ أمانة، حتى ذلك الخوف لم يتملّكني .

أ. ف.: يبـدو شـيئاً غريبـاً جـداً أن نتكلّم عـن الحرب معـكِ أنتِ التي تربَّيـتِ في كنـف مُعتقَـد اللا عنـف، سيدة غاندي. إني أتسـاءل كيف تشعرين في أيام الصراع هذه.

أ. غ.: يتعـين عليـكِ أن تضعي في ذهنكِ أنها ليسـت حربي الأولى؛ كان ينبغـي لي أن أواجـه الآخرين. وعـلى كلّ حال سأخـبركِ بقصة صغـيرة فيما يتعلّق باللا عنف. كانت الهنـد قد استقلت للتو، في 1947، حين اجتاحت باكسـتان كشمير، التـي كانت يحكمها في ذلك الحـين مهراجا. المهراجا فرّ هارباً، وشـعب كشمير، الذين يقودهم شيخ عبد الله، طلب المساعدة الهندية. اللورد مونتباتين،

الـذي كان لا يـزال الجنرال الحاكـم، أجاب أنه لن يكـون قادراً على تقديم مسـاعدة لكشمير ما لم تعلن باكستان الحرب، ويبدو أنه لم يكـن مهتمًّا بالحقيقة القائلة إن الباكسـتانيين كانوا يذبحون السـكان. لذا قرر قادتنـا أن يُوقِّعوا وثيقة وفقـاً لبنودها يُلزمون أنفسـهم بالذهاب للحرب مع باكسـتان. ومهاتمـا غاندي، رائد الـلا عنف، وقَّع معهم. نعـم، اختار الحرب. قال إنه ما من شيء آخر يُمكن القيام به. الحرب لا مفرّ منها حين يتعين على المرء أن يدافع عن شخص ما أو حين يدافع عن نفسه.

أ. ف.: المسـألة هـي أني أصرّ على رؤيـة هذه الحـرب باعتبارها حرباً بين الأشـقاء. وأنا حتى قلتُ هذا للجنرال أورورا[1] والجنرال نيازي[2]. وكلاهما أجاب قائلًا، «جوهريًّا نحن أشقاء».

أ. غ.: ليـس أساسيًّا بل تماماً. الهنود والباكسـتانيون هما أشـقاء حرفيًّا. أعـرف أنـكِ ذُهلـتِ لـمّـا صافـح، بعـد سقـوط دكـا، الضبـاط

(1) جاجيـت سينـغ أورورا Jagjit Singh Aurora (1916 – 2005): جنـرال برتبـة فريق في الجيش الهندي، وهو القائد العام للقوات المسلّحة في (القيادة الشرقية) (وهي إحدى قيادات العمليات الست في الجيش الهندي) خلال (الحرب الثالثة) مع باكستان العام 1971 – م.

(2) أمـير عبد الله خان نيـازي Amir Abdullah Khan Niazi (1915 – 2004): جنرال برتبـة فريق في الجيش الباكسـتاني وآخـر حاكـم لـ (باكسـتان الشرقية)، عُـرف بقيادته لـ (القيادة الشرقية) التابعة للجيش الباكسـتاني في (باكسـتان الشرقية) (تُسـمى بنغلاديش الآن) خـلال الجبهتـين الشرقية والغربيـة للحرب الهندية الباكسـتانية حتى الاستسـلام أحادي الجانب في 16 كانون الأول/ ديسـمبر 1971 للفريق جاجيت سينغ أورورا الذي تزعم (القيادة الشرقية) للجيش الهندي و(قوات التحرير البنغالية) – م.

الباكستانيون والهنود أحدهم الآخر. لكن هل تدركين أنه، حتى حلول العام 1965، في جيشنا وفي الجيش الباكستاني يُمكنكِ أن تصادفي جنرالات هم أشقاء؟ أشقاء بالدم، أبناء الأب نفسه والأم نفسها. أو تجدين عمّاً في جانب واحد وابن أخ في الجانب الآخر، ابن عم هنا وابن عم هناك. فضلاً عن ذلك لا يزال الأمر صحيحاً اليوم. سأقول لكِ شيئاً آخر. في وقتٍ من الأوقات حين كان هنالك سفيران في سويسرا، أحدهما من الهند والآخر من باكستان، كانا شقيقين بالدم. أوه (التقسيم) الذي فرضه علينا البريطانيون غير طبيعي للغاية! إنه لا يخدم سوى تقسيم العائلات، فصلُ كلِّ واحدة منها عن الأخرى. أتذكر وقائع باعثة على الغضب. الناس الذين هاجروا، الناس الذين لم يكونوا يرغبون بالهجرة. عددٌ غفير من المسلمين لم يكونوا يُريدون أن يغادروا الهند كي يسكنوا في باكستان، إلا أنّ الدعاية كانت تشيع أنه ستكون لديهم فرصٌ أكبر ولهذا غادروا. هندوس كُثر، من الناحية الثانية، لم يرغبوا بالبقاء في باكستان، إلا أنهم كانت لديهم ارتباطات أو ملكية ولهذا مكثوا هناك.

أن يُصبحوا أعداءنا يا لها من سفاهة. سفاهة معتوهة حين تكفين عن التفكير أننا نحن، مسلمون وهندوس، تولينا النضال من أجل الاستقلال سوية. أجل، حتى في ظل حُكم البريطانيين كانت هنالك مجموعات عدائية. كانت هنالك مناوشات. لكن، كما اكتشفنا تالياً، هذه المناوشات كان يثيرها أولئك الذين لم تكن

لديهـم رغبة في أن يجعلونا نعيش سوية في عشية (التقسـيم). إن سياسـة إبقائنا منقسـمين كـان يتبعها دوماً الأجانـب، حتى بعد (التقسـيم). لو كان الهنود والباكسـتانيون سوية... لا أقول إنهما بلدان متحـدان بل بلدان جـاران وودودان... على غرار إيطاليا وفرنسـا، على سبيل المثال... صدّقيني، كلانا كان من الممكن أن نتقـدّم أكثر بكثير. لكن، يبـدو أنّ ذلك لم يكن في مصلحة «جهة مـا» لنا أن نحقق تقدماً. إنه في مصلحة «جهة ما» أن نكون دوماً في حالة حرب، أن يمزق أحدنا الآخر إرباً إرباً. نعم، أنا أميل إلى أن أغفر للباكسـتانيين. كيف كان بوسعهم أن يتصرّفوا؟ جهة ما شـجعتهم على شن الهجوم علينا، جهة ما أعطتهم الأسلحة كي يهجموا علينا. وقد هجموا علينا فعلاً.

أ. ف.: يقـول بوتـو[1] إنه مسـتعد أن يُقيـم اتحاداً مع الهنـد. ما رأيكِ في ذلك، سيدة غاندي؟

أ. غ.: إنـكِ تعرفـين... بوتو ليـس رجلاً متوازناً جـداً. حين يتكلّم، لا تفهمين ما يعنيه. ماذا يعني هذه المرة؟ إنه يُريد أن يكون صديقنا؟ كنـا نريد أن نكون أصدقاء معه على مدى زمن معين؛ كنتُ أُريد ذلـك على الدوام. هنا ثمـة شيء لا يعرفه (الغربيون). الصحافة

(1) ذو الفقـار عـلي بوتـو (1928 – 1979): سيـاسي باكسـتاني تـدرج في المناصـب الرسميـة ومنهـا: رئيـس البـلاد (1971 – 1973 ورئيس الـوزراء (1973 – 1977). أسس (حزب الشعب الباكسـتاني PPP) وأُعدم العام 1979 بعد محاكمة مثيرة للجدل لموافقته على اغتيال سياسي معارض في خطوة عَدَّها بعضهم بدفعٍ من القائد العسكري محمد ضياء الحق – م.

(الغربيـة) كانـت تلـحُّ دوماً عـلى أنّ الهنـد هي عدوة باكسـتان والعكـس بالعكس، وأنّ الهندوس هم ضد المسـلمين والعكس بالعكـس. لم يقولوا قط، على سبيل المثـال، إن حزبي يحارب هذا الموقف منذ أن تقطَّعت أوصالنا إلى بلدين. منذ ذلك الحين أكدنا أنّ العـداوات الدينيـة خاطئـة وسخيفة، أنّ الأقليـات لا يُمكن محوهم من البلد، وأنّ الأديان المختلفة يجب أن تتعايش.

لكـن كيـف يتمكن الشعب في العالم الحديـث أن يذهب ليقتل أحدهم الآخـر بسـبب الدين؟ إن القضايـا التي يتعين علينـا أن نهتم بها في أيامنـا هذه هي قضايـا مختلفة تماماً! إنها قضايـا الفقر، حقوق الفرد، القضايـا المتعلّقة بالتغييرات التـي أحدثتها التكنولوجيا. إنها القضايا التي تسـتحق الاهتـمام، أكثر من الدين! لأنها قضايا كونية، لأنها تناسب بقياس متساوٍ باكستان وتناسبنا. لا يُمكنني أن آخـذ الأمـور بجد حين يغـدو الناس مُسـتثارين ويصرخون قائلـين إن الديـن في خطـر، وحماقـات مـن هـذا الطراز. لسـوء الحظ، ثمة أناس يتكلّمون هكذا. وهم نفس الأشـخاص الذين يقولـون، «كان يتعينّ علينا ألا نقبل بوجود باكسـتان. الآن وقد باتت باكسـتان موجودة على أرض الواقـع، يجب تدميرها». إلا أنّ هؤلاء هم مجرّد مجانين قلائل ليس لهم أتباع بين الجماهير.

في الهند، لا تجدين دعاية ضد باكستان. إبَّان الحرب كانت هنالك دعاية قليلـة، وهـذا أمر طبيعـي، لكن حتى خلال الحـرب كنا قادرين على السـيطرة عليها. في الواقع الباكستانيون اندهشوا حيال هذا

الأمر. كـان هنالك سجناء في مسـتشفيات المخيم، وكان هؤلاء يهتفـون، «مـاذا، أنـتَ طبيـب هنـدوسي وتُريـد أن تُعالجنـي؟» أنظري، يُمكنني فقط أن أردّ على بوتو قائلة، إذا كان يعرف ماذا يقـول، فهو أنه يقول الشيء الوحيد الذي يُمكن أن يُقال. وإذا لم يقُلْ ذلك، كيف سيكون مستقبله؟ قيل لي إن بوتو طموح. أتمنى أن يكون طموحاً جداً؛ الطموح قد يساعده على رؤية الواقع.

أ. ف.: لننحرف لحظةً، سيدة غاندي. أنتِ لستِ متدينة، أليس كذلك؟

أ. غ.: حسـناً... الأمر يعتمد على مـاذا تقصدين بكلمة (دين). يقيناً أنا لا أذهـب إلى المعابـد وأُصلي للآلهة أو أيّ شيء مـن هذا القبيل. لكن إذا كنا نقصد بالدين الإيمان بالإنسانية بدلاً من الآلهة، وهو جهد يجعل الإنسان أفضل وأسعد، إذاً نعم. أنا متدينة جداً.

أ. ف.: أتمنى أنه لم يكن سؤالاً مُحرِجاً، سيدة غاندي.

أ. غ.: لا، لماذا؟

أ. ف.: هذا السؤال مُحرِج، على أية حال. كنتِ تُنادين دوماً بسياسة عدم الانحياز، وبعدها في آب/ أغسطس الماضي وقَّعتِ على معاهدة الصداقة الهندية السوفييتية. ألا يوجد تضارب بين الشيئين؟

أ. غ.: لا، لم أقُـل هـذا. لأنه مـاذا يعني عدم الانحياز؟ إنـه يعني أننا لا ننتمي لأيّ كتلة عسـكرية وأننا نحتفـظ بحقنا في أن نصادق أيّ بلد، بشكل مستقل عن تأثير أيّ بلد. هذا كلّه ظلّ من دون تغيير بعـد توقيـع المعاهدة الهنديـة السـوفييتية، وبمسـتطاع الآخرين

أن يقولوا ما يحلو لهم أو يفكروا بما يشاءون سياستنا لن تتغيّر بسبب (الاتحاد السوفييتي). نحن نعرف حق المعرفة أنّ مصير الهند مرتبط بالسلم العالمي. على أية حال، المعاهدة موجودة، كما تقولين، وهي تضعنا في موقف مختلف اتجاه (الاتحاد السوفييتي) مقاربة بموقفنا تجاه البلدان الأخرى. نعم، المعاهدة موجودة. وهي غير موجودة فقط في جانب واحد. أنظري كيف هو موقعنا جغرافيًّا وسترين أنّ الهند مهمة جداً بالنسبة لـ (الاتحاد السوفييتي). ومع ذلك، فيما يتصل بالقضايا الدولية، المعاهدة لا تغيّر شيئاً. أي بمعنى، أنها لم تمنعنا من أن نعقد علاقات صداقة مع البلدان الأخرى، وهذا بالفعل هو حالنا. إنها لم تمنعنا من ممارسة عدم الانحياز نفسه، مثلما نحن عليه فعلاً. وأنا أؤكد لك أننا مستمرون في اتخاذ قراراتنا من دون أن نُبالي سواء أكانت تُرضي أو تُثير استياء (الاتحاد السوفييتي)، الصين، أمريكا، فرنسا، أو أيّ دولة أخرى. أتودين أن تعرفي شيئاً آخر؟ بعد شهر على توقيع المعاهدة سأل أحدهم شو إن لاي عن رأيه في ذلك. فأجاب شو إن - لاي، «إنها لا تؤثر. لا أعرف لماذا يجب أن يكون لها أيّ تأثير».

أ. ف.: إن فتح سفارة هندية في هانوي في المستقبل القريب يؤثر، على أية حال. في الواقع، أنتِ رئيسة (مفوضية السيطرة الدولية في ڤيتنام). ماذا يعني هذا؟ أنكِ سوف تعتزلين عضوية المفوضية ورئاستك لها؟

أ. غ.: لا أعـرف... مـن الواضح المشكلـة تنبثق... إلا أننـي لا أزال لم أفكـر في كيفية حلّها. وإذا ما تحدّثتُ عن هـذا... دعينا نتحدّث عنه على أية حال. اسمعي، (مفوضية السيطرة الدولية) لا تفعل أيّ شيء، إنهـا لم تفعـل أيّ شيء. ما هـي الفائدة أن أكون فيها أم لا؟ قبل فتح السـفارة في هانوي، فكرتُ في هذه المسـألة طويلاً، إلا أنه لم يكن حقيقةً قراراً موجعاً. السـياسة الأمريكية في ڤيتنام هـي كما هـي عليـه، في سايغون الموقـف هو أيّ شيء عـدا كونه طبيعيًّا، وأنا سعيدة لأني فعلتُ ما فعلت.

أ. ف.: إذاً هل كان الشعب على حق حين حسبوا أنكِ تميلين إلى اليسار أكثر مما كان عليه والدك؟

أ. غ.: أنظـري، أنـا لا أرى العـالم بوصفـه شـيئاً مقسـوماً بـين اليمـين واليسار. وأنا لا أُبالي البتة مَن هو في اليمين ومَن هو في اليسار أو في الوسط. مع أننا نسـتعمل هذه الكلمات، مع أنني أنا شـخصيًّا أستعملها، هذه التعابير فقدت معناها كلّه. أنا غير مهتمة في ليبل ما أو سواه أنا مهتمة فحسب في حلّ مشاكل معينة، في الوصول إلى الغاية التي أُريد الوصول إليها. لديّ أهداف معينة. إنها نفس أهـداف أبي: أن أُعطـي الشعـب مسـتوىً أعلى مـن العيش، أن أقضي على سرطان الفقر، أن أُزيل عواقب التخلّف الاقتصادي. أود أن أنجح. وأُريد أن أنجح بأفضل طريقة ممكنة، من دون أن أعبأ ما إذا يُسمي الشعب أفعالي يسارية أو يمينية.

إنها القصة ذاتها لمّا أمّمنا البنوك. أنا لا أنحاز إلى التأميم بسبب

بلاغـة التأميـم، أو بسـبب أني أرى في التأميـم العـلاج الشامل للمَظـالم كلّهـا. أنا منحـازة للتأميم في الحالات التـي يكون فيها التأميـم ضروريًـا. لمّـا فكرنـا في ذلـك أولاً، كان حـزبي في حالة اضطـراب؛ لأن أحـد التوجهين يدعـم التأميـم والتوجُّه الآخر ضد التأميم. وكي لا نُحدِث شرخاً في الحزب، اقترحتُ تسوية: أن نُعطي البنوك مدة سنة ونرى ما إذا ينجحون في أن يُظهروا لنا أنّ التأميم غير ضروري. انطوت السـنة وأدركنا أنه لم يكن قرار التأميـم ذا فائـدة تُذكر، وأنّ النقود كانت لا تزال تنتهي في أيدي الصناعيين الأثرياء أو أصدقاء المصرفيين. لهذا استنتجتُ أنه من الـضروري تأميم البنوك. وقد فعلنا. من دون أن نفكر أنها بادرة اشـتراكية أو بادرة مناوئة للاشـتراكية، مجرّد أنها بادرة ضرورية. كلّ شـخص يؤمم لمجرد أن يُعَد يسـاريًّا بالنسـبة لي هو شخص أحمق.

أ. ف.: عـلى كـلّ حال، لقد استعملـتِ كلمة (اشـتراكي) في مناسبات متباينة.

أ. غ.: نعم، لأنها الكلمة الأقرب لما أود أن أفعله. وفي سائر المجتمعات التي طبّقت شـكلاً من أشكال الاشـتراكية، تحققت درجةٌ معينةٌ مـن المسـاواة الاجتماعيـة والاقتصاديـة. لكن الآن حتـى كلمة (اشـتراكية) لها معانٍ وتفسـيراتٌ كثـيرةٌ جداً. الروس يُسـمون أنفسهم اشتراكيين، السويديون يُسمون أنفسهم اشتراكيين. ولا تدعينا ننسى أنه في ألمانيا توجد أيضاً اشتراكية قومية.

أ. ف.: سيدة غاندي، ماذا تعني كلمة (اشتراكية) بالنسبة لك؟

أ. غ.: العدالـة. نعـم، إنهـا تعنـي العدالـة. إنها تعني السـعي للعمل في مجتمع أكثر عدالة ومساواة.

أ. ف.: إلا أنها بالمعنى البراغماتي، خالية من الأيديولوجيات.

أ. غ.: نعم. لأنه ما فائدة أن تظلي مرتبطة بأيديولوجية معينة إذا كنتِ لا تنجزين شـيئاً من خلالها؟ أنا نفسي لديّ أيديولوجية لا يسـعكِ أن تعمـلي في فـراغ، لا بـدَّ أن يكـون لديـكِ إيمان بـشيء ما. كما قـال أبي، عليكِ أن تسـتبقي عقـلاً مفتوحاً، إنـما يتعين عليكِ أن تسـكبي شـيئاً ما فيـه، وإلا تسرّبت الأفكار خارجـاً كما يتسرب الرمـلُ من بين أصابعـكِ. حقيقة كوني أملـك أيديولوجية، على أيـة حـال، لا يعنـي أني مُلَقَّنـة. في أيامنا هذه ليـس بوسعكِ بعد الآن أن تجعلي من نفسكِ مُلَقَّنة العالم يتغيّر بسرعة شديدة! حتى مـا كنـتِ تُريدينه قبل عشرين عاماً مضى لم يعـد صائباً اليوم؛ إنه عتيق ومهجور.

انظري، بالنسـبة لي المسألة الوحيدة التي ظلّت من دون تغيير عـبر الأعـوام هي إنـه في الهند لا يزال هنـاك فقر كثير جـداً. إن السواد الأعظم من الشعب لا يزالون لا يستمتعون بالفوائد التي كان يجب أن يكسبوها من الاستقلال وبعدئذ ما فائدة أن يكونوا أحـراراً؟ على كلّ حال، لماذا أردنا أن نكـون أحراراً؟ ليس فقط أن نرمي البريطانيين خارجاً. فيما يتعلّق بهذا كنا واضحين دوماً.

كنا نقول دوماً إن نضالنا لم يكن فقط ضد البريطانيين باعتبارهم ممثلين للاستعمار، بل ضد كلّ الشرور الموجودة في الهند. شر النظام الإقطاعي، شر النظام القائم على الطبقة الاجتماعية، شر الجور الاقتصادي. حسناً، ذلك الشر لم يتم انتزاعه من الجذور. بعد عشرين عاماً، نحن أحرار سياسيًّا، نعم، إلا إننا بعيدون جداً عن بلوغ الهدف الذي وضعناه نصبَ أعيننا.

أ. ف.: إذاً ما هي النقطة التي وصلتم إليها؟

أ. غ.: من الصعب أن نقول هذا، لأنّ نقطة الوصول متغيّرة باستمرار. هل سبق لكِ أن صعدتِ جبلاً؟ كما تعرفين، ما أن تبلغي قمة الجبل حتى تحسبين أنكِ وصلتِ إلى أعلى نقطة. إلا أنه مجرّد انطباع لن يدوم طويلاً. ففي الحال تدركين أنّ القمة التي صعدتِها هي واحدة من أوطأ القمم، وأنّ الجبل هو جزء من سلسلة جبلية، وأنه لا تزال هنالك ذُرى كثيرة أخرى، جبالٌ كثيرة أخرى ينبغي صعودها... وكلّما صعدتِ أكثر، ترغبين أن تصعدي أكثر مع أنكِ تكادين تموتين من التعب.

أعني، الفقر يتخذ جوانب كثيرة هنا في الهند. ليس الفقراء وحدهم هم الذين تشاهدينهم في المدن، بل هنالك الفقراء وسط القبائل، الفقراء الذين يُقيمون في الغابات، الفقراء الذين يُقيمون في الجبال. هل يتعين علينا أن نتجاهلهم ما دام الفقراء في المدن أفضل حالاً منهم؟ وأفضل حالاً فيما يتعلّق بماذا؟ فيما يتعلّق بما كان يُريده الشعب قبل عشرة أعوام مضت؟ عندئذ

تبدو المسـألة مبالغاً فيها. اليوم لم تعد المسألة مُبالغاً فيها. أنظري إذاً، حـين تحكمين بلـداً ما، وبخاصةٍ حين يكون هـذا البلدُ بلداً واسعاً ومعقداً جداً كالهند، لا تسـتطيعين أن تحققي شـيئاً ما. في اللحظـة ذاتها التـي تعتقدين فيها أنكِ حققتِ شـيئاً ما، تُدركين أنكِ لم تُحققي شـيئاً البتة. وعلى الرغم مـن ذلك يتعين عليكِ أن تندفعي للأمام بالطريقة نفسـها صوب حلم بعيد جداً؛ ذلك أن طريقكِ لا بداية له ولا نهاية.

أ. ف.: وأنتِ، سيدة غاندي إلى أيّ نقطة وصلتِ في هذا الطريق؟

أ. غ.: لم أصـل إلى نقطـة مـا، عند نقطـة مهمة للغاية: النقطـة التي أقنع فيهـا الهنـود أنّ باستطاعتهـم أن يفعلـوا الأشـياء. في أول الأمر كان الناس يسـألوننا، «هل باستطاعتكم أن تفعلوا هذا؟» ونظل صامتـين لأننـا لا نؤمن بأنفسـنا، لم نكن نؤمن أننـا قادرون على فعـل الأشـياء. اليوم النـاس لم يعـودوا يخاطبوننـا قائلين، «هل تسـتطيعون؟» باتوا يقولون لنا، «متى تسـتطيعون؟» لأنّ الهنود أخيراً صـاروا يؤمنون بأنفسـهم، إنهم يؤمنـون أن باستطاعتهم فعل الأشـياء. أوه، كلمة «متى» فائقة الأهمية بالنسـبة للشعب، بالنسـبة للفـرد. إذا ما فكر الفـرد أنه لن يفعل ذلـك، لن يفعل. حتى إذا كان شـديد الذكاء، حتى إذا كانت لديه مواهب لا تُعَدّ ولا تُحـصى. كـي يكون المرء مؤهَّـلاً، يتعين عليه أن يثق بنفسـه. حسـناً، كبلـد، أعتقد أننا اكتسـبنا الثقـة بأنفسـنا. ويُطيب لي أن أعتقد أني وفّرتُ هذه الثقة. كما يُطيب لي أن أعتقد أنه من خلال

توفير الثقة، عدّلتُ اعتدادهم بأنفسهم. قلتُ (عدّلتُ) لأن الاعتداد بالنفس ليس شيئاً تُعطينه. إنه حتى لا ينبثق للخارج بغتة؛ إنه إحساس ينمو ببطء شديد، بنحو مُربِك. اعتدادُنا بأنفسنا كَبُرَ في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، مع أنّ الآخرين لا يفهمونه ويقللون من شأنه. لم تكونوا شهمين جداً، أنتم (الغربيين)، اتجاهنا نحن الهنود. كان يتوجَّب عليكم أن تروا أنّ الأشياء تتغيّر، مع أنها تتغيّر ببطء. كان يتوجَّب عليكم أن تروا شيئاً ما يحدث. ليس أشياء كثيرة، بل شيءٌ ما.

أ. ف.: هل حقاً أنكِ لم تمنحي شعبكِ أيضاً الاعتداد بالنفس، سيدة غاندي؟ أنتِ نفسكِ متباهية جداً.

أ. غ.: لا. على العكس، لستُ متباهية جداً. لا.

أ. ف.: بالطبع أنتِ متباهية. أليس هو فعل اعتداد بالنفس أن ترفضي المساعدة التي قدّمها العالم لكم خلال مجاعة 1966؟ أتذكّر أنّ سفينة مُحمّلة بالحبوب، بالطعام، لم تغادر ميناء نابولي. وكلّ شيء فسد، فيما كان شعب الهند يموت جوعاً.

أ. غ.: لم أسمع بهذه السفينة. لا، لا أعرف أنّ السفينة مُحمّلة وجاهزة للإبحار وإلا ما كنتُ لأرفضها. إلا أنه صحيح رفضتُ المساعدة الأجنبية. إنه شيء صحيح. إنه ليس قراري الشخصي، على كلّ حال البلد بأسره هو الذي قال لا. و، صدّقيني، حدث ذلك من تلقاء نفسه، بنحو مفاجئ تماماً. نعم، بغتة ظهرت كتابات على

الحيطان. ظهرت لافتات. وتلك الـ «لا »انفجرت في جميع أنحاء الهنـد، في فعلٍ من أفعال الاعتداد بالنفـس، هذا الفعل أدهشني أنـا أيضاً. في ذلـك الحين حتى الأحزاب السـياسية، كلّها، حتى النواب في البرلمان، قالوا لا، إنه لَمِنَ الأفضل أن نموت من الجوع عـلى أن يعدّوننا بلد الشحاذيـن. كان يتعين عليَّ أن أكون مترجمة تلك الـــ «لا»، أكررها لأولئك الذين كانوا يُريدون مسـاعدتنا. وكـان شـيئاً قاسيـاً بالنسـبة إليكـم، أنا أفهـم هذا. أعتقـد أنكم أحسسـتُم بـالأذى جـرّاء ذلك. في بعـض الأحيـان نحن نؤذي أحدنا الآخر من دون أن نُدرك ذلك.

أ. ف.: لم نكن نُريد أن نؤذيكم.

أ. غ.: أعرف. أكرر، أنا أفهم هذا. إنما يتعين عليكِ أيضاً أن تفهمينا نحن يُحَطُّ من قدرنا دوماً، يُقَلَّلُ من قيمتنا دوماً، لا نُصَّدَق على الدوام. حتى حين نُصَّدِق، أنتم لا تُصدِّقوننا. قلتم، «كيف يُمكن القتال من دون عُنف؟» لكن من دون العنف حصلنا على حريتنا. قلتُم، «كيـف يُمكن أن تنجح الديمقراطية مع شـعب أمي يموت من الجـوع؟» لكن بذلك الشعب جعلنـا الديمقراطية تنجح. قلتُم، «التخطيـط شيءٌ للبلدان الشيوعيـة؛ الديمقراطية والتخطيط لا تسـيران جنباً إلى جنب!» لكـن، بكلّ الأخطاء النـي ارتكبناها، نجحـت خططنـا. وبعدها أعلنا أنه لن تكـون هنالك مجاعة بعد الآن في الهنـد. وأجبتم قائلين، «مسـتحيل. لـن تنجحوا!» بدلاً مـن ذلـك نجحنا؛ اليوم في الهنـد لم يعد أحدٌ يمـوت من الجوع؛

إنتاج الطعام يتخطى الاستهلاك كثيراً جداً. أخيراً أعطينا وعداً أن نقلّص معدلات الولادات. وهذا الأمر لم تُصدِّقوه فعلاً؛ ابتسمتم بسخرية. حسناً، حتى في هذا الأمر سارت الأمور على قدم وساق. إن حقيقة كوننا سوف نزداد سبعين مليوناً في بحر عشرة أعوام، إلا أنه صحيح أيضاً أن عددنا يزداد أقل من بلدان كثيرة أخرى، بما فيها البلدان الأوروبية.

أ. ف.: عادةً عبر الطرائق المروِّعة، من مثل تعقيم الرجال. هل توافقين على هذه الطريقة، سيدة غاندي؟

أ. غ.: في ماضي الهند، حين كان عدد السكان منخفضاً، كانت البركة التي تُعطى للمرأة هي، «عسى أن يكون لديك أطفال كُثر». معظم ملاحمنا وآثارنا الأدبية تشدد على هذه الأمنية، والفكرة القائلة إنّ المرأة يجب أن يكون لديها أولاد كُثر قد انحسرت. أنا، نفسي، في قلبي، أقول إن الناس ينبغي أن يكون لديهم كلّ الأولاد الذين يُريدونهم. إلا أنها فكرة خاطئة، حالها حال كثير من أفكارنا التي تعود إلى آلاف السنين، ويجب اجتثاثها من جذورها. يلزمنا أن نحمي عائلاتنا، يلزمنا أن نحمي أطفالنا، لديهم حقوق ثابتة ويجب أن يُحَبوا، ويجب أن نعتني بأطفالنا جسديًّا وعقليًّا، ويجب ألا نأتي بهم إلى العالم لمجرد أن يتعذبوا. هل تعرفين، حتى وقت قريب، أنّ الفقراء كانوا ينجبون الأطفال بهدف وحيد ألا وهو أن يستفيدوا منهم؟ إنما كيف يتسنى لكِ أن تغيّري، بالقوة أم فجأة، عادةً متأصلة؟ السبيل الوحيد هو تخطيط الولادات،

بوسيلـة أو بأخـرى. وأنّ تعقيـم الرجال هي طريقـة واحدة من طرائـق السـيطرة على الـولادات. الطريقة المؤكدة جـداً، الأكثر راديكالية. بالنسـبة لك، تبدو هذه الطريقة مروِّعة. بالنسـبة لي، تبـدو لي، إذا مـا طُبقت كما ينبغي، ليسـت مروِّعة على الإطلاق. لا أرى شـيئاً خاطئاً في تعقيم الرجل الذي جلب ثمانية أو عشرة أطفـال إلى العـالم. بخاصة إذا كان ذلك يسـاعد أولئك الأطفال الثمانية أو العشرة على أن يعيشوا بنحو أفضل.

أ. ف.: هل سبق لكِ أن كنتِ مدافعة عن حقوق النساء، سيدة غاندي؟

أ. غ.: لا، لم أكـن كذلـك في أيّ وقـت مـن الأوقـات. لم تكن بي حاجة لأن أكون كذلك؛ كنتُ قادرة على الدوام على أن أفعل ما أشـاء. من الناحية الأخرى، كانت أمي كذلك. كانت تعدُّ حقيقة كونها امرأة خسـارة كبرى. كانت لديها أسبابها. في زمنها كانت النساء يعشـن في عُزلة في جميع الولايات الهندية تقريباً لا يمكنهن حتى أن يُظهرن أنفسـهن في الشارع. النسـاء المسـلمات ينبغي لهن أن يخرجـن بالبُردة، تلك المـلاءة الثقيلة التي تغطـي حتى عيونهن. النسـاء الهندوسيـات ينبغي لهـن أن يخرجن بـالـ (دُولي)، وهو نـوع من كرسي المحفـة المُغلق مثل النعش. كانـت أمي تحكي لي دوماً عن هذه الأشياء بمرارة وغضب. كانت الأكبر سناً من بين شـقيقتين وشقيقين، وقد ترعرعت مع شـقيقيها، اللذين كانا في سنّها تقريباً. تربَّـت، حتى سن العاشرة، مثل مُهر برِّيٍّ، وبعدها فجـأةً انتهى كلّ شيء. فرضوا عليها «مصير النسـاء «الخاص بها

قائلين لها، «هذا الشيء لا يُفعل، هذا الشيء غير جيد، هذا الشيء لا يليق بامرأة».

في لحظة معينة انتقلت الأسرة إلى (جايپور)، حيث لا تستطيع امرأةٌ ما تجنُّبَ ارتداءِ الـ (دُولي) أو البُردة. كانوا يستبقونها في المنزل من الصباح حتى المساء؛ إما تطهو أو لا تعمل شيئاً. كانت تكره ألا تعمل الأشياء، تكره أن تطهو. لذلك أصبحت شاحبة وعليلة، ولم تكن تهتم بصحتها على الإطلاق، قال جدي، «مَن الذي سيتزوجها الآن؟» لذلك كانت جدتي تنتظر خروج جدي، وبعدها كانت تُلبس أمي ثياب الرجل وتسمح لها بالخروج وهي تمتطي الحصان مع شقيقيها. لم يكن جدي يعرف عن هذا، وروت لي أمي القصة من دون بسمة. ذكرى هذه المَظالم لا تفارقها أبداً. حتى يوم وفاتها، واصلت أمي النضال من أجل حقوق النساء. التحقت بجميع الحركات النسوية في زمنها، حرّضت على كثير من الثورات. كانت امرأة عظيمة، شخصية عظيمة. نساء اليوم يحببنها حبًّا جمًّا.

أ. ف.: وما رأيكِ بنساء اليوم، سيدة غاندي؟ بحركة التحرر العائدة لهن، أعني.

أ. غ.: أعتقد أنها حركة جيدة. جيدة. لأنه، كما تعرفين، حتى يومنا هذا حقوق الشعب وُضعت دوماً في الصدارة من قبل أفراد قلائل يعملون باسم الجماهير. اليوم بدلاً من ذلك أبناء الشعب لم يعودوا يُريدون أن يكون لهم ممثلون؛ كلّ واحد يُريد أن يتكلّم

عن نفسه ويُشارك بشكل مباشر الشيء نفسه ينطبق على الزنوج، على اليهود، على النساء. لذا ليس فقط الزنوج واليهود، لكن النساء أيضاً هنّ جزء من ثورة كبرى لا يستطيع المرء حيالها سوى أن يستحسنها. النساء غالباً ما يتمادين، هذا صحيح. إلا أنه فقط حين تتمادين يُصغي إليك الآخرون. هذا أيضاً شيءٌ تعلّمته من التجربة. ألم يُعطونا، ربما، أصواتهم لأننا تمادينا؟ نعم في العالم (الغربي)، النساء ليس أمامهن خيار آخر. في الهند، لا. وسأشرح لكِ السبب. إنه سببٌ له علاقة أيضاً بحالتي أنا. في الهند، النساء لم يكنّ في تنافس عدائي مع الرجال حتى في الماضي البعيد جداً، في كلّ مرة المرأة تبرز كقائدة، ربما كمَلِكة، الناس يتقبلونها. وبوصفه شيئاً طبيعيًّا وليس استثناءً. لا تدعينا ننسَ أنه في الهند رمز القوة هو المرأة: الإلهة (شاكتي)[1]. ليس هذا فحسب الكفاح من أجل الاستقلال هنا قاده الرجال والنساء بقياس متساوٍ. ولما نلنا استقلالنا، لم ينسَ أحدٌ ذلك. في العالم (الغربي)، من الناحية الأخرى، لم يحصل قط شيءٌ من هذا الطراز النساء شاركن، صحيح، إلا أنّ الثورات دوماً كان يصنعها الرجال وحدهم.

أ. ف.: الآن نأتي إلى الأسئلة الشخصية، سيدة غاندي. أنا الآن مستعدة لتوجيه هذه الأسئلة. وهو ذا السؤال الأول: هل إنّ امرأةً من

(1) شاكتي Shakti: القوة أو الطاقة. وهي في الهندوسية تجسيد الجانب الأنثوي للآلهة، ويُشار إليها بالأم الإلهية، وتُمثل القوة الإلهية المؤنثة الفعالة – م.

مثلك تجد نفسها مرتاحة أكثر مع الرجال أم مع النساء؟

أ. غ.: بالنسبة لي الشيء سيّان تماماً أتعامل مع أحدهما والآخر بالطريقة ذاتها. باعتبارنا أفراداً، ليس كرجال أو نساء. لكن، حتى هنا، عليكِ أن تفكري في الحقيقة القائلة أني أمتلك تعليماً خاصاً جداً، كوني ابنة رجل كأبي وامرأة مثل أمي. ترعرعتُ كصبي، وكذلك لأن معظم الأطفال الذين كانوا يأتون إلى منزلنا هم صبيان. مع الصبيان، تسلّقتُ الأشجار، ركضتُ في السباقات، وتصارعتُ. لم تكن لديّ تعقيدات الحسد أو الدونية اتجاه الصبيان. في الوقت ذاته، على أية حال، أحببتُ الدُمى. كانت لديّ دُمى كثيرة. وأنتِ تعرفين كيف لعبتُ معهن؟ من خلال القيام بعمليات العصيان المسلّح، المجموعات، مَشاهد الاعتقال. لم تكن الدُمى العائدة لي أطفالاً صغاراً كي تتم رضاعتهم، بل رجال ونساء يهاجمون الثكنات وينتهي بهم المطاف في السجن. دعيني أشرح لكِ. ليس أبواي وحدهما، بل الأسرة بأكملها كانوا ينخرطون في المقاومة جدي وجدتي، أعمامي، أخوالي، عماتي، خالاتي، أبناء وبنات أعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي. لذا كان رجال الشرطة يأتون في كثير من الأحيان ويأخذونهم، من دون تمييز. حسناً، إن الحقيقة القائلة أنهم اعتقلوا أبي وأمي، جدي وجدتي كليهما، عمًّا وعمة معاً، جعلتني أتعوّد على أن أنظر للرجال والنساء بالعينين نفسيهما، بمستوى تام من المساواة.

أ. ف.: ومن ثم هنالك تلك القصة المتعلّقة بجان دارك، أليست هناك؟

أ. غ.: نعـم، هذا صحيح. إنه شيء صحيح أنّ جان دارك كانت حُلمي لّما كنـتُ فتاة صغـيرة. اكتشفتُها وسني يناهز العـاشرة أو الثانية عشرة، حين ذهبتُ إلى فرنسا. لا أتذكر أين قرأتُ عنها، إلا أنني أتذكر أنها سرعان ما اكتسبت أهمية مُحددة بالنسبة لي. كنتُ أريد أن أُضحـي بحياتي من أجل بلادي. يبدو هذا أشـبه بالسـخافة، ومع ذلك...

أ. ف.: نعـم فعـلاً. وأُريد أن أفهم ما الذي جعلكِ مـا أنتِ عليه الآن، سيدة غاندي؟

أ. غ.: الحيـاة التي عشتُهـا، المصاعب، العقبات، الألم الـذي عانيتُه منذ أن كنتُ طفلة. إنه امتياز كبير أن تعيشي حياة صعبة، وأشخاص كُثـر مـن جيلي كان لديهـم هذا الامتياز إني أتسـاءل غالبـاً ما إذا شـبيبة اليوم ليسوا محرومين من سلسلة التجارب المتضاربة التي شـكّلتنا... ليتكِ تعرفين فقط ماذا فعلت بي مسـألة أن أسكن في ذلك المنزل حيث كان الشرطة يقتحمونه كي يأخذوا أيّ شخص بعيـداً! يقيناً لم تكن لي طفولة سعيدة وصافية. كنتُ فتاة صغيرة، هزيلة الجسـم، متوترة الأعصاب. وبعـد أن يأتي البوليس، أبقى وحدي على مدى أسابيع، أشهر، كي أنطلق بأفضل طريقة ممكنة. تعلمـتُ في وقـت مبكر جداً كيف أنطلق وحـدي. بدأتُ أسافر وحدي، في أوروبا، لّما كنتُ في سن الثامنة. في ذلك السـن كنتُ أصلاً في تنقل دائم بين الهند وسويسرا، بين سويسرا وفرنسا، بين فرنسا وإنكلترا. كنتُ أُدير شؤوني المالية مثل امرأة بالغة.

الناس يسألونني في كثير من الأحيان: مَن هو الذي كان له تأثير كبير عليك؟ أبوكِ؟ مهاتما غاندي؟ نعم، خياراتي تأثرت جوهريًّا بهما، تأثرتُ بروح المساواة التي غرساها فيّ هَوَسي بالعدالة يأتي من أبي الذي، بدوره، حصل عليه من مهاتما غاندي. إلا أنه ليس صحيحاً أن نقول إنّ أبي أثّر فيَّ أكثر من الآخرين، ولن أكون قادرة على أن أقول ما إذا تشكّلت شخصيتي بواسطة أبي أو أمي أو مهاتما غاندي أو الأصدقاء والصديقات الذين كانوا معنا. تأثرتُ بهم كلّهم، هؤلاء كوّنوا شيئاً كاملاً. إنها الحقيقة بالذات أنّ لا أحدَ منهم فرض البتة أيّ شيء عليَّ أو حاول أن يفرض نفسه على الآخرين. لم يحصل قط أن أملى أحدٌ عليّ. كنتُ على الدوام أكتشف الأشياء بنفسي، بحرية مُذهِلة. على سبيل المثال، كان أبي يهتم كثيراً جداً فيما يتعلق بالجرأة، الجرأة الجسدية أيضاً. كان يحتقر أولئك الذين لا يمتلكون الجرأة. إلا أنه لم يقُل لي، «أُريدكِ أن تكوني جريئة». كان يبتسم فحسب باعتدادي بالنفس في كلّ مرة أقوم بها بشيء صعب أو أكسبُ سباقاً مع الصبيان.

أ. ف.: إلى أيّ مدى لا بدَّ أنكِ أحببتِ ذلك الأب!

أ. غ.: أوه، نعم! كان أبي قديساً. كان أقرب ما يكون إلى قديس يمكنكِ أن تجديه في رجل اعتيادي. لأنه كان رجلاً صالحاً للغاية. رجلٌ صالح بنحو لا يُصدّق للغاية، رجلٌ صالح بنحو لا يُطاق. كنتُ أدافع عنه دوماً، لمّا كنتُ طفلة، وأعتقد أني لا أزال أدافع عنه

أدافـع عـن سياساته في الأقـل. أوه، لم يكـن سياسيًّا البتـة، بأيّ معنى من معاني الكلمة. كان مسـتمراً في عمله فقط بإيمان أعمى بالهنـد كان منهمكـاً بطريقة مهووسة في مسـتقبل الهند. كان كلّ واحد منا يفهم الآخر.

أ. ف.: وماذا عن مهاتما غاندي؟

أ. غ.: بـرزت أساطـير كثـيرة بعـد وفاتـه. غـير أنّ الحقيقـة الباقية هي إنـه إنسـان استثنائي، ذكـي بنحو مروِّع، لديه حـدس هائل تجاه الشعـب، وموهبة عظيمة تجاه ما هو صحيح. قال إن أول رئيس للهند يجب أن يكون فتـاة (هاريجان)، فتاة مُحصّنة. كان معارضاً شـديداً للنظـام الطبقـي ولاضطهاد النسـاء، بحيـث أصبحت الفتـاة المُحصّنـة رمـزاً للنقـاء والمُبارَكة. بدأت أرافقـه حين كان يـأتي ويذهب في منزلنـا مع أبي وأمي كـان في اللجنـة التنفيذية. بعـد الاستقلال عملتُ معـه كثيراً في الحقبـة الزمنية حين كانت هنالـك مشاكـل بـين الهنـدوس والمسـلمين، خصـص لي مهمة العناية بالمسـلمين. كي أحميهـم. آ، نعم، كان إنسـاناً عظيماً. على كـلّ حال... بيني وبـين غاندي لم يكن هنالـك تفاهم مثل ذلك الـذي بيني وبين أبي. كان دائم الحديث عن الدين... كان مقتنعاً أنّ هـذا حـق... الحقيقة هي، نحـن الشبيبة لم نكـن نتفق معه في أشياء كثيرة.

أ. ف.: دعينـا نرجـع إليكِ، سيـدة غاندي، إلى تاريخـكِ بوصفكِ امرأة استثنائية. هل صحيح أنكِ لم ترغبي بالزواج؟

أ. غ.: نعـم. إلى أن أصبحـتُ في سـن الثامنـة عشرة تقريبـاً. لكن ليس لأني أشـعر كأني مناضلة تنادي بحق المرأة في التصويت، بل لأني كنـتُ أريد أن أكرّس طاقـاتي كلّها للنضال من أجـل هند حُرّة. الـزواج، في اعتقـادي، كان سيُبعدني عن واجبـاتي التي فرضتُها على نفسي. إنما شيئاً فشيئاً، غيّرتُ أفكاري، ولمّا أصبحتُ في نحو الثامنـة عشرة بدأتُ أفكر في إمكانية أن أتزوج. لا لكي يكون لي زوج، بل كي يكون لي أولاد. كنتُ أُريد دوماً أن يكون لي أولاد لو كان الأمر متروكاً لي. كنتُ أتمنى أن يكون لي أحد عشر طفلاً. زوجي هو الذي كان يريد طفلين فقط.

وسأحكي لكِ شـيئاً آخر. نصحنـي الأطباء ألا أنجب حتى طفلاً واحداً. كانت صحتي لا تزال غير جيدة، وقالوا إنّ الحمل مـن الجائـز أن يكون قاتـلاً. لو لم يقولـوا لي ذلك، ربـما ما كنتُ لأتـزوج. إلا أنّ ذلـك التشخيـص استفـزني، أغضبنـي. أجبتُ قائلـة، «لمـاذا تعتقد أني ينبغـي أن أتـزوج إن لم أنجب الأطفال؟ لا أريـد أن أسمـع أني لا أستطيـع أن أنجب الأطفـال؛ أريد أن أقـول لك ماذا يتعين علـيَّ أن أفعل كي يكـون لي أطفال!» هزوّا أكتافهـم بـلا مبالاة وتمتمـوا أنه من الجائـز أننـي إذا ازداد وزني فربـما يحميني هذا قليلاً كـوني هزيلة جداً، لن أفلـح في أن أبقى حاملاً. قلتُ حسـناً، سـوف أُزيد وزني. وبـدأت آخذ عمليات تدليـك، أتناول زيت كبد سمك القِد، وقررتُ أنه في يوم إعلان الخطوبـة سأكون أكثر بدانة، ولم يـزدد وزني أوقية. وعقب ذلك

مضيت إلى موسوري [1] وهو منتجع صحي، وتجاهلتُ تعليمات الأطباء؛ ابتكرتُ نظامي الخاص وازداد وزني. على العكس تماماً ما أنا عليه الآن. الآن لديّ مشكلة أن أبقى نحيلة. لا أزال أتدبر أمري. لا أعرف ما إذا تدركين أني امرأة قوية الإرادة.

أ. ف.: نعم. لقد أدركتُ ذلك. و، إذا لم أكن غلطانة، أنتِ حتى أظهرتِ ذلك من خلال زواجكِ.

أ. غ.: نعم، في حقيقة الأمر: لا أحدَ كان يُريد ذلك الزواج، لا أحد. حتى مهاتما غاندي لم يكن سعيداً به. فيما يتعلّق بأبي... ليس صحيحاً أنه عارض الزواج، كما يقول الناس، إلا إنه لم يكن متحمِّساً له. أعتقد لأن آباء البنات فقط يفضلون أن يشاهدوهن متزوجات في وقت متأخر قدر المستطاع. على كلّ حال، أود أن أعتقد أنه لذلك السبب. كان خطيبي كما تعرفين ينتمي لديانة أخرى. كان (پارسيًّا). وهذا شيء ما من أحد يستطيع أن يتحمله الهند بأسرها كانت ضدنا. كتبوا إلى أبي، إلى غاندي، لي. شتائم، تهديدات بالموت. في كلّ يوم كان يصل ساعي البريد ومعه كيس ضخم ويُسقط الرسائل على الأرض. حتى أننا توقفنا عن مطالعتها: كان لدينا صديقان يطالعان الرسائل ويُخبراننا ما فيها. «يوجد شخص يُريد أن يقطِّعكما كليكما إرباً إرباً. ثمة شخص مستعد لأن يتزوجكِ مع أن لديه زوجة أصلاً. إنه يقول

---

(1) موسوري Mussoorie: مدينة تقع على مرتفع وبلدية في مقاطعة ديهرادون التابعة لولاية أوتار خاند الهندية. تقع 290 كم شمال نيو دلهي – م.

إنه هندوسي». في لحظة معينة تدخَّل مهاتما في الجدال وجدتُ تواً مقالة كتبها في جريدته يتوسل فيها للشعب أن يتركوه بسلام وألا يكونـوا ضيقي الأفق. مهما يكن من أمر، تزوجتُ السـيد فيروز غانـدي. مـا أن أضع فكرةً في رأسي لا أحدَ في العالم يسـتطيع أن يجعلني أغيّرها.

أ. ف.: دعينا نأمل ألا يحصل الشيء نفسـه حـين يتزوج ابنكِ راجيـف والفتاة الإيطالية.

أ. غ.: الأزمنـة تغـيّرت: كلاهمـا لن يتعين عليهما أن يمـرّا باللوعة ذاتها التـي مـررتُ بها. في يوم مـن أيـام 1965 كتـب لي راجيـف من لندن، حيث كـان يدرس، وأبلغني قائلاً: «إنكِ تسـألينني دوماً عـن فتاة، ما إذا لي فتاة خاصة، وما إلى ذلك. حسـناً، قابلتُ فتاة خاصة. لم أطلب يدها للزواج بعدُ، غير أنها هي الفتاة التي أُريد أن أتزوجها». وبعد مضي سنة، لمّا ذهبتُ إلى لندن، قابلتُها. وحين رجع راجيـف إلى الهند، سألتُه، «هل ما تزال تفكر فيها بالطريقة ذاتها» وقال لي نعم. إلا أنها لا تستطيع أن تتزوج إلى أن تبلغ سن الحاديـة والعشرين، وإلى أن تكون متيقِّنة من أنها ترغب بالعيش في الهند. لـذا انتظرناها حتى تبلغ سن الحادية والعشرين، وأتت إلى الهنـد، وقالت إنها أحبت الهنـد، وأعلنَّا الخطوبة، وبعد مضي شهرين أصبحا زوجاً وزوجة. سونيا الآن امرأة هندية تماماً، مع أنها لا تلبس فساتين الساري على الدوام. لكن حتى أنا، لمّا كنتُ طالبـة جامعية في لندن، كنتُ ألبس دوماً الثياب (الغربية)، ومع

ذلـك أنا هي الهندية.. الهندية جداً التي أعرفُها. لو إنكِ تعرفين، عـلى سبيل المثال، إلى أيّ مـدى أستمتع بكوني جدّة! هل تعرفين أني جـدّة مرتـين؟ راجيـف وسونيـا لديهما صبي وبنـت. البنت وُلدت تواً.

أ. ف.: سيـدة غاندي، زوجكِ الآن بات في عـداد الأموات منذ بضعة أعوام. هل حدث أن فكرتِ في الزواج ثانية؟

أ. غ.: لا، لا. ربما أفكر في المسألة إذا ما قابلتُ رجلاً ما أحب أن أعيش معـه. إلا أننـي لم أقابل هـذا الرجل و... لا، حتـى إذا قابلتُه، أنا متأكـدة أني لـن أتزوج مـن جديد. لماذا ينبغـي لي أن أتزوج الآن وحياتي ممتلئة جداً؟ لا، لا إنه شيء غير وارد.

أ. ف.: زيادة على ذلك لا يسعني أن أتخيّلكِ كربّة منزل.

أ. غ.: أنـتِ غلطانـة! أوه، أنـتِ غلطانـة! أنـا ربّة منـزل أنموذجية. أن أكـون أُمًّا هو العمل الـذي أحببتُه حبًّا جمًّا. بكـلّ معنى الكلمة. أن أكـون أُمًّا، ربّة منزل، لا يكلّفنـي أيّ تضحية استمتعتُ بكلّ دقيقـة من تلكـم الأعوام. ابناي... أنا مجنونـة بابنيَّ، وأعتقد أني أنجزتُ عملاً فائقاً وأنا أُربيهما. اليوم في الحقيقة هما الآن رجلان رائعان وجادان. لا، لم أفهم قط النسـاء اللائي، بسبب أولادهن يتظاهرن بأنهن ضحايا ولا يسمحن لأنفسهن بالقيام بأيّ أنشطة أخـرى. إنها ليسـت مسـألة صعبة جداً على الإطـلاق أن توفِّقي بـين الشيئـين إذا ما نظَّمـتِ وقتكِ بشكل ذكـي. حتى حين كان

ابنـاي صغيرين، كنتُ أعمل. كنتُ مسـؤولة الرعاية الاجتماعية لـ (المجلس الهنـدي لرفاهية الطفل). سأحكي لـكِ قصة. كان راجيــف في سن الرابعة لا غير في ذلك الحين، وكان يؤم روضة الأطفـال. وفي يوم من الأيام أُمٌّ أحـد أصدقائه الصغار أتت كي تزورنـا وقالـت بصـوت معسـول، «أوه لا بـدَّ أنـه شيء حزينٌ بالنسـبة لكِ ألا يكون لديكِ وقـت تقضينه مع ولدكِ الصغير!» زأر راجيــف كالأسـد: «أُمي تقـضي وقتاً معي أكثـر مما تقضينه أنـتِ مع ولدكِ الصغير! ولدكِ الصغير يقـول إنكِ دوماً تتركينه في المنزل وحيداً كي تستطيعي أن تلعبي الورق».

أ. ف.: توجـد إذاً حقبـة زمنيـة طويلـة في حياتكِ بقيـتِ خلالها خارج السياسة. ألم تعودي تؤمنين بها؟

أ. غ.: السياسة... كما تعرفين، الأمر يعتمد على أيّ نوع من السياسة. ما فعلنـاه خلال جيل والدي هو الواجـب. وكان واجباً جميلاً لأنّ هدفه هو انتزاع الحرية. إنّ ما نفعله الآن، من الناحية الأخرى... لا تحسـبي أني معتوهة في ما يتصل بهذا النوع من السـياسة. إنها ليسـت مُصادفـة أني عملتُ كلّ شيء كـي أُبقي ابنـيّ خارجها، وحتـى الآن أفلحتُ في مسـعاي هذا. بعـد الاستقلال تقاعدتُ حـالاً من السـياسة. كان ابناي يحتاجـان إليَّ، وكنتُ أحب عملي كمرشـدة اجتماعية. قلتُ، «أنجزتُ حصتـي من العمل. اتركي البقيـة للآخريـن». رجعتُ إلى ميدان السـياسة حـين اتضح أنّ الأشـياء لم تكن تسـير كـما ينبغي في حـزبي. كنتُ أتجـادل دوماً.

تجادلتُ مع الجميع تجادلتُ مع أبي، مع القادة الذين عرفتُهم منذ أن كنتُ طفلة... وفي يوم ما، كان ذلك في 1955، أحدهم صاح قائلاً، «إنكِ لا تفعلين شيئاً سوى توجيه الانتقاد! إن كنتِ تعتقدين أنّ باستطاعتكِ تصحيح الأشياء، صححيها. هيا، لِمَ لا تحاولين؟» حسناً، لم يكن بوسعي أن أقاوم التحدّي، لذا حاولتُ. إلا أنني أعتقد أنه شيء مؤقت، وكان أبي الذي لم يحاول أن يشملني في نشاطاته فكَّر هكذا أيضاً. إن الأشخاص الذين يقولون إن أباها هو الذي جهز لها منصب رئيس الوزراء، وإن أباها هو الذي أطلقها، مُخطئون. حين كان يطلب مني مساعدته، في حقيقة الأمر لم أكن أرتاب في النتائج.

أ. ف.: ومع ذلك كلّ شيء بدأ بسببه.

أ. غ.: بشكل واضح. كان أبي رئيس وزراء، وكي أعتني بمنزله، أن أكون مُضيّفته، كان ذلك يعني أوتوماتيكيًّا أن تكون يداي في السياسة أن ألتقي الناس، أن أعرف ألعابهم، أسرارهم. كما كان يعني أن أقع عاجلاً أو آجلاً في فخ التجربة. وهذا الأمر جاء في العام 1957، نهاية أسبوع ما حين توجَّب على أبي أن يذهب شمالاً من أجل اجتماع جماهيري. مضيتُ معه، كدأبي، ولمّا وصلنا إلى (تشامبا) [1]، اكتشفنا أنّ السيدة التي كانت مسؤولة عن برنامجه حددت أيضاً اجتماعاً له في مكان آخر صباح الاثنين.

(1) تشامبا Chamba: مقاطعة في شمال شرق ولاية (هيماچال پراديش) الواقعة في شمال الهند عند (جبال الهمالايا الغربية). مقرها الرئيس مدينة تشامبا – م.

إذاً لـو تخلّى أبي عـن الاجتـماع الجماهـيري في (تشامبـا)، سوف نخـسر الانتخابات في (تشامبـا)؛ إذا تخلّى عن الاجتماع في المدينة الأخـرى، التـي كانت قريبة مـن (پاثانكـوت)[1]، سوف نخسر الانتخابـات هنـاك. ومـاذا لو أني ذهبـت؟ اقترحـتُ عليه. «إذا تحدّثـتُ وأوحيتُ أنه لم يكن باستطاعتكَ أن تكون في مكانين في وقت واحد؟» أجاب إنه شيء مستحيل. كان يتعين عليَّ أن أقطع مسـافة ثلاثمائة ميل من الطرق السيئة عبر التلال. وكان الوقت أصلاً الساعة الثانية من صباح الاثنين. لذا قلتُ له طابت ليلتك وتمتمتُ، «يا للأسف، تبدو لي فكرة جيدة». في منتصف السـاعة الخامسة لمّا استيقظتُ من النوم وجدتُ مذكرة تحت الباب. كانت مـن أبي. كانت المذكرة تقول، «ستأخذكِ طائرة إلى (پاثانكوت). من هناك ثلاث ساعات فقط بالسيارة. سوف تصلين في الوقت المناسـب. حظّـا سعيداً». وصلـتُ في الوقـت المناسب وعقدتُ الاجتـماع الجماهيري. كان اجتماعاً ناجحـاً وطُلب مني أن أعقد اجتماعات جماهيرية أخرى. كانت تلك هي بداية... كلّ شيء.

أ. ف.: هـل كنتِ ما تزالين متزوجة في ذلك الحين، أم كنتما قد انفصلتما أصلاً؟

أ. غ.: لكنني بقيتُ متزوجة من زوجي! دوماً، حتى يوم وفاته! إنه ليس

---

(1) پاثانكـوت Pathankot: مدينـة في ولايـة البنجـاب بالهنـد. مقاطعـة پاثانكـوت هـي تقاطـع ثلاث ولايات شـمالية في الهند: (بنجـاب)، (هيماچال پراديـش)، و (جمو وكشمير). بسـبب موقعها تخدم پاثانكوت بوصفها مركز سفر لهذه الولايات الشمالية الثلاث - م.

صحيحاً أننا انفصلنا! انظري، الحقيقة مختلفة و... لِمَ لا نقول الحقيقة مرةً وإلى الأبد؟ كان زوجي يُقيم في (لوكنو). أبي يقيم في دلهي، بالطبع. لذا كنتُ أتنقَّل بين دلهي ولوكنو و... من الطبيعي، إذا كان زوجي يحتاجني في الأيام التي أكون فيها في دلهي، أرجع مسرعة إلى لوكنو. لكن إذا كان أبي هو الذي يحتاجني، في الأيام التي أكون فيها في لوكنو، أعود مسرعةً إلى دلهي. لا، إنه وضع غير مُريح. على أية حال كانت هناك مسافة طويلة بين دلهي ولوكنو. و... نعم، استشاط زوجي غضباً. تخاصمنا. تخاصمنا كثيراً. إنه شيء صحيح. كلانا قويّ الشخصية بدرجة متساوية، عنيدان بدرجة متساوية لا أحدَ منا يُريد أن يستسلم. و... أود أن أعتقد أنّ تلك المشاجرات جعلتنا أفضل، لقد نشّطت حياتنا، لأنه من دونها كانت حياتنا ستغدو حياة اعتيادية، أجل، لكن تافهة ومملَّة. لم نكن نستحق حياةً اعتيادية، تافهة، مملّة... على أية حال، حياتنا لم تكن زواجاً إجباريًّا وقد اختارني هو... أعني أنه هو الذي اختارني بدلاً من أن أختاره أنا... لا أعرف ما إذا أحببتُه بقدر ما كان يُحبني حين أصبحنا خطيبين لكن... بعدها كبُر الحب، في داخلي أيضاً، أمسى شيئاً رائعاً و... حسناً، يتعين عليكِ أن تفهمي خطيبكِ!

لم يكن من السهل بالنسبة له أن يكون صهر أبي! لم يكن ذلك سهلاً بالنسبة لأيّ شخص. لا تدعينا ننسى أنه هو أيضاً كان عضواً في البرلمان! في وقتٍ ما، قدّم أوراق استقالته. قرر

أن يغادر لوكنو ويسكن في دلهي، في منزل أبي معه ومعي. إنما، بسبب كونه عضواً في البرلمان، كيف يتسنى له أن يقابل الناس في منزل رئيس الوزراء؟ أدرك ذلك مباشرةً، ومن هنا تعيّن عليه أن يجد منزلاً صغيراً آخر، وهذا المنزل لم يكن مناسباً على الإطلاق. أن يكون قليلاً هنا وقليلاً هناك، قليلاً معنا وقليلاً وحده... لا، الحياة لم تكن سهلة عليه أيضاً.

أ. ف.: سيدة غاندي، هل سبق لكِ أن أحسستِ بحالات ندم؟ هل حدث أن خفتِ من الاستسلام؟

أ. غ.: لا. أبداً. الخوف، أيّ خوف هو إضاعة وقت. كحالات الندم. وكلّ الأشياء التي أنجزتُها، أنجزتُها لأني وددتُ أن أنجزها. في إنجازها، انغمستُ فيها بتهوُّر، كنتُ مؤمنة بها على الدوام. سواء حين كنتُ طفلة وحاربتُ البريطانيين في (لواء الحمار) [1]، أو حين أصبحتُ فتاة وأردتُ أن يكون لي أطفال، أو حين كنتُ امرأة وكرّستُ نفسي لأبي، وجعلتُ زوجي يغضب. في كلّ مرة أبقى منخرطة على طول الطريق في قراري، وتقبّلت نتائج أفعالي. حتى إذا كنتُ أكافح من أجل الأشياء التي لا تتعلّق بالهند. أوه، أتذكر كم كنتُ غاضبة لمّا اجتاحت اليابان الصين!

(1) لواء الحمار Monkey Brigade أو باللغة الهندية «ڤانار سينا»: كوّنت إنديرا غاندي مجموعة من الأطفال تُسمى (لواء الحمار) كي يقودوا المقاومة ضد الحكم الاستعماري البريطاني. كبرت المجموعة ليصبح عدد أعضائها 60 ألف ثائر صغير، كانوا يرسلون المُغلّفات المختومة، يصنعون الأعلام، يبعثون الرسائل ويعلّقون اليافطات عن التظاهرات – م.

انتظمتُ حالاً في لجنة لجمع المال والأدوية، وقعتُ حالاً من أجل (لواء عالمي)، انغمستُ بتهور في دعاية ضد اليابان... إن فرداً من مثلي لا ينبغي له أن يخاف أولاً ويندم تالياً.

أ. ف.: فضلاً عن ذلك، إنكِ لم ترتكبي الأخطاء. هنالك أشخاص هم الذين يقولون ذلك، كونكِ كسبتِ هذه الحرب، ما من أحد سيكون قادراً على أزاحتكِ وسوف تبقين في السلطة طوال عشرين عاماً في الأقل.

أ. غ.: أنا بدلاً من ذلك ليست لديّ أدنى فكرة كم سيطول بقائي في السلطة، وأنا حتى لا أُبالي بمعرفة ذلك، لأني لا أُبالي أن أبقى رئيسة وزراء. أنا مهتمة فقط في القيام بعمل جيد ما دمتُ قادرة وما دمتُ لا أحس بالتعب. أنا يقيناً لستُ متعبة العمل لا يُتعب البشر، الإحساس بالضجر هو الذي يُتعبهم. لكن ما من شيء يدوم للأبد، وما من أحد باستطاعته أن يتنبأ بما سيحدث لي في المستقبل القريب أو البعيد. لستُ طموحة. ولا حتى قليلاً. أعرف أني سأُدهش الجميع وأنا أتحدّث هكذا، إلا إنها حقيقة الله. التشريفات لا تُغريني ولم يسبق لي أن سعيتُ وراءها. فيما يتعلّق بعمل رئيسة الوزراء، أنا أحبه، نعم. إنما ليس أكثر مما أحببتُ العمل الآخر الذي أديتُه لمّا كنتُ امرأة بالغة. قبل مدة قصيرة قلتُ إن أبي ليس سياسيًّا. أنا، بدلاً من ذلك، أعتقد أني سياسية. إنما ليس في حالة أن أكون مهتمة بمسيرة سياسية

بالأحـرى بالمعنـى الذي أعتقد أنه من الـضروري أن نكافح كي نبني هند معينة، الهند التي أصبو إليها. الهند التي أصبو إليها، لن أتعـب قط من التكرار، هي الهند الأكثـر عدالة وأقل فقراً، الهند الخاليـة تماماً من التأثيرات الأجنبية. إذا كنتُ قد فكرتُ أنّ البلد يسـير حثيثاً نحو هذه الأهداف، سوف أتخلّى عن السـياسة حالاً وأتقاعد كرئيسة وزراء.

أ. ف.: كي تفعلي ماذا؟

أ. غ.: أيَّ شيء. كـما قلتُ لكِ، أنا أحب كلَّ شيء. أؤديه وأحاول دوماً أن أؤديه جيداً. وماذا بعدُ؟ أن أكون رئيسة وزراء ليس هو العمل الوحيـد في الحياة! بقدر تعلّق الأمر بي، باستطاعتي أن أسكن في قريـة وأكون راضية. عندما لم أَعُد أحكم البلاد، سأعود لأعتني بالأولاد. أو بخلاف ذلك سأبدأ دراسة الأنثروبولوجيا إنه علمٌ يُمتعني على الدوام إلى حدٍّ كبير، وكذلك له صلة بمشكلة الفقر. أو بخـلاف ذلك سأعود إلى دراسة التاريخ في أوكسـفورد نلتُ شـهادتي الجامعية في التاريخ. أو بخـلاف ذلك... لا أعرف، أنا مفتونة بالمجتمعات القَبَلية. ربما أروّض نفسي معهم.

اسمعـي، أنـا يقينـاً لـن أمتلـك حيـاةً فارغة! والمسـتقبل لا يُخيفنـي، حتـى إذا يهـدد بـأن يكون حافـلاً بصعوبـات أخرى. لقـد تدرَّبـتُ على الصعوبـات؛ الصعوبات لا يُمكـن محوها من الحياة. الأفراد تكون لديهم صعوبات دوماً، البلدان تكون لديها

صعوبات دومـاً... إن الشيء الوحيد هـو أن نتقبّلها، أن نتغلّب عليهـا إن كـان مُمكناً، وبخلاف ذلـك نتوصَّـل إلى تفاهم معها. إنـه شيء لا بأس بـه أن نحارب، نعـم، لكن فقط لمّـا يكون هذا مُمكناً. لمّا يكون مُمكناً، من الأحسـن أن تنحني من أجل التوصُّل لتسـوية، مـن دون أن نقـاوم ومـن دون أن نتذمر. الأشـخاص الذيـن يتذمرون هم أشـخاص أنانيون. لمّا كنتُ صغيرة السـن، كنتُ أنانية جداً، الآن لم أعد أنانية. الآن أنا لا أنزعج من الأشياء الكريهة، لا ألعب دور الضحية، وأنا مسـتعدة دوماً لأن أتوصل إلى تفاهم مع الحياة.

أ. ف.: سيدة غاندي، هل أنتِ امرأة سعيدة؟

أ. غ.: لا أعرف. السـعادة وجهة نظر سريعة الزوال بكلّ معنى الكلمة ليـس ثمة شيء من هـذا القبيل بوصفه سعـادة متواصلة. توجد فقـط لحظات من السـعادة من الرضا إلى النشـوة. وإذا تقصدين بالسـعادة النشوة... نعم، عرفتُ النشـوة، وهي نعمة أن تكوني قادرة على أن تذكريها، لأنّ أولئك الذين يستطيعون أن يذكروها قليلـون جـداً. غير أنّ النشـوة لا تدوم طويلاً ونـادراً ما تتكرر. إذا كنتِ تقصدين بالسعادة الرضا الاعتيادي، إذاً نعم أنا راضية باعتدال. لسـتُ مقتنعة راضية. مقتنعة كلمـة أستعملها فقط في الإشـارة إلى بلادي، ولن أكون مقتنعة ببلادي. ولهذا السبب أنا

أستمـر في انتهـاج الطرق الصعبة، وبـين الطريق المرصوف وممر المشـاة الذي يصعد الجبـل، أختار ممر المشاة. الأمـر الذي يزعج كثيراً حراسي الشخصيين.

أ. ف.: شكراً جزيلاً، سيدة غاندي.

أ. غ.: شكراً لك. وأطيب تمنياتي. وكما أقول دوماً، أنا لا أتمنى لكِ زمناً سهلاً، بل أتمنى أن تتغلّبي على كلّ الصعوبات التي من الجائز أن تصادفينها، مهما كان نوع هذه الصعوبات.

مكتبة .. سر من قرأ

أرييل شارون

تل أبيب، أيلول/ سبتمبر 1982

أوريانا فالاتشي: المرحلة الأول من الحرب أو، بالأحرى، من حربك قد انتهت، جنرال شارون. فلسطينيو عرفات يُغادرون بيروت. إلا أنهم يُغادرون ورؤوسهم مرفوعة عالياً، بعد أن قاوموا السلطة العسكرية الإسرائيلية طوال ما يناهز شهرين ونصف؛ كما إنهم أُحيطوا بالتعاطف، الذي لم يكن موجوداً من قبل، في الأقل لم يكن موجوداً بالدرجة نفسها. حتى إذا لم ينكروا أنهم اجتاحوا لبنان أولاً، وهم الآن جميعاً متَّفقون أنّ شعبهم يجب أن يكون له وطن وطن أُم. عرفات لم يكن مُخطئاً حين يتكلّم عن «النصر السياسي». وأناس كُثر لا يجانبون الصواب حينما يقولون إنكَ أعطيتَه هدية. هل هذا هو ما كنتَ تُريده؟

أرييل شارون: كنتُ أُريدهم أن يغادروا بيروت، أن يغادروا لبنان، وحصلتُ على ما كنتُ أُريده. عرفات بوسعه أن يقول ما يشاء؛ لا يهمّ. الحقائق وحدها التي تهمّ، والتطوّرات، النتائج، هذه الحقائق سنحصل عليها في المستقبل. ربما يعتقد فعلاً أنه فاز سياسيًّا، لكن الزمن سوف يكشف أنّ هزيمته، فوق كلّ شيء، هي هزيمة سياسية. سياسية، وليست عسكرية. من وجهة نظر عسكرية، كما تعرفين... إذا تعيّن عليّ أن أحلل هذه الحرب من منظور عرفات، لن أحكم عليها بوصفها هزيمة عسكرية. الجيش الإسرائيلي جيش قوي للغاية، ولم يكن هنالك

أكثـر من عـشرة آلاف إرهابي تابعين لــ (منظمة التحرير الفلسـطينية) (PLO)، بمن فيهم السـوريون، وقد تمكنَّا من أن نضع كمية مؤثرة من الضغـط عليهم. من وجهة نظر سياسيـة، من الناحية الأخرى، هزيمته هزيمـة تامة. مطلقة. تامـة. وسأقول لكِ لماذا. الـ (PLO) منظمة قوية، لأنهـا مركز عالمـي للإرهـاب، وإن مركزاً كهـذا يُمكـن أن يوجد فقط إذا كـان يمتلـك بلـداً؛ حيث بوسعـه أن ينصّب دولة أخـرى في داخل دولـة. هـذا البلد هو لبنان. كانوا يسـتخدمون لبنان بمنزلـة نقطة بداية حتـى يبـدؤوا نشاطهم في جميع أنحاء العالم؛ كانت سلطتهم العسـكرية والسـياسية قـد تمركزت في لبنان. أمـا الآن فقد تبعثـروا في ثمانية بلدان متباعـدة كثيراً، مـن الجزائر إلى اليمن، من العراق إلى السـودان، وليس لديهم أمل في أن يبدؤوا مجدداً ما بدؤوا به. لا أمل، على الإطلاق. نحن نكـاد نرى وضعاً جديداً تماماً في (الشرق الأوسط)، شـيئاً سيسـمح لنا أن نصـل إلى تعايش سلمي مع الفلسـطينيين. في يوم مضى، تحدّثتُ مع هنري كيسنجر على التليفون، وقال لي أنّ عهداً جديداً يبدأ الآن في هذه المنطقة حلول جديدة للقضية الفلسـطينية تبرز الآن. إسرائيل، قال لي، سيكـون لديهـا بين اثنـي عشر وثمانية عشر شـهراً كي تجد حـلاً قبل أن تتعافى الـ (PLO).

أ. ف.: إذاً حتـى كيسـنجر يعـترف أنّ الــ (PLO) لم تتحطـم كليًّـا. لم تتحطـم. وبالمقابـل عرفات كانـت له معركته الصغـيرة، معركة ستالينغراد؛ كان قادراً على تحريك شعوب العالم بالدرجة نفسها التـي آذيتموهم فيها. لقد خرّبتم مدينـة ومحوتموها من الوجود؛

لقد أتلفتم العلاقات بين (الولايات المتحدة) وإسرائيل... ربما فزتم، جنرال شارون، إنما يبدو أنه انتصار بيروسيّ[1].

أ. ش.: إنكِ مُخطِئة. استطلاع حديث يكشف أنّ التعاطف مع إسرائيل في تصاعد. ولا حاجة لأن نقول إن الرأي العام ليس مهمًّا جداً على الإطلاق؛ مع أننا نهتم بالتعاطف الدولي، حين يكون هذا التعاطف قضية أمان وقضية وجودنا يمكننا أن نعمل بشكل جيد جدًّا من دونه. بقدر تعلّق الأمر بالعلاقات بين (الولايات المتحدة) وإسرائيل، لم تتلف. من الصحيح، أنه كانت لدينا خلافات صعبة جداً مع الأمريكيين نقاشات مريرة جداً. كما أنّ الأمريكيين فرضوا ضغطاً نفسيًّا علينا، و، حتى قبل أن تبدأ الحرب، لم أكن قادراً على أن أجد مصلحة مشتركة، أرضية مشتركة. الآن، من الناحية الأخرى، إنهم يؤيدون خططنا، و، على أية حال، أنتِ تعرفين ما أقول؟ أنا بالأحرى أتحمّل تلك الضغوطات، تلك النقاشات، تلك النزاعات، بدلاً من أن أهرب بطائرة مروحية من سقف السفارة الأمريكية في سايغون. إن الانسحاب الأمريكي من سايغون هو إثم إثم لم أشكُ منه. جعلتُ الآخرين يعانون منه.

أ. ف.: يبدو ذلك غير صحيح تماماً بالنسبة لي، جنرال شارون. إن رحيل (منظمة التحرير الفلسطينية) من بيروت كان مبجّلاً نسبيًّا حتى الآن. دموع، نعم؛ حالات رمي بالرصاص سخيفة، نعم؛

(1) انتصار بيروسي a Pyrrhic victory: انتصار يُنتزَع بثمن باهظ جداً – م.

في الجوهـر، إنهم يرحلون كجيش بملابسـهم النظامية، بنادقهم الـ AK – 47، راياتهـم. لماذا أنتَ عديم الشفقـة للغاية، جنرال شـارون؟ لمّا كنتَ تخفـض بصرك ناظراً إليهم مـن تلال (بعبدا) بذلك التيلسكوب، أحقاً أنكَ لم تحسَّ إلا بالاحتقار حيالهم؟

أ. ش.: لا، كنـتُ أحـس بكلـمات الإنجيـل: «لا تبتهـج حـين يسـقط عـدوك». لأنه حتى لو كانوا قتلة وهـم قتلة فعلاً؛ حتى لو كانوا سفاحـين وهـم سفاحـون فعلاً؛ حتى لـو كانـوا مغتصبين وهم مغتصبـون فعـلاً؛ حتى لو كانـوا إرهابيين متعطشـين للدماء... لا، لا تقاطعينـي! دعينـي أَرّد بطريقتي الخاصـة! حتى إذا كانوا إرهابيـين متعطشـين للدمـاء، كنـتُ أقـول وهم هكـذا فهُم مع ذلـك بشر. وأنـا لم أبتهج. في ما يتصـل بالعرض المسرحي الذي اصطنعـوه، راحوا يمثلون مسرحية النصر الخاصة بهم، كنا نعلم علـمَ اليقـين أنه سـوف يحدث هـذا. لدينـا مخبرونـا في (بيروت الغربيـة)؛ كنـا نعرف ماذا يُخططون. كنا نعـرف أنهم تلقُّوا أوامر حازمـة جداً في كيفيـة التصرّف أمـام الصحافيـين والكاميرات التليفزيونيـة ذلـك أن كلّ فـرد حصل على بذلـة نظامية جديدة، نظيفـة. حتى أنهم نُصحـوا أن يُظهروا بنادقهـم، كي يشاهدوننا كيـف أنّ بيغـن لم يمنعهـم من أن يأخـذوا معهـم بنادقهم. على كـلّ حـال، إنـه شيء غـير مفيد بالنسـبة لـكِ أن تواصـلي ترديد كلمة «رحيل». إنه لم يكن حتى انسـحاباً، ولا حتى إجلاء. كان ترحيلاً. كان ترحيلاً. إرهابيو (منظمة التحرير الفلسطينية) ربما

كانـوا سيتحدّثون عن «الإجلاء «لـو أننا وافقنا على طلباتهم، لو أننـا تركنا بيروت. بـدلاً من ذلك، كانوا مُجبريـن على أن يذعنوا لمشيئتنا، كي يتقبّلوا وجودنا؛ لقد تم رميهم خارجاً أُبعِدوا.

أ. ف.: كـما تشـاء. لكن قبل أن نواصـل حوارنا، أُريـد أن أفتح قوساً. لماذا تسميهم إرهابيين؟ الإرهابي هو الشخص الذي يُحرّض على العنف وسط الناس عديمي الأذى، العُزّل، يقتلون مواطناً يقطع الشـارع، على سبيل المثال، أو يفجرون سيارة، قطاراً، مبنى. وما من شك أنّ الـ (PLO) ارتكبت أعمالاً مثيرة، قذرة، بغيضة مثل هذه مـراراً وتكـراراً. ذكرتُ هذا كثـيراً قبل سنـوات طوال، لمّا حاورتُ ياسر عرفات وجورج حبش. لكن في بيروت لم يكونوا إرهابيين. في بيروت كانوا جنوداً، وقد قابلوكم بوصفهم جنوداً: مدفعية ضد مدفعية، مدفع رشاش ضد مدفع رشاش.

أ. ش.: إنـكِ تذكرينني بـ (فيليـب حبيـب)[1]؛ في كـلّ مـرة يلفظ أو يقـرأ كلمة «مقاتلون»، ينظر إليّ ويكبت بسـمة. لأنه كان يعرف كيـف ستكون ردّة فعـلي. مقاتلون، جنود؟ لا، مـدام، أولئك لم

---

(1) فيليـب حبيـب Philip Habib (1920 – 1992): دبلومـاسي مـن (الولايـات المتحـدة) من أصول لبنانيـة مارونية، برز اسمه عالميًّا لـدوره في أحداث غزو لبنان العـام 1982 حيـث تمكـن حبيب من إبرام اتفـاق لوقف إطلاق النـار بين إسرائيل و(منظمـة التحريـر الفلسـطينية) في تموز/ يوليـو 1981 وتمكن أيضـاً في 18 آب/ أغسـطس 1982 من إبرام وقف آخر لإطلاق النار بين الطرفين. اتسـمت علاقاته بالتشنج مع وزير الخارجية الأمريكية آنذاك ألكسـندر هيج، حيث كان هيج يمثل تياراً يمينياً داعماً لإسرائيل في أثناء حرب لبنان العام 1982 – م.

يكونـوا مقاتلين أو جنوداً. ولا حتى في بـيروت. كلُّ مَن يدخل صالـة العمليـات في المسـتشفى، حيـث الأطبـاء يعملـون عـلى إنسـان جريح؛ كـلُّ مَن يقطـع أنابيب الأوكسـجين ويطلب أن يُرمـى المريـض جانباً في مصلحـة أيّ جهة فكروا فيهـا؛ كلُّ من يفعـل ذلك ليـس جنديًّا. إنه إرهابي قاتل. كـلّ مَن يختطف رتلاً تابعـاً لــ (الصليب الأحمر) ويسرق الحليـب المجفف المخصص للأطفـال، وطوال ذلك يضحك ضحكة مكبوتة؛ كلُّ مَن يفعل ذلك ليـس جنديًّا. إنه إرهابي لص. هكذا تصرّف رعاع عرفات في بيروت. السـوريون لا يتصرّفون بتلك الطريقة؛ الأردنيون لا يتصرّفون بتلك الطريقة. رجال عرفات يتصرّفون هكذا. دوماً، إنهم يتصرفون هكذا دوماً. في الحدود بين لبنان وإسرائيل، لدينا قواعد عسـكرية عديدة، لم يهجموا عليها. لم يهجموا البتة! كانوا يهجمون دوماً على المستوطنات الإسرائيلية؛ كانوا يقتلون البشر العُزّل، الأطفال، المسنين، النساء. إنهم ليسوا جيشاً. إنهم عُصبة مـن الجبناء، من الإرهابيـين. اسألينـي أيّ شيء، لكن لا تطلبي مني ألّا أسميهم إرهابيين.

أ. ف.: الحقيقـة هـي أنكَ تسـتعمل تلك الكلمـة «إرهـابي» باعتبارها إسـاءة، وإنـكَ تسـتعملها بنحـو ملائم هكـذا. لكن مـاذا كنتُم حـين قاتلتم العـرب والإنكليز كي تؤسسـوا إسرائيل؟ إرغون، مجموعـة شـتيرن، هاغاناه ألم تكن هـذه كلّها منظـمات إرهابية؟ حين قتل بيغن تسـعة وسبعين فرداً في تفجير (فندق الملك داود)

في القدس/ أورشليم، ألم يكن ذلك عملاً إرهابيًّا؟ إنه يعترف بهذا القدر. في وقت مضى في نيويورك، خلال مأدبة غداء على شرفه، استهل حديثه بعبارة «أنا إرهابي سابق».

أ. ش.: منظمة السيد بيغن لم تهاجم المدنيين. والسيد بيغن كان جديراً بالاحترام وهو يقول لرجاله ألا يضربوا المدنيين. القنبلة على (فندق الملك داود) كانت موجهة إلى الجيش البريطاني، والإثم عن تلك الواقعة يقع بشكل مضاعف على أكتاف (المندوب السامي البريطاني)، الذي أُنذر قبل نصف ساعة من وقوع التفجير إلا أنه فرّ هارباً، بدلاً من أن يُخلي الفندق. نحن لسنا إرهابيين؛ نحن فدائيون. كنا نقاتل الاحتلال البريطاني.

أ. ف.: لكن رجال عرفات أيضاً يسمون أنفسهم فدائيين؛ هم أيضاً يزعمون أنهم يقاتلون الاحتلال الإسرائيلي. سوف أغلق ذلك القوس. الآن قُلْ لي، جنرال شارون: ألستَ نادماً أنكَ لم تدخل إلى بيروت وتتخلّص منهم كلّهم تقتل كلَّ أعدائك؟ بصورة عامة، ألا تحس أنه سُرِق منك شيءٌ ما ألا تحس أنكَ غير مقتنع؟

أ. ش.: انصتي، إنه ليس سرًّا أنه في كانون الثاني/ يناير الفائت كي أكون دقيقاً، في الثامن عشر من كانون الثاني/ يناير ذهبتُ إلى بيروت سرًّا كي أدرس الموقف. أنا أفعل هذا على الدوام؛ أجهز نفسي، لأني أكره الارتجال. كانت رحلة جريئة، والأكثر من ذلك، الذهاب والإياب معاً... مضيت؛ مكثتُ يومين وليلة واحدة؛ مضيتُ حول المدينة، إلى أن وصلتُ الميناء. هناك

تكلّمتُ مع الناس، وبعدها، من ناطحة السحاب التي تُقسِّم المنطقتين المسيحية والمسلمة، راقبتُ المدينة عن كثب. كان معي شخصٌ ما، وأخبرتُ هذا الشخص بالضبط ما أخبرتُ به رئيس الوزراء بيغن لمّا رجعتُ إلى القدس/ أورشليم: «إذا ومتى: ما تعيَّن علينا أن نذهب إلى لبنان، أود أن أتجنب دخول بيروت». أتعرفين لماذا؟ لأنها حتى إذا كانت مُحتلة من قبل السوريين، حتى إذا كان قد اجتاحها الإرهابيون، بيروت تبقى هي العاصمة عاصمة يسكنها مئات الآلاف من المدنيين. أعترف أني أفكر دوماً أنه من الأفضل ألا أدخل بيروت إن لم يكن ذلك ضروريًّا بكلّ معنى الكلمة. وانصتي جيداً: لو أني كنتُ مقتنعاً حقيقةً أنه من الضروري أن أدخل بيروت، ما من أحد كان بوسعه أن يمنعني. الديمقراطية أو لا، كنتُ سأدخل بيروت حتى لو كانت حكومتي تفكر بطريقة مختلفة. كنتُ سأقنعهم أنه يتعين عليّ أن أفعل ذلك، وكنتُ سأفعلها.

أ. ف.: لئن كانت تلك هي الحالة، لماذا حاولتَ جاهداً أن تدخل؟ إبان الطور الأخير من الحصار، كنتُ في بيروت، جنرال شارون. مضيتُ على وجه الدقة كي أرى ماذا يجري، كي أستعد لهذا الحوار. و، حالي حال أيّ شخص آخر هناك، بوسعي أن أبرهن أنكَ كنتُ تحاول الدخول، يوميًّا. يوميًّا كانت هنالك معركة عند المتحف، عند مضمار الخيل، في غابة الصنوبر. كي أدخل من (بيروت الشرقية) إلى (بيروت الغربية)، اجتزتُ غابة الصنوبر

تلـك، حيـث كـان الإسرائيليـون والفلسـطينيون عمليـاً وجهاً لوجه؛ رأيتُهم. بالله عليكم، كنتم تقاتلون من أجل أن تسيطروا على مائة متر، خمسين متراً. خمسة وعشرين! وكنتم عاجزين عن التقدّم.

أ. ش.: آنسة فالاتشي... أرجوكِ صدّقيني. من وجهة نظر عسكرية، كـان باستطاعتنا أن ندخـل في أيّ وقت. لو بات ذلك ضروريًا، كنـا سنتأهـب للدخول. لا تنسي أنّ لدينا أحـد أفضل الجيوش في العـالم، وكنا نقاتل على مدى خمسـة وثلاثين عاماً، وقد خضنا حرباً مع كلّ بلد عربي، وبحوزتنا كمٌ كبيرٌ من الخبرة.

أ. ف.: لكن من الجائز ليست خبرة الاشتباك في داخل مدينة، من منزل إلى منـزل. جنـرال شـارون، صحِّـح لي إذا كنتُ غلطانـة، لكن أليـس أحد الأسبـاب التي جعلتك لا تدخل (بـيروت الغربية) هـي أنّ هذا الاشـتباك كان سيكلّفكـم عدداً غفـيراً من الجنود: ألف جندي في الأقل؟

أ. ش.: سأنظر في عينيكِ وأجيبكِ قائلاً: لا، لا، لا. في المقام الأول، لن نعاني من الخسـائر التي وصفتِها ولا حتى جـزء من الرقم الذي ذكرتِـه. كنا نتدبَّـر أمورنا بدزينات قليلة من الموتى في الاشـتباك مـن منزل إلى منزل، وهذا ما قاله رئيس الأركان لرئيس الوزراء بيغـن. انتظرنا تلـك الأسابيع كلّها، لأننا كنا نعـرف أنّ (منظمة التحرير الفلسـطينية) اكتشفت أنه ليس بمستطاعها الاستمرار، وكـان سينتهـي بها المطـاف بأن ترحل. آنسـة فالاتـشي، بيروت

ليست ستالينغراد، وأنّ (منظمة التحرير الفلسطينية) ليست (الجيش الأحمر)؛ لا تدعينا نهوّل الأشياء. قبل مدة قصيرة ذكرتِ ستالينغراد صغيرة. هل سبق لكِ أن كنتِ في ستالينغراد؟

أ. ف.: لم يسبق لي، وأنت؟

أ. ش.: ولا أنا. إلا أنني أعرف كلّ شيء عن ستالينغراد؛ قرأتُ كلّ شيء يتعلّق بستالينغراد. إني أقول لكِ إن بيروت لا يمكن مقارنتها بنحو متناسب مع ستالينغراد. في المقام الأول، في ستالينغراد الشعب و(الجيش الأحمر) كانوا يقاتلون جنباً إلى جنب ضد الألمان. في بيروت، من الناحية الأخرى، الإرهابيون احتجزوا السكان رهائن لديهم. في ستالينغراد، (الجيش الأحمر) والسكان قاتلوا ببطولة قاتلوا حتى الموت. إرهابيو ياسر عرفات، من الجهة الثانية، قاتلوا بأقل ما في استطاعتهم، مع ذلك كانوا يُعطون الانطباع بأنهم يُقاتلون. هم لم يُقاتلوا فعلاً بأقصى درجة من الجدِّ، ومع ذلك كانوا يُعطون الانطباع بأنهم يُقاتلون. أبداً! في كثير من الأحيان، لم يكونوا يُقاتلون على الإطلاق. في حقيقة الأمر، استغرقنا أربعة أيام فقط كي ندخل من الحدود إلى ضواحي بيروت. قاتلوا قليلاً جداً، حتى في المطار وفي الحقول الزراعية. إنه لأمر مُدهش كم قليل عدد موتانا في الأوزاعي، برج البراجنة، هاغشالوم Hagshalum. وهذا سبب آخر يجعلني لا أحترم عرفات. أنا أحترم المصريين على طريقة قتالهم ضدنا في تلك الحروب كلّها؛ أحترم الأردنيين على طريقة

قتالهم في القدس في 1967؛ أحترم السوريين على طريقة قتالهم في مناسبات كثيرة، بما فيها هذه المناسبة. إلا أنني لا أحترم إرهابيي عرفات، لأنهم لم يحاربوا فعلاً في لبنان وفي بيروت. وها أنا ذا أقول ثانية: لو كانوا هم الشيء الوحيد الذي يُعيقنا، كنا سندخل بيروت بسهولة.

أ. ف.: لكنكم لم تدخلوا. وإذا لم يكن للسبب الذي ذكرتُه، فلا بد أن يكون ثمة سببٌ آخر. صحِّح كلامي إن كنتُ غلطانة، لكن هل من الجائز أن يكون هذا السبب الآخر يحمل اسم الرئيس ريغان؟ صحِّح كلامي إن كنتُ مخطئة، لكن أليس الأمريكيون أليس هو الرئيس ريغان الذي كان يُريدكم أن تبقوا خارج بيروت؟ هل أنا مُخطئة في الاعتقاد بأنكم لم تتمكنوا من تجاهل غضب وشجب الدول التي تحميكم، وحلفائكم؟ كان الأمريكيون غاضبين من البداية بالذات، كما تعرف. إنكَ تحتاج فقط لأن تتذكر برود ريغان تجاه بيغن لمّا أصر على زيارة واشنطن.

أ. ش.: بادئ ذي بدء، بيغن لم يصر على زيارة واشنطن. إنكِ لا تعرفين بيغن. وزيادةً على ذلك، لم نكن بحاجة إلى رُخصة أيٍّ أحد كي نشن الحرب، ناهيكِ عن الأمريكيين. هل سبق لنا أن طلبنا رُخصتهم كي نقوم بأيّ شيء فعلناه في الأعوام الخمسة والثلاثين المنصرمة؟ هل طلبنا رخصتهم كي نُعلن (دولة إسرائيل)، كي نُعلن أن القدس/ أورشليم عاصمة إسرائيل، أن نجلب الحكومة والبرلمان إلى القدس/ أورشليم، أن نعبر

قناة السويس في 1973، أن نشن غارة على عنتيبي [1]، أن نضرب بالقنابل مفاعل العراق النووي؟ نحن دولة مستقلة، نحن نتخذ قراراتنا بِحرِّيَّةٍ، انطلاقاً من إرادتنا الحرّة. وأخيراً، لدينا حلفاء، وليس دولاً توفر لنا الحماية. نحن لا نحتاج إلى مَن يحمينا. أنا لا أقول إن بوسعنا أن نتجاهل رأي حلفائنا، إلا أنني أؤكد أننا لا نتلقَّى أوامرنا من أيّ شخص. قلتُ لكِ آنفاً لماذا لم أدخل بيروت. وكي أصوغها ببساطة، لم أشأ أن أضرب السكان المدنيين.

أ. ف.: أوه، لا، جنرال شارون! لا! ما هذا الذي تقوله بحق السماء؟ لقد قصفت بالقنابل السكان المدنيين بشراسة، على مدى أسابيع. بشراسة! باستطاعتي أن أخبرك أني غطيت تقريباً كلّ الحروب في زمننا، وطوال ثمانية أعوام غطيتُ حرب ڤيتنام. ولا حتى في هوي [2]، ولا حتى في هانوي، رأيتُ قصفاً شرساً

---

(1) عملية عنتيبي: عملية اختطاف رهائن نفذتها مجموعة من الفلسطينيين واليساريين الأمميين الألمان في 27 تموز/ يونيو 1976، حيث خُطفت طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية مع 248 راكباً إلى عنتيبي قرب كمبالا عاصمة أوغندا. بعد وقت قصير من الهبوط، وأطلق سراح جميع الركاب من غير اليهود، طالب المختطفون بتحرير سجناء فلسطينيين من السجون الإسرائيلية. في ليلة 4 من تموز/ يوليو 1976 نقلت طائرات النقل الإسرائيلية أكثر من 100 جندي من جنود القوات الخاصة مسافة 2500 ميلا (4000 كم) إلى أوغندا لعملية الإنقاذ. واستمرت العملية، التي خطط لها في الأسبوع السابق، 90 دقيقة، ونجحت القوة في تحرير 103 أفراد من الرهائن – م.

(2) هوي Huế: عاصمة محافظة Thừa Thiên Huế في وسط ڤيتنام. يعتمد اقتصاد المدينة على السياحة، وهي من بين مواقع قليلة في ڤيتنام أدرجتها اليونسكو على لائحة التراث العالمي – م.

بالقنابـل كالقصـف بالقنابل في بـيروت. والآن تُريدني أن أبتلع الفكـرة القائلة أنكَ لم تدخل بيروت كي توفر على أولئك الناس المساكين رصاصات أكثر قليلاً؟

أ. ش.: أنتِ قاسية. أنتِ شديدة القسوة. نعم، أعرف أنكِ كنتِ هناك؛ أعـرف ما رأيـتِ. إلا أنني أعرف أيضـاً أننا لم نقصـف بالقنابل السـكان المدنيـين عمداً. نحـن لم نقصـف بالقنابل كـي نُصيب السـكان المدنيـين. أبـداً! معظم القصـف وأقـول «معظم «لأن الحـرب هي الحرب جرت في المناطق التي ضمّت قواعد إرهابية ومراكز قيادات، جنوب (كورنيش المزرعة) في منطقة (فاكهاني). إني أتكلّم عن صبرا، شاتيلا، الأوزاعي، بُرج البراجنة...

أ. ف.: أو ربما كوڤينتري[1] 1940، أو برلين 1945؟ غير أنكَ لم تكن فقط تقصف بالقنابل هناك، كنتَ تقصف بالقنابل مركز المدينة أيضاً. المنازل، المسـتشفيات، مكاتب الصحف، الفنادق، السـفارات. اسـأل أولئـك الذيـن كانـوا في الداخـل. اسـأل الصحافيين في (هوتيل كومودو).

أ. ش.: نحـن لم نقصف بالقنابل تلك الأمكنـة، قصفنا بالقنابل المراكز العسـكرية المُقامة بجوار هذه الأمكنة. قصفنا بالقنابل الأهداف العسـكرية التـي اعتصـم فيهـا الإرهابيـون بنحو غـير مشروع

(1) كوڤينـتري Coventry: مدينـة في (ويسـت ميدلانـدز) بوسـط إنكلـترا، قُصفت بالقنابـل بكثافـة في العام 1940 (الحرب العالمية الثانيـة). ذكرت المؤلفة سهواً أن ذلك جرى في العام 1941 – م.

في مركـز المدينـة، مختبئين خلف السـكان، جاعلين من السـكان رهائـن! أنظـري إلى هـذه الصـور الفوتوغرافية، التـي التقطتها طائراتنا. أنظـري هنا: مائة وعشرون متراً عن سفارة الفاتيكان، كانـت هنالك بطارية بمدافـع هاون عيار 82 ملـم. ثلاثمائة متر عن السـفارة السوفييتية، كمٌّ هائلٌ من المدفعية الثقيلة ومتوسطة المـدى. دزينـات قليلة من الأمتـار عن سفارتيْ اليابـان وتشيلي، مدفـع عيـار 130 ملم. الدبابـات تُطوّق السـفارة الأمريكية من الجوانـب كلّها. هل تعتقدين بالفعـل أننا نريد أن نضرب سفارة الفاتيكـان، السـفارة المصريـة؛ سفـارات الاتحـاد السـوفييتي، اليابـان، تشيلي، إسبانيا، والولايـات المتحدة؟ أنظري أين توجد الدبابات: هنا، هنا، هنا، هنا...

أ. ف.: رائـع. يُمكننـي أن أُجيـب أنه في الأيام الأخيرة من الاشـتباك، في (بـيروت الشرقية)، أنت أيضاً أبقيـتَ دباباتك على بعد أمتار قليلة من (هوتيل ألكسندريه) و(هوتيل ديو هوسبيتال). ونتيجة لذلـك، كلَّ ليلة وكلَّ صبـاح كانت تنهمر صواريخ الكاتيوشـا الفلسـطينية؛ كان ذلك الجحيم بعينـه. إلا أنني أقوى بالأحرى: حسـناً، إنكَ على حق فيـما يتعلّق بذلك. في بعـض الحالات، الـ (PLO) فعلـت أسـوأ مـن ذلـك: وضعـوا الصواريـخ المضادة للطائرات على سطح أحد المسـتشفيات. غير أنّ هذه ليست هي المسـألة. أكـرر، المشكلة هي المبالغة، الرد غـير المناسب، شراسة قصفكـم بالقنابل. لو طـارت بعوضة على بـيروت، يكون ردُّك

ردًّا مفاجئاً وعنيفاً. لو لم تكن هذه هي الحالة، كيف تفسر سخط ريغان؟

أ. ش.: بالمبالغة نفسها التي تستعملينها كي تصفي مبالغتنا. المبالغة نفسها، أو عدم الدقة، متصلة بريغان. نعم، لأنه في لحظة ما قال الرئيس ريغان إنّ رمز هذه الحرب هي فتاة صغيرة مبتورة الذراعين. أحدهم وضع صورة هذه الفتاة الصغيرة الفوتوغرافية ملفوفة كالمومياء على سطح مكتبه، وطلع بهذه القصة بشأن الرمز. حسناً، فتشنا عن تلك الفتاة الصغيرة، وجدناها. قبل كلّ شيء، لم تكن فتاة صغيرة؛ إنها صبي صغير، وحتى أنّ ذراعيه لم يُبترا، كانت لديه ذراع مُصابة بجُرح. كانت ملفوفة بتلك الطريقة لأنه...

أ. ف.: جنرال شارون، لو أردنا أن نتقاتل بالصور الفوتوغرافية، باستطاعتي أن أُغرقكَ بالصور الفوتوغرافية، باستطاعتي أن أغرقكَ بصور الأطفال القتلى والجرحى في ذلك القصف العنيف بالقنابل. لديّ صورة فوتوغرافية واحدة في حقيبتي اليدوية أُريد أن أريكَ إياها، إلا أنني لم أعد أرغب بأن أُريكَ...

أ. ش.: أريني إياها.

أ. ف.: لا، لأني الآن لا أرغب برؤيتها من جديد. إنها تؤذيني. وتجعلني غاضبة جداً.

أ. ش.: أُريد أن أراها في كلِّ الأحوال.

أ. ف.: قلتُ لك لا، هذا ليس بالشيء الضروري.

أ. ش.: إنه شيء ضروري. يتعين عليَّ أن أراها.

أ. ف.: جيد.

(أفتح حقيبتي اليدوية وأسحب صورة فوتوغرافية. تُظهر الصورة مجموعة من الأطفال الموتى. أعمارهم تقريباً، سنة واحدة، ثلاث سنوات، خمس سنوات. إن الشيء المُفزع جداً، على أية حال، ليس أنهم موتى؛ بل أنهم تقلّصوا إلى أشلاء، إنهم مشوّهون. هنا ثمة قدم مفقودة من جثة أصغرهم سنًّا؛ هنا ثمة ذراع مفقودة من جثة أكبرهم سنًّا؛ وهناك ثمة يد صغيرة، مفتوحة تبدو كأنها تطلب الإحسان. أرييل شارون يأخذ الصورة الفوتوغرافية بيدٍ ثابتة، ويحدّق فيها، وطوال جزء من الثانية يتقلّص وجهه، وتصبح عيناه قاسيتين. يتمالك نفسه حالاً ويُعيد إليّ الصورة الفوتوغرافية، وهو مرتبك قليلاً).

أ. ش.: أنا متأسف... أنا متأسف جداً... متأسف جداً... جداً. أنا متأسف جداً لأني تقريباً لا أُبالي بأن أقول لكِ إن صورتك الفوتوغرافية شديدة الشبه بصور أطفالنا، الذين قتلهم إرهابيو عرفات في المستوطنات الإسرائيلية. ولماذا؟ بصرف النظر عن الجهة التي تكونين فيها من المتراس، كلّ ميتة هي تراجيديا، وإن موت طفل هو دوماً تراجيديا لا تُطاق. إنما يجب عليكِ أن تصدّقيني حين أُخبركِ أننا حاولنا تجنب هذه الأشياء قدر

المستطاع. لا أحدَ، في الحروب الحديثة حاول جاهداً كما فعلنا نحن. لا الأمريكيون، لا الفرنسيون، لا الإنكليز، لا الروس، ولا تدعينا نتكلّم عن الألمان. ولن أذكّركِ بهيروشيما، تلك اللحظة لمّا أنهى بلدٌ ديمقراطي الحرب بأن تسبب في موت مئات الآلاف من السكان المدنيين. إلا إنه شيء أن تقتلي السكان المدنيين عمداً وشيء آخر بكلّ معنى الكلمة أن تقتليهم من دون أن ترغبي بقتلهم. في اجتماع مع ضبّاطي في السادس من حزيران/ يونيو، قبيل دخولنا لبنان، أعطيتُ أوامر واضحة بأن يُستثنى المدنيون. بعد يومين، ذهبتُ إلى الجبهة، وعرفتُ أنّ أغلب خسائرنا كانت بسبب أوامري. لذا اجتمعت بضبّاطي مجدداً وقلتُ لهم: «لدينا خياران. إما أن نواصل كما نحن عليه الآن، أو أن نبدأ بالقصف بالقنابل». استمر الجدال من منتصف الليل حتى الفجر، بنحو دراماتيكي، وخلصنا إلى قرار بالإجماع: أن نستمر بالأسلوب نفسه. ولم نعد إلى القصف بالقنابل إلا حين فهمنا أنه كي نحث الفلسطينيين على مغادرة بيروت علينا أن نضغط عليهم كثيراً جداً.

أ. ف.: نعم، لكن إذاً لماذا واصلتم القصف بالقنابل حتى بعد أن أعلنوا أنهم راحلون من لبنان؟ كانت هنالك أيام عندما لم يكن بمستطاع مبعوثي فيليب حبيب أن يذهبوا من (الشرق) إلى (الغرب)، والعكس بالعكس، بسبب القصف بالقنابل. فيليب حبيب نفسه قال إنكم أنتم الذين خرّبتم المفاوضات: «كلّ

مشاكـلي تأتي من شـارون». ولماذا، حين كـان التوصُّل إلى اتفاق وشيك، في الحادي عشر من آب/ أغسطس، هل أطلقت العنان لأكثر أنواع القصف وحشيةً على الإطلاق اثنتي عشرة ساعة من دون انقطاع، من البر والبحر والجو؟

أ. ش.: لأن عرفات واصل ممارسة الألاعيب، ممارسة الحيل. لأنـه استمـر في الكـذب والاحتيـال علينـا، ذلك الجبـان، ذلك الكذّاب. لا يُمكنكِ أن تثقي به، أو تثقي بهم. إنهم يعيشون على مكرهـم؛ إنهم يخونون كلَّ وعودهـم، كلّ واجباتهم حتى حاليًّا. قبـل رحيلهـم، على سبيـل المثال، كـان من المفـترض أن يعطونا أسماءهـم. لم يفعلـوا. لم يكن من المفـترض أن يأخـذوا دباباتهم وسياراتهـم (الجيـب)، ومع ذلك حاولـوا أن يأخذوها. وفي 11 آب/ أغسـطس، كانـوا لا يزالـون يطالبوننـا بالانسـحاب مـن بـيروت، استبدال قواتنا بقوات دولية. لهـذا قصفناهم بالقنابل، بـين الثـاني عـشر والثالـث عـشر، رحبـوا بشروطنـا. وأوقفتُ القصف بالقنابل.

أ. ف.: أم إنكَ أوقفتَ القصف بالقنابل لأن حكومتكَ طالبت بذلك؟

أ. ش.: آنسة فالاتشي، ذلك القصف لم يكن مشروع شارون الشخصي؛ لقد اتخذت الحكومة قرار القصف ووافقت عليه. على كلّ حال، حـين قرر رئيس الـوزراء وأعضاء الكابينـة الوزارية أجمعهم أن يوقفـوا ذلـك القصف، أوقفت الحكومة الأشـياء مثلـما أردتُ، مثلما وافقتُ، ومثلما وقعتُ عليه.

أ. ف.: هل تنكر أن هذه حربكَ حرب أرييل شارون؟

أ. ش.: بالضبط. إنها ليست حربي؛ إنها حرب إسرائيل.

أ. ف.: إلّا أن شارون تصوّرها، حلم بها، رغب بها، أرادها، استعد لها، وقادها بكافة تفاصيلها؛ أيّ، بأسلوبك الخاص. وكي تُنجز الأشياء بأسلوبك الخاص لم تكن تقلق بأن تُغضب حلفاءك. جنرال شارون، كيف تفسر الحقيقة القائلة إن وزير الخارجية الجديد للولايات المتحدة جورج شولتز، رفض مؤخراً استقبالك في واشنطن؟ كيف تفسر الحقيقة التي مفادها أنّ أحد موظفيه قال، بصوت عالٍ وجليّ: «وجود وزير الدفاع شارون غير مرغوب به في واشنطن؟»

أ. ش.: الشائعة انتشرت بسرعة، نعم، لكن بعد سويعات قلائل قال الناطق الرسمي باسم شولتز إن هذا غير صحيح، وإنّ وزير الدفاع شارون مرغوب به كثيراً على الدوام في واشنطن، غير أنه من الأفضل أن نواصل الاتصالات مع فيليب حبيب في بيروت. والأكثر من ذلك، لم أطلب أن يدعوني إلى واشنطن؛ لم أطلب من ريغان أو واينبرجر أو شولتز مع أنني كنتُ أحب كثيراً أن ألتقي به. إنه صحيح، على أية حال، إنّ بيغن كان قد طلب لقاءً من خلال سفارتنا في واشنطن. كان رئيس الوزراء يُريد أن يُرسلني إلى واشنطن، ألّا أذهب إلى فيليب حبيب مباشرةً، لكنه أحس أنه من المفيد أن أخبر الحكومة الأمريكية بما كان يجري في هذا الجزء من العالم شخصيًّا.

أ. ف.: فهمت. كيف تفسر الحقيقة القائلة إن الأمريكيين عبّسوا بسبب مدّة الحرب؟

أ. ش.: كانوا خائفين من تعريض نجاح المشروع للخطر. طول الحرب أقلق الأمريكيين. لم يكن بوسعهم أن يفهموا أنها تستمر لأني لم تكن لي نية في دخول بيروت، وكانوا خائفين من أنّ الوقت يتبدد. إنكِ تعرفين، لبنان بلدٌ معقد؛ لم يكن هنالك فقط اللبنانيون وإرهابيو (منظمة التحرير الفلسطينية). هنالك أيضاً السوريون، السوڤييت... حتى من دون أن نحصيكم أنتم المنخرطين في الصحافة أو التليفزيون. أنتم كلّكم تُصبحون عنصراً حاسماً في الطريقة التي يقيّم فيها الشعب الأحداث، بخاصة الحروب. الطريقة التي تفسرون فيها الأشياء الأشياء التي تكتبونها والصور التي تُظهرونها هي عوامل مميزة. ما أعني قوله هو، في البلدان الديمقراطية أنتم الأشخاص الذين تصنعون الرأي العام. لذا فإن رئيساً ديمقراطياً يلزمه أن يبقى على علم بالرأي العام، وحين تفكرين في الحقيقة القائلة إن الانتخابات في أمريكا ستكون في تشرين الثاني/ نوفمبر... على كلّ حال، أنا لا أصوّر بطريقة مسرحية انزعاج الأمريكيين بنحو مبالغ فيه. إنّ تحالفنا مع الأمريكيين يستند إلى المصالح المتبادلة، والأمريكيون يعرفون هذا. إسرائيل ساهمت كثيراً في أمن (الولايات المتحدة) بقدر ما ساهمت (الولايات المتحدة) في أمن إسرائيل. إن اختلافاً واحداً لا يغير شيئاً.

أ. ف.: بكلمات أخرى، إنكم تحتاجون إليهم بقدر ما يحتاجون إليكم. متى أخبرتهم، على وجه الدقة، أنكَ تهمّ باجتياح لبنان؟

أ. ش.: فضلاً عن الحقيقة التي مفادها أني أفضّل كلمة «عملية عسكرية»[1] على كلمة «اجتياح». لم أبلغ الأمريكيين أني سوف أجتاح لبنان. لم أتحدّث معهم عن خططي، في الحقيقة، أو عن تواريخ أو توقيت معين. لكن، طوال ما يُقارب سنة منذ أيلول/ سبتمبر 1981 تكلّمتُ معهم عن احتمال أن تحدث العملية العسكرية. ناقشتُها مرات عدة مع وزير الخارجية الأمريكي ألكسندر هيج عندما أتى إلى هنا؛ تكلّمتُ عنها مع وزير الدفاع الأمريكي واينبيرجر عندما ذهبتُ إلى واشنطن في تشرين الثاني/ نوفمبر؛ وناقشتها مراراً مع السفير فيليب حبيب. أنظري، التقيتُ فقط مع هيج، واينبيرجر، وفيليب حبيب كي أناقش مسألة الإرهاب (منظمة التحرير الفلسطينية). و، مع أني كنتُ حذراً من ألّا أكشف خطتي معهم، لم أحتفظ بالأسرار أو ألفّقها. على العكس. بما أن قصف المفاعل النووي العراقي كان قد أذهلهم وتذمروا بشأنه «من فضلك لا تباغتنا «عندما كنا نتحدّث عن لبنان ظللتُ أكرر، «لا تقولوا إنكم بوغتم، لمّا وحين نقرر. الموقف هو إننا لا نستطيع أن نتراجع». هذا الشيء صحيح بنحو واضح بعد أن سمعتُ ما يقوله دبلوماسيوهم في

(1) عملية عسكرية: بالإنكليزية كلمة واحدة هي operation – م.

المملكـة العربية السـعودية دبلوماسيون في بلد كان دوماً يسـاند ويمـوّل إرهاب (منظمة التحرير الفلسـطينية) أكثـر من أيٍّ بلد آخر، باستثناء (الاتحاد السوفييتي). أولئك الدبلوماسيون كانوا يقولـون إنّ النشاط الإرهابي على طول الحدود مع إسرائيل يجب أن يُعَـدَّ انتهاكات للهدنة، أما الأنشطة الأخرى فليسـت هكذا. لذا مضيتُ إلى السـفارة الأمريكية في إسرائيل، وأخبرت السفير بمستجدات الموقف، وقلتُ من جديد، «لا تندهش حين يحصل هذا».

أ. ف.: ومـاذا قالـوا لك؟ كيـف حكموا على «مشروعـك»؟ ألم يقولوا لـك، «بهذا المشروع إنـك تخاطر ببدء (حرب عالميـة ثالثة)»؟ ألم يسـبق لكَ أن سألتَ نفسـك ما إذا ستطلق هذه الحرب العنان لـ (حـرب عالمية ثالثة)؟

أ. ش.: بالطبع، فكرنا في شتى الاحتمالات المتمثلة بالتدّخل السوفييتي، حتـى عندمـا كنـا نتكلّم مـع الأمريكيين. نحـن نعرف أنـه، إذا كـان يجـب أن تبدأ (الحرب العالميـة الثالثة)، فهـي لن تمس فقط (الولايـات المتحـدة) و(الاتحاد السـوفييتي)؛ سوف تجر الجميع إليهـا، نحن في المقـام الأول. لكنكِ تعرفين... نحـن أيضاً لدينا (جهاز استخبارات)، وهو جهاز ممتاز، بالإضافة إلى ذلك. نحن نعـرف أيضاً كيف نجمع الأخبار، نقيّمها، نتشرَّبها. كنا أيضاً قد جمعنـا كثيراً من المعلومات، ودققناها بعنايـة، وبتفكّر، استنتجنا أنّ (الاتحاد السوفييتي) لن يحرّك ساكناً.

أ. ف.: على الرغم من ذلك، بحسب أحد موظفيه، ألكسندر هيج سمّى القضية كلّها «مجنونة».

أ. ش.: لا أتذكر هذه الكلمة. مجنونة؟ لا، لم يقل لي أحد هذه الكلمة. لكن، نعم، كانوا ضدها. ضدها تماماً، أنا أعترف بهذا. مع أنهم لم يفهموا الموقف، الدرجة التي تدهور إليها، إلا أنهم لا يزالون لا يؤيدونني. ظلّوا يكررون الجملة الآتية: «لماذا تحتاج إلى هذه الحرب؟» وبعدها راحوا يقولون إنه إذا كان ضروريًا فعلاً أن تردّ، ذلك الرد ينبغي أن يكون متناسباً مع الأفعال الإرهابية، ولا شيء أكثر.

أ. ف.: سوف أطرح عليك السؤال ذاته، جنرال شارون. «لماذا احتجتَ إلى هذه الحرب؟» أين هو التهديد الوشيك، أين هي المعلومات الجديدة التي كشفت خطراً على وجودك؟ لا أحد يفهم هذا.

أ. ش.: إن استنتاجك يشبه تماماً استنتاج هيج؛ أتذكر أنه قال لي مرةً، «توقف، لا ترد على تحريضهم»، أو «ينبغي أن يكون رداً على تهديد محدد». ذات يوم نفد صبري معه، وسألتُ هيج سؤالاً سبق أن وجهته إلى فيليب حبيب: «ممَ يتكوّن على وجه الدقة التهديد المحدد لليهود؟ هل إنّ موت يهودي في ساحة المعركة أو في الشارع هو التهديد المحدد؟ هل هذا كافٍ؟ أو أننا نحتاج إلى ميتتين أو ثلاث أو خمس أو عشر؟ إذا فقد يهودي رِجليه أو عينيه في هجوم إرهابي، هل هذا كافٍ، أو لا؟» لقد عُذبنا وقُتلنا على

مدار سنوات. ذلك، بالنسبة لي، أكثر من كافٍ وأكثر من محدد.

أ. ف.: جنرال شارون، تحدّثتُ مع عدد كبير من الشبيبة هنا في إسرائيل، ومع أطفال من بيروت، والأغلبية قالوا لي إنّ هذه الحرب، إن لم تكن غير عادلة بكلّ معنى الكلمة، فهي في الأقل غير مُبرَّرة.

أ. ش.: لو تحدّثتِ معهم كلّهم، سوف تكتشفين أنهم كلّهم تقريباً، في حقيقة الأمر، تقبّلوا هذه الحرب ويحسبون أنها أكثر من مُبرَّرة.

أ. ف.: هذا ممكن. لقد أصبحتم كلّكم مستعدين للقتال للغاية تتكلّمون دوماً عن الحرب، مستعدون دوماً للذهاب إلى الحرب، للتوسُّع. إنكم لم تعودوا البلد صاحب الحلم العظيم، البلد الذي بكينا عليه جميعاً. لقد تغيّرتم؛ هذا هو كلّ ما يُقال. أحد هؤلاء الأطفال أشار قائلاً، «نحن نُصبح بروسيا (الشرق الأوسط)».

أ. ش.: هذا غير صحيح. لدينا أشياء كثيرة كي نفعلها، بصرف النظر عن القتال. على سبيل المثال، نحن نطوّر نظامنا التعليمي، ثقافتنا، زراعتنا، صناعتنا، وعلمنا. يتعين علينا أن نعمل باستمرار كي نمتصَّ جميع اليهود الذين يصلون من أكثر من سبعين بلداً؛ نحتاج لأن نحاول أن نبني وطناً معهم. ونحن نشارك في أيّ نوع من سباق الأسلحة؛ نحن نسعى فقط لتحسين دفاعاتنا وأن نكون مستعدين للردّ لمّا نحتاج إلى الردّ.

أ. ف.: ذلك الطفل يمتلك شكوكاً. بطله هو الكولونيل غيـڤا[1]، الذي رفض أن يقود رجاله في حصار بيروت.

أ. ش.: المسـكين إيلي، أنا أعرفه حق المعرفـة. عرفتُه منذ أن كان طفلاً، وأشـعر بالشفقـة عليه. لم يشأ الدخول إلى بيروت. حسـناً، الآن أضاع قيادته، أضاع مسـيرته العسـكرية الباهـرة، ونحن حتى لم ندخـل بيروت. بطل؟ قلّما يكون بطلاً. بسـبب غلطته استمرت الحرب زمنـاً طويلاً جداً، حتى إننا فقدنـا أرواحاً أكثر. كلّ هذا الحديـث عنه... كـلّ تلك الاحتجاجات السـلمية التي أظهرتها المعارضـة تكريماً له... على مدى مدة زمنيـة القضية كلّها هي في الحقيقـة إعطاء قوة أكـبر للإرهابيين. وهو لم يسـتمع إليّ لمّا قلتُ لـه، «إيلي، إيلي، هذه قضية أخلاقية! قواتك تقاتل، آلاف الجنود يؤمنـون بك! هل تُـدرك ما تفعلـه، إيلي؟ حتـى إذا لم تكن تريد الدخـول، فإنك تسـاعد العـدو!» حتـى رئيس الـوزراء قال له هذا رئيـس الأركان. لأن هذه فعلاً ديمقراطيـة، بالله عليكِ! لا يُمكنكِ أن تُصبحي ديمقراطية أكثر من هذا. ماذا يستطيع جيش آخر أن يفعل إذا حصل هذا فيه؟ إلا أنه ما من شيء يُمكن القيام به إزاءه. ظلّ يكرر فقط أنه لا يُريد أن يدخل بيروت، إذ سيُقتل

---

(1) الكولونيـل غيــڤا Colonel Gheva (وُلد العـام 1950): آمر لواء إسرائيلي رفض في أثنـاء حصار بـيروت (في المرحلة المبكرة من الحرب اللبنانيـة 1982) قيادة قواته إلى داخـل المدينـة لأسباب أخلاقية وهي تعريض الجنود والمدنيين على السـواء للخطر في حرب المدن – م.

عـدد غفير من البشر من كـلا الطرفين. إن الشيء الاستثنائي هو أنه في الأيام القليلة الأولى من الحرب كان يُثير لغطاً لأننا لم نكن نقصـف بالقنابل بنحو كافٍ. كان يُريد مزيداً من القنابل، مزيداً من المدفعية، مزيداً من النيران...

أ. ف.: أوه، يـا إلهـي! هل تقول إن السـادات كان مُحقًّـا حين قال إنه لا يوجـد أعداء للحرب ودُعـاة حرب في إسرائيل، بـل فقط دُعاة حرب ودُعاة حرب ممتازون؟

أ. ش.: عندما تتعلق المسـألة بأمننا القومي، نحن متحدون؛ لا شـكَ في ذلـك. نحن لسـنا دُعاة حرب، ولا أعداء للحـرب؛ نحن يهود. نحـن أعضاء (حزب العمل) أو أعضاء (حزب الليكود)؛ نحن يهود. هذا هو جوابي.

أ. ف.: جنرال شـارون، غالباً يبرز شـك شـك بأنه، بدلاً من الأمن أو الدفـاع، أنـكَ مهتم فعلاً بطموحات طموحـة أكثر بكثير. أقول هـذا وأنـا أفكر في الحديـث الذي كتبتَـه من أجل مؤتمـر (معهد الدراسـات الإستراتيجيـة) في كانون الأول/ ديسـمبر المنصرم في تـل أبيـب. في هذا الحديـث، بعد أن عالجتَ مشكلـة التوسُّع السـوڤييتي وزحفهـا عـلى المصالـح الإستراتيجيـة الإسرائيلية، قلـتَ إن هـذه المصالـح «لا تقتـصر عـلى البلـدان العربيـة في (الـشرق الأوسـط)، في حـوض (البحـر المتوسّـط)، (البحـر الأحمـر). لأسباب أمنية، في ثمانينيات القـرن العشرين لا بدَّ أنها توسَّعت كي تشمل مناطق من مثل (الخليج الفارسي) وإفريقيا،

وبالأخص بلدان وسط وشمال إفريقيا». سؤال يقشعر له البدن.

أ. ش.: هوه. أرى أنكِ أتيتِ مستعدة جيداً. الحقيقة هي إنّ إسرائيل بلدٌ استثنائي جداً. ولأسباب استثنائية أسباب يُمكن جمعها في كلمة «إدعاءات». كان يتعين عليها أن تواجه المشاكل الكونية للأمن الكوني. هذه المشاكل توجد في ثلاث دوائر. الدائرة الأولى هي الإرهاب الفلسطيني. الدائرة الثانية هي المواجهة مع البلدان العربية التي تحرّك الآن ثلاثة عشر ألف دبابة في اتجاهنا. الدائرة الثالثة هي التوسُّع السوفييتي، الذي اتسع حجمه في السنوات الأخيرة، حيث امتد إلى (الشرق الأوسط) وإفريقيا. المسألة هي كيف ندافع عن حقنا في الوجود في هذه الدوائر الثلاث من دون أن نكون بروسيا (الشرق الأوسط)، كما قلتِ.

أ. ف.: لكن مَن الذي يهددكم في إفريقيا، في تركيا، في إيران، في باكستان؟ وماذا تحاولون فعلاً أن تنجزوه؟ لا أفهم. لا أريد أن يكون اجتياح لبنان بداية عملية عسكرية واسعة النطاق لن تتوقف في لبنان. لا أُريد أن يكون ترحيل الـ (PLO) من بيروت جزءاً من خطة معقدة أكثر، دعنا نقُل خطة نابليونية.

أ. ش.: الجواب هو لا. لا، بالتأكيد. إنكِ تتكلّمين كما لو أننا كنا نُريد أن نحتل أراضٍ لنا فيها مصالح إستراتيجية. إنكِ تتكلّمين مثل الأتراك حين يتهموننا بضمّ تركيا إلى دائرة مصالحنا الإستراتيجية فقط لأننا نُريد أن نجتاحهم. الموقف مختلف تماماً؛ باستطاعتي أن أشرحه لكِ بسؤال. لو وصل الروس إلى سواحل (الخليج

الفارسي)، هل يقع ذلك ضمن مصالح إسرائيل الإستراتيجية؟ لو فرض الروس سيطرتهم على موارد النفط في (الخليج الفارسي)، هل يقع هذا ضمن منطقة مصالحنا الإستراتيجية، أو لا؟ لو أصبحت تركيا بلداً يتحكم به (الاتحاد السوڤييتي)، هل سيكون لهذا تأثير علينا أو لا؟ أليس من حقنا أن نقلق؟ القلق يقيناً ليس نفس الشيء مثل الرغبة في إخضاع تركيا، إيران، باكستان، (الخليج الفارسي)، وسط وشمال إفريقيا.

أ. ف.: جنرال شارون، مَن هو عدوكم الحقيقي؟ عرفات أم (الاتحاد السوڤييتي)؟

أ. ش.: آنسة فالاتشي، ضعي في بالكِ أنه من دون مساعدة (الاتحاد السوڤييتي)، البلدان العربية ما كانت لتشن الحرب على إسرائيل في العام 1948. أتوا إلينا لأنهم يملكون (الاتحاد السوڤييتي) خلفهم، فيما يتصل بالناحيتين السياسية والعسكرية. بقدر تعلّق الأمر بالـ (PLO)، (الاتحاد السوڤييتي) يدعمهم لأن (الاتحاد السوڤييتي) يفهم أنه، في العصر الذري، الإرهاب هو السبيل الوحيد لشن الحرب من دون المخاطرة بالنزاع النووي. كي يطور توسُّعه، (الاتحاد السوڤييتي) يحتاج إلى الـ (PLO) وعرفات. وإذا ما أجبتِ أنّ عرفات ليس شيوعيًّا، سأجيبكِ، ماذا يهمّ السوڤييت؟ إنهم يهتمون فقط أن يكون هو أداةً في لُعبتهم، أداة تحت سيطرتهم. هل أنّ سوريا شيوعية؟

لا، ومع ذلك (الاتحاد السوفييتي) أعطى لسوريا ألف ومائتي دبابة، مئات المدافع، وكثيراً من الطائرات الحديثة. هل أن ليبيا شيوعية؟ لا، ومع ذلك أعطى (الاتحاد السوفييتي) إلى ليبيا ألف وتسعمائة دبابة، مدفعية، طائرات. الجميع يتحدثون عن الأمريكيين، عن الأسلحة الأمريكية. أؤكد لكِ أنّ الأسلحة التي يوزعها (الاتحاد السوفييتي) في هذا الجزء من العالم تبزُّ كثيراً جداً الأسلحة التي تشتريها إسرائيل من الأمريكيين.

أ. ف.: نعم، أصدّق هذا. دعنا نعود إلى لبنان.

أ. ش.: لا نريد حتى بوصة مربعة واحدة من لبنان!

أ. ف.: حتى في الجنوب، في منطقة (الليطاني)؟ أتيتُ على ذكر (الليطاني) لأنه في العام 1955، كما تعرف جيداً، بن غوريون كانت لديه خطة، هذه الخطة طوّرها تالياً موشي ديان، وفقاً لهذه الخطة تجتاح إسرائيل لبنان، تشتري هي نفسها لبنانيًّا مارونيًّا كي تنتخبه رئيساً للجمهورية، تُنصِّب نظاماً مسيحيًّا، وتعقد تحالفاً مع ذلك النظام، ومن ثم تنسحب بعد أن تُلحِق المنطقة الواقعة ضمن (نهر الليطاني).

أ. ش.: أنظري، هنالك فرعان من الصهيونية: الصهيونية السياسية العائدة لوايزمان والصهيونية العملية العائدة لبن غوريون، غولدا مائير، موشي دايان الجيل القديم، بكلمات أخرى. في

الحقيقة، لو سألتِ أمي البالغة من العمر اثنين وثمانين عاماً، التي تُقيم وحدها في حقل الأفوكاته [1] العائد لها، سوف تكتشفين أنها تؤمن بالعمل قبل أيّ شيء آخر. أنا، على أية حال، أنتمي للفرع السياسي، الذي يؤمن بالمعاهدات، الاتفاقات، والأحكام القانونية. وبما إنّ هذا الفرع هو فرع الحكومة الحالية، بوسعي أن أؤكد لكِ أننا لا نيةَ لنا في الاحتفاظ ببوصة مربعة واحدة من لبنان.

أ. ف.: لكنكم لا تحتاجون لأن تحتفظوا بأيّ شيء. إن كلّ ما تحتاجون إليه هو أن «تنتخبوا» رئيس جمهورية شاباً على سبيل المثال، منتمياً لـ (حزب الكتائب اللبنانية) في سن الرابعة والثلاثين يُسمى بشير الجميّل وأن تُبقوا جيشكم هنالك لـ «أسباب أمنية». كلّ ما تحتاجونه هو أن تؤسسوا مستعمرة واقعية، بالضبط على غرار المستعمرة التي يمتلكها السوڤييت في أفغانستان.

أ. ش.: أنتِ امرأة لطيفة جداً، وأُريد أن أكون مهذباً. لا أُريد أن أصيح، لا أُريد أن أصرخ، إلا من أجل حب الرب! لم يسبق لي أن سمعتُ افتراءً كهذا، شتائم كثيرة جداً! إنكِ تشوّهين سمعتي؛ إنكِ تكيلين لي الشتائم!

أ. ف.: لماذا؟ الجميع يعرفون أنّ انتخاب بشير الجميّل هو البطاقة التي تلعبونها. الجميع يعرفون أنكم ستبقون في لبنان في الأقل طوال

(1) شجرة الأفوكاته avocado: نبات أميركي استوائي مثمر من فصيلة الغاريّات ذو ثمر شبيه بالإجاص – م.

فصل الشتـاء. لقد أعطيتَ جنودك أحذية ثقيلة شـتوية. جنرال شارون، يقيناً سيستمر مكوثكم هناك خمسة عشر عاماً كما فعلتم في سيناء، أم أنكم ستنهونه؟

أ. ش.: لا، أعتقد فعلاً أنّ هذا سيكون مكوثاً أقصر بكثير.

أ. ف.: على الرغم من ضرورة حماية الحكومة المتحالفة الجديدة؟

أ. ش.: سأجيـب عن هذا بأسلوب موجز جداً؛ بكلمات أخرى، طويل بما يكفي كي أغطي الموضوع وقصير بما يكفي كي يبقى الجواب مُشوّقـاً. نحن لا نريد أن نتدخَّل بالسـياسة الداخلية للبنان، إنما سيكون كلاماً زائفاً منا إذا ما قلنا إننا نقبل حكومةً أخرى ترغب بتشجيـع الإرهابيـين والسـوريين. فيما يتصـل بالوقت الحاضر، الجيـش اللبناني ليس قويًا بما يكفي بالنسـبة لنا كي نتركه وحده. سوريـا لا تـزال تحتـل ما يُقـارب نصـف لبنان؛ لا يـزال هنالك إرهابيون وسوريون في طرابلس وفي (وادي البقاع)؛ والحكومة الجديـدة هي أشـبه بطفل حديث الولادة، وُلـد بعملية قيصرية. هـل يسـتطيع طفل حديـث الـولادة أن يتدبَّر الوضـع الحالي في لبنـان؟ لا، ولـن أقول أكثر من ذلك. إذا ظلّ السـوريون قريبين مـن بـيروت؛ إذا هجرنا طريق بـيروت دمشـق، الطفل حديث الولادة لن يظل على قيد الحياة.

أ. ف.: وإذا، مكثتم في ذلك الطريق، هل ستنتهون في دمشق؟

أ. ش.: إنـه ليس مـن الضروري أن نذهب إلى دمشـق. يجب ألا تكون

هنالك حاجة لأن نذهب إلى دمشق. لا نريد الذهاب إلى دمشق. إنها ليست مهمة بالنسبة لنا؛ ولم تكن مهمة في أيّ وقت مضى. في الحقيقة أفكر بأنه يتعين علينا أن نتجنب النزاع في (وادي البقاع) تماماً. لكن إذا لم يرحل السوريون، نحن أيضاً لن نرحل. وبعدها تُصبح الأمور أصعب، لأن قواتنا في (وادي البقاع) تبعد، مثلما يطير الغراب، خمسة وعشرين كيلومتر عن دمشق. وهذا يعني أنّ دمشق، حتى في الوقت الحاضر، ضمن مدى مدفعيتنا. الأدوار أصبحت معكوسة: في بداية الحرب، المدفعية السورية بمدافعهم ذات الـ 180 درجة بمدى اثنين وأربعين كيلومتر، باستطاعتها أن تقصف ضواحي حيفا. الآن، بمدافع أقل فاعلية، باستطاعتنا أن نقصف دمشق. ونحن لا نحب هذه الفكرة. لماذا يتعين علينا دوماً أن نلجأ إلى الحرب كي نصنع الأشياء؟

أ. ف.: هذا شيء غريب؛ كنتُ أعتقد دوماً أنك تحب الحرب، وأنك تحس بالراحة حين تشن الحرب.

أ. ش.: هذا أكبر سوء فهم يملكه الناس عني. إنهم يصوّرونني باعتباري مُحارباً، باعتباري شخصاً مهووساً يسترخي لمّا يطلق النار. أنا أكره الحرب. ما من أحد رأى حروباً كثيرةً جداً مثلي، ما من أحد رأى رعباً كثيراً مثلي ما من أحد فقد أصدقاءَ وجُرِح مثلما جُرِحتُ يُمكن أن يكره الحرب بقدر ما أكرهها أنا.

وإذا أردتِ أن تعرفي ما هي أسعد سنوات حياتي، سأخبركِ: السنوات الثلاث التي أمضيتُها هنا في مزرعتي، أقود الجرّار العائد لي وأُربي أغنامي.

أ. ف.: وهم يسمعونك تتحدّث هكذا، قلّة من الناس سيصدّقون الأشياء التي يقولونها عنكَ.

أ. ش.: أيّ أشياء؟

أ. ف.: حسناً، يلزمكَ أن تعرف أنكَ يقيناً لا تملك سمعة ملاك، جنرال شارون. لو سمّيتُ الأشياء السيئة التي سمعتُها عنك، ربما تفقد تلك السيطرة الاستثنائية على نفسك التي، حتى الآن، سمحت لك بأن تكون مهذباً وصبوراً جداً معي.

أ. ش.: أخبريني.

أ. ف.: طيب، على سبيل المثال... قاتل، شخص وحشي، بلدوزر، ريفي أخرق، متعطش للسلطة...

أ. ش.: أناس آخرون يسمونني أشياءَ مختلفة تماماً.

أ. ف.: أعرف هذا. الجنود المخلصون لك يسمونك (مَلِك إسرائيل) (الملك أرييل). وإنهم يقولون إنكَ قائد عظيم، رجل شجاع، مخلص. غير أنّ الصورة الأكثر شيوعاً هي الصورة الأولى التي وصفتُها. لماذا يحصل هذا؟ لا بدَّ أن يكون هنالك سبب. هل من

الجائز أن يكون السبب هو واقعة قبية [1]؟

أ. ش.: آنسة فالاتشي، أنتِ بارعة جداً في رسم صورة كريهة لي بحيث أنه، على مدى لحظة، ظننتُ أنكِ تعطين حواراً عن شارون، ولستُ أنا الذي يُعطي الحوار. لكنكِ تعرفين أنّ صورة الإنسان نادراً ما تنسجم مع الصورة التي تُعطيها الصحف. إنكِ تعرفين أنه ما أن يُرمى افتراءٌ هنا وهناك، ما أن تُبتكر كذبةٌ، سوف تتكرر وتُستنسخ مراراً وتكراراً، بحيث أنها تُصبح مقبولة كحقيقة. هل تُريدين أن تتحدثي عن قِبية؟ في 15 تشرين الأول/ أكتوبر، 1953، (عملية سوزانا العسكرية) سُميت تيمُّناً باسم طفلة إسرائيلية قُتلت مع شقيقها وأمها من قبل إرهابيين عرب كانوا مختبئين في قِبية. (عملية سوزانا العسكرية) تكونت من تفجير المنزل الذي يؤوي الإرهابيين، وكنتُ أنا الآمر. دخلتُ كلّ منزل شخصيًّا قبل أن ننصب المادة المتفجرة، كي نضمن أنّ الجميع تم إجلاؤهم. بدأنا في الساعة الحادية عشرة ليلاً وواصلنا العمل حتى الساعة الرابعة فجراً، حين أصابني الانهيار بسبب الإعياء.

---

(1) واقعة قبية أو مذبحة قبية: حدثت في ليلة 14 على 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1953 عندما قام جنود إسرائيليون تحت قيادة أرييل شارون بمهاجمة قرية) قبية(الواقعة في الضفة الغربية التي كانت حينها تحت السيادة الأردنية، 11 كم شمال غرب رام الله، قتل فيها 69 فلسطينيًّا، عددٌ منهم في أثناء اختبائهم في بيوتهم التي تم تفجيرها. تم هدم 45 منزلاً ومدرسةً واحدة ومسجداً. شجب العملية مجلس الأمن الدولي، ووزارة الخارجية الأمريكية وتم تعليق المعونات الأمريكية لإسرائيل بشكل مؤقت. تُسمى بالعبرية (عملية شوشانا أو سوزانا) ونفذتها وحدتان: وحدة مظليين ووحدة 101 للقوات الخاصة – م.

في ما بعد الظهر لمّا استيقظتُ من النوم، كان المذياع الأردني يُعلن رسمياً تسعة وستين قتيلاً: كلّهم نساء وأطفال. لم أصدّق أذنيَّ، لأنه قبل مغادرتي أحصيتُ خسائر العدو، التي تبلغ ما لا يزيد عن دزينة من الجنود الأردنيين. أين وُجدت هذه الجثث التسع والستون، جثث النساء والأطفال؟ في خرائب منزل، أخبرني أحدهم في السرداب. من الواضح أنهم كانوا مختبئين هناك، ولم أرهم. أنا... أنا متأسف جداً. أنا متأسف جداً أنه، بعد غارة أخرى في قرية محلين Mahlin، السنة التالية، لم يكن بوسعي أن أفعلها بعد الآن. والأكثر من ذلك، أوصيتُ أن يتم إنهاء ذلك النوع من العمليات العسكرية. ماذا بعد؟

أ. ف.: حسناً، دعنا نتكلّم عن الحادثة التي جرت في غزة تلك الحادثة التي قتلتَ فيها سبعة وثلاثين جنديًّا مصريًّا في أثناء نومهم.

أ. ش.: أؤكد لكِ أنهم لم يكونوا نائمين. بصرف النظر عن ذلك. غزة، العام 1955، (عملية السهم الأسود). كنتُ أقود هذه الغارة أيضاً، مع (الوحدة العسكرية 101) ذائعة الصيت. أولئك المصريون كانوا غير نائمين على الإطلاق بحيث كنا نتقاتل فعلاً يداً بيداً، في معركة طويلة ودموية. غادرنا بثمانية قتلى واثني عشر جريحاً. كلّ واحد منا يحمل قتيلاً أو جريحاً. لم تكن بي حاجةٌ لأن أقول شيئاً أكثر. ثمة أشخاص يكرهونني، أعرف، وثمة أشخاص يخافونني، أعرف السياسيون بالأخص. إنهم يكرهونني لأني أقول على الدوام ما أفكر

فيه وأفعل ما أشـاء، وأنا لا أدوس برفق، لأني أرفض مرافقة المجموعـات التي تبحث عن الحمايـة المُتبادَلة. في الواقع، لقد غـيّرتُ الأحزاب خمـس مرات. لكـن لو كان أولئـك الذين يكرهونـي ويخافوننـي هـم الأغلبيـة، كيـف تمكنـتُ من أن أفـرض تأثيراً بالغاً في بلادي على مدى سنوات طوال؟ كيف تسـنى لي أن أكـون قادراً على أن أجد حزبـاً جديداً، الليكود، الذي فاز في انتخابين وأنجز نقطة تحوّل تاريخية في بلادنا؟ من أين أتـت هذه القوة كلّها، التي أملكُهـا؟ قلتُ لكِ: إسرائيل دولة ديمقراطية.

أ. ف.: عضـو برلمـان يُدعـى أيير ماور، عـلى ما أعتقد، قـال ذات مرة، «لو أصبح أرييل شـارون رئيساً للوزراء، أتساءل ماذا سيحصل للديمقراطيـة في إسرائيـل». ومـع ذلـك أضـاف نائـب آخـر: «معسكرات الاعتقال ستبدأ بالظهور».

أ. ش.: اسمعـي، نحن نحاول أن يكون نقاشـنا نقاشـاً جادّاً. لا تُحطي من قدره بذكر ذلك الاسم.

أ. ف.: حسـناً، دعنـا نجـرّب اسماً آخر غولـدا مائير، التـي قالت، «إذا اقـترب أرييـل شـارون مـن (وزارة الدفـاع)، سـوف أُحصّـن الأبواب بأوتاد كي أمنعه من الدخول».

أ. ش.: إيـه! علاقتـي مع غولدا علاقة جيدة لّمـا كنتُ عضواً في حزبها، (حـزب العمـل). إلا أنني حـين غادرتُه لأجـد (الليكود) وهو

التـزام عدّته التزاماً صبيانيًّا من الناحية السـياسية لم تصفح عني قـط. بـدأت تكرهني بحميّـة عصية على التصديـق، بكلٍّ قوتها. والله يعـرف أنّ غولدا قوية، شـأنها شـأن كلٍّ واحـد من جيلها. ماذا تودين أن تعرفي بعدُ؟

أ. ف.: أود أن أعـرف مـا إذا هو صحيح أنـكَ تُخطط لأن تُصبح رئيس وزراء، كما يقول الجميع.

أ. ش.: في المقـام الأول، أعتقـد أنّ السـيد بيغـن سـوف يبقـى رئيسـاً للـوزراء عـلى مدى أعوام طويلة، لأني مقتنـع أنه سوف يفوز في الانتخابـات المقبلة. البلـد، كما اقترحتُ أصـلاً، معه. لو جرت الانتخابات اليوم، سوف يفوز من دون أن يُحرّك ساكناً. في حقيقة الأمر ليست لي رغبةٌ قويةٌ لأن أصبح رئيس وزراء؛ ما أفعلُه الآن حصراً هو أكثر من رائع معي؛ هنالك أشـياء كثيرة يتعين عليّ أن أفعلها في (وزارة الدفاع). بادئ ذي بدء، سواء تصدّقيني أم لا، علينـا أن نتعامل سياسيًّا وسلميًّا مع الفلسـطينيين. نحن لم نشن الحـرب ضد الفلسـطينيين؛ لقد خضنا الحرب ضـد إرهابيِّي الـ (PLO)، والحقيقـة القائلة إننا حللنا تلك المشكلة يعني فقط أننا أكملنا جزءاً واحداً من المشكلة.

أ. ف.: حللتموهـا؟ هـل أنتَ متأكد تماماً من أنكـم حللتموها، جنرال شـارون؟ ماذا لـو، بدلاً من حـلّ المشكلة، لم تجعلهـا إلا أسوأ؟ جيـلٌ كامل مـن الكراهية وُلـد وسط البـشر الذين طُـرِدوا، تم انتزاعهـم مـن عائلاتهـم، وتبعثـروا في بلـدان شـتى. ومن الآن

فصاعداً، الإرهاب سوف يحدث في كلّ مكان، الكراهية أمست أكثر عمًى، الوضع أمسى قاتماً أكثر. الناس الذين تعتقد أنكَ هزمتهم غاضبون جداً. هم لم يستسلموا على الإطلاق. قال عرفات تحديداً إن النضال سوف يستمر كسابق عهده.

أ. ش.: لن أتكلّم عن هذه الفرضيات، هذه النظريات الفاجعة. في الحقيقة، لا أعتقد أنّ الفلسطينيين سيكونون قادرين على أن يفعلوا ما فعلوه في بيروت وفي البلدان التي انتقلوا إليها. لم ينجحوا في سوريا أو مصر أو الأردن حتى الآن، و، في حقيقة الأمر، كانوا قد أُبعدوا عن الحدود الإسرائيلية. وزيادةً على ذلك، لا أحدَ من هذه البلدان الثمانية لديه حكومة مستعدة لأن تبعثرهم مثلما بعثرتهم بيروت. وفوق كلّ شيء، إسرائيل سوف تبقى متيقظة. قال عرفات إنهم سوف يستمرون كسابق عهدهم؟ لو كنتُ في محله، لن أحاول القيام بذلك. أعطيتُ أولئك القتلة هدية؛ أعطيتُهم حياتهم. إنهم أحياء لأني اخترتُ أن أُبقيهم أحياءً. غير أنّ حظهم السعيد لا يتألّف، بالطبع، من أيّ نوع من الضمان للمستقبل. الويل لهم إذا ما استأنفوا أنشطتهم اللعينة مجدداً، حتى ولو في البلدان البعيدة عن إسرائيل. الويل لهم.

أ. ف.: وماذا عن الأربعة ملايين فلسطيني الذين لا ينتمون إلى (منظمة التحرير الفلسطينية) الذين يُقيمون مبعثرين عبر العالم أو مُكدّسين سويةً في الخيام أو في أكواخ الكونكريت

في ما يُطلق عليها معسكرات في سوريا، لبنان، (الضفة الغربية)، وغزة؟ ماذا ستفعلون لهم، هؤلاء اليهود الجدد على سطح الأرض، المحكوم عليهم بأن يتيهوا في شتات قاسٍ مثل الشتات الذي عانيتم منه؟ هل من الجائز أنكم عاجزون عن فهم مأساتكم؟ هل من الجائز أنكم الشعب الوحيد الذي يرفض الاعتراف بحقهم في أن يكون لهم مأوى حقهم في أن يكون لهم وطن؟

أ. ش.: لكنهم يملكون وطناً. إنه فلسطين، الذي يُسمى الآن الأردن في الواقع (شرق الأردن).

أ. ف.: أردن الملك حسين.

أ. ش.: بالطبع. أنصتي. كنتُ أفكر في هذا الموضوع على مدى اثني عشر عاماً، وكلّما فكرتُ فيه أكثر، أكون متيقناً أكثر أنّ هذا هو الحل الوحيد. قلتُ الشيء نفسه للسادات. سأشرح ذلك. حتى العام 1922، الأرض التي تشكّل إسرائيل، التي كان البريطانيون يسمونها فلسطين، كانت منقسمة على قسمين: «هذا الجانب من نهر الأردن» وهو ما تسمونه (الضفة الغربية)، الأرض التي تمتد من نهر الأردن إلى البحر المتوسط و(شرق الأردن)، وهي الأرض التي أعطاها تشرشل إلى والد الملك الحسين كي يُقيم (المملكة الهاشمية). في (شرق الأردن)، سبعون بالمائة من السكان هم فلسطينيون؛ أغلبية أعضاء البرلمان هم فلسطينيون؛ تقريباً جميع الوزراء ورؤساء الوزراء هم فلسطينيون. أما البقية،

أقـل مـن ثلاثين بالمائـة، فهم البدو بـدو الملك الحسـين. إنه حلّ مثالي حقاً.

أ. ف.: إذاً كـلُّ الفلسـطينيين يجـب أن يحزمـوا حقائبهـم وينتقلـوا إلى الأردن.

أ. ش.: لكنهم يُقيمون هناك أصلاً!

أ. ف.: لا، أنـا أتكلّم عن اللاجئين المقيمين في لبنان، سوريا، غزة، على أرض (الضفة الغربية)...

أ. ش.: بعضهم بوسعهم أن يسـتمروا في الإقامة في البلدان الموجودين فيها الآن، وبعضهم باستطاعتهم أن يتحرّكوا جنوباً.

أ. ف.: وماذا نفعل بالملك الحسـين؟ هـل نقتله، أم من الجائز أن نرسله إلى مونت كارلو كي يُدير كازينو هناك؟

أ. ش.: الحـالات الشخصيـة لا تُثـير اهتمامي. الحسـين لا صلـةَ له بي. باستطاعتـه أن يبقـى في مكانـه، لِمَ لا؟ اليونانيون اختـاروا ملكاً بريطانيًّا وألمانيًّا؛ لماذا لا يحتفظ الفلسطينيون بمَلِك هاشمي؟

أ. ف.: فهمـت. ومـاذا عـن البدو؟ أيـن يتعين علينـا أن نضعهم؟ هل يتعـين علينـا أن نبيدهـم، نرميهـم في البحـر كالفيتناميين سيئي الطالع في هانوي؟ بتلك الطريقة، سيكون بوسع الجرائد أن تبدأ في التحدّث عن «شعب القوارب» مجدداً. أم ربما يجب أن نفرّقهم مثلـما نفعل مع الفلسـطينيين اليـوم، كي يكـون باستطاعتهم أن يشكّلوا (منظمة تحرير البدو) (BLO) بدلاً من (PLO)؟

أ. ش.: البدو هم جزء من السكان الأردنيين أو، بالأحرى، هم (شرق أردنيين). كالملك الحسين، بوسعهم البقاء في موقعهم الحالي. سأقول ثانيةً: الحالات الشخصية لا تُثير اهتمامي. أنا مهتم فقط بالحقيقة التي مفادها أنّ فلسطين موجودة أصلاً، وأنّ الدولة الفلسطينية موجودة أصلاً، وبالنتيجة، ما من حاجة كي نخلق دولة أخرى. وسأقول لك هذا: لن نسمح قط بدولة فلسطينية ثانية. أبداً. لأن هذا بالضبط هو ما يُحاولون أن يفعلوه. إنهم يحاولون أن يؤسسوا دولة فلسطينية ثانية، فلسطين ثانية، في يهودا والسامرة [1] ما تسمينه (هذا الجانب من نهر الأردن) أو (الضفة الغربية). وسأقول لكِ هذا: لن يحصل هذا قط. لن يضع أحدٌ يداً على يهودا والسامرة، ولا حتى على غزة.

أ. ف.: لكنها أراضٍ مُحتلةٌ، جنرال شارون. المناطق التي عمّدتَها من جديد يهودا والسامرة كان قد فتحها الملك الحسين وهي حاليًّا يسكنها تقريباً نصف مليون فلسطيني، ناهيكَ عن ثلاثين ألف إسرائيلي انتقلوا إلى هناك بوصفهم مُستعمِرين بعد 1967. الجميع

---

(1) يهودا والسامرة Judea and Samaria؛ بالعبرية: מחוז יהודה ושומרון (تلفظ مِحوز يهودا فشومرون): هو مصطلح إسرائيلي رسمي يستخدم للإشارة إلى(الضفة الغربية)، ويهودا والسامرة منطقة إدارية بحسب التقسيم الإسرائيلي، تشمل كامل (الضفة الغربية) باستثناء) القدس الشرقية. (تأتي التسمية من الكتاب العبري حيث تصف الرواية الدينية أنّ مملكة يهودا وقعت في الجنوب ومملكة السامرة في الشمال، وحاليًّا يقصد بـ (يهودا) كلّ المنطقة الممتدة جنوب القدس، بما في ذلك منطقة) جوش عتصيون (في محافظة بيت لحم) وجبل الخليل ((محافظة الخليل) بينما منطقة (السامرة) تشير إلى المنطقة الواقعة شمال القدس وخصوصاً (محافظة نابلس ورام الله) – م.

يقولون إنه يتعين عليكم أن تُعيدوها إليهم حتى الأمريكيين!

أ. ش.: لـن نُعيد ما يعود لنا. ويهودا والسـامرة تعـودان لنا، منذ آلاف وآلاف السنين. إلى الأبد. يهودا والسامرة هي إسرائيل! وكذلك شريـط غـزة. حتـى إذا تجاهلنـا (الإنجيـل)، حتـى إذا تجاهلنـا العاطفـة، علينـا أن نفكر في مسـألة أمننا وبقائنا عـلى قيد الحياة. إنها مسـألة أساسيـة، لأن ثلثيْ سكان إسرائيـل يُقيمون في تلك المنطقة. من دون يهودا ومن دون السـامرة، سوف يتم الاستغناء عنَّـا. لا، سأقول مجدداً: لن نسـمح بإقامة دولة فلسـطينية ثانية. أبداً. لا تخدعوا أنفسكم.

أ. ف.: جنرال شارون، هل تؤمن بالرب؟

أ. ش.: حسـناً، لستُ مُتديِّناً. لم يسبق لي أن كنتُ مُتديِّناً، حتى إذا كنتُ أتَّبـع قواعد معينة من الدين اليهودي، مـن مثل عدم تناول لحم الخنزيـر. أنـا لا آكـل لحم الخنزيـر. إلا أنني أؤمن بالـرب. نعم، أعتقد أن باستطاعتي القول إني أؤمن بالرب.

أ. ف.: حسـناً، إذاً، صـلِّ لجلالتـه حتـى مـن أجـل أولئـك الذيـن لا يؤمنـون. لأني خائفـة حقيقـةً من أنـكَ سوف تسـحبنا جميعاً إلى فوضى فاجعة.

دينــغ شياوپينغ

بكين، آب/ أغسطس 1980

مــاذا جـرى لخرافة مــاو تسي تونـغ في الصين الأسطـورة التي لم تهز حياتهـم وحدهم، بل حياتنا، أيضاً؟ الرجل الـذي أذهل الشبيبة الذين يفتقرون إلى الفطرة السـليمة، الذي أغرى المثقفين من دون فطنة، خلق أسلوباً جماليًّا وفلسـفيًّا، ليس نادراً باســم الانتهازية، الرجل الذي كان أبا التشدد الذي يقتل ويُروِّع في يومنا هذا؟ ماذا بقي مما سُميّ بـ (الثورة الثقافيـة) [1]، صفـة «مـاوي»، (الكتاب الأحمر) الصغير الـذي يلوّح به خريجـو العمارة في الهـواء (بعد أن تغلّبـوا على أساتذتهم)، كـما لو كانوا

(1) الثـورة الثقافيـة The Cultural Revolution: وهي حركـة اجتماعية – سياسية في الصين بين سنتيْ 1966 و1976، بدأها الرئيس الصيني ماو تسي تونغ، وزعيم الحزب الشيوعـي الصينـي، كـان هدفها المعلن هـو الحفاظ عـلى الفكر الشيوعـي «الحقيقي» في البـلاد من خلال تطهـير بقايا العنـاصر الرأسمالية والتقليديـة في المجتمع الصيني، وفرض الفكر الماوي بالقوة بوصفه الفكر السائد في إطار الحزب. هذه الحملة أعادتْ مـاو إلى موقع السـلطة بعـد حملة «الوثبـة الكـبرى للأمام». شـلّتْ «الثـورة الثقافية» الصـين سياسيًّا وكان لها تأثير سلبي كبـير على الاقتصاد والمجتمع الصينيين. زعم ماو أن العنـاصر البرجوازيـة تخللتْ الحكومة والمجتمع ساعيةً إلى إعـادة الرأسمالية، وكي يزيـل منافسـيه في الحزب الشيوعـي الصيني، أصر ماو على إزالة هـؤلاء «التعديليين» من خلال الـصراع الطبقي العنيف. استجاب الشبيبة الصينيون لدعوته تلك فشكّلوا «الحرس الأحمر» في انحاء البلاد. تسببتْ «الثورة الثقافية» في مضايقات واسعة النطاق وإذلال علنـي وحجـز عشوائي لملايين الأشـخاص في أنحـاء البلاد، وتسـببتْ أيضاً بنزوح السكان تحت تهديد القوة وكذلك نقل شبيبة المدن إلى الأرياف – م.

يُخططـون لمنـازل وجسـور لم تكن قد بُنيـت في ذلك الحين؟ مـاذا يعني الانفتـاح على (الغرب) بالنسـبة للصين هذه الصـين الاستثنائية والتي لا يُمكـن التنبـؤ بها التـي قفزت مباشرةً مـن الإقطاعيـة إلى الشيوعية، صادمـةً العـالم ومحطمةً نفسـها تقريباً؟ ما هي التغيـيرات الأخرى التي تتخمر في أعلى مستويات قيادتها، التي كانت على مدى أعوام مُسَوَّرة في قصـور لم ولن تُمَسَّ؟ ما هو نوع الحـيرة الموجودة فيما يتعلّق بالشيوعيين الإيطاليين، الفرنسـيين، الإسبانيين، والبرتغاليـين كيف يُحكَم عليهم؟ ومـا هـي الدوافـع الحقيقيـة وراء النـزاع الصينـي الفيتنامـي مـا هـي المسرحيـات التـي لم يُعترَف بهـا، أيّ تلك المسرحيات التـي لم تظهر إلى النور بعدُ؟ و، الأهـم، ما حجم العداوة المتصلّبة الموجودة بين (الاتحاد السـوڤييتي) والصـين مـاذا يعنـي الصينيـون لمّـا يتحدّثون عـن حتمية الحرب، عن (الحرب العالمية الثالثة)؟

نائب رئيس الجمهورية دينغ شـياوپنغ المحارب القديم لـ (المسـيرة الطويلـة) [1]، أُطيـح بـه ثلاث مـرات وبُعث مـن الموت بوصفـه قائداً لبـلاده، الذكـاء والقوة الجسـدية للانعطافـة العصية عـلى التصديق في

---

(1) المسـيرة الطويلـة Long March: كانـت انسـحاباً عسـكرياً ضخـمًا نفـذه الجيش الأحـمر التابع للحزب الشيوعـي الصيني، والذي سيصبح لاحقًا جيش تحرير الشعب الصينـي، لتضليـل مطاردة جيش حزب الصين الوطني. ولم تكن هناك مسـيرة طويلة واحدة، لكنها كانت سلسـلة من المسـيرات، حيث هرب عديدٌ من الجيوش الشيوعية في الجنوب إلى الشمال والغرب. أشهر المسيرات كانت من مقاطعة جيانغشي، بدأت في تشرين الأول/ أكتوبر 1934. جيش الجبهة الأول التابع لجيش الجمهورية السـوڤييتية الصينية، والذي قاده في ذلك الوقت بعثة من العسـكريين غير الخبراء، كان على شـفير الإبادة الكاملة – م.

أعقـاب مـوت ماو تسي تونغ يُجيب على هـذه الأسئلة في حوار دام أكثر من أربع ساعات على مدى بضعة أيام. ضمن لي جمهوراً رسميًّا جنباً إلى جنب مع وكالة أنباء (الصين الجديد) التي أوردت أحاديثنا في الصحافة وعـلى التليفزيون. استقبلني دينغ شـياوپنغ في يـوم الخميس، 21 آب/ أغسطس، ويوم السبت، 23 آب/ أغسطس، في (قاعة الشعب الكبرى) في بكـين. لم يكـن هنالك سؤال واحـد لا يهم ما إذا كـان سؤالاً سمجاً أو وقحـاً بحيث أنه تحاشـاه، وكـان على الدوام يـردّ بارتياح وصراحة، وحتـى صدق، وكان يبتسـم عـادةً أو حتـى يقهقه، ويثبّت دومـاً عينيه الذكيتـين، القاسيتين مباشرةً عـلى عينيّ ويطوّق أذنيـه بيديه كالكوب: «أنـا أصمّ قليلاً جسـديًّا، في الأقل». رجلٌ تاريخـي؛ فريد، جرّب ذات مـرة خلال سنـوات حياته العمل بصفة صحافي، وإنسـان. في الحقيقة، عـلى الرغم من المـزاج المتوتر الذي تخلل لقاءنـا، كانت هنالك لحظات قلائـل من روح الدعابة الجيدة، التي لم أنتبه إليها في النص الذي أعقب ذلـك. اللحظة الأولى حصلت لمّا قدّمت له أطيب التمنيات لمناسبة عيد ميلاده، الذي يصادف في الثاني والعشرين من آب/ أغسطس.

«عيد ميلادي؟ هل يصادف عيد ميلادي غداً؟!»

«نعم، قرأتُ ذلك في سيرتك الذاتية».

«أوف! إذا قلـتِ هكـذا... لا أعـرف. لا أعـرف متـى يكـون عيد ميـلادي، وحتـى إذا عرفتُ، قلّما يكون هذا شـيئاً ينبغـي أن أُهنَّأ عليه. إنه يعني أني أصبحتُ في السـادسة والسـتين. وسن السـادسة والستين يعني التلف».

«أبي في سن السادسة والستين، سيد دينغ، وإذا قلتُ لأبي إن هذا يعني التلف، أعتقد أنه سوف يضربني».

«يتعين عليه أن يفعل هذا أيضاً! يقيناً يتعين عليكِ ألا تقولي أشياءَ كهذه لأبيكِ».

اللحظة الثانية جرت في لقائنا الأخير. في يوم الخميس كان لنا خصام حول ستالين جدال كَبُر من تعليقاتي عن الصور العملاقة لماركس، إنجلز، لينين، وستالين التي تتفرس فيك في (ساحة تيانان مين). صباح السبت، فيما كنتُ أجتاز الساحة كي أصل إلى (قاعة الشعب الكبرى)، شعرتُ بالصدمة وأنا أرى أنّ الصور قد رُفعت. هل هي مصادفة تافهة، أو، بذلك الجدال الصغير، ذكّرتُه بأنها يجب أن تُرفَع؟

«سيد دينغ! هذا اليوم صورة ستالين رُفعت! وكذلك صور ماركس، إنجلز، ولينين! يقيناً إنكَ لم ترفع صورهم بسببي؛ لا يُمكن أن يكون هذا بسببي، صحيح؟»

«لا، لا لا أبداً. نحن نعود حصراً إلى الأساليب القديمة، كما شرحتُ لكِ في ذلك اليوم. لمّا تكون هنالك ضرورة نُعيدهم من جديد حتى ستالين».

«يا للعار أنا سعيد! أود كثيراً جداً أن أكون قادراً على الادعاء أني أزلتُ ستالين من (ساحة تيانان مين)!»

«أعرف، أعرف. سمعتُكَ. إلا أنني لم أقتنع بما قلتَه».

هو ذا الحوار: تحدّثتُ بالإنكليزية، في حين أنّ اللغة الصينية التي

تحدّث بها دينغ ترجمتها بإخلاص الآنسة شِي يانهو، معنى اسمها (السنونو الذي يضيء على الزهرة)، المترجمة السابقة لـ ماو تسي تونغ.

***

أوريانا فالاتشي: سيد دينغ قلتَ ذات مرة، في مقالة كتبتَها للصحافة (الغربية)، إنّ الصين في قبضة حركة من الممكن تسميتها ثورة ثانية. و، في الحقيقة، المسافر الذي يصل إلى بكين اليوم، الأيام الأخيرة من صيف 1980، يختبر تقريباً إحساساً جسديًّا بالتغيير: ما من بدلات نظامية، ما من شعارات، ما من وفرة من اللون الأحمر. وصور ماو تسي تونغ يُمكن عَدّها على أصابع يد واحدة: حتى الوقت الحاضر، رأيتُ ثلاث صور فقط، بما فيها الصورة عند مدخل (المدينة المحظورة) التي تطلُّ على صور ماركس، إنجلز، لينين، وستالين. سأستعمل هذا التفصيل كي أوجه إليكَ سؤالي الأول: هل ستبقى هذه الصور المرسومة القليلة لماو، أو أنها سوف تُرفَع [1]؟

دينغ شياوبينغ: سوف تبقى بالتأكيد. سوف تبقى دوماً، حتى تلك الصورة المرسومة في (ساحة تيانان مين). في الماضي، كانت هنالك صور مرسومة كثيرة جداً للرئيس ماو؛ كانت هنالك صورة كثيرة جداً، بحيث أنها بدلاً من أن تكون مهيبة بدأت تبدو مبتذلة، حتى غير مُحترَمة، ولذلك رفعناها. لكن... أنظري، الرئيس ماو ارتكب أخطاءً، نعم. مهما يكن من أمر، إنه واحد من المؤسسين الرئيسين لـ (الحزب

---

(1) في النص: سوف تُنزَل will be taken down، باعتبار أنّ الصور المرسومة معلّقة – م.

الشيوعـي الصينـي) و(جمهورية الصين الشعبية). ومـن هنا، فإننا حين ننظـر إلى حَسـناته مـع أخطائه، نعتقـد أنّ أخطـاءه تحتل المرتبـة الثانية، في حـين أنّ حَسـناته تحتل المرتبـة الأولى. وهذا يعنـي أنّ الإسهام الذي قدّمه للثورة الصينية لا يُمكن نسـيانه وأنّ الشعب الصيني سوف يُقدّر ذكـراه دوماً؛ سوف يفكر فيه دومـاً باعتباره واحداً من مؤسسي الحزب والجمهورية.

أ. ف.: نعـم، يُشـار عـادةً اليـوم إلى أنّ، كـلّ اللوم يُلقى عـلى (عصابة الأربعـة)[1]: عـلى جيانـغ كينغ، أرملـة ماو، والثلاثـة الآخرين الذيـن بدؤوا (الثـورة الثقافيـة). لكن هل هذه حقيقـة تاريخية، سيـد دينغ؟ قـال لي أحدهم أنّ صينيين كثيريـن، حين يتحدّثون عن (عصابـة الأربعة)، يرفعون خمسـة أصابع ويُـردّون قائلين: «عم، نعم أربعة!» بانزعاج.

د. ش.: [يبتسم]. حسناً، يبدو أنه ينبغي لي أن أشرح لكِ فوراً وبوضوح الاختـلاف بـين أخطاء الرئيس مـاو والجرائم التـي ارتكبها لين بيـاو[2] و(عصابـة الأربعة). يتعين عـلّي أن أذكّركِ بـأنّ الرئيس

(1) عصابة الأربعة Gang of Four: زمرة سياسية تتألف من أربعة موظفين في «الحزب الشيوعي الصيني». برزوا خلال «الثورة الثقافية» (1966 – 1976)، وفيما بعد وُجهتْ إليهم سلسـلة من جرائم الخيانة والغدر. تزعمتْ الزمرة زوجة الرئيس ماو تسي تونغ الثالثة الراحلة: جيانغ كينغ. فرض هؤلاء سيطرتهم على أربع مناطق: التربية الفكرية، النظريات الرئيسـة في العلوم الاجتماعية، العلاقات بـين المعلمين والطلبة والانضباط في المدرسة، وسياسات الحزب فيما يتعلق بالمثقفين – م.

(2) لـين بيـاو Lin Bio (1907 – 1971): أحد القادة الشيوعيين الصينيين ، مارشـال

ماو كرّس معظم حياته للصين، وأنه أنقذ الحزب والثورة في لحظاتهما الحرجة جداً، أيّ، باختصار، كان إسهامه إسهاماً كبيراً جداً بحيث أنّ الشعب الصيني، من دونه، كان سيواجه زمناً أصعب بكثير وهو يجد طريقه الصحيح في العتمة. كما ينبغي لنا ألا ننسى أنّ الرئيس ماو الذي وحّد تعاليم ماركس ولينين، مع حقائق التاريخ الصيني ذلك أنه هو الذي طبّق تلك المبادئ، بنحو خلّاق، لا على السياسة وحدها بل على الفلسفة، الفن، الأدب، والإستراتيجية العسكرية. نعم، قبل ستينيات القرن العشرين أو، الأفضل، حتى أواخر خمسينيات القرن العشرين بعض آراء الرئيس ماو كانت، معظمها، صحيحة. فضلاً عن ذلك، كثيرٌ من مبادئه جلبت لنا النصر وأتاحت لنا أن نكتسب قوة. بعدها، لسوء الحظ، في الأعوام الأخيرة من حياته، ارتكب كثيراً من الأخطاء القاتلة (الثورة الثقافية)، قبل كلّ شيء. وقد لحق بالحزب، بالبلاد، بالشعب عارٌ كبيرٌ.

ونائب رئيس الحزب الشيوعي الصيني؛ ساهم في الصراع على السلطة في الصين وشغل عدة مناصب عسكرية مهمة، كما اشتهر بانتصاراته على اليابانيين وهزيمته للقوميين في الحرب الأهلية الصينية ودعمه لكوريا الشمالية في الحرب الكورية ضد قوات) الأمم المتحدة) وڤيتنام الشمالية في حرب ڤيتنام. في 8 أيلول/ سبتمبر 1971 شرع لين في عمل عسكري للاستيلاء على الحكم واغتيال ماو، إلا أن منافساً له كشف خطته مما مكن ماو تسي تونغ من الاحتفاظ بالحكم فحاول لين الهَرَب برفقة أسرته إلى الاتحاد السوڤيتي ولم تعلن الحكومة الصينية إلا أواخر العام 1972 أن لين وأسرته قد لقوا مصرعهم في 13 أيلول/ سبتمبر 1971 عندما تحطمت الطائرة التي تقلهم في اندرخان (undurkhan) بمنغوليا – م.

أ. ف.: هل تسمح لي أن أقرص جوابكَ قليلاً، سيد دينغ؟ حين تقول «آراء الرئيس ماو»، هل تُشير إلى ما يُعرف عادة بـ«فكر ماو تسي تونغ»؟

د. ش.: نعم، إبان (الحرب الثورية)، لمّا كان الحزب لا يزال في يين نان، جمعنا معا كلّ الآراء والمبادئ التي قدّمها ماو تسي تونغ؛ عرّفناها بوصفها «فكر ماو تسي تونغ»؛ وقررنا أنّ هذا الفكر سوف يقود الحزب منذ تلك اللحظة فصاعداً. وهذا ما حصل على وجه الدقة. لكن، بالطبع، «فكر ماو تسي تونغ «لم يخلقه ماو تسي تونغ وحده. ما أعنيه هو: مع أنّ أغلب الآراء هي آراؤه، ثوريون مُخضرَمون آخرون ساهموا أيضاً في تكوين وتطوير تلك المفاهيم شو إن لاي، ليو شاووكي[1]، زياو دِن، إذا ما سمّينا الأهم بينهم.

أ. ف.: وأنتَ لا تضم نفسك إلى تلك اللائحة؟

د. ش.: لا أحصي نفسي، لكنني بالطبع قمتُ بدوري. لو لم أقم بدوري، لما كنتُ ثوريًّا مُخضرَماً؛ لما كنتُ مُحارِباً مُخضرَماً. [يضحك]. بعدئذ، أقول لكِ، في الأعوام الأخيرة من حياته،

---

(1) ليو شاووكي Liu Shaoqi (1898 – 1969): سياسي صيني ولد في يوم 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1898 في مقاطعة نانتشنغ في هونان في الصين؛ كان عضواً في) الحزب الشيوعي الصيني (، وأصبح رئيساً لـ (جمهورية الصين الشعبية) من 28 نيسان/ أبريل 1959 إلى 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1968، عندما كان ماو تسي – تونغ رئيساً لـ (الحزب الشيوعي الصيني)، توفي في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1969 وأشيع بأنه تم اغتياله بأمر من دينغ شياو بينغ – م.

الرئيس ماو ناقض نفسه والمبادئ الجيدة التي أسسها. والآراء غير الصحية والاستنتاجات غير الصائبة بدأت تبرز من خلال سلوكه وأفعاله. الرأي غير الصحي للغاية من بين الآراء كلّها هو رأي (اليسار المتطرّف). أوف! ربما هي الحقيقة التي أزاحت كلّ أثر للتعقل من شخصيته، أو ربما فَقَدَ التواصل مع الواقع. كما تعرفين، بسبب كلِّ ما فعله من أجل الثورة، كان يتمتع بهيبة كبيرة في هذا البلد، ونتيجةً لذلك تلقَّى مديحاً بالغاً جداً، إطراءً كبيراً جداً. انتهى به الحال أن تجاهل حتى المركزية الديمقراطية، أي بمعنى، الإدارة الجماعية التي كان يبشِّر بها على الدوام. وهذا هو واحد من أخطائه الفادحة جداً، مع أنّ الثوريين الآخرين، بشكل من الأشكال لهم نصيبهم من المسؤولية بمَن فيهم أنا. واستناداً إلى هذا، الطريقة الأبوية بدأت تتطوّر في داخله؛ حياة الحزب وحياة البلاد فقدتا أيّ شبه بالحالة السَوّية. كما ترين، لا زلنا جميعاً نتكلّم عن أخطائه.

أ. ف.: أجل، وإذا كانت هذه هي الحال، سيد دينغ، ألا ينبغي لنا أن نعترف أنّ الأخطاء بدأت تبرز في وقت عاجل بكثير فوراً تقريباً وأنّ (الوثبة الكبرى للأمام)[1] كانت غلطة؟

(1) الوثبة الكبرى للأمام the Great Leap Forward: وهي حملة اقتصادية واجتماعية في جمهورية الصين الشعبية قادها «الحزب الشيوعي الصيني» بين عاميْ 1958 و1962. قاد الحملة الرئيس ماو تسي - تونغ، وكانت تسعى إلى نقل البلاد بسرعة من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الاشتراكي من خلال التصنيع السريع والعمل التعاوني» أو الجماعي «collectivitism» العاجل. على أيّ حال، على نطاق واسع، تُعدُّ هذه الحملة

د. ش.: بالطبع وحين أختارُ الجزء الثاني من خمسينيات القرن العشرين باعتباره بداية الأخطاء كلّها، عليّ أن أوضح أني أتكلّم عن (الوثبة الكبرى للأمام). لكن، هنا، أيضاً، لا يُمكننا أن ننسب كلَّ المسؤولية إلى الرئيس ماو؛ حتى هنا، نحن المحاربين المُخضرَمين لنا نصيبنا من اللوم؛ عملنا ضد قوانين الواقع؛ وزعمنا أنّ باستطاعتنا أن نُسرِّع التنمية الاقتصادية بأساليب تجاهلت سائر القوانين الاقتصادية. لذا من الصحيح القول إنّ أكثر شخص مسؤول عن هذا هو الرئيس ماو، إلا أنه أيضاً أول مَن فهم غلطتنا كي نقترح أساليب من أجل تصحيحها. وفي 1962، لمّا بدأت العوامل السلبية الأخرى تظهر والاقتراحات لم يكن يجري تنفيذها، اعترف أنه غلطان. لكن حتى ذلك لم يكن كافياً بالنسبة لنا؛ حتى ذلك لم يُعلّمنا درساً كان يتعين علينا أن نتعلّمه. وهكذا حصلت (الثورة الثقافية).

أ. ف.: لكن ما الذي كانت (الثورة الثقافية) تحاول فعلاً أن تحققه؟

د. ش.: كانت تُريد أن تتجنب إعادة إحياء الرأسمالية في الصين. نعم كانت هذه هي النية. نية الرئيس ماو، أعني بالقول، وليس نية الأشخاص الذي سيصبحون لاحقاً (عصابة الأربعة). على أية حال، على الرغم من النيات الطيبة، هدفٌ كهذا وُلد من حُكم خاطئ على الواقع الصيني. باختصار، مرةً أخرى، كان الرئيس ماو مُخطئاً. كما كان مُخطئاً لمّا اختار الهدف الذي يضربه؛ قال إنّ

مسؤولةً عن «المجاعة الكبرى» التي ضربت الصين – م.

الهـدف يجب أن يكـون أَتبـاع الرأسمالية رفاق سفـر الرأسماليين الموجوديـن في داخل الحزب وبهذا الاتهام هاجم عدداً غفيراً من المحاربـين المُخضرَمين رفيعي المستوى: رجال لم يسـهموا فقط إسهامـاً ممتـازاً في الثورة بل لهـم تجربة كبيرة. ومـن بينهم رئيس الجمهورية ليو شاووكي، الذي أُعتقل وطُرِد من الحزب. ونتيجة لذلك، ذابت كلُّ القيادة الثورية. عام أو عامان قبل وفاته، أدرك الرئيـس مـاو غلطته. قـال إنّ (الثـورة الثقافية) كانـت مُخطئة في شيئين: تحطيم القيادة الثورية وإثارة حرب أهلية واسعة النطاق.

أ. ف.: إذاً كانت هي فعلاً حرباً أهلية.

د. ش.: نعم، كانت كذلك! انقسم الشعب على قسمين، كلّ قسم يقتل الآخر. وبما أنه تم إبعاد الثوريين المُخضرَمين، فقط أولئك الذين أعلنوا أنفسهم أنهم «ثوريون» كانوا قادرين على البروز. من مثل لين بياو و(عصابة الأربعة). إيه! أناس كُثر ماتوا في تلك الحرب الأهلية.(1)

أ. ف.: كم يبلغ عددهم؟

د. ش.: إن إعطـاء رقـم دقيق شيء غـير ممكن. لن يكـون ممكناً، لأنهم ماتوا لأسباب شتى ولأن الصين بلد واسع للغاية. لكن أنظري: عددٌ كافٍ ماتوا بحيث أننا قادرون على أن نقول اليوم إنّ موتهم

(1) تناولـت الكاتبـة الصينية الكنديـة مادلين ثين بإسهاب ما جرى مـن أحداث إبان (الثـورة الثقافية) في روايتها الأخاذة المعنونة (لا تقولوا إننا لا نملك شـيئاً)، الصادرة عن دار (المدى)، 2018، بترجمتنا – م.

كـان سبباً كافياً لـ (الثورة الثقافية) كي لا تحدث. على كلّ حال، أخطـاء الرئيـس ماو كانـت أخطـاءً سياسيةً. هذا الأمـر يجعلها ليست أقل جِداً، ولا أنها تبرِّرها، إلا أنّ الأخطاء السياسية شيء؛ أما الجرائم التي حُكم عليها في المحكمة فهي شيء آخر. أنا أُشير إلى الجرائـم التـي حاكمنا عليها (عصابة الأربعـة)، وبعد وفاته، لين بيـاو: مجموعتا (الثـورة الثقافيـة) اللتان نعدّهمـا مناهضتين للثـورة. بطبيعة الحال... حسـناً، بطبيعة الحـال الرئيس ماو هو الذي سمح للين بياو ولـ (عصابة الأربعة) كي يغتنموا الأخطاء السياسية ويغتصبوا السلطة...

أ. ف.: هـذه هـي المسـألة، سيـد دينـغ. لأني أفهم أنك، بوصفـكَ قائد الصـين الجديدة، تحـاول أن تنجو من وضع مـروِّع: إعادة تقييم وربـما محـو خرافة مـاو مـن دون تحطيمها رمي كـلّ شيء خلال محاولـة رمي أقل مـا يُمكن. في الختام، إنك تخبر ما عَرّفه بعضهم بوصفـه «معضلة الاختيار بين تقبّل الماضي والتبرؤ من الماضي». لكـن، في ظل التقصير في إعادة كتابـة التاريخ وإحراق المكتبات كلّهـا، كيف ستختار؟ كانت مسـؤولة (عصابـة الأربعة) زوجة ماو، وماو نفسـه هو الذي اختار لين بيـاو كوريث للإمبراطور. هل كان هذا أيضاً «خطأ»؟

د. ش.: أعتقـد أنه خطأ، وأنا أُصنّفه مع الأخطاء الأخرى التي أشرتُ إليهـا أصلاً. إذاً... طيـب، من الجليّ أنّ تقليد لـين بياو منصباً لم يكـن صحيحـاً. من الجـليّ أنّ اختيـار خليفتنا كما لـو أنه وريث

العرش هو، من وجهة نظر القائد، ممارسة إقطاعية. إلا أننا أيضاً نحتاج إلى نكون واعين بالحقيقة التي مفادها أنّ المركزية الديمقراطية لم تعد موجودة وأننا لم نعد نملك نظاماً لتجنب الأشياء التي تملك هذه الميزة.

أ. ف.: كي نختتم هذا السطر من الاستجواب: لا يسعني أن أتخيّل أنه، في المؤتمر التالي لـ (الحزب الشيوعي الصيني)، سنرى تكراراً لوقائع المؤتمر العشرين لـ (الحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي)، حين شجب خروتشوف ستالين. أم أنا غلطانة؟

د. ش.: لستِ غلطانة. في (المؤتمر) سوف نقيّم بنحو موضوعي الحَسنات والأخطاء التي ميّزت حياة الرئيس ماو؛ سنحتفي بحسناته ونعترف أنها ذات أهمية جوهرية؛ وسوف نعترف بأخطائه، ونُدرك أنها ذات أهمية ثانوية. من خلال الإعلان عن الأخطاء التي ارتكبها الرئيس ماو في الأعوام الأخيرة، سوف نتبنَّى موقفاً واقعيًّا. إلا أننا يقيناً سوف نواصل إتباع (فكر ماو تسي تونغ) أو بالأحرى، كلّ ما كوّن الجزء الصائب من حياته. و، لا، ليست صورته المرسومة وحدها التي تبقى في (ساحة تيانان مين)، بل أيضاً ذكرى الرجل الذي أخذنا إلى النصر، والذي، في الجوهر، أسس البلد. وهذه ليست مأثرة صغيرة. وسأكرر: (الحزب الشيوعي الصيني) والشعب الصيني سوف ينظرون إليه دوماً كرمز ككنز ثمين جداً. دوّني هذا: نحن لن نفعل بماو تسي تونغ ما فعله خروشوف بستالين في (المؤتمر

العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي [CPSU]).

أ. ف.: لكن، فضلاً عن (المؤتمر)، ستكون هنالك محاكمة بعد الوفاة للين بياو ولـ (عصابة الأربعة) و... ستكون هنالك محاكمة، صحيح؟

د. ش.: يقيناً. نحن نستعد لها الآن. يجب أن تحصل في نهاية العام.

أ. ف.: أنا أسأل فقط لأنكَ كنتَ تعلن عن هذه المحاكمات على مدى ثلاثة أعوام في الأقل، لكنها لم تحصل حتى الآن.

د. ش.: سوف تحصل؛ أقول لكِ إنها سوف تحصل. نحن نحتاج كلّ هذا الوقت كي نستعد. الجرائم التي أُتهموا بها كثيرة! وفي الوقت الراهن البلد يعمل في ظل نظام اشتراكي قانوني.

أ. ف.: وأعضاء (عصابة الأربعة) هم أحياء، هل هذا صحيح؟ جيانغ كينغ، على قيد الحياة، هل هذا صحيح؟

د. ش.: إنها تأكل قليلاً جداً وتنام. في السجن، بالطبع. ومن هذا يمكنكِ أن تستنتجي أنها على قيد الحياة.

أ. ف.: جيد. وطالما أنها على قيد الحياة، سوف تتكلّم. طالما أن الثلاثة الآخرين أحياء، سوف يتكلّمون. وسوف يستشهدون باسم ماو؛ سوف يقولون أشياءَ كثيرة عن ماو. لذا فإن المحاكمة يُمكنها أن تُحدِث إدانة أخلاقية لماو بكلمات أخرى، رأي مختلف جداً عن التبرئة المُسبقة التي سوف تحصل في (المؤتمر).

د. ش.: أطمئنكِ أنّ محاكمة (عصابة الأربعة) لن تدنِّس ذكرى الرئيس ماو بأيّ حال من الأحوال. بطبيعة الحال، سوف تُظهِر أنه يقع عليه شيء من المسؤولية على سبيل المثال، أنه استغل (عصابة الأربعة) إنما لا شيءَ أكثر من ذلك. الجرائم التي ستكون (عصابة الأربعة) مُدانة بها هي جرائم واضحة جداً، بحيث لن تكون هنالك حاجةٌ كي يشملوا الرئيس ماو حتى يثبتوها.

أ. ف.: أنا مندهشة جداً، سيد دينغ. بيدٍ تتَّهمه؛ باليد الأخرى، تدافع عنه. إلا أنكَ تدافع عنه حتى لمّا تتهمه؛ وقد عُزِلتَ مرتين بحسب أوامر ماو.

د. ش.: ليس مرتين ثلاث مرات. إلا أنني لن أقول إني عُزِلتُ بموافقة الرئيس ماو (يضحك). نعم، كانت لي ثلاث ميتات وثلاث انبعاثات من الموت. هل سبق لكِ أن سمعتِ باسم وانغ مينغ، الرجل الذي قاد (الحزب الشيوعي الصيني) في 1932، تولّى إدارة قسم الانتهازيين الذين عرّفوا أنفسهم بوصفهم يساريين متطرفين؟ إيه! كان سقوطي الأول قد جرى في العام 1932، بفضل وانغ مينغ. اتهمني بإثارة مشكلة لمجموعة ماو تسي تونغ؛ تخلّص مني؛ واستغرقتُ ثلاثة أعوام كي أتعافى. إلا أنني تعافيتُ فعلاً؛ في 1935، خلال (المسيرة الطويلة)، في (مؤتمر زونيي)، لمّا هُزم الانتهازيون في أقصى اليسار، وانغ مينغ نُحِّي جانباً، وماو تسي تونغ استعاد السيطرة على الحزب، وجعلني السكرتير العام للحزب. سقوطي الثاني، كما تعرفين، جرى في

بدايـة (الثـورة الثقافية)، لّما كنتُ سكرتـير الحزب وأحد مديريْ (اللجنـة المركزية)، ناهيكِ عن ذكر نائـب الرئيس. وحاول ماو أن يحميني هذه المرة أيضاً. لم يكن ناجحاً، على أية حال؛ لين بياو و(عصابة الأربعة) يكرهونني كُرهاً شـديداً. إنهم لا يكرهونني بقـدر مـا كانـوا يكرهـون ليو شـاووكي، على كـلّ حـال، لذا لم يعتقلوني ويتركوني كي أموت في السـجن؛ إلا أنهم يقيناً كرهوني بـما يكفـي كـي يرسلـوني إلى محافظة جيانغـشي للقيـام بالأعمال الشاقة. وفي العام 1973، حين استدعاني الرئيس ماو إلى بكين.

أ. ف.: ماو تسي تونغ أم شو إن لاي؟

د. ش.: الرئيـس مـاو. أعرف، بعضهم يعتقدون أنـه رئيس الجمهورية شو إن لاي. إلا أنه لم يكن شو إن لاي؛ إنه الرئيس ماو. كان شو إن لاي يعاني من مرض شديد في ذلك الحين، و، بما أنّ الحكومة كانت تستند حصراً على كتفيه، الضرر الذي ألحقه مرضُه بالبلاد كان كبيراً. الرئيس ماو استدعاني؛ طلب مني أن أكون بديلاً عن شـو إن لاي في قضاياه يوماً بيوم؛ وأسند إليّ وظيفة نائب رئيس الجمهوريـة. قال إن حالتي يجـب أن يُحكم عليها بمحصلة نقاط ثلاثـين إلى سبعين؛ أي بمعنى ثلاثين بالمائـة لأخطائي، وسبعين بالمائة لحَسَـناتي. وهذا الأمر يكشف لكِ أنـه حتى إنبعاثي الثاني من الموت هو بسـبب الرئيس ماو عـلى الرغم من ذلك، في ذلك الوقت، كان هو نفسه يعاني من مرض شديد. لم يكن باستطاعته حتى أن يقابـل موظفي (المكتب السـياسي للحزب)؛ رأى فقط

أعضـاء (عصابة الأربعـة). بقدر تعلّق الأمر بسـقوطي الثالث، فقد جرى في نيسـان/ أبريل 1976 ثلاثة أشـهر بعد وفاة شو إن لاي وخمسـة أشـهر قبل وفاة ماو تسي تونغ. ومنذ شـهر تشرين الأول/ أكتوبـر التالي أُلقي القبض على (عصابة الأربعة)، وهي ليست مفاجأة أني نهضتُ من جديد.

أ. ف.: أنـا مندهشـة، عـلى أية حـال. ثلاث مـرات! سيـد دينغ، كيف يسـتطيع إنسانٌ أن يسـقط وينهض من جديد ثلاث مرات؟ هل ثمة سرّ؟

د. ش.: [يضحـك، سعيـد]. ليـس ثمـة سرّ. واصلتُ خدمتـه مجدداً، وواصلوا طردي ثانية. هذا هو كلّ شيء.

أ. ف.: ولم تكن خائفاً من أن يقتلوك خلال حملات التطهير تلك؟

د. ش.: نعـم، كنتُ خائفاً من أن يقتلوني. خلال (الثورة الثقافية)، لين بياو و(عصابة الأربعة) كانوا يُريدون دوماً أن يقتلوني. لم يقتلوني لأن الرئيـس ماو منعهم من ذلك. أنظـري، حتى حين أرسلوني إلى الأعمال الشاقة في محافظة جيانغشي، كان الرئيس ماو يحرص عـلى أن يكـون هنالك شـخصٌ يراقـب سلامتي. إيه! يسـألني أصدقـاء أجانب كيف نجوتُ مـن محاكمات كثيرة جداً، من محن كثيرة جداً، وكنتُ أُجيبهم دوماً، «لأني متفائل، لأني لستُ واهن العزيمة، ولأني أعرف أن السـياسة أرجوحة، تتحرك إلى الأعلى والأسفل».

غير أنّ ذلك الجواب غير مكتمل. الحقيقة هي إنه، خلال ذلك كلّه، كنتُ أؤمن دوماً بالرئيس ماو. كنتُ أؤمن؛ لأني متيقن على الدوام أنه يعرفني جيداً.

أ. ف.: قرأتُ دوماً أنه لم يكن بوسعه أن يتحمّلك أنه كان يتذمر منك باستمرار: «إنه أصمّ، إلا أنه يجلس دوماً بعيداً عني في الاجتماعات»؛ «إنه يتعامل معي كأني جَد أعلى ميت؛ لا يسألني أيَّ شيء»؛ «إنه حتى لا يحاول أن يكتشف بماذا أفكر؛ إنه يسلك طريقه الخاص».

د. ش.: هذا صحيح، هذا صحيح، على الرغم من أنه لم يقل هذه الأشياء فقط عني. كان يشكو من كلِّ شيء للجميع، يقول دوماً إنه لا يُنصت إليه، أو يُستشار، أو يُبلَّغ. إلا أنني فعلاً أعطيتُه سبباً للتشكّي، لأني لم أكن أُحب الطريقة التي يتصرّف بها طريقته في العمل كأنه أب عظيم. كان يعمل كأب؛ لم يشأ أن يسمع أفكار أيّ شخص آخر، حتى إذا كانت هذه الآراء جيدة لم ينصت إلى آراء مختلفة عن آرائه. كان يتصرّف بطريقة غير صحية، هذا هو الأمر؛ كانت لديه طريقة إقطاعية. إن لم تفهمي هذا، إذاً لن تفهمي كيف كان قادراً على أن يبدأ بـ (الثورة الثقافية).

أ. ف.: لا أفهم أشياءَ كثيرة، سيد دينغ. والشيء الأول يتضمن شو إن لاي. كيف تفسر الحقيقة القائلة إن الرجل الوحيد الذي لم تشمله (الثورة الثقافية) هو شو إن لاي؟ كيف تفسر الحقيقة التي تذهب إلى القول إنه، على الرغم من كونه رجلاً نبيلاً، لم

يحاول أن يتفحص العار الذي يجري تحت أنفه مباشرة؛ على سبيل المثال، الاعتقال المُخزي لليو شاووكي؟

د. ش.: دعيني أبدأ بأن أقول لك مَن هو شو إن لاي: إنه رجلٌ يعمل كالكلب طوال حياته كلّها من دون تذمر. اسمعي، في بعض الأيام كان يعمل اثنتي عشرة أو حتى ست عشرة ساعة. بوسعي أن أخبركِ بهذا لأني أعرفه حق المعرفة؛ دخلنا (الثورة الثقافية) في الوقت نفسه تقريباً، شو إن لاي وأنا، ولمّا كنا في فرنسا في عشرينيات القرن العشرين فكرتُ فيه بوصفه أخاً أكبر. وزيادةً على ذلك، كان يحترمه كلُّ أولئك الذين يعرفونه أصدقاؤه وأعداؤه، رفاقه وشعبه. وهذا الشيء يفسر، جزئيًّا في الأقل، لماذا كان شو إن لاي قادراً على البقاء في منصبه كرئيس للجمهورية في حين كانت (الثورة الثقافية) قد شملت أيَّ فرد آخر؛ وثمة شيء، لا بدَّ أن يُقال، كانت (أي الثورة) حظاً سعيداً رائعاً لأشخاص كثيرين رائعين حَسَنة كبرى. حسناً إبان (الثورة الثقافية)، كان شو إن لاي يمارس دوماً تأثيراً مُهدِّئاً؛ كان يعمل بوصفه حشيةً[1] وحمى أشخاصاً كثيرين من ضربات عنيفة. إنما على مدى سنوات طوال وجد نفسه في وضع صعب جداً صعب للغاية. وكان من دأبه أن يقول أشياءَ كان يفضّل ألا يقولها، يفعل أشياءَ كان يُفضّل ألا يفعلها، مع أننا جميعاً كنا نغفر له كلّ شيء. كان من دأبه أن يعمل ضد مشيئته، باختصار. حين طُرِد

(1) حشية cushion: هنا بمعنى أنه كان يلطِّف الصدمة – م.

ليو شاووكي من الحزب وأُودع السجن، كان التبليغ بما يُدعى بجرائمه قد قرأه شو إن لاي.

أ. ف.: قرأه شو إن لاي؟

د. ش.: نعم، قرأه شو إن لاي. بطبيعة الحال، كان التبليغ قد كتبه آخرون، إلا أن شو إن لاي قرأه. لم يكن باستطاعته أن يفعل خلاف ذلك؛ كان يتعين عليه أن يقرأه.

أ. ف.: هذا شيء استثنائي مُخيِّب للآمال واستثنائي. لأنه يكشف، مرةً أخرى أيضاً، أنّ الثورات لا تُغيّر البشر، وأنه بعد الثورة، يظل المَثل السائر صحيحاً: «كلّما تتغير الأشياء أكثر، تبقى كما هي أكثر».

د. ش.: هِم. يُمكنني فقط أن أخبركِ أنه من الممكن أن نمنع هذه الأشياء، أو نحاول أن نمنعها، كي نؤسس نظاماً هو نظام جديد فعلاً. قبل فترة قصيرة، ذكرتُ كلمة «إقطاعي». هنالك، بعض الأنظمة من تاريخنا الحديث كانت شبيهة جداً في حقيقة الأمر بالنظام الإقطاعي. في الواقع، إنها تحمل كلَّ سمات النظام الإقطاعي: مُعتقَد الشخصية، الطريقة الأبوية في إدارة الأشياء، الآجال الأبدية للزعماء. للصين تاريخٌ من النظام الإقطاعي يمتد إلى الوراء آلاف الأعوام، و، لهذا السبب، عانت ثورتنا كثيراً جداً بسبب غياب الاشتراكية الديمقراطية، غياب الأنظمة القانونية الاشتراكية. نحن الآن نحاول أن نُغيّر أن نُصلح النظام

فعلاً أن نؤسس أخيراً ديمقراطية اشتراكية حقيقية و... اسمعي، ما من سبيل آخر كي نتفادى الوقائع كتلك الواقعة التي حدثت لليو شاووكي.

أ. ف.: حسناً، لو فكرتَ فيها، قصة جيانغ كينغ هي قصة إقطاعية، أيضاً. أحد الأسباب أنه ما من أحد يجرؤ على تحدّيها هو أنها زوجة ماو، ألا تقول هذا؟

د. ش.: إيه، نعم. أحد الأسباب.

أ. ف.: هل أَعمَته تماماً سيطرت عليه؟

د. ش.: أنظري، حين أقول لكِ إن الرئيس ماو اقترف أخطاءً كثيرة، أنا أُلمِّح أيضاً إلى الخطأ المدعو جيانغ كينغ. كانت امرأة سيئة جداً، جداً. سيئة للغاية بحيث أنّ كلّ شيء سيِّئ قيل عنها ليس سيئاً بما يكفي، وإذا ما سألتِني كي أُعطيها محصلة النقاط، كما نفعل نحن هنا في الصين، أقول لكِ لا أستطيع، لأنه لا يوجد تصنيف لجيانغ كينغ. إنها ألف ألف مرة تحت الصفر. ومع ذلك سمح لها الرئيس ماو أن تتولَّى سلطة، كي تكوِّن زمرة، كي تستغل شبيبة جهلاء بغية تأسيس قاعدة سياسية، كي تستغل اسم ماو تسي تونغ شعاراً لمصالحها الشخصية... حتى لاحقاً، لمّا انفصلا على مدى سنوات نعم، انفصلا. ألم تعلمي أنّ الرئيس ماو وزوجته، جيانغ كينغ، يعيشان منفصلين؟ حسناً، حتى بعد انفصالهما، الرئيس ماو لم يتدخَّل مرةً واحدة لم يمنعها من استغلال اسمه.

أ. ف.: وكـي تعتقلهـا، كـي تعتقـل الثلاثـة الآخرين، كـان يلزمكَ أن تنتظـر موته. لم يكن قد مضى شـهر على دفن ماو. سيد دينغ، مَن الـذي رتّب هذا الاعتقـال؟ أعني بالقول، كم حجم المسـؤولية التـي اضطلعتَ بها من أجل ذلك، حتـى إذا كنتَ مُجرّداً من كلّ تفويض؟

د. ش.: كان القرار قراراً جماعيًّا، وكنا نعرف أن الشعب يسـاندنا. هذا الدعـم كان مرئيًّا بوضوح في 5 نيسـان/ أبريل في (ساحة تيانان مـين)، حـين اتخذ سخـط الشعـب شـكل احتجاج عـلى غياب الاحتفـال بإحيـاء ذكرى وفاة شـو إن لاي. لم يكـن باستطاعتي أن أفعل أشـياء كثـيرة متنوعة في ذلك الحين، آخذين بالحسـبان أنـه لم تكـن لي حريـة، إلا أنني مارسـتُ سطـوتي في العام 1974 والعـام 1975، حـين كنـتُ مـا أزال في الحكومـة. مـن دون أيّ ذريعـة، تصدّيتُ أنا نفسي لـ (الأربعـة)، ورحتُ أفعل كلَّ شيء كـي أكشفهـم عـلى ما هم عليـه. إنما يلزمنـي القول، قبـل وفاته مبـاشرة، الرئيس ماو كانت لديه أشـياء قاسية كي يقولها عنهم؛ إنه هـو الـذي عرّفهم بوصفهـم «عصابـة الأربعة» وهـو الذي اختـار هـوا غيو فينـغ[1]، كي لا تكـون جيانغ كينـغ وشركاؤها

---

(1) هـوا غيو فينغ Hua Guofeng (1921 – 2008): هو خليفة ماو تسي تونغ كزعيم للحـزب الشيوعي الصينـي وجمهورية الصين الشعبية. بعد وفاة شـو إن لاي في العام 1976 خلفـه كرئيس وزراء لجمهورية الصين الشعبية. وبعد أشـهر، توفي ماو، فخلفه هـوا رئيسـاً للحـزب الشيوعي الصينـي، مما أثـار دهشة واستيـاء جيانغ كينـغ وباقي (عصابة الأربعة). أنهى هوا (الثورة الثقافية (وأطاح بـ (عصابة الأربعة(من السلطة

في الجريمـة خلفاءه. في اعتقـادي هذه الأشـياء كلّها ساهمت في قـرار اعتقالها. لم يكن قـراراً سهلاً، كما تعرفـين. كانت (عصابة الأربعـة) قوية جداً بعـد وفاة الرئيس ماو؛ وحتـى إنهم حاولوا الإطاحة بالحكومة التي كان يقودها هوا غيو فينغ.

أ. ف.: في تلك الحالة، أحتاج إلى أن أسألكَ سؤالاً دقيقاً بعض الشيء، سيد دينغ. وأود أن أعتذر؛ أعرف أننا نحن (الغربيين) عاجزون عـن فهم بعض الأشـياء الدقيقـة الصينية. هو ذا السـؤال: عند جنـازة مـاو، في 18 أيلول/ سبتمـبر 1976، لماذا يقـول هوا غي فينـغ، «(الثـورة الثقافيـة) العظيمـة التـي أرادهـا الرئيـس ماو وقادهـا، انتصرت عـلى مؤامرات إعـادة إحيـاء الرأسمالية التي خطط لها ليو شـاووكي، لين بياو، ودينغ شـياو بينغ، وسمحت للسـلطة التي اغتصبوها كي تكـون ترجع بنحو عادل إلى داخل الحزب وبنية الدولة»؟

د. ش.: [يبتسـم] إنـكِ تعرفين، في تلكـم الأيام، النـاس لم يكن لديهم متسـع مـن الوقت كـي يحسبوا الأعـوام القليلة الأخـيرة، كي يفكـروا بدقـة. كـان الـشيء المهـم هو رفـع علم ماو تـسي تونغ ومواجهـة (عصابـة الأربعـة). لاحقـاً فقـط، حـين أدركنـا أنّ الحديث لم ينل تقدير الشعب... حسناً، حتى إني أقول إنه لم يكن حديثاً تـم التفكير فيه جيداً. دعينا نقُل إنـه حديثٌ مُضلِّل، وإنّ

السـياسية، ولكـن بسـبب إصراره على استمـرار الماويـة، أُطيح به بعـد بضع سنوات بواسطة دينغ شياو بينغ، الذي أجبر هوا على التقاعد المبكر – م.

كلـمات الرفيق هوا غيـو فينغ كانت ترمي إلى حفـظ الاستقرار. تذكـري، هـوا غيـو فينغ هـو أحد القـادة الذيـن قـرروا اعتقال (عصابة الأربعة) بعد مضي شـهر لا غـير. ولا حاجة لأن نقول إنه، سابقاً، بعض الأشياء ليست بغيضة حدثت لـ (الأربعة)، في مقارنة مباشرة مع أمنيات الرئيس ماو.

أ. ف.: على سبيل المثال؟

د. ش.: قرار بناء الضريح. في خمسـينيات القرن العشرين قال ماو تسي تونـغ إنه، عنـد وفاتهم، جميـع الموظفين الصينيـين ينبغي إحراق جثثهـم ورمادهـم وحده هـو الـذي يُحفَظ لا قبـور، لا أضرحة لهـم. كانت الفكرة قد انبثقت مـن دروس تعلّموها من (الاتحاد السـوفييتي) بعد وفاة ستالين وقـد ثُبِّتت في وثيقة مكتوبة وقعها الرئيـس مـاو أولاً. ثـم نحن البقيـة وقَّعنا، بمَن فيهـم أنا، و، في الحقيقة، رئيس الجمهورية شـو إن لاي أُحرقت جثته. الوثيقة لا تزال موجودة.

أ. ف.: هل تقول لي إن الضريح سوف يُهدُّ؟

د. ش.: لا، ليست لدينا نية كهذه. إنه لا يزال هناك، ويبدو أنه شيء غير مناسـب أن يُهـدَم. لو فعلنا ذلك، سوف ينزعـج أناس كثيرون، وسيكـون هنالك لغط كثير جداً على هـذه القضية. نعم، أعرف أنّ هنالـك بعض الأشـخاص ممَن يقولـون إنّ الضريح يجب أن

يُهَدَّ. لكـن، بقـدر تعلّق الأمـر بهذا الموضـوع، لا أؤيـد أولئك الأشخاص الذين يُغيّرون الأشياء.

أ. ف.: سيـد دينـغ، إني متأكـدة أنـك تفهم لمـاذا سألتُك ذلك السـؤال الدقيق قبل مدة ليسـت طويلـة؛ لأنّ أُناساً كثيريـن يعتقدون انّ هنالـك نزاعات بينكَ وبين رئيس الجمهورية هوا غيو فينغ. هل توجد فعلاً هذه النزاعات؟

د. ش.: لا. خـط السياسة الحالي تم اتخاذه عبر اتفـاق أحادي الجانب. بطبيعـة الحـال، فيما يخص بعـض المسـائل المحـددة، الاتفاق لا يكـون سهلاً على الـدوام. لكن الآن بعد أن تمت استعادة القيادة الجماعيـة، نحن نناقش سائر المشاكل المهمة في إطار مجموعة، لذا كـلُّ هذا التخمين المتعلّق بـ «النزاع على السـلطة «ليس له معنى عـلى الإطـلاق، في الأقل بقدر تعلّق الأمر بي. السـلطة لا تهمّني البتـة. في وقت قريب جـداً سوف أستقيل بوصفـي نائباً لرئيس الجمهوريـة؛ في العـام 1985، أخطـط لأن أخدم كمسـتشار ولا شيءَ أكثـر. واسمعي، أنا في السـادسة والسـتين، وحين يتجاوز المـرء سن الخمسـين عقلـه لن يعود يعمـل كما كان عليـه سابقاً. وعندئذ المسـنون يميلون لأن يكونـوا متحفظين أكثر، لذا أعتقد أنه من الأفضل أن أُحدد دوري في مهمة الاستشارة.

أ. ف.: يبدو هذا أشبه بلكمة على ماو تسي تونغ. أعني، إنه رأى الأشياء بنحو مختلف تماماً.

د. ش.: [يقهقـه]. مثلـما يفعـل عديدٌ مـن نظرائـي. في الحقيقة، إنهم لا يُريدوننـي أن أستقيـل، أن أختـصر الأشـياء، ولهـذا توصَّلنا إلى تسـوية. قلت، حسـناً، دعونا نرى ما يحـدث عندئذ، حين أكون في سـن الحادية والثمانـين. غير أنني قلتُ هذا وأنـا لا أزال أفكر بأنـه سيكون من الأفضل بالنسـبة لي أن أستقيل قبل وصولي إلى تلـك السـنِّ، حتى لو كـان هذا مجـرد وضع حادثـة سابقة. كان لي مـا يكفي مـن الرجال المسـنين الذين يواصلـون الحُكم حتى وفاتهـم؛ أنا مشمئز من القادة طوال الحياة. لم يُكتب في أيّ مكان أنّ الرجال المسنين يجب أن يحكموا القادة يجب أن يقودوا طوال حياتهـم ومع ذلك هذه النزعة تسـتمر كي تسـيطر عـلى نظامنا. وهـي واحدة من نقـاط ضعفنا، لأنها تُعيـق الشبيبة من الصعود إنهـا تمنع البلاد من تجديد قيادتهـا. والصين تحتاج إلى قادة أصغر سنًّا. أجل، أعتقد أنه آن الأوان كي يضع المسنون أنفسهم خارج الصورة أن ينسحبوا تلقائيًّا.

أ. ف.: بالطبـع، من الصعب أن نتخيّل الصين اليوم من دونك، بالنظر إلى الكيفيـة التي كنـتَ فيها العقل المُدبّر وراء هـذا التغير، سيد دينغ. حتى لو كنتَ فقط نائب رئيس الجمهورية... إذا ما تكلّمنا عـن هذا، هل ستُشبع فضولي في مسـألة واحـدة: كيف أنّ رجلاً من مثلكَ ظلَّف دوماً، الثاني في القيادة وكان دوماً نائب شخص ما؟

د. ش.: [يضحك أكثر من قبل]. إيه، إيه! كما ترين، كوني في المرتبة الثانية

لا يمنعنـي مـن العمل. لكـن، إذا ما رجعنا إلى الجدال السـابق، سأقـول لكِ إني لن أكون الشخص الوحيد الذي يسـتقيل؛ كثيرٌ مـن رفاقـي الذين في عمري سـوف يفعلون ذلـك، أيضاً: نائب رئيس الوزراء تشين يوان، على سبيل المثال، ولِي شـيان يان، على سبيـل المثال، وآخـرون سواهما. وهوا غيو فينـغ لن يعود رئيس الجمهوريـة وعضواً في الحزب في الوقت ذاته. (اللجنة المركزية) قررت أن تزكّي الرفيق زهاو زيانغ.

أ. ف.: إذاً مسألة القيادة الجديدة تتعلّق أيضاً بـهوا غيو فينغ.

د. ش.: نعـم، حتـى وهـو لم يبلـغ السـتين بعـدُ أعتقـد أنـه في التاسعة والخمسـين لأنه حتى المنصب الذي سيحتفظ به، بوصفه رئيسـاً للحـزب، هـو منصب مدى الحيـاة. لا، هوا غيو فينـغ لا يُمكنه أن يبقـى رئيسـاً للحزب طالمـا أنه على قيد الحيـاة؛ هذا شيءٌ غير مسـموح به في ظل النظـام الجديد. هوا غيو فينـغ باستطاعته أن يبقـى على مـدى أَجَلـين [1] آخرين ثلاثـة آجال، كأقـصى تقدير ولا يوجـد بعدها. نحن لا نزال نصر فيها يتعلّق بمسـألة الآجال وتجديد الصلاحيات.

أ. ف.: أشياءُ جديدة تجري فعلاً في الصين! و، إذا ما تحدّثنا عن الأشياء الجديـدة، دعنا نتكلّم عن الانفتاح على (الغرب) الرأسمالي. هذا في أغلب الأحيـان انفتاح اقتصـادي، ضروري لإدراك مشروع

(1) أَجلـين two terms: المقصـود هنـا دورتـين من الـدورات التي يعقدهـا (الحزب الشيوعي الصيني) – م.

(التحديثـات الأربعة). بما أنّ هذا الانفتـاح سوف يُدخل رأس المـال الأجنبي إلى الصين، إنه من المعقول أن نفترض أن هذا من شـأنه أن يسـمح بانتشار الملكية الخاصة. لكن أليست هذه فقط باكورة رأسمالية جديدة، بشكلّ مُصغَّر؟

د. ش.: دعينـا نقـول إن المبادئ التي نتبعها فيما نحن نُعيد بناء البلد هي جوهريًّـا المبادئ ذاتهـا التي أعددناهـا في زمن الرئيـس ماو: أن نركـز على مواطـن قوتنا وأن نفكر في المسـاعدة الدولية بوصفها عامـلاً إضافيًّـا ولا شيءَ غير ذلك. في أيّ معيـار مهما كان نوعه نحـن نفتح أنفسـنا للعالم بـأيّ طريقة مهما كانت نحن نسـتخدم رأس المال الأجنبي أو نتقبّل مسـاعدة الاستثمارات الخاصة هذه المساعدة سوف تشكّل فقط جزءاً صغيراً من الاقتصاد الصيني. بكلـمات أخرى، رأس المـال الأجنبي وحتى الحقيقـة القائلة إن الأجانـب سوف يبنـون المصانع في الصين لن تؤثـر، بأيّ طريقة مـن الطرق، على نظامنا، وهو نظام اشـتراكي مسـتند إلى الملكية العامة لوسائل الإنتاج. على الرغم من هذا، نحن نعي أنّ التأثير الفاسـد لرأس المـال سوف يتطوّر في الصين لا محالة. حسـناً، لا أعتقـد أنّ هذا شيء مـروِّع للغاية. لا أعتقد أنـه من الصائب أن نتوجس خيفة من هذا الأمر.

أ. ف.: هل تقصد القول إنّ الرأسمالية ليست سيئة جداً على أية حال؟

د. ش.: الأمر يعتمد على الطريقة التي تنظر فيها إليها. على كلّ حال، إنها أفضل من الإقطاع. لا يسعنا القول إنّ كلّ الأشياء التي تطوّرت

في البلـدان الرأسمالية ذات طبيعة رأسماليـة. التكنولوجيا، على سبيـل المثال؛ العلـم؛ أساليـب إدارة الاقتصاد، وهـي علمٌ آخر بحدِّ ذاتـه، لا تحمل سمةً كلاسيكيةً. ونحن ننوي أن نتعلّم هذه الأشياء منكم كي تساعدنا في أن نبني مجتمعاً اشتراكيًّا.

أ. ف.: ومـع ذلـك، في نهايـة خمسينيات القـرن العشريـن، يبـدو أنني أتذكـر، حين أدركتـم أنّ (الوثبة الكبرى للأمام) كانت فاشـلة، واعترفتم أن الإنسان يحتاج إلى حافز كي ينتج. حتى أنني أُجادل أنّ الإنسـان يحتاج إلى حافز كي يحيا. ألا يعني هذا مساءلة أفكار الشيوعية ذاتها؟

د. ش.: وفقاً لماركس، الاشـتراكية، وهي المرحلة الأولى من الشيوعية، تغطـي مدة زمنية طويلـة جداً. و، إبان هذه المدة، سوف نسـعى لتحقيـق المبـدأ القائل «من كلِّ فرد بحسـب قدرتـه، ولكلِّ فرد بحسـب عمله». بكلـمات أخرى، سـوف نمزج مصالـح الفرد بمصالـح البلاد. مـا من سبيل آخـر لتحريك الاهتـمام بالانتاج وسـط الجماهير، دعينا نعترف بذلك. وبما أنّ (الغرب) الرأسمالي سـوف يسـاعدنا في التغلّب عـلى التخلّف الذي وجدنا أنفسـنا فيـه الفقر الـذي ألّم بنـا لا يبدو شـيئاً مناسباً أن تنتهـي بنا الحال في الأشـياء الدقيقـة. على كلّ حال، الأشـياء تذهـب، التأثيرات الإيجابية ستكون أكبر من التأثيرات السلبية.

أ. ف.: «لا يهـمّ إذا مـا كـان القطـة سـوداء أم رماديـة، طالمـا أنها تأكل الفـأر»، قلتَ ذلك ذات مرة. هل ستطبـق هذه البراغماتية ذاتها،

وحتى التسامح ذاته، على الحياة السياسية؟ أنا أسألك، وأنا أفكر في جوابٍ أعطيتَه خلال زيارتكَ أمريكا: «في الصين يتعين علينا أن نقضي على الدكتاتورية ونوسِّع الديمقراطية». أيّ ديمقراطية هذه التي أشرتَ إليها؟ النوع المستند إلى الانتخابات الحرّة ونظام تعدد الأحزاب؟

د. ش.: لم أقل شيئاً من هذا القبيل! هذا سوء فهم. إلا أنني باستطاعتي أن أقول لكِ، بعد أن قضينا على (عصابة الأربعة)، نحن نؤكد بقوة على ضرورة دعم الديمقراطية الاشتراكية. من دون أن نفقد، كما تفهمين، دكتاتورية البروليتاريا. الديمقراطية ودكتاتورية البروليتاريا هما جزءان من التناقض نفسه، والديمقراطية البروليتارية هي أرقى بكثير من مثيلتها الرأسمالية. نحن نشدد على (المبادئ الأربعة) التي ينبغي لنا أن نلتزم بها؛ مبدأ الاشتراكية، مبدأ دكتاتورية البروليتاريا، مبدأ الماركسية واللينينية المُفَصّلة في (فكر ماو تسي تونغ)، ومبدأ القادة الذين يساندهم (الحزب الشيوعي الصيني). إذاً، كما ترين، إنّ مبدأ دكتاتورية البروليتاريا قد ظل كما هو من دون تغيير ولا غبارَ عليه.

مكتبة .. سر من قرأ

أ. ف.: ألهذا السبب، في (ساحة تيانان مين) في الجهة المقابلة تماماً لصورة ماو التي تحرس مدخل (المدينة المحظورة)، لا تزال صور ماركس، إنجلز، لينين مُعلّقة هناك؟

د. ش.: حسناً، قبل (الثورة الثقافية) تلك الصور المرسومة كانت

تُعـرَض فقط في أثنـاء المناسبات المهمة. كان هذا هو العُرف. إنما خـلال (الثـورة الثقافية) تقـرر أن تكون معروضة عـلى الدوام، ولهذا السـبب لا تـزال هناك. على الرغم من هـذا، ننوي العودة إلى العُرف القديم.

أ. ف.: المناسبـات المهمـة أم غـير المهمة، هـل كنتم تحتاجـون فعلاً إلى الاحتفاظ بصورة ستالين؟

د. ش.: نحـن نعتقد أنّ إسهام ستالين في الثورة أهم بكثير من الأخطاء التي اقترفهـا. إذا ما استخدمنا الطريقـة الصينية، محصلة النقاط بالنسـبة لسـتالين ستكـون ثلاثـين بالمائـة مقابل سبعـين بالمائة: ثلاثين للأخطاء وسبعين للحَسَـنات. وزيادةً على ذلك، الرئيس مـاو يتفق معي في مسـألة محصلـة نقاط ستالـين، و، بعد (المؤتمر العشريـن للحـزب الشيوعي في الاتحاد السـوفييتي [CPSU])، أعضـاء (الحـزب الشيوعي الصينـي) عبّروا عـن حُكم واضح جداً بشأن ستالين. قلنا إننا سوف نسـتمر دوماً في أن نعدَّ كتاباته أعـمالاً كلاسيكيـة لــ (الحركة الشيوعيـة العالمية). كـما تعرفين، ستالين اقترف أخطاءً حتى فيما يتعلّق بالثورة الصينية؛ على سبيل المثـال، بعد الحرب الكونية الثانية لم يكن يُريدنا أن نقطع صلاتنا مع (الحزب القومي الصيني)(1) أو أن نبدأ حرب التحرير. إلا أنه

(1) الحـزب القومـي الصينـي أو الكومينتانـغ Kuomintang: هـو الحـزب الحاكم في تايـوان. تأسس في 15 آب/ أغسـطس 1919. الحزب القومـي الصيني يدعو للوحدة الصينيـة، معـادٍ للشيوعيـة، ومحافظ. كان الحزب الحاكم المسيطر في الأرض الرئيسـة لجمهوريـة الصـين للمدة بـين عامـي 1928 و1949، وخلال هذه المـدة قاتل (الحزب

حتى هذا الأمر لم يُعتّم حُكمنا عليه.

أ. ف.: وماذا عن خروشوف؟

د. ش.: خروشوف؟ يا تُرى، ما هو الشي الجيد الذي فعله خروشوف؟

أ. ف.: أدان ستالين.

د. ش.: وترين ذلك باعتباره شيئاً جيداً؟

أ. ف.: ليس جيداً رائعاً. بالله عليك، قتل ستالين بشراً أكثر من أولئك الذين قتلتهم (الثورة الثقافية).

د. ش.: لستُ متيقناً البتة من ذلك. البتة. و، على أية حال، لا يُمكن مقارنة الشيئين.

أ. ف.: الخلاصة، على كلّ حال، إنكَ تفضّل ستالين على خروشوف.

د. ش.: قلتُ لكِ تحديداً إن الشعب الصيني لن يفعل للرئيس ماو ما فعله خروشوف لستالين!

أ. ف.: ماذا لو قلتُ لك إنه في (الغرب) يدعونكَ خروشوف الصيني؟

د. ش.: [يقهقه]. اسمعي، بوسعهم أن يدعوني أيَّ شيء يحلو لهم في (الغرب)، إلا أنني أعرف خروشوف حق المعرفة؛ تعاملتُ معه شخصيًّا على مدى عشرة أعوام، وباستطاعتي أن أؤكد لكِ أنّ

الشيوعي الصيني) من أجل السيطرة على الصين في (الحرب الصينية الأهلية). هُزم الكومينتانغ في 1949 وتراجع إلى تايوان وُوضع تحت قانون الأحكام العرفية – م.

مقارنتي بخروشـوف هي بمنزلة إهانة. خروشـوف لم يجلب إلا الألم للشعب الصيني. ستالين، من الناحية الأخرى، عمل بعض الأشـياء الجيدة لنا. بعد تأسيس (الجمهوريـة الشعبية)، ساعدنا في بناء مجمع صناعي لا يزال هو أساس الاقتصاد الصيني. إنه لم يسـاعدنا مجاناً حسـناً، يتعين علينا أن ندفع له إلا أنه ساعدنا. و، حين أتى خروشوف إلى سدّة الحُكم، تغيّر كلّ شيء. خروشوف ألغـى كـلّ الاتفاقـات بين الصـين و(الاتحـاد السـوفييتي)، كلّ العقود التي وُقعت في ظل حُكم ستالين مئات العقود. أوه، هذا الحوار مسـتحيل. خلفيَّتانا مختلفتان جـداً. دعيني أقُل هذا: إنكِ تحتفظـين بوجهة نظـركِ، وأنا أحتفظ بوجهة نظـري، ولن نقول أيّ شيء آخر عن خروشوف.

أ. ف.: رائـع، في تلك الحالة سوف نتحدّث عن (الشيوعية الأوروبية) وبيرلينغويـر[1]. سيد دينـغ، أعرف أنه في الماضي كنـتَ متشكّكاً جـداً فيـما يتصـل بــ (الشيوعيـة الأوروبيـة) و(الشيوعيـين الإيطاليـين). قلـتَ في يـوم ما، على سبيـل المثـال، إنّ أيَّ إسهام من (الشيوعيـين الإيطاليين) في الحكومة سوف يكون في صالح

(1) إنريكـو بيرلينغويـر Enrico Berlinguer (1922 – 1984): الزعيـم التاريخـي للحـزب الشيوعي الإيطالي، وكان الحزب الشيوعي الأكبر في أوروبا الغربية، استطاع أن يرسم سياسة وطنية غير تابعة لموسكو. رفع شعار الـ «يورو كوميونيزم»، الشيوعية الأوروبيـة، القائمـة عـلى الديمقراطيـة والاستقـلال عـن الكتلـة الشيوعيـة. تفاهم بيرلنغويـر مع ألدو مورو الزعيم الديمقراطي المسـيحي عـلى ترتيبات سياسية عرفت بالاتفـاق الكبير، وقد أرجع البعض اغتيال مورو على يد الألوية الإيطالية الحمراء إلى ذاك التفاهم – م.

(الاتحاد السوفيتي). هل ما تزال تؤمن بأنّ تلك هي الحالة، بعد زيارة بيرلنغوير إلى الصين؟

د. ش.: غيّرنا آراءنا فيما يتصل بـ (الشيوعيين الإيطاليين)، فعلنا هذا تماشياً مع (فكر ماو تسي تونغ) الذي يقول: «في كلِّ بلد من البلدان الحزب الشيوعي يجب أن يدمج مبادئ الماركسية واللينينية مع الظروف العملية التي يجدون فيها أنفسهم؛ ما من سبيل آخر من أجل أن يجد (الحزب) الطريق الصحيح».
بكلمات أخرى، نحن لا نعتقد أنّ أيّ حزب شيوعي يجب أن يستنسخ التجربة الثورية لحزب شيوعي آخر، حتى إذا كان ذلك الحزب الآخر الذي نحن بصدده قد خبر (الثورة الصينية) أو (ثورة أكتوبر). كي أُجيب عن سؤالكِ بنحو أدق، سأقول لكِ هذا: الرفيق بيرلينغوير سألني الشيء نفسه في أثناء زيارته. وقلتُ له إنّ الأمر متروك لـ (الحزب الشيوعي الإيطالي) كي يتوصلوا إلى الحُكم استناداً إلى تجاربهم الخاصة.

أ. ف.: حاورتُ بيرلينغوير قبل ما يزيد على الشهر، وقلتُ له إنه، في رأيي، الشيوعيون الإيطاليون وجميع الشيوعيين الأوروبيين لم يكونوا قادرين في أغلب الأحيان على قطع الحبل السرّي مع موسكو. هل تؤيدني على هذا الرأيّ؟

د. ش.: أنظري، الأسباب التي دعتنا إلى أن نستأنف علاقاتنا مع (الحزب الشيوعي الإيطالي [ICP]) هو أنّ الـ [ICP] له فكره المستقل، الخاص. إلا أنّ هذا لا يعني أننا نؤيد جميع الآراء

التـي يحملها الشيوعيو ن الإيطاليـو ن. حتى أننا لم نطالبهم بأن يوافقـوا على أفكارنـا، أرجوكِ إفهمي، لكن... حسـناً، دعينا نقُـل إنه في المـاضي (الحزب الشيوعـي الإيطـالي) كانت لديه وجهة نظر مُضلَّلة عن (الحزب الشيوعي الصيني)، والعكس بالعكس.

أ. ف.: يبـدو أنّ هـذا ليـس صفقـة كبـيرة جـداً. وأعتقـد أنّ بوسعـي الاستنتاج أنّ الاختلاف المتبادَل في الرأي فيما يتصل بعلاقات الـ [ICP] مع (الاتحاد السـوفييتي) ظلَّ مـن دون حلٍّ. في الحقيقة، ليـس هنالك خطـاب مُشترَك، كما يحسـب كثيرون أنـه لا بدَّ أن يكـون موجوداً. في رأيكَ، ما الذي يمنـع الشيوعيين الإيطاليين من أن يفصلوا أنفسهم عن (الاتحاد السوفييتي)؟

د. ش.: هذا الأمر يُعزى جزئيًّا إلى أسباب تاريخية وجزئيًّا... انظري، إنه ليس من المناسب بالنسبة لي أن أخاطر بإعطاء تخمينات أو أحكام فيـما يتعلّق بشعب آخر؛ باستطاعتي فقط أن أعلّق على نقاشـات محـددة. عـلى سبيل المثال، إذا ما سألتِني عن أفغانسـتان، سأقول لـكِ إنـه شيء مـؤاسٍ للغايـة أن يُديـن الشيوعيـو ن الإيطاليو ن الغـزو السـو فييتي لأفغانسـتان، وهـو شيء مُسـتهجَن تمامـاً أنّ (الشيوعيين الفرنسـيين) حاولوا أن يُـبرِّروه. لكن، كما تعلمين، الأحـزاب الشيوعيـة الأوروبيـة يختلـف كثيراً كلّ واحـد منها عـن الآخر. في الواقع، كنا قد استأنفنـا علاقاتنا مع (الشيوعيين الإيطاليين)، والشيء ذاته ليس صحيحاً على الإطلاق فيما يتعلّق

بـ (الشيوعيين الفرنسـيين). وأرى عدم اهتـمام، من جانبهم، في إعادة بناء علاقة ما.

أ. ف.: ماذا عن سنتياغو كاريو[1]؟ أو ألـڤارو كونيال[2]؟

د. ش.: (الشيوعيـون الإسبانيـون) اقترحوا استئنـاف العلاقات، إنما، حتى هذه اللحظة، لم نذهب أبعد من الاتصالات الأولية. نحن ننظـر كي نرى مـا إذا تتطوّر هذه الاتصـالات إلى شيء ما أو لا. ليس لدينا علاقة مباشرة بـ (الشيوعيين البرتغاليين) قطعاً.

أ. ف.: حسـناً، من المؤكد أنكَ لا تسـتطيع القـول إن الحركة الشيوعية

---

(1) سانتياغو كاريو Santiago Carrilo (1915 – 2012): شـخصية سياسية شيوعية إسبانيـة. تقلّد مسـؤولية الكتابة العامة للحزب الشيوعـي الإسباني (PCE) بين سنتي 1960 و1982. حارب كاريو خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وكان من أبرز معارضي النظـام الفرانكـوي قبل أن يقـوم بـأدوار مهمة خلال مرحلـة الانتقـال الديمقراطي الإسباني – م.

(2) ألـڤارو كونيـال Alvaro Cunhal (1913 – 2005): ثـوري وشـيوعي برتغـالي، قـاد الشيوعيين في فـترات سياسية حرجة وحاسمة في تاريـخ البرتغال المعاصر خلال مـدّة رئاسته للحزب التي امتدت بين عامي 1961 و1992. وحتى بعد اعتلال صحته وتنحيه عن الزعامة ناضل كونيال للحفاظ على هوية الحزب وسط دعوات بإصلاحات جوهريـة لمواجهة المتغيرات الدولية عقب انهيار الاتحاد السـوڤييتي. وساهم بذلك في جعـل الحزب الشيوعي البرتغالي من أكثر الأحزاب تشددا وتمسـكا بمبادئه في أوروبا الغربية. كونيال الذي كان يصف نفسـه بأنه ابن بالتبنـي للطبقة العاملة (البروليتاريا) انضـم للحـزب الشيوعي عـام 1931 في أثناء دراسته للقانون بالجامعة. كان من أشـد المعارضـين للنظـام الدكتاتوري لــ (الجمهورية البرتغاليـة الثانية)، المسـماة (Estado Novo)، التـي أُقيمـت في العام 1933. كان مؤيداً للسـوڤييت أكثـر من كلّ الأحزاب الشيوعية الأوروبية، كما أيد السياسية الخارجية السوڤييتية ومنها غزو أفغانستان – م.

العالمية زاخرة بالنزعة العالمية.

د. ش.: كما تعرفين، إنه لشيء حسن أنّ ما من حزب شيوعي يحس بأنه أبويٌّ في مركز الحركة وأنه ما من مركز، ما من رئيس. في البداية، (الحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي) ملأ ذلك الدور، لكنه لم يعد الحزب الذي قاده لينين. إنها ليست مصادفة أننا نعدُّ (الاتحاد السوڤييتي) بلداً إمبرياليّاً و... نعم، إمبريالي إشتراكي إمبريالي. وبما أنّ البلد الذي قاده ذلك الحزب أصبح بلداً إمبرياليًّا، إنه لشيءٌ مشكوكٌ فيه أنّ ذلك الحزب من الممكن أن نعدّه حزباً شيوعيًّا.

أ. ف.: نعم، لم أكن أُلمِّح فعلاً لذلك بقدر ما أُلمِّح إلى الحقيقة القائلة إنه اليوم، في العالم، النزاعات المسلّحة الوحيدة هي بين البلدان الشيوعية. لوجه يسوع المسيح! دع العرب في جانب واحد، وفي الجانب الآخر لا يوجد هنالك بلدٌ واحد يكره بلداً آخر بالحميّة غير القابلة للاختزال التي يبدو أن البلدان الشيوعية تشعر بها (أي الكراهية) أحدها تجاه الآخر. كراهية (الاتحاد السوڤييتي) تجاه الصين، والعكس بالعكس؛ الصين تجاه ڤيتنام، والعكس بالعكس؛ ڤيتنام تجاه كمبوديا، والعكس بالعكس... قلتُ الشيء نفسه لبيرلينغوير.

د. ش.: هل تُريدين أن تتحدّثي عن الفيتناميين؟ أنظري من وجهة نظر إستراتيجية كونية، الفيتناميون يسيرون حصراً على خُطى (الاتحاد السوڤييتي). ومثلما أقول دوماً، أصبحوا كوبا (الشرق). أليس

هذا دليلاً كافياً على أنهم احتلوا لاوس وكمبوديا؟ ماذا تحتاجين باستثناء هذا أن تري قبل أن تسألي. أيُّ بلدٍ هذا بحق الجحيم؟ نحن الصينيون عاجزون تماماً عن أن نفهم لماذا جعلوا أنفسهم معارضين لنا. أثناء نضالهم من أجل الاستقلال، قدّمنا لهم عوناً كبيراً. لم نتخلَّ عنهم البتة. ولا تدخَّلنا بقضاياهم الداخلية. هل تعرفين يا ترى نوع العون الذي قدّمناه لهم على مدى الأعوام؟ المساعدة التي أرسلناها لهم تبلغ، إجمالاً، نحو عشرين مليار دولار. ولم نطلب شيئاً مقابل ذلك. سأقول هذا: عشرون مليار دولار مبلغ طائل بالنسبة لبلدٍ فقير كالصين.

أ. ف.: لكنكم بعدها قتلتم أحدكم الآخر في نزاع يعادل حرباً صغيرة.

د. ش.: نعم، صحيح إننا بدأنا هجوماً معاكساً دفاعيًّا ضدهم. لكن، إذا ما حكمنا على النتائج، لا أعتقد أنّ هذا كان مؤثراً جداً. كنا مكبوتين جداً؛ رأينا أنّ بلداناً كثيرة كانت ضد هذا العمل، ونتيجةً لذلك كنا مكبوتين جدًّا. غير أنّ الواقعة برهنت كم نحن مصممون على تأديب النمر. واحتفظنا بحقنا في تأديب النمر من جديد.

أ. ف.: إنها واحدة من صدمات زمننا، سيد دينغ، لأننا كلّنا نبكي على ڤيتنام؛ كلّنا ناضلنا ضد الحرب في ڤيتنام. واليوم بعضنا يتساءل، «هل كنا نرتكب خطأً؛ هل كنا على خطأ؟»

د. ش.: لا! لا، لا، لم نرتكب خطأً؛ لم نكن غلطانين. نحن الصينيون

لسنا نادمين، لأننا وقفنا إلى جانبهم. إنه لمن الصحيح أن نساعدهم، وإننا سنفعل الشيء نفسه في كلّ مرة يقاتل فيها شعبٌ من الشعوب ضد اجتياح أجنبي. لكن اليوم في ڤيتنام الوضع معكوس، نحن نحتاج لمواجهة ذلك الوضع.

أ. ف.: نعم، لكن حتى الصينيون يخطئون غالباً، سيد دينغ. كيف من الجائز أن تقفوا إلى جانب (پول پوت) [1]؟

د. ش.: اسمعي، نحن ننظر في وجه الحقيقة في الوجه مباشرة. مَن الذي حرّر كمبوديا؟ مَن الذي تخلّص من الأمريكيين ومن نظام (لون نول) [2] المدعوم من الأمريكيين؟ هل هي، ربما، كمبوديا الديمقراطية (الحزب الشيوعي الصيني)، الذي يقوده (پول پوت)؟ في ذلك الزمن، الملك سيهانوك [3] لم تكن لديه سلطة؛

---

(1) پول پوت Pol Pot (1925 – 1998): ثوري وسياسي كمبودي، حكم كمبوديا بوصفه رئيس وزراء كمبوديا الديمقراطية بين عامَيْ 1975 و1979 – م.

(2) لون نول Lon Nol (1913 – 1985): سياسي وجنرال كمبودي. قاد انقلاباً عسكريًّا ضد الأمير نوردوم سيهانوك في العام 1970، ألغى النظام الملكي وأسس جمهورية الخمير قصيرة الأمد. عمل لون نول رئيساً للوزراء من بداية تعيينه بتاريخ 14 أب/ أغسطس 1969م إلى 11 آذار/ مارس عام 1971، كما أصبح أول رئيس لجمهورية الخمير من تاريخ 10 آذار/ مارس 1971 حتى سقوط الجمهورية بتاريخ 1 نيسان/ أبريل 1975. بعد أن سيطر (الخمير الحمر) على فنوم بنه هاجر لون نول إلى) الولايات المتحدة الأمريكية) وتوفي فيها – م.

(3) نوردوم سيهانوك Norodom Sihanouk (1922 – 2012): سياسي كمبودي، ملك كمبوديا في الفترتين 1941–1955 و1993 – 2004، رئيس الوزراء لفترات متعددة والحاكم الفعلي للبلد للمدة بين 1953– 1970. بعد أن تخلى عن العرش

كـان شـعبه قد أطـاح بـه. واصلنا دعمه عـلى الرغم مـن ذلك، وآوينـا حكومته المنفية في بكين. إلا أنّ سيهانوك لم يكن يقاتل في كمبوديا؛ (الحزب الشيوعي الكمبودي) هو الذي يقاتل. كسبوا الحرب، من دون مساعدة خارجية. وهل تعرفين لماذا لم يحصلوا على مساعدة؟ لأنه تقريباً كلُّ المساعدات التي كان يبعثها الصين تُصادر في ڤيتنام. الصين ليسـت لها حدود مشتركة مع كمبوديا، لذا، كي نساعدهم، يتعين علينا أن نبعث المساعدات عبر ڤيتنام، وقـد استحـوذوا على كلّ شيء. لم يصل شيءٌ قـط إلى كمبوديا لا شيء.

أ. ف.: لكن (پول پوت)...

د. ش.: نعم، أعرف ما تودين قوله. صحيح أنّ (پول پوت) وحكومته ارتكبـوا أخطاءً فادحة جداً. نحـن لا نجهل هذا. لم نكن نجهل ذلك في وقتها، و، إذا ما نظرنا للوراء، بوسعي أن أعترف أننا ربما كنـا مُخطئين بألا نتكلّم معه عن تلك الأخطـاء. تكلّمنا ما يكفي عـن (پول پوت). الحقيقة هـي إنّ سياستنا كانت على الدوام ألا نُعلّـق على قضايا الأحزاب الأخرى أو البلدان الأخرى. الصين بلـد ضخـم، ونحن لا نُريـده أن يبدو كأننا نفرض أنفسـنا. على كـلِّ حال، اليوم الواقع الـذي يجدر بنا أن نواجهـه قد تغيّر: مَن الـذي يحـارب الفيتناميين؟ سيهانـوك لا يزال مـن دون سلطة؛

لصالـح ابنه الأصغر نـورودوم سيهاموني مُنح لقب «الملـك الأب» لكمبوديا، حافظ بموجبه على الكثير من مسؤولياته السابقة بصفته ملكاً دستورياً – م.

مجموعـات من مثل (سون سـان) [1] ضعيفة جـداً؛ والوحيدون القادرون عـلى أن يتولوا قيادة مقاومة مؤثرة ضد الفيتناميين هم الشيوعيـون الذيـن يتبعـون (پول پوت). والشعـب الكمبودي يتبعهم.

أ. ف.: لا أصدّق هذا، سيد دينغ. كيف من الممكن أنّ يتبع الكمبوديون نفس الأشـخاص الذيـن ذبحوهم، قطّعـوا أوصالهم، دمروهم بالـدم والهَلَع؟ إنكَ تتكلّم عن أخطاء، سيد دينغ. غير أنّ الإبادة الجماعية ليست غلطة، الإبادة الجماعية هي تلك التي فعلها (پول پوت). مليون إنسان أبادهم (پول پوت).

د. ش.: الرقـم الـذي ذكرتِه غير مؤكد عـلى الإطلاق. إنكِ لا تصدّقين أنّ الشعب الكمبودي يتبع (پول پوت)، وأنا لا أصدّق أنّ (پول پوت) قتـل مليون إنسـان. مليون واحد من بين أربعة أو خمسـة ملايـين؟ هذا كلام فارغ مجنون. نعم، قتل أناساً كثيرين، لكن لا تدعينـا نُبالغ. هو أيضاً كانت لديه سياسة سيئة في ترحيل الناس مـن المدن، إنما لا تدعينـا نُبالغ. وأقول لك إنه كان لديه دعم من الشعب، وسلطته تتعاظم يوماً بعد يوم. وأقول لكِ إنّ معارضة (پول پوت) محاولـة الإطاحـة به فقـط تسـاعد الفيتناميين. إيه! هنالك أشـخاص في العالم يعيشون خارج الواقع، أشـخاص لا

---

(1) سون سان Son Sann (1911 – 2000): سياسي كمبودي وزعيم المعارضة المناوئة للشيوعيـة، خـدم بوصفه رئيس الوزراء الثاني والعشريـن لكمبوديا (1967 – 1968) وتالياً رئيس (الجمعية الوطنية) (1993) – م.

يمنحون الفرد الذي ارتكب خطأً الفرصة كي يُحسّن أساليبه.

أ. ف.: إذاً أخشى أن أكون واحدة من أولئك الأشخاص الذين يعيشون خارج الواقع، سيد دينغ. كي يُقنعنا كان يودُّ حقاً أن يُحسّن أساليبه، (پول پوت) يتعين عليه أن يُعيد إلى الحياة سائر الأشخاص الذين ذبحهم. و، من واقع خارجي، سوف أسمح لنفسي لأن أسألك سؤالاً صعباً آخر: أنا أفهم واقعيتكَ، إنما كيف تستطيع أن تكون لك علاقات مع أشخاص معينين؟ لأن (پول پوت) هو في كلِّ الأحوال الشخص الوحيد. حين توفي الجنرال فرانكو، أول الزهور التي وصلت إلى تابوته كان قد أرسلها الصينيون وحملت توقيع شو إن لاي.

د. ش.: أنظري، الزهور التي أرسلناها إلى جنازة فرانكو كانت تعني للشعب الإسباني وكنا نبغي تحسين علاقاتنا مع الحكومة الإسبانية. الآراء التي نملكها عن الأفراد ينبغي ألا تؤثر على أفعالنا، و، بقدر تعلّق الأمر بفرانكو، أؤكد لكِ أنّ رأينا فيه لم يتغيّر. ولا تغيّر رأينا في إمبراطور اليابان، ومع ذلك لدينا علاقات جيدة مع اليابان. الحقيقة هي أننا لا نستطيع أن نُسقِط مشاكل الماضي على حقائق الحاضر.

أ. ف.: پينوشيت ليس هو الماضي؛ إنه الحاضر. طُغاة الأرجنتين هم الحاضر، وليسوا الماضي. وعلى الرغم من ذلك لديكم علاقات معهم، مع پينوشيت.

د. ش.: إن حالـة الأرجنتـين حالـة مختلفة. الأرجنتـين في ظل حكومة عسـكرية، ونحـن نتعامل مع الأرجنتـين كبَلَـد؛ سياساتنا تخدم مصالـح الصين مـع ذلك البلد. بقـدر تعلّق الأمر بـپينوشـيت، أعـرف أنّ كثيراً مـن أصدقائنـا التقدّميين لـن يفهمـوا سلوكنا تجاهـه، لكن، إذا ما تكلّمنا بصراحـة، باستطاعتي أن أخبركِ أنّ وجودنـا في تشيلي كان له بعض الفائدة. وسأشرح ما أعنيه. كان أليـندي صديقاً للصين، وذكراه عزيزة جـداً علينا. كان صديقاً، مع أنه أباح لنفسه أن يتأثر بشدة بـ (الاتحاد السوڤييتي). استناداً إلى هـذه القضيـة، شـو إن لاي أعطـاه قطعـة مخلصـة جـداً من نصيحـة: لا تتبع السـوڤييت في كلّ ما يقولونـه؛ لا تتبنى سياسة يسـارية متطرّفة، وإلا سوف ينتهي بكَ الحال أن تكون معزولاً. و، حسـناً، بعـد أن قُتـل أليندي ووجـدت القـوى الديمقراطية في ذلـك البلـد نفسـها في صعوبـة بالغة بحيـث إننا كلّنـا سمعنا بهـا، فكرنا طويـلاً وبجد في مـا إذا كان من المناسـب أن نحتفظ بالتمثيل الدبلومـاسي في تشيلي أم نقطع صلاتنا كلّها. اخترنا أن نُبقـي التمثيل الدبلومـاسي. كما تعرفين، حين نصـدر حكماً على مواقـف معينـة من المهـم أن نحتفظ بعقل مفتـوح وأن نتفحص المعايير بعيدة المـدى لكلّ موقف. كما إنه لمن الضروري أن نفكر في المصالـح الكونية؛ باختصار، أن نكون حذرين جداً، متعقلين جداً. و، حتى إذا كانت الخيارات التي تُشيرين إليها قد اختارها

الرئيس ماو وشو إن لاي، ولستُ أنا، أؤكد أنها كانت خيارات صائبة. أنصتي بعناية: أنتِ صحافية، كاتبة، وبمستطاعكِ أن تقولي ما تشائين عن القضايا العالمية. بمستطاعكِ أن تختاري بحرِّيَّة. إنما حين يقود المرء بلداً... إنها قصة مختلفة بكلّ معنى الكلمة.

أ. ف.: هذا جواب مُقنع، سيد دينغ. وعند هذه النقطة أود أن أنصرف إلى الموضوع الأخير الذي أتيتُ كي أحاوركَ بشأنه: الحرب العالمية أو، بالأحرى، ما يدعوه الصينيون «حتمية الحرب العالمية».

د. ش.: الحرب لا مَفرَّ منها، لأن القوى العظمى موجودة، ولأن الإمبريالية موجودة. ونحن لسنا الوحيدين الذين نفكر بهذه الطريقة؛ في كلّ جزء من العالم اليوم، أناس كثيرون مقتنعون بأنّ الحرب سوف تندلع في ثمانينيات القرن العشرين. الأعوام العشرة المقبلة ستكون خطيرة جداً، جداً. إنها أعوام مروِّعة. يتعين علينا ألا ننسى هذا، لأنّ هذا هو الأسلوب الوحيد الذي سنمنع فيه الحرب من أن تندلع فوراً؛ هذا هو الأسلوب الوحيد الذي نستطيع أن نُرجئها فيه. لا من خلال «الدردشة «عن السلم والانفراج. (الغربيون) كانوا يتحدّثون عن السلم والانفراج منذ نهاية (الحرب العالمية الثانية). وكذلك (الاتحاد السوفييتي). لكن أين هو هذا السلم، أين هو هذا الانفراج؟ سنةً بعد سنة، إن لم نقل يوماً بعد يوم، البؤر الساخنة تتعاظم؛ العوامل التي

تُفضي إلى (الحرب العالمية الثالثة) تتزايد؛ ولا يزالون يتحدّثون عن الانفراج والسلم.

أ. ف.: الحقيقة هي أن السواد الأعظم من البشر لا يفهمون هذا لا يُريدون أن يفهموا هذا. أو إنهم لا يصدّقونه، أو لا يُريدون أن يُصدّقوه. بخاصة في أوروبا.

د. ش.: إنهم يخدعون أنفسهم بأنّ الحرب يُمكن منعها. ولهذا يُسدّون عيونهم؛ يصمّون آذانهم. هذا أحد العوامل التي تؤدي إلى الحرب: هذا العمى، هذا الإذعان، هذا الانصياع. قبل (الحرب العالمية الثانية) هذا كلّه بات ذائع الصيت تحت كلمة واحدة: تهدئة. تشمبرلين [1] ودلادييه [2] استعملا هذه الكلمة كي يفسرا موقفهما المُذعِن تجاه هتلر فيما كان يدمر (أوروبا الشرقية). اليوم، بعض البلدان الأوربية وليس فقط البلدان الأوروبية تتصرف بالضبط كما تصرّف تشامبرلين ودلادييه في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين. لكن ما الذي استخلصه تشامبرلين ودلادييه؟ ما هو نفع تهدئتهما؟ (الحرب العالمية الثانية) اندلعت على وجه الدقة لأنهما قلّلا من شأن الخطر، لأن بعض القادة الأوروبيين

---

(1) آرثر نيڤيل تشيمبرلين Arthur Neville Chamberlain (1869 – 1940): سياسي بريطاني ينتمي لحزب المحافظين. خدم بصفة رئيس وزراء بريطانيا للمدة من 1937 إلى 1940 – م.

(2) إدوارد دلادييه Édouard Daladieri (1884 – 1970): سياسي فرنسي. تولى رئاسة الوزارة في فرنسا ثلاث مرات: أطولها من 10 نيسان/ أبريل 1938 إلى 21 آذار/ مارس 1940 – م.

خدعوا أنفسهم بأنّ باستطاعتهم تجنب الحرب بأن يتصرّفوا بإذعان وأن يقدّموا تنازلات لهتلر. هذه التهدئة الجديدة تخدم فقط في إضعاف (الغرب) وأوروبا. السوفييت يعرفون هذا جيداً، ولهذا كانوا يشجعونه. ويوماً بعد يوم يُصبحون متغطرسين أكثر.

أ. ف.: هل تعني القول إنّ شميت[1] وجيسكار ديستان[2] يمارسان اللعب مع (الاتحاد السوفييتي)؟

د. ش.: أعني القول إن أشخاصاً معينين لا يعون الخطر. إعني القول إن الطرائق التي تبناها بعض الأشخاص ليست طرائق حكيمة. أعني القول إن بعض الأشخاص يدحرجون حجر النرد، يفعلون أشياءَ يعرفون أنها خطيرة، أو أنه في الأرجح ستكون لها نتيجة سلبية، وهذا ليس بالشيء الحكيم. نحن الصينيين لا نتصرف بهذه الطريقة. نحن الصينيين حين نواجه مشكلة ما

---

(1) هلموت شميت Helmut Schmidt (1918 – 2015): سياسي ألماني، مستشار سابق لألمانيا الغربية بين عاميْ 1974 و1982. كان عضواً في (الحزب الديمقراطي الإشتراكي في ألمانيا) – م.

(2) ڤاليري جيسكار ديستان Valéry Giscard d’Estaing (1926 – 2020): رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة 1974 حتى سنة 1981. اتسمت فترة رئاسته بتوجهات أكثر ليبرالية في بعض القضايا الاجتماعية، كالطلاق ومنع الحمل والإجهاض، كما جرت محاولات لتحديث البلاد، فأُطلقت مشاريع لتحديث وتطوير البنية التحتية لا سيما تلك بعيدة المدى مثل القطارات فائقة السرعة، والاتجاه نحو الاعتماد على الطاقة النووية كمصدر رئيس للطاقة في فرنسا – م.

مـن مثل ڤيتنام، نحن نفعل هذا في مصالح الجميع، وفقاً لقواعد الإستراتيجية الكونية.

أ. ف.: سيد دينغ ما هي، في رأيك، البؤر الساخنة اليوم التي من الجائز أن تُفضي إلى الحرب؟

د. ش.: أُشـير إلى (الـشرق الأوسط) ومن ثم (الهنـد الصينية). غير أنّ المناطـق الخطـيرة هي في كلّ مكـان فيما يتعلّق بهـذه النقطة، وإنه ليس من السهل أن نقرر أين سيُشعل الفتيل. إنه لمن السهل، من الناحيـة الثانيـة، أن نقرر مَن الذي سيُشعـل الفتيل. كما تعرفين، قـال الصينيون منذ سنوات إنّ ثمةَ بلديْن فقط قادرين على شـن (حرب عالمية ثالثة): (الولايات المتحدة) و(الاتحاد السوڤييتي). عـلى أية حـال، بعد (الحـرب العالمية الثانيـة) أو، بالأحرى، بعد (الحـرب الكوريـة) و (حـرب ڤيتنـام) القـوة الأمريكيـة كانت تنحـسر بثبـات، و(الولايـات المتحـدة) واصلت الانسـحاب. اليـوم، هـم الآن يتخـذون موقفاً دفاعيًّـا، ودعينا نعـترف بهذا: (الولايـات المتحـدة) خائفة من (الاتحاد السـوڤييتي). كما لو أنّ هـذا لم يكـن كافياً، إنهـم يعملون في ظل نظام سياسي لا يسـمح لهـم باتخاذ قـرارات فوريـة. (الاتحاد السـوڤييتي)، مـن الناحية الأخرى، يتخذ موقفاً هجوميًّا ويتعين عليه فقط أن يجمع أعضاءً قليلـين من (المكتب السياسي للحزب) كي يتوصَّلـوا إلى قرار. هكذا حصل فيما يتعلّق بأفغانسـتان؛ أعضاء قليلون من (المكتب السياسي للحزب) اجتمعـوا وقرروا غزو أفغانسـتان. على كلّ

حـال، أنظـري: النقطة المركزية في الإستراتيجية السـوفييتية هي أوروبا لا تزال أوروبا. وهذه الحقيقة لن تتبدَّل.

أ. ف.: إذاً الحـرب مـن الممكـن أن تشتعـل في أوروبا؟ هـل هذا هو ما تقوله؟

د. ش.: لا، ليـس بالـضرورة في أوروبـا بسـبب أوروبـا. أنـا أقـول إن (الحـرب العالميـة الثالثـة) سـوف تشتعـل بسـبب أوروبـا، لأن أوروبا لديها الاقتصاد القوي، أوروبا لديها تأثير سياسي، أوروبا لديها قوة عسـكرية، وهذه الأشياء كلّها مطلوبة من أجل الهيمنة العالميـة. حتى إذا احتلـوا الصين حتى إذا احتلـوا بقية الكوكب السـوفييت سيكونون عاجزين عن توطيد الهيمنـة الكونية التي يرغبـون فيهـا إذا لم يملكـوا أوروبـا. لكن، بالطبـع، حين أؤكد أنّ النقطة المركزية للإستراتيجية السـوفييتية هي أوروبا، أشـمل (الـشرق الأوسـط)، السـاحل الشمالي مـن إفريقيـا، و(حوض البحر المتوسط)، جوهريًّا.

أ. ف.: إنكَ لم تُدرج (الخليج الفارسي) بين المناطق الخطيرة.

د. ش.: لكـن تلـك المنطقـة أيضـاً، فضلاً عـن اجتياح أفغانسـتان، أو مسـيرة السـوفييت نحـو (المحيـط الهندي) هـذه كلّهـا جزء من إستراتيجيتهم كي يُطوّقوا أوروبا في حركة كمّاشة! بطبيعة الحال، اجتياح أفغانسـتان هو الخطـوة الأولى بغية الوصول إلى (المحيط الهندي) كي يكون باستطاعتهم أن يحصلوا على سيطرة تامة على

(الشرق الأوسط)! ولمّا تكتمل هذه الخطة، ستجد أوروبا نفسها في لحظة حرجة، لأنه ماذا تستطيع أوروبا أن تفعل، إذا ما استولى السوڤييت على آبار النفط في (الشرق الأوسط)؟ لمّا أتى رئيس الوزراء السابق كالاغان [1] إلى الصين، ناقشتُ هذه الحقائق بالتفصيل معه. قلتُ له إن لحظة أوروبا الحرجة ستحلّ حين يسيطر السوڤييت على آبار النفط في (الشرق الأوسط)، وسألتُه سؤالاً مباشراً: «ماذا ستفعل حين تصل المسيرة السوڤييتية صوب (المحيط الهندي) إلى (الخليج الفارسي) و(الشرق الأوسط)؟ لأنه في تلك اللحظة سيكون لديكَ خياران فقط، سيد رئيس الوزراء: إما أن تتهاوى على ركبتيكَ أمام (الاتحاد السوڤييتي) و، في أفضل الأحوال، تصبح نوعاً من فنلندا، وسيكون هذا الحل المشرِّف جداً، أو أن يكون باستطاعتك أن تُقاتل». فقال كالاغان، «سيكون هنالك خيارٌ واحد فقط». لم يُخبرني أيَّ خيار، إلا أنني فهمتُه، وأجبتُه قائلاً، «إذاً عليك أن تختار هذا الخيار حالاً، سيد رئيس الوزراء. ينبغي لكَ ألا تنتظر». أنصتي بعناية: إن الاختيار الآن يعني إيقاف الجبهة في أفغانستان وكمبوديا و... هل تفهمين الآن ما أقوله عن كمبوديا؟ لو كان ممكناً كبح (الاتحاد السوڤييتي) في أفغانستان وفي كمبوديا، سوف يتم تأجيل (الحرب العالمية الثالثة).

---

(1) جيمس كالاغان James Callsghan (1912 – 2005): سياسي بريطاني خدم بوصفه رئيس وزراء بريطانيا للمدة من 1976 إلى 1979 – م.

أ. ف.: وماذا بعد؟ إذا كانت (الحرب العالمية الثالثة) لا مفرّ منها، فإن التأجيل يبدو عقيماً تقريباً.

د. ش.: إذاً... سنرى. في غضون أعوام قلائل، الأشياء ربما تتحسن. إن الشيء المهم هو إرجاء الحرب كسب أعوام قلائل.

أ. ف.: وإيران؟ يوجد هنالك أولئك الذين يقولون إن أفغانستان هي نوع من التدريب من أجل الاجتياح النهائي لإيران.

د. ش.: أنا متيقن من أنّ (الاتحاد السوفييتي) لن يتوقف في أفغانستان إن لم نوقفهم. وسيكون هدفهم التالي هو إما إيران أو باكستان. و، حتى إذا من غير الممكن معرفة أيٍّ من هذين البلدين سيختارون أولاً، أعتقد أنه من المهم أن نركز انتباهنا على إيران.

أ. ف.: لكن ألا تعتقد أنّ دراما الرهائن الأمريكيين، الفوضى التي تغرق فيها إيران حاليًّا، جنون خميني وأتباعه باختصار، ما جرى في ذلك البلد على مدى الأشهر العشرة الأخيرة هو في صالح السوفييت؟

د. ش.: اسمعي، لا أفهم ما يجري هناك بشكل جيد جدًّا. باستطاعتي أن أقول لكِ فقط إن إيران ليست فقط بؤرة ساخنة؛ إنها تغلي. لا تدعينا ننسى أنّ (الاتحاد السوفييتي) له تأثير قوي جداً في إيران. إيه قوي جداً. وهذا ينبغي أن يُكشف لكِ لماذا لدينا كلّ العزيمة للحفاظ على أفضل علاقات ممكنة مع إيران. مهما يحدث في إيران، سوف ترين أنّ السفارة الصينية في طهران ستكون نافعة جداً.

أ. ف.: لم تكن السفارة نافعة جداً للأمريكيين.

د. ش.: الأمريكيون عاجزون تماماً عن القيام بأيّ شيء في إيران. غير أن لبّ القضية، كما أراه، ليست إيران؛ إنها الحرب حتمية الحرب. أنا لا أتحدّث عن إيران؛ أنا أؤكد على أنّ الحرب سوف تشتعل، عاجلاً أم آجلاً. وكلّ من يفكر بشكل مختلف يقترف خطأً فادحاً، لأنهم يخفقون في أن يتخذوا تدابير مؤثرة. لكن في الحقيقة! (الاتحاد السوفييتي) يتكلّم عن محادثات (سالت) (SALT) [1] بلا انقطاع، ومع ذلك لم يتوقف عن تسليح نفسه. إن جمعهم للقنابل الذرية والأسلحة النووية شيءٌ لا يُصدّق، ومستودعات أسلحتهم تمتلئ بالأسلحة التقليدية. هذه الأسلحة ليست طعاماً؛ ليست أحذية؛ ليست ملابس؛ ليست أشياءَ سوف تتلف إن لم تُستعمَل حالاً. عاجلاً أم آجلاً سوف تُستعمَل.

أ. ف.: هل تسمح لي بملوحظة تتعلّق بهذه المسألة، سيد دينغ؟ الصينيون يقولون على الدوام إنهم لا يخافون من (الاتحاد السوفييتي)، وإنهم مستعدون لمواجهتهم. لكن كيف يُمكنكَ

(1) محادثات سالت Strategic Arms Limitation Talks (اختصاراً SALT): هي محادثات للحدِّ من الأسلحة الاستراتيجية بين (الولايات المتحدة) و(الاتحاد السوفييتي)، في أثناء الحرب الباردة. كانت جولتان من المحادثات والاتفاقيات (سالت 1) و (سالت 2) وُقعتا في 1972 و1979 على التوالي. وكانت هذه المحادثات تهدف للحدِّ من سباق التسلّح في مجال الصواريخ الباليستية (بعيدة المدى والعابرة للقارات) المزوّدة بالأسلحة النووية – م.

أن تصدّق أنّ بوسعكم التنافس مع الكفاءة الهائلة للماكينة العسكرية السوفييتية؟

د. ش.: [يضحك] إيه! الصين بلد فقير وقواتنا المسلّحة متخلّفة، أؤيدكِ على ذلك. إلا أننا نمتلك تقاليدنا، كما تعرفين. وعلى مدى زمن معين نحن نستعمل أجهزة غير كافية وبائسة، زرعنا فن الانتصار على الأعداء ذوي الأسلحة الجيدة. إن أرضنا أرضٌ شاسعة إلى حدٍّ كبير، وفي هذه الأرض الشاسعة تعلّم الناس المقاومة الضرورية على مدى حرب طويلة الأمد على أن يلووا قوة الآخرين عبر نقاط ضعفهم. كلّ مَن يُريد أن يجتاح الصين عليه أن يتذكر هذه الحقيقة، وأنا أعتقد أنّ السوفييت يتذكرونها جيداً. أشخاصٌ كثيرون يستمرُّون في توقُّع أنّ الهدف القادم لـ(الاتحاد السوفييتي) سيكون الصين، وبعض الأصدقاء يمررون إلينا معلومات كي يبرهنوا لنا أنّ السوفييت يحشّدون القوات على طول الحدود الصينية والمناطق الحدودية. إلا أننا نقول ببساطة إن هذا لم يكن سرًّا، وإن اجتياح الصين هو خطوة هائلة جداً بالنسبة لهم. حتى إذا كانوا قادرين على احتلال بكين وكلّ المناطق الواقعة شمال (البحر الأصفر)، بالنسبة لنا ستكون الحرب في بدايتها تحديداً. لا، ما من حاجة لأن تجعلي من التفوّق العسكري السوفييتي خرافة حين تتكلّمين عن الصين. الفدائيون الأفغان نشيطون جداً في أفغانستان، كما تعرفين. وفي الصين لدينا كمٌّ هائل من الفضاء أكبر، كمٌّ هائل من البشر.

أ. ف.: أعتقد أنني أفهم التقليد الذي تلمِّح إليه، سيد دينغ التقليد الذي يتألف من الإشارة إلى عدوكم والقول بلسان معسول، «أدخلوا، أعزاءَنا، أدخلوا. استرخوا. بعدها سترون ماذا يحدث. مَن الذي سيراكم، يا ترى، ثانيةً؟»

د. ش.: [يضحك بصوت مرتفع]. أنظري، أشياء كثيرة لا أعرف عنها. لا أعرف كثيراً عن الاقتصاد. إلا أنني أعرف عن الحرب. أعرف كيفية القتال في الحرب.

أ. ف.: الحقيقة هي إنه ربما لا أحدَ لديه الوقت كي يقاتل، سيد دينغ، لأن الحرب مع الصين تعني حرباً عالمية؛ والحرب العالمية تعني حرباً نووية؛ والحرب النووية تعني نهاية العالم.

د. ش.: أتفق معك على الجزء الأول من هذه المقولة؛ إذا اجتاح (الاتحاد السوڤييتي) الصين، لن تكون حرباً محلية. لا أتفق معكِ على الجزء الثاني من مقولتكِ، على كلِّ حال؛ ليس من المؤكد أنّ تكون (الحرب العالمية الثالثة) حرباً نووية. في رأيي، هذا يرجع إلى أنّ كلا الطرفين لديه أسلحة نووية، وثمة احتمال قوي أنّ (الحرب العالمية الثالثة) سوف يكون القتال فيها بالأسلحة التقليدية.

أ. ف.: شكراً، سيد دينغ. لقد انتهيت من حواري، سيد دينغ.

د. ش.: شكري الجزيل، ومن فضلكِ احرصي على أن يفهم الجميع ما قلتُه لكِ. اشرحي لهم إنه من الضروري أن ينجزوا تقييماً موضوعياً للرئيس ماو أن يفكروا أولاً في محاسنه، ومن ثم

يفكـرون في أخطائه. اشرحي لهم أننـا سوف نواصل اتباع (فكر مـاو تسي تونـغ) غير أننا سنكون واضحين فيـما يتعلّق بالمواضع التـي أخطـأ فيها. واشرحي لهـم أنّ هذه الأخطاء هـي أخطاؤنا أيضاً أخطائي أنا، أيضاً!

أ. ف.: سأفعـل، سيـد دينـغ. وإذا سمحتَ لي بسـؤال أخير: ما محصلة الأرقام التي تُعطيها لنفسك؟

د. ش.: هِمم... اسمعي، لقد اقترفتُ أخطاءً نعم، غالباً أخطاءً فادحة. إلا أنني لم أقترفهـا بنيَّـات سيئـة؛ اقترفتُهـا دوماً بنيَّات حسـنة. ضمـيري نقي فيـما يتعلّق بحيـاتي. هِمم... اسمعـي، أعتقد أنني أستطيـع أن أعطـي نفسي خمسـين بالمائـة. أجل، خمسـون بالمائة ستكون محصلة أرقام لا بأس بها.

الحُسين بن طلال

عَمّان، نيسان/ أبريل 1972

كان الملك صورة للمرارة، للزهو الجريح الخالي من الأوهام كلّها. لا يسعكَ أن تنظر إليه من دون أن ينتابك الإحساس بالحاجة إلى أن تفعل شيئاً ما له، ربما أن تهمس له. «تخلَّ عن كلِّ شيء، جلالة الملك. اذهب بعيداً، أنقذ نفسك. إذا ما بقيتَ هنا، سوف يقتلونك. إذا ما قتلوك، لن يسامحك أحد. المسألة لا تستحق هذا، جلالة الملك؛ لقد قمتَ أصلاً بمجازفات كثيرة جداً. إنك لا تزال في الثلاثينيات من عمرك ليس إلا». أو بدلاً من أن تهمس بهذا له، ربما تصرخ به عليه، ولم يكن الخوف من إهانته هو الذي يردعك. إنها المعرفة بأنه يعرف ذلك. إنها مكتوبة على ذلك الوجه الذي كان شاربه قد خطه الشيب أصلاً، وخطوط ذلك الوجه التي غطتها أصلاً ذكرى شباب بعيد. هل سبق لك أن رأيتَ وجهاً أكثر حزناً من وجه الحسين؟ شفتاه شريطان من تثبيط الهمّة؛ يبدو كما لو أنه يهمّ بالبكاء حتى حين يبتسم أو يقهقه. زيادة على ذلك لا أعتقد أنه قادر على أن يضحك ربما باستثناء لحظات نادرة لمّا يلعب مع أولاده.

أينما وكيفما تجده، إنه يمتلك سيماء رجل لا يمكنك أن تقول له إن الحياة هي هِبة الله. إنه يعيشها، أجل، ويقيناً لا يعيشها كزاهد أو قديس. إنه يحب النساء، الدراجات النارية، سيارات السباق،

والعطلات الساحلية، والعواطف المتأججة. إنه يدافع عن تلك الحياة، نعم، وبالتأكيد لا يدافع عنها بصفته شخصاً ضعيفاً؛ ولهذا السبب تعلّم أن يطلق النار وهدفه معصوم عن الخطأ. لكن بتجرّد، بغضب، يمكنني القول، والشك بأنّ كلّ يوم قد يكون يومه الأخير.

كان الملك جالساً على كرسي ذي مَسندين في مكتبه بـ «القصر المَلَكي»، مرتدياً بذلة ضاربة للاخضرار، وهي بذلة ليست أنيقة جداً، بقميص بدلاً من ذلك ناسبه بشكل جيد، وربطة عنق أُختيرت بذائقة. كان الكرسي ذو الذراعين ضخماً، وهذا الأمر جعله يبدو أصغر من حجمه الحقيقي ما يقارب خمس أقدام وثلاث بوصات. في الواقع، لّما اتكأ، قدماه قلّما مسَّتا السجادة. إلا أنه اتكأ مع ذلك، وجعل يسند كوعيه على ذراعيْ الكرسي ويُشبك يديه على بطنه، تقريباً كما لو أنه يُريك أن قامته القصيرة لم تكن تسبب له تعقيدات، وفي الواقع كان يحملها بفخر كبير، وساعده في ذلك جسمه كامل النمو. كتفان عريضتان، عضلتا أعلى الذراعين بارزتان، فخذان صلدان، وبطتا ساقين عضليتان جسم ثور يافع يفتش أبداً عن قتال أو عن بهيمة كي يمتطيها.

المقارنة تخطر ببالك تلقائيًّا إذا ما نسيت وجهه؛ كانت لديه قوة مستميتة لثور يافع لا يستسلم البتة. إنك تقيّده بحبل ويلوذ بالفرار، وبعدها يأتي مُسدداً الدَّين. تقبض عليه ثانية، وتحبسه في قفص، ويهزه إلى أن تدعه يخرج إلى داخل ميدان التنافس. وهناك يقاتل. كلّما نخسته أكثر تعذبه أكثر، كلّما جرحته أكثر، يقاتل أكثر. ولو بطريقة مشكوك فيها، مرتبكة، خاطئة: طعنة قرنين هنا، طعنة رأس هناك،

دمغـة من الحافـر. سياسة الحسـين. ولا يملك المرء سوى أن يتسـاءل مـا إذا كانـت مرارته وحزنـه لم يُولدا بشكل رئيس من هـذا: معرفة أنه مجـرّد ثـور يافـع اندفع بقـوة في مصارعة الثـيران لا يسـتطيع أن يخرج منهـا إلا ميتـاً. البيكـادورز[1]، الباندريلـيروز [2]، مصارعـو الثـيران الراجلون، الأصدقاء، الأعداء، الإسرائيليون، المصريون، السوريون، الفلسطينيون، كلّهم متحدون ضده في مؤامرة هي بشكل رئيس مؤامرة بسيطة جداً. في حالته، السلطة هي أيّ شيء عدا كونها مُريحة. فكرْ فقط في المحاولات التي تم القيام بها على حياته منذ سنوات شبابه.

أن تقـول الحُسـين؛ هـو أن تقـول محـاولات الاغتيـال. أن تقـول مؤامـرات، طلقـات مسـدس، قنابـل، سُـمّ. هو نفسـه كتـب قائلاً إن الدسائـس ضده كانت كثيرة جداً، متنوّعة، ومسـتمرة، بحيث أنه غالباً مـا يشعر أنه أشـبه ببطل قصة بوليسـية. أول مرة، كـما نعرف، حصلت لّمـا كان في سن السـادسة عشرة وأمام عينيه قتلوا جـده، الملك عبد الله. كـان ذلك عـلى درجـات «المسـجد الأقـصى «في القدس/ أورشـليم، ورصاصـات المسـدس لم تُطلـق فقـط عـلى عبـد الله رصاصـة واحـدة أصابته، مسـتهدفةً قلبـه. نجا بفعل الميدالية الثقيلـة التي ثبّتها جدّه على بذلتـه النظامية؛ الرصاصـة تهشمت عليها. وقعت حادثـة طائرتي الميغ

(1) البيكـادورز Picadors: جمع (بيكادور) بالإسبانية، وهو فارس يحمل رمحاً، يفتتح مصارعة الثيران بإهاجة الثور بوخز الرماح ليوهن عضلات عنقه وكتفيه – م.

(2) الباندريلـيروز Banderilleros جمع (باندريلـيرو) بالإسبانية، وهو مصارع ثيران يستخدم الحربة المُزينة، (باندريـلا) بالإسبانية. هذه الحربة تكـون مُزينة بقصاصات تُرمى إلى عنق الثور أو كتفيه في مصارعة الثيران – م.

السورية في العام 1958. كان يقود طائرته متجهاً صوب أوروبا حين هاجمته طائرتا الميغ، وأفلت فقط بفضل مهارته كطيّار، جعل الطائرة تهبط ومن ثم ترتفع مجدداً، وتحلّق بخط متعرّج، وعرّض الطائرة لخطر الاصطدام بالجبال والهضاب.

في العام 1960 حاولوا أن يقتلوه بأسلوب أكثر مكراً. كانت قد ظهرت عنده مشكلة في الجيوب الأنفية وكان الطبيب يعالجه بقطرات الأنف. وذات يوم فتح الحُسين قنينة جديدة وسقطت قطرة في المغسلة، بدأت المغسلة تئز، وسرعان ما ظهر ثقب في مكان القطرة. كان شخص ما قد استبدل الدواء بحامض الكبريتيك. وماذا يسعك أن تقول عن الخادم الذي حاول أن يطعنه في أثناء نومه؟ أو الطاهي الذي دسَّ سُمًّا في طعامه؟ كان قد تم اكتشاف ذلك لأن أحد خدمه اختبر الطعام على قطط القصر ونفقت القطط. والقنبلة التي وُضعت في غرفة مكتب رئيس وزرائه هزاع المجالي [1]، في اليوم الذي كان من المزمع أن يزوره

(1) هزاع بركات المجالي (1917 – 1960): تولى عدة مناصب وزارية منها وزير الداخلية في حكومة فوزي الملقي. بعد إنهائه للدراسة الابتدائية في الكرك والثانوية في مدرسة السلط الثانوية عمل مساحاً للأراضي ثم كاتباً في محكمة صلح مأدبا. التحق فيما بعد بالجامعة السورية حيث تخرج فيها حاصلاً على الإجازة في الحقوق العام 1946. التحق هزاع المجالي بالإخوان المسلمين ليخرج عنهم إلى» الحزب الوطني الاشتراكي «الذي أُقيل منه بسبب قبوله استلام منصبٍ وزاريٍّ دون الرجوع للحزب في حكومة توفيق أبو الهدى الأخيرة. عمل إضافةً للعمل الوزاري رئيسًا للتشريفات الملكية، ونائباً في مجلس النواب الأردني. تُوفي نتيجة لتفجير في مكتبه وقفت وراءه بحسب التحقيقات أجهزة الاستخبارات في(الجمهورية العربية المتحدة) في إقليمها الشمالي، بينما نفت (الجمهورية العربية المتحدة) ذلك. استقالت حكومته الأولى على أثر الأحداث التي رافقت قضية انضمام الأردن لحلف بغداد، وقد التمس هزاع المجالي

فيه الحُسين، الحسين لم يمت لأنّ القنبلة انفجرت سَلَفاً، ولم تقتل سوى رئيس الوزراء وثمانية أشخاص آخرين. وأربع رشقات من الطلقات النارية من مدفع رشاش على ما يبدو أنها سيارته وبدلاً من ذلك كانت تلك سيارة عمه؟ والتمرد العسكري الذي نظّمه القائد الأعلى لجيشه، أبو نوّار؟ كانت القوات قد تموضعت في (الزرقاء)؛ الحُسين قفز في سيارة (جيب) ولحق بهم. وفيما كان يترجَّل من سيارة (الجيب)، رأى مسدساً موجَّهاً إليه؛ هذه المرة نجا لأنه أطلق النار بنحو أسرع من الرجل الآخر. كان يمضي هنا وهناك دوماً ومسدس (كولت 38) مغروز في حزامه، وحين يمضي إلى فراشه يضعه تحت وسادته.

إن الحقيقة الاستثنائية جداً المتصلة بالحسين هو أنه كلّما كانت حياته في خطر، يعرّض نفسه أكثر لهذا الخطر. في يوم وصولي إلى عمّان، شاهدتُ في مَهبط الطائرات شاباً قويًّا ذا شارب يشبه إلى حدّ كبير الحُسين. كان يساعد سيدة لطيفة وطفلين في ركوب طائرة في طريقها إلى لندن. ومن ثم مضى إلى سيارة (مرسيدس) مركونة قرب البوابة، أمسك بعجلة القيادة، وانطلق وحده، سالكاً الطريق المؤدي إلى داخل المدينة. صحتُ، «هذا الشاب يشبه الحُسين!» وردّ عليّ شخصٌ ما، «نعم، إنه الحُسين. إنه دوماً يمضي من دون مرافق أو حارس شخصي». الأكثر من ذلك، إنه حتى شيء سخيف وعبثي أن نُصرَّ على القول إنّ الحسين رجلٌ شجاعٌ. إنه هكذا بطريقة متهوّرة، مُزعجة. في العام

من الملك حلّ مجلس النواب كذلك؛ وهو الشيء الذي حدث فعلا بيد أنّ المجلس العالي لتفسير الدستور نقض ذلك القرار – م.

1967، حين كان الإسرائيليون يتقدّمون على الأردن، كان رئيس الدولة الوحيد الذي مضى إلى الجبهة. وحيداً، في سيارة (الجيب) العائدة له. جنوده لاذوا بالفرار، في حالة يُرثى لها، أما هو فقد ذهب إلى الأمام، تحت صفير القنابل وقذائف الهاون. ولمّا عبر الإسرائيليون الحدود عند (الضفة) وهجموا بخمسين دبابة، اندفع إلى هناك بسرعة وبدأ يتابع المعركة. بعض الأشياء كان يُنجزها مُرتزقة الماضي؛ اليوم حتى الجنرالات لا يشاركون في القتال.

إذاً لا يمكنكَ سوى أن تستنتج أنه يُحب الخطر الجسدي. وأنا أشدد هنا على كلمة «الجسدي» وهي نقطة ضعفه الكبيرة. كما هو الحال لدى الثيران. الألعاب الرياضية التي يمارسها تُمثل خطراً جسديًّا ولا شيء آخر. إنه يستمتع بالهبوط بالمظلات، يُطفئ مُحرّكات طائرته المروحية ويدعها تسقط، ولا يستأنف السيطرة عليها إلا في اللحظة الأخيرة، يُسرع في سيارته ماركة (بورش) حتى 180 ميلاً بالساعة، يقوم بألعاب بهلوانية بطائرته المقاتلة النفاثة نوع (هاوكر هنتر). وفي أحد الأوقات كان يُحب أيضاً أن يُخفي نفسه كسائق سيارة أجرة ويفتش عن الركاب ليلاً في شوارع (عَمّان)، كي يسألهم عن آرائهم بالملك الجديد المُسمّى (الحُسين).

الملك لم يبرز في أيّ إشارة محددة ذكرتُها حتى الآن. على العكس، كان سلوكه هادئاً، وديًّا، وبسمتُه سعيدة. كانت هكذا منذ اللحظة التي فتح الباب فجأةً وهزّ يدي، وسألني ما إذا سارت الأمور بنحو جيد معي في الأردن وما إذا سبّب لي أيُّ شخص مشكلة. إذا حدث أيُّ شيء، ينبغي

لي أن أدعـه يعلم في الحال. كان مـن الجلي إلى مَن كان يلمِّح. كانت نبرة صوتـه نبرة صـوت رب المنزل الذي يُريد أن يُذكّـرك أنّ رب المنزل هو نفسه وليس الفدائيين الذين قابلتَهم توًّا. وبعد أن أشار إلى هذه النقطة، أعطاني سيجـارة أردنية ومال للأمام كي يُشعلها، مسـتمتعاً بالملحوظة التـي شـددتُ عليها المتصلة بعـدم معرفتي بالبروتوكـول. «قالوا لي أن أخاطبـك بمصطلـح (جلالة الملـك)، وللمرة الثانية نسـيت... جلالة الملـك». «لا يهـم»، ردّ عليَّ. «في يومنـا هذا الملـك لا شيءَ سوى خادم للدولة؛ يبدو لي أنه شيء غير مناسب أن أصرَّ على المراسم. لا أفعل هذا على الإطلاق».

هـذا الأمـر صحيح تماماً حـين تتذكر أنه كـان من دأبه أن يسـتقبل الصحافيـين مرتدياً قميصه ذا الكُمـين القصيرين، إذ كان يُقيم في ڤيللا صغـيرة مكوّنة مـن حجرات قليلة حيث لا يوجد سـوى خدم قليلين، وزوجته مُنى هي التي تقومَ بالطهي، كاتبة الاختزال البريطانية اللطيفة التـي كان اسمها قبل الزواج منه (توني غاردنر). في ذلك الحين، وحتى عندمـا لم يكن وفيًّا لها في علاقات غرامية غير شرعية لا تُعد ولا تُحصى، كـان الحسـين مُغرماً بها. ما يُفسر هـذا الغرام، على ما يبـدو، في الحقيقة بسـاطة المرأة التـي لا تشعر أنها ضئيلـة القيمة من خـلال طهي الطعام له والتـي رفضت لقب (الملكة)، وكانت لا تتقبَّل إلا على مضض لقب (أمـيرة). لذا مـا من أحد ارتاب في مسـألة أنه سوف يتخـلّى عنها، بعد عامـين، كي يتزوج من امرأة أصغر منها سنًّـا وأجمل منها. كانت حياته العائلية أشبه بحياة أيٍّ برجوازي صغير معارض للطلاق.

سألت الملك ما إذا باستطاعتي أن أبدأ الحوار. أومأ برأسه وفي اللحظة ذاتها تلاشى سلوكه الخالي من الهموم. صوته، الذي بدا، قبلاً، ذكوريًا، استبداديًّا، غطس وأطلق همهمة مهذبة: «أرجوكِ، انطلقي». هذا الأمر جعلني أشك في شيء لم أفكر في احتمال وجوده: إنه رجل هيّاب. إنه كذلك. تماماً بالطريقة ذاتها كما في مصارعة الثيران حين تكتشف أنك لا تؤذيها و، قد استولى عليها الارتباك، تتراجع، تحني أعناقها. لكن مع ذلك كنت مندهشة. إنك لا تندهش، على أية حال، بغريزة مخرج العرض المسرحي التي يتوقّع فيها أسئلتكَ، المهارة الثعبانية التي يتجنبها فيها. في حقيقة الأمر، إذا كان تعليمه تعليماً [غربيًّا] (يتعين عليكَ ألا تنسى أنّ الحسين درس في مدرسة سويسرية وسبكه غلوب باشا، السير جون باغوت غلوب [1]، الإنكليزي الذي نظّم جيشه)، سلالته سلالة عربية ألف بالمائة، مشحونة بالتبصُّر، بالمراوغة.

لدى سؤالي الأول، أطبق فكيه، ارتجت ذراعاه في رجفة غير محسوسة، وردة الفعل هذه تكررت مراراً خلال إجراء حوارنا.

---

(1) غلوب باشا أو السير جون باغوت غلوب Sir John Bagot Glib (1897 – 1986): عسكري، باحث، ومؤلف بريطاني قاد «الجيش العربي الأردني «بين عاميْ 1939 و1956 بوصفه قائدها الأعلى، وكان برتبة فريق. بقي في منصب قيادة الجيش العربي الأردني حتى الثاني من آذار/ مارس 1956، عندما أعفاه الملك الحسين بن طلال من مهامه، بالتنسيق مع «حركة الضباط الأحرار الأردنيين» في قراره تعريب قيادة الجيش العربي التاريخي. وكان هذا القرار بمثابة صدمة للإمبراطورية البريطانية وأدى إلى تدهور العلاقات الأردنية مع بريطانيا وأميركا وحلفائهما. أمضى غلوب بقية حياته في كتابة الكتب والمقالات، وكانت معظمها حول (الشرق الأوسط) وتجربته مع العرب. إبان الحرب العالمية الأولى، خدم غلوب في فرنسا – م.

أو بالأحرى، في كلّ مرة أسأله شيئاً غير مُريح. لم يكن يُطيب له أن يُجرى حوارٌ معه، ولهذا السبب لم يكن حواري حواراً طويلاً. كان قد وعدني بأربعين دقيقة. ولمّا انتهت خمس وأربعون دقيقة، نظر إلى ساعة معصمه، قلّما كان قادراً على إخفاء ارتياحه، وتمتم قائلاً، «أنا متأسف، علينا أن نتوقف. لديَّ موعد آخر». لم تكن هنالك أيّ طريقة أخرى لاستبقائه مدةً أطول. افترقنا عند الباب على وعد أن نستكمل الحوار لاحقاً خلال أيام قلائل. وبدلاً من ذلك، لم أره ثانية.

***

ربما لأنه لم يكن يرغب بأن يستأنف محادثة عَرِف أنها لم تكن محادثة مُخلصة؟ أو فعلاً أنّ ما أخبرني به بشأن الفلسطينيين كان كذبةً كبرى؟ في ذلك اليوم، وهو جالس في ذلك الكرسي العميق ذي المَسندين، أظهر نفسه بوصفه صلداً جداً معهم، متسامحاً جداً، راغباً جداً بالسلام. كان قد مضغ كلمة (السلام) بالإخلاص نفسه الذي يلوك فيه المرء العلكة. بعد مضي خمسة أشهر، بدلاً من ذلك، كان يتعين عليه أن يطلق العنان للبدو العائدين له ضد الفدائيين ويحطمهم في حمام دم مُروِّع، المذبحة التي أصبحت اليوم تحمل اسم (أيلول الأسود). دافع الفدائيون عن أنفسهم؛ احتدمت المعركة طوال أيام عدّة. إنما بلا طائل. كانوا قد بوغتوا إلى حدٍّ كبير، ولم يكن باستطاعتهم أن يصمدوا أمام جيش بأكمله. حتى في معسكرات اللجوء كان هنالك آلاف القتلى. أولئك الأشخاص الذين رأوا القتلى أفادوا قائلين إن قوات الحُسين كانت عديمة الرحمة. كانوا قد بتروا أعضاءهم التناسلية، أرجلهم،

أذرعهم بعد أن شدّوا وثاقهم. بعضهم قُطعت رؤوسهم. وكان من بين الضحايا نساء مُسنات وأطفال... إنها، والحق يُقال، إنها قصةٌ قبيحة، ووحشية.

في الواقع العالَم المتحضر بأسره تفاعل باشمئزاز وأدان جلالة الملك الحُسين. وكثيرون قالوا إنه بإيماءة كهذه دفع الوضع إلى حدِّه الأقصى، وإنه من الآن فصاعداً سيكون الوضع أسوأ بكثير. لم يكونوا مُخطئين، لأن الناجين لجؤوا إلى لبنان وهناك استعادوا قوتهم من خلال مضاعفة إرهابهم(1). إنّ ما يتعين علينا أن نكابده الآن في أوروبا، بوقائع من مثل واقعة ميونيخ وواقعة فيومـچينو، رافقتها مذبحة هي ليست من عملنا، وابتزاز و....

هـل ينبغـي لي أن أحتقـر الحُسـين لأنه كـذب عليَّ؟ لا أعـرف؛ لن أقول هذا. أيُّ شـخص على رأس بلدٍ من البلدان مُعذَّب كبلده يقيناً لا يستطيع أن يكشف إستراتيجيته للعدو، وبنحو أقل بكثير يثق بصحافية. بما أنّ أسلوبه في تحرير نفسه من الفدائيين كان مستنداً إلى تغيير كامل ومفاجئ في موقفه ومجزرة غير متوقعة، لم يكن لديه خيارٌ آخر سوى أن يكـذب عليَّ. إلا أنه كذب بنحو جيد جـداً، وتلك الكذبة تصف رجلاً مأساويًّـا، نعم، إلا أنـه خائن أيضاً. إنه مأسـاوي بفعل المصير، وخائن

(1) الكاتبـة لا تخفـي انحيازهـا للإسرائيليـين ومعاداتهـا للإسلام والمسـلمين. نحن، بالطبـع، نتحفـظ على آرائها الـواردة في هذا الكتـاب، لكننا نضعها كـما هي، من دون تدخُّل من جانبنا – م.

بفعـل الضرورة. كما أستطيع أن أقنع نفسي مجدداً حين قابلتُه بعد ثلاثة أعوام تقريباً.

قابلتـه ثانيـة في تشرين الثـاني/ نوفمبر 1974، بعد مضي شـهر على (القمـة العربيـة) في الربـاط. القمة حيث، بنحو غفـل من الاسم، أخذ منـه القادة العرب هذا الجانب مـن الأردن وحقه في التفاوض نيابة عن الفلسـطينيين. هذه المرة بدا الحُسـين مُحطماً، صورة حية للهزيمة والذل. وفي حقيقـة الأمر، كـان الذل حارقـاً، مثلما كان ثمرة انتقـام كان يريده وينظمـه ياسر عرفات. وأنا أراه في ظل ظروف كهذه، كان الحسـين قد هيّـج تعاطفـاً، تقريباً ثمة حاجة لأن أغفر له وأختار جانبه من المتراس. إنما لا تدعنا ننسـى الحقيقة الآتية: إن أولئك الذين يمسـكون بالسـلطة ويصوغون مصير الآخرين يجب ألا يُحكم عليهم في لحظة محنة أو هزيمة. إذا مـا رأينا زعيماً كهذا كجثة مُعلّقة من قدميها، حتى موسوليني يُمكن أن يُثير شيئاً من الشفقة. إن أولئك الذين يمسكون بالسلطة ويصوغون مصير الآخرين يجب أن يُحكم عليهم حين يكونون على قيد الحياة. لذا، في رأيي، أن الصورة الحقيقية للحُسين تبقى تلك الصورة التي رسمتُها في حواري الأول، الذي أصبح الآن قديماً. إنه ذلك الحوار الذي أفضّل أن أقدّمه من أجل رأي اليوم ورأي الغد.

***

أوريانـا فالاتشي: جلالة الملك، لكن مَن الذي يقود البلد؟ في نقاط التفتيـش الفدائيون هم الذين يُوقفون النـاس، وعلى الحدود الفدائيون هـم الذيـن يهجمون، وفي القـرى الفدائيون هم الذين يُقـرِّرون. لم يعد

الأمر مفارقة إذا ما قلنا إنهم يُقيمون دولة في داخل دولتك.

الحُسين: أشياءُ كثيرة لا تجري بشكل حسن، أعرف هذا. التجاوزات، اتخاذ مواقع لا يُمكنني أن أسمح بها. في بعض الأحيان هذا الشيء يُحدث احتكاكاً. لقد تحدثتُ بتفصيل تام مع قادتهم. نوّهتُ بالاتفاقات التي ألزموا أنفسهم بالتقيّد بها وفي كثير من الأحيان لم يتقيّدوا بها الأردن دولة ذات سيادة. والأردن بلدٌ يدفع ثمن الانتقامات الإسرائيلية. قادتهم تفاعلوا مع كلماتي مثل أشخاص عقلانيين، وأعتقد أنّ أشياءَ معينة سوف تتبدل. إلا أننا بعيدون عن القول بأنّ كلَّ شيء يجري على وفق ما أريد. ومع ذلك... حين يسألونني لماذا لا أضع حدًّا للفدائيين، لماذا لا أرمي الفدائيين خارج البلاد... أُجيب قائلاً: لن أضع حدًّا لهم، لن أرميهم خارج البلاد. لا لأنني لا أستطيع؛ إنما لأنني لا أريد ذلك. إنه شيء غير صحيح أنني سجين الفدائيين؛ هذا ما تقوله وسائل الدعاية الإسرائيلية. إنه شيء غير صحيح أنني لا أستطيع السيطرة عليهم. لأن لهم كلَّ الحق في القتال، في المقاومة. لقد تعذبوا طوال عشرين عاماً، والإسرائيليون يحتلون أرضهم. تلك الأرض هي أيضاً أرض أردنية مَن ذا الذي يجب أن يُساعدهم إن لم يساعدهم الأردن؟ لا تنسي أن جزءاً كبيراً من سكان بلادي هم فلسطينيون، لا تنسي أن مأساة اللاجئين واضحة هنا أكثر مما هي عليه في أيِّ مكان آخر. يتعين عليَّ أن أكون معهم.

أ. ف.: لكنهم ليسوا معك، جلالة الملك. لم أجد صداقة كبيرة

تجاهـك بـين الفدائيـين. وقـد وجـدتُ في كثير مـن الأحيـان، إذا جاز التعبير، عداوة.

ح.ط.: حـين يعاني البشر مـن الظلم ويكون لديهـم غضب في قلوبهم، تكون لأفعالهم عواقب غير مُسيطَر عليها. هذا الأمر يُحزنني إلا أنه لا يُثبط عزيمتي. سوف نتوصل إلى اتفاق قادتهم ليسوا حمقى وأنا متفائل. يقيناً إنه شيء صعب، وأحياناً يكون مُوجعاً. إنما في الحيـاة يتعين على المرء أن يعمل خيارات وبعدها يفي بوعده لها. اخـترتُ أن أحافظ على الفدائيين وأن أفي بوعدي لخياري. حتى إذا كان موقفي غير عملي أو ساذجاً... في يوم ما سوف نصل إلى حلّ سلمي.

أ. ف.: جلالة الملك، هل تؤمن حقاً بحلّ سلمي؟

ح.ط.: نعـم، أؤمن. لقد قبلتُ على الدوام القرار الذي تقدّم به (مجلس الأمـن الـدولي)؛ لقـد ناضلـتُ دومـاً مـن أجلـه، وسأستمر في النضـال من أجله. موقفي واضـح: أقول وأكرر إنّ كلّ ما يتعين عـلى الإسرائيليـين القيام به هو أن ينسـحبوا مـن الأراضي التي احتلوهـا في العـام 1967. لا يوجد سبيلٌ آخر لتحقيق السـلام. غـير أنّ الإسرائيليـين لا يُريدون أن ينسـحبوا؛ إنهـم لا يُريدون السلام.

أ. ف.: مـن خـلال القبول بقرار (مجلس الأمن الدولي) إنك تسـلّم بأن إسرائيل لها الحق في الوجود. باختصار، إنكَ لا تُنكر أنّ إسرائيل

حقيقة تاريخية لا يمكن طمسها.

ح.ط.: نعم، أنا لا أنكرها. أن أقبل بذلك القرار فإن ذلك يتضمن أوتوماتيكيًّا الاعتراف بإسرائيل. وهذا يعني أني أؤمن باحتمال أن نعيش في سلام مع إسرائيل.

أ. ف.: غير أن هذا بالضبط على النقيض مما يُريده الفدائيون، جلالة الملك! الفدائيون يُريدون أن يدمروا إسرائيل؛ إنهم لا يعترفون بحق إسرائيل في الوجود. الفدائيون يعتبرونه عدوًّا، أو بالأحرى خائناً، أيّ شخص يقبل بالقرار الذي تقدّم به (مجلس الأمن الدولي). إنهم يرفضون كلّ تسوية سلمية، إنهم لا يستبعدون الحرب، إنهم يدعون للحرب. جلالة الملك، كيف يمكنك أن توفِّق بين موقفك وموقف الفدائيين؟

ح.ط.: ظاهريًّا لا يُمكن استرضاؤهم، إلا أنني متأكد أنه عاجلاً أم آجلاً سوف ينتهي الأمر بالفدائيين بأن يقتنعوا أنه من الضروري أن يتوصَّلوا إلى تسوية سلمية. لأن الدول العربية الأخرى هي أيضاً سوف تقنعهم بهذه الضرورة. وبعدئذ، حين تتوقفين عن التفكير بهذا الأمر، لا يكون هنالك اختلاف كبير بين سعيي وراء السلام ورغبتهم في الحرب. في (الغرب) قد يبدو هذا مفارقة، لكن بالنسبة لنا، نحن الذين نمتلك عقلية مرنة أكثر، لا توجد مفارقة. كلانا، الفدائيون وأنا نرغب بأن نرى أن يتم الاعتراف بحقوقنا. وأنا لن أقبل سلاماً لا يعترف بحقوقنا، بحقوقهم. أنا أقول لكِ إذا قبلت إسرائيل بقرار (مجلس الأمن

الـدولي)، الهجمات الفدائية سـوف تتضاءل لن يَعُـود للفدائيين أيُّ سبـب لأن يُوجَـدوا. إنه عناد الإسرائيليين هو الذي أدّى إلى وجود الفدائيين، وليس العكس بالعكس.

أ. ف.: اسمـح لي أن أعترض، جلالـة الملك. الفدائيون لن يقتنعوا على الإطلاق بالانسـحاب الإسرائيلي مـن الأراضي المُحتلّـة. إذا ما سحب الإسرائيليـون قواتهم، سوف يواصلـون هجماتهم أكثر. هذا سببٌ آخر لماذا لا ينسحب الإسرائيليون.

ح.ط.: يتعـين عـليّ أن أصـدّق، أُريد أن أصـدّق أنّ الأمر ليس كذلك. ينبغي لي أن أؤمن بالسلام، شخصٌ ما ينبغي أن يؤمن...

أ. ف.: جلالـة الملك، فيـما يتصل بالكلام عن الدولة الفلسـطينية التي يُريـدون أن يُقيموهـا، قـادة الفدائيين يكـررون على الـدوام أنّ دولتهـم هذه سوف تضم الأرض الواقعـة في الضفة الغربية من الأردن، باختصـار (الضفة الغربية). لكن ألا تعود هذه الأرض للمملكة الأردنية؟

ح.ط.: نعم، لكنها كلّها تقريباً يسـكنها الفلسطينيون إنها فلسطين. لذا إنه شيء طبيعي بالنسبة للفلسطينيين أن يرغبوا باستعادة امتلاكها عاجـلاً أم آجلاً. و، كـي أفي بوعدي للخيارات التي اصطفيتُها، إنـه شيء طبيعـي بالمثـل أنـني لا أعـترض على ذلـك. حين يأتي الأوان، سأسـأل الفلسـطينيين المقيمين في (الضفـة الغربية) كي يُقـرروا ما إذا يرغبون بالبقاء مع الأردن أم يُصبحون مسـتقلين.

سأقول لهم: قرروا مستقبلكم من أجل أنفسكم. عندئذ سوف أقبل ما يقررونه.

أ. ف.: لكن عندئذ الأردن... ماذا يتبقَّى منه؟

ح.ط.: سوف يتبقى منه... ما يتبقى منه. إني أعرف تمام المعرفة أنّ (الضفة الغربية) تشكّل الأرض الأكثر خصوبة في الأردن. باحتلالها، سوف يُسبب الإسرائيليون لنا ضرراً اقتصاديًّا فادحاً. لكن مرةً أخرى تبرز ضرورة خيار ما: إما المصالح أو الضمير. حين يقول ملكٌ ما، بأية حال رأس دولة، إنه يعترف بحق شعب ما في تقرير المصير، يتعين عليه أن يحمل هذا الاعتراف حتى النهاية. إنه لمن السهل جداً أن تكوني ليبرالية في الكلام، لكنه صعب جداً أن تكوني هكذا بالأفعال. وكذلك حين تنتهي هذه الحرب، سوف يتبين أن الأردن هو البلد الذي دفع الثمن الأكثر إيلاماً والأكثر قسوة من بين الجميع.

أ. ف.: ذلك الجزء من الأردن الذي أنت مستعد للتخلّي عنه يضم القدس/ أورشليم، جلالة الملك.

ح.ط.: أجل... إلا أنّ القدس/ أورشليم يجب ألا تكون ملكاً شخصيًّا لأيِّ أحد. القدس مُقدّسة بالنسبة للمسلمين كما هي مُقدّسة بالنسبة للمسيحيين واليهود في هذا الأمر نحن العرب كلّنا متفقون. إن المشكلة الفورية، بناءً على ذلك، هي إنه على الإسرائيليين أن يدركوا ذلك أيضاً وأن يعترفوا بحقوقنا على

الجزء العربي من القدس. وألا يصرّون على أن يضموها إلى إسرائيل. إنكِ تشددين على مستقبل الصراعات في العالم العربي وتنسين أنّ الإسرائيليين هم الذين يُريدون أن يسحقونا من خلال سياستهم التوسُّعية.

أ. ف.: جلالة الملك، هذه الصراعات لا تنتمي للمستقبل، إنها تنتمي للحاضر. الوحدة العربية غير موجودة لقد رأينا ذلك في الرباط.

ح.ط.: (مؤتمر الرباط) لم يكن نافعاً، إلا أنني كنتُ أعرف على الدوام أنّ (الوحدة العربية) لن تتحقق على طاولة المؤتمر من خلال تجمع رؤساء شتى الدول العربية في حجرة واحدة. (الوحدة العربية) لا يُمكن الوصول إليها إلا من خلال الاتصالات المنفصلة بين دولة ودولة ببطء، بصبر. نحن وسوريا، نحن ومصر... زرتُ مصر مرات عدة، وسأعود مجدداً، لأنّ كلَّ لقاء يكون مثمراً أكثر مما تتصورين. الزوايا تغدو ملساء، التفاصيل تصبح واضحة...

أ. ف.: حتى مع مصر، مع جمال عبد الناصر؟ وإذا ما تحدّثنا عن جمال عبد الناصر، إنكَ دوماً مَن يذهب إليه، جلالة الملك. عبد الناصر لا يأتي إليك أبداً. هل بمستطاع المرء أن يستنبط الاستنتاجات؟

ح.ط.: إن أولئك الأشخاص الذين لديهم خوفٌ قليل من السفر هم الأشخاص الذين يسافرون. بعض الأشخاص يقلقون من

الطائرات لأنهم متمسكون كثيراً جداً بالحياة. دعينا نَصِغ الأمر بهذا الشكل: الطائرات لا تُقلقني؛ ليس لديَّ خوف من السفر بحثاً عن الأصدقاء.

أ. ف.: حتى حين يحاول أولئك الأصدقاء أن يجعلوك تتحطم، كما حصل مع تلكما الطائرتين السوريتين نوع (ميغ)؟ هل أنا مُخطئة، جلالة الملك، أو أنه على الدوام أصدقاؤك العرب من مثل عبد الناصر الذين يُريدون أن يقتلوك؟

ح.ط.: لا أرغب بالحديث عن هذا الموضوع... لا حاجةَ لأن نتكلّم عنه... العرب هم حُلفائي، أصدقائي...

أ. ف.: أعرف هذا، جلالة الملك. إلا أننا، نحن الإيطاليين، لدينا مَثَل بحيث أنه في حالتك يجب أن يُعكس كما يلي: الله يحميني من أعدائي، سوف أفتش عن أصدقائي. في حقيقة الأمر، حين تذهب لرؤية أصدقائك، تحمل معك مسدساً على الدوام. هل أنت متأكد من أنّ المسدس كافٍ كي يضمن سلامتك؟

ح.ط.: (الغربيون) خائفون دوماً من أن أُقتل. أول شيء يسألونني إياه، «لكن ألا تخشَ من أن يقتلوك؟» لا، إنني حتى لا أفكر في هذا الموضوع. إنني أقسم بذلك. لقد نظرتُ بوجه الموت مرات كثيرة جداً، بحيث أنني الآن تعوّدتُ على الخطر مثلما تعوّدتُ على الليل والنهار. زيادةً على ذلك، إذا سمحتُ لفكرة الموت أن تهيمن عليَّ، لن يعود باستطاعتي أن أخرج من منزلي وحتى لن

أشعر بالأمان هناك. أنا عربي، إني أؤمن بالقدر. مشيئة الله سوف تتحقق، وما سيكون سيكون.

أ. ف.: سائر الأشخاص الذين يستمتعون بالمجازفات الجسدية يتحدّثون عن القضاء والقدر، جلالة الملك.

ح.ط.: لا، إنه شيء غير صحيح أنني أستمتع بالمجازفات ما من إنسان ذكي يودُّ أن يقامر بحياته. غير أنه بالنسبة لي أصبحت المجازفة العنصر الطبيعي الذي نعيش فيه ما هو الماء بالنسبة للسمكة. السمكة، أيِّ سمكة، لا تعرف حتى أنها تعيش في الماء، لأنها لا تستطيع أن تعيش في أيِّ مكان آخر. أنا أحب الألعاب الرياضية، هذا صحيح، والألعاب الرياضية تُعطي دوماً هامشاً من المخاطرة؛ وإلا لن تكون ألعاباً رياضية. إلا أنني لا أمارسها من أجل ذلك؛ إنني أمارسها لأنه يتعين عليّ أن أتحرّك، أن أؤدي التمارين البدنية. ذات مرة سألني أحدهم قائلاً ما إذا كانت الموهبة التي أُعجب كثيراً جداً في الرجل، أيّ رجل، هي الشجاعة. ترددتُ قبل أن أرد بـ «نعم». يقيناً أنني أُعجب بالشجاعة وأحترمها؛ الرجل، أيَّ رجل، من دون شجاعة ليس رجلاً. غير أنّ الشجاعة الجسدية ليست كافية إن لم تُصاحبها الفطنة، وما أُعجب به أيما إعجاب في الرجل هو الفطنة. إنكِ بالذكاء وحده تقررين الأشياء، وبالعزيمة.

أ. ف.: ليس بهذا وحده، جلالة الملك. وحالتك تكشف هذا. جلالة الملك، لقد أخبرتني توًّا بشأن بعض الخطط الرائعة، إلا أنني

أود أن أرد بسؤال واقعي. هل حدث أن سئمتُ وحلمتَ بشيء واقعي أكثر، أعني أن تقول لها كلّها أن تذهب إلى الجحيم وتعتزل كي تعيش بسلام؟

ح.ط.: نعم... إني أخشى أن يحدث هذا. ثمة أيام حين يفكر فعلاً رجلٌ يؤدي وظيفتي في هذا الأمر. يستيقظ صباحاً ويقول «كفى»... كلَّ صباح هو مُعضلة أن تستمري في العمل أو لا. وكلَّ صباح أنتهي من حلِّ المعضلة بأن أخاطب نفسي قائلاً: استمر في عملك، عليكَ أن تواصل العمل. كما تعرفين، أنا لم أُولد كي أؤدي وظيفة ملك. لمّا كنتُ صبيًّا واحتمال أن أصبح ملكاً كان لا يزال بعيداً، لأني كنتُ أعرف أنه حين يتوفى جدي، سوف تُمرر المملكة إلى أبي، فكرتُ في اختيار مهنة ما. وترددتُ بين مهنة القانون ومهنة أن أكون طياراً. إن دراسة القانون شيء جميل إذا ما فكرتِ في القانون بالطريقة التي أفكر بها. وبعدئذ القانون هو بحث عن جميع الأسباب كنتُ سأغدو محامياً ممتازاً، أعرف هذا. الدور الجدلي للعدل والظلم، للصواب والخطأ... نعم، وهذه المهنة أفضل بكثير من أن أكون طيَّاراً. مع أنه بالنسبة لي أن أطيّر طيارة هي سعادة غامرة: الفضاءات المفتوحة، التكنولوجيا... لّما أطيّر طائرتي، لا أدع مساعد الطيار هو الذي يتولّى القيادة. وبدلاً من ذلك توفي جدي في وقت مبكر جداً و... أبي دهمه مرض، وجاء دوري كي أصبح ملكاً. كنتُ يافعاً جداً. لا أكاد أبلغ السابعة عشرة من عمري. باكراً، باكراً جداً. ليتكِ تعرفين

كم كان الأمر صعباً عليَّ. لم أكن أعرف شيئاً وظللتُ أرتكب الأخطاء... على مدى سنوات طوال اقترفت الأخطاء. تعلّمتُ في وقت متأخر جداً.

أ. ف.: ولمّا تعلّمتَ، هل أحببتَ هذا المنصب، جلالة الملك؟ أو إنكَ بالأحرى، أو لنضع السؤال بمصطلحات مُوجِعة ونزيهة جداً: بوصفك اليوم ملكاً، هل تعتقد أنّ هذا المنصب يستحق هذا العناء، جلالة الملك؟

ح.ط.: يا له من سؤال صعب، ومُحرِج. لقد أخبرتُكِ سَلَفاً أنني لم أختر هذه الوظيفة وأنني، لو كان بوسعي، ربما ما كنتُ لأختارها. لأنه، إذا ما كنتِ رئيسة دولة هي مدّة عقوبة تقضينها في السجن، أن يكون المرء ملكاً هي عقوبة مدى الحياة. إلا أنه يتعين عليّ إلا أفكر في مسألة ما إذا أُحب هذه الوظيفة أم لا، يتعين عليّ أن أفكر في مسألة أن أقوم بها حتى إذا لم أكن أُحبها. في أيّ وظيفة تكون لديك أيام من القلق والاضطراب، من القرف لكنكِ إذا استسلمتِ لها، سنكون أشبه بأولئك الذين يعوزهم التكيّف مع مجتمعهم، الذين يُغيّرون مهنهم وينتهي بهم الحال بأن يقوموا بها كلّها بنحو سيِّئ. لا، طالما أن شعبي يُريدني، أو طالما أنا حيّ وسط شعب يُريدني، لن أتخلّى عن وظيفة مَلِك. لقد أقسمتُ بذلك لنفسي قبل أن أقسم بذلك للآخرين. وهي ليست فقط مسألة كبرياء، صدّقيني. لأني أحب بلادي هذه. وأعتقد أنه إذا تخليتُ عنها وأقمتُ في الـ (ريڤيرا) سيكون هذا فعلاً من

أفعـال الجُبن، من أفعـال الخيانة. لذا أنا باقٍ هنـا. سواء استحق الأمـر هذا العناء أم لا، ومهما كان الثمـن. أنا جاهز لمواجهة أيّ شخص، أيّ شخص يحاول أن يرسلني بعيداً.

مكتبة .. سر من قرأ

ڤيلي برانت

بون، أيلول/ سبتمبر، 1973

سأعتمد على التاريخ كي أقرر إلى أيّ مدى كان ڤيلي برانت سياسيًّا عظيماً ورجلاً عظيماً. إلا أنه واضح أصلاً أنه كمستشار كان الشخصية الكبيرة الوحيدة في أوروبا. الجميع يُحبونه. الجميع يُصدّقونه. والجميع يُميّزون فيه قائد ألمانيا جديدة، ألمانيا لم تعد تُلهِم البغضاء أو الخوف: بقدر ما يُحتمل أن تُثير الحسد. منجزاتٌ كثيرة نُسبت إليه. ولم يمنحوه (جائزة نوبل للسلام) للا شيء. إلا أنّ موضع فخره الرئيس يكمن في أنه جعلنا نفهم أنّ كلمة (ألمانيا) لا تعني هتلر. ناضل ضد هتلر منذ أن كانت سنّه أربعة عشر عاماً «بالكلام والقبضات». كتب ضد النازيين، وناضل جسديًّا ضد النازيين، فرّ من النازيين لا توجد أدنى شائبة على ماضيه الديمقراطي. لم تكن به حاجة لأن يركع في وارسو. لم تكن به حاجة لأن يقرأ (الزبور) في القدس/ أورشليم. مع هذا، فعل ذلك. ويبدو لي هذا لا يقل أهمية عن «الأوستپوليتيك»[1] العائدة له، نزعته الأوروبية، واشتراكيته، اشتراكية إنسانية، ليبرالية، حديثة، كما تناسب

(1) الأوستپوليتيك Ostpolitik: وردت بالألمانية في النص الإنكليزي، وتعني «الانفتاح على الشرق»؛ وهي سياسة ألمانيا تجاه الإتحاد السوڤييتي (السابق) وأوروبا الشرقية، بخاصة وجهات نظر هتلر التوسُّعية في ثلاثينيات القرن العشرين وبرنامج التطبيع لحكومة (ألمانيا الغربية) خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين – م.

رجـلاً يرفض كلّ مسـحة عقيـدة. والأكثر من ذلك، إنـه في كنف هذه الاشـتراكية ترعـرع برانـت، وأصبـح صحافيًّا، كاتبـاً، ورئيـس بلدية برلـين، وكـان يعبّر عن رأيه على الـدوام. لا تدعنا ننـسَ أنّ ڤيلي برانت هـو رئيس الدولة الوحيد الذي تكلّم جهاراً بنفس الوضوح والصرامة تجـاه الكولونيلات اليونانيين وضد الموظفين الســوڤييت الذين خرجوا كي يدمِّروا مُعارضيهم.

كانـت حياته حيـاة استثنائية منذ لحظة ولادتـه، في الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر، 1913، في مدينة لوبيك. كانت أمه شابة، عاملة في اتحاد عُـمّالي غير متزوجة. لم يعرف أباه قط، ولم يعترف أبوه به قط. ولم يسـمع باسمـه إلا حين أصبح في سـن الثالثة عشرة؛ هـذا الاسم الذي بـدا سويديًّا أو نرويجيًّا أو دانمركيًّا. في أحـد الكتب كتب برانت قائلاً، «سمع الصبي إلا أنه لم يكن مهتمًّا. أو هل هو؟ حجابٌ معتم يمتد فوق تلـك الأعوام، حجاب رمادي كالضباب في ميناء لوبيك. شـخصيات ووجـوه تختلط كالظلال التي تبرز إلى السـطح وتتوارى عن الأنظار... يشق عليّ أن أصدّق أنّ الصبي المدعو هيربرت فراهم هو أنا».

لم يكن يحلو له أن يتحدّث عن أبيه. صُعقتُ لمّا اعترف قائلاً بأنه كان يعـرف دوماً مَن يكون. «كان لا يزال على قيـد الحياة بعد نهاية الحرب. إلا أننـي حتى في ذلـك الوقت لم أكن مهتمًّا باللقاء به». ويتعين على المرء ألا ينسـى أنّ وصمة «الابن غير الشرعي» قد سبّبت له مشكلة ليسـت صغيرة في مسيرته السياسية. كان خصومه قد استغلوا هذه الوصمة بلا

خجل حتـى في الحملات الانتخابيـة. وبخاصة أدينـاور[1]. مع أنّ هذا يُلقـي ظـلاً قاتماً عـلى صورتنا لأديناور، إلا أنها تسـاعدنا عـلى أن نفهم برانـت. وهو شـخصٌ يُميَّز عادةً عن الآخرين بكونـه عانى من الوجع والإذلال الأحـلام الكبيرة، وغالبـاً حتى النجاح، تُولَد عادةً من الجوع والشقـاء. أغلـب الظـن كما لو أنه إبـان طفولته هُزّ عـلى رُكبة أب، ڤيلي برانت اليوم ما كان ليصبح ڤيلي برانت.

لم يكـن يشبـه مواطنيـه. طـوال اثني عـشر عاماً كـان نرويجيّـاً، كما يعـترف هو بصراحـة، أو بالأحرى بإخلاص متهـور، ذلك أنه لا يزال يملـك النرويـج في دمه. «حـين، تكون أكبر قليلاً مـن غُلام، تهرب إلى بلـدٍ تتشرّب ثقافته ولغته، تفقد وطنـك لمجرد أن تجد وطناً آخر. كانت النرويج بالنسـبة لي وطناً ثانياً». هل ما تزال النرويج كذلك بالنسبة له؟ كلّما تنظر إليه أكثر وتسـتمع إليه أكثر، تتسـاءل أكثـر أين ينتهي الألماني السـاكن في داخلـه وأيـن يبـدأ النرويجـي. أو العكـس بالعكـس. لديه منـزل في النرويـج ويؤوب إلى هناك سنويًّا في إجـازة. أعز أصدقائه هم

(1) كونـراد هيرمـان أدينـاور konrad Hermann Adenauer (1876 - 1967): سيـاسي ألماني، خدم كأول مسـتشار لألمانيا الغربية في ما بعد الحـرب العالمية الثانية من العـام 1949 حتـى العـام 1963. قاد بلاده من أنقـاض الحرب العالميـة الثانية إلى دولة منتجة ومزدهرة، مقيما علاقات وثيقة مع فرنسـا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة. خلال السـنوات التي قضاها في السـلطة حققت ألمانيا الغربية الديمقراطية الاستقرار والاحـترام الـدولي والازدهـار الاقتصـادي «Wirtschaftswunder» بالألمانيـة، «المعجزة الاقتصادية» وكان أول زعيم لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي (CDU)، وهـو حـزب بأيديولوجية ديمقراطية مسـيحية وقد أصبح الحزب تحـت قيادته، ومنذ ذلك الحين الحزب الأكثر نفوذاً في البلاد - م.

في النرويـج. في النرويـج قابل معـاً زوجته الأولى والثانيـة، وهكذا فإن أولاده نصـف نرويجيـين. إنه يكتـب بالنرويجية بنحو أفضـل من كتابته بالألمانية، هذا ما يُقال، وهذا شيء آخر يهاجمه به أديناور، مُسـمِّيا إياه بـ «المتطفل»، «الأجنبي». إنه ينظر إلى جوازات السفر بعدم اكتراث أقول هذا وأنا أهزّ كتفيّ بلا مبالاة. وإنه ليس شـيئاً استثنائيًّا أنّ رجلاً محروماً جـداً من (النزعة القوميـة) ضيقة الأفق يجب أن يُمثل البلد الذي أطلق العَنان لحربٍ عالمية باسم (النزعة القومية)؟ لم يسـترجع برانت جنسيته الألمانيـة إلا في العـام 1946 وكونـه اختـار أن يفعل ذلك يُـشرّف ألمانيا الجديدة وأوروبا المستقبل. إني متيقنة من أني لستُ مُخطئة حين أقول إنه في التحليـل الأخـير هو لا يزال يُمثل أوروبا أكثـر مما يُمثل ألمانيا، و، في ذلك المعنى، دورُه لا ينتهي.

يا له من حزن أن تراه يستقيل على خلفية جاسوس قذر كان يسكن بجواره كسـكرتير؛ يا لها من ضربة قاسية أن تراه وهو يستسـلم بسـبب ابتزاز أكثر قذارة، هذا الابتزاز الذي نما من حوله. ولّما غادر بفخر قيادته للبلـد، كلّ أوروبا التقدمية كانـت تعرف أنها خسرت معركة؛ والهزيمة لم تكـن هزيمتـه هـو وحـده. إنها هزيمـة كـلّ المؤمنين بالسـلام المتحد بالذكـاء، الحريـة المُكتسَـبة بالشجاعة، والاشـتراكية المتحققـة بالصبر. العزاء الوحيد هو الفكرة التي مفادها إن خسـارة معركة ليست خسارة حرب. إن رجالاً من مثله لا يُمكن أن يُوضع حدٌّ لهم؛ بذرتُهم زُرِعت. هذا الرجل برانت لم يمت.

***

جرى الحوار الآتي في مكتبه، مكتب المستشار الألماني[1] في مناسبتين: الثلاثاء، 28 آب/ أغسطس، والاثنين، 3 أيلول/ سبتمبر. نادراً ما يكون الحوار، أيُّ حوار هو صورة لرجل بالطريقة التي كان فيها هذا الحوار. ليس بنفس أهمية ما يقوله أو لا يقوله، بل بنفس أهمية كيف يقول ما يفعله. إنه يتكلّم بأسلوب دقيق، مُسهَب، وقاسٍ. إنه تقريباً لا ينخرط في إشارات قد تُتلِف كرامته أو يُدلي باعترافات من شأنها أن تُضعِف نأيه. إذا ما حاولتَ أن تسبر روحه بنحو أعمق، ينسحب بكياسة ويلتزم الصمت. حاولت المرة تلو المرة إنما باءت محاولاتي كلّها بالفشل. فتح أبوابه على وسعها لمّا استجوبتُ السياسي؛ وأغلقها لمّا فتشتُ عن الإنسان. لم يسبق لي أن صادفتُ تواضعاً كهذا، خجلاً كهذا. ولهذا من الصعب عليّ أن أراه كما يراه الآخرون أي بمعنى كتيوتوني[2] مُولع بالنساء، النبيذ، البيرة، والضحك القوي. باستطاعتي بسهولة أكثر أن أُطابقه مع فلاح الزقاق البحري الذي وصفه في الحوار. صارماً، صلداً، صلباً كالحديد، وعدو الأشياء غير الضرورية. وحتى تهذيبه وأسلوبه الودي حين يستقبلك خاليان من أيّ شيء غير ضروري. ومن المؤسف أنني لم أتمكن من التحدّث معه على انفراد. كان حاضراً عند إجراء الحوار مستشاره كلاوس هاربريخت، ورئيس مكتبه الصحفي، في حين

---

(1) مكتب المستشار الألماني: هو مكتب رئيس الوزراء في ألمانيا (الغربية) سابقاً، وألمانيا الحالية (بعد انهيار جدار برلين، وتوحيد ألمانيا)؛ ويكون المستشار هو القائد العام للقوات المسلّحة. وردت بالألمانية في النص الإنكليزي Bunderkanzleramt – م.

(2) تيوتوني Teuton: شخص ينتمي للتيوتون، وهم شعب جرماني أو سِلتي قديم. ومن معانيها أيضاً: ألمانيّ، أو جرمانيّ – م.

أنّ كاتب اختزال لم يكن في خدمتي كي يأخذ ملحوظات ويُشغل جهاز تسـجيل صوتي موضوعاً بجانب جهازي. بدا ذلك أشبه باجتماع قمة، مجلس شـورى دولة ما. إنه هو الذي أراد أن يكون اللقاء بهذه الطريقة. و، مع أنّ هذا أزعجني في أول الأمر، سرعان ما غمرني الاحترام. يا لها من سلوى أن تكون وسط أشخاص يقومون بالأشياء بنحو جاد.

***

أوريانـا فالاتشي: بصراحة لا أعرف من أين أبدأ. مسـتشار برانت. لديَّ أشياء كثيرة جداً أود أن أسألكَ عنها، من بينها قصة اسمك، وهو ليس الاسم الذي وُلدتَ به. كان اسمك هيربرت فراهم، و...

ڤيلي برانت: أجل، بدأتُ أستعمل اسم (ڤيلي برانت) في مطلع العام 1933 قبل أن أغادر ألمانيا وبعد أن جاء النازيون إلى سدّة الحُكم. اخترتُه بوصفه (اسماً مُسـتعاراً) (1) كي أُكرّس نفسي للنشاط السّري ضد هتلر. لكنني بهذا الاسم ذهبتُ إلى خارج البلاد، حين كنتُ في التاسعة عشرة مـن عمري. وبهـذا الاسم بـدأتُ أكتب للصحف وأنـشر كُتبي، وبهذا الاسـم دخلـتُ ميدان السـياسة وأصبحتُ بالغاً ورجعـتُ إلى ألمانيا في نهاية الحرب. كلّ شيء مرتبط بهذا الاسم، ولم أفكر قط باستعادة الاسم الذي وُلدتُ به.

أ. ف.: زيـادة على ذلـك باعتبارك ڤيلي برانـت تزوجتَ وأصبحتَ

(1) اسمًا مُسـتعاراً: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي nom de guerre. تعوّدنا أن نقول «اسماً حَرَكياً»، فيما يتعلّق بالنشاط السياسي السرّي – م.

مواطنـاً نرويجيًّـا. هـو ذا، ربما مـن هذه النقطـة يتعيّن علينـا أن نبدأ الحـوار. أعني الحقيقة التي مفادها أنـه على مدى أعوام طويلة كنتَ مواطناً منتمياً لبلد آخر. باستثناء اليهود، لم يكن هنالك ألمان كثيرون مَن غادروا ألمانيا في عهد هتلر.

ف. ب.: لا، في الواقـع كانـوا قليلـين بكـلِّ معنـى الكلمـة. إذا مـا أخذتِ مدينتي، لوبيك، كمثال، ستجدين أنّ كثيرين منهم غادروا. وإنـه شيء واضـح إن معظمهـم تقريبـاً كانـوا أكـبر مني سنـاً. لماذا غـادرتُ ألمانيا؟ لأنني إذا مكثتُ هناك، كانـوا سيلقون القبض عليّ ويرسلونني إلى معسكر اعتقال. في أول الأمر لم تكن لي فرصة كبيرة للخـروج من البلاد. حتى لو لم أصبح منفيًّا، كان ينبغي لي أن أغادر لوبيـك. إلا أنني حتى لو لم أغادر لوبيـك لم أكن قادراً على الانتظام في الجامعة، وهذا عاملٌ مسـاهم في خروجي من البلاد. حين أنهيتُ دراستي، بدأتُ أعمل بصفة ممثل سمسـار، وكان عملاً ممتعاً طوال عام كامل. إلا أنني كنتُ أبغي دراسة التاريخ، وفي ألمانيا هتلر لم يعد ممكناً دراسة التاريخ. لذا ما أن نلتُ الفرصة...

ثمـة رجـل ينتمـي إلى مجموعتـي كـان مـن المفـترض أن يهرب إلى النرويـج ويفتـح مكتبـاً هناك للاهتـمام ببعض القضايـا المرتبطة بحركتنـا، حركة المقاومة. كان كلُّ شيء مرتباً لقارب صيد السـمك كـي يأخـذه عبر اليمّ، وهو يغادر من مكـان لا يبعد كثيراً عن المنزل الـذي أسكن فيه. كان يتعـين عليّ أن أقدّم له العـون وفعلتُ ذلك، لكـن سيّـان، فالرجـل لم يتمكن مـن الخـروج. أُلقي القبـض عليه

وأُرسل إلى معسـكر احتجاز. وبعدها سألني أصدقائي من برلين ما إذا أرغب بالذهاب بدلاً منه. وقبلتُ الدعوة. لم تكن لديَّ أيّ فكرة مـاذا يعني أن أمكـث بعيداً عن بلـدي مدةً طويلة جداً. أشـخاص كثـيرون كانوا يحسـبون أنّ النازية لن تدوم. قالوا اثني عشر شـهراً، أقـصى مدة أربعة أعـوام. لم أكن أنتمي إلى فريـق المتفائلين، إلا أنني خدعـتُ نفـسي بالاعتقاد أنها لن تـدوم أطول من (الحـرب العالمية الأولى). وبدلاً من ذلك دامت اثنتي عشرة سنة.

أ. ف.: تلك هي المسـألة، تلك الأعوام الاثنا عشر التي أمضيتَها في اسكندنافيا هي التي بسـببها وبخك خصومك في كثير من الأحيان. دعنـي إذاً أطرح عليك هذا السـؤال: هل أنـتَ نادم لأنك لم تشترك بشكل مباشر، أعني في ألمانيا نفسها، في النضال ضد النازية؟

ڤ. ب.: كشفت، في ذلك الوقت وبعده، أني كنتُ راغباً بالمخاطرة بحياتي كلّما تكون ثمة ضرورة. حتى عندما لم تكن هنالك ضرورة. رجعتُ سرًّا إلى ألمانيا هتلر. مكثتُ بضعة أشـهر، قبل أن أهرب من جديـد لأنهم كانوا يهمّـون بالقبض عليَّ. مضيتُ إلى السـويد، وإلى النرويج، التي كانت قد احتلها هتلر. ولذلك جازفت بحياتي. وإذا ما نظرتُ إلى سؤالكِ من وجهة نظر عقلانية، أقول إني لو مكثتُ في ألمانيـا بدلاً مـن أن أنفي نفسي، ربما لن تكون لي الفرص نفسـها كي أطـوّر وأجهز نفسي لما عملتُه في برلـين أو تالياً. أعني بشكل خاص تجـاربي الأوروبيـة والعالمية. للعلم، يلزمـكِ أن تدفعي ثمناً عن كلّ شيء. والثمـن الـذي دفعتُه كان مختلفـاً تماماً عن الثمـن الذي دفعه

السواد الأعظم من مواطني بلدي. إنه ثمن الذهاب إلى الخارج. نعم، إنه شيء صحيح أنّه بالنسبة لبعض الأشخاص بدت تلك طريقةً غريبة في الدفع، وبهذا الحُكم وفروا لخصومي الفرصة كي يشنُّوا حملةً ضدي. إلا أنني أقول لهؤلاء الأشخاص إنها غريبةٌ بالمثل بحيث أنّ عدداً غفيراً من الألمان يتعاطفون معي ويثقون بي. هل قلت غريبة؟ كان يتعيّن عليّ أن أقول «مدهشة». إنه شيء مُدهش أنّ عدداً غفيراً من الألمان يثقون في رجل كانت حياته مختلفة عن حياتهم. ليست أفضل من حياتهم. مختلفة ليس إلا.

أ. ف.: مستشار برانت، إني أعتقد أنه عند الحديث عن الثمن الذي دفعتَه فإنكَ تُشير كذلك إلى الحقيقة القائلة إنكَ كنتَ محروماً من جنسيتك الألمانية بعد نفيك. هل كان الأمر مُوجعاً بالنسبة لك أن تفقد جنسيتك الألمانية وتحصل على الجنسية النرويجية؟

ف. ب.: لا.

أ. ف.: لماذا؟ هل كنتَ تحب النرويج حبًّا جمًّا أصلاً؟

ف. ب.: نعم. لقد عَددتُ النرويج بلدي الثاني. لأنه حين يذهب المرء إلى خارج بلاده وهو شاب ويستقر في بلد يشعر فيه المرء بالراحة ويتعلّم التكلّم باللغة جيداً... تعلّمت النرويجية بسرعة شديدة، وتعلّمتها جيداً. قلتُ مراراً إني أكتب بالنرويجية أفضل بكثير من كتابتي بالألمانية. وهذا شيء صحيح، وحتى إذا لم يعد هذا صحيحاً اليوم. فضلاً عن ذلك، حين يصبح البلد الذي يضمكِ

هـو المكان الذي تعقدين فيـه الصداقات، حين تتشربين ثقافته حتى الجـذور، حـين يكون هذا كلّه سهلاً بالنسـبة إليك لأنـكِ أتيتِ من البلطيق... حسـناً، إنكِ تحسِّـين أنّ هذا يُبعدكِ عن مواطني بلادك، لكنك تحسِّـين أيضاً أنكِ اغتنيتِ بشيء ما كنتِ لتحصلي عليه عادةً. هـل أوضحتُ رأيـي؟ أعني إنكِ تبدئين بخسـارة بلـد وينتهي بكِ الحـال أن تجـدي بلداً آخر. وهذا ليس شـيئاً أكتشفه اليـوم، بما أنني اعترفـتُ دوماً أنه شيء صحيح. إبان الحرب كتبتُ في مقدمة كتاب نشرتُـه في السـويد، «أنا أعمل في الوقت عينه مـن أجل نرويج حرّة وألمانيـا ديمقراطية. هذا يعني أوروبا باستطاعة الأوربيين أن يُقيموا فيها». على أية حال، كي أتبنى الجنسـية النرويجية بالنسبة لي لا يعني أنني أتخلّى عن ألمانيا. أم يتعين عليَّ أن أقول «مفهومي عن ألمانيا».

أ. ف.: دعنـي إذاً أعكـس سؤالي السـابق. هل كـان مُوجعاً لك أن تفقد جنسيتك النرويجية كي تسترجع جنسيتك الألمانية؟

ف. ب.: لا. هنالك بلدان لا تُجابهكِ بخيار كهذا. لو أنني أصبحتُ مواطنـاً أمريكيًّا، لن أكون قادراً على إعادة جواز سفري، وفي أقصى الأحـوال يتعين علـيّ أن أحتفـظ بالجنسـيتين. في النرويج لا يحدث هـذا. فإما أن يكون المـرء مواطناً نرويجيًّـا أو لا. ولهذا أعدتُ جواز سفـري النرويجـي من دون أيّ ضجـة، كوني أعرف تمـام المعرفة أنّ جواز السـفر لا صلةَ له بمواقفـكِ أو ارتباطاتكِ. كنتُ أعرف أنني سأواصـل العـودة إلى النرويج، كـي أرى أصدقائـي وأتحدّث اللغة النرويجيـة، وباختصـار إنّ ارتباطـاتي هناك لن تنقطع لسـبب واحد

هـو جواز السـفر. أنـاس كُثـر بحوزتهم جـواز سفـر لا يتوافق مع جنسـيتهم، وإذا مـا سألتِني، «إذاً هل هـو شيء مهم أن تمتلك جواز سفـر؟» وسأجيبـكِ قائـلاً، إنـه شيءٌ مهـم أساساً من أجـل اجتياز الحـدود إلا إنّ مسـألة الوثائق هي مسـألة مُبالَـغ في تقديرها. الهوية الوطنية شيءٌ آخر.

أ. ف.: إذاً قضيـة البحث عـن (الهوية الوطنية)، البحث عن وطنكَ الأم، هي التي أعادتكَ إلى برلين بعد أن وضعت الحرب أوزارها؟

ف. ب.: لا. عُدتُ إلى ألمانيا كصحافي، في خريف العام 1945 وتالياً في العام 1946. رجعتُ كي أُغطي (مُحاكمات نوريمبرغ) وأرى قليلاً من البلد. طلبوا مني أن أتولّى تحرير جريدة أو خدمة أخبار في ألمانيا، إلا أنّـه لم يُسـفر شيء عن ذلك. ومـن ثم صديقي هالـوارد لانغه، في ذلـك الوقـت وزيـر الخارجيـة النرويجي، قـال لي، «إن لم ترجع إلى ألمانيـا في غضون سنـة، لِمَ لا تلتحق بـوزارتي وتذهب إلى باريس كجزء من السـفارة النرويجية هناك؟» إلا أننـي فيما كنتُ أهمّ بقبول دعوته، غيّر رأيه. «أنا ورئيس الوزراء نعتقد أنه من الأفضل لو أنكَ ذهبـتَ إلى برلـين بصفـة مُلحَق صحـافي، وتكون مهنتـك أن تزوّد الحكومة النرويجية بالمعلومات السـياسية والتقييمات». هكذا جرى الأمـر. ومن الجلي أنّ الحقيقة المتصلة بذهابي إلى برلين جعلتُ قضية تعاطفـي هـذه تصل إلى مرحلـة الانعطافـة. أو بالأحـرى، جعلتُها تصل إلى مرحلة الانعطافة أبكر بكثير من أيّ شيء يمكن أن يحصل لـو أنني ذهبـتُ إلى باريس. لو أننـي ذهبتُ إلى باريـس، فربما كنتُ

سألتحق بمنظمة عالمية. و، في الأقل على مدى أعوام قلائل...

أ. ف.:... كنتَ ستستمر بوصفك مواطناً نرويجيّاً.

ف. ب.: حسناً، نعم. في الأقل طوال مدة من الزمن على أية حال. لاحقاً ربما لا. في الحقيقة، لو أنني انتظرتُ مدة أطول، لن تكون هنالك حاجة إليّ كي أطالب بالجنسية الألمانية مُجدداً. بحسب بنود دستور العام 1949، كلّ ما ينبغي لي القيام به هو أن أكون أنا نفسي حاضراً في مكتب ما وأقول، «أنا هنا كي أستعيد جنسيتي التي صادرها مني النازيون». أنا، من الناحية الأخرى، طلبتُ أن أكون مواطناً ألمانيًّا ثانيةً قبل أن تُوجد هناك دولة ألمانية جديدة في ربيع العام 1948. أجل... تصوّري فقط، حكومة شليسڤيج هولشتاين [1] أعادت إليّ جنسيتي على ورقة كانت لا تزال تحمل الصليب المعقوف مطبوعاً عليها! أجل، أجل! كانوا فقراء جداً بحيث لم يكن لديهم استمارات رسمية جديدة. كان يتعين عليهم أن يشطبوا الصليب المعقوف بالخربشة عليه بالحبر. لا زلتُ أحتفظ بتلك الوثيقة في منزلي. احتفظتُ بها باعتبارها تذكاراً للطريقة التي رجعتُ بها كي أكون مواطناً ألمانيًّا.

أ. ف.: هذا شيءٌ مُسلٍّ. إلا أنني لا أستطيع أن أصدّق أنّ ما أعادكَ

---

(1) شليسڤيج هولشتاين Schleswig – Holestien: هي إحدى ولايات ألمانيا الست عشرة. هولشتاين تشكل الجزء الجنوبي من الولاية، بينما تشكل شليسفيج الجنوبية الجزء الشمالي. شليسفيج قُسمت العام 1920 إلى جزأين جنوبي وشمالي بين ألمانيا والدنمارك – م.

إلى ألمانيا هو فقط الفرصة وليس العاطفة.

ف. ب.: على الرغم من ذلك إنه شيء صحيح. لم يكن السبب هو الشيء العاطفي. لا، رجعتُ إلى برلين للسبب البسيط ألا وهو أنّ برلين مثيرة للاهتمام. كانت مركز الصراع بين (الشرق) و (الغرب). إنها المكان الذي يصلح لأن يكون هكذا. ومسألة أنّ هذا المكان سرّع في ذلك الوقت عملية تعاطفي هي مسألةٌ أخرى. وأنا لا أعني فقط مسألة تعاطف السياسي أعني عملية تعاطفي مع الناس الذين يعيشون في فقر، وفي هزيمة. كانت برلين كدساً من الخرائب، إنما من بين تلك الخرائب خرجت أفضل خصائص الشعب. نعم، إنها ظاهرة تحصل في كثير من الأحيان في أوقات عسيرة، إلا أنها مُدهشة على الدوام. أوه، معنويات البرلينيين لم تكن عالية جداً كما كانت عليه في الأعوام الأولى التي أعقبت الحرب. وحتى إبان الحصار الاقتصادي لم تكن عالية جداً البتة. ولهذا فإن مسألة تعاطفي...

أ. ف.: لكن ماذا تقصد بـ (التعاطف)؟ ماذا يسمون وطن المرء؟

ف. ب.: لا. لم يكن البلد هو الذي دفعتي للرجوع. إنها حالة شعب، مرّ بحقبة دكتاتورية وحرب ودمار، وكان أبناء هذا الشعب هؤلاء يسعون إلى أن يبنوا لأنفسهم من جديد حياةً مستندة إلى الحرية. نعم، هذا الأمر تحديداً هو الذي حثني لأن أصبح مواطناً ألمانيًّا من جديد. إنه التصميم الرائع على العمل، هذا التصميم الذي يسكن في داخل كلّ فرد من أفراد الشعب، إنها تلك المقدرة على إنجاز شيء ما، تلك الرغبة في أن يساعد كلّ واحد منا الآخر...

وهي رغبةٌ فقدناها لمّا غدونا أثرياء... إنها ماثلة في الجو، مثل شعور أنّ الناس جميعاً يساندون ويساعدون أحدهم الآخر من أجل أن يفعلوا شيئاً ما على الرغم من البؤس الاقتصادي. هل تفهمين ما أعنيه؟ إنها مسألة قيم إنسانية وأخلاقية بدلاً من كونها حقيقة قومية. كلّما فكرتُ فيها أكثر، أكون مقتنعاً أكثر أنّ تلك الأعوام في برلين هي التي غرست في داخلي فكرة (أوروبا). أو بالأحرى، فكرة (مستقبل أوروبا).

أ. ف.: إني أتساءل على الدوام، مستشار برانت، ما إذا في فؤادك، أو بالأحرى في عقلك، أنكَ لستَ أوروبيًّا أكثر من كونك ألمانيًّا.

ف. ب.: طيب... ستكون مُبالغة إذا ما توقَّعنا مستشاراً ألمانيًّا يكاد يبلغ الستين من عمره أن يعترف بذلك. بخاصة إذا عرفنا أنّ أوروبا لم تتحرّك بقدر ما كان يجب عليها أن تفعل. لا، لا يُمكنكِ أن تطلبي مني أن أحس وأتصرف كأوروبي أكثر من كوني ألمانيًّا. لا ينبغي للمرء أن يطلب مني أن أُعطي ذلك الانطباع. دعيني إذاً أقل أحاول أن أكون أوربيًّا صالحاً حين أضطلع بمسؤوليات مواطن ألماني. وكي أُجيب على سؤالكِ: لا، أنا ألماني.

أ. ف.: فهمت. لكن بعدها أنا أفكر في زيارتك لحي اليهود في وارسو دعني أسألك: إلى أيّ مدى عُقدة الذنب التي يحملها جيلك مقرونةً بكلمة (ألماني) تُثقل كاهلك؟

ف. ب.: لقد ميّزتُ بين الذنب والمسؤولية. أنا نفسي لا أحس بأني

مُذنب، أعتقد أنه ليس شيئاً عادلاً ولا صائباً أن أعزو عُقدة ذنب كهذه إلى شعبي أو إلى جيلي. الذنب شيءٌ يُعزى إلى فرد ولا يُعزى مُطلقاً إلى شعب أو جيل ما. أما المسؤولية فشيءٌ آخر. ومع أنني غادرتُ ألمانيا في وقت باكر جداً، مع أنني لم أكن قط داعماً لهتلر كي أعبّر باعتدال لا يُمكنني أن أعفي نفسي من مسؤولية معينة. أو المسؤولية المشتركة. نعم، حتى إذا فصلتُ نفسي عن شعبي، مع ذلك أظل أحس أني مسؤول مسؤولية مشتركة عن مجيء هتلر. في الحقيقة، علينا أن نسأل أنفسنا: لماذا تبوأ سدّة الحُكم؟ ولا يُمكننا سوى أن نُجيب: لا لأن ملايين الأشخاص كانوا مجانين بما يكفي كي يتبعوه، إنما أيضاً لأن الآخرين كانوا غير قادرين على إيقافه. بطبيعة الحال، كنتُ في مقتبل العمر في ذلك الحين. وعلى الرغم من ذلك أنا أيضاً أنتمي إلى تلك المجموعة من الأشخاص ممَن كانوا غير قادرين على الوقوف بوجهه.

في حياة الشعب، أيِّ شعب، اللحظة الحاسمة تحدث حين يسمح الشعب للسلطة بأن تنتهي في أيدي مجرمين. وكذلك حين لا يستعملها الشعب، وكانت لديه الفرصة، كي يحافظ على الشروط الضرورية لحكومة مسؤولة. لأنه لاحقاً لا يُمكنكِ أن تفعلي أيّ شيء. بعد ذلك يصبح الأمر أصعب فأصعب أن ترمي خارجاً المُجرمين الذين سيطروا على السلطة. الخلاصة، كما أراها، المسؤولية المشتركة تبدأ قبلها وتنتهي بعدها. وحتى الشبيبة، لسوء الحظ، يجدون هذه المسؤولية المشتركة على كواهلهم. لا بالدرجة

ذاتها على غرار آبائهم، لكن... لقد ذكرتِ وارسو...

أ. ف.: لماذا ركعتَ في وارسو، مستشار برانت؟

ف. ب.: لم أركع لأني أمتلك ذنباً كي أعترف به، بل لأني أردتُ أن أتعاطف مع شعبي. أعني مع الشعب الذين ظهر منهم أولئك الأشخاص الذين ارتكبوا أشياءَ فظيعة كهذه. لم تكن الإيماءة موجهة إلى البولنديين. كانت موجهة إلى الألمان. كلُّ شخص يحسب أني كنتُ فقط أستعطف ضحايا النازية وعائلاتهم مُخطئٌ. كنتُ أستعطف أيضاً وأساساً شعبي. لأن كثيرين منهم، كثيرين جداً، كانوا بأمس الحاجة إلى أن لا يحسوا بالوحدة وكي يعرفوا أنه يتعين علينا أن نحمل هذا العبء معا.

أ. ف.: مستشار برانت، هل قررت القيام بتلك الإيماءة فجأةً ومن دون تخطيط مُسبق، أو أنك أصلاً فكرتَ بها في وقت سابق؟

ف. ب.: لم أفكر بها سابقاً، لكن كيف يتسنى لنا أن نعرف ماذا كان يخطر ببال لا وعينا؟ كانت الفكرة بالتأكيد في لا وعيي سابقاً، لأنه، على ما أتذكر، نهضتُ من النوم في صبيحة ذلك اليوم ينتابني شعور غريب مفاده أني لم أذهب إلى مكان ما وبيدي إكليل زهور ودعني أفعل هذا. رأيتُ على البديهة أنّ شيئاً آخر سوف يحصل. مع أنني لم أكن أعرف ما هو هذا الشيء. وبعدها على حين غرّة أحسستُ بالحاجة إلى أن أرمي نفسي على ركبتيّ.

أ. ف.: وفي ياد ڤاشيم [1]، خلال رحلتك الأخيرة إلى إسرائيل؟ إيماءتك في ياد ڤاشيم لا يمكن أن تكون قد قررتها في اللحظة الأخيرة.

ف. ب.: إنكِ مُحقة. قبل الذهاب إلى إسرائيل، فكرتُ طويلاً بشأن ما يُمكنني القيام به. سمعتُ أنهم يطلقون اسم «ياد ڤاشيم «على «مكان الحقيقة»، الحقيقة المروِّعة وراء كلّ ما يستطيع أن يتصوّره العقل البشري. وأردتُ أن أُعطي مادة ما لهذه الحقيقة، لأن... أوشڤيتز كشفت أنّ الجحيم موجود على الأرض. يبدو لي أنني قلتُ ذلك سابقاً في وارسو. كنتُ أعرف ما يحدث في ألمانيا. كنتُ أعرف عن أوشفيتز قبل معظم الساكنين في داخل أو خارج ألمانيا.

لذا بينما كنتُ أستعد لرحلتي إلى إسرائيل، ذلك الشعور بالمسؤولية المشتركة الذي حاولتُ أن أشرحه لكِ استولى عليَّ ثانية. و، كما في وارسو، حدّثتُ نفسي أنني لن أكون قادراً على أن أحدد نفسي بأن أضع إكليلاً من الزهور وعلى وجهي يلوح تعبيرٌ متحجر أو عاطفي. ما أن واجهني ما حصل، كان يتعين عليّ أن أتفاعل بطريقة معينة تجاه عُقمي. هل تفهمين؟ كنتُ أريد أن أفعل شيئاً ما. لم أشأ أن أبقى خاملاً. ظللتُ أحدِّث نفسي: يجب أن

---

(1) ياد ڤاشيم Yad Vashem: النُصب التذكاري الرسمي الإسرائيلي لضحايا الهولوكوست. هذا النُصب مُكرّس لحفظ ذكرى الموتى، تشريفاً لليهود الذين ناضلوا ضد المُضطهِدين النازيين. «ياد ڤاشيم» تعنيان حرفيًّا «نُصب واسم»، وردا بالعبرية في النص الإنكليزي. تم إنشاؤه في العام 1953 على السفح الغربي لجبل هيرزي، غرب القدس/ أورشليم، وبالقرب من «غابة القدس»– م.

تكـون هنالك فعلاً إيماءة ما يُمكنني القيـام بها من أجل خير الألمان واليهود، إيماءة تفتح الطريق نحو المستقبل. أوه، لم أشـأ أن أتحدَّث باستخفـاف عـن المصالحة هـذا الأمر لا يعتمـد عليَّ. غـير أنّ الحلّ الـذي وجدتُه بدا لي هـو الحلّ الصحيح لأننا نملك شيئاً مهمًّا بكلِّ معنى الكلمة بالاشـتراك مع الشعب اليهـودي (الكتاب المقدّس). أو في الأقـل (العهد القديم). ولهذا السـبب قـررتُ أن أقرأ المزمور 103، الآيـات السـابعة إلى السـادسة عـشرة: «سـوف يهربـون إزاء تهديداتـك؛ سوف يخافون لدى سماعهـم صوتك»... عقدتُ العزم عـلى أن أقرأهـا بالألمانية، بلغـة مارتن لوثر. بعـض التعابير يصعب فهمها، على أية حال. بالأخص بالنسبة للشبيبة. لذا، فيما كنتُ أطير إلى تـل أبيب، درستُ النص وعقدتُ مقارنـة ترجمة مارتن لوثر مع النسـخة اليهودية للكلـمات ذاتها بالألمانية. حافظـتُ تقريباً على كلّ تعابـير مارتن لوثـر الشاعرية وأضفتُ عبارات قليلـة من «الكتاب المقـدس العِـبري». أعتقـد أنّ الإسرائيليين فهموا مـا كنتُ أروم أن أفعله. وعلى هذا الأمر أنا ممتن لهم دوماً.

أ. ف.: كنـتَ متلهِّفـاً جداً للقيام بتلك الرحلـة إلى إسرائيل، أليس كذلك؟ ربما أكثر من رحلتك إلى وارسو.

ف. ب.: إنـه سؤال ذو جانبين مختلفـين، بما أنني لا أعـرف أحداً في وارسـو وكلّ شيء كان جديداً بالنسـبة لي. من الجانـب الآخر، كنتُ قـد زرتُ إسرائيل سابقاً في العـام 1960 بوصفي رئيس بلدية برلين؛

هنـاك قابلتُ حتى بن غوريون [1] وإشـكول. وفي ذلـك الحين رأيتُ غولـدا مائـير مرات عـدّة في مؤتمـرات الحـزب الاشـتراكي العالمي. لكـن... إنـه شيء صحيح، كنتُ مُتلهِّفاً للقيـام بالرحلة في حزيران/ يونيو الفائت؛ لأني ذهبتُ إلى هناك بوصفي ممثلاً عن بلدي وشعبي. خلاصة القول، ليس باعتباري ڤيلي برانت بل كممثل لألمانيا جديدة. وكي أعبّر بصورة أفضل، القدس/ أورشليم لم تكن هي أول أو آخر مواجهتـي مـع المـاضي. في حقيقة الأمـر، سأذهب أيضـاً إلى ليدتسي [2] لّمـا أزور تشيكوسلوڤاكيـا. القدس/ أورشـليم، على أية حال، هي المحطة الأهـم المحطة التي عبّرت بنحو أكمل عن أيامنا المظلمة. إنها تُمثّل اعترافنا بمسـؤولياتنا بوصفنا ألمانيين؛ إنها تذكّرنا بأنّ لا شيءَ مما فعلناه يجب أن يُنسى أو يُجرف تحت السجادة. لا، لا ينبغي أن يحصل

(1) بن غوريون Ben – Gorion (1886 – 1973): أوّل رئيس وزراء لإسرائيل، وهو مـن أصـل بولندي. كان بن غوريون من طلائع الحركـة العمّالية الصهيونية في مرحلة تأسيـس إسرائيل. وخلال فترة رئاسته لمجلس الـوزراء الإسرائيلي الممتد من 1948 – 1963 (باستثناء المدة بين 1953 و 1955) فقد قاد بن غوريون إسرائيل في حرب 1948 التي يُطلق عليها الإسرائيليون «حرب الاستقلال». ويعد بن غوريون من المؤسسـين لـ «حزب العمـل» الإسرائيلي الذي تبوّأ رئاسة الـوزراء الإسرائيلية مدة 30 عاماً منذ تأسيس إسرائيل – م.

(2) ليدتسي Lidice: قريـة في غـرب جمهورية التشيـك، بأمر من أدولـف هتلر وقائد قـوات الـ SS هينريش هملر، دُمرت عن بكرة أبيها، انتقاماً لاغتيال ضابط نازي رفيع المستوى في ربيع العام 1942، وفي 10 حزيران/ يونيو من العام نفسه أُعدم 173 رجلاً مـن القرية ممَـن تزيد أعمارهم عن 15 عاماً، وبعدها 11 رجـلاً ممَن لم يكونوا حاضرين في وقتهـا، أُعتقلوا وأُعدموا بعد ذلـك مباشرة، كما تم ترحيل 184 امرأة و88 طفلاً إلى معسكرات الاحتجاز – م.

هـذا.... لا لأنه لا يوجد شيء يُمكن الاعـتراف به، حاليًّا. حاليًّا كلُّ شيء معـروف. إنـما كـي نتعرّف عـلى مسـؤولياتنا... حسـناً، هذا لا يخدم فقط في تطهير ضميرنا بل يسـاعدنا عـلى العيش سوية. اليهود، الـپولنديين، الألمان. بما إنه يتعين علينا أن نعيش سوية.

أ. ف.: مـع ذلـك غولـدا مائـير، حين حاورتُهـا في تشريـن الثاني/ نوفمبر المنصرم، قالت لي إن قدمها لن تطأ أرض ألمانيا أبدًا.

ڤ. ب.: أعـرف هـذا. قالت ذلك للآخرين أيضاً. ولا يسـعني أن ألومها على ذلك. على الرغم من ذلك دعوتُها رسميًّا، قبلت الدعوة معاً سرًّا وعلانية، وأتمنى أن تأتي. أنا حقيقةً أتمنى هذا. إني متيقن أنها مستعدة للمجيء، وأود أن أعتقد أنّ زيارتي لإسرائيل ربما ساعدت في أن تجعل فكرة أن تطأ قدمها أرض ألمانيا أسهل قليلاً بالنسـبة لها. غولـدا امرأة عظيمـة. امرأة باهرة. امرأة ذات منزلـة توراتية تقريباً. وسائر الناس يعرفون ميزاتها، والأشـخاص عتيقو الطراز وحدهم الذين يسمونها ميزات ذكورية. قوتها قوةٌ فولاذية، على سبيل المثال، دهاؤهـا. تلك المواهب لا هي مواهب ذكوريـة ولا أنثوية إنها مجرّد مواهب، هذا هو كلّ شيء. وبعدئذ غولدا تمتلك دفئاً إنسانيًّا بالغاً... أقول إنها ستأتي.

أ. ف.: هـذا الإيـمان يُعطي صورة جيدة جـداً لـڤيلي برانت. وإذا ما تكلّمنـا عـن الإيمان، أود أن أتنـاول ثانيةً موضوعاً قلّـما تكلّمنا عنه بإيجاز، إنما لا يستطيع المرء أن يتحاشى الدخول إليه معك: أوروبا. مسـتشار برانت، بدوتَ ضعيف الهمّـة لّما أشرتَ إليها قبل قليل. ألم

يحصل سابقاً أن ساورك الشك بأنّ (أوروبا موحَّدة) هي يوتوبيا؟

ف. ب.: لا. يُمكن أن تتحقق (أوروبا موحَّدة). إنها تتحقق الآن. يقيناً إنها لم تنشأ ولن تنشأ بالطريقة التي فكر بها أصدقاؤنا الأمريكيون بعد (الحرب العالمية الثانية) حين تحدّثوا عن (ولايات متحدة) من (أوروبا). اقترف الأمريكيون خطأ مقارنة احتمالات توحيد أوروبا مع ما حدث في (الولايات المتحدة). إنها مقارنة عديمة المعنى. (الولايات المتحدة) قِدر صهر حقائقُه مختلفة تماماً عن حقائقنا، وكي نخلق أوروبا هو شيء مختلف تمام الاختلاف. كي نخلق أوروبا يعني أن نحافظ على قيم الهوية القومية ومن ثم نبني فوقها بُنية حكومة أوروبية. ومع أنها بطيئة جداً، لسوء الحظ، مع أنها لسوء الحظ، إذا صح التعبير، لا تمتلك إغراءً جنسيًّا سياسيًّا، مع أنها تتضمن عقبات التدابير البيروقراطية، أليس هذا، ربما، هو ما يحدث؟ ألا يتحرّك الناس بحرية في أوروبا؟ ألا يوجد مستوى من التجارة من النوع الذي لم يسبق أن كان بحوزتنا في أوروبا؟ لكن بطبيعة الحال أوروبا تتحقق الآن! أنا مقتنع بها أكثر فأكثر كلّما أقارن (المجموعة الأوروبية) في يومنا هذا مع تلك التي كانت قبل أربعة أو خمسة أعوام خلت.

أ. ف.: لكن الـ أوروبا التي نسميها أوروبا هي أوروبا شديدة الصغر، مستشار برانت! إنها حتى ليست نصف أوروبا!

ف. ب.: أنظري، كنتُ سأفرح كثيراً لو إننا تمكنا من بناء (ولايات متحدة) من (أوروبا). لو كان باستطاعتي أنا شخصيًّا أن أختار

بـين أوروبـا موحَّدة كليًّا وجزء من أوروبـا موحَّد، لا حاجة للقول إننـي سأختار الأولى. إلا أنها ليسـت ممكنة نحن لسـنا في وضع كي نكـون قادرين على الاختيـار بين حلّ ناقص وحـلّ أكثر من كامل. يتعـين علينـا أن نعمـل عـلى أوروبا مقسـمة على اثنـين، وحتى على ثلاثـة. علينا أن نعمـل على (أوروبا غربيـة)، أي، أوروبا قادرة على التحـرّك للأمام نحو هيكل لحكومة مشتركـة. وبعدها، عبر سياسة الانفـراج التـي بـدأت أصـلاً، يتعـين علينـا أن نزيد الاتصـال بين (أوروبـا الشرقيـة) و (أوروبا الغربية) على الرغـم من الاختلافات الموجـودة بـين نظامهم الاجتماعـي ونظامنا، بـين بُنيتهم السـياسية وبُنيتنا. أوه، إذا تسنى لشخصٍ ما أن يُعطيني طريقة لتوحيد شيء ما أكثـر من (أوروبا الغربية)، سأقول، رائع، مُذهل، شـكري الجزيل. إلا أنـه شيء غير مُمكن، إنه شيء غير مُمكـن. زيادة على ذلك، توجد هنالـك تلك الحقيقة الحاضرة التي أُسميهـا (البُعد الثالث): أوروبا زائداً (الولايات المتحـدة). (الولايات المتحدة) باعتبارها جزءاً من أوروبا في منطقة الأمن...

أ. ف.: أنـتَ إذاً لا تفكر في أوروبـا حيادية، قادرة على تمثيل توازن بين القوتين العظيمتين؟

ف. ب.: لا. لـن أنظـر إلى أوروبـا كقـوة موضوعـة بـين القوتـين العالميتـين. بصرف النظر عن الحقيقة القائلة إنه حين يتكلّم المرء عن القـوى العالمية، يتعـين على المرء ألا يتكلّم عـن قوتين بل عن ثلاث قـوى، وبعدها يتعـين على المـرء أن يتكلّم عن أوروبـا بوصفها قوة

رابعـة، ويضيف قوة خامسـة اليابـان.... بغض النظر عـن الحقيقة القائلـة إنـه إذا تحدّثنا عن أوروبا باعتبارها قـوة رابعة لن يكون هذا حديثـاً دقيقاً، بـما إنه إذا ما بـدأت أوروبا موحَّـدة بالتجارة، سوف تصبـح القـوى الاقتصادية الأولى في العـالم... لا، لا أريد أن أُعطي الانطبـاع بـأني أسعـى إلى أوروبـا تحافـظ على سياسـة الحيـاد بإزاء الكتلتـين الممثلتـين بأمريكـا و(الاتحـاد السـوڤييتي). بطبيعة الحال أُريد علاقة مختلفة مـع (الولايات المتحدة) مقارنة بتلك العلاقة مع (الاتحاد السـوڤييتي). مع (الولايات المتحدة) أُريد شراكة، مع أنني في الوقت عينه أُريد سياسة مستقلة. الأكثر من ذلك أعتقد أنه حتى (الولايـات المتحدة) تُريد أن ترانا نتصرَّف بطريقة أنضج مما تصرّفنا حتى الآن.

أ. ف.: لكـن عندئـذ... إعـادة توحيد ألمانيا؟ الأشـياء بـما هي عليه الآن، هل تعتقد أنك سترى إعادة توحيد ألمانيا؟

ف. ب.: لا. لا أعتقـد هـذا. أنظـري، في وقـت قريـب سأصبح في الستين من عمري، كما أخبرتُك آنفاً. وأنا لا أتوقع أن أصبح رجلاً مُسـنًّا جـداً[1]. ربـما، إذا توقعتُ فعـلًا أن أصبح رجلًا مُسـنًّا جداً، سيكـون جوابي إيجابيًّا أكثر. لأنه يلزمنـي أن أصل في الأقل إلى سنِّ المائة والثلاثين عاماً، على غرار بعض مُسني القوقاز، كي أرى إعادة توحيـد ألمانيـا. لن أتوقَّع حتى خـلال عشرين أو خمسـين عاماً حلًّا

(1) رجل مُسن جداً: في النص الانكليزي ورد اسم Methuselah، وهو أب توراتي عاش 969 سنة، مذكور في الديانات اليهودية، المسيحية والإسلام. وهو حفيد نوح – م.

انفراديًّا للمشكلة الألمانية. لا، لا يُمكنني أن أتخيّل حلًّا إنفراديًا للمشكلة الألمانية. في اعتقادي إن تغيراً في العلاقات بين الألمانيتين لن يحصل إلا نتيجة تغيير في العلاقات بين الأوروبيتين. إذاً أنظري، إنني لن أُعطيكِ جواباً متفائلاً، لكنني أُعطيكِ جواباً يحتوي على إمكانية أن تحلّ أوروبا، ربما، مسألة الانقسام بين الألمانيتين. لكن انتبهي إلى كلماتي: إذا كان يجب أن يحصل هذا، لا أنوي أن أقول إننا سوف نعود إلى تشكيل دولة ألمانيا واحدة. أنوي أن أقول إن شعب الألمانيتين سوف يقررون أن يعيشوا علاقة مختلفة، تحت سقف مختلف عن ذلك السقف الذي عاشوا تحته منذ نهاية (الحرب العالمية الثانية).

أ. ف.: مستشار برانت، حين تتحدّث عن (أوروبا الغربية)، إنك تُشير بنحو جليّ إلى أوروبا موحَّدة سياسيًّا. لكن ماذا يعني هذا التعبير بالنسبة إليك؟

ف. ب.: إنه يعني ثلاثة أشياء. لأنه توجد ثلاثة أشياء ينبغي أن تُنجز. الشيء الأول هو التكامل الاقتصادي. غير أنّ هذا الأمر يجري أصلاً، بما أنني أعتقد أننا نمضي قُدُماً نحو نظام مالي مُشترك. لا بمعنى أننا بالضرورة نستعمل النقود نفسها، بل بمعنى أنه ستكون هنالك علاقة مستقرة بين عملاتنا النقدية. نعم، نعم، بطريقةٍ ما سوف نتوصَّل إلى شكلٍ ما من (بنك أوروبي مشترك)؛ بطريقة ما سوف نتوصَّل إلى توحيد اقتصادي ومالي.

الشيء الثاني هو ما أسميه التوحيد الاجتماعي الأوروبي. ولمّا

أقول «التوحيد الاجتماعي»، فأنا لا أُشير إلا إلى سياسة اجتماعية بالمعنى القديم للكلمة، المعنى الذي يستعمله المؤيدون للاتحاد التجاري، وهلمّ جرًّا. هذا الشيء مهم أيضاً، إلا أنني أقصد بـ (التوحيد الاجتماعي) ما يسميه شعار حديث «طبيعة الحياة». بكلمات أخرى، أنا لا أُشير فقط إلى زيادة في الإنتاجية، بما إنّ أيّ زيادة في الإنتاجية ليست هدفاً بحدٍّ ذاتها. أنا أُشير إلى مشاكل البيئة، ظروف العمل، التعليم.... ينبغي للمرء أن يكون طموحاً باعتدال كي يُنجز في غضون عشرة أعوام (أوروبا غربية) موحَّدة تكون اجتماعيًّا أكثر جزء مُتقدّم من العالم. عشرة أعوام مدة كافية؛ في غضون عشرة أعوام يُمكننا أن نفعل هذا. ومن ثم بالطبع سنكون قادرين على التوصُّل إلى بُنية سياسية مُشتركة، بما أنّ هذا لا يُمكن أن يُوجد من دون تكامل اقتصادي وتوحيد اجتماعي. أما الشيء الثالث فهو أن نحافظ على هوياتنا القومية. ستحل البلية إذا ما تخلّينا عنها.

أ. ف.: نعم، لكن في (أوروبا الغربية) الرائعة هذه التي تسعى إليها، ماذا نفعل إزاء البلدان غير الديمقراطية؟ ماذا نفعل، على سبيل المثال، إزاء إسبانيا واليونان؟

ف. ب.: من الواضح أنه ما من بلد يُمكن أن يصبح عضواً في (المجموعة الأوروبية) إن لم يستند إلى المؤسسات التي نمتلكها. أي بمعنى حكومة أو برلمان يختارهما الشعب، الاتحادات التجارية، وما إلى ذلك. من الواضح أنه إن لم يتقيّد البلد، أيُّ بلد، بالحد الأدنى من احترام (إعلان حقوق الإنسان)، لا يُمكن أن يصبح جزءاً من

أوروبـا العائدة لنا. لذلك فهي مشكلة كـبرى. والأكثر من ذلك ما تعلّمتُـه من تجربتي هو إنكِ تقريباً لا تنجحين في إعادة الحرية في بلدٍ فقدها أصلاً. إذا نجحتِ فعلاً، فإنّ هذا يحدث دوماً نتيجة لحرب ما قلما يحدث أنّ يجد بلدٌ اضطهدته الدكتاتورية طريقاً لتحرير نفسه من دون حرب. أحاديث وأفعال الآخرين تساعد حتى أقل في تحريره. مقاطعـة مُنتجاتـه، على سبيـل المثـال.... رفض الذهـاب إلى هناك لقضـاء الإجـازات.... هذه الأشـياء لن تنفع فتيـلا. إلا أنّ التاريخ يمتلـك دومـاً تطورات جديدة يحتفـظ بها للاستعـمال عند الحاجة، وغالباً تطوّرات مُقنِعة.

لنأخـذ إسبانيـا. عرفتُ إسبانيا إبّان (الحـرب الأهلية)، لمّا كنتُ في مقتبـل العمر ذهبـتُ إلى هناك كصحافي. مكثـتُ هناك نحو ستة أشـهر، بخاصة في برشلونة وكاتالونيا، وأتذكر البغضاء الهائلة التي قسّمت الجانبين. أتذكر الفقر الذي لا يُصدّق الذي يطحن الريفيين. منـذ ذلك الحين لم أرجع إلى هناك إلا مـرة واحدة، كي أقضي إجازة في إحـدى الجزر، ومرة أخرى أمضيتُ نصف يوم. هذا حين ذهبتُ إلى (الولايـات المتحدة) بالباخرة. ركبتُ الباخرة من نابولي وتوقفنا نصـف يـوم في (مالاغا)، حيـث تمشيتُ هنـاك قليلاً. حسـناً... لا يُمكنكِ أن تقولي أشـياءَ كثيرة من خلال المكان، غير أنّ ما شـاهدتُه بـدا لي تطوّراً استثنائيًّا. لم تعد تلـك إسبانيا التي عرفتُها في ماضيات الأيـام. لذلـك لن أنبهـر إذا تمكنت إسبانيا، خلال جيـل واحد، أن

تحـوّل نفسـها وتدخـل إلى (المجموعـة الأوروبية). مـن الممكن أن يحصل هذا من خلال عملية نموٍّ.

أ. ف.: وماذا عن اليونان؟

ف. ب.: أوه، إنّ حالـة اليونـان معقـدة أكثـر. حـين نتحـدّث عن اليونـان، يجب علينا ألا ننسـى أنّ الأشـياء ليسـت بسـيطة كما يصر أصدقاؤنـا اليونانيـون حـين يقولـون إنه حتـى العـام 1967 كانت هنالـك ديمقراطيـة باهـرة في اليونـان ديمقراطية باهـرة بحيث أنه عـلى حـين غـرّة أصبحـت دكتاتوريـة عسـكرية. زرتُ اليونـان في العـام 1960، حـين كـان كارامانليس رئيـس الـوزراء، وقابلـتُ كانيلوپولـوس، وهو اليـوم ذو موقف جـريء في المعارضة. آ، نعم إنـه رجلٌ رائـع، كانيلوپولوس هـذا. لديه ارتباطات قويـة بالثقافة الألمانيـة أيضـاً. أنا وهو بقينا عـلى اتصال دائم إبان هـذه الأعوام لمّا تعـيّن عليه أن يواجه مصاعب كثـيرة جداً.... إلا أنّ الحقيقة هي أن مؤتمـري الصحفي في أثينا كان مختلفـاً كثيراً عن تلك المؤتمرات التي عقدتُهـا في أصقاع أخـرى من العالم. وهو بالأحرى شـبيه، يُمكنني القـول، بتلك المؤتمرات التـي عقدتُها في البلـدان ذات الديمقراطية المحدودة. لذا ليس من السـهل أن تخمّني ماذا سيحصل في اليونان. كـلُّ مـا أتمناه هو أنّ تكون قوى الحرية والمسـتقبل قويـةً بما يكفي في ذلك البلد. لأنهم، إذا كانوا هكذا، فمما لا شـك فيه أنهم سيجدون أصدقاءَ كثيرين خارج بلادهم. تبقى الحقيقة، على أية حال، أنكِ لا تسـتعيدين الحرية بواسطة الأسلحة. الأسلحة تخدم في حالة الحرب

فقـط. إلا أنني أعتقد أنّ الشعب اليوناني، إذا شـاؤوا، باستطاعتهم أن يسـترجعوا حريتهـم. باستطاعتهـم إذا طرأ وضـعٌ جديد. حتى من دون أسلحة. وبعدها حتى المسـاعدة التـي بوسع أصدقائهم في الخارج أن يكونوا قادرين على تقديمها إليهم ستكون نافعة.

أ. ف.: جيد. والآن دعنا نرجع إلى ڤيلي برانت. لقد ابتعدنا قليلاً عن ڤيلي برانت، و... مسـتشار، لا أستطيع أن أتمالك نفسي من أن أفكر بأنك لستَ سوى صحافي. كنتَ صحافيًّا على مدى ردح طويل من الزمن. ماذا كانت الصحافة بالنسبة لك؟

ڤ. ب.: أنظري، بالنسـبة لي كانت ببسـاطة طريقة لكسب الرزق. كانت الكتابة سهلة بالنسبة لي باشرتُ بالكتابة لمّا انتظمتُ في المدرسة. كـي أدفـع نفقات دراساتي، عملـتُ لصالح جريـدة في لوبيك، وفي حقيقـة الأمر لمّا تخرجتُ في مدرستي، كتبوا على شـهادتي المدرسية، «سـوف يصبح صحافيًّا». لم أكن أرغب أن يكتبوا «صحافيًّا»؛ كنتُ أريدهـم أن يكتبـوا «Zeitungs–Schreiber» «كاتـب للجرائـد». كنتُ اشتراكيًّا يساريًّا شاباً ورفضتُ استعمال كلمات أجنبية في اللغة الألمانية. إلا أنهم لم يسـتمعوا إليَّ وكتبوا «صحافيًّا». على كلِّ حال لم تكن لديَّ أيُّ شكوك، منذ صباي، بأني في يوم ما سأصبح صحافيًّا. حتى دراسة التاريخ كانت شيئاً أردتُ أن أنجزه كي أغدو صحافيًّا. وحـين فكرتُ كيف يتعـين عليّ أن أنظم حياتي، كنتُ أصل دوماً إلى ذلـك الاستنتـاج. كان حلمي هو أن أصبح محـرراً في جريدة لوبيك اليومية ومن ثم ممثل الرايخشتاغ في برلين.

أ. ف.: إذاً كان هدفك النهائي هو السياسة، وليس الصحافة.

ف. ب.: دعينا نقُل «الصحافة السياسية» إضافة إلى «السياسة».

أ. ف.: السياسة أو السلطة؟ في مكانٍ ما قرأتُ جملةً من المفترض أنكَ قلتَها حين كنتَ رئيس بلدية برلين: «السلطة هي الطريقة الوحيدة لأن تفعل شيئاً ملموساً».

ف. ب.: لا أتذكر على وجه الدقة، لكن لا بدَّ أنني قلتُ شيئاً كهذا. قلتُ ذلك في أثناء نقاش ودِّي مع زوجتي، التي كانت تخشى من أنّ السلطة هي مسؤولية شديدة الأهمية. السلطة... أنا لا أحب كلمة «السلطة». إنها كلمة تؤدي إلى حصول حالات سوء الفهم. في حالتي، أفضّل استعمال كلمة «تأثير». لكن دعينا نمضِ قُدُماً ونقول «سلطة «كي نوضح أننا نقصدها بالمعنى الجيد. حسناً، من الواضح أنه كي ينجز المرء شيئاً ما، يتعين عليكِ أن تكوني في مركز ما كي تنجزي شيئاً معيناً. وليس بالضرورة أن يكون هذا المركز هو رئيس الدولة، مع إنكِ تستطيعين أن تقومي بأشياء كثيرة بوصفكِ رئيسة دولة. شريطة.... شريطة أن تبقي هكذا على مدى حقبة زمنية معينة.

أ. ف.: لقد بقيتَ هكذا، وأنكَ مستعد لأن تبقى هناك على مدى مدة جيدة من الزمن. لذا أنا أسألك: ما هو، ما هو هدفك؟ لماذا كنتَ تريد السلطة؟

ف. ب.: في داخل البلاد، كي تحققي أسلوب حياة أكثر حداثة. أعني مستوىً أعلى من الديمقرطة والتوازن الاجتماعي. قلت

«التوازن الاجتماعي «لا «المساواة الاجتماعية». في الخارج، كي أُظهِر بأن بلدي يمكن أن تكون له علاقات حسن حوار مع «الشرق» و «الغرب «على السواء. ربما يجدر بي أن أقول إنني كنتُ مهتمًا بأن أُعطي ألمانيا سياسة خارجية، لأن ألمانيا ليس لديها سياسة خارجية. إلا أنه شيء سيِّئ أن نعبّر عن ذلك بهذا الأسلوب، بما أنّ هذا لا يفسر أنّ سياستنا الخارجية لا تزال في المقام الأول هي سياسة ألمانيا مُقسمة، وثانياً سياسة ألمانيا التي مزقها الاحتلال. لذا سيكون من الأصح أن أقول إني كنتُ توّاقاً لأن أجعل ألمانيا مستقرة وراسخة في سياق أوروبي، وذات علاقات ودية في الداخل[1] والخارج.

أ. ف.: أعتقد أنكَ تنوّه في المقام الأول إلى سياستك، سياسة «الأوستپوليتيك»، الانفتاح على «الشرق». مستشار برانت، هل أنت مقتنع بما حققتَه من خلال سياسة «الأوستپوليتيك» العائدة لك؟

ڤ. ب.: تقريباً. حين أنظر للوراء، أجد نقطتين أو ثلاثاً ربما كان يجدر بي أن أتعامل معهما بنحو مختلف. إنما ليس بطريقة مختلفة تماماً. على العموم، أنا سعيد إلى حدّ ما كي أحدّث نفسي بأني أتمنى ألا أشعر أني مغرور جداً بوصفي رجلاً شيخا. أوه، انتبهي، لا يوجد هنالك موقف تستطيعين أن تُحدّثي نفسكِ قائلة «لم يكن باستطاعتي أن أفعل أحسن من ذلك». بالإضافة إلى هذا، إن امرءاً، أيَّ امرئ،

(1) علاقات ودية في الداخل: هنا يعني برانت علاقات ودية بين ألمانيا الغربية وألمانيا الديمقراطية (الشرقية) – م.

لا يعمل وحده ما يقوم به هو عموماً نتيجة عملية ضخمة يجد نفسه منخرطاً فيها. ومع ذلك... قبل وصولكِ، كنتُ هنا مع سفيري لـ (الأمم المتحدة)، وكان يُخبرني بأشياء جميلة ومتملّقة بخصوص اتصالاته بالسفراء الآخرين. من بينها اتصالاته بسفراء (أوروبا الشرقية). إنهم يعتقدون أني حققتُ أشياءَ كثيرة ويرومون أن يقدّموا لي استقبالاً جيداً في أثناء رحلتي المرتقبة إلى نيويورك. حسناً، هذا الأمر سرّني. أعني أني سعيد جداً بمعرفة أنهم لن يرموني بالأحجار.

أ. ف.: إنهم لم يرموك بالأحجار حتى في (إيرفورت)، حين ذهبتَ إلى (ألمانيا الشرقية). كيف أحسستَ أمام ذلك الحشد الذين يصفقون لك بحماسة بالغة؟

ف. ب.: كنتُ مُستثاراً جداً لكنني أيضاً كنتُ خائفاً. خائفاً عليهم، بسبب المجازفات التي يقومون بها كونهم سمحوا لأنفسهم أن يتصرّفوا بهذه الطريقة. لم أفعل شيئاً لكنني أعطيتهم إشارات كي لا يُصبحوا فرحين جداً. هذا الأمر خطير عليهم.

أ. ف.: هذا الشيء يخوّلني أن أطرح عليكَ سؤالاً أود أن أضعه لأيّ رجل أو امرأة في السلطة. هل تعتقد أنّ التاريخ يتغيّر لأن فرداً ما يظهر في مكان ما بدلاً من فرد آخر؟ بمعنى آخر، هل تعتقد أنّ ألمانيا اليوم ستكون هي نفسها لو لم يظهر ڤيلي برانت؟

ف. ب.: أعتقد أنّ الأفراد يلعبون دوراً محدداً في التاريخ. إلا أنني أعتقد كذلك أنّ الأوضاعَ هي التي تجعل إحدى المواهب تظهر بدلاً

مـن موهبة أخـرى. موهبة كانت موجودة أصـلاً، وهذا شيء جليّ. سأعطيكِ مثالاً. لو لم تندلع (الحرب العالمية الثانية) في العام 1939، لـو لم يكـن (الحلفاء) غير مسـتعدين تماماً، لو أنه بعـد غزو النرويج والدنمارك لم يشن هتلر هجومه على هولندا، بلجيكا، وفرنسـا، ماذا سيحلّ بِونسـتن تشرشـل؟ هل سيكون رجلاً استثنائياً على السواء، أو أنـه لن يكـون بالأحرى أجنبيًّـا متشكِّياً نوعاً مـن عادته أن يرفع صوته؟ ما حصل قد حصل، وفي اللحظة الحاسمة، بما أنّ تشرشل لم يكن مُسنًّا جداً، كان البريطانيون قادرين على أن يحتشدوا من حوله وتكون لديهم حَسَـنة قدرته الجبارة. لكن ماذا يعني هذا؟ هل يعني أنّ أهميـة تشرشـل ستكون هي نفسـها حتى إذا لـو أنّ تلك الوقائع حصلت بعد مضي خمسـة أعوام، أو يعني أنّ أهمية تشرشـل ستكون أقـل لـو أن تلـك الأحداث جرت بعد خمسـة أعـوام؟ لا، ليس من السـهل أن تعرفي مـا إذا نقوم، ونحـن نجد أنفسـنا في وضع معين، بأشـياء لـن يكون أحـدٌ ما سوانا قـادراً عـلى القيام بهـا. ديغول قام بأشياء لا أحدَ سواه في فرنسا كان باستطاعته القيام بها. وعلى الرغم من ذلك أقول إنه وضعٌ معين يجب أن يُوجد، أفراد معينون يجب أن يُوجدوا في اللحظة ذاتها على غرار ذلك الوضع. إذا التقى الفرد مع الوضع، عندئذ تبدأ الآلية التي بواسطتها يسلك فيها التاريخ اتجاهاً واحداً بدلاً من اتجاه آخر.

أ. ف.: شيء غريب أنكَ أشرتَ إلى ديغول، الرجل الذي أخّر ولادة أوروبا.

ف. ب.: ديغول رجلٌ عظيم، الرجل الوحيد الذي استطاع أن يُحرِّر فرنسا من عُقدة الدونية التي سببتها لها (الحرب العالمية الثانية). الشخص الوحيد الذي تمكن من أن يجعل منها (أي فرنسا) قوة عظمى من أجل الشرف[1]. لو نظر المرء إلى أوروبا بمفهوم (ولايات متحدة) من (أوروبا)، فمن المؤكد أنه لن يكون داعماً. إلا أنّ الحقيقة المُدهشة الباقية هي، في ظله، (المجموعة الأوروبية) مضت إلى الأمام بدلاً من أن تتفكك. كان بمستطاعه أن يُوقفها وبدلاً من ذلك جعلها تستمر. علينا ألا نضع اللوم كلّ اللوم عليه. وحين نتحدّث عن سياسة «الأوستپوليتيك»...

أ. ف.: «الأوستپوليتيك «هي برانت، لأنه برانت الذي مضى إلى (الشرق).

ف. ب.: نعم، إلا أنني لا أنكر أنّ شخصاً آخر كان بالمستطاع أن يطوّر سياسة شبيهة بسياستي. حتى لو أنني لم أبدأ تلك السياسة في العام 1967 و1968 لمّا كنتُ وزير خارجية، شخصٌ آخر كان سيقوم بذلك تالياً. ما لم يحدث ذلك في ظل ظروف مواتية بنحو أقل. كان لا بدَّ أن تُنجز، وإلا لظلت ألمانيا في زاوية وفي تناقض مع السياسة التي اتخذتها أصلاً معظم حليفاتها الأهم. أي (الولايات المتحدة) و(فرنسا). أوه، صدّقيني، الفرد ينبغي أن يكون هناك إنما ينبغي أن يكون الوضع هناك أيضاً.

(1) من أجل الشرف: وردت باللاتينية في النص الإنكليزي honoris causa – م.

أ. ف.: هذا تقريباً جدال ماركسي. مستشار برانت، كنتَ ماركسيًّا إبان شبابك، أليس كذلك؟

ف. ب.: أعتقد أنني كنتُ كذلك. إلا أنني لستُ متأكداً من أنني عملتُ بدأبٍ كافٍ كي أصبح ماركسيًّا حقًّا. إنه لشيءٌ سيِّئ جداً. كان عليّ أن أصبح هكذا. لأنه كي أكون ماركسيًّا وأنا شاب هو استعداد ممتاز لأن أصبح اشتراكيًّا جيداً لّما تكبر سنِّي.

أ. ف.: على كلّ حال، كنتَ اشتراكيّاً يساريّاً. طيب. ماذا بقي فيك من الاشتراكية التي حلمتَ بها حين كنتَ شاباً هائجاً ومتحمساً؟

ف. ب.: أنظري، إن شطراً كبيراً من تلك الاشتراكية أصبح واقعاً. إذا ما قارنتُ الظروف التي عاش فيها الناس يومئذ مع التي يعيشون فيها الآن، عليّ أن أستنتج إنّ شطراً كبيراً من الأمن المادي قد تحقق. ما بقي كي يُنجز اليوم هو الالتزام الدائم للاشتراكية. ليس فقط ما يتصل بالرواتب، وهي مهمة أيضاً، بل ما يتصل بتقوية الشخصية الإنسانية. لا أعرف ما إذا أوضحتُ ما أعنيه. يتعين على المرء أن يعرف ماذا يفعل بحياته. و... كما تعرفين، إبان شبابي لم أكن أعرف أنّ الاشتراكية هي التزام دائم. كنتُ أعتقد أنّ الاشتراكية شيء يمكننا أن نطبقه وبعدها، بالأحرى، نُجري عليه التحسينات. بدلاً من ذلك إنها شيء أكبر، أكبر بكثير. إنها طريقة في مزج الحرية والعدالة والتضامن في التزام لا ينتهي أبداً. الاشتراكية أشبه ببحّار يتعلّم بسرعة شديدة أن يكون بحّاراً، مع أنه لا يزال مجرد فتى غضٍّ ولم يسبق له أن رأى البحر. لأنه في رحلته البحرية الأولى، يكتشف

البحَّار أنّ الأفق ليس خطاً فاصلاً. ولمّا تتحرك السفينة، يتحرّك الأفق أيضاً على الدوام يتحرّك أبعد، على الدوام يتحرّك أبعد، إلى أن يصبح آفاقاً كثيرة جداً وهي آفاق جديدة على الدوام. أوه، نعم. هكذا أرى الاشتراكية أشبه بأفق لن نصل إليه أبداً وهو أفق نحاول دوماً الاقتراب منه.

أ. ف.: مستشار برانت، إلى أيّ درجة تأثرتَ بالاشتراكية الاسكندينافية؟ أو بالأحرى، هل تأثرتَ بها؟

ف. ب.: نعم، بالطبع. خذي بلداً من مثل النرويج. وهو بلد كان مهمًّا جداً بالنسبة لي. إنّ واحدة من أفضل التجارب التي تسنى لي أن أعيشها هي تجربتي في النرويج، لأنه في النرويج الفلاحون لم يكونوا عبيداً قطُّ. الحركة الفلّاحية تبقى في قاعدة ديمقراطيتهم الحديثة و... هذا بطبيعة الحال أثّر فيّ. هناك اكتشفت العناصر الليبرالية التي لا يمكن من دونها أن توجد اشتراكية إنسانية.

أ. ف.: مستشار برانت، أعرف أن أكبر أبنائك ماوي و...

ف. ب.: أوه، إنه لا يسمي نفسه ماويّاً. يقول إنه ماركسي وربما ماركسي لينيني. هو الآن في سن الخامسة والعشرين، رجل بالغ، ولم يعد يمثل الثائرين الشبان الذين يسمون أنفسهم ماويين. حتى إذا كانت آراؤه مختلفة بكلِّ معنى الكلمة عن آراء أبيه.

أ. ف.: السؤال الذي تهيأتُ لأن أطرحه عليكَ لا يزال قائماً على الرغم من ذلك. هل تجد لدى شبيبة اليوم جحوداً معيناً، أو عمىً

معيناً تجاه ما تم إنجازه كي يكون بوسعهم أن يعيشوا في عالم أفضل؟

ف. ب.: لا. أود أن أعبّر هكذا. لأن الشبيبة اليوم لا يقارنون بين واقع اليوم وبؤس الأمس. البؤس، على سبيل المثال، الذي كنا غارقين فيه خلال الحرب وبعدها. السواد الأعظم منهم لم يكونوا قد وُلدوا بعد حين كنا غارقين في ذلك البؤس، ولهذا فهم يقارنون واقع اليوم باحتمالات الغد. أتفهمين ما أعنيه؟ إنهم لا يستخلصون، مثلنا، نحن الذين وُضع ما بحوزتنا اليوم في كفة واحدة من الميزان وفي الكفة الأخرى وضع ما كان بحوزتنا في العام 1945 والعام 1946. وبعدها نزن هذه الأشياء ونقول، «لقد أحسنّا صنيعاً، لقد أبلينا بلاءً حسناً». حين أتحدّث وجهاً لوجه مع شبيبة اليوم، أدافع عن منجزاتنا. أقول لهم، لا أحدَ منكم باستطاعته أن ينتزع فخرنا بأننا أنجزنا أشياءَ كثيرة. إلا أنني لا أتوقَّع منهم أن يتعاطفوا مع مشاكلي، بما أنها ليست مشاكلهم. والنتيجة هي إني أدافع عن أزمنتي وهم يدافعون عن أزمنتهم. وهذا الشيء يحدث مع أولادي أيضاً، مع حسنة أننا نتفادى الجدال. لم تكن بيننا نقاشات حامية كثيرة جداً، ينبغي لي القول، وكذلك لأني أمضيتُ وقتاً قصيراً جداً معهم... نادراً جداً في المنزل... لكن حين يأتي أكبر أولادي، المقيم في برلين، لزيارتي أو كي يقضي إجازته معنا، لا نتشاجر. وفيما يتصل بتحليل المستوى الأخلاقي الذي ينخرط فيه كلّ واحد منا، أختصر كلامي قائلاً: «مشكلتي ليست مشكلتكِ، ومشكلتكِ ليست مشكلتي».

أ. ف.: إنه لشيءٌ استثنائي أنّ السياسة لم تجعلك كلبيا، مستشار.

ف. ب.: لا، لا. أبداً. إنكِ يقيناً تجازفين إذا ما أصبحتِ كلبية حين تضطلعين بالسلطة. إلا أنني نجحتُ دوماً في التحكم بها ومن ثم التغلّب عليها.

أ. ف.: حتى حين هجم عليك أديناور بشراسة شديدة وشدد على الحقيقة القائلة إنك ابن غير شرعي، وإنكَ حصلتَ على الجنسية النرويجية، وإنكَ...

ف. ب.: في حقيقة الأمر تصرفَ أديناور بنحو سيِّئ جداً معي. وعلى الرغم من ذلك، بغرابة كافية، على المستوى الشخصي، لم يُظهِر أيَّ عداوة على الإطلاق. مع أنه قال هذه الأشياء القبيحة كلّها عني، كان لديه نوعٌ من التعاطف تجاهي. وأنا، مع أنني عارضتُ بقوة أساليبه وسياسته، كنتُ أضمر احتراماً كبيراً له. في أثناء الحملة الانتخابية لعام 1961، وتحديداً في وسط كلّ ذلك التشهير، دعاني إلى مكتبه. هنا، في هذا المكان تحديداً، كنا معاً، أنا وأديناور. أو بالأحرى، كنتُ أجلس في الموضع الذي تجلسين فيه الآن. قلت له مباشرة، «سيادة المستشار، هل يبدو بالنسبة لك شيئاً صحيحاً، هل يبدو ملموساً، أن تواصل حملةً انتخابية بالطريقة التي تُتابعها الآن؟» أجابني قائلاً، «لكن، سيادة رئيس البلدية! أنا لا أفهم أيّ شيء مما تقوله! هل تعتقد أنّ لديَّ شيئاً ما ضدك؟ لا يوجد أيّ شيء على الإطلاق! لو كان لديَّ شيء ضدك لكنتُ استدعيتك جانباً وسوف نتكلّم عنه». لذلك لم يكن لديَّ أيّ رد فعل. أو لا كما

كان رد فعلي أثناء الحملة التي شنها ضدي في العام 1957 والعام 1958. وعقب ذلك تكررت العملية ذاتها في العام 1965، وهذه المرة أُصبتُ بالجنون فعلاً. لم أعد أرغب الاشتراك في الانتخابات. قلتُ لحزبي[1]، «هذا يكفي. وضعتُ عبئاً ثقيلًا جداً على كاهلكم. من الأفضل أن أترك الترشُّح إلى شخص آخر. أنا أنسحب». وعند هذه النقطة بدأت الأشياء بالتحسن بالنسبة لي. غالباً يتعين عليكِ أن تُبطِّئي سيارتك أو تُوقفيها فعلاً كي تُسرعي. في العام 1966 عقد الحزب مؤتمره. وانتهى الأمر بدعم بالإجماع لصالح برانت، و...

أ. ف.: وأصبح برانت وزير خارجية، وعقب ذلك مستشاراً، وحتى بعدها حاز (جائزة نوبل للسلام). مستشار برانت، هل صحيح أنك بكيتَ لمّا سمعت النبأ؟

ف. ب.: لا، هذه مبالغة. لا. سمعتُ أنهم سوف يمنحوني الجائزة، ولمّا سلّمني أهلر، أحد مساعدي ورقةً تحمل النبأ، لم أقل شيئاً. أخذتُ الورقة، وضعتُها في أحد الأدراج، وواصلتُ كتابة بعض الملحوظات. اجتمع الـ (بوندستاغ)[2] في ذلك اليوم و... يقيناً

---

(1) حزب ڤيلي برانت هو (الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني). وكان برانت زعيم هذا الحزب بين عامي 1964 و1987 – م.

(2) بوندستاغ Bundestag: البرلمان الفيدرالي الألماني، وهو المجموعة الوحيدة التي ينتخبها الشعب الألماني على المستوى الفيدرالي كلّ أربع سنوات. بالطبع، برانت يُشير هنا إلى برلمان ألمانيا الغربية في وقت إجراء الحوار. البرلمان الألماني يضم الآن في دورته الحالية631 عضواً. تقع بناية البوندستاغ في وسط العاصمة برلين، بالقرب من بوابة براندنبيرغ الشهيرة – م.

كنتُ متأثراً. إلا أنني لم أبكِ على الإطلاق.

أ. ف.: هل أنكَ لا تبكي على الإطلاق؟

ف. ب.: نادراً جداً منذ أن أصبحتُ بالغاً. نادراً جداً. قد أشعر أني سعيد أو تعيس أو متأثر. أنظري... شأني شأن معظم النرويجيين، أنا عاطفي. رومانسي، إذا شئتِ. إذاً العاطفة ليست غريبة عليَّ، إلا أنني أحاول دوماً أن أُخفيها. أو السيطرة عليها. وأفضّل أن أضحك. بخاصة لمّا أشرب كأس نبيذ مساءً وأنا صحبة أصدقائي. أهوى سرد النكات. إنه ضعفٌ عائد لي. أجمع النكات كلّها وعادة أخترعها. المشكلة هي أنني عادةً أضحك عليها أكثر من الأشخاص الذين يستمعون إليها.

أ. ف.: هذا شيء لطيف للغاية، إنما يبدو لي أنه شيء مستحيل تقريباً أنّ باستطاعتكَ أن تتكلم عن (جائزة نوبل) بمثل هذا التجرّد. سياسيون غير كثيرين تسلّموا (جائزة نوبل) و...

ف. ب.: يرجع هذا إلى أنه لا يوجد سياسيون جيدون كثيرون، ولأن اللجنة ينبغي لها أن تكون شديدة الحرص كي لا تُغيظ أحداً. في حالتي، اختاروا اللحظة المناسبة، أعني، اللحظة التي يُغيظون فيها أقل عدد من الناس. في الواقع، على الرغم من (جائزة نوبل)، لا يزال لديّ أصدقاء كُثر. أجل، أنا أفهم. إنكِ تُريدين أن تعرفي ما إذا كانت (جائزة نوبل) هي الرضا الأعظم في حياتي. لا. إنها شيءٌ شجعني، إلا أنني لم أتفاعل حيالها بأن أرقص طرباً. لو أنني

مـررتُ على لائحة الأشـخاص الذين حازوا الجوائـز، وحتى حين أعتقـد أنّ (جائزة نوبل) تُعد الجائزة الأهـم، أنا... على كلّ حال إن إعطائي (جائزة نوبل للسلام) لا يشبه إعطاءهم الجائزة ذاتها لكارل ڤون أوسيتزكـي[1]. منحوهـا لـه حين كان في معسـكر اعتقال، وقد أخرجوه من معسكر الاعتقال ذاك لمجرد أن يستبقوه تحت الاعتقال في المسـتشفى حيث فارق الحياة. أوسيتزكي رمز، شـهيد. أنا حقيقةً لستُ شهيداً ولم أكن أعاني على الإطلاق حين حصلتُ على الجائزة.

أ. ف.: إني أقبـض عـلى كلمـة «أعاني»، مسـتشار برانـت. وسوف أسألك شـيئاً مـا وددتُ أن أسألك إياه منذ بدايـة الحوار. هل سبق لك أن عانيتَ من حقيقة عدم معرفتك مَن هو أبوك؟

ڤ. ب.: لا. لم أشـكُ من هذه الحقيقة، لا. بدلاً من أن تسأليني هل «عانيت»، كان بوسعكِ أن تسأليني هل «تأثرتَ «بها، عندئذ سيكون الأمـر مختلفاً. وأقول نعـم. لكن إذا أثّر فيَّ فعلاً، فهـذا يعود إلى أمد

(1) كـارل ڤون أوسيتزكـي Carl von Ossietzky: صحفي وناشـط سلام ألماني. على الرغم من فشل كارل في إكمال دراسته الثانوية إلا أنه استطاع أن يكون صحفيًّا وكانت المواضيـع التـي يكتبها تتعلـق بالنقد المسرحـي والأنثوية. عارض تسـلّح ألمانيا خلال السـنوات الأخـيرة مـن حكم فيلهلم الثـاني. في سنـة 1913 تزوج من امـرأة بريطانية تدعـى مود وودMaud Lichfield Woods وأنجبا طفلة واحدة. خلال جمهورية فايمار أصبح من مُسـاندي الديمقراطيـة والتعددية الحزبية وأصبح أمين عام مجتمع السـلام الألمـاني. في سنـة 1931 حُكـم عليه بالسـجن مدة سنـة بتهمة الخيانة العظمى بسـبب نشره معلومات تتعلق بإعادة التسـلّح العسكري السري لألمانيا. نقله هتلر إلى معسكر اعتقـال. حصل سنة 1935 على) جائزة نوبل للسـلام) ولكـن الحكومة الألمانية منعته من السفر إلى النرويج لتسلم جائزته. توفي سنة 1938 بمرض السل – م.

طويـل جداً بحيث أنني كدتُ أنسـى هذه المسـألة. بدأتُ منذ وقت مبكر جداً ببناء حياتي بنفسي. بدأتُ منذ زمن مبكر جداً أمتلك اسماً خاصاً بي، عائداً لي وحدي. إنها ليسـت مصادفة أني اعتبرتُ الاسم الـذي حملتُه باعتباره اسمي الحقيقي. حرفيًّا. ومن ثم إنه ليس شـيئاً صحيحـاً القول إننـي لم أكن أعرف مَن هو أبي. سأقول لكِ شـيئاً لم أخـبر به أحداً من قبل. أيَّ أحد... كنـتُ أعرف مَن هو أبي. أعرف اسمـه. إلا أننـي لم أكن أرغب بمقابلته. كـان لا يزال على قيد الحياة بعد نهاية الحرب. لكنني حتى في ذلك الحين لم أكن مهتمًّا بمقابلته.

أ. ف.: لماذا؟ تعبيراً عن استيائك؟ تعبيراً عن احترامك لأمك؟

ف. ب.: لا أعـرف. أنـا لا أبـالي بالتعليق عن موقفـي. أنا أعطيكِ الحقائق وهذا هو كلُّ ما في الأمر.

أ. ف.: أفهـم مـا تقول. وأنـا أعتقد أنه في ذلك الوقـت كانت أمك مهمة للغاية في حياتك.

ف. ب.: نعم. لمّا كنتُ طفلاً، صبيًّا، نعم. في الحقيقة، حين يسألوني «لمـاذا أصبحتَ اشـتراكيًّا؟» أجيبهم قائلاً: من خـلال أمي. مع أنها كانـت يافعـة جداً، ومع أنه كـان محظوراً على النسـاء أن يشتركن في الاجتماعـات السـياسية، كانت أمـي فعالة في حركة نقابـة التجارة. وهكـذا أنـا لم أُولد فقط في كنف الاشـتراكية والنقابيـة التجارية بل ترعرعتُ هناك أيضاً. بجذور قوية للغاية. هل تفهمين ما أعنيه؟ لا يرجع ذلك إلى فضلي. بل إلى فضلها.

أ. ف.: ربما أصبحتَ ڤيلي برانت لأنكَ تحديداً ليس لك أب وكان لديك أُمٌّ كهذه.

ڤ. ب.: هذا الشيء لا أعرفه. لم يسبق لي أن زرتُ محلِّلاً نفسانيًّا ولا يُمكنني أن أُجيبكِ. باستطاعتي فقط أن أقول إنه كان لديَّ الانطباع بأنّ هذا كلّه، بنحو غير واعٍ، كان له تأثير. أجل، كان يجب أن يكون له تأثير إلا أنني لا أعرف إلى أيّ مدى. فضلاً عن ذلك إذا ما نظرتُ إلى نفسي بوضوح تام، بوسعي أن أقول إنه موقفي تجاه الحياة قد تأثر بالقراءة أكثر مما تأثر بالناس. بالإضافة إلى أمي، بطبيعة الحال. فيما يتعلّق بسؤال «أيُّ كاتب، سياسي، كان له تأثير أكبر عليَّ؟» أجد أنه يصعب عليّ أن أعطي جواباً. أو بالأحرى، غير ممكن. وأختتم كلامي بالقول، «إني قرأتُ كثيراً، قرأت كثيراً جداً». إنني حتى لا أعرف كيف أربط تأثير ما قرأتُه مع الظروف التي وُلدتُ ونشأت فيها. غير أنّ ما هو أهم هو إنني لم أكترث بهذا التأثير. لستُ مُهتمًّا في جلب لا وعيي إلى السطح.

أ. ف.: مستشار برانت، هل أنت مُتديِّن؟

ڤ. ب.: هِم.... إن الطريقة التي أفسّر فيها الدين هي طريقة غير تقليدية بكلّ ما في الكلمة من معنى، إلا أنني لستُ مُلحِداً إن كان هذا هو ما تودِّين معرفته. لا، لستُ كافراً. أنا ببساطة أفسّر ما يُسميه الناس (الله) أو المسائل الخارقة للطبيعة بأسلوب مختلف عن أسلوب أولئك الذين يذهبون إلى الكنيسة. وأنا عادة

لا أود أن أتحدّث عنها، لأنـه... لأنه... باختصار، إنه شيء ضد طبيعتـي أن أكشف نفسي تماماً. لـن أفلح إذا ما حاولتُ أن أفعل ذلك.

أ. ف.: فهمـتُ هـذا فهـماً جيـداً، مسـتشار برانـت. لم يسـبق لي أن حاورتُ رجلاً متحفظاً ومتواضعاً جداً على غرارك. بمسـتطاع المرء أن يتكلّم معك عن كلّ شيء باستثناء ڤيلي برانت.

ڤ. ب.: عليكِ أن تتذكري أنني أنتسـب إلى البلطيق، وأنني نصف بحار، وتلك السـنوات التـي قضيتُها في النرويج كـان لها تأثير كبير علـيَّ. وكـي أغفر لنفسي، سأحكي لـكِ نكتة، نكتـة نرويجية بطبيعة الحـال، ربـما تكون مُختَرَعـة لي وحـدي. في جبل فوق زقـاق بحري أقـام فلاحـان. كـلّ واحد منهـما يقيم وحـده. وفي يوم مـن الأيام، أحـد الفلاحين مضى لزيارة الفلاح الآخـر. يدخل المنزل ولا يقول شيئاً. قلّما يومئ برأسه. وحتى الفلاح الآخر لم يفِه بكلمة. ولا حتى أومـأ برأسه. غـير أنه نظر صوب الخـوان، حيث كانـت هناك قنينة أكواڤيـت[1]. الفـلاح الذي أتـى للزيـارة يفهم. يذهـب إلى الخوان ويُخـرج قنينـة الأكواڤيـت؛ يأخـذ كأسـين. يضعهـما عـلى الطاولة. يسـكب الأكواڤيت. يبدأ الاثنان بالشرب. يشربـان بصمت، بتأنٍّ، كأساً إثر أخرى. لا يوجد حتى صوت نخر كي يقاطع هذا العرض الأخرس. لكن، في الرشـفة الأخيرة مـن الأكواڤيت، الفلاح الذي

---

(1) أكواڤيت aquavit: شراب اسكندينافي مُسْكِر – م.

جـاء للزيـارة يرفع كأسـه ويتمتم قائـلاً، «نخبـك». وعندئذ انفجر الآخـر قائلاً. «أيهـا اللقيط الأحمق! هل اجتمعنـا معاً كي نشرب أم كي نتحدّث كلاماً لا معنى له؟»

أ. ف.: لـن أقول لك «نخبك»، مسـتشار برانت. لكن هل بوسعي أن أقول إلى اللقاء وشكري الجزيل؟

الشخصيات التي حاورتها الكاتبة أوريانا فالاتشي

• **روبـرت كينـدي** Robert F. Kennedy (1925 – 1968): سياسي ومحامٍ أمريكـي، خـدم بصفـة النائـب العـام الرابع والسـتين للولايـات المتحـدة بـين سنتـيْ 1961 و1964، وسيناتـور أمريكي من 1965 حتى إغتياله في 1968. عضو بارز في (الحزب الديمقراطي)، على غرار شقيقيه جون وإدوارد.

• **ڤو نجوين جياب** Võ Nguyên Giáp (1911 - 2013) : جنرال في الجيش، خـدم في (جيـش ڤيتنـام الشعبي)، وسياسي. سُمـيّ ڤو نجوين جيـاب بوصفه أحد أكبر الاستراتيجيين العسـكريين في القرن العشرين. خدم كوزير دفاع ونائب رئيس الوزراء ما يقارب 44 عاماً.

• **هنري كيسنجر** Henry Kissinger (وُلد العام 1923): سياسي ودبلومـاسي ومسـتشار جغـرافي سيـاسي أمريكي، خـدم بوصفه وزير خارجيـة (الولايات المتحدة) ومسـتشار الأمن القومـي، في أثناء إدارة الرئيسـين ريتشـارد نيكسـون وجيرالـد فـورد. أصبح مسـتشار الأمن القومي في 1969 ووزير الخارجية الأمريكي في 1973. بسـبب إجراءاته في التفـاوض لوقف إطلاق النار في ڤيتنام، حصل كيسـنجر على جائزة نوبل للسلام العام 1973. كان عضواً في (الحزب الجمهوري).

• **غولـدا مائير** Golda Meir (1898 – 1978): رابع رئيس وزراء للحكومـة الإسرائيلية بـين 17 آذار/ مارس 1969 حتـى 1974. وهي

المـرأة الوحيدة التي تولت هذا المنصب. عملـت غولدا كوزيرة للعمل بـين سنتيْ 1949 و1956 وكوزيرة للخارجيـة بين عاميْ 1956 و1966 في أكثر من تشكيل حكومي.

• **ياسر عرفات** (1929 – 2004) : سياسي وعسـكري فلسـطيني وأحد مؤسسي حركة (فتح) وجناحها المسـلّح (العاصفة). وهو رئيس منظمـة التحرير الفلسـطينية منذ 1969 وحتى 2004، وثالث شـخص يتقلّـد هذا المنصب منذ تأسيسـها العام 1964. وهـو القائد العام لحركة (فتـح(أكـبر الحركـات داخل المنظمـة التي أسسـها مع رفاقـه في العام 1959. كـرس معظم حياته لقيـادة النضال الوطني الفلسـطيني مطالباً بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

• **مُعمّـر القـذافي** (1942 – 2011) : سياسي وثـوري ليبي، حكم ليبيـا لأكثـر من 42 عامـاً. خـدم أولاً كرئيـس لمجلس قيـادة الثورة في (الجمهوريـة العربية الليبية) بين سنتـيْ1969 و1977. صعد القذافي إلى السـلطة في إنقلاب عسـكري خلع عـبره الملك إدريـس، ملك المملكة الليبيـة في العـام 1969 وظـل رئيسـاً لمجلـس قيـادة الثورة حتـى العام 1977، عندما تنحى رسمياًّ من رئاسة مجلس قيادة الثورة ونصب نفسـه «قائداً للثـورة». قُتل في يوم 20 تشرين الأول/ أكتوبر 2011 على أيدي مقاتلي (جيـش التحرير الوطني)، إثر إندلاع ثـورات (الربيع العربي)، وانتهى حكمُه الذي امتد ما يزيد على أربعة عقود.

• **محمـد رضا پهلوي** Mohammed Riza Pahlavi (1919 – 1980): هـو الابن الأكبر لرضا بهلوي الذي حكم إيـران في المدة ما بين 1925 و1941،

وقد نودي به وريثاً للعرش العام 1926. وكان آخر شاه (ملك) يحكم إيران قبل قيام الثورة الإسلامية 1979، واستمر حكمه من 1941 حتى 1979. كان يُلقب بـ «شاهنشاه» أي «ملك الملوك».

• **آيـة الله خمينـي** Ayatollah Khomeini (1902 – 1989): رجل ديـن ومرجع ديني وفيلسـوف وكاتب وسياسي شـيعي إيـراني؛ مؤسس (الجمهورية الإسلامية الإيرانية) وقائد الثورة الإسلامية العام 1979 التي شـهدت الإطاحـة بالملكية البهلوية ومحمد رضا بهلـوي، الشاه الأخير في إيران والذي سبقه الشاه رضا پهلوي. بعد الثورة، أصبح روح الله خميني المرشـد الأعلى لإيران بـين سنتيْ 1979 و1989، وهـو منصب تم إنشاؤه في دسـتـور (الجمهورية الإسلامية الإيرانية) كأعـلى سلطة سياسية ودينية للأمة. خلفه علي خامنئي في 4 حزيران/ يونيو 1989.

• **أنديرا غانـدي** Indira Gandhi (1917 – 1984): سياسية هندية، المرأة الوحيدة التي تولت منصب رئيس وزراء الهند حتى الآن وقد شغلته ثلاث فـترات متتاليـة (1966 – 1977) والفترة الرابعـة (1980–1984)، انتهت باغتيالها على يد أحد المعارضين السيخ المتطرفين. وقد كانت رئيسة حزب (المؤتمر الوطنـي الهندي(والشخصية المحورية فيه. هي ابنة جواهر لال نهـرو أول رئيس وزراء للهنـد بين سنتـيْ 1947 و1964.. اشـتهرت أنديـرا غانـدي بميلها نحو فكرة عدم الانحيـاز في نطاق التعاون مع جمال عبد الناصر والمارشال تيتو.

• **أريـيـل شـارون** Ariel Sharon (1928 – 2014): جنـرال في الجيـش الإسرائيلي وفي فترة رئاسة مناحيم بيغن للحكومة الإسرائيلية،

وتحديداً في العام 1982 عمل شـارون وزيراً للدفاع. وهو.رئيس وزراء إسرائيـل والحكومة الإسرائيلية الثلاثين بين سنتيْ 2001 و 2006. كان اسم عائلته الأصلي (شاينرمان) وكان والداه من اليهود الأشكناز الذين هاجروا من شرقي أوروبا. يُعد شـارون من السـياسيين والعسـكريين المُخضرَمـين عـلى السـاحة الإسرائيليـة، ورئيس الـوزراء الحادي عشر للحكومة الإسرائيلية.

• **دينـغ شـياوبينغ** Deng Xiaoping (1904 – 1997): سياسي ومنظّر وقائد صيني، في عهد رئاسته للبلاد، قاد الصين بين سنتيْ 1978 و1992 نحو تبني اقتصاد السوق. تولى قيادة) الحزب الشيوعي الصيني(بعد إطاحته بهوا جيـو فينـغ. كان القائد الأعلى لـ (جمهورية الصـين الشعبية) بين سنتيْ 1978 و1989. بعـد وفاة مـاو تسي تونع العـام 1976، ارتقى شـياوبينغ تدريجاً إلى السـلطة العليا وقاد الصـين عبر اصلاحات اقتصاد السـوق واسعة النطاق، مكتسباً سمعة «مهندس الصين الحديثة».

• **الحسـين بن طلال** (1935 – 1999): ملك الأردن الثالث. تولى الحكـم من الحادي عشر من آب/ أغسـطس العام 1952 حتى وفاته في السابع من شباط/ فبراير العام 1999. وبعد أن تولّى الملك طلال حكم المملكة الأردنية الهاشـمية العام 1951، سُمِّي الحسـين وليًّا لعهد مملكة الأردن. بعـد ذلك، عـزلَ مجلس النواب الأردني الملـك طلال بعد عام مـن توليـه الحكم؛ نظـراً لمرضه آنذاك، ممـا حدا بالمجلـس تعيين مجلس وصايـة عـلى العرش حتى يبلغ الحسـين السـن الدستوريـة للحكم؛ إذ اعتلى العرش وهو يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً فقط، وذلك في الثاني

من أيار/ مايو من العام 1953. وقد حكم الحسين الأردن ذات النظام الملكي الدستوري لأطول مدّةٍ بين أفراد أسرته الذين توّجوا ملوكاً للأردن أو للعراق منذ 1920.

• **ڤيلي برانت** Willy Brandt (1913–1992): رجل دولة وسياسي ألماني، كان زعيم) الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني (SPD) (من 1964 إلى 1987 وشغل منصب (مستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية) (ألمانيا الغربية)، بين سنتيْ 1969 و 1974. حصل على جائزة نوبل للسلام العام 1971 لجهوده في تعزيز التعاون في أوروبا الغربية من خلال المجموعة الاقتصادية الأوروبية وتحقيق المصالحة بين ألمانيا الغربية وبلدان أوروبا الشرقية. وكان أول مستشار من (الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني) منذ العام 1930.

مكتبة .. سر من قرأ

telegram @soramnqraa

المترجم

ولد **علي عبد الأمير صالح** في مدينة الكوت - واسط سنة 1955. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين. نال جائزة وزارة الثقافة العراقية في الترجمة سنة 2000، وفي الإبداع الروائي سنة 2009، وجائزة دار الشؤون الثقافية العامة في النقد الأدبي سنة 2009، وجائزة الإبداع العراقي/ وزارة الثقافة والسياحة والآثار لعام 2017، في حقل الترجمة. من ترجماته المنشورة: الطيور الحُمر (بيروت 2021)؛ طقوس فارسية - سووشون (بيروت 2021)، الآثم المقدس (بيروت 2021)؛ في ضوء ما نعرفه (بيروت 2021)؛ بواكير الأدب الإفريقي (عمّان 2021)؛ مختارات قصصية من الأدب الإفريقي (عمّان 2021)؛ أمس واليوم وغداً: حياتي، مذكرات صوفيا لورين (بيروت 2020)؛ نادني الأمريكي، مذكرات عبدي نور إفتين (بيروت 2020)؛ قبل أن نزور الإلهة (الكويت 2019)؛ فريدا: سيرة حياة فريدا كاهلو (بيروت 2019)؛ في أمريكا (بيروت 2019)؛ «طقوس» (بيروت 2019)؛ العمى (بيروت 2018)؛ المطيرچي (بيروت 2018). من أعماله المنشورة: الهولندي الطائر (قصص، دمشق 2000)؛ يمامة الرسام (قصص، بيروت 2010)؛ خميلة الأجنة (رواية، بيروت 2008)؛ أرابيسك (رواية، عمّان 2009)؛ ثقافة واسط: الماضي والحاضر (جزأين) (دمشق 2017)؛ العوالم الثلاثة: تجربتي في الكتابة والترجمة والنقد (دمشق 2018).

مكتبة

English Version

هذا الكتاب الشيّق يضم حوارات مع زعماء وشخصيات مهمة في تاريخنا المعاصر، وهم على التوالي: روبرت كينيدي، ڤو نجوين جياب، هنري كيسنجر، غولدا مائير، ياسر عرفات، معمر القذافي، محمد رضا پهلوي، آية الله خميني، أنديرا غاندي، أرييل شارون، دينغ شياوپينغ، الحسين بن طلال، وڤيلي برانت.

هؤلاء الأشخاص الذين حاورتهم الصحافية والكاتبة الإيطالية المثيرة للجدل أوريانا فالاتشي كانوا يتوّجسون خِيفة منها، بحيث إننا نشعر أنهم يحسبون حسابَ كلّ كلمة يقولونها، ويفكرون ملياً في كلّ جوابٍ يُدلون به. إنهم لا يثقون بالمراسلين الصحافيين، وغالباً يُخفون الحقائق، أو لعلهم يذكرون أنصاف الحقائق، ويخفقون دوماً في ذكر ما هو حقيقي، وما يجري فعلاً، ويختارون بدلاً منه الصمت المناسب، أو التذّرع بضيق الوقت، وكثرة الانشغالات، ويحاولون دوماً الدفاع عن أنفسهم ومشاريعهم وتوجهاتهم الفكرية ومبادئهم السياسية، كما يسعون دوماً إلى عدم الاستفاضة في التفسير، لأن الصحفيين كما يقول هنري كيسنجر، يسألوننا هل أنّ المريض عليل. إنهم فضوليون، على الدوام، وينشدون دوماً استخلاص معلومة مثيرة، جديدة، كي يحققوا سَبقاً صحفياً، وكي يكتسب ذلك الصحفي أو تلك الصحفية شهرةً وانتشاراً، وكي تبيع الجريدة نسخاً أكثر من مطبوعها اليومي أو الأسبوعي . ولا غرابة أن يقول لها أرييل شارون: "لم يسبق لي أن سمعتُ افتراءً كهذا، شتائم كثيرة جداً . إنكِ تشوّهين سمعتي، إنكِ تكيلين لي الشتائم!".
اعترف معمر القذافي وكذا آية الله خميني أنّ المواضيع التي تتناولها في أسئلتها مواضيع مُزعجة ومُتعبة، وكانوا يتمنون أن تسألهم عن مواضيع أخرى، وليست تلك التي تحرجهم فيها، وتستفزهم، بحيث أنهم في كثير من الأحيان يردّون عليها بأجوبة قاسية وعنيفة.

ISBN: 978-9922-628-35-6
9 789922 628356

SUMER
Printing, Publishing&distribution

سطور
دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com

telegram @soramnqraa